

المكتبة التاريخية

عصر الخلفاء الراشدين

التاريخ الديني ، والسياسي ، والحضاري

تأليف

الدكتور عبد الحميد نخيت

استاذ بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر



دارالمعارف بمطر

المكتبة التأديبية

عطر الخلفاء الى انفسكم

التاريخ الديني، والسياسي، والحضاري

تأليف

الحمد لله رب العالمين

SEBASTIEN ALEXANDRINA
جامعة الأزهر



دارالمخارف بطر

الطبعة الثانية

1970

فاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك
نستعين . إهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب
عليهم ولا الضالين .

مقدمة الطبعة الثانية

منذ صدرت الطبعة الأولى في عام ١٩٦٣ لهذا الكتاب ، وأحسننا بضرورته لطلاب التاريخ والثقافة الإسلامية بما وصلنا من خطابات ، وما شهدناه من إقبال شديد على دراسة ما بسطناه من حقائق جديدة ومناقشات عديدة لمن تصدوا للتأليف في هذا العصر ورجاله ، وحضارته ، ولا سيما أولئك المستشرقين ، وأشباه المستشرقين من ذوى المراهقة الفكرية في الإسلام وتاريخه ، حتى ولو اشتهرت أسماؤهم في بعض الأوساط ، أو بسبب انتمائهم إلى بعض الطوائف من ذوى الصبغة السلوكية والادعائية الخاصة ، ونحن نوالى البحث والدرس ، والمراجعة حتى نقدم تصحيحا أو جديدا من الدراسات ، تليق بجلال هذا العصر ، الذى هو - بدون ريب - مثل أعلى للبشرية كلها منذ أقدم العصور حتى كتابة هذه السطور .

وحسبنا للاستطراد نبادر إلى القول : إن هذه الطبعة قد أضيف إليها ثلاثة فصول كبار ، أحدها فى الحضارة الإسلامية ومقوماتها وملاحمها ، وأسفارها عن المثالية الحقّة فى الحرية والعدالة والمساواة ، أو بعبارة العصر ، فى الاشتراكية والديمقراطية والايجابية على جميع المستويات .

أما الفصل الثانى من الجديد ، فقد جعلناه لدراسة « جمع القرآن » إبان عصر الراشدين ولم ننس أن تقدم تعريفا — ولو كان موجزا — لأولئك الرجال الذى فتحوا الدنيا ونشروا مبادئ الدين الإسلامى ، وثقافته وحضارته فى أقطار الأرض ، وقد كان هذا ما اشتمل عليه الفصل الثالث من الإضافات إلى الطبعة الأولى ، وهى محتويات القسم الثانى .

أما القسم الأول من الكتاب ، فلم يحدث فيه تعديل كبير ، بل ظلت جملة أبوابه وفصوله كما كانت في الطبعة الأولى ، باستثناء تعقيب واحد عن المقوقس ، اقتضته أمانة البحث العلمي ولكن ذلك لم يغير من أمر الحقيقة القيرسية^(١) شيئاً .

ولا يفوتنا في هذه المناسبة أن نقدم واجب الشكر لجميع الذين تفضلوا ببذل المعونة لنا أثناء البحث والمراجعة سواء بتقديم ما في اختصاصهم من مراجع ووثائق ، أم في تنظيم الفهارس والرسوم ونخص بالتقدير السيد الاستاذ كامل كامل أمين مكتبة كلية أصول الدين ، والسيد الاستاذ مدير مطبعة لجنة البيان العربي ، وسائر الأصدقاء والزملاء ، شاكرين لمؤسسة دار المعارف والسادة المشرفين على إدارتها معونتهم الصادقة في إخراج هذا الكتاب^(٢) .. والله ولي التوفيق

(١) الحقيقة القيرسية ، هي حقيقة قيرس (المقوقس) وهل هو زعيم القبط أم كان نائب الإمبراطور البيزنطي . لأنه على أية حال كان أمير مصر للدولة البيزنطية . وقد شرحنا ذلك بالتفصيل في موضعه في فتح مصر ، وفي التعقيب .

(٢) في عام ١٩٦٤ شرعت بعض دور النشر في لبنان في ترجمة القسم الأول من عصر الراشدين ، وكتاب ظهور الإسلام ، إلى الإنجليزية والألمانية والفرنسية .

مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لعصر الخلفاء الراشدين في نفوس المسلمين ، تقدير خاص ، لا يتمتع به عصر آخر في تاريخ الإسلام ، اللهم إلا عصر النبوة الصافي .

ولكن العجيب في أحداث هذا العصر ، أنها لم تصل إلينا محررة من الزيف والافتراء ، بل والتناقض الذي يبدو واضحاً في تلك الروايات والمدونات التي لا تكاد تحصى .

ولذلك ، فإن الصعوبات الهائلة قد تواجه الباحث في تاريخ ذلك العهد ، وتجعله أحياناً في حيرة شديدة أمام خضم الأخبار التي تحكي حادثة معينة ، بعدة أوضاع ، وأساليب ينبو كثير منها حتى عن مشارب العرب ، وآداب الإسلام بله الحقيقة التاريخية التي قررها المحدثون ، وفقهاء السلف ، وتعتقد بها جماهير الشعوب الإسلامية في جميع أنحاء الأرض ، إذ نقلت إليهم بالتواتر العملي ، الذي لا يعرف الكذب أو التزييف ، أو الكيد .

وعلى سبيل المثال ، يؤمن المسلمون جميعاً على اختلاف مذاهبهم في الأصول والفروع ، بأن القرآن نزل قبل الهجرة النبوية ببضعة عشر عاماً ، كما يرى جمهور الأمة أن أمر الخلافة ورياسة الدولة شوري ، وأنه لا وراثة ولا وصية ولا شيء مما يناط بالنظم الملكية أو الامبراطورية ، في الدولة الإسلامية ، وإنما الأشبه بنظامها ، هو النظم الجمهورية في أمثل صورها ، وأنقى أشكالها .

وبالرغم من هذه الحقيقة الثابتة ، فإن السبئية تمكنوا من تلقين الأغراب

والسذج أن رئاسة الدولة قد أوصى بها النبي (ص) إلى علي بن أبي طالب ، وأنها مسألة منصوص عليها في القرآن ، وأن عثمان قد انحرف عن ذلك وبدل النصوص الدينية ومن ثم ثارت الأمصار عليه ، وهاجمت العاصمة وخلصت الدولة منه ، ومن تحريفه ؟

إن مثل هذا الافتراء ، تفيض به المصادر التاريخية التي ألفت إبان حكم الروافض وغلاة التشيع الشعبي في العالم الإسلامي ، ثم وصلت هذه المزاعم إلى المستشرقين في العصر الحديث ، فنقلوها في أسفار كبيرة ، ومجلدات ضخمة وكان ذلك إبان إغراق المسلمين في رواسب النزاع الديني والتخاصم السياسي والأمية الثقافية والعلمية .

وأخيراً وبعد عصر اليقظة الراشدة التي أسفرت عن مباهاجها في أوائل القرن الحالي قام المثقفون بتعريب كتب المستشرقين في تاريخ الإسلام وحضارته وتدريسها في المدارس والجامعات العربية والإسلامية ، وقد كان ذلك مرحلة لا بد منها في محاولة الاطلاع على تاريخ السلف الصالح لهذه الأمة .

بيد أن ذلك نجم عنه أثر عكسي ، إذ أن المستشرقين لم يستقوا الأخبار والحقائق التاريخية من مصادر تعتبر موضع ثقة من المسلمين ، بل هي محل شك وارتياب منهم وليست معروفة للجماهير التي وصلت إليها الحقائق بالتواتر العملي جيلاً عن جيل .

ولهذا ، فقد حدث التضارب والتناقض بين المثقفين بثقافة المستشرقين ، وتلاميذهم ، وبين الجماهير التي لا تعرف من تاريخ الأسلاف ، إلا ما تلقته عن المسلمين الأولين ، وهنا حدثت فجوة عميقة الغور ، بين الأقلية الضئيلة جداً من خريجي الجامعات وبين الكثرة الساحقة من جماهير الشعب المتدين إلى درجة التعصب .. وهذا في الواقع هو أول الطريق في العمل على إصلاح الأوضاع وإزالة التناقض الملحوظ بين طوائف الأمة الواحدة ، لبناء مجتمع متماسك سليم .

(٢)

من عادنى حين أشرع فى دراسة موضوع ما ، أن أقرأ كل ما كتب فيه مما يقع تحت يدى أو مما قد يوجد فى بلاد نائية إذا تيسر الحصول عليه .

ولقد قرأت فى بعض المؤلفات التى تدرس فى الجامعات العربية هذه العبارة « القرآن : هو الكتاب المقدس ، ظهر فى السنين الأولى من الهجرة ^(١) » .

وقرأت لنفس المؤلف — وهو أستاذ للتاريخ الإسلامى تلك العبارة وفى نفس الكتاب المذكور « وقد وجد بنو هاشم لهم داعية جريثا فى شخص رجل يعرف باسم عبد الله بن سبأ ويتلقب بابن السوداء . فقد اتهم عثمان بتبديل بعض السور التى تشير إلى وصية النبی لعلی فى إمامة المسلمين » .

وهكذا نجد بعض الكتاب المعاصرين ، يهتمون عثمان بن عفان أحد صحابة رسول الله (ص) وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد السابقين الأولين من المهاجرين . بأنه انحرف ، واركب بنى معيط وأمية رقاب المسلمين ، وأنه تصرف فى أموال الأمة تصرف الظالمين ، فأعطى الأموال لأقاربه وأصهاره وحاشيته فنجم عن ذلك كله تلك الأحداث ، التى كان هدفها الإصلاح ، ومناهضة الفساد ، ولكن من سوء حظها أن تساق معاوية بن أبى سفيان إلى منصب الخلافة .

ومع أن هذه الأفكار ليست عربية ولا إسلامية ، فإن بعض الكتاب فى الأدب العربى والتاريخ الإسلامى ، قد أثبتوا ذلك فى مؤلفات لهم على أنه حقائق لا ريب فيها ولعل من هؤلاء من زعم أن السبئية إنما ثاروا لتحقيق عدالة الاسلام واستقامة سياسة الدولة ؟

(١) التاريخ السياسى لعبد النعم ماجد .

ومن البدهيات لدى جماهير المسلمين ، أن ما حدث إبان عهد عثمان لم يكن ثورة هادفة ، وإنما كان «فتنة» ومؤامرة دبرها أعداء الدين والدولة بقصد تمزيق وحدة الأمة الإسلامية حتى يمكن القضاء عليها بأيدي أبنائها أنفسهم وهذا هو الذى يدين به جمهور المسلمين وهو الذى حققه المحدثون والعلماء ، والمؤرخون العرب والمسلمون ، فهؤلاء جميعاً وعلى رأسهم الصحابة والتابعون وأتباع التابعين ، وسائر المسلمين قديماً وحديثاً على أن الذى كررت به الأمة فى أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، كان فتنة ومؤامرة اشترك فى تديرها اليهود والفرس والروم ، وسائر أعداء الدولة الإسلامية . وفرق ما بين الفتنة والثورة ، كما أن ثمة فرقاً بين الظلام والنور ، وبين ضلال التآمر ، وهدى الإصلاح الثورى وقد بسطنا هذه المسألة فى باب خاص من هذا القسم . وناقشنا تلك المهارات الخطيرة التى أسرف فيها من كتبوا فى عدالة الاسلام ، وتقويم الحكم فى خلافة عثمان .

فهرس الموضوعات

القِسْمُ الْأَوَّلُ

المقدمة

الباب الأول

دراسات عامة عن الخلفاء الراشدين

صفحة

| | |
|----|--|
| ٣ | الفصل الأول — أبو بكر الصديق |
| ٣ | سيرته قبل الإسلام |
| ٦ | أبو بكر بعد الإسلام |
| ٩ | خصائصه وأخلاقه |
| ١٢ | الفصل الثاني — الموقف العربي قبل السقيفة |
| ١٢ | في غزوة تبوك |
| ١٦ | أبو بكر أمير الحج سنة ٩ هـ |
| ١٧ | سقوط الرجعية والوثنية |
| ١٩ | ابن أبي |
| ٢٠ | قصة الوفود وهدم الأصنام |
| ٢٠ | وفود العرب إلى رسول الله |
| ٢١ | بنو تميم |
| ٢٣ | وفد طيء |
| ٢٣ | عبد القيس |
| ٢٣ | البحرين |

| | |
|----|---|
| ٢٤ | مسيلة وبنو حنيفة |
| ٢٤ | تحطيم الأصنام |
| ٢٥ | صنم مناة |
| ٢٥ | حجة الوداع |
| ٢٧ | الفصل الثالث — مؤتمر السقيفة |
| ٢٧ | تمهيد |
| ٣٠ | وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم |
| ٣٢ | مؤتمر الأنصار |
| ٣٢ | سقيفة بني ساعدة |
| ٣٣ | ما دار في المؤتمر |
| ٤٤ | الفصل الرابع — مؤتمر المسجد، وموقف كبار الصحابة |
| ٤٧ | اشترأ كية أبي بكر |
| ٤٧ | موقف علي بن أبي طالب |
| ٥١ | حديث الأئمة من قريش |
| ٥٣ | شبه المستشرقين |
| ٥٥ | مناقشة هذه المزاعم |
| ٦٠ | الفصل الخامس — حركة الردة |
| ٦٣ | بعث أسامة |
| ٦٦ | عودة أسامة منتصراً ! |
| ٦٨ | أهداف الردة |
| ٧٢ | نتائج حروب الردة |

الباب الثاني

الفتوح الإسلامية في عصر الراشدين

| صفحة | |
|------|---|
| ٧٣ | تمهيد |
| ٧٩ | الفصل الأول — فتوح أبي بكر |
| ٨٩ | الفصل الثاني — فتوح عمر بن الخطاب |
| ٨٩ | ترجمة عمر |
| ٩ | منهجه |
| ٩١ | الجهة الفارسية |
| ٩٢ | موقعة الجسر |
| ٩٢ | موقعة البويب |
| ٩٤ | القادسية |
| ٩٥ | قيادة سعد بن أبي وقاص |
| ١٠٢ | انتصار المسلمين |
| ١١٧ | الفصل الثالث — حروب عمر مع الروم |
| ١٢٧ | الفصل الرابع — فتح مصر |
| ١٤٥ | الفصل الخامس — مكتبة الاسكندرية |
| ١٤٩ | قصة حرق المكتبة |
| ١٥٨ | فتح ليبيا |
| ١٦٠ | الفصل السادس — طراز جديد من الحكم |
| ١٧٥ | أسلوب عمر في مؤاخذه العمال |
| ١٧٨ | مسائل سنها عمر |

| صفحة | |
|------|--|
| ١٨١ | عمر يتحدث بنعمة الله |
| ١٨١ | أمانته وعطفه |
| ١٨٢ | تمتع عمر بملسكة النقد الأدبي |
| ١٨٥ | عمر قبل وفاته |
| ١٨٦ | الفصل السابع — حول المؤامرة الفارسية |

الباب الثالث

الفتنة الكبرى

| | |
|-----|--|
| ٢٠٤ | تمهيد |
| ٢٠٥ | الفصل الأول — عثمان يواصل توجيه الجهاد |
| ٢٠٩ | نسبه وسيرته |
| ٢١٠ | فتوح عثمان |
| ١١٠ | جهاد الكوفة |
| ٢١١ | جهاد البصرة |
| ٢١٢ | جهاد الشام |
| ٢١٢ | جهاد مصر |
| ٢١٣ | أهم نتائج هذه الفتوح |
| ٢١٩ | الفصل الثاني — فتنة الأمصار |
| ١٢٧ | سقوط الخاتم النبوي |
| ١٢٨ | رأى آخر في السبئية |

| | |
|-----|--------------------------------|
| ٢٢٩ | وفاة أبي ذر |
| ٢٣٠ | دعوة حكام الأقاليم لبحث الموقف |
| ٢٣٤ | الفصل الثالث — عثمان للتاريخ |
| ٢٤٥ | الفصل الرابع — عصر على |
| ٢٤٥ | نسبه وسيرته |
| ٢٤٩ | بيعته |
| ٢٥١ | طلحة والزبير |
| ٢٥٢ | موقعة الجمل : |
| ٢٦٤ | الفصل الخامس — الفتنة تتفاقم |
| ٢٦٤ | مؤتمر ابن السوداء |
| ٢٤٥ | الفصل السادس — بين على ومعاوية |
| ٢٧٨ | على يبعث بولاته إلى الأمصار |
| ٢٨٤ | خليد بن طريف يولى خراسان |
| ٢٨٤ | مقدمات صفين |
| ٢٨٨ | أمر التحكيم |
| ٢٨٨ | مسئولية السفراء |
| ٢٩٢ | نص وثيقة التحكيم |
| ٢٩٥ | اجتماع الحكمين |
| ٣٠٤ | كسرى وهرقل |
| ٣١١ | بيت على وولده |
| ٣١٣ | عماله على الأمصار |
| ٣١٣ | كلمة عن على |
| ٣١٦ | الحسن بن على |

الفصل الثاني

| | |
|-----------|--|
| ٤٣٤ — ٣٢٥ | الحضارة الإسلامية |
| ٣٣٠ — ٣٢٧ | مقدمة |
| ٣٣١ | المقومات الأساسية لحضارة الإسلام |
| ٣٣٨ — ٣٣٥ | تحديد الثروة |
| ٣٣٤ — ٣٣٨ | الخلافة كنظام سياسي — الشورى |
| ٣٤٤ — ٣٤٢ | أسلوب الإسلام في تأكيد التضامن الاجتماعي |
| ٣٤٧ — ٣٤٤ | ولاية العهد |
| ٣٥١ — ٣٤٧ | الدواوين — توحيد العملة — الحياة الفعلية |
| ٣٦٤ — ٣٥٢ | المرأة في المجتمع الإسلامي |
| ٣٥٨ — ٣٥٣ | التشريعات الاجتماعية — النسبة إلى الآباء |
| ٣٦٤ — ٣٢٩ | تعقيب — مسألة الموارث — تحديد الأنصبة |
| ٣٨١ — ٣٦٥ | أسلوب التوزيع للدخل القومي |
| ٣٦٨ — ٣٦٥ | مصادر الإنتاج والدخل |
| ٣٦٨ | التأميم والتحداسلامي |
| ٣٧٣ | أسلوب التوزيع في عصر الراشدين |
| ٣٧٨ | الاشتراكية في رأي شو |
| ٤٣٤ — ٣٨٢ | إدارة الدولة |
| ٣٩٦ — ٣٨٢ | الإدارة في حياة الرسول (ص) |
| ٤٣٤ — ٣٩٦ | إدارة الخلفاء الراشدين |

(ش)

| | |
|-----------|---|
| ٤٨٢ - ٤٣٥ | القرآن الكريم : جمعه وتدوينه والدراسات المنوطة به |
| ٤٨٥ - | تراجم موجزات لأبطال الجهاد الإسلامى . . . |
| ٤٨٧ - ٤٩٩ | بطل الفارسية - سعد بن أبي وقاص . . . |
| ٤٩٩ - ٥٠٧ | قائد معركة نهاوند - النعمان بن مقرن . . . |
| ٥٠٧ - ٥١٢ | عبد الله بن عامر |
| ٥١٢ - | خالد بن الوليد |
| ٥٢٠ - ٥٢٣ | أبو عبيدة بن الجراح |
| ٥٢٣ - ٥٣٤ | الزبير بن العوام |
| ٥٢٤ - ٥٢٩ | الغيرة بن شعبة |
| ٥٢٩ - ٥٣٣ | قيس بن سعد |
| ٥٣٢ - ٥٣٩ | عمرو بن العاص |
| ٥٤٤ - ٥٤٥ | تعقيب حول شخصية المقوقس |
| ٥٤٥ - | كشاف الأعلام |

القسم الأول

ويشمل : التاريخ السياسي
حركة الفتوح . أطوار الفتنة في عهد عثمان

الباب الأول

دراسة عامة عن الخلفاء الراشدين

الفصل الأول

الضديق أبو بكر

سيرته قبل الإسلام :

كان اسم أبي بكر — رضى الله عنه — عبد الله بن عثمان وهو أبو قحافة بن عامر بن كعب بن سعد تيم بن مرة بن كعب وفي مرة يجتمع برسول الله ﷺ . ولقبه عتيق ، لبشارة النبي (ص) أنه عتيق الله من النار ، فسمى يومئذ عتيقا وأم أبي بكر سلمى ، وتكنى أم الخير بنت صخر بن عمر بن عامر بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة^(١) .

ولد أبو بكر لسنتين وستة أشهر من عام الفيل ، وشب على الأخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة ، وكان ذا يسار ، يحمل الكل ، ويكسب المعدوم وكان محببا إلى قريش ، يعرف من أنسابهم ما لا يعرفه غيره . وكان مصاحبا لرسول الله ﷺ قبل النبوة^(٢) .

تقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها — تذاكر رسول الله (ص) وأبو بكر ميلادهما عندي ، فكان النبي (ص) أكبر ، وصحب النبي (ص) سنة قبل البعثة وسبق إلى الإيمان به واستمر معه طول إقامته بمكة ، وكان اسمه الذي سماه به أهله عبد الله ، ولكن غاب اسم عتيق ، وذلك أن رسول الله (ص) كان مع أصحابه بفناء الكعبة ، إذ جاء أبو بكر ، فقال النبي (ص) : من سره أن ينظر إلى عتيق من النار ، فلينظر إلى أبي بكر ، وكان لأبى قحافة ثلاثة أولاد ، ويقال

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ١ ص ٤١٢ — ٤١٣ .

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ١٧١ والإصابة ج ٤ ص ١٠١ .

أنه سمي أحدهما عتيقا ، وسمى الثاني عتيقا بالتصغير ، والثالث عتيقا وهو أبو بكر .
ويذكر بعض المؤرخين أن السبب في تسمية أبي بكر عتيقا أن أمه أم الخير
لم يكن يعيش لها ولد ، فلما ولدت استقبلت به البيت فقالت : اللهم أن هذا عتيقك
من الموت فهبه لي .

ويروى ابن حجر عدة أقوال في سبب هذا اللقب ، فعن الليث بن سعد أن
أبا بكر سمي عتيقا لجماله ، ويرى غيره أن مرد هذا إلى ماضى أبي بكر في الخير ، كما
ذهب آخرون إلى نقاء نسب أبي بكر ، وأنه لم يكن فيه شيء يعاب^(١)

يقول ابن إسحاق ، كان أبو بكر رجلا مؤلفا لقومه محببا سهلا ، وكان أنسب
قريش لقريش والعرب ، كما كان أعلمهم بما كان منها من خير أو شر ، وكان
تاجرا ذا خلق ومعروف ، وكانوا يألفونه لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته وكان إلى
جانب هذا ، يملك ثروة طائلة ، تبلغ أربعين ألف درهم ، ولما أسلم انفقها كلها في
سبيل الله . وتقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : مات أبو بكر ومات ترك دينارا
ولادتهما .

كانت إليه الأشناق — وهي الديات — في الجاهلية ، فكان يتحماها
وكانت قريش تميز ما تحمله أبو بكر ، فكان إذا حمل شيئا من ذلك ، فسأل فيه
قريشا مدحوه وأمضوا ما تحمله ، فإن احتملها غيره لم يصدقوه .

وكان أبو بكر من أولئك العشرة الذين انتهت إليهم المسكارم من قريش ،
وكان عف النفس واللسان ، حرم على نفسه شرب الخمر في الجاهلية ، وكان كريما
معوانا للضعيف ، باراً بأقاربه ، صريحا في الحق ، صدوقا في القول ، ويؤكد
المؤرخون أن الصداقة انعقدت بينه وبين الرسول قبل الإسلام — كما أبنا آنفا

هذا وقد تزوج أبو بكر في الجاهلية قتيبة بنت عبد العزى من بنى عامر بن لؤى ، فولدت عبد الله وأسما . امرأة الزبير بن العوام كما تزوج أم رومان بنت عامر من بنى غنم فولدت له عائشة أم المؤمنين ، وعبد الرحمن .

كان أشبه الناس برسول الله ﷺ وأدناهم إلى خلقه وخلقه . يقول ابن حجر : من أعظم مناقب أبي بكر أن ابن الدغنة^(١) وصفه بنظير ما وصفت به خديجة رسول الله (ص) لما بعث ، فتواردا فيهما على نعت واحد ، من غير أن يتواطأ على ذلك ، وهذا غاية في مدحه ، لأن صفات النبي (ص) منذ نشأ كانت أكمل الصفات^(٢)

ومن ذلك يتضح أن أبا بكر — رضى الله عنه — كان قبل الإسلام رجلا مرموقا من قريش والعرب ، إذ كان نسأبتهم الحجة ، ومؤرخهم العلامة ، كما كان الرجل العظيم في قومه ، العزيز في عشيرته ، وناهيكم بالثقة التي أسبغها عليه قريش زعينة العرب ، في أخطر مسألة تهاوى في ثناياها جميع الخصائص والمقومات ، وهي التصدر لتحمل الديات التي يكثر تجدها ، فكان وحده الأمين على جبايتها من العرب يدفعونها إليه راضين مطمئنين ، ولا يتهمه واحد منهم أو يشكك في حسن سيرته ، بل يبذل له الجميع كل ما يطلب إليهم دفعه من خالص أموالهم ، وأعز ما يملكون من الذهب والفضة والإبل والشاة .

على أن التوافق للمعجب في المقومات الخلقية بين النبي العظيم (ص) وبين ابن أبي قحافة ، جعل قطوف الألفة والتجاوب بينهما جد دانية .

(١) كان ابن الدغنة من سادة العرب ، وزعيم الأحابيش بمكة ، وكان حازما حكما تسير أقواله في القبائل سير الأمثال ، وكان الأحابيش من القبائل العربية الأصلية التي تعيش في مكة وما حولها ، فتكثر عددها ، وبرز كثير من رجالها .

(٢) يشير ابن حجر إلى قول السيدة خديجة — رضى الله عنها — لابي صلى الله عليه وسلم وقد أخبرها بما حدث له مع للك في الغار . فقالت له . كلا والله . اعزتك الله أبدا . أنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتقري الضيف ، وتكسب الممدوم ، وتمين على نواب الحق .

وإذا أضفنا إلى هذا ، تمتع الصديق بالثراء البالغ والتجارب الفاتكة في مختلف الشئون التجارية والقومية ولإنسانية ، وغيرها وضحت لنا تلك الصورة الرائعة التي تجلت بعد الإسلام ، سواء في عنفوان الدعوة ، أو في مراحلها الحرجة المتأزمة ، أو بعد الهجرة وإبان القتال الدائب في الغزوات والسرايا ، أو فيما بعد ذلك ، حيث قبض الرسول (ص) وفزع الأبطال ، وزلزل الإيمان من قلوب الأشبال ثم ارتدت العرب ، وشرأبت أعناق الرجعية واليهودية والمجوسية ، وكاد يخفت صوت الحق والإيمان ، لولا ذلك العتيق الذي انقذ الموقف في السقيفة ، وجمع الأمة في المسجد وقضى على الردة وأخذ أنفاسها ، ثم نفخ في العرب من روحه القوية ، فاندملت الجراح ، وعادت الوحدة إلى الأمة ، والتف العرب حول لواء واحد يمثل القومية والاسلامية ، ويلقى على الشرق والغرب ، واليهود والمنافقين ، درساً بالغ الشدة ، كان مقدمة لتلك الفتوح الكبرى التي ثلت العروش ، وأنزلت التيجان ، وقضت على الحدود المصطنعة بين الشعوب المعذبة ، سواء في بلاد العرب ، أو ملك كسرى وقيصركا سنوضح ذلك في موضعه إن شاء الله .

أبو بكر بعد الإسلام :

ولما أكرم الله محمداً (ص) بالرسالة ، كان أبو بكر أول رجل استجاب لدعوة الحق ، ولم يتردد ساعة من نهار . حتى لقد قال النبي (ص) في ذلك : ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر^(١) وروى أبو هريرة — رضى الله عنه — أن النبي (ص) قال : ما لأحد عندنا يد ، إلا وقد كافيناه بها ، ما خلا أبا بكر ، فإن له عندنا يداً يكافيه الله تعالى بها يوم القيامة ، وما نفنى مال أحد قط ما نفنى مال أبي بكر ، وما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت له كبوة إلا أبا بكر ، فإنه لم يتعلم . ولو كنت متخذاً خليلاً ، لاتخذت أبا بكر .

ويقول أبو الدرداء — رضى الله عنه — : كنت جالسا عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر -- رضى الله عنه — آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته . فقال (ص) أما صاحبكم فقد غامر (خاصم) فسلم أبو بكر وقال : انه كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه ثم ندمت ، فسألته أن يغفر لي ، فأبى علي ، فأقبلت إليك . فقال (ص) : يغفر الله لك يا أبا بكر — ثلاثا — ثم ان عمر ندم ، فاتى منزل أبي بكر — رضى الله عنه — فقال : أثم أبو بكر ، فقالوا : لا . فاتى إلى النبي (ص) فسلم ، فجعل وجه النبي (ص) يتمعر (يتغير من الغضب) حتى أشفق أبو بكر — رضى الله عنه — فجثا على ركبته وقال : يا رسول الله ، أنا كنت أظلم فقال النبي ﷺ . ان الله بعثنى إليكم فقام : كذبت وقال أبو بكر : صدق ، وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركون لي صاحبي . قال ذلك مرارا .

وأخرج البخارى عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : لما اشتد بالنبي (ص) المرض ، قيل له فى الصلاة ، فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس . فقالت عائشة — رضى الله عنها — : ان أبا بكر رجل رقيق القلب ، وانه إذا قام فى مقامك ، لا يكاد يسمع الناس من البكاء ، فلو أمرت عمر . . فقال (ص) . مروا أبا بكر فليصل . فعاودته عائشة فقال (ص) : مروه فليصل . فإنكن صواحب يوسف^(١)

يقول أنس — رضى الله عنه — كان أبو بكر يصلى لهم (يعنى اماما) فى وجع النبي ﷺ الذى مات فيه ، فلما كان يوم الاثنين وهم صفوف فى الصلاة ، فكشف (ص) ستر الحجر ينظر إلينا وهو قائم كان وجهه ورقة مصحف ، ثم تبسم بضحك

(١) لعل المراد بذلك أنهم يحسن للرجال مالا يجوز ، ويغلبهم على رأيهم . والمرض من ذلك أن تكف عائشة أم المؤمنين عن مراجعة النبي صلى الله عليه وسلم ولا تحاول صرف الأمر عن أيها بما احتجت به لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعمل إلا ما فيه الصلحة ولا ينطق عن الهوى .

فهمنا أن فتن من الفرح برؤية النبي ﷺ فنكص أبو بكر على عقبيه (تأخر عن مكانه من الإمامة) ليصل الصف ، وذن أن رسول الله (ص) خارج إلى الصلاة فأشار إلينا النبي (ص) أن أتموا صلاتكم وأرخى الستر فتوفي من يومه .

وبالجملة فإن أبا بكر كان من أشد الناس ملازمة لرسول الله (ص) وغيره على شخصه ودينه ، وقد تحمل بسبب ذلك ما لم يتحمله غيره .

أخرج البخاري عن عروة بن الزبير قال : سألت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن أشد ما صنع المشركون برسول الله (ص) فقال : رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي (ص) وهو يصلي ، فوضع رداءه في عنقه ، فخنقه خنقا شديداً ، فجاء أبو بكر — رضي الله عنه — حتى دفعه عنه . ثم قال : أقتلون رجلاً أن يقول : ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم .

ويقول سفيان الثوري . من زعم أن علياً أحق من أبي بكر وعمر ، فقد خطأ أبا بكر وعمر والمهاجرين والأنصار^(١)

ويؤكد بعض الرواة ، أن أبا بكر آمن بالنبي (ص) في زمن بحيرا الراهب ، وأنه اختلف بينه وبين خديجة حتى بنى بها النبي (ص) وذلك قبل أن يولد علي^(٢) .

ومما لا ريب فيه ، أن الرجل الوحيد الذي صحب الرسول (ص) في الغار إبان الهجرة ، إنما هو أبو بكر ، ولذلك فقد صرحت الآية الكريمة بهذا ، يقول تعالى في القرآن الكريم من سورة التوبة (آية ٤٠) « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانی اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن أن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا

(١) كتاب تيسير الوصول ج ٣ ص ٢٦٣ — ٢٦٦

(٢) الاصابة ج ٤ ص ١٠٤

السفلى ، وكلمة الله هي العليا والله عز وى حكيم .

أراد أبو بكر أن يهاجر إلى الحبشة حينما اشتد إيذاء المشركين للمسلمين فمنعه من ذلك ابن الدغنة ، سيد القارة ، وأجاره على قریش ، على شرط أن لا يستعلن بصلاته، ولكن أبا بكر لم يستطيع الاستمرار على إخفاء عبادته، فرد إلى ابن الدغنة جواره ، وأقام راضياً أن يصيبه ما يصيب جماعة المسلمين من أعدائهم.

شهد بعد الهجرة جميع المشاهد الحربية، واشترك فى جميع الغزوات، ولم يتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة منها .

وفى غزوة تبوك كان صاحب راية المسلمين ، وأمره النبى (ص) على الحج فى السنة التاسعة .

تزوج أبو بكر فى الإسلام، أسماء بنت عميس من خثعم بعد أن تملت ب وفاة زوجها جعفر بن أبى طالب، فولدت له محمداً الذى تربى فى حجر على فيما بعد . وتزوج بعد إسلامه كذلك ، حبيبة بنت خارجة بنت زيد من الخزرج ، فولدت له بعد وفاته أم كلثوم بنت أبى بكر وقد كانت جملة أولاده ستة ، ثلاثة ذكور ، وثلاث من الإناث .

أما الذكور فهم . عبدالله ، وعبد الرحمن ، ومحمد . وأما الإناث فهم : أسماء أم عبدالله بن الزبير ، وعائشة أم المؤمنين وأم كلثوم من حبيبة بنت خارجة .

خصائسه وأخلاقه :

يروى المسعودى أنه لم يستخلف أحد من الأربعة وأبوه حى غير أبى بكر، وأنه كان أزهد الناس ، وأكثرهم تواضعاً فى أخلاقه ولباسه ومطعمه ومشربه . وكان لبسه فى خلافته الشملة والعباءة ^(١) .

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٤١٣ .

قدم عليه زعماء العرب وأشرفهم ، وملوك اليمن ، وعليهم الحلل الموشاة ، بالذهب ، والتيجان ، فلما شاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك ، وما عليه من الوقار والهيبة ، ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم . وكان ممن وفد عليه من منوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير ، ومعه ألف عبد ، دون ما كان معه من عشيرته ، وعليه التاج والبرود الموشاة بمثاقيل الذهب ، فلما شاهد من أبي بكر ما وصفنا ، ألقى ما كان عليه ، وتزيا بزيه ، حتى أنه روى يوما في سوق المدينة على كتفيه جلد شاة ، ففرغت عشيرته وقالوا : فضحتنا بين المهاجرين والأنصار . قال : أردتم أن أكون ملكا جبارا في الجاهلية جبارا في الإسلام . لا والله . لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع لله ، والزهد في هذه الدنيا .

بلغ أبا بكر عن أبي سفيان صخر بن حرب ، أمر ، فأحضره وأقبل يصيح عليه ، وأبو سفيان يتماقه ، وية ذلل له . وأقبل أبو قحافة فسمع صياح أبي بكر ، فقال لقائده (وكان أبو قحافة قد كُفَّ بصره) : على من يصيح ابني . فقال له ، على أبي سفيان فدنا من أبي بكر وقال له : أعلی أبي سفيان ترفع صوتك يا عتيق ، لقد تعديت طورك ، وجزت مقدارك فتبسم أبو بكر ومن حضره من المهاجرين والأنصار ، وقال : يا أبت ان الله قد رفع بالإسلام قوماً وأذل به آخرين ^(١) .

كان إذا نزل بأبي بكر أمر يريد فيه مشاورة أهل الرأي وأهل الفقه ودعا رجالا من المهاجرين والأنصار ، دعا عمر وعثمان وعلياً وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ، وكان يشاورهم في جميع الأمور العامة ، مع أنه كان عالماً بدقائق الشريعة ، وأخبار الناس ، وأيامهم وأنسابهم وسياساتهم إلى ما رزق من صدر رجب ، وحزم وعزم ^(٢) .

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٤١٣ .

(٢) أنظر كرد علي في الإدارة الإسلامية ص ٢٤ .

أوصى أبو بكر يزيد بن أبي سفيان، لما أرسله إلى الشام . فقال : إذا دخلت بلاد العدو ، فكن بعيدا من الحملة فاني لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسربا لادلاء ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات ، وأقلل من الكلام .. وإذا أتاك كتابي فأنفذه، وإذا قدمت عليك وفود العجم ، فأنزلهم معظم عسكرك، وأسبغ عليهم النفقة وامنع الناس عن محادثتهم ، ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين ، ولا تلحف في عقوبة فإن أدناها وجع ، ولا تسرعن بها وأنت تكتفي بغيرها . واقبل من الناس علانيتهم، وكلهم إلى الله في سرائرهم . كان أبو بكر شوريا بفطرته ، حتى إذا وضع له الحق ، لا يثنيه عنه شيء كما كان مهتما بأمر الناس ، يفرح إذا فرحوا ، ويألم إذا حزنوا .

لقد تمتع بالركة الفائقة ، والعزيمة الصادقة ، وبحق أشبه رسول الله ﷺ في خلقه وخلقه .

الفصل الثاني

الموقف العربى قبل السقيفة

يخطئ كثير من يظن أن الصديق ، لم يظهر على مسرح السياسة العامة ، إلا بعد أن ذهب مع عمر وأبى عبيدة إلى سقيفة بنى ساعدة^(١) حيث تمت له البيعة بالخلافة في رئاسة الدولة .

في غزوة تبوك :

أشرنا فيما سبق ، إلى أن الراية - وهى رمز سيادة الدولة - قد سلمها رسول الله ﷺ إلى أبى بكر فى آخر غزوة خرج النبى فيها ، وهى غزوة تبوك ، مع وجوده - (ص) - وقيادته المباشرة لجيش الدولة الإسلامية ، وقد جرى التقليد الدولى ، على أن تكون الراية فى يد رئيس الدولة .

حدث أبو هريرة عن ظروف فتح مكة فقال : أقبل رسول الله (ص) فدخل مكة ، فبعث الزبير على إحدى المجنبتين ، وبعث خالداً على المجنبة الأخرى ، وبعث أبا عبيدة بن الجراح على الجيش ، فأخذوا بطن الوادى ، ورسول الله (ص) فى كتيبة ، وقد وبشت قریش أوباشها (المرتزقة والمأجورين) وقالوا نقدم هؤلاء فإذا كان لهم شيء كنا معهم ، وإن أصيبوا أعطينا الذى سألنا فقال رسول الله (ص) : يا أبا هريرة . فقلت لبيك يا رسول الله . قال : اهتفلى بالأنصار ، ولا يأتينى إلا أنصارى فهتفت بهم ، فجاءوا ، فأطافوا برسول الله (ص) فقال :

(١) زعم هذا بعض المشرقين ، وعلى رأسهم ماسية ، ولامانس وأرنولد وسند كر تفنيدها لهذه المزاعم فى موضعها من الكتاب إن شاء الله تعالى .

أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم — ثم قال بيديه أحدهما على الأخرى —
أحصدوم حصدا ، حتى توافوني على الصفا . قال أبو هريرة . فانطلقنا ، فما يشاء
أحد منا أن يقتل منهم ما شاء إلا قتل . وركزت راية رسول الله ﷺ بالحجون
عند مسجد الفتح ، ثم نهض المهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله ، حتى
دخل المسجد ، فأقبل إلى الحجر فاستلمه ، ثم طاف بالبيت وفي يده قوس .
وحول البيت ثلثمائة وستون صنما ، فجعل يطعنهما بالقوس ، ويقول « جاء الحق ، وزهق
الباطل ان الباطل كان زهوقا . جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » والأصنام
تنساقط على وجوهها . وكان طوافه على راحلته ، ولم يكن محرما يومئذ فاقصر
على الطواف . فلما أكمله ، دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ، فأمر
بها ففتحت فدخاها فرأى فيها الصور ، ورأى صورة إبراهيم وإسماعيل يستقيمان
بالأزلام . فقال « ص » « قاتلهم الله . والله إن استقيما بها قط » وأمر بالصور
فمحييت ، ثم أغلق عليه الباب ، هو وأسامه وبلال فاستقبل الجدار الذي يقابل
الباب وكبر في نواحيه ، ووحد الله ، ثم فتح الباب ، وقريش قد ملأت المسجد
صفوفا ، ينظرون ماذا يصنع بهم ، فأخذ بيضاء تسمى الباب ، وهم تحته فقال
« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده ، وأعز جنده ،
وهزم الأحزاب وحده » ألا كل مأثرة أو مال ، أو دم ، فهو تحت قدمي هاتين ،
إلا سداة البيت ، وسقاية الحجاج . إلا وقتل الخطأ شبه العمد — السوط والعصاة —
ففيه الدية مغلفة ، مائة من الإبل وأربعون منها في بطونها أولادها . يا معشر
قريش . إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء . والناس من
آدم ، وآدم من تراب » ثم تلا هذه الآية « يا أيها الناس إنا خلقناكم من
ذكر وأُنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ،
إن الله عليم خبير » . ثم قال يا معشر قريش ، ماترون أنى فاعل بكم . قالوا
خيبر . أخ كريم وابن أخ كريم . قال : فإني أقول لكم كما قال يوسف

لإخوته : لا تريب عليكم اليوم . اذهبوا فأنتم الطلقاء » ثم جلس في المسجد فقام إليه علي - ومفتاح الكعبة في يده - فقال يا رسول الله : اجمع لنا الحجابة مع السقاية ، صلى الله عليك ، فقال ﷺ : أين عثمان بن طلحة ، فدعى له . فقال : مفتاحك يا عثمان .. اليوم . يوم بر ووفاء .

وأمر بلالا أن يصعد على الكعبة فيؤذن وأبو سفيان بن جرب وعتاب بن أسيد ، والحارث بن هشام ، وأشراف قريش جلوس بفناء الكعبة - فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيدا أن لا يكون سمع هذا . فقال الحرث . اما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته فقال أبو سفيان : لا أقول شيئا ، لو تكلمت لأخبرت عن هذه الحصباء ، فخرج عابهم النبي (ص) فقال : لقد علمت الذي قلتم ثم ذكر ذلك لهم . فقال الحرث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا ، فنقول أخبرك . ثم دخل - (ص) - دار أم هانئ فاعتسل وصلى ثمان ركعات ، صلاة الفتح وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا بلدا صلوا هذه الصلاة .

والمهم أن الراية يوم الفتح كانت مع رسول الله باعتباره رئيس الدولة ، والقائد الأعلى لقواتها المسلحة ، وهكذا نجد هذا التقليد لدى جميع الدول منذ أقدم العصور إلى اليوم .

وإذن فلم يكن تسليم أبي بكر الراية في أكبر وآخر معركة حاسمة خاضها الرسول مع أعدائه ، إلا لأمر خطير يناط بسيادة الدولة وسياستها العليا ، وكأنما يلفت أنظار المسلمين إلى الصديق ليتقدروا مواهبه وعبقريته ، وعلمه ، وشجاعته ، فلا يعدلون به أحدا بعد رسول الله (ص) .

على أن ذلك في التقاليد الحديثة ، يعتبر ترشيحا من النبي (ص) للصديق في رئاسة الأمة ، وخلافة رسول الله - (ص) - ولو بالرمز والتوجيه . يقول ابن

اسحاق^(١) « وكانت غزوة تبوك في زمان عسرة من الناس وجذب من البلاد ، حين طابت الثمار ، فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، وكان (ص) — فلما يخرج في غزوة إلا وري بغيرها . إلا ما كان منها ، فإنه جلاها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان .

قال — (ص) — ذات يوم للجد بن قيس — أحد بني سلمة : يا جد ، هل لك في جلاذ بني الأصفر (الروم) . فقال يا رسول الله ، أو تأذن لي ولا تفتني ، فقد عرف قومي ، أنه ما من رجل أشد عجبا بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ، أن لا أصبر فقال (ص) : قد اذنت لك . يقول أصحاب المغازي ، ففيه نزلت « ومنهم من يقول أذن لي ولا تفتني — الآية^(٢) » .

وقال المنافقون « لا تنفروا في الحر ، وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم ، فلم يعذرهم .

هذا وقد استخلف الرسول (ص) على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري وخاف على أهله ، على بن أبي طالب — رضوان الله عليه — وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف به المنافقون . وقالوا : ما خلفه إلا استقلالاً له وتحققاً منه ، فلما قال ذلك المنافقون ، أخذ على ابن أبي طالب سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله (ص) وهو نازل بالجرف فقال : يا نبي الله . زعم المنافقون أنك إنما خلفتني ، لأنك استغفلتني وتحققت مني . فقال (ص) : كذبوا ولكني خلفتك لما تركت ورائي ، فأرجع فأخلفني في أهلي وأهلك . أفلا ترضى أن تكون متى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي .

(١) انظر مختارات من سيرة ابن اسحاق بعنوان « نبي البر » نشر كتاب الشعب بالقاهرة.

(٢) سورة التوبة آية ٤٩ .

يقول المؤرخون : وبلغ رسول الله ﷺ أن ناسا من المنافقين يجتمعون في بيت « سويلم اليهودي » يقبضون الناس عن رسول الله (ص) في غزوة تبوك فبعث إليهم النبي (ص) طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ففعل طلحة ، فاقترحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله ، واقتحم أصحابه فأفلتوا (نجوا)

ثم إن رسول الله (ص) جد في سفره وأمر بالجهاز ، وحض أهل الثراء على البذل والنفقة ، فأنفق عثمان مالا كثيرا وثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وعدتها ، وألف دينار عينا .

وبلغ عدد الجيش الإسلامي ، فيما قيل ، ثلاثين ألفا ، ما كاد ينهي إلى تبوك حتى سارع صاحب أيلة ، وأهل أذرح بطلب الصلح على أن يدفعوا الجزية ، وكذلك تمكن خالد بن الوليد من أسر أمير دومة ، فقبل الصلح ودفع الجزية ، ثم أقام رسول الله (ص) في تبوك بضعة عشر يوما ، انصرف بعدها إلى المدينة فوصلها في شهر رمضان من سنة ٩ للهجرة .

أبو بكر أمير الحج :

بعد عودة النبي (ص) من تبوك أقام بالمدينة بقية رمضان ، وشوالاً وذا القعدة ، ثم بعث أبا بكر أميرا على الحج من سنة تسع ليقوم المسلمين حجتهم ، فخرج أبو بكر ومن معه من المسلمين . . ونزلت سورة « براءة » في نقض ما بين رسول الله (ص) وبين المشركين من العهد .

وقد حج في هذه السنة كثير من المشركين ، وهم على دينهم ، ولعل ذلك هو السبب في عدم خروج النبي (ص) للحج في هذا العام ، إذ كانت بعض

القبائل العربية ، لاتزال على جاهليتها وتقاليدها المنحرفة في أداء مناسك الحج .
ولما أنزلت سورة « براءة » بعث بها النبي ﷺ إلى أبي بكر ليعلنها للناس ،
وكان مبعوث النبي (ص) هو علي بن أبي طالب على ناقة الرسول المضاء ، فلما
لقي أبا بكر ، فسأله : أمير أم مأمور . فقال علي : بل مأمور ، وبهذا يكون
أبو بكر نائب النبي الوحيد في الحج .

وفي يوم النحر ، قام علي بن أبي طالب وخطب في الحجيج ، فقال « أيها
الناس لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت
عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله (ص) فهو إلى مدته » .
وإمارة أبي بكر للحج بعد حمله « الراية » يوم تبوك ، ترشيح آخر له
ولفت للأمة إلى فضائله ، وكفايته ، والالتفاف حوله ، إذا حدث للرسول
(ص) شيء .

سقوط الرجعية والوثنية :

قد لا يدرك البعض صلة هدم الأوثان ، ووفود الملوك والرؤساء على النبي
(ص) بعد فتح مكة ، وغزوة تبوك بالحديث عن الصديق أبي بكر ، لأن مثل هذه
المسائل تدرس ضمن السيرة النبوية عادة . . . ولكن من يتتبع الأحداث التي
وجدت بعد وفاة النبي (ص) من جدل في السقيفة ، وحول بعث أسامة ،
ثم حركة الردة الخطيرة بغية الانفصال عن الدولة ، فإنه لا بد أن يدرك العروة
الوثقى بين هذه السلسلة المتصلة الحوادث ، إلى جانب أن عهد أبي بكر يعتبر
جزءا لا يمكن فصله عن عهد النبي (ص) إلا من جهة واحدة ، وهي انقطاع
الوحي عن الأرض ، وختم النبوة والكتاب والشرائع السماوية .

ومما لا ريب فيه أن القضاء على سلاطات الإقطاع الديني والسياسي ، المثلين
(٢ م — الراشد)

في سداة الأوثان ، وما كان لرؤساء القبائل من امتيازات ، من أهم العوامل في حدوث الحركة الرجعية الانفصالية التي عرفت بحركة الردة في عهد أبي بكر . يقول المؤرخون : كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش ، وأمر رسول الله ﷺ . إذ كانت قريش إمام الناس وهداتهم وأهل الحرم والبيت ، وصريح ولد اسماعيل . . وقادة العرب لا ينكرون ذلك . . وكانت قريش هي التي نعتت لحرب رسول الله (ص) فلما فتحت مكة ودانت له قريش ، عرفت العرب ، أن لاطاقة لهم بحرب رسول الله (ص) ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله أفواجا كما قال الله تعالى « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره . إنه كان توابا » .

ونضيف إلى ذلك ، أن منطقة مكة ، كانت البقعة الوحيدة في بلاد العرب كلها ، التي لم تطأها قدم مستعمر ، ولم تدخل في إطار الأحلاف العسكرية ، والنفوذ الاقتصادي أو الديني لأية دولة أو أمة أو نخلة ، بينما كانت جميع أطراف البلاد العربية ، بل كانت يثرب نفسها ، تتمتع في هذه الفجوات .

ولعل من يتتبع تاريخ العرب قبيل الإسلام ، وما كان يحدث بينهم من حروب ومهاترات ، سيؤمن حتما بهذه الحقيقة .

على أن اليهود ، ولا سيما في يثرب ، كان لهم — رغم وجود الأوس والخزرج ، نفوذ عريض في هذه المنطقة التي تضم « يثرب » وضواحيها وما حولها ، إذ أقام اليهود الحصون والمستعمرات حول يثرب ودرّبوا أعدادا من شبابهم وكهولهم ، وكادوا يحتكرون التجارة والزراعة والصناعة ، ثم حاولوا أن يقدموا أحد عملائهم — وهو عبد الله بن أبي بن سلول — عظيم الخزرج ، وعميد عرب المدينة ، ليتوجوه ملكا عليها وعلى العرب تحت إشرافهم وتوجيههم ، وبأموالهم وأسلحتهم ، وذلك بعد فشلهم في إقامة دولة يهودية ، في يثرب العربية .

لمن - إذن - يتقدم اليهود بهذا السخاء والبذل الذين لم يعرفوا عنهم : هل ذلك لمصلحة عميائهم المذكور ، أم لأهدافهم التي قدموا لها ، وأسفروا عنها ، بإنشاء المستعمرات والحصون في أرض يثرب ، وإقليم الحجاز .
على أن الحصون اليهودية التي أقاموها قبل البعث الإسلامي ، هي كالتقواعد العسكرية والصاروخية التي خلفتها اليوم وحلت محلها في العالم المعاصر ، وأصبحت تشكل خطراً داهماً على مصير الأمن والسلام في العصور الأخيرة ولا سيما في الوطن العربي ، والأماكن المقدسة .

عبد الله ابن أبي :

ومن هنا ندرك خطر العملاء على الدين والدولة ، فإن هذا الرجل العربي الذي باع نفسه لأعداء العرب ، وهو عبد الله بن أبي بن سلول ، أصبح بعد الهجرة شوكة حادة قاتلة في وحدة العرب وتمام الإسلام .
والذين درسوا تاريخ الدولة الإسلامية منذ تأسيسها في عصر الرسول ، يشهدون نشاط هذا العربي العجيب ، وغيرته على اليهود ، وخيائته لأمته ودينه . .
ففي كثير من الغزوات والحروب ، كان مصدر التعويق والتخذيل والشائعات الضارة .
وفي غزوة تبوك كان المنافقون من حزبه ، هم الذين يعقدون الاجتماعات ، ويطبخون الإشاعات لصرف الناس عن حرب الروم ومشركي الشام ، حتى لقد أمر النبي ﷺ بإحراق بعض الأوكار على المتأمرين .
ومن ثم ، فسوف نشهد استمراراً شديداً من أبي بكر في الدقيفة على إبعاد عرب المدينة من الأنصار ، عن رئاسة الدولة ، وإن وعدم بأن يكونوا « الوزراء » فيها ، والمشاركين في مسئولياتها ولكن « الخلافة » عن رسول الله ، بعد وفاته مباشرة ، وفي ظروف تكتنفها الأخطار والمهزات ليس من المصلحة العامة أن يتولوا ، من سبق أن دخل في إطار النفوذ أو التبعية ، أو ارتبط مع الأعداء ،

بأحلاف أو ارتباطات ضد مصلحة الأمة ، مهما تطورت الأوضاع ، وتغيرت الظروف .

ومما لا ريب فيه ، أن ماضى الأنصار يفيض بهذه المسائل وعشرات غيرها . أما قریش ، فليست لها في عموم العرب ، هذه الوضعية أو ذلك الماضى المشوب بشبهات الخضوع والتبعية .

ولعل هذا يفسر لنا كما سننسط ذلك في موضعه -- حقيقة موقف «العتيق» إذ ينأى بدولة الإسلام إبان تأسيسها عن كل مظان الشبهات . ونعود إلى مكاننا من البحث .

قصة الوفود وهدم الأصنام :

ومرة أخرى ، تؤكد وثيق الصلة بين أعضاء هذه الوفود ، وبين الحركات الانفصالية التي واجهت أبا بكر بعد عشرة أيام فقط من مبايعته خليفة لرسول الله ﷺ . . . ولذلك ينبغي أن تقدم بين يدي مؤتمر السقيفة ، قصة الوفود، وهدم الأصنام حتى يتضح السبب الحقيقي في حركة الردة التي قامت فور وفاة النبي (ص) ، وكان محركوها سدة الأوثان وبعض الزعماء وبخاصة من قبائل بني حنيفة وبنو تميم وأشباهم .

وفود العرب إلى رسول الله (ص) :

في السنة التاسعة من الهجرة ، وبعد انتصار الرسول على الروم في تبوك ، أسلمت ثقيف ، ثم أخذت وفود القبائل تترى ، لتظفر بلقاء النبي صلى الله عليه وسلم ورضاه والإيمان برسالاته ، والانضواء تحت راية الدولة الإسلامية .

بنو تميم :

فهذه قبيلة بني تميم صاحبة « سجاح » تبعث بعطاردين حاجب التميمي ،
في أشرف من قومه ، فيقدمون على رسول الله بالمدينة ، فيخرج الرسول
للقائهم ، فإذا بهم يقولون :

جئنا لنفاخر بك ثم يطلبون الإذن لشاعرهم وخطيبهم أن يتكلما فيأذن لهم
رسول الله ، ويخطب عطاردين بن حاجب ويفاخر بقومه ، ثم يتلوه شاعرهم
الزبرقان بن بدر ، فيبالغ في مدح قومه حتى يقول :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع
ونحن يطعم عند القحط مطعمنا من الشواء إذا لم يؤنس الفزع
إلى أن يقول :

إنا أئينا ولم يأبى لنا أحد إنا لذلك عند الفخر نرتفع
وهنا ينظر النبي (ص) إلى هؤلاء في عجب ، ثم يلتفت إلى الشاعر
الإسلامي حسان بن ثابت ويقول : قم فأجب الرجل : فقام حسان ، فقال :
إن الذوائب من فخر واخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريره

نقوى الإله ، وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعا
سجية نلك فيهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع
إلى أن يقول :

لا يخلون على جار بفضلهم ولا يمسموا من مطمع طبع
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفرقت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحتي ، قلب ووازره فيما أحب ، لسان حائك صنع

وقال الزبرقان مرة أخرى :

أتيناك كبا يعلم الناس فضلنا إذا احتفلوا عند احتضار المواسم
فإنا ملوك الناس في كل موطن وأن ليس في أرض الحجاز كدارم
وإن لنا المربع في كل غارة تغير بنجد أو بأرض الأعاجم

وقد أجاب حسان بن ثابت قائلا :

هل المجد إلا السؤدد العود والندى وجاء ملوك واحتمال العظام
نصرنا وآويننا النبي محمدا على أنف راض من معد وراغم
ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا على دينه بالرهفات الصوارم
ونحن ولدنا من قريش عظيمها ولدنا نبي الخير من آل هاشم
بنى دارم لا تفخروا إن فخركم يعود وبالا عند ذكر المكارم
هباتم . علينا تفخرون . وأتمو لنا خول ما بين ظئر وخادم
فإن كنتمو جثم لحقن دماثكم وأموالكم أن تقسموا في المقاسم
فلا تجعلوا لله ندا واسلوا ولا تلبسوا زيا كزي الأعاجم

ولما انتهى حسان من كلماته ، قال الأقرع بن حابس :

إن هذا الرجل يؤتى له (موحى إليه) . لخطيبه أخطب من خطيبنا ،
ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا . . . ثم أسلوا
وجوزهم رسول الله فأحسن جوائزهم .

ولكن أصحاب سجاح ، حسبما كشفت كلماتهم ، إنما جاءوا ليفاخروا

وينافروا ، ويخيل إلينا أنهم لم يسلموا على علم ، بدليل ما أسفروا عنه في حروب
الردة في عهد أبي بكر رضى الله عنه .

وفد طي :

وقدم على رسول الله وفد طي ، فيهم زيد الخيل الذي يروى أن النبي (ص)
قال فيه : ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ، ثم جاءني ، إلا رأيت دونه ما يقال
فيه ، إلا زيد الخيل ، فإنه لم يبلغ كل ما فيه . وقد سماه رسول الله (ص) زيد
الخير .. وقد أسلم قوم زيد وكانوا درعا لأبي بكر إبان الردة فيما بعد . بعكس بني
تميم الذين كانوا من أشد المرتدين بقيادة سجاح اليربوعية .

عبد القيس :

ووفد على النبي (ص) باندينة الجارود العبدى في وفد عبد القيس ، فقال :
يا رسول الله ، إني على ديني ، وإني تارك ديني لدينك ، فهل تضمن لي بما فيه . قال :
نعم . أناضامن لذلك . ان الذي أدعوك إليه ، خير من الذي كنت فيه .. فأسلم
واسلم وفد عبد القيس .

وكان في الوفد « الأشج » الذي قال له رسول الله (ص) : إن فيك لخصلتين
يحبهما الله : الحلم والأناة .

البحرين :

وقد أسلم أمير البحرين ، وسلم الإمارة إلى العلاء بن الحضرمي أميرها من قبل
رسول الله (ص) ولكن البحرين ارتدت فيما بعد .

مسيلمة وبنو حنيفة :

أما بنو حنيفة فقد بعثوا مسيلمة بن حبيب في جماعة منهم حيث نزلوا خارج المدينة، ثم تركوا مسيلمة في رحالهم، وذهبوا لمقابلة النبي (ص) وأعلنوا إسلامهم، ثم ذكروا للنبي ﷺ أن صاحباً لهم ، وهو مسيلمة بن حبيب ، قد خلفوه في رحالهم ليحفظها فأمر له ﷺ بمثل ما أمرهم به من الجوائز وقال : أما إنه ليس بشركم مكاناً . . . يعني لحفظه أمتعة أصغابه ، ثم انصرفوا . فلما وصلوا اليمامة ، ارتد مسيامة ، وادعى النبوة ، وقال : إني أشركت في الأمر معه . وقال للوفد : ألم يقل لكم : أما إنه ليس بشركم مكاناً . ما ذاك إلا لما كان يعلم أني شريكه في هذا الأمر ، ثم أنشأ يسجع لهم كسجع الكهان ليضاهي به القرآن ، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله بالنبوة :

ويروى أنه كتب إلى رسول الله (ص) بعد بضعة أشهر يقول : من مسيامة رسول الله ، إلى محمد رسول الله . أما بعد . فإني أشركت معك في الأمر ، وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها ولكن قريشاً قوم لا يعدلون .

هذا . وقد كتب النبي (ص) رداً على كتابه : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب « السلام على من اتبع الهدى » أما بعد . فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . .

تخطيم الأصنام :

على أن من الأسباب الأساسية في الاضطرابات التي حدثت في عهد أبي بكر هو هدم الأوثان والأصنام ، والغاء الوظائف المادية والشرفية ، التي كان تتمتع بها سدنتها والقوامون على شئونها يقول المؤرخون :

بعث رسول الله (ص) عمرو بن العاص إلى صنم هذيل (سواع) لهدمه ،

ويقول عمرو — رضى الله عنه : فأتيته وعنده السادن فقال : ما تريد . قلت ، أهدمه ، قال : لا تقدر على ذلك . قلت : لم . قال : تمنع . قلت : حتى الآن أنت على الباطل . ويحك ، وهل يسمع أو يبصر ، فدنوت منه فكسرتة ، وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزائنه ، فلم نجد فيه شيئاً . فقلت للسادن : كيف رأيت .. قال : أسلمت لله .

صنم مناة :

وبعث ﷺ سعد بن زيد بن مالك بن عبد بن كعب بن عبد الأشهل الانصارى ، فهدم مناة التى يعظمها الأوس والخزرج ، وكانت عند قديد ، وكان مع سعد عشرون فارساً فلما انتهوا إلى مناة ، وعندها سادنها ، قال لزيد ما تريد : قال : هدمها . أنت وذاك ، فأقبل سعد يمشى إليها ، حتى هدمها ولم يجد فى صندوقها شيئاً .

ويقال أنه حينما وصل إليها ، خرجت إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس ، تدعو بالويل ، وتضرب صدرها ، فضربها فقتلها ^(١) .

وهكذا واصل الرسول (ص) بعث أصحابه لتطهير الجزيرة العربية من أدران الوثنية ، مما ألب سدة الأصنام ، ومحترفى الكهانة من حولها ، فتظاهر كثير منهم بالإسلام ، ولكنهم لم يؤمنوا حق الإيمان ، مما جعل كثيراً منهم ينضم إلى الرجعية الانفصالية فى حركة الردة بعد فترة قصيرة .

حجة الوداع :

وفى سنة ١٠ من الهجرة ، تجهز رسول الله (ص) يريد الحج ، وأمر الناس

(١) أنظر مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ص ١٤٦ لابن عبد الوهاب

أن يتجهزوا ، فاجتمع في مكة جم غفير من المهاجرين والأنصار ، وكثير من القبائل العربية .

وفي هذا الموسم بالذات ، بل ولأول مرة ، أقام الرسول مناسك الحج ، وشرحها عملياً للأمة ، ثم ألقى في « منى » خطبته الجامعة التي بين فيها كل ما يهم الناس . قال ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه « أيها الناس . اسمعوا قولي ، فإنني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا .

أيها الناس ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تأقوا ربكم . وكل ربا موضوع . وأول ربا أضعه . ربا العباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله . وان كل دم في الجاهلية موضوع وأول دم أضعه ، دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وإني تركت فيكم ما ان اعتصمتم به لم تضلوا : كتاب الله .. وأنتم مسئولون عني . فما أنتم قائلون . قالوا : نشهد أنك قد باغت وأديت ونصحت ، فقال (ص) : اللهم اشهد — ثلاث مرات «

ولما انتهى النبي (ص) من أداء مناسك الحج ، رجع إلى المدينة فأقام بقية ذى الحجة ، وشهرى المحرم وصفر ، وفي أواخر صفر ابتداء برسول الله (ص) مرضه الذي قبض فيه .

الفصل الثالث

مؤتمر السقيفة

تمهيد:

أبنا فيما سبق ، أن الرجل الوحيد الذي اتجهت إليه الأنظار بعد رسول الله ﷺ إنما هو أبو بكر ، لأنه — فوق سبقه بالإسلام والهجرة والجهاد ، ومركزه العالمي والاجتماعي — كان ملازماً للنبي (ص) في أشد الظروف حرجاً ، وهو الرجل الوحيد الذي رافق الرسول (ص) في الهجرة من مكة إلى المدينة ، بعد أن ظل معه في الغار بضعة أيام . .

ولهذا فقد كان ينبغي أن تفصل الظروف والأحداث التي سبقت مؤتمر الأوصار يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم حتى نقدر مواقف أبي بكر الحاسمة ، في صدر الإسلام .

وقد أوجزنا كلمة عن وفد بني حنيفة وبني تميم ، وغيرهما ، لأن هؤلاء الذين تحدثوا عن أنفسهم ومفاخرهم ، كانوا بعد ذلك حرباً عواناً على الدين والدولة في عهد أبي بكر .

كذلك أشرنا إلى عدد كبير جداً من المنافقين واليهود ممن كانوا يجتمعون في بيوت أفراد من الأوس والخزرج ، ليخذلوا المسامين عن لقاء غساسنة الشام ، وحلفائهم الروم ، ولكننا لم نكد نعثر على عربي واحد من أهل مكة أو حتى الطائف ، يتواطأ مع اليهود ليطعن الرسول والمسامين في ظهروهم أبان الحروب العربية الرومية ، سواء في غزوات مؤتة أو ذات السلاسل . أو في تبوك التي قاد الجيوش

فيها محمد رسول الله بنفسه ، وفيها كذلك قدم أبا بكر ليحمل الراية نيابة عنه في حضوره وبأمره .

وإذن فقد كان مؤتمر السقيفة — رغم حسن ظننا البالغ بالأنصار — مشوبا بظروف وملابسات ، ليس من السهل على المؤرخ إغفالها أو القرض منها ، أو تجاهل فاعليتها في الدعوة إلى ذلك المؤتمر .

يقول المستشرق بروكلمان : والحق أن جميع الأحقاد السياسية التي كان النبي ﷺ قد كتبها بنفوذه الأدبي ، لم تلبث أن ذرقرنها . فمن ناحية كان عدد المناققين لا يزال في المدينة كبيراً جداً ، ومن ناحية أخرى كان الأنصار العريقون في المدينة يتوقون إلى التحرر من ساطان الأغلبية المتمثلة في المهاجرين ، ليصبحوا سادة موطنهم الوحيدين ، ككرة أخرى ، ثم ان عليا ابن عم النبي (ص) وزوج بنته ادعى لنفسه الحق في خلافته كرئيس للدولة ، بوصفه أقرب الناس رحماً إليه ، ولكنه كان كسعد بن عباد سيد الأنصار الذي طمع في الخلافة أيضاً ، ولا يملك من القوة أو من النفوذ ، ما يساعده على تحقيق طلبته ، ومن هنا لم يلبث أصحاب محمد السابقون أن وقفوا إلى اقناع الناس بالاعتراف بأبي بكر ، والدعائشة زوج النبي ، وكان يتمتع مع عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح بنفوذ كبير عند محمد ، بخيفة له ، فلم يعد في وسع الأنصار ، إلا أن يبايعوا للأُمير الحديد^(١) » وبروكلمان — في الواقع — ليس بدعا من المستشرقين الكثيرين ، الذين كتبوا هذه الأساطير ، ولا سيما ما يناط منها بحق علي في رئاسة الدولة التي قررت مبادئها الدستورية أن الأمر شورى ، وأن لافضل لأحمر على أسود أو أبيض ، وأنه لا أنساب ولا أحساب ، ولا رحم تخول حقوقا في خلافة النبي (ص)

ورئاسة الدولة ، بل ذلك كله منوط بالكفاية والمصلحة العامة ، وسنناقش هذه المسائل كلها في موضعها من هذا البحث .

أما نظرة الأنصار إلى المهاجرين ، فإن من الحق أن تقرر ، أن الكتب العربية الموثوق بها ، قد سجلت كلمة الحباب بن المنذر الخزرجي في السقيفة ، وكانت تدور حول هذا المعنى ، ولكن الذي أملاها عليه — في رأينا — إنما هو محض العاطفة القومية ، ثم تأثير الدسائس ، والألاعيب اليهودية والرجعية في جو الكارثة التي حلت بالدولة بوفاة رسول الله ﷺ .

على أننا لا نستطيع إخلاء طرف الروم ، وغساسنة الشام من المساهمة في خلق هذا الجو ، إذ مما لا ريب فيه ، أن بين عرب المدينة من الأوس والخزرج ، وغساسنة الشام ، وشائج من الدم والقربى . والإسلام — رغم تطويره للضماير والقلوب — فإنه لم يستأصل جميع الرواسب التي غرست منذ قرون في الأرض والناس بدليل بقاء شريحة من عرب المدينة نفسها ، يعملون دائبين على وقف الانطلاق والتحرر ، ويحالفون اليهود ، والروم ، ويواجهون النبی بالمنكر ، وهم من عرفوا بالنافقين .

ولكن ، هل نستطيع اتهام الأنصار ، وهل كانت كل الدوافع لهم على اجتماع السقيفة ، وليدة الدس والوقیعة ..

إن الواقع التاريخي يؤكد براءة الأنصار من المكيد للدين والدولة ويقرر أنهم من خيرة المؤمنين المجاهدين ، ولكنهم ظنوا أن لهم حقاً في رئاسة الدولة ، فقاموا يطلبونه بالشكل الذي هدام إليه تفكيرهم ، فهم — بدون شك — مجتهدون ، ولهم أجرهم ولهم كذلك عندهم .

وفاة رسول الله ﷺ:

في يوم الاثنين الثالث عشر أو الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ هـ (٨ يونيو سنة ٦٣٢ م) إختار نبي الله جوار ربه وصعدت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى ، وقد كان الرسول في حياته يضطلع بالقيام بأمرين خطيرين :

أحدهما لا يستطيع القيام به غيره وهو تلقى الوحي عن الله وتبليغه إلى الناس ، والثاني القيام بأعباء الشئون الدنيوية المتعلقة بكل ما يختص بالتنظيم العام لشتى شئون الدول والأفراد في حياتهم العامة والخاصة - فلما نعى الناعى رسول الله (ص) ، جزعت نفوس المسامين واهتزت قلوبهم لهذا الحادث الجال ، فلم يقو على الصبر على ألم ذلك الخطب الجسيم إلا رجل واحد هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، أما باقى المسلمين فقد جزعت نفوسهم ، فهذا عمر بن الخطاب يقوم خطيباً فى الناس ويقول : إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله (ص) توفى - وإن رسول الله (ص) والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ففاب أربعين ليلة عن قومه ثم رجع بعد أن قيل قد مات . والله ليرجعن^(١) رسول الله (ص) فايقطعن أيدي رجال وأرجاهم يزعمون أن رسول الله (ص) مات :

وهؤلاء سادة الأنصار وعلى رأسهم سعد بن عبادة والحباب بن المنذر يدعون إلى مؤتمر عام للأوس والخزرج فى سقيفة بنى ساعدة ليحددوا موقفهم من المهاجرين الذين يطعمون فى رياسة الأمة بعد رسول الله . وهذا فيما نظن لم ينشأ إلا بسبب حسامة الصدمة بوفاة رسول الله أحب الناس إلى قلوبهم جميعاً ،

أما أبو بكر فإنه حين وفاة الرسول كان بالسنح من ضواحي المدينة فلما بافته

(١) ونحن نشك فى صحة هذا الخبر الذى نسب إلى عمر رغم كثرة روايته من

، ورخى العرب .

الوفاة أسرع إلى المدينة حتى نزل على باب المسجد ، فوجد عمر يخطب الناس بما أسلفنا ، فلم ياتفت إليه ، ودخل على رسول الله في بيت عائشة ، ورسول الله مسجى في ناحية البيت عليه برد حبرة فأقبل حتى كشف عن وجهه . ثم قال : بأبي أنت وأمي . أما المودة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم إن يصيبك بعدها موته أبدا . ثم رد الثوب على وجهه ثم خرج . وعمر يكلم الناس ، فقال له أبو بكر على رسلك يا عمر ، أنصت . فأبى عمر وواصل كلامه ، فتركه أبو بكر واتجه إلى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس . من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . ثم قرأ قول الله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين »

بهذا أعلن أبو بكر وفاة رسول الله ، وآمن الناس بالله ثم بوفاة رسوله الكريم وأخذوا يعيدون قراءة الآية الكريمة التي تلاها أبو بكر ، وثاب عمر إلى رشده وعرف أن الرسول حقيقة قد مات وكان يوماً على المؤمنين من أشد الأيام بل أشدها وأفظعها في حياتهم كلها .

وقبل أن تنتقل بكم إلى حديث السقيفة يحسن بنا أن نشير إلى مواقف لأبي بكر تتعلق بوفاة الرسول ، وتشهد لهذا الرجل بالعلم والرموخ وفي مقدمتها حفظه عن الرسول قوله : ما مات نبي إلا دفن حيث مات^(١) وقد رواه أبو بكر للناس حينما اشتد خلافهم في الموضع الذي يدفن فيه الرسول حتى كادت تكون فتنة . كذلك

(١) الطبرى ح ٣ ص ٢٠٥ ونص الحديث بسند الطبرى ' ما قبض نبي إلا

يدفن حيث قبض .

موقفه في الردة وبعث أسامة مما سنفصله في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

مؤتمر الأنصار :

أما عن مؤتمر الأنصار فإن حديثنا عنه ينحصر في نقطتين
أولاً : وصف هذا المؤتمر والأسباب الدافعة إلى انعقاده
ثانياً : النتائج النظرية والعملية التي نجمت عنه لخطورة هذه النتائج في
الدولة الإسلامية فيما بعد — بيد أننا قبل الكلام عن هاتين النقطتين نرى أن
نوجز جملة عن السقيفة التي كانت مكاناً لهذا الاجتماع .

سقيفة بني ساعدة :

كانت تلك السقيفة مجاورة لسوق المدينة ، وهي عبارة عن ظلة كبيرة مبسطة
الجوانب ، وتقع في أرض بني ساعدة بن كعب من الخزرج وكانت من الأمكنة
التي اعتاد أهل المدينة الاجتماع إليها والتشاور في شئونهم الخاصة والعامة فهي ناد
يشبه دار الندوة لدى قريش في مكة ، ولقد كان لهذه السقيفة في توجيه الحكم
الإسلامي أثر بعيد الغور لا يقل عن أثر ثور أو حراء في توجيه الرسالة المحمدية
مع فارق واضح وهو أن ثوراً وحراء يتصل أمرهما بأقدس رسالة أنزلها الله على
أشرف إنسان خلقه الله ، والسقيفة أمرها متصل بسياسة الدنيا وحماية مقدسات
الدين ، ولكل خطره ولكل آثاره .

وإن مما تنبئ الإشارة إليه لفتة الأنصار القومية حينما أعانوا عن مكان
اجتماعهم في صميم أرض منسوبة إلى بعض بطونهم ولم يشاءوا عقد مؤتمرهم في
مسجد الرسول مثلاً أو غيره من الأماكن العامة ، وليس مما يستساغ في المنطق أن

يقال إنهم أرادوا بهذا أن يبعدوا عن اجتماعهم غير المرغوب فيهم، فإن حتى هذا القول يحمل في ثناياه نفس الجواب عليه، وهو أنهم كانوا يريدون إعلان القومية المحلية في المدينة وإختيار رئيس على المجتمعين في السقيفة من أصحاب السقيفة دون المهاجرين من غير أهل المدينة، وذلك إلى جانب أنه لا يعقل أن يكون بحثمهم في أخطر مسألة تهم الأمة كلها مما لا يذاع إلا بعد إبرامه، إذ على فرض هذا فإنه لن يكون ملزماً للأمة. ولا مقبولا لدى الجماعة ولكن المقبول أن يكون اختيار الأنصار لهذا المكان لإعلان أنهم أصحاب البلد وأمرأؤه.

مادار في المؤتمر :

في ساعة رهيبة من ساعات اليأس القاتل، ساعة نعى الرسول الكريم ظن الأنصار أن الأرض تموج من تحتهم وأن الزمن الذي اختطف أحب الخلق إليهم من بين أظهرهم، وقد كان بلسم شفاء لنفوسهم، وراحة رحمة لقلوبهم، وإكسير حياة لأرواحهم، لا يمكن فيه الثقة بصديق مهما بلغ من الوفاء.

في هذه الساعة الرهيبة نفر الأنصار إلى طبيعة عربية قديمة فدعوا إلى اجتماع السقيفة، واثابوا إلى هذا المكان وجسد الرسول مسجى في حجرة عائشة والمهاجرون وبنو هاشم مشغولون بتجهيزه وأداء مراسم الجنازة، ولقد أوشك الأنصار أن يختاروا سعد بن عبادة أميراً على المؤمنين أو على الأقل على الأنصار من المسلمين، لولا أن المنافسة التي كانت بين الأوس والخزرج إلى جانب عدم موافقتهم على الاجتماع قد دفعت بعضهم^(١) لأن يتسللوا إلى المهاجرين لاخطارهم بما يصنع الأنصار في سقيفة بني ساعدة.

(١) هذا البعض هو : عويم بن ساعدة الأنصاري، وعاصم بن عدي الأنصاري

(الطبري ج ٣ ص ٢٠٨) .

فكان أن قابل بعض الأنصار أبا بكر وعمر وأخبروهما خبر الأنصار في السقيفة ؛
فأسرع الرجلان إلى حيث الأنصار والتقى بهما في الطريق أبو عبيدة بن الجراح وقيل
وسالم مولى أبي خديجة ، وفاجأ الثلاثة الأنصار في السقيفة فوجدوهم قد أصغوا لخطاب
سعد بن عباد الذي كان مريضاً جالساً يبلغ عنه ابنه ما يقول ، وكان من قوله : يا معشر
الأنصار : لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب . إن
محمداً عليه السلام لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع
الأنداد والأوثان فما آمن به من قومه إلا رجال قليل ، وكان ما يقدر على
أن يمنعوا رسول الله ﷺ ولا أن يعزوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً
عموا به حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة . وخصم بالنعمة
فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله والمنع له ولأصحابه والأعزاز له ولدينه والجهاد
لأعدائه فكنتم أشد الناس وأثقله على عدوه من غيركم حتى استقامت العرب
لأمر الله طوعاً وكرهاً وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً حتى أثنى الله عز وجل
لرسوله بكم الأرض ودانت بأسيافكم له العرب وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم
قريب عين - استبدوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم دون الناس ، فأجابوه
بأجمعهم : أن قد وفقت في الرأي وأصبت في القول ولن نعدو ما رأيت نوليكَ
هذا الأمر فإنك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضى ^(١) .

على أن أبا بكر وصاحبيه ما كادوا يستقرون في السقيفة حتى قام خطيب
آخر من الأنصار وأخذ ينادى بقوله . أما بعد : فنحن أنصار الله تعالى وكتيبة
الإسلام وأنتم معشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة من قومكم فإذا هم أرادوا
أن يخنزلونا من أصلنا وأن يخنزنونا من الأمر .

ولم يكده هذا الخطيب ينتهي من إلقاء كلمته حتى ثار عمر وأراد أن يخطب
يتقى الأنصار ليضع الأمور في نصابها ، ولكن أبا بكر رجاء عمر أن يترث وأن
يبدعه هو يتولى الحديث مع الأنصار فوافق عمر فقام أبو بكر فحمد الله وأثنى
عليه ثم قال :

إن الله بعث محمدا رسولا إلى خلقه وشهيدا على أمته ليعبدوا الله ويوحده
وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ويزعمون أنها لهم شافعة ولهم نافعة وإنما هي من
حجر منحوت وخشب منجور ثم قرأ : ويعبدون من دون الله مالا يضرهم
ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله : وقالوا ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .
فمظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخص الله المهاجرين الأولين من
قومه بتصديقه والإيمان به والمؤاساة له والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم
وتكذيبهم لإيائهم وكل الناس لهم مخالف زار عليهم فلم يستوحشوا لقله عددهم وشنف
الناس لهم وإجماع قومهم عليهم فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله
سوالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ولا ينزعهم
ذلك إلا ظلم .

وأنتم يامعشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة
بني الإسلام ، رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته وفيكم جلة
الزوجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلكم فنحن الأمراء
وأنتم الوزراء لا تفتانوا بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور^(١) .

فقام الخطيب بن المنذر فقال : لا والله لا تفعل منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر : لا
جولكننا الأمراء وأنتم الوزراء .. لن يعرف هذا الأمر ، إلا لهذا الحى من قريش . ثم

أوسط العرب داراً وأعربهم أحساباً^(١) فقام الحباب بن المنذر فقال : يامعشر الأنصار إملكوا عليكم أمركم فإن الناس في فيثكم وفي ظلكم ولن يجترى مجترى على خلافكم ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم . أبى هؤلاء إلا ماسمعت فمنا أمير ومنهم أمير . فقال عمر : هيهات .. لا يجتمع اثنان في قرن^(٢) .

والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورها منهم . ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين . من ذا ينازعنا سلطان محمد (ﷺ) وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل يباطل أو متجانف لاثم أو متورط . في هانكة . فقام الحباب بن المنذر فقال : يامعشر الأنصار : إملكوا على أيديكم ولا تسعرا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر .. فإن أبوا عليكم ماسألتهم فأجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيا فكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين . ثم قال في ثورة وانفعال .

أنا جزيها^(٣) المحكك وعزيقها^(٤) المرجب والله لئن شئت لنعيدن لها جذعة :- فقال عمر : إذا يقتلك الله تعالى . قال الحباب : بل إياك يقتل فقال أبو عبيدة : يامعشر الأنصار . إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير . فقام بشير ابن سعد أبو النعمان بن بشير فقال : يامعشر الأنصار إنا والله لئن كنا أولى فضيلة

(١) ابن الديع في التيسير ج ٢ ص ٢ .

(٢) القرن بفتح القاف والراء الحبل الذي يقرن به البعير ويتصد به اميران على

دولة .

(٣) الجزيل تهدير جزل وهو العود الذي يحك به الجرب

(٤) المزيق النخلة الكثيرة الثمر ومعنى العبارة أنه عظيم الراى محروب .

بقي جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا . والكدر لأنفسنا فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً ، فإن الله ولي المنّة علينا بذلك ، ألا ان محمداً (صلى الله عليه وسلم) من قريش وقومه أحق به وأولى وإيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً . فاتقوا الله ولا تخالفوهم . ولا تنازعوهم . فقال أبو بكر : هذا عمر وهذا أبو عبيدة : فأيهما شئتم فبايعوا فقال عمر لا والله لا تتولى هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين وثاني إثنين إذا هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ، أبسط يدك تباعك ، فلما ذهب ليبياعه . سبقهما إليه بشير بن سعد . فبايعه ، فناداه الحناب بن المنذر . يا بشير بن سعد ما أحوجك إلى ما صنعت ؟ أنفست على ابن عمك الإمارة فقال : لا والله ولكني كرهت أن أنازع قوما حقاً جعله الله لهم .

وبيعة بشير الخزرجي كسر على سعد بن عباد ما كان ينتظر وتقاطرت الأوس على بيعة أبي بكر ، وازدحم الناس على البيعة حتى لقد وطئوا سعد بن عباد بأقدامهم وأقبلت أسلم بمجموعها حتى تضايقت بهم السكك فبايعوا أبا بكر . واقبل الناس من كل جانب يبايعون لأبي بكر ولم يخالف عليه أحد سوى سعد ابن عباد الذي كادت تؤخذ البيعة له وكان مريضاً فنقل من السقيفة إلى بيته بعد . ملاحاة مع عمر حتى كادت تؤجج فتنة لولا تدخل أبي بكر .

وبهذا استطاع أبو بكر وصاحبا عمر وأبو عبيدة ، أن يسكنوا هذه الفتنة التي كادت تهدد الدولة الإسلامية الناشئة في اخرج ظروفها .

وإذا كان لنا ان تسامح عن الحافز لهؤلاء المؤمنين الذين صحبوا الرسول في أدق الظروف ، وكانوا عصب الدعوة وحماها ، فإن من اول ذلك وأقرب به إلى العقل سمانسجله فيما يأتي :

(١) تأصل الروح القبلية في نفوس العرب ..

وقد كان المسلمون في حياة الرسول ينتمون إلى قبائل شتى ، ويطلقون مختلفات واجناس متباينة ، وكان إلى جانب هذا أخلاط من اليهود والمنافقين يساكنون هؤلاء المؤمنين في المدينة وغيرها ، فلما نعى الناعى رسول الله وقع ذلك من نفوس المسلمين موقع الرعد والصواعق فهزها هزاً عنيفاً وكاد يأتى على بنيان الإيمان من القواعد .

أجل . . جزع الأنصار إذ قيل رسول الله قد مات وقلقت نفوسهم وغدى اليهود والمنافقون هذا القلق بإثارة الأحقاد العربية القبلية وأذكوا روح المنافسة القديمة بين قبائل العرب فتهدج صوت الإيمان في قلوب كثير من نقباء الأنصار فنار هولاء إلى سقيقتهم ، لا بوصفهم أنصار الإسلام ، بل باعتبارهم أصحاب البلد وأبناء الأوس والخزرج وأنه من الخير لهم أن يبرموا أمرهم في غيبة من المهاجرين الذين وفدوا عليهم صحبة الرسول الكريم^(١) عليه الصلاة والسلام .

(٢) تصريحات الرسول للأنصار .

ثم أن الأنصار يتمسكون بأحاديث أثرت عن رسول الله (ص) تفيد أن الرسول رجل من الأنصار ، وأنهم آله وعشيرته فظن الأنصار أن رئاسة المسلمين بعد رسول الله (ص) يجب أن تكون فيهم وحدهم ، ولهذا رأوا أن يولوا أمير المؤمنين منهم وأن يجتمعوا على زعيمهم سعد بن عباد ، وأن المهاجرين إذا علموا بذلك لا ينازعون في هذا .

الأنصار إذن متأولون مجتهدون ، فهم مأجورون وإن أخطأوا ؛ إذ غابهم

(١) انظر خطاب الحجاب نجد فيه هذا المعنى واضحاً جلياً ..

وضع الأمور في نصابها ، وإن أخطأوا المحجة في نظر الأغلبية .

أما تلك التصريحات التي استند إليها الأنصار فمن أهمها :

أولا : ماورد في بيعة العقبة الكبرى . إذ قال الرسول لوفد المدينة مع مصعب بن عمير - الدم الدم والهدم الهدم - يعني إنا منكم وأنتم مني أيها الأنصار . وهذا عندما قال الأنصار للرسول : فهل عسيت إن نحن بايعناك وقاطعنا اليهود ثم أظهرك الله تعالى أن ترجع إلى قومك وتدعنا : فعند ذلك صرح لهم ذلك التصريح الآنف .

ثانياً : ما حدث في غزوة بدر الكبرى سنة ٢ هـ (٦٢٤ م) فقد أخذ الرسول يستشير الناس في لقاء المكين فشاور المهاجرين فوافقوا على قتالهم ، وأحبوا مصادمتهم ، ولكن الرسول لم يقدم على الحرب ولم يهتم برأى هؤلاء المهاجرين . ثم أعاد الاستشارة ووجهها إلى الأنصار فوافقوا فعند ذلك استطاع الرسول أن ينشب القتال وهو مطمئن إذ كان العدد والشوكة في الأنصار ، وهم الأكثرية الساحقة في جيش المسلمين ، وبهم كان النصر الذي كان سببا في إلقاء هيبة المسلمين في نفوس المشركين .

ثالثا : وفي فتح مكة ، كان الأنصار هم الذين أرغموا قريشا على الطاعة بما لهم من العدد والسلاح ، فهم عضد الرسول وساعده عند الشدائد ، وهم فاتحوا مكة فلهم السيادة بحكم الفتح على قريش .

ويوم حنين ، وقد غنم المسلمون مغانم كثيرة ، فأعطى الرسول ناسا لما يرى فيهم من ضعف ونفاق ، وترك الأنصار ، فظنوا أن ذلك لهوانهم على الرسول ، فتحدثوا وأكثروا ، فعلم بهم رسول الله فجاءهم ، وحدثهم وطمأنهم مؤكدا لهم أن تصريحاته السابقة باقية ، وأنهم آله وعشيرته ، وأنه أصبح رجلا من أهل

المدينة . ثم قال : أفلا ترضون ياممشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة ، لكنت امرءا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلك شعب الأنصار .

نقول : بأمثال هذه التصريحات ، والتوضيحات تشبث الأنصار بأحقيتهم في إمارة المؤمنين بعد رسول الله (ص) :

٣ — الروح القومية :

كذلك رأى الأنصار أنهم أصحاب العاصمة الإسلامية وهم ملاك الأراضي من قبل وأصحاب الضرع والزرع في المدينة وأنهم . وقد أقاموا دولة الإسلام في بلادهم وبسوا عددهم — لا ينبغي في شرعة السياسة أن يتخلوا عن السيادة في وطنهم لقوم ظنهم أجنب عنهم ، وإن كانوا أعزة عليهم ، ومتفقين وإياهم في دينهم وملتهم ، لأن هذا معناه تسامح في أبسط شئون الوطن مما يجعل الأجنبي يتحكم في رب الدار ، وهذا ليس من منطق المصلحة ولا أسلوب الحكم والإدارة بل إن الذي ترتضيه الجماعة في التقاليد الأولى أن يكون أميرها من بينها . ومن أقربهم إلى أفرادها ..

كان الأنصار إذن مدفوعين بعامل القومية إلى جانب ما سبق . ولذلك كانت ثورة أحد ساداتهم تدور حول هذا المعنى . فهذا الحباب يقول : فإن أتى المهاجرون أن يؤمروكم عليهم ، فأجلوهم عن بلادكم .

وهذا لم يصدر من الحباب — في أغلب الظن — إلا لاقتناعه بأنه صاحب البلاد ، والمواطن الأصيل — في رأيه — ومن ثم فإنه إما أن يوافق المهاجرون على إسناد الرياسة إلى الأنصار ، أو فليخرجوا من المدينة التي هي بلاد الأنصار .. بيد أنه مع وضوح هذا السبب من الأنصار في التقاليد السياسية ترى من الحق

أن نشير إلى أنهم قد غفلوا عن مبادئ أخرى وضعها الرسول ، ودعّمها بالقول والعمل. وتلك هي أن رسول الله قد آخى بين المهاجرين والأنصار وجعلهم شركاء في المدينة ؛ وبهذا أصبح المهاجرون مواطنين أصليين كالأنصار سواء بسواء .

كذلك نرى الرسول يصرح في مناسبات متعددة بأن المسلمين كتلة واحدة وجسم واحد، وأن ذمتهم واحدة يقوم بها أديانهم وأن الإسلام يَجِبُ ما قبله من حزازات ومنافسات وقوميات وأن كل من يعتنق الإسلام من أى جنس ولون يكون له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وأن كل أمور المسلمين يجب أن تعرض عليهم ويبدى كل فرد فيها رأيه ، وإن أكرم المسلمين اتقاهم سواء كان مكياً أو مدنياً ، وإن المفاضلة في جميع الشئون الدينية والسياسية وغيرها لا تكون إلا بالتقوى وهي التمسك بروح الإسلام وحسن التدبير وكفاية الشخص ، وقوة الصبر مع الله . والجهاد في سبيل دينه ورسوله وتحمل المسئولية العامة .

ومن كل ذلك نستطيع أن نقول إن الأنصار كانوا دعاة قومية محلية وأما المهاجرون فكانوا يريدونها جامعة إسلامية شاملة ولعل الفرق بين الرأيين يتضح لنا إذا افترضنا نجاح الأنصار في تأمير أحد المدنيين على مسلمة المدينة كما أراد الحباب ، فتكون دولة إسلامية في المدينة تنفذ أوامرها على يثرب فقط .

أما المهاجرون فإنهم حالو دون هذا . إذ كانت نظريتهم أن ينتخب المسلمون جميعاً في جميع أنحاء البلاد الإسلامية أميراً عليهم ويوجههم ويشرف على مقدسات دينهم ودنيائهم وهذا ما قد كان وهو الموافق لحكم التعاليم الإسلامية في السياسة الثورية النابعة من جماهير الأمة .

بقى أن نشير إلى النتائج التي أسفر عنها مؤتمر السقيفة وما بقي منها في العصور التالية .

الشورى : وأول هذه النتائج ، الشورى التي بدت واضحة في مبايعة أبي بكر ، إذ عرضت المسألة على بساط البحث وأدلى كل برأيه ، ثم تغلب رأى المهاجرين فبويع أبو بكر ، وقد ظلت الشورى كمبدأ في بيعة الخليفة طوال دولة الخلفاء الراشدين والدول التي تلتهم ، وإن تطورت بتطور العصور . فنراها في عصر الملك الوراثي زمن الأمويين والعباسيين مسألة رسمية شكلية يتظاهر الملوك بالعمل بها لا أكثر . والحقيقة سافرة عن الاستبداد ونبذ الشورى .

الانتخاب : كذلك سنت السقيفة مبدأ الانتخاب المباشر لأصلح الموجودين من كبار رجال الدولة . وقد عمل بهذا المبدأ أيام الأربعة الراشدين . وترك بعدهم مباشرة فلم تعمل به أسرة من الأسر التي حكمت المسلمين بوجه عام .

البيعة : ومن المبادئ التي سنتها السقيفة مبدأ البيعة ، وهي أن يصفح الناس أميرهم علامة على الرضا بامارته . وقد وظل هذا المبدأ ، وتطور مع الزمن ، بيد أنه ظل على كل حال .

تحديد برنامج الحاكم : ومما سنته السقيفة . أن يتقدم رئيس الدولة بخطاب بين يدي حكمه وبعد مبايعته يبين فيه منهجه وخطته في الحكم ليطمئن إليه الناس ويعرفوا مسلكه في الحكم . وقد ظل هذا المبدأ معمولاً به حتى الآن وهذه السنة قديمة وجدها الإسلام عن الأمم السابقة ولم ينسخها بل أقرها واستحسنها المسلمون فساروا عليها .

نشوء الفرق : على أن من أهم النتائج التي أسفر عنها هذا المؤتمر نشوء بذور الفرق الإسلامية التي تشكلت فيما بعد .

فقد كان فريق الأنصار وهم الذين لا يريدون تأمير قريش ووافقهم بعد مدّة طائفة الخوارج ، مع فارق بسيط وهو أن هؤلاء يدينون بالمبدأ الجمهورى المحض ، والآنصار يريدون صرف الخلافة عن قريش لتكون فى أهل المدينة دون سواهم . كذلك يقال أنه كان هناك فريق يرون حصر الخلافة فى آل البيت ، وهؤلاء هم الذين نظمت على أساسهم فرق الشيعة فى العصور التالية وإلى جانب هؤلاء وأولئك كان الجمهور الأعظم الذى بايع لأبى بكر وهذا الجمهور هو الذى جاء على أساسهم فريق أهل السنة والجماعة .

وعلى هذا يكون مؤتمر السقيفة أساساً لنشوء مذاهب أهل السنة والشيعة ، والآنصار ثم الخوارج ، وأخيراً المعتزلة . إن صح أن فريقاً من المسلمين اعتزل المهاجرين والآنصار ورفض أن يبايع لأحد من هؤلاء أو هؤلاء وهذا لا يؤيد مستند يوثق به .

الفصل الرابع

مؤتمر المسجد، وموقف كبار الصحابة

بالشكل الذي أبتاه تمت بيعة أبي بكر في السقيفة، ولكن هل يمكن أن يعتمد المسلمون خلافة أبي بكر بهذا الانتخاب العابر، ولم يحضر جلّتهم وجل كبرائهم هذه البيعة، بل إنهم لم يدعوا إليها ولم يعلموا بها. الواقع أن هذا المعنى لم يغيب عن أبي بكر، ولذلك نراه بعد أن يتم تجهيز الرسول ومواراته، يطلب من المسلمين أن يجتمعوا لأمر هام. فيحضر كبار المسلمين، وكل ذي رأى فيهم، ثم يقف عمر بينهم ويخطبهم قائلاً:

أيها الناس، إني قد كنت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلا عن رأيي وما وجدت في كتاب الله ولا كانت عهداً عهده إلى رسول الله ﷺ. ولكن قد كنت أرى أن رسول الله (ص)، سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا، وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسول الله (ص)، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله (ص). وثاني اثنين إذ هما في الغار. فقوموا فبايعوا، فعند ذلك بايع الناس بيعة العامة بعد بيعة السقيفة^(١).

وعلى ذلك تعتبر بيعة أبي بكر، ناشئة عن شورى واختيار من المسلمين كما يعتبر انتخابه حراً لا جبر فيه ولا استبداد لأنه بعد ما سكن الفتنة في السقيفة وكانت حينئذ بيعة، لم يكتف أبو بكر بها. بل جمع الناس وعرض عليهم ما كان في هذه السقيفة. فأيد المسلمون بيعته فيها وجددوا له التأييد بالبيعة له، ولم يخالف عليه أحد.

(١) أنظر الطبري ج ٣ ص ٢٠٣

إلا من ذكرنا من مثل سعد بن عبادة والحباب بن المنذر ، وكان ذلك في السقيفة
أما حين بيعة المسجد العامة في اليوم التالي ، فلن الطبري يروي أنهما بايعا ،
مختارين ، وإن كانت هناك روايات أخرى أيضاً تقول بامتناعهما مدى الحياة ^(١) .
أما ما يقال من امتناع بني هاشم وعلى رأسهم العباس وعلى عن مبايعة أبي
بكر فإننا سنتحدث عنه حديثاً أو في بعد قليل .

* * *

بعد أن انتهى عمر من خطبته السابقة بين يدي أبي بكر وقام المسلمون
فبايعوا له . قام أبو بكر على المنبر فحمد الله ، وأثنى عليه بالذي هو أهله ، ثم قال :
« أما بعد : أيها الناس فإنني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت »
« فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني : الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف »
« فيكم قوى عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى منكم ، الضعيف عندي »
« حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله . فإنه »
« لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله »
« بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي »
« عليكم ، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله » .

وبهذا البيان البديع ، والخطاب المحكم افتتح أبو بكر خلافته وحدد منهجه ،
وأجل برنامجه ، ولم ينس أن يؤكد لهم وجوب النصيحة للخليفة وطاعته متى أطاع
الله ورسوله . كما أكد لهم فريضة الجهاد ، وأسهب في الحث عليها .

من شمائله :

لما أسلم أبو بكر سماه الرسول عبد الله ، وكان أعداؤه يكنونه أبا فصيل ، وهو
أول من أسلم من الرجال ، وإذا شك أحد في هذا ، فلا مجال للشك في أنه من

أسبق أعوان الرسول ، وأخلص المؤمنين بدعوته .. ذلك الإيمان الذي بلغ درجة اليقين المحض . يقول الرسول ﷺ : « ما دعوت أحد إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر . وفي حديث آخر : « ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبي بكر إلا أن يكون نبي » . وبلغ من إيمانه ، أنه لما نزل قوله تعالى (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) قال يا رسول الله « لو أمرتني أن أقتل نفسي لفعلت » . فقال الرسول ﷺ : صدقت .

لم يتسرب الشك إلى نفسه حتى في حديث الإسراء ، حين كان الناس بين مصدق ومكذب ، وحين ارتد أناس ممن كانوا آمنوا . أما أبو بكر فقال : إني لأصدق فيما هو أبعد من هذا . أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة ، فسمى أبو بكر الصديق من يومئذ .

كان أبو بكر لين الجانب ، كريم الشئائل ، فاجتذبت هذه الصفات محبة الناس له ، وإجلالهم لقدره . فأسلم على يديه رجال عظماء منهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف .

ولم تكن تضحية أبي بكر قاصرة على إخلاصه للمبادئ الإسلامية . بل لقد انفق في سبيل هذه المبادئ حوالي خمسة وثلاثين ألف درهم من خالص ثروته . حتى إذا كانت الهجرة لم يبق له سوى خمسة آلاف درهم . انفق كل هذا في طاعة الله . وقد اعتق سبعة كلهم يعذب في الله ، فكان يعتق الضعفاء والنساء حتى قال له أبوه : « أي بني : أراك تعتق أناساً ضعافاً ، فلو أنك أعتقت رجالاً أقوياء يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك . فقال : أي أبت : إني أريد ما عند الله .

وعلى الجملة فإن أبا بكر ، كان نسيج وحده في الدين والخلق والعلم والكرم ،

وكان آية للرجولة الجادة في أنتى صفعاتها وكان يجمع إلى دماثة الخلق ، شجاعة القلب وقوة الارادة . حدث على رضى الله عنه ، قال : أخبرونى من أشجع الناس . فقالوا أنت . فقال : أما انى ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه . ولكن أخبرونى بأشجع الناس : قالوا لا نعلم . فقال على رضى الله عنه : أشجع الناس أبو بكر ، ثم حدثهم عن تقدمه لحراسة النبي ﷺ ، يوم غزوة بدر ، وكيف انه صد هجمات أبطال المشركين عن رسول الله ، حتى كان لا يدنو من النبي أحد من الأعداء ، إلا دفع به أبو بكر حتى يسقط على الأرض .

اشتراكية أبى بكر :

لما اختار الله رسوله . وخلفه أبو بكر على الأمة : سار سيرته في المساواة بين الناس ، وفي تنفيذ فكرة « الاشتراكية الاسلامية » . اذ كانت الزكاة تجمع إلى بيت المال ، فينفق منها من الصدقات والمغانم على شئون الدولة فيما يصلح للجيش وغيرها فإذا بقى بعد ذلك شئ ، قسمه بين المسلمين بالسوية ، وقد طبق ذلك بدقة في توزيع ذهب المنجم الذى اكتشف فى بنى سليم قرب المدينة . يقول ابن حجر : استقر أبو بكر خليفة بعد رسول الله (ص) ولقبه المسلمون « خليفة رسول الله » وكان أبيض نحيفا معروق الوجه نأىء الجبهة ، لطيفا خفيف العارضين ^(٢) .

وسنعرض لمواقفه الكثيرة المشهودة في مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله .

موقف على بن أبى طالب :

على الرغم من أن ثقات المؤرخين يذكرون أن أبا بكر كان متفقا عليه من

(١) انظر ص ٦٩

(٢) الاصابة ج ٤ ص ١٠٢ .

جميع المسلمين ؛ ولم يتخلف أحد عن بيعته ؛ حتى سعد بن عبادة نفسه يروى أنه بايع في بيعة العامة كما أسلفنا .

بل على الرغم أننا لم نسمع في التاريخ أن علياً ثار على أبي بكر — على الأقل كثورة الأنصار في السقيفة . ولم يقف في الجمع الحاشد حين بيعة العامة . يندد بأبي بكر ومن بذل له البيعة .

على الرغم من هذا كله نرى أن ابن الأثير وغيره يتحدثون عن خلاف عليّ عل أبي بكر ، وامتناعه وبني هاشم عن مبايعته ، ويسندون هذا الحديث إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ^(١) .

ومما ينبغي ذكره هنا ، أن صاحب الكامل ، ثم المرحوم الخضرى وغيرهما قد رجحا رواية هذا الخلاف . وتبعهما من لف لفهما في ذلك .

ولكننا بعد الموازنة بين الحقائق التاريخية . نرى أن عليا بايع منذ البيعة العامة . وأن المسلمين جميعاً عدا سعد بن عبادة قد بذلوا البيعة مختارين لأبي بكر ولم يتخلف على ولا بنو هاشم عن مبايعة الخليفة الأول . وذلك لعدة أمور .

(١) انظر تيسير الوصول = ٣ ص ٤٦ ، وقد جاء في هذه الرواية أنه : أتت فاطمة والعباس رضي الله عنهما أبا بكر رضي الله عنه يلتمان ميراثهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . لا نورث ما تركناه صدقة... فهجرت فاطمة فلم تكلمه حتى ماتت بعد ستة أشهر فدفعها على ليلا ولم يؤذن بها أبا بكر ، وفي هذه الرواية أيضاً : فلما رأى على انصراف وجوه الناس عنه ضرع إلى مصالحة أبي بكر ، ثم تذكر هذه الرواية أن علياً تقابل مع أبي بكر وتماتبا ثم بايع لأبي بكر ، وتبعه بنو هاشم ، فرضى الناس عن على حين راجع الأمر بالمعروف النخ — اه تيسير الوصول ج ٢ ص ٤٦ — ٤٧

أولاً — ما ذكره الطبري في تاريخه^(١) من أن علياً بايع من أول الأمر وقد رواه بسنده عن سعيد بن زيد^(٢) وحبيب بن أبي ثابت^(٣) وكذا مراجعته لأبي سفيان بن حرب^(٤).

ثانياً — أن علياً كان إلى جانب أبي بكر في حروب الردة وكان على من جنوده المخلصين حتى لقد وكل إليه قيادة فرقة الانقاب مع الزير و ابن مسعود^(٥) وهي الفرقة التي كانت مهمتها حراسة الطرق المفتوحة الموصلة إلى العاصمة ضد غارات المرتدين.

ثالثاً — أن علياً بايع فيما بعد لعمر بن الخطاب ووقف إلى جانب عمر ،

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ٢٠١ وما بعدها .

(٢) نص الآثار الوارد « قال عمر بن حريث لسعيد بن زيد ، أشهدت وفاة رسول الله صلى عليه وسلم ؟ قال : نعم قال : فمضى ببيع أبو بكر قال يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم . كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة . قال : فهل خالف عليه أحد . قال : لا إلا مرتد أو من قد كاد أن يرتد . لولا أن الله عز وجل ينقذهم من الأنصار . قال . فهل قعد أحد من المهاجرين . قال لا . تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم »

(٣) نص حديثه « كان علي في بيته إذ أتى آت فقال له قد جلس أبو بكر للبيعة فخرج في قميص ما عليه إزار ولا رداء عجلاً كراهية أن يبطئ عنها حتى بايعه . ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأثاء فتنجلله ولزم مجلسه »

(٤) ذلك أن أبا سفيان فيما يروي . قابل علياً بعد مبايعته لأبي بكر في البيعة العامة وقال له : مالي أرى هذا الأمر في أقل حى من قریش والله لئن شئت لفلأهنا خيلاً ورجلاً ، فقال علي : يا أبا سفيان طال ما عادت الإسلام وأهله فلم تضره بذلك شيئاً . إنا وجدنا أبا بكر لها أهلاً ، وطبيعى أنه متى وجد أبا بكر أهلاً للخلافة ، فإنه لن يتزعج ، وذلك القى قد كان فيما ترى ، رغم عدم ثقنا في مثل تلك الأخبار ولكنها هي التي تحت أيدينا .

(٥) الأمم والملوك للطبري ح ٣ ص ٢٢٣ .

وصاهره عمر فتزوج أم كلثوم ابنة علي من فاطمة وعمر هو التالى لأبي بكر وخليفة المسلمين من بعده فلا يعقل أن يمتنع عن بيعه أبي بكر ، ويباع لعمر الذى هو أدنى منزلة وقدرأ من أبي بكر .

رابعاً — أن علياً كان ملازماً للخلفاء الثلاثة السابقين عليه ، فباع عثمان كما بايع لصاحبيه من قبل ، بل إنه كان أطوع لعثمان من بنائه فى الوقت الذى باعده البعيد والقريب ، وثارت عليه أمصار الدولة ولامته عائشة أم المؤمنين .

ولكن علياً لم يخذل عثمان ولم يمن عليه ، بل صدقه إذ كذبه الناس ، ودافع عنه إذ تركه معاوية نفسه .

فهل لمثل هذا الرجل يقال انه خالف ، فلما جفاه الناس وافق وهل فى التاريخ قرية أشنع من هذه على رجل كله خير وإعراض عن الباطل واستمسك بروح الإسلام .

ثم إن خلق على وسجاياه التى طفحت بها كتب التاريخ تجعلنا نعتقد أن علياً ليس من أولئك المتعلقين الذين بالدين يأكلون وبالمدارة يعيشون ، وبينون مجدهم على نفاق الفوغاء ومخادعة الدهماء .

لقد حدثنا التاريخ أن عيب على الوحيد ، يتركز فى سلوكه سبيل الحق فى معاملة الجميع ، فلا يعطى أحداً فوق ما يستحق ، ولو كان فى ذلك ضياع سلطانه ، حتى لقد كانت هذه السياسة من أهم الأسباب فى إخفاقه ضد خصومه .

هذا الذى أجمع عليه المؤرخون يرينا صورة على على نقائها فهو لا يداهن فى دين الله ، ولا يقبل غير الحق ولو كلفه ذلك فصل هامته .

فهل يمكن لمثل هذا أن يحامل الناس فيطيعهم إذ يظفر بالسلطان ، ويعصيههم إذ ينصرف عنه الجاه والنفوذ . . اللهم لا . .

خامساً — هو أخيراً فإن رواية الخلاف التي أشرنا إليه ، على ما بها من اضطراب وتفكك . هي متناقضة في نفسها ، إذ بينما يتحدث الراوى عن الميراث إذا به يخلط بها مسألة الخلافة مما يدلنا على أن واضعها من الشيعة الغلاة الذين يقولون بأن الخلافة بالنص لا بالشورى .

ومن هنا كانت حملتنا عليها وعلى ما تضمنته من أمور لو صحت لغيرت تاريخ على من أساسه . وذلك قلب للحق ، ولما أجمع عليه المؤرخون وفي مقدمتهم الشيعة الغلاة الذين فيما نظن — هم المؤلفون لرواية هذا الخلاف .

حديث الأئمة من قریش :

وقبل أن نختتم الحديث عن السقيفة وما تلاها ، نرى أن نعرض لمسألة أخرى تشبه هذه المسألة تماماً ، وتلك هي ما نسب إلى أبي بكر من أنه عندما ذهب إلى السقيفة وشهد حال الأنصار ، روى لهم حديثاً عن الرسول ، فعند ذلك بايعوا له ، وسكنوا وكفوا عن الخلاف .

أما هذا الحديث المزعوم فهو (الأئمة من قریش) . وقد ذكر ذلك الخضرى فى محاضراته ، وسبقه إليه بعض القدامى .

والذى يهمنا فى هذا المقام أن رأينا مخالف لرأى الخضرى وأسلافه ودليلنا على ذلك ما نوجزه فيما يلى :

- ١ — عليم وجود هذا الحديث ضمن خطب أبى بكر سواء فى السقيفة أو للمسجد ، فى البيعتين العامة والخاصة ، ولا فى خطب عمر أو غيره ، كما أبنا آنفاً .
- ٢ — أن اجتماع السقيفة ؛ وتداول الأنصار فى الأمر ومقارعة المهاجرين لهم

بالحجج الإقناعية يدل بوضوح على أنه لم تكن هناك نصوص تقيد المسلمين بقبيلة معينة أو بيت معين ، بل ترك الأمر للمسلمين يشكلونه حسب المصلحة العامة لدولتهم .

٣ — أن هذه الرواية لم نجد لها أصلاً في الصحيح من أحاديث الرسول بهذا النص وكل الروايات . على علاقتها — التي وردت في هذا الشأن بأساليب مختلفة ، لم تكن فيها رواية بهذا النص^(١) .

٤ — كلمة (إمام) الواردة في هذا الحديث لم تعرف بلغة ذلك العهد ، كعلم على خليفة الرسول (أمير المؤمنين) بل هي اصطلاح على إمام الصلاة فحسب : وبين يدنا ألقاب الرئيس الأعلى للدولة الإسلامية وتراه يلقب أولاً « الخليفة » ثم « خليفة الخليفة » ثم « أمير المؤمنين » ، ويظل ذلك علماً على كل رئيس يتولى رئاسة الدولة الإسلامية حتى كان العصر الثاني للدولة العباسية ، فنشأ هذا اللفظ (إمام) وأطلق على خليفة الإسلام ، وقد كان ذلك عندما أصبحت الشيعة دول تنافس الدولة العباسية ، وتنازعها السلطان ، فاتخذ هؤلاء كلمة الأئمة ؛ إحياء لذكرى أئمتهم الذين نكل بهم الأمويون والعباسيون . ثم جرى ذلك على السنة الشعراء . وفي مؤلفات بعض المؤرخين ثم المستشرقين .

وأما إطلاق كلمة (الإمام) على إبراهيم بن محمد العباسي في أواخر الدولة الأموية ، فلا ينافي ما ذكرنا إذ كان الإمام المذكور مجرد رئيس للجمعية السرية التي تسعى للوصول إلى الحكم على أنقاض الأموية . ولذلك ترى أن أول خليفة يتولى الحكم يلقب بأمير المؤمنين ، ويظل يخاطب به سائر خلفاء العباسية ..

٥ — على أن روح الإسلام — وهي شورى محضة — تنبوع عن هذا الحديث ، لأن النص تستحيل معه الشورى والانتخاب ، ويترتب على ذلك — إن صح —

(١) انظر تيسير الوصول (باب الخلافة) .

إلزام المسلمين بالوقوف عند مبدأ النصوص طبقا للتعاليم الإسلامية ، ويكون جدل الأنصار مخالفة صارخة لمبادئ الدين ، كما أن خروج الإمارة من قريش يعتبر خروجاً على الإسلام الذي ينص على أن الإمارة يتحتم أن تكون فيها ، وكل ذلك مخالف للحق والتاريخ ، إذ الأنصار من خيار المسلمين ، والإمارة خرجت من قريش في عصور كثيرة ، وروح الإسلام لا تتفق مع هذا الحديث المزعوم . والكتاب الذي هو ميزان الإسلام لا يشير على المسلمين إلا بعمل الأصلح في دينهم ودنياهم ، بل إنه ليصرح أن التقوى هي الأساس في وزن الرجال (إن أكرمكم عند الله اتقاكم) . وكذلك الحديث الصحيح ينادي بأنه ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى : اسمعوا وأطيعوا ولو تأمر عليكم عبد .. ولهذا وأشباهه نرى أن هذا الحديث المزعوم ، سواء كان على سبيل الخبر أو الإنشاء لا ينسجم مع روح الإسلام ، ولا مبادئ النبي في السياسة والإدارة ، فقد أمر زيدا وأسماء ابنه وهما من الموالى على كبار رجالات قريش ، وفعل ذلك أبو بكر وغيره من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم .

وإنما كل ما في المسألة أن الشيعة الذين دمجوا مسألة امتناع على هم كذلك وضعوا هذا الحديث لينصروا به مذهبهم في النص على الخليفة ، وذلك ليتوسلوا به إلى النص على علي رضي الله عنه وهو ما يقصدونه وما نادى به السبئية من قبل ، وإن كانت السبئية تقول بالوصية إلى علي بالذات ، وترى رفض إمارة غيره .. أما عن مسألة المؤامرة المزعومة ، فإننا نوجز عنها جملة فيما يأتي :

شبه المستشرقين :

زعم لامانس وماسيه وبروكلان وأشباه لهم ، أن أبا بكر تولى أمر رياة الدولة الإسلامية وخلافة رسول الله ﷺ على أساس مؤامرة ، اشترك معه فيها عائشة وعمر وأبو عبيدة .

ونظر الخطورة هذا الاتهام الملفق ، فقد رأينا أن ثبت هنا جملة الشبه التي

دعهم إلى القول بهذا الافك المفترى ، ثم نردفها بالناقشة والتفتيد ، حتى تتضح حقيقتها . وهاتهي ذى تلك الشبه التي تداولتها أيدي المؤرخين ، ونسبت إلى من ذكرنا في مؤلف لهم بعنوان «الحكومة الثلاثية» وفي تاريخ الشعوب لبروكلمان :

أولاً — ما حدث من مراجعة أم المؤمنين عائشة لرسول الله ﷺ في مرضه الأخير ، وذلك عندما طلب أبا بكر ليقيم في مقامه في صلاة الجماعة ، فيؤم المسلمين . فلقد زعم هؤلاء أن النبي (ص) ما طلب أبا بكر إلا بإيعاز من زوجة عائشة ابنة أبي بكر ، وهذا يعتبر تهيداً لأبيها في ارتقائه إلى منصب رئيس الدولة العربية الإسلامية ، بعد النبي محمد (ص) . وقد أيد ذلك أفراد أبي بكر وعمر وأبي عبيدة بالذهاب إلى السقيفة ، وأخذ البيعة لأبي بكر ، بدون علم على وآل البيت النبوي .

ثانياً — عندما طلبت فاطمة ابنة رسول الله ميراثها رفض أبو بكر أن يسلمها حقها وذلك خشية أن يتطرق الأمر إلى فتح باب الميراث في الخلافة ، التي هي من حقوق آل محمد رسول الله (ص) — بزعمهم — يقول كازل بروكلان «ثم إن عليا ابن عم النبي وزوج ابنته ، ادعى لنفسه الحق في خلافته كرئيس للدولة ، بوصفه أقرب الناس إليه رحماً ، ولكنه لا يملك من القوة ما يساعده على تحقيق طلبته (١)»

وفي موضع آخر يقول «وكان أبو بكر -والد عائشة زوج النبي- يتمتع مع عمر بن الخطاب ، وأبي عبيدة بن الجراح ، بنفوذ كبير عند محمد ، فلم يسع الأنصار إلا أن يبائعوا الأمير الجديد (٢)» .

ثالثاً — مخالفة أبي بكر لتعاليم الرسول وأوامره ، التي منها — في زعمهم —

(١) كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية ج ١ ص ٩٨

(٢) نفس المصدر السابق

حديث « لكل نبي وصي ، وعلى وصي محمد »

رابعاً — مفاضلة أبي بكر لآل النبي ﷺ وهجرانهم . مع أن مودتهم وصلتهم مفروضة على جميع المسلمين .

خامساً — تولية أبي عبيدة القيادة العامة لجيوش الدولة — في عهد عمر — وتنحية علي وآل بيت النبي عن المناصب الكبرى

سادساً — تولية عمر الخلافة بعد أبي بكر ، وإبعاد علي وبنى هاشم ، إلى جانب اضطهادهم .

تلك هي خلاصة الشبه التي أثارها جماعة الاستشراق الغربي ، وعلى رأسهم : الأب لامانس اليسوعي ، وهنري ماسيه ، وتوماس أرنولد . ونذكر فيما يلي ردنا عليها بالحجة والبرهان

مناقشة هذه المزاعم :

قبل أن نفصل تفنيد هذه الإدعاءات ، نرى أن نقدم جملة قصيرة نكشف بها عن سبب هذه الأخطاء التي وقع فيها مؤرخون لهم مكانتهم مثل توماس أرنولد وبروكلمان ، فهذان — بدون ريب — على درجة عالية من الاطلاع والمعرفة ، ولكن قد يزول العجب ، إذا علمنا أن أصحابنا هؤلاء ، لم يفرقوا بين رجال الدولة في صدر الإسلام ، وبين الناس في العصر الحاضر ، وهذا هو العامل الحقيقي — في رأينا — في انغماس بعض المؤرخين والباحثين في هذه الشبهات . . ولذا فإننا نفضل قبل الدخول في المناقشة أن نلقى بعض الأضواء على هؤلاء الرجال للحق والتاريخ .

لقد أسلفنا القول في سيرة أبي بكر ، وابتدأنا مبلغ علمه وتقواه ، ونفوره من

الأعمال والوظائف ، إلا أن يرغم عليها ، كما حدث في السقيفة وتكرر في المسجد ، وبحسبنا أن تؤكد هنا ما أسلفناه من أن أبا بكر ، لم يترك بعد وفاته دينارا ولا درهما ، ولا شيئا ، مع أنه كان يملك قبل الإسلام حوالي أربعين ألف درهم ، وكان موسرا كذلك بعد الهجرة ، إذ كان تاجرا ماهرا ، كثير الربح ، على علم بفن التجارة وأساليبها الدقيقة .

كذلك نرى أبا بكر ، يرد إلى بيت المال ، كل درهم مما فرضته الأمة لمعاشه ، نظير تفرغه لخدمة الدولة ، ولكن أبا بكر قد دفعه الورع ، إلى أن يؤدي خدمة لأتمته بدون أجر أصلا وقال : إنه إنما قد عمل لله ، فلا يقبل أجرا على أداء هذا الواجب .

كذلك أبنا فيما سبق اتجاه الرسول إلى أبي بكر ، فسلمه الراية في غزوة العسرة (تبوك) آخر غزوة خرج فيها النبي ﷺ ، وأمره على الحج نائبا عنه في سنة تسع وأسند إليه إمامة المسلمين في الصلاة في مرض موته (ص) .

على أن أبا بكر - كما أسلفنا - كان أعلم العرب بأنسابها وأحوالها ، وكان أول رجل آمن بالله وبرسوله ، حتى ليروى أنه آمن بالنبي منذ سمع قصة بحيرا الراهب ، والنبي لم يبلغ الحلم بعد .

وأبو بكر شيخ المسلمين ، وأكبرهم سنا بعد رسول الله (ص)

أما عمر ، فإن من يتتبع تاريخه في الجاهلية والإسلام ، لا يمكنه أن يشك في نقاء سريرته وطهارة قلبه ، ووضوح مسلكه ، وبحسبه أنه لم يقبل أن يأخذ أجرا على خدمته للدولة ، مع أن هذا حلال طيب ، ولكنه الورع الذي لا يتوافر إلا للأقلين أو بالأصح النادرين وننتقل بكم إلى مناقشة هذه الشبه إجمالا فيما يلي :

١ — مسألة رأى النبي في إسناد إمامة المسلمين في الصلاة إلى أبي بكر لم تكن ناشئة عن تدمير من عائشة ، بل هي مسألة شخصية للنبي الذي لا ينطق عن الهوى وإنما هو يصدر في جميع تصرفاته عن الله ووحى الله والحق والحق وحده.

على أنه ثابت . في التاريخ الصحيح . أن عائشة لم تكن أبدا مخادعة في مراجعتها للرسول ﷺ ، وإنما كانت جادة كل الجدة ، وصریحة إلى أقصى حدود الصراحة ، كما هو معروف من خلقها .

كذلك ثابت من القصة التي سجلها المؤرخون الثقات أن عائشة كانت تبغى صرف الأمر عن أبيها لا إسناد الأمر إليه .

وهذا يحتاج بطبيعة الحال إلى دراسة دقيقة للعصر الذي عاشت فيه عائشة وأبوها رضى الله عنهما . وهؤلاء التأمريون جهلة بتاريخ العصر النبوى ، وروحه وخلق رجاله . ومن ثم كانت فريتهم على خير قوم أنجبهم تاريخ البشرية .

على أن الذين قرأوا شيئا من تاريخ سلف المسلمين يدركون مدى ما كانوا عليه من خلق ودين شهد به ألد الأعداء قبل أخلص الأصدقاء .

ولكن ماذا فعل بقوم لا يتورعون عن طعن رجال نشروا المذنية وأسعدوا الإنسانية . ولا ذنب لهم الا أن يقولوا ربنا الله .

٢ — وأما عن منع أبي بكر فاطمة من ميراثها ، مما رتب عليه هولاء رضى الصديق بالتأمر ، فلم يكن أبو بكر يبغي من وراء ذلك سد الذريعة حول مسألة الخلافة — على فرض صحة هذه الرواية — فإن أبا بكر لم يمنع الميراث من تلقاء

نفسه؛ ولكن لأن الرسول نص على هذا المنع بدليل الحديث الذي رواه لهم كافي الرواية التي أوردوها القائلون به .

على أن هذه الرواية ليست من الصحة بحيث يترتب عليها ذلك الجدل الكثير الذي أثير حولها . فإن الظاهر من أسلوبها أنها من وضع الشيعة الغلاة وليست من الأخبار التي يمكن الاعتماد عليها في إثبات حقيقة تاريخية .

٣ — ما يزعمه هؤلاء من أن أبا بكر جانب النصوص الإسلامية مثل حديث الوصية الذي يذكرونه ، جهل بالتاريخ فإن علماء الاسلام أبانوا في صراحة وحزم وضع هذا الحديث ، وكشفوا عن واضعه وهو عبد الله بن سبأ اليهودي ولا يعرف التاريخ الصحيح أن أحدا من سلف المسلمين كان يسمع بهذا الحديث حتى كانت فتنة عثمان ونشأت المبادئ السبئية وذاعت مطاعنهم في عثمان وأمرائه ، والدعاية لآل البيت كستار لهدفهم الوحيد وهو القضاء على الدولة الإسلامية .

٤ — أما عهد أبي بكر بالخلافة إلى عمر ، وتعيين عمر أبا عبيدة قائداً عاماً للجيش ، فقد كان برضا آل البيت والمسلمين عامة ، ولم يثبت أن علياً ولا غيره أظهر إستياءه من هذا الصنيع . بل على العكس كان سرور المسلمين ومنهم آل البيت . لا يقدر حينما علموا بما صنعه أبو بكر ، ورأوا في ذلك عين الصواب والسداد .

على أن هذا لا يعطى تأمر أبي بكر وصاحبيه كما يزعم المستشرقون بل يفيد أن الرجلين تأمرا بكفائتهما وفضلهما . وسلوك هؤلاء معروف لدى جميع المسلمين حتى الشيعة والخوارج يترضون على أبي بكر وعمر ، إلا نفر من السبئية اليهود وبعض الرافضة من الشيعة فمن أين استقى الثلاثيون هذه المعلومات ، وكيف ساء لهم أن يفتروا على الحق والتاريخ . إنهم في نظرنا متعاملون يعملون إلى كتب

الرافضة والفلاة ويستقون منها معلوماتهم ثم يسلطون عليها تعصبهم وجهلهم
بالعربية والتاريخ ويخرجون على الناس بنظريات، هي مزيج من الجهل والرفض
والتعصب، ويؤمنون أنها الحقيقة المسفرة، ولكن الواقع التاريخي، والإسلامي،
يقر بأن مجانية هذه الآراء للحق والتاريخ، ونرى أنها نابعة من مؤلفات
روافض الشيعة.

الفصل الخامس

حركة الردة

أبنًا فيما سبق ، كيف ألقى الرسول الامتيازات بين القبائل ورؤسائها ، وكيف أمر بهدم الأصنام ، وإزالة السلطات الكهنوتية التي كانت لسدنتها والمحيطين بها ، وأوضحنا ما كان من قدوم الوفود العربية التي أخذت تترى بعد فتح مكة ، ثم بعد تسليم الطائف ودخول أشرافها في الإسلام ، وكيف ان كثيراً ممن أعلنوا إسلامهم من الأعراب وأصحاب الامتيازات والمنافع المادية لم تشرب قلوبهم حلاوة الإيمان ، ولم يحسن إسلامهم بعد .

ولعل في كلمة وفد بني تميم السابقة ما يكشف عن مدى العناد والأنانية التي كانت تسيطر على بعض النفوس ، كما أن الأعراب في البوادي ، لم يدخل الإيمان في قلوب كثير منهم ، مما جعلهم عرضة للسير مع كل ناعق يعدم ويمنيهم .

وإلى جانب هذا كله ، كان هناك جم غفير من الساخطين على الدين الجديد ، الذي جعل الناس سواسية كأسنان المشط ، وسوى بين أدنى القبائل وشيوخها ، وهدم السلطات المزيّفة في الدين والدنيا ، وأقام مجتمعاً متكافئاً فيه فرص التقدم والرقى لكل عامل ، مهما بلغ نسبه أو انعدم حسبه .

ولهذا فقد انتهز المنافقون ، والموتورون ، ممن مَسَّتْ شريعة الإسلام أموالهم بالزكاة والصدقات ، أو الموارد الهائلة التي تجبى إليهم بالعرفاة والكهانة وخدمة الأصنام والأوثان أو طبقيتهم مثل رؤساء القبائل وملوك الحواضر ، وأعان هؤلاء يهود اليمن والشام ، وعملاء الفرس والروم . فكانت تلك الردة الانفصالية في جزيرة العرب وأطرافها .

يقول سيد أمير علي : ويمكننا أن نقول . ان إرتداد العرب عن الإسلام يرجع إلى سببين :

١ — المبادئ الإسلامية التي فرضها الإسلام فرضاً .

٢ — نفور العرب من الزكاة .

ولكن هل فريضة الزكاة لا تتفق مع تقاليد العرب؟ إننا نظن أن الذين امتنعوا عن أدائها ، إنما كانوا في الواقع يريدون الرجوع بالمجتمع إلى الجاهلية حتى تعود إليهم امتيازاتهم الدينية والاجتماعية ، والاقتصادية، فآخذوا من شريعة الزكاة التي نهض بالأمّة والدولة. ذريعة إلى إعلان الانفصال وتمزيق الوحدة التي بعثها الإسلام. أما فريضة الزكاة نفسها ، فلا تنفر منها العرب ، بل المسألة على العكس تماماً، لأن العربي كريم بطبيعته ، يحمل الكل ويقرى الضيف ، فلا يبخل على الفقراء والمعوزين بشيء بسيط من فضل أمواله .. تلك هي الروح العربية، وقد أسفر عنها الوعاة المؤمنون، ورأوا في صنيع المجاهدين بمنع الزكاة، ارتداداً عن العروبة الأصيلة، ورفضاً للتعاون الذي جاء به الدين الحنيف في تشريع الزكاة. ومع هذا فإن حركة الردة في جماتها كانت حركة رجعية انفصالية، تهدف إلى إعادة الحكم والسلطان إلى الكهّان من زعماء القبائل وملوك الشام واليمن والعراق، كما كان لليهود الذين أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة يد طولى في النفخ في أبواقها .

على أن مما ساعد على تفاقم أمر المرتدين وجود قواد ساخطين على حكم المدينة ادعى بعضهم النبوة وحاول أن يقلد رسول الله (ص) في جمع العرب من حوله، وتكوين دولة تحت زعامته. وكانت قبائل بني حنيفة وبني تميم، ومذجع باليمن، وبني أسد في نجد ، من أشد القبائل التي ادعى زعمائها النبوة: ففي بني حنيفة ظهر مسيلة بن حبيب الكذاب ، وادعى أنه نبي، وكان أول ظهوره في حياة الرسول، وكانت بنو حنيفة تنزل باليامة قرب البحرين ، فكانت بذلك بعيدة عن عاصمة

الدولة الإسلامية، وقد حاول مسيلة هذا أن يصلح النبي على أن يكون له جزء من جزيرة العرب والرسول الباقي، فرفض النبي طلبه^(١).

كذلك قام قرب نجد — طليحة رئيس قبيلة بني أسد وادعى النبوة وجمع له أتباعا في حياة الرسول. ولكن لم تنجح هذه الحركات إذ أخذها الرسول في حياته، وظل مسيلة وطليحة مغلوبين على أمرهما طوال عهد الرسول في الأمة الإسلامية، مع تظاهرها بالإسلام والطاعة.

أما في اليمن، فإن عيلة الأسود من قبيلة مذحج، عن له أن يخرق على قومه، فتبعه خلق كثير ممن يحبون الفوضى والأباحية، ويبغضون النظام والسلوك الفاضل، وبذلك تقوى الأسود وخرج مدعياً النبوة، فأغار على أطراف الدولة الإسلامية باليمن، واستطاع أن يخرج عمال النبي منها حتى أن المبعوث العام لأقاليم اليمن وحضرموت لم يستطع أن يأمن على نفسه إلا بجوار قبيلة قوية.

ومبعوث النبي (ص) هنا هو معاذ بن جبل الذي أقامه الرسول معه متقللاً بين جميع مخاليف اليمن وأمصارها، وقد صاهر قبيلة السكون ليأمن شر الأسود حين تفاقم شأنه.

على أن خطر هذا المتنبئ الجديد، لم يقتصر على اليمن وحضرموت، بل تعداها إلى الحجاز حيث وصل نفوذه إلى الطائف بجوار مكة، وخشى الرسول أن يصل نفوذه إلى المدينة نفسها.

لذلك اتخذ الرسول الحيلة وسيلة في القضاء على هذا الدعي الذي أباح الإيضاع والمحرمات، وأشاع الفساد في الأرض.

(١) انظر الطبري ج ١ ص ١٢٦.

وكان عامل الرسول على اليمن منذ أسلمت ، باذام^(١) أحد الأبناء ، فلما مات هذا فرق الرسول عمله بين رجال عدة ، ولكنه احتفظ لشهر بن باذام بإمارة صنعاء قصبة اليمن .

فلما كانت حركة الأسود ، قتل شهر بن باذام أثناء قتاله مع الأسود . وقد ملك الأسود صنعاء وتزوج امرأة شهر وهي من الأبناء^(٢) وقد دبرت هذه المرأة الفارسية الموتورة من الأسود لقتله زوجها شهر بن باذان ، حيلة مع بعض الأبناء ، وتمكن فيروز من قتل الأسود وتخليص صنعاء من شره وكان ذلك قبيل وفاة الرسول بأيام .

غير أن قتل الأسود لم يقض على حركته ، فقد اصطنع هذا الرجل كثيراً من عرب اليمن ، وجند جيشاً كثيفاً لغزو البلاد ، حتى ليقال أن فرقة الفرسان بلغت سبعمائة فارس مجهزة بأحدث الأسلحة في عهده . وسبعمائة فارس عدد كبير في ذلك الوقت وفي شبه الجزيرة بالذات .

ولذلك ظل الخطر على الدولة الإسلامية ماثلاً في أتباع الأسود وجنده المدربين حتى تولى الخلافة أبو بكر في سنة ١١ هـ .

بعث أسامة :

وفي^(٣) المحرم من سنة ١١ هـ ضرب الرسول على الناس بعثاً إلى الشام ،

(١) كذا في الطبري ، وفي ابن الأثير باذان .

(٢) هم الجماعة التي أقامت باليمن من الفرس منذ احتلتها فارس قبل الإسلام وقد أطلق العرب على هؤلاء الإيرانيين لقب الأبناء .

(٣) هذه أرحح الروايات في بدء الاستعداد ، ويقال أن ذلك كان في أواخر

صفر من سنة ١١ هـ

وأمر على الجيش مولاه وابن مولاه ، أسامة بن زيد بن حارثة ، وأمره الرسول أن يدخل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، فتجهز الناس ، وانضم إلى البعث المهاجرون الاولون جميعاً ، واستعدوا للخروج .

وفي هذه الأثناء بدأ مرض الرسول ﷺ وشغل المسلمون بحركات مسيلة والأسود ، واستأخر خروج البعث ، حتى لقد أكثر المنافقون في عيب إمارة أسامة المولى الشاب ، على كبار المهاجرين ، ونقباء الأنصار وبلغت الرسول قائلهم ، فغضب ورد عليهم بقوله « لئن قالوا في إمارته لقد قالوا في إمارة أبيه من قبله ، وإن كان أبوه خليفاً للإمارة ، وإنه خليق لها . فأنفذوا بعث أسامة لعن الله الذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد^(١) » .

ونظراً لتصميم الرسول على خروج بعث أسامة ، فقد فصل من المدينة وعسكر بالجرف خارجها . وظل أسامة وجنده يرقبون حركات المتنبئين ، ولا يبتعدون عن المدينة لاشتداد المرض على رسول الله ﷺ .

وبينما الحال على ذلك ، توفي الرسول ﷺ واشتدت الفاجعة على المسلمين ففرق بعث أسامة . وكانت مسألة السقيفة وبويع أبو بكر ، تخفف من ألم الكارثة . وثاب المسلمون إلى رشد ، ودفن الرسول في اليوم التالي لوفاته وفي نفس ذلك اليوم أعلن أبو بكر عودة بعث أسامة إلى مكانه بالجرف كما أمر رسول الله ﷺ ، واستأذن أبو بكر أسامة لبعض معاونيه الذين لا يستطيع الاستغناء عن رأيهم ومؤازرتهم مثل عمر بن الخطاب وغيره . وبعد أن استعرض الخليفة الجيش وزوده بتلك النصيحة الخالدة وسار ماشياً في ركاب أسامة الذي عزم عليه أن

يركب أو أن ينزل هو فيمشيا معاً ، ورفض أبو بكر طلب أسامة فائلاً ، والله لا ركبت ولا نزلت . وما على أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله . وبعد أن فصل جيش أسامة ، تواترت الأنباء من أنحاء الجزيرة بتمرد القبائل وارتدادها عن الإسلام ومحاولة بعضها تطويق المدينة وهدم الدولة الإسلامية ، فدعا أبو بكر كبار المسلمين وعرض عليهم ما وصله من أخبار الأطراف ، وتمرد العرب ، فأشار غالبيتهم بتركهم حتى تهدأ فورتهم ، فقال بعضهم إنه مادام هؤلاء قد رفضوا دفع الزكاة ، وأقروا بالمبادئ الأخرى فلا داعي لقتالهم ، ولا سيما وزهرة شباب الجيش الإسلامي مع أسامة في مشارف الشام ، وهم مهددون بالفناء إن لم يقبلوا عرض المرتدين .

بيد أن أبا بكر رفض هذه الآراء وأخذ يناقشهم في تعاليم الرسول وأنه قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله الحديث . ثم أوضح لهم أن من حق الإسلام الزكاة وأن الذي يقول لا إله إلا الله ويفرق بين الصلاة والزكاة هو والذي لا يقولها سواء إذ آمن ببعض وكفر ببعض والإسلام^(١) بأصوله ومقوماته الذاتية التي بنى عليها كلٌّ لا يتجزأ فأما أن تعمل به جملة وأما أن ترفضه جملة ولا ثالث لهما . اللهم إلامن أكرم مع اطمئنان قلبه أو اضطر غير باغ ولا عاد، فلهؤلاء وضع آخر موضح في نصوص الشريعة بكتابها وسننها .

(١) نص النصيحة برواية الطبري « يا أيها الناس قفوا : أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تهونوا ولا تغلوا ولا تغدوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعمروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل المصابب فاخفواهم بالسيف خفياً . اندفعوا باسم الله (٣٠ ص ١٣٢) .

والمقصود بالإسلام طبعاً ما ورد في حديث جبريل ، وهو الشهادتان والصلاة والزكاة والحج والصوم ، فهذه أركانه وأصوله التي بنى عليها .

وبمثل هذا المنطق أقنع أبو بكر كبار المسلمين وضمهم إلى جانب رأيه واستفاد الجميع بشرح أبي بكر، وآمنوا بأن الرأي الحازم هو الذى رآه وهو قتال المتمردين والمرتدين حتى يراجعوا الإسلام والطاعة، أو يفتح الله بينهم وبين المتمردين بالحق .

ولكن نظراً لأن الجيش أكثره خارج المدينة ، فإن أبا بكر اتخذ خطة الدفاع مدة تغيب أسامة بالجند . وقد أغار فى هذه الفترة بعض القبائل على المدينة ، ولكن الله رد كيدهم إلى نحورهم ، واستطاع أبو بكر بحسن النظام ودقة الدفاع وإحكامه أن يجلى المغيرين إلى ذى القصة ، بل لقد التقى بهم فى هذا الموضع وهزمهم هزيمة منكرة ، وبذلك أبعد الخطر قليلاً عن المدينة .

غير أن ما حدث كان من أمثال قبيلتى عبس وذبيان القريبتين من المدينة والذين قصدوا السلب والنهب . أما الخطر الحقيقى فكان ماثلاً فى الجهات النائية مثل اليمامة التى قام بها مسيلمة بن حبيب الذى جمع حوله أعداداً كثيرة من بنى حنيفة ثم بنى تميم الذين قادتهم سجاح بنت الحارث وانضمت إلى جيوش مسيلمة وأصبحت وإياه يداً واحدة ضد المسلمين .

كذلك كانت هناك قبيلة بنى أسد ، وقد سارت وراء طليحة نبيها الدعى . هذا إلى جانب أتباع الأسود المتنبئ باليمن — وهؤلاء كثرة هائلة ، سبق لها أن اقتطعت من أملاك المسلمين ما لا يحصى .

وعلى الجملة فإن أبا بكر بمهارته وعزمته استطاع أن يصد المرتدين عن المدينة ، وظل مدافعاً قوياً حوالى الشهرين وبعض الشهر .

عودة أسامة منتصراً :

وفى جمادى الأولى من سنة ١١ هـ قفل جيش أسامة إلى المدينة . وقد صاحبه النصر فى حملة الشام . فاستقبله المسلمون وعلى رأسهم الخليفة أبو بكر بالصفوة والتقدير

ثم رأى الخليفة أن يأخذ الجند وقائده قسماً من الراحة فأنابه أبو بكر عنه في حكم المدينة . وأذن للجيش بفترة استجمام حوالى الأسبوعين ، أعلن بعدها الخليفة «التعبئة العامة لمحاربة الذين أعلنوا العصيان على حكم المدينة ، فاجتمع عدد عظيم من المسلمين ، ولذلك رأى أبو بكر أن يضرب المرتدين في وقت واحد وفي عقر دارهم . فقسم الجيش إلى فرق بلغت أحد عشر لواء ، وعين لكل لواء قائداً ، كما عين له الجهة التي يتجه إليها وكتب عهداً من نسخة واحدة لجميع القواد^(١) كما أصدر منشوراً عاماً إلى جميع النواحي التي حدث فيها العصيان وزود القواد بالنصائح الإسلامية في أدب الحرب والقتال^(٢) .

ومن أشهر القواد الذين اختارهم أبو بكر في قتال المرتدين «خالد بن الوليد» . ووجهه أبو بكر إلى طليحة بن خويلد الأسدي بيزاة^(٣) فإذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح .

(١) فما جاء في هذا العهد « هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه ثم بعد أن يعظ القائد يبين له الطريقة التي يتبعها في قتال المرتدين فيقول : « أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقرروا له . ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ مما عليهم ويعطيهم الذي لهم » الخ . وهي نصيحة ثمينة راجعها في الطبرى ج ٣ ص ٢٢٧ .

(٢) في هذا المنشور دعا أبو بكر المرتدين إلى مراجعة الطاعة والجماعة ووعظهم بالله وذكرهم بآياته ، وأبان لهم — في صراحة وحزم — أن الرسل بشر كسائر البشر ، وأن الله أرسلهم للإصلاح ، وأنهم يموتون كما يموت الناس جميعاً وإن الله الحي القيوم هو وحده الباقي . ثم قال لهم : اني بعثت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرت أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى مداعبة الله ، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه ، ومن لم يأتني أمرت أن يقاتله على ذلك » الطبرى ج ٣ ص ٢٢٦ .

(٣) يزاة . ماء بالقرب من نجد لبني تميم .

ومنهم عكرمة بن أبي جهل . وكان أمير الفرقة التي سارت إلى مسيلمة باليمامة وأرسل قائد فرقة أخرى في أثر عكرمة وهو شرحبيل بن حسنة .. وكذلك كان من قواد أبي بكر المهاجر بن أبي أمية وسار إلى عصابة الأسود العنسي لمعاونة الأبناء باليمن .

ومن القواد العظام أيضاً حذيفة بن محصن الذي ذهب إلى عمان وعرفجة . ابن هرثمة الذي أمر باخضاع مهرة اليمن على أن يجتمع مع عرفجة إذا انتهى أحدهما من مهمته قبل الآخر . والعلاء بن الحضرمي الذي توجه إلى البحرين . وطريفة . ابن حاجز وميدانه بنو سليم وهو أزن . وعمرو بن العاص وفرقة إلى قضاعة . وخالد . ابن سعيد وميدان حربه مشارف الشام .

وسار هؤلاء القواد بفرقهم إلى الجهات التي عينها الخليفة ومجلس قيادته وحدثت بينهم وبين المرتدين مواقع كان النصر في نهايتها للجيش الإسلامية ، وقد ظلت الحرب بين المرتدين حوالى عام ، صبر فيه المسلمون ، وأبلوا بلاء حسناً ، حتى نالوا النصر في النهاية .

أهداف الردة :

لأنستطيع أن نبرىء تلك الحركة من أغراض الذين سعروها ضد الدولة ومقوماتها الذاتية التي قامت على أساسها ، وهي الإيمان بالله ، وأداء أركان الإسلام والتمسك بهدى القرآن ، ووحدة الأمة والدولة ..

وإذا كان للفرس والروم ، واليهود ، ضلع في إشعالها ولو بالمعاونة والتعريض فإن القبائل العربية . وزعماءها ، وأعراب البوادي ، كانت لهم بدون ريب — أغراض وأمانى ، أسفرت عنها أقوالهم ، مواقفهم ..

ولناخذ مثلاً أدعياء النبوة ، هؤلاء الذين سبق لهم أن احترقوا الكهانة
وعلم الغيب ، وأثروا من هذا السبيل ، حتى غدا من له عصبية منهم ذاجاه وسلطان
في قومه ، يطيعونه في السلم والحرب ، ويأتمرون بأمره في كل شاردة وواردة .

هل كانت دعوة النبوة من مسيلمة بن حبيب ، والأسود العنسي البني ،
وطليحة الأسدي النجدي والكاهنة التيمية سجاح بنت الحارث اليربوعية لمجرد
أنهم يبغيون التمتع بلقب « نبي » وحسب . . كلا

وإذن فكيف بقومهم من كبرى القبائل يتبعونهم ، ويسرون في ركابهم ،
لا إلى الأمن والسلم والترف . . ولكن إلى المدافعة ، وقتل الرجال ، وإتلاف
الأموال .

وهل يمكن أن يجهل هؤلاء الأنبياء الكذابون ، أن في دعواهم هذه
أنكاراً لرسالة محمد من أساسها . وأنها تسفر في ظاهرها وباطنها عن الإلحاح
الشديد ، في وجوب إلغاء الشريعة المحمدية وهدم الدولة الإسلامية ، وتشريد
المهاجرين والأنصار ، وجميع المؤمنين بمحمد والقرآن .

وإذن ، فليست دعوى النبوة ، سوى ستار من الدخان الملوث بدسائس
اليهود والروم والفرس وفرض السيادة القبلية لعشيرة النبي الكذاب ، على الأمة
العربية والدولة الإسلامية ، وبذلك تحل مذحج باليمن ، أو بنو حنيفة ، وتميم
باليمامة ، أو بنو أمية في نجد ، محل قريش — في زعمهم — إذ كان رسول الله ﷺ
من قريش ، ثم خلفه في رياسة الدولة أبو بكر ، وهو من قريش كذلك .

قبيلة قريش — إذن — هي الهدف الأول في نظر جمهرة القبائل التي ظهر بها
الكذابون الكهان من أدعياء النبوة وقد أرادت تلك القبائل أن تظفر برياسة
العرب ، وزعامتهم ، غصبا واقتداراً ، على عاداتهم القبلية الجاهلية التي هدمها الإسلام .

ولكن . . . هل استطاع ذلك في الإسلام . . ؟ وإذن فليكن لهم أنبياء ، كما
أن في قريش محمداً الذي تمكن من إقامة دولة ، وبناء أمة ، وإخراج مجتمع قوى
عظيم .

النبوة هي السبب المباشر في سيادة قريش ، في نظر مذحج ، وبنى حنيفة ،
وبنى أسد ، وبنى تميم فليكن لهم أنبياء ، لينكونوا ملوكا ، وإن لم تقر قريش
والمدينة بمخاصة نبوة هؤلاء ، فيجب أن يفرضوا نبوتهم بحمد الحسام .

هكذا فكر أدعياء النبوة الكاذبة ، وقبائلهم المغيظة المحنقة من خلوا أيديها
من السلطان الذي أنعم الله به على مهاجرة قريش بالإيمان والإسلام ، لا بالخدايع
والتضليل والبهتان .

ولهذا فقد استماتت في القتال ضد المسلمين حتى لقد فقد الجيش الإسلامي في
حروب اليمامة وحدها أكثر من ألف بطل من خيرة أبطاله ، وذلك بسبب تعصب
بنى حنيفة وتميم من أجل السيادة والسيطرة ، مع إيمانهم في أغلب الظن - بكذب
مسيلة وافتراء مجاح ، ولكنها العصبية الجاهلية في حب الغلب ، والجاه والنفوذ .
إن عظمة أبي بكر الصديق ، لتسفر لنا عن معدنها الأصيل ، في هذا الموقف
الخطير الذي يقف فيه العالم القديم ، جبهة واحدة ، ضد الدولة الإسلامية القليلة
العدد والعتاد في تلك الفترة من تاريخها العظيم

إن حركة الردة ، ليست تمردا محليا من بعض الأعراب ، أو القبائل العربية -
ذات العصبية القديمة والقوة الهائلة ، فحسب ، وإنما هي فتنة رعناء ، ومؤامرة
صاخبة أسهم في تولى كبرها عدد كبير من الملوك والأميراطوريات ، واليهودية -
العالية ، في الشام واليمن ، وآسيا وأوروبا وأفريقية ، كما قام فيها بنصيب كبير غساسنة -
الشام ومناذرة العراق ، وكان هدفها الطبيعي تدمير القوة العربية الإسلامية ممثلة -

في الدولة التي قبض رئيسها المعصوم عليه السلام ، وخلفه عليها صاحبه وصديقه أبوبكر الصديق ، ذلك الرجل الذي فهم حقيقة هذه المؤامرة من أول لحظة ، فوقف وحده — في حزم وشجاعة وإيمان — يقول : والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدّونه إلى رسول الله ، لقاتلتهم عليه .

ولهذا نرى أبا بكر يدرك مبلغ الخطر الذي يتهدد المسلمين ويقضى عليهم إن هو أصاخ لعمر وجهرة الصحابة ، إذ طلبوا منه تأخير بعث أسامة ريثما يزول خطر «الردة» التي تواترت أنباؤها من كل فج في جزيرة العرب ، ويشتد في كلامه معهم ، ثم يرفض تأخير انفاذ البعث ، كما يصر على بقاء أسامة بن زيد قائدا لهذا الجيش حتى لقد قال لعمر بن الخطاب : عدمتك أمك وثكلتك يا ابن الخطاب .. استعمله رسول الله ﷺ وتطلب مني أن انزعه ؟ ثم أنفذ البعث وفق إشارة رسول الله ﷺ فتوجه إلى أطراف الشام حيث اليهود الذين سبق أن أمم النبي ﷺ أرضهم وأموالهم ، وعاقبهم على جريمة الخيانة العظمى ضد الدولة الإسلامية وعلى الغدر أبان غزوة الخندق وغيرها ، مما اقتضى اجلاءهم نهائيا عن الوطن الإسلامي ، حتى تستروح الجماهير طعم الأمن ، والسلام ، والاطمئنان

على أن الفساسنة العرب ، كانوا كذلك بالشام ، وقد توجهم الروم ملوكا على العرب في المنطقة واعتمدوا عليهم في صد القبائل العربية ، وعرقلة انطلاقها ، وقد أشرنا فيما سبق ، كما أوضحنا في السيرة كيف اشتبكوا مع العرب المسلمين في عدد من المعارك مثل مؤتة وذات السلاسل ، كما خرج الرسول بنفسه على رأس جيوش تبوك ، لمناجرتهم والروم معا .

وغنى عن البيان ، أن اليهود كانوا مورتورين بسبب إلغاء النظام الاقتصادي الربوي ، الذي كان من وضعهم ، واستهدفوا الإثراء الفاحش ، من التعامل على أسامة ، حتى تكدست لديهم مبالغ طائلة بسبب تطبيق هذا النظام ، فلما وضع الله

النص المحكم على حظره وتحريم التعامل به ، واعتباره جريمة خطيرة ضد المجتمع ، أصدر النبي ﷺ التشريعات المنظمة للنظام الاقتصادي الإسلامي ، حتى تمكن أخيراً من إلغائه بإصدار الإعلان الثوري الخطير في سنة ١٠هـ وفي مؤتمر حجة الوداع إذ قال « وإن كل ربا موضوع . لكم رؤوس أموالكم . لا تظلمون ولا تظلمون » وبهذا حلت التشريعات الاقتصادية الإسلامية ، محل النظم الربوية الاحتكارية اليهودية .

لقد كان ذلك — في الواقع — من أهم الأسباب في قض مضاجع اليهودية العالمية ، وعملها الدائب حتى اليوم ، ضد الإسلام ودولته ، وشعبه .

وبالجملة ، فإن « الردة » لم تكن من العرب وحدهم ، وإنما كانت جبهة مشتركة ، تصم في إطارها ، الفرس والروم واليهود ، والقبائل الناقمة على قريش والمسامين ، ثم سدة الأصنام السابقين ، وأصحاب المرباع والصفي وسائر الامتيازات التي ألغها الإسلام :

ومن ثم ، فإن اتحاد أبناس هذه الحركة ، يعتبر نصراً قوياً ضد جميع القوى العالمية ، التي اتحدت لأول مرة ، تريد القضاء على القوة العربية الإسلامية التي كونها محمد رسول الله (ص) لتدعيم العدل والكفاية ، وكرامة الإنسان .

نتائج حروب الردة :

لم تقتصر نتائج هذه الحرب على إخضاع الأعراب المتعدين ، وتوحيد شبه الجزيرة العربية تحت راية المدينة الإسلامية بل أنها كانت لها آثار عظيمة في توسيع رقعة الدولة الإسلامية ونشر حضارة الإسلام خارج جزيرة العرب .

ذلك أن بعض الفرق التي قاتلت في الشمال والشمال الشرقي لجزيرة العرب ، حدث احتكاك بينها وبين الفرس على حدود العراق ، ثم بينها وبين الروم على حدود الشام .

وهذا التصادم الذي كان لابد من وقوعه بين الدولة الإسلامية، وبين الفرس والروم ، قد أدى في النهاية ، إلى انهزام الدولتين الكبيرتين ، بل إلى انهيار أحدهما نهائياً — وهى دولة الفرس الامبراطورية — كما أدى بالمثل إلى إجلاء الروم عن الشام وأفريقية .

ومما لا ريب فيه أن نصر الدولة العربية الإسلامية، قد تسبب من جهة أخرى فى انتشار المبادئ الإسلامية والحضارة العربية خارج الجزيرة مما جعل الفرس المجوس وغيرهم يفكرون جدياً فى الدين الجديد ، ويحسبون حساباً لاتباعه بعد أن سخرُوا بالأمس القريب من سفراء النبي ﷺ فمزق امبراطورهم كسرى كتابه الذى بعث به إليه لا لشيء سوى أنه دعاه إلى الإيمان بالله، وشهادة الحق وتحرير الشعوب .

وإلى جانب هذا ، فقد انتهت بسقوط الامبراطورية الفارسية سطوة الوثنية المجوسية ، وتسلط الحكومة الفارسية على جماهير الشعوب التى كانت تحت سيطرتها ، فقامت تطلب الكفاية والعدل ، والديمقراطية ، السياسية والاجتماعية التى آمن بها العرب وطبقوها فى مجتمعهم الإسلامى الجديد .

ومن النتائج الهامة التى يؤكدها المؤرخون ، والمستشرقون ، أن الشعوب الفارسية التى تخلصت من الحكم الاقطاعى الامبراطورى، قد ارتاحت إلى العرب، واطمأنت إلى عدلهم ، وحسن معاملتهم ، وبذلك انتعشت الأحوال الاقتصادية، واستتب الأمن فى جميع الجهات ، وأقبل الفرس على التعرف على المبادئ الإسلامية ، والموازنة بينها وبين المجوسية التى كان الأباطرة يفرضون استبدادهم باسمها .

على أن من المؤكد أن الحركة المزدكّية كانت من مقدمات اليقظة الجماهيرية فى المجتمع الفارسى .. ومهما قيل عن مَزْدَكْ وأنه أباح كل شيء ، حتى الابضاع ، فإن هذا رغم عدم تسليمنا بصحته جملة لصدوره عن خصوم «مَزْدَكْ» لا يقدر فى أن

حركته — أيا كانت مبادئها وأغراضها — قد أيقظت الوعي ، لدى جماهير
الفرس وأشاعت التمرد على الأباطرة وأعوانهم .

ومما يدل على ذلك ، أنه عندما ذهب المغيرة بن شعبه ليقاوض يزدجرد
امبراطور الفرس في عهد عمر شهد الجماهير الشعبية، وهي تحاول تحيته والاحتفال
به ، كما أنه صرح للأمبراطور وأعوانه ، بأن ملكا كملكه يقوم على الطبقية
والفروق ، والعسف ، لن يستمر طويلا وأن العرب المؤمنين بالعدل ستكون
لهم الغلبة في النهاية .

ولهذا فإن سقوط الامبراطورية الفارسية ، جعل الجماهير تنطلق وتسعى
إلى مبادئ الدين الجديد ، الذي تتمثل في تعاليمه أرقى ضروب الاشتراكية
الإنسانية النابعة من الإيمان بالله وتحقيق الإخاء الأدمى الرفيع ..

لقد كان الانتصار العظيم في جبهة الردة ، التي تعاونت على الإثم والعدوان ،
من أهم العوامل في يقظة الشعوب الآسيوية والأفريقية ، وقد وضع صدهاء
الإيجابي الفعال ، إبان الاشتباكات المسلحة بين جنود الدولة الإسلامية
الديمقراطية ، وجيوش كسرى وقيصر الامبراطورية .

الباب الثاني

الفتوح الإسلامية في عصر الراشدين

تمهيد :

رأينا فيما سبق كيف قضى أبو بكر على المرتدين ، وأشرنا إلى أن جيوشه ما كادت تنتهي من حربهم حتى وجدت نفسها مرغمة على الاشتباك بدولتي الفرس والروم نتيجة وصول جنود الإسلام إلى حدود الدولتين .

ونريد أن نوضح في هذا الباب ما حدث من حروب بين المسلمين وجيرانهم في الشمالين الشرقي والغربي لشبه الجزيرة العربية .

يبد أننا قبل الدخول في وصف الحروب ، نرى أن نوجز كلمة عن أهم الأسباب التي جعلت النصر من نصيب المسلمين ، ثم عن حال الفرس والروم . لنستطيع أن نقدير نصر الإسلام على وجهه التاريخي .

١ - وأولى تلك الأسباب يجب البحث عنه في هزيمة القبائل العربية في حركة الردة إذ أن هذه القبائل لم يكن من المنتظر لها أن تواصل خضوعها للخلافة ، وقد هزمت أمام جيوشها . لذلك رأى الخليفة أن يستغل ذلك الميل الفطري في العرب إلى المقاتلة في ناحية الفتح والتوسع ، ونشر الإسلام خارج شبه الجزيرة ودفاعا عن القومية والدين .

ولقد برهن العرب في هذه الحروب على شجاعتهم التي يضرب بها المثل ، فدوخوا جيوش الدولتين المتفوقتين عليهما في العدد والسلاح .

٢ - على أنه كان إلى جانب ذلك ما لحق المرتدين من الندم والحسرة .

على ما فرط منهم حين ارتدادهم بعد إسلامهم فأرادوا أن يكفروا عن خطاياهم في حق الله ورسوله بالاستشهاد في القتال في سبيل الله . ولهذا كان الموت أحب إليهم من الحياة — ومن أحب الموت وهبت له الحياة .

٣ — وهناك سبب يتعلق بالعرب أنفسهم . فقد كان هؤلاء محبوسين في عقر جزيرتهم قانعين بصحرائها ومفاوزها وأرضها الجرداء إلا ما شذ في اليمن وأمثالها .

وكان شغل القبائل العربية مقصوراً على الحروب القبلية لأتفه الأسباب ، مما زادهم ضيقاً على ضيقهم . وحفز كثيراً منهم لأن يثد ولده خشية الفقر والمترية . فلما جاء الإسلام ، وكرر الوعد لمن يسلم بالمغنى والسيادة ، وحثّ الجبهة العربية وجمع شملها ، ثم وجه أبو بكر هذه القوى الكامنة في القبائل إلى ما يعود عليهم بالغنى الوفير ، والسيادة المطلقة ، إلى جانب إعلاء كلمة الله ولذلك استمات العرب في الحروب الفارسية والرومانية . ولسوا نتيجة النصر ، فقويت روحهم المعنوية وقهروا عدوهم .

٤ — على أن دعوة الإسلام قامت على توحيد الله وإسناد كل الأمور إليه وحده ووضوح هذه الدعوة ، كان مما فتّ في عضد الوثنية التي دان بها الفرس والرومان حتى في العصر المسيحي ، وبذلك كانت مبادئ الإسلام سريعة الوصول إلى قلوب الأمم المجاورة .

وهذا إلى جانب كفالة الإسلام للعدالة المطلقة لسائر الشعوب التي انتصر عليها ، مما جعل رعايا الفرس والروم يتهافتون على الانضواء تحت راية الدولة الإسلامية ، وذلك بطبيعة الحال بفضل أولئك الرجال الأفاضل الذين وجهوا تلك الحروب ، ونشروا هذه المبادئ وكانوا هم أول العاملين بها المتمسكين بنصوصها وروحها .

وإذا كانت مبادئ الإسلام ، وندم المرتدين على ما فرط منهم من أهم الأسباب في سرعة المسلمين في فتح البلاد ، وتوسعهم في ضم الأقاليم . فإن من عوامل انتصارهم السريع ما كانت عليه الدولتان الفارسية والرومانية من تفكك وانحلال نتيجة الحروب الأهلية والخارجية .

الروم : فهذه دولة الروم — وهي مجاورة في الشمال والغرب لدولة الإسلام — أناخ عليها الضعف والهزال منذ أوائل القرن السابع الميلادي ، إذ مضى عهد جستنيان وفتوحه وتنظيماته .

على أن خطر الاضمحلال كان ماثلاً حتى في أيام جستنيان فقد توالى النوازل على الدولة حتى خشي عليها . فمن فساد خلق إلى آخر سياسي ، وزادت عليها نكبات طبيعية إذ اجتاحت الوباء أقاليم الدولة من الشرق ، فكانت الدولة عند ذلك كأنها سائرة إلى الدمار بخطى سريعة لا ينجيها منه شيء ، فكان حكم فوكاس حكماً ظالماً قائماً على جيش فاسد ، تسنده عصبة فاسدة من الأشرار .

ولذلك ثار هرقل على فوكاس واستطاع بمؤامرة محكمة أن ينزله عن عرش الامبراطورية ، وأن يوبخه ويعدمه ويمثل به .

ولكن في الوقت الذي ألبس فيه هرقل تاج الامبراطورية . كانت دولة الإسلام قد أوشكت على البزوغ وبدأت بوادر الانقلاب في أفق السياسة الدولية العامة . وحوالي سنة ٦٢٩ م سار هرقل يقصد الحج إلى بيت المقدس في أول الربيع وأراد عند ذلك أن يعيد الصليب إلى محله ، وقد كان استلبه الفرس حينما غلبوا الروم منذ سنتي ٦١٤ ، ٦١٥ م وقد استرده هرقل الآن وفي هذا التاريخ أرسل الرسول كتبه ورسله لملوك العالم يدعوم إلى اعتناق الإسلام ومبادئه ولم يكن ذلك كل ما أحاط بالدولة الرومانية في ذلك الوقت — بل ان غارات المتبربرين من الشمال والشرق ، وتفاقم الخلافات المذهبية المسيحية في طبيعة المسيح ، وسوء الإدارة الرومانية . كل ذلك ساهم في

الإنحلال الدولة الرومانية فوق تقسيمها إلى شقين ، وأنهيار القسم الغربي منه الذي مركزه « روما » .

الفرس : أما الفرس فلم تكن دولتهم أسعد حالا من الدولة الرومانية بل ان عوامل الإنحلال قد أخذت تنخر في كيائها ، وتعجل بزوالها فقد خرج الثائر الفاصب بهرام على كسرى حفيد أنو شروان ، بعد ولايته بأيام قلائل وطرده من بلاده ، فلجأ إلى الدولة الرومانية وتلقاه الامبراطور موريق مرحبا به حتى ليقال ان كسرى تزوج ابنة الامبراطور الروماني موريق .

على أن المهم في هذا أن حفيد أنو شروان العظيم ، وعدو الامبراطور الروماني قد استنجد الآن بدولة معادية لدولته . وبجيوشها استرد عرشه المعتصب في دولة الفرس ، واتخذ مستشاريه من الروم .

ومع ذلك فإن العداء التقليدي بين الفرس والروم طفر من جديد وعادت الحرب بين كسرى وبين الروم ، وفي الجزيرة التي كانت ميدان النضال العنيف انتصر الفرس ، وضموا إلى أملاكهم بلاد الشام وفلسطين ومصر وأهدى كسرى الصليب إلى زوجته المسيحية وظل الحكم الفارسي يظل تلك الجهات من سنة ٦١٥ م إلى سنة ٦٢٧ م أي ما يقرب من اثني عشر عاما .

كانت عاصمة الفرس حتى أواخر حياة النبي « المدائن » على شطى الدجلة الشرقي والغربي . وقد بنيت هذه المدينة منذ ملك أردشير بن بابك ، ثم غلب على ملوك الطوائف واستبد بالأمر دونهم ، فوحد كلمة الفرس وأدخل في ملكه العراق وما جاوره من بلاد العرب ، وكان يلقب شاهنشاه أي ملك الملوك .

وقد ظلت المدائن عاصمة الدولة حتى ولاية كسرى أنوشروان المتقدم ذكره ثم جاء بعده كسرى هرمز ، ثم كسرى ابرويز وهو الذي أرسل إليه الرسول كتابه فخره ، ودعا عليه الرسول واستجاب الله دعوة نبيه . إذ قام عليه ابنه شيرويه فقتله

واستلب ملكه ، ثم مات هذا وتولى العرش ابنه أردشير وهو طفل صغير ،
فقام بعض القواد وقتل الإمبراطور الطفل وتولى الملك من بعده .
ولكن هذا الإمبراطور المقتصب لم يهنأ بالعرش طويلاً . إذا اجتمع أمراء
البيت المالک وأجمعوا أمرهم على قتله فقتل لأربعين يوماً من تملكه ، وبعدها
تولى عرش الفرس أباطرة ضعاف بسبب اختلافهم وتفرقهم ، وهكذا حتى كان
آخرهم بزدر بن شهریار الذي زالت في أيامه الدولة الفارسية وأضيفت إلى
الجمهورية الإسلامية في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

الفصل الأول

فتوح أبي بكر

كان منشأ الحروب مع الفرس والروم في خلافة أبي بكر — احتكاك
المسلمين بجيرانهم بسبب حركة الردة التي انتهت مناهضتها إلى حدودهم ونوجز
فيما يلي جملة تلك الحروب في عهد أبي بكر رضي الله عنه .

الحرب مع الفرس : في سنة ١١ هـ وبينما العلاء بن الحضرمي قائد لواء البحرين
يشتغل بإخضاع المرتدين في تلك الناحية ، انضم إلى جيشه قائد عظيم من سادة
العرب وهو المثني بن حارثة ؛ فساهم في تمجيد نصر العلاء على أهل البحرين .
ولما تم للمسلمين النصر في البحرين ، زحف المثني بفرقة البالغة ثمانية آلاف
جندي ، صوب الشمال حتى وصل إلى نهر الفرات ، فأرسل إليه أبو بكر كتاب
تشجيع بأن يواصل زحفه ، والتقى المثني بالقبائل القاطنة في مصبات الفرات
وكانت تفوق جيشه في العدد والعدة . لذلك اتبع خطة الدفاع عن مراكزه ثم
أخطر المدينة بأمره طالباً المدد من الخليفة . فأرسل أبو بكر إلى خالد بن الوليد
الذي كان قريباً منه ، أن يسير إلى المثني لنجدته ، فسار خالد وضم جيشه

إلى جيش المثنى ، وقسم الجيش إلى فرق . تولى هو إحداها وتولى المثنى على فرقة أخرى ، وعياض بن غنم على الفرقة الثالثة .

وقد رابط خالد على الفرات ؛ وأرسل عياض بن غنم إلى كلدة لفتحها ، وبعث المثنى إلى بلدة الابلّة على مصب الفرات لفتحها وضمها إلى الدولة الإسلامية . وقد حاصر عياض دومة الجندل مدة .

وفي المحرم من سنة ١٢ هـ (٦٣٣ م) وصل إلى خالد بن الوليد خطاب تعيينه قائداً عاماً على الجبهة الفارسية ؛ فسار إلى بلدة الحفير الواقعة على الحدود بين بلاد العرب وأملاك الفرس ، وكان معه عشرة آلاف جندي فضم إليه جند المثنى وقسمها إلى ثلاث فرق تولى هو إحداها وجعل على إحداها عدى بن حاتم ، وعلى الأخرى المثنى المتقدم . ثم كتب إلى هرمز عامل الفرس على كلدة والفرات كتاباً يطلب منه الدخول في الإسلام ، أو دفع الجزية عن يد وهو صاغر ؛ فاتصل هرمز بملك الفرس وأخبره بكتاب خالد ، وأخذ في الوقت نفسه يتجهز للقتال والدفاع عن بلاده ، فأعجله خالد على القتال ، وبدأ بالمبارزة ، فصرع خالد هرمز قائد الجيش ، وبذلك وقعت الهزيمة على الفرس ، ففروا من وجه المسلمين ، ومن بقي من أهل البلاد خضعوا للمسلمين وقبلوا حمايتهم ودفع الجزية التي فرضت عليهم .

أما الحيرة فلم تلبث عقب مناوشة طفيفة أن أذعنّت بالتسليم ، وحذا حذوها دهاقين كلدة ، فأبقاهم الخليفة على أراضيهم مشروطاً عليهم دفع الجزية كما أقر الفلاجين على حالتهم .

غير أن استيلاء المسلمين على الحيرة أدى بحكومة الفرس إلى أن تدرك الخطر المحقق بها ، فحشدت جيشاً جراراً وأنفذته لإجلاء المسلمين عن كلدة والجزيرة ،

وفي هذه الأثناء أرسل الخليفة خالد بن الوليد على رأس قوة كبيرة إلى الشام كما أرسل المثنى الذي لم يلبث أن سحب مراكزه الأمامية وعاد مسرعاً إلى المدينة ليحدث الخليفة في أمر تعزيز قوته ؛ فوجده على فراش الموت . وإلى هنا وصل بنا المطاف إلى جمادى الآخر من سنة ١٣ هـ وفي ذلك التاريخ توفي أبو بكر الخليفة الأول لرسول الله ﷺ ، واستخلف بعده عمر بن الخطاب الذي لقب بأمير المؤمنين لأول مرة في الدولة الإسلامية التي شرعت الشورى في انتخاب رئيس الدولة ولم تعرف الرياسة البابوية أو الأمبراطورية .

وقبل أن نغادر هذا الميدان من الجبهة الفارسية ، نرى أن نقول كلمة انصاف لمسلك خالد بن الوليد القائد العام لجيوشها .

وقد كان خالد من الرجال الممتازين بين العرب ، فقد استطاع أن يخذ حركة الردة في أكثر من ميدان ، وأخضع معظم أقاليم العراق ، والجزيرة وما جاورها في بضعة عشر شهراً فقط . كما أن سياسته نحو البلاد المفتوحة ، وما اتبعه من عدل وانصاف مكن للمسلمين في هذه الجهات وما هو ذا كتاب عهده لأهل الخيرة :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد ، عدياً وعمراً ابني عدي ، وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة ؛ وهم ثقباء أهل الخيرة . ورضي بذلك أهل الخيرة وأمروهم به وعاهدوهم على مائة وتسعين ألف درهم (١٩٠ ألف درهم) تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حبساً عن الدنيا تاركاً لها وعلى المنعة . وإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعمهم . وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة وكتب في شهر ربيع الآخر من سنة ١٢ هـ وكذلك لم يمتنع خالد أن يعطى

عهداً لبعض القرى حينما طلب أهلها ذلك مثل بانيقيا . وباروسما وكذلك مع كل من طلب ذلك من دهاقين^(١) البلاد .

ومما يستحق الذكر أن خالداً بعد أن استولى على الأجزاء السابقة من بلاد الفرس ، وضبطها وولى عليها الأمراء والجبابرة وأبقى بها مسالحي حمايتها أرسل إلى ملك الفرس كتاباً ، وإلى المرازية آخر . وقال في الأول :

من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس . أما بعد . فالحمد لله الذي حل نظامكم ووهن كيدكم وفر في كلمتكم ، ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شراً لكم . فادخلوا في أمرنا ندعكم في أرضكم ، ونجوزكم إلى غيركم ، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .

وقال في كتاب المرازية : بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى مرازية فارس أما بعد . فاسلموا تسلموا وإلا فاعتقدوا مني الذمة وأدوا الجزية فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر .

وعلى الجملة فإن الحرب في هذه الجبهة لم تكن بالسهولة التي قد تتصور فإن الفرس من الأمم القديمة ذات الحضارة والقوة ، وكانت تدافع عن تقاليدها بحماسة . بيد أن خالداً كان متفوقاً بالمهارة والقوة الحربية مما عوضه عن الكثرة والأسلحة ، واستطاع بذلك أن يهزم الفرس منذ الجولة الأولى وأن يكسب الجولات التالية .

وبهذا فتح المسلمون كلدة والحيرة واستولوا على بانيقيا وباروسما وأليس ؛ وأوقعوا بالفرس على نهر الثني تلك الموقعة التي غنم منها جيش خالد بن الوليد مغنم كثيرة .

كذلك انتصر المسلمون في معركة الوجة^(٢) ، وأليس^(٣) ، وفرات بادقلى

(١) الدهاقين شيوخ القرى

(٢) الوجة ندى كسكر من البر

(٣) بلدة على نهر الفرات

على مصبات الفرات وآلاتبار وعين التمر ودومة الجندل وكلها مواضع بالعراق .
كذلك استطاع هذا القائد العبقري أن يركز فتوح الإسلام في دلتا الفرات
سيوأن يعلى كلمته في تلك الجهات التي دانت لاتباع زرادشت قروناً من الزمن .

وفي ٢٥ من ذي القعدة سنة ٦٢ هـ اختلس خالد هدأة النضال قليلاً وانسل
إلى الحجاز حليماً شاكراً انعم الله على ذلك النصر الذي توج به هامة الإسلام
في أرض كسرى ، وموطن الجوس ، فأدى نسكه وعادو كأن لم يغادر ميدان
القتال حتى إن الخليفة نفسه لم يعلم على التحقيق خبر حجه إلا بعد برهة حيث
عتب عليه في ذلك .

وأما ما ينسب إلى ذلك القائد من قتله لمالك بن نويرة وتزوجه من زوجته
فإن الخطب لعري جد يسير . وجلية المسألة كما حققها ابن الأثير في تاريخه
أن خالداً بعد أن انتهى من طليعة بزاخة نحو البطاح موطن بني يربوع ،
وسيدهم مالك بن نويرة الذي كان قد اتبع المرتدين وشايع سجاجا ووادعها ثم
ندم وراجع الإسلام ، وغشيتهم خيل خالد وهم على تلك الحال ولم يعلم بهم
خالد . لذلك عند مارآه بنو يربوع تفرقوا في شعاب واديهم وخشوا صولة
خالد ، ولأن خالداً لم يعلم بتوبتهم ، أمر بأن يحبسوا حتى يرى فيهم رأيه ، ثم أن
الجو كان بارداً شديد الرطوبة فنادى منادى خالد بأن يدفء المسلمون أسراهم .
وكانت عبارة ادفاء الأسرى بلغة كنانة يراد منها القتل ، بخلاف لغة قريش التي
تفسر الدفء بمعناه المعروف . وهو إشعال النار لإزالة البرد ، وذلك ما قصد
إليه خالد . بيد أن اليربوعيين ومنهم مالك — لسوء حظهم — كان الحراس
عليهم من كنانة فما أن سمعوا نداء خالد حتى أسرعوا بقتل أسراهم فلما بلغت
خالداً أنباء الأسرى وفيهم مالك غضب وتألم ثم أراد أن يواسي زوجة مالك
فتزوجها وضمها إلى كنفه .

يبدأ أنه حدث بعد أن قتل مالك ومن معه أن كلز أبو قتادة - وهو من صحابة الرسول الأولين - حاضراً فاحتج على خالد وإتهمه بالغدر فغضب منه خالد ، واتهره فذهب أبو قتادة مغاضباً حتى أتى المدينة والتقى بالخليفة وعمر بن الخطاب وقص عليهما قصة خالد مع الأسرى وكيف قتل هؤلاء بعد أن شهدوا شهادة الحق ، فقال عمر لأبي بكر إن سيف خالد فيه رهن وأكثر عليه في ذلك ، فقال أبو بكر هبه يا عمر تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد ، فاني لا أشيم سيفاً سله الله على الكافرين ، وأودى أبو بكر مالكا وكتب إلى خالد أن يقدم عليه ففعل ودخل المسجد وعليه قباء وقد غرز في عمامته أسهما . فقام إليه عمر فنزعها وحطمها وقال له : أرثاء قتلت أمراً مسلماً ثم نزوت على امرأتك والله لأرجمنك بأحجارك ، وخالد لا يكلمه . يظن أن رأى أبي بكر مثله ، ودخل على أبي بكر فأخبره الخبر واعتذر إليه فعذره وتجاوز عنه . وعنفه في التزويج الذي كانت العرب تكرهه أيام الحرب . فخرج خالد وعمر جالس فقال : هلم إلى يا ابن أم سامة ، فعرف عمر أن أبا بكر قد رضى عنه فلم يكلمه ^(١) .

هذه هي القصة كما تبين من رواية ابن الأثير ، وهي المعقولة في نظرنا إلى حد ما . أما حملة عمر على خالد ، فاعلمنا نشأت عن الاذاعات التي وصلت إلى المدينة ، والتي لم يقصدها أصحابها مجرد الحق ، بل كانت مشوبة بالافتعال وعدم الثبوت من الحقيقة . على أن خالد لم يكن حين حبس بنى يربوع علماً بأنهم قد راجعوا الإسلام ، وقد اختلفت أقوال ثقافته في إظهار اليربوعيين لشعائر الدين إذ كان يكفي أن يشهد مثل أبي قتادة بأذانهم وصلاتهم حتى يخلى سبيلهم ، ثم بعد حبس القوم لاستجلاء حقيقتهم لم يكن ينبغي أن .

يكون إعلان إكرام الأميري بعبازات غامضة يتأولها الناس كايشتبون مما سبب
إراقة دماء هؤلاء القوم .

وأخيراً فإن مما يزيد السخط على خالد من مثل عمر أن يخرج خالد على
تقليد عربي متبع وهو أن لا يتزوج الجندي أو القائد في ميدان القتال ، وقد خالف
خالد هذه العادة العربية وتزوج في ميدان الحرب ، ولينه تزوج من غير من قتل
أزواجهم خطأً ، بل عمد إلى امرأة سيد القتلى وتزوجها فزاد النار استعاراً .

ولذلك ظل عمر يفرك القتاد على عمل خالد طوال عهد أبي بكر حسبما رواه
المؤرخون القدامى فما وافته الفرصة بعد توليته حتى سارع بعزل خالد من قيادة
الجنود وولاه أبا عبيدة عامر بن الجراح .

ومهما يكن من شيء فإن ذلك لا يقدح في كفاية خالد العسكرية ، ولا
في عبقريته كقائد مجرب . وإن نال من بعيد من ورع الرجل ، ووقاره كما ظن
عمر ، وهذا بالطبع على فرض صحة كل مانسب إلى خالد وهذا ما لا سبيل إلى
الجزم به .

ومما سبق نرى أن أهم الفتوحات التي كسبها المسلمون في الميدان الفارسي
أو الجبهة الشرقية إنما كانت بسبب المنهج الحربي الدقيق الذي وضعه خالد بن
الوليد وهو القائد العام لتلك الجبهة ، ثم لبراعة ضباط الفيالق الذين عملوا تحت
إمرة خالد مثل المثني بن خارثة ، وعياض بن غنم وغيرها .

الحرب مع الروم : أما حروب المسلمين مع الروم في خلافة أبي بكر ، أو
الميدان الغربي الذي انتصر فيه الخليفة وضم إلى دولته أجناد الشام وفلسطين
بيرو وصلت جنود الدولة إلى القلزم على حدود مصر . فلن أهم قواده في هذا الميدان

هم عمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح ، ويزيد بن أبي سفيان ، وشرجيل بن حسنة ، ثم معاوية بن أبي سفيان ويقود فرقة الامداد .

وأول اشتباك للمسلمين مع الروم كان على أثر الحملة التأديبية التي قادها أسامة بن زيد إلى بادية الشام ، فأثارت هذه الحملة حفيظة القبائل الضاربة في هذه النواحي وقام هؤلاء الأعراب يثأرون لإخوانهم الذين تربطهم بهم أو شاج الدم والقراة .

وكانت البلاد الواقعة غرب الجزيرة وكعدة خاضعة يومئذ للنبوة والرومانية الشرقية ، وكان للرومان في تلك البلاد معقل حصينة تحرسها حاميات قوية . كقيصرية على البحر ، وأريحا ، والقلس وعسقلان وغزة وبافا ، وعكا وصور . كذلك كان يقع في شمالي فلسطين ، سوريا أو بر الشام التي من أهم مدنها دمشق وحمص وحلب وأنطاكية ، وكانت تحرسها كلها حاميات رومانية مجهزة بأحدث الأسلحة إذ ذاك .

وفي ذلك الميدان منى المسلمون بهزيمة فادحة في أول حملة أرسلها أبو بكر بقيادة خالد بن سعيد الذي لم يكن من المهارة بحيث يرتاح الخليفة إلى خطئه . وتصرفاته العامة ولذلك لم يلبث أن عزله ، ولم يعدل عن فتح الشام بل أخذ يتجهز جادا في لقاء الروم بهذه الجهات . فجمع أبو بكر جيشا بلغت عدته ٣٥٠٠٠ خمسة وثلاثين ألف مقاتل ولى عليهم أربعة قواد ، ووجههم إلى بلاد عينها لهم في منطقة الشام وأطرافها .

فهذا أبو عبيدة يقود فرقة ، ويتوجه إلى حمص ، ومقره الجابية . وأسند إلى عمرو بن العاص قيادة فيلق فلسطين وهدفه فتح هذه الناحية .

وأمر يزيد بن أبي سفيان على جيش دمشق ؛ كما عقد لشرحبيل على جيش الأردن واتباع هذه الجيوش الأربع بعدد من الجنود كاحتياطي للجيش العامل وأسند رئاسته إلى معاوية بن سفيان .

زحف عمرو بن العاص على فلسطين السفلى مهدداً جيوش الروم في منطقتي غزة وبيت المقدس ، بينما أخذت الجيوش الثلاثة الأخرى تناوىء بصرى^(١) ودمشق وطبرية بيد أن مجموع جيش المسلمين القليل العدد ، قد أمكنه الصمود لجيش الروم الذي بلغت عدته حوالى ٢٤٠٠٠٠ جندي مجهزين بالسلاح والذخيرة ، وقد كان من السهل على هرقل إمبراطور الدولة الرومانية أن يجمع هذا العدد . إذ كان يدين لحكمه عدا أسيا الصغرى الشام وفلسطين ومصر وأفريقية وغيرها . ولذلك لما علم بزحف العرب أسرع إلى حمص وحشد فيها أربع فرق كبرى أما القواد المسلمين فلم يلبثوا هم أيضاً أن حشدوا قواتهم في صعيد واحد في « جولان » بالقرب من نهر اليرموك الذى ينبع من جبال حوران ، ويصب في نهر الأردن على بضعة أميال من بحيرة طبرية ، ثم يستدير على بعد ثلاثين ميلا من التقائه بنهر الأردن ليكون شبه دائرة تحتضن سهلا فسيحاً منبسطة يصلح لأن يكون معسكراً لجيش كبير . كذلك بالنهر انحناء يؤدي إلى فضاء مسطح يسمى « الواقصة » .

ولقد رأى الروم في ذلك الموقع المتقدم معسكراً طبيعياً محصناً فحشدوا جيوشهم فيه دون أن يحسبوا حساباً للمسلمين الذين ما كادوا يشعرون بخطأ عدوهم حتى عبروا النهر وعسكروا بجانب الوادى الضيق الذى يقع على استداراته ، وأخذ

(١) لبصرى تاريخ مشهور بسبب مرور النبي صلى الله عليه وسلم عليها ومقابلته لبحيرى الراهب الذى يقال أنه نصح أبا طالب بأن يرجع به فوراً خشية أذى اليهود له وأوضحنا ذلك في كتاب ظهور الاسلام بالتفصيل .

الجيشان يتراقبان حوالى الشهرين حتى مل الخليفة الانتظار فأرسل إلى خالد بن الوليد الذى كان فى كعدة بالميدان الشرقى، فأسرع خالد إلى الشام : ومعه حوالى خمسة آلاف انضمت إلى الجيوش الإسلامية فى هذه النواحي فبلغ جيش المسلمين حوالى ٤٠٠٠٠ أربعين ألف جندى : وفى صباح آخر يوم من جمادى الآخر سنة ١٣هـ (٦٣٤ م) وقعت المعركة الفاصلة بين الفريقين. فحمل العرب على أعدائهم حملة صادقة وظلوا يوقعون بهم حتى أفنوا البعض وأغرقوا البعض الآخر فى النهر .. وبهذا تم النصر للمسلمين وفتحوا جنوبى الشام ، وهذه الموقعة تسمى موقعة « اليرموك » .

وهنا حدثت وفاة أبى بكر. الذى يقال ان خبر الوفاة وصلت إلى قائد المعسكر قبل إنشأ القتال فكتمه حتى كسب المعركة ، ثم أذاعه ، وكان القائد فى هذه اللحظة خالد بن الوليد، وسبب كتمان الوفاة أن الرسول الذى جاء بالخبر كان يحمل معه خطاب عزل من القيادة العامة لخالد ، وإسناد إمارة الجيش إلى أبى عبيدة عامر بن الجراح وكان من المصلحة فى رأى خالد أن يظل هو ينفذ الخطة الحربية التى وضعها لهذه المعركة ، ثم يسلم الأمر إلى القائد الجديد ولذلك نرى أنه بمجرد أن تنتهى المعركة يسرع خالد إلى أبى عبيدة ويسلمه رسالة القيادة ، ويندمج هو فى الجيش كفرد عادى .

وبتولى أبى عبيدة قيادة الميدان الغربى نكون قد ودعنا عهد أبى بكر وأصبحنا فى خلافة عمر الذى ازدهرت الفتوحات فى عهده كما سنرى بعد .

الفصل الثاني

فتوح عمر بن الخطاب

ترجمة عمر :

يتحدث التاريخ عن عمر مفاخراً بفضائله وعبقريته والحق أن الرجل يستحق التقدير والاطراء إذ هو من أولئك القلائل الذين سجلت لهم صفحات المجد والخلود. في السلوك الشخصي ، والتنظيم الشعبي والدولي والسياسي .

وينتسب عمر إلى الخطاب بن نفيل من بني عدى كعب بن لؤى ، وأمه حنتمة^(١) بنت هاشم من بني مخزوم ، فعمر قرشى أصيل ، ولد عمر بعد مولد الرسول بثلاث عشر سنة وتربى على الشهامة والجرأة ، والصراحة ، وكانت سنه حينما أكرم الله محمد بن عبد الله بالرسالة ، سبعاً وعشرين سنة ، فلما دعاه الرسول إلى الإسلام ، لم يقتنع في بادئ الأمر ، ولذا كان شديداً على المسلمين . وحاربهم حرباً شديدة ، حتى كانت هجرة الحبشة ، وتحمل المسلمون الأذى في سبيل دينهم فأخذ يفكر في هؤلاء وحدهم وما يلقونه من عنت ، ثم في مبادئ الدين الجديد وأغراضه ومراميه ، ثم شرح الله صدره للإسلام . فأسلم وأعلن إسلامه في وقت لم يستطع غيره أن يقول كلمة الحق إلا مستخفياً أو من وراء جدر ، ولكن عمر قال لا إله إلا الله على ملائمة زعماء الوثنية وسادة قريش مما يدل على مبلغ الإيمان والغيرة في قلب الرجل ، وشجاعته وصراحته . وقد تحمل من أذى المكيين ما لا قبل لأحد باحتماله حتى أجاره العاص بن وائل السهمي . ولما هاجر الرسول ، اشتد أذى المشركين للمسلمين حتى كان من يعرف أنه

(١) في مروج الذهب خيشمة بنت هشام بن المغيرة (ص ٤١٧) . . .

صهاجر يعد له اللون المناسب من التعذيب والعقاب . وأما عمر فإنه حينما اعتزم الهجرة لم يستطع أحد أن يتبعه فيلحق به أذى .

حضر عمر جميع المشاهد مع رسول الله . وكان مع أبي بكر كالوزيرين للرسول الكريم وتزوج الرسول حفصة ابنته ، وظل موضع تقدير النبي وجميع المسلمين حتى توفي الرسول وكانت خلافة أبي بكر . فأزر أبا بكر ووقف إلى جانبه بل كان أسبق الناس إلى مبايعة أبي بكر ، وأعرفهم بحقه وقدره .

ولما اشتد على أبي بكر مرضه الأخير استشار المسلمين في تولية عمر من بعده فكلهم رضى به وزكاه ، فأُسند إليه خلافة المسلمين من بعده ، فكانت خلافته بركة للدولة ، وخيراً لجميع أفراد الأمة . وها هي ذى ناحية من أعماله نسجلها في توجيهه لدفة الحروب في الجبهتين الشرقية والغربية ضد الروم والفرس اللتين اقتسمتا ملك الدنيا حينئذ ، وقد استطاع أن يوقع الهزيمة بهاتين الدولتين ، وأن يزيل إحداها من الوجود .

منهجه :

يتضح منهج عمر الذي اتبعه في الحكم والإدارة من خطابه الأول الذي أذاعه وقت بيعته إذ قال :

« إنما مثل العرب كمثل جبل آنف اتبع قائده ، فليظن قائده حيث يقوده » .
وأما أنا فو رب الكعبة لأحملنكم على الطريق^(١) » . يقول سيد أمير على :
« تأثرت سياسة الدولة بأخلاق عمر على وجه خاص سواء كان ذلك في حياته أم بعد مماته إذ كان هدفه الرئيسى هو توحيد شبه الجزيرة العربية ، وصهر القبائل في جامعة عربية إسلامية موحدة .. وثمة مناح أخرى من سياسته خليقة بأن توجه إليها »

اهتمامنا وأولها إجلاء جميع العناصر القادمة من شبه الجزيرة ، لكي تخلو للعرب .
وخدم ، وثانيها عدم التطرف في الفتح وقد استطاع بثاقب فكره وبعد نظره أن .
يدرك أن توطيد دعائم الإمبراطورية وترقيتها مادياً يتوقفان على رفاهية طبقة
الفلاحين من سكان البلاد الأصليين . وتحقيقاً لهذه الغاية منع بيع الأراضي الزراعية
في الأمصار المفتوحة كما سن قانوناً يحظر فيه على العرب امتلاك الأراضي والضياع^(١) .

وعلى الجملة فإن عمر كان في الحقيقة الرجل الموهوب الذي جعل للإسلام
دولة قوية مرهوبة الجانب ، ونشر فيها لواء العدل وثقافة الإسلام وخلقه ، وكان
هو نفسه المثل الأعلى في التمسك بتعاليم محمد رسول الله ﷺ ومبادئ
القرآن الكريم .

الجهة الفارسية :

أسلفنا القول بأن المثنى بن حارثة الشيباني ، حينما رأى ملك الفرس قد حشد
جيشاً كثيفاً ، لإجلاء العرب عن المراكز التي احتلوها ، انسحب إلى وراء قليلا ،
ثم أسرع وحده إلى المدينة يطلب المدد من الخليفة ، فوجده على فراش الموت وأنه
قد أوصى أن يرعى عمر — وهو الخليفة بعد أبي بكر — جيش المثنى ، وأن يمدّه
بما يطلبه . وقد نفذ عمر وصية أبي بكر في اليوم التالي لوفاة أبي بكر . إذ ندب
الناس مع المثنى إلى حرب فارس قبل صلاة الفجر^(٢) . وظل عمر ثلاثة أيام يجهز
الجيوش ويستعرضها ، ثم أمر عليها أبا عبيد بن مسعود الثقفي . وهو والد المختار
ابن عبيد ؛ ولما أزمعت الجيوش على التوجه شطر الميدان الشمالي الشرقي بالعراق ،
قام المثنى فخطب خطبة مطمئنة للناس ، قال فيها :

(١) مختصر تاريخ العرب ص ٥ — ٥١ ، هذا وسند كرويه في الأراضي

الزراعية في باب الحضارة بعد قليل .

(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٩٧ .

أيها الناس : لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فإننا قد فتحنا ريف فارس
« وغلبناهم على خير شقى الوادى ، ولنلنا منهم ، واجترأنا عليهم ، ولنا إن شاء
الله ما بعدها » .

ولقد رفض عمر رجاء المسلمين فى تولية هذا الجيش لأحد كبار المهاجرين
والأنصار قائلا : لا والله لا أفعل . إنما رفعهم الله تعالى لسبقهم ومساعدتهم
إلى العدو . فإذا فعل قوم فعلهم وقتلوهم ، كان الذين ينفرون خفافاً وثقالاً ،
ويسبقون إلى الدفع أولى بالرياسة منهم والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً
ثم دعا أبا عبيد وسعداً وسليطاً وقال لهم : لو سبقتماه لوليتكما ولأدر كما بها
إلى مالكما من السابقة . فأمر أبا عبيد على الجيش وقال له : اسمع من أصحاب
رسول الله ﷺ وأشر بهم فى الأمر ، ولا تجتهد سرعاً حتى تبين^(١) .

موقعة الجسر : وصل المثنى إلى ميدان القتال ، ثم تبعه أبو عبيد بجيشه
والتقت الجيوش بالحيرة ، فشنت الحرب على الفرس الذين ثار دهاقينهم بأمر
رستم قائد جيش فارس ، والقابض على مقاليدها ، وكانت أولى المواقع بين
الفريقين موقعة (المروحة) على الشاطئ الغربى لنهر الفرات ، وفيها قتل
أبو عبيد الثقفى وسبعة ممن حمل اللواء بعده ، ويقال أن أبا زيد الطائى النصرانى
قاتل حمية للعرب ، وكان سبباً فى إنقاذ ما بقى من جيش أبي عبيد الذى لم يختار
لجيشه موقعاً مناسباً كما نصحه المثنى ، مما نجم عنه هزيمة هذا الجيش .

موقعة البويب : بيد أن جند الفرس — رغم انتصارهم ، لم ينتهزوا فرصة
هذا الفوز الباهر فى موقعة المروحة (الجسر) التى حدثت فى شهر شعبان من
سنة ١٣هـ^(١) وظلوا متمسكين بمواقعهم على جسر الفرات ، وبلغ عمر خبر هزيمة

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٩٨ .

(٢) نفس المصدر السابق .

جيشه ، فأرسل جيشاً بقيادة جرير بن عبد الله البجلي ، الذي استطاع أن يجمع من متطوعة بحيلة عدداً غير قليل على أن ينقلهم عمر ربع الخمس من الغنيمة .

كذلك أمد عمر المثنى بجيش آخر بقيادة عصمة بن عبد الله الضبي ، واستنفر عمر والمثنى أهل المودة ، فأجابوا ونفر منهم جم غفير ، وقصدت هذه الجموع إلى الحيرة حيث جيش فارس مرابط في جسر الفرات .

وقد التقت الجيوش الإسلامية جميعها بمعسكرات البويب ^(١) المقابل لموقع الجيوش الفارسية ، وقد كانت هذه الجيوش محصورة بين نهر الفرات وفرع البويب .

كان قائد الفرس لهذا الجيش (مهران) فأرسل إلى المثنى يخبره بين العبور إلى الفرس ، أو عبور الفرس إليه ، فطلب المثنى منه أن يعبر هو بجنده ، فعبر مهران وصف جيشه إلى ثلاثة صفوف مع كل صف فيل عظيم ، والرجالة ، أمام الفيل ينشدون نشيد الإمبراطورية ^(٢) .

بيد أنه ، ما كادت تدور رحى المعركة ، حتى أنزل المسلمون بعدوهم هزيمة منكرة ويقال ان المثنى طلب من أنس بن هلال النمرى والذي لم يسلم بعد ، أن يعين المثنى على قتل مهران قائد الجيش ، ثم قتل مهران بيد غلام نصراني . من تغلب ^(٣) وفر من بقى من الفرس ، فتبعهم المسلمون إلى (سابط) وراء

(١) البويب نهر بالعراق .

(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٤ ويقول وأقبل الفرس في ثلاثة صفوف مع كل صف فيل ورجلهم أمام فيلهم ولهم زجل فقال للمثنى للمسلمين « اقدى تسمعون . فشل فالزءوا الصمت » .

(٣) المصدر السابق .

الدجلة . ثم دخل المسلمون الحيرة عنوة ، وتم لهم النصر على هذا الجيش وكان ذلك في سنة ١٣ هـ .

القادسية : في هذه الأثناء اعتلى يزدجرد عرش الفرس — وكان شاباً طموح النفس ، ولم يوطد العزم على طرد العرب من الحيرة فحسب ، بل عقد النية على اجتياح بلادهم ، فأرسل إلى كلدة جيشاً مؤلفاً من ألف مقاتل ، فلما رأى المثنى قلة جيشه انسحب من كلدة إلى حدود الصحراء ، وأخذ ينتظر وصول الأمداد التي طلبها من المدينة والتي أخذ عمر يبذل مجهوداً جباراً في جمعها وتجهيزها حتى لقد تظاهر بأنه سيصحب الجيش بنفسه ، وأوصى الجيش واهتم به غاية الاهتمام .

أما الفرس فإنهم بعد هزيمة جيش مهران ، نظروا إلى أنفسهم ، وعملوا على جمع شعهم وتوحيد كلمتهم لمقاومة العرب جبهة متحدة ، وبدأوا واحدة . فاتفق رسم والفيرزان وسائر القواد على أن يعملوا تحت إمرة الإمبراطور الشاب (يزدجرد) حفيد كسرى وقد تبارى الرؤساء في طاعته ، وجمع الجيوش وتجهيزها للدفاع عن الإمبراطورية التي سلخ منها العرب الحيرة وساباط وتكريت وهم بصدد احتلال المدائن : العاصمة الكبرى للإمبراطورية .

ولذلك جهز الفرس جيشاً كثيفاً ، وقسموه إلى فرق أسموها بأسماء النواحي التي فتحها المسلمون .

بلغ ذلك المثنى ، فكتب إلى عمر باجتماع الفرس على حرب المسلمين وطردهم من مراكزهم ولكن قبل وصول جواب عمر ، قام أهل السواد ونقضوا عهد المسلمين ، ورفعوا لواء التمرد والعصيان فانسحب هؤلاء من بلاد الفرس ، وعسكروا على حدود بلاد العرب وعلى مصبات الفرات .. وفي هذه الأثناء توفي المثنى متأثراً

بجراحه أو بحمي أصابته^(١) .

قيادة سعد بن أبي وقاص : وتولى القيادة من بعده سعد بن أبي وقاص ، وقد جاء على رأس جيش كبير لتعزيز جيش المثنى ، فبلغ بذلك جيش المسلمين حوالى ثلاثين ألفا .

أما عن السبب فى اختيار سعد للقيادة العامة ، مع أن الرجل الذى كان يجب تقديمه على الجميع هو أول من دخل هذه البلاد غازيا منتصرا . فهو أولا ما أسلفنا الحديث عنه من أمر خالد بن الوليد ونقمة عمر عليه مسلكه نحو مالك ابن نويرة مما دفعه لعزله عن القيادة حتى فى الميدان الغربى ، وعلى الرغم من أن أبا بكر قبيل وفاته أوصاه بأن يعيد جند الميدان الشرقى إلى حيث كانوا بعد أن انتدبهم أبو بكر إلى حروب الروم .

نقول على الرغم من وصية أبى بكر ، فإن عمر أصر على إبعاد خالد مهاثيا عن شئون القيادة لأنه اعتقد أن فى سيفه رهقا ، وخالد كما بينا هو أول قائد عام هزم الفرس فى الميدان الشرقى .

ثم السبب الثانى أنه أراد أن يختار رجلا ذا خبرة وكفاية حتى يستطيع مواجهة جموع الفرس ، وتدير أعظم جيش إسلامى منذ موقعة اليرموك فى سنة ١٣ هـ . يقول ابن الأثير فى ذلك « لما اجتمع الناس إلى عمر خرج من المدينة ، حتى نزل على ماء يدعى «صرار» فعسكر به ولا يدرى الناس ما يريد ، أيسير أم يقيم ،

(١) يقول ابن الأثير أنه كان قد جرح وأن جراحه قد انتجرت فتوفى ، ويقول سيد أمير على أن حمى كلدة هى التى فتكت بالمثنى (أنظر ج ٣ من الكامل فى التاريخ ، ومختصر تاريخ العرب (لسيد أمير على) .

وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف فإن لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس بن عبد المطلب . فسأله عثمان عن سبب حركته فأحضر الناس فأعلمهم الخبر واستشارهم في المسير إلى العراق ، فقال العامة : سر وسر بنا معك ، فدخل معهم في رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه برفق ، وقال اغدوا واستعدوا ، فإنى سائر إلا أن يحىء رأى هو أمثل من هذا ، ثم جمع وجوه أصحاب رسول الله ﷺ وأعلام العرب وأرسل إلى على وكان قد استخلفه على المدينة فأتاه وإلى طلحة وكان على المقدمة فرجع إليه ، وإلى الزبير وعبد الرحمن ، وكانا على المجنبتين فحضرا ، ثم استشارهم فاجتمعوا على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ ، ويقيم ويريه بالجنود ، فإن كان الذى يشتهى فهو الفتح ، وإلا أعاد رجلا ، وبعث آخر ، ففى ذلك غيظ العدو ، فجمع عمر الناس وقال لهم ، إنى كنت عزمت على المسير حتى صرفنى ذوو الرأى منكم . وقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلا فأشيروا على برجل ، وكان سعد بن أبى وقاص على صدقات هوازن ، فكتب إليه عمر بانتخاب ذوى الرأى والنجدة والسلاح ، فجاءه كتاب سعد وعمر يستشير الناس فيمن يبعثه يقول : قد انتخبت لك ألف فارس كلهم له نجدة ورأى وصاحب حيطة يحوط حريم قومه ويمنع ذمارهم . إليهم انتهت أحسابهم ورأيهم ، فلما وصل كتابه ووافق مشورتهم قالوا لعمر : قد وجدته ، قال : من هو ؟ قالوا : الأسد عاديا . سعد بن أبى وقاص ، فانتهى إلى قولهم وأحضره وأمره على حرب العراق ووصاه وقال (لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله فإن الله لا يمحو السىء بالسىء ، ولكنه يمحو السىء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته ، والناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء . الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة . فانظر الأمر الذى رأيت رسول الله ﷺ يلزمه فألزمه ، ووصاه بالصبر وسرحه فيمن اجتمع إليه من جند المسلمين وهم أربعة آلاف فيهم حميضة

ابن النعمان على بارق وعمر بن معد يكرب وأبو سبرة ابن ذؤيب على مذحج. ورجال على قبائلهم، ثم خرج فرّاً بفتية من السكون من حصين بن نمير ومعاوية ابن حديج، فأعرض عنهم، فقليل له، مالك وهؤلاء، فقال: ما ربي قوم من العرب أكره إلى منهم، ثم أمضاهم، فكان بعد يذكرهم بالكراهة^(١).

لم يدخر عمر جهداً إلا بذله في هذه الحملة. وأمر على الجيش سعد بن أبي وقاص الزهوي القرشي، وبعد أن نصحه وأوصاه أشار عليه بأن يعسكر في مكان حصين. في زرود.

وصل سعد إلى المكان المذكور، وفيه فض وصية المثنى وقرأها، وفيها ينصحه أن يقاتل الفرس على حدود العرب، وأن يحذر من خداع الفرس، واذ قد كان الفرس على أهبة القتال فقد سار سعد حتى التقى بهم بعد أن أرسل كتاباً إلى امبراطورهم يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية فلما وصل الرسول بالكتاب إلى يزدجرد ومعه وزراؤه، واستأذنوا بالدخول فأذن لهم وسألهم عما جاء بهم فقال لترجمانه: سلهم ما الذي دعاهم لغزو أرضنا وبلادنا. أمن أجل تشاغل الفرس عنهم أم ماذا، فأجابه رئيس الوفد النعمان بن مقرن بقوله: «ان الله رحمتنا فأرسل إلينا رسولا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة فلم يدع قبيلة إلا وقاربه منها فرقة وتباعد عنه منها فرقة. ثم أمرنا أن نبتدىء بمن خالفه من العرب فبدأنا بهم فدخلوا معاً على وجهين. مكره عليه فاغتبط. وطائع فازداد فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق ثم أمرنا أن نبتدىء بمن يلينا من الأمم فتدعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله: فإن أيتم فأمر من الشر هو أهون

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٣٠٩ - ٣١٠.

من آخر شر منه الجزية . فإن أيتّم فاللناجرة . فإن أجبتّم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وإن بذلتّم الجزية قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم . فتكلم يزيد جرّد فقال : إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم ، كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا أمركم ، لا تغزوكم فارس ولا تطمعوا أن تقوموا لفارس . وإن كان غبن لحكم فلا يغرنكم منا ، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم فأسكت القوم . فقام المغيرة بن زرارة فقال :

أيها الملك إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم وهم أشراف يستحيون من الأشراف وإنما يكرم الأشراف ويعظم حقهم الأشراف ، وليس كل ما أرسلوه به قالوه ولا كل ما تكلمت به أجابوك عنه . وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك فجأوبني لأكون الذي أبلغك وهم يشهدون على ذلك لي : فأما ما ذكرت من سوء الحال فهي على ما وصفت وأشد . ثم ذكر خال العرب وإرسال النبي ﷺ إليهم نحو قول النعمان وقتال من خالفهم أو الجزية . ثم قال : إختار إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجى نفسك ، فقال يزيد جرّد أتستقبلني بمثل هذا ..؟ فقال المغيرة له ما استقبلت إلا من كلمني ، ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به . فقال يزيد جرّد : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء لكم عندي . ثم استدعى بوقر من تراب . فقال إحملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن . إرجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية وينكل به وبكم ، ثم أوردته بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم من سابور ، فقام عاصم ابن عمرو ليأخذ التراب وقال . أنا أشرفهم : أنا سيد هؤلاء فحملوه على عنقه وخرج

به من الإيوان وولى إلى زاحلته فركبها وأخذ التراب حيث عاد الرسل جميعا إلى سعد بن أبي وقاص .

وبعد ذلك ترى أن الفرس وعلى رأسهم يزدجرد كانوا مستهينين بأمر العرب أو بعبارة أدق تظاهروا بعدم المبالاة بهؤلاء العرب الذين ظلوا أحقابا لا تقوم لهم دولة موحدة كالدولة الفارسية وظلوا يُنبذاً هنا وهناك في شبه الجزيرة الجرداء وأحسنهم حالا أولئك الجند المرتزقة الذين يستجلبهم منافرة الحيرة . وغساسنة الشام للقتال في جيوش الفرس والروم ولم يكن واحد من آل المنذر ابن ماء السماء ولا أمير من أمراء غسان ، سواء في أيام الحرب أو السلم إلا وسيطا مأجوراً بين القبائل العربية وبين الدولتين الفارسية والرومانية .

ولئن شئنا الحق والصراحة ، فإننا يجب أن نقول في يقين وحزم . إن أول رجل جاهد في سبيل توحيد شبه الجزيرة وخلق من ضعفها وتناحرها قوة واخوة ، وجعلها كالبنيان المرصوص أو كالجسد الواحد إنما هو سيد البشر محمد رسول الله ﷺ كثيرا ، ولذلك كان كل رسول من رسل سعد إلى يزدجرد كما أسلفنا يبدأ حديثه بحال العرب ثم يكر مسرعا إلى ما بذله الرسول في ترقية هؤلاء ، وتعليمهم ، وهذا ليس من باب التبرك - كما قد يفهم الجاهلون بتاريخ الإسلام . ولكن من باب الإشادة وإلقاء الرعب في نفس السامع بأن حال العرب قد غيرها . محمد رسول الله ﷺ وأنهم اليوم غيرهم بالأمس ولهذا نرى أن تنقل لكم المحاوراة الآتية بين يزدجرد وبعض خلصائه لتروا مبلغ ترددهم وخشيتهم من العرب المسلمين :

قال الملك لرستم وقد استدعاه من ساباط : فحضر - ما كنت أرى أن في العرب مثل هؤلاء - ما أنتم بأحسن جوابا منهم ، ولقد صدقني القوم . لقد وعدوا أمراً ليدركنه أوليوتن دونه ، على أنى وجدت أفضلهم أحقهم ، حيث حمل التراب على رأسه فخرج به فقال رستم : أيها الملك : إنه أعقلهم ، وتطير إلى

ذلك وأبصرها دون أصحابه ، وخرج رستم من عند الملك غضبان كثيرًا وبعث في أثر الوفد وقال لثقتي ، إن أدركهم الرسول تلافينا أرضتنا وإن عجز سلبكم الله أرضكم فرجع الرسول من الحيرة قائلًا : ذهب القوم بأرضكم من غير شك . . وكان رستم منجما كاهنا^(١) .

على أن تطير رستم قد استبشر به عاصم والمسلمون فقد قال هذا الرجل وقد ذهب .
يحمل التراب إلى القائد سعد : أبشر : فوالله لقد أعطانا الله مقلد ملكهم .

ولكن على الرغم من جراءة المسلمين على الفرس ، فإنهم كانوا يخشون قوتهم .
ويقدرون خطرهم وعلى رأسهم الخليفة عمر بن الخطاب الذي لم يزايله التفكير لحظة في هذه الحملة المغامرة في الميدان الشرقي . فقد سبق أن أشرنا إلى وصيته لقائد الجيش بالاناة والصبر والحذر والرفق بجيشه الضئيل إلى جانب قوة عدوه وعدد جنوده . ثم لم يكفد يصل سعد إلى « شراف » حتى كتب إليه عمر يقول :

أما بعد فسر إلى شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله . واستعذ به على أمرك كله واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وعلى بلد منيع . وإن كان سهلا لبحوره وفيوضه إلا أن توافقوا غيضا من فيض . وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابذوهم الشد والضرب . وإياكم والمناظرة لجموعهم ، ولا يخدعنكم ، فإنهم خدعة مكرة . أمرهم غير أمركم إلا أن تخادعوه ، وإذا انتهيت إلى القادسية . والقادسية باب فارس في الجاهلية وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يريدونه من تالك الأصل . وهو منزل . رغب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتعة . فتكون مسالكك على أنقابها ، ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر ثم ألزم مكانك .

فلا تبرحه فانهم إذا أحسوك أنقضتكم رموك بجميعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم .
وخدم وخدم فإن أنتم صيرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله وأديتم الأمانة . رجوت
أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبدا . إلا أن يجتمعوا وليست معهم
قلوبهم ، وإن تكن الأخرى كان الحجر في أذناكم فانصرفتم من أدنى مدرة
من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليها أجراً وبها أعلم . وكانوا
عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتي الله بالفتح ويرد لكم الكرة .

ولم يكتفِ عمر بهذا الكتاب — الذي نرى توافقاً كبيراً بينه وبين وصية
المنى ، لسعد مما يدل على توارد خواطر الرجلين عمر والمنى — بل أنه أرسل
إليه كتاباً آخر يعظه فيه ويذكره وينصحه بأن يكثر من ذكر الله ودعائه وأن
يصبر عند القتال ويطلب منه أن يصفله منازل الجيش ومركزه وأن يجعل الخليفة
دائماً على اتصال ويعلم بكل التفاصيل التي تجري في هذا الميدان .

وعلى الجملة : فإن سعداً نزل القادسية — التي هي باب فارس كما قال عمر —
ويبدو أنه كان متوقفاً جعل ميدان الحرب في هذا المكان . إذ نرى الفرس
والمسلمين يتحدثون عنه فكأنهما تولعا القادسية ؛ فالواقعة بها ولا بد .

وظل سعد بجنده شهراً بللقادسية . لا يأتيه أحد من الفرس ولا يناوشه مع أنه
على أبواب بلادهم . ولذلك أرسل سرية بقيادة عاصم بن عمرو إلى ميسان فطلب
غنماً وبقرًا . فلم يقدر عليها ، وتحصن منه أهل ميسان ، فأمر عاصم رجلاً بجوار
أجعة ، واستدله على الغنم والبقر — فيقال إن الرجل أنكر العلم بشيء من ذلك ،
ولكن عاصم استطاع أن يعرف مكان هذه المواشي ، فأخذها واستاقها إلى
المسكر ، فقسمه سعد بين الناس فأخصبوا أياماً .

على أنه يقال إن النبي دخل عاصمًا ثور ورأه الأجعة التي جلس الفارسي إلى

جانبها وأن هذا الثور نطق قائلا « كذب عدو الله ، وها تحن أولاء » ومع أن هذا مستبعد في العادة . فإنه جائز على الله الذي أنطق كل شيء .

ويروى ابن الأثير أن هذه الحادثة بلغت الحجاج في زمانه ، فكذب الذين رووها ثم أنهم آلوا له أنهم شهدوها بأنفسهم . فصدقهم : ثم قال لهم : ما كان الناس يقولون في ذلك ؟ قالوا آية تبشير يستدل بها على رضا الله وفتح أرض عدو . . . فقال : ما يكون هذا إلا والجمع أبرار أتقياء : قالوا والله ما ندري ما أجنت قلوبهم . فأما ما رأينا فما رأينا قوما قط أزهد في دنيا منهم ، ولا أشد بغضا لها ، ليس فيهم جبان ولا غال ولا غدار الخ . .

انتصار المسلمين : ومهما يكن من شيء ، فقد التحم الجيشان ، جيش المسلمين وقائدهم سعد بن أبي وقاص الذي كان يصدر أوامره من أعلى القصر حيث كان . به بعض المرض ، وجيش الفرس وقائده رستم الذي كان على اتصال مباشر مع المدائن وامبراطور الفرس حفيد كسرى .

وقد ظلت المعركة دائرة ثلاثة أيام بلياليها واستمرت إلى الظهر من اليوم الرابع ووقتئذ انهزم الفرس . وخارت قوتهم ، وانسل رستم قائدهم العام لينجو فرارا ولكن هلال بن علقمة أحد جنود المسلمين تبعه وقبض عليه ثم قتله ، ومالك سريره وصعد عليه ثم نادى : قتلت رستم ورب الكعبة . .

وبموت رستم وهو بطل الأبطال في دولتهم ، وبطل الفرس في شاهنامه الفردوسي لم يكن للجيش الفارسي أية قيمة فقد ناوش مناوشات طفيفة ثم ولى الادبار لا يلوى على شيء . إذ أن أرماث وأغواث وعماس كانت فاصلة وكانت القادسية قاصمة الظهر^(١) .

(١) أرماث وأغواث وعماس أيام الحرب الثلاثة ، والقادسية يومها الرابع .

وبعد أن انتهت الواقعة كتب سعد إلى عمر « أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراؤن مثل زهاتها ، فلم ينفعهم الله بذلك : بل سلبهم إيامو نقله عنهم الى المسلمين ، وتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الأجام . وفي الفجاج ، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارىء وفلان وفلان (وسماهم) ورجال من المسلمين لا نعلمهم . الله بهم عالم . كانوا يدؤون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى النحل ؛ وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ، ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة . إذ لم تكتب لهم » .

ولفرط شغل عمر بهذه الحملة ، كان يخرج كل يوم يتنسم أخبارها ، حتى جاءه البشير بالفتح على المسلمين . ويقال ان الرجل الذى حمل الخبر الى المدينة التقى بعمر خارجها . فسأله عمر عن الجيش ، فقال « هزم الله العدو » وأسرع الرجل براحلته الى المدينة ، ولا يعرف أن الذى يكلمه عمر ، فأخذ عمر يجرى وراءه وهو يقول « يا عبد الله حدثنى » فلا يزيده الرجال عن العبارة السابقة .

ودخل الرجل المدينة ليشر الخليفة الذى لم يعلم أنه الإنسان البسيط الذى يتبعه جريا على الأقدام يسأله عن الجيش ، وإذا بالمسلمين يقابلون عمر خلف البشير ويسلمون عليه بالأمانة ؛ فكاد الرجل أن يصعق ، لأنه لا يعرف عمر ، فبدأ عمر من روعه بقوله « لا عليك يا أخى » ثم سلم الرجل كتاب سعد إلى عمر ، فعند ذلك حمد الله وسجد له شكراً .

وبعد أن تقبل سعد خضوع المدن الواقعة بجوار الحيرة زحف على بابل حيث

= الذى انتصر فيه المسلمون وهى أسماء أمكنة حدثت بها للواقع فى هذا الميدان .
وسميت الواقعة بالمكان الذى فيه تم الظفر فى النهاية .

كانت قد تجمعت فلول الجيش الفارسي فدارت معركة رائعة بينه وبينهم أسفرت
عن هزيمة الفرس وتمزيق شملهم، ففر بعض قوادهم إلى المدائن عاصمة الفرس وسار
من القواد (الهرمزان) إلى الأهواز ، كما اتجه الفيرزان صوب نهاوند .

ولكن سعد رأى أن الاستيلاء على (كلدة) لا يتم نهائياً طالما تعسكر جنود
الفرس في المدائن، ولهذا زحف على عاصمة الفرس التي كانت في موقعها تشبه بغداد
بموقعها . إذ تبعد حوالي ٢٥ ميلاً من مجرى الفرات ، وكان الغربي منها يسعى
سلوسياً ، والقسم الشرقي يسمى (طاق كسرى) وقد سميت تلك العاصمة بالمدائن
لكونها مؤلفة من مدينتين ، كذلك كانت قصور الملوك ودور الأشراف تجمع
إلى الجمال وبهاء الرونق ، الترف والبذخ، وقد تأثر البسطاء بمشاهدة تلك المناظر
الخلابة في مبدأ الأمر .

ويقال انه بعد أن حوصرت المدائن ردتاً من الزمن اضطرت أن تفتح أبوابها
صاغرة ، كما أعقب احتلالها ، خضوع المدن الواقعة غربي الدجلة، وقد صلى سعد
صلاة الفتح مع الجند في قصر كسرى أنوشروان (إيوان كسرى) وقد قدم
الدهاقين (شيوخ القرى) فروض الطاعة إلى سعد، ونزل القصر الأبيض وهو يقول
(كم تركوا من جنات وعبون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك
وأورثناها قوماً آخرين) .

ومما يذكره بعض المؤرخين أن سعداً جعل إيوان كسرى، مسجداً وصلى فيه،
وفيه تماثيل الجص. رجال وخيل ولم يتمتع هو والمسلمون لذلك. وتركوها على حالها
وأتى سعد الصلاة يوم دخول المدائن لأنه أراد المقام بها ^(١) .

(١) المحاضرات ج ١ ص ٣١٤ للمرحوم الشيخ الحضري .

وبعد : فإننا وقد أتينا على وصف موجز للقادسية ، لا نحب أن نغادر هذا
الموضع قبل أن نسوق ذلك الموقف الذي وقفه رستم بطل الجيش الفارسي الذي كان
راغباً في مهادنة المسلمين ، بل في اعتناق الإسلام لولا فظاظة أشراف فارس ،
وخشيته من ضياع مركزه في دولة الأكاسرة . . يقول ابن الأثير في ذلك :

فلما وصل رستم القادسية ، وقف على العتيق بحيال عسكر سعد ونزل الناس
فما زالوا يتلاحقون حتى اعتموا من كثرتهم والمسلمون ممسكون عنهم وكان مع رستم
ثلاثة وثلاثون فيلاً ، منها فيل سابور الأبيض . وكانت القبيلة تألفه فجعل في القلب
ثمانية عشر فيلاً ، وفي المجنبتين خمسة عشر فيلاً ، فلما أصبح رستم من تلك الليلة
ركب وسار من العتيق نحو خفان حتى أتى على منقطع عسكر المسلمين ، ثم صعد
حتى انتهى إلى القنطرة ؛ وأرسل إلى زهرة فواقفه فأراد على أن يصالحه ويجعل
له جعلاً على أن ينصرفوا عنه من غير أن يصرح له بذلك بل يقول له : كنتم جيراننا
وكنا نحسن إليكم ونحفظكم ، ويخبره عن صنيعهم مع العرب . فقال له زهرة :
لبس أمرنا أمر أولئك ، ولا طلبتنا طلبتهم إنا لم نأتكم لطلب الدنيا ، إنما طلبتنا
وهمتنا في الآخرة ، وقد كنا كما ذكرت إلى أن بعث الله فينا رسولا ، فدعانا إلى ربه
فأجبناه ، فقال لرسوله : إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدين بديني ، فأنا
منتقم بهم منهم ، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به وهو دين الحق لا يرغب
عنه أحد إلا ذل ، ولا يعتصم به أحد إلا عز . فقال له رستم : ما هو . قال ، أما
عموده الذي لا يصلح إلا به شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ،
والإقرار بما جاء به من عند الله قال : ما أحسن هذا ، وأى شيء أيضاً . قال : وإخراج
العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله . قال : حسن . وأى شيء أيضاً : قال والناس
بنو آدم وحواء أخوة لأب وأم . قال ما أحسن هذا . ثم قال رستم أ رأيت إن أجيبت
إلى هذا ومعى قومي . كيف يكون أمركم ، أترجعون . قال : أى والله ثم لا تقرب

بلادكم أبداً إلا في تجارة أو حاجة . قال : صدقني والله . أما ان أهل فارس منذ
ولى أردشير لم يدعوا أحداً يخرج من عمله من السفلة . وكانو يقولون إذا خرجوا
من أعمالهم ، تعدوا طورهم ، وعادوا أشرافهم ، فقال زهرة نحن خير الناس للناس .
فلا نستطيع أن نكون كما تقولون ، بل نطيع الله في السفلة ولا يضرنا من عصي الله
فيها . فانصرف عنه رستم ودعا رجال فارس فذا كرم هذا ، فأنفوا . فقال : أبعدكم
الله واسحقكم ، أخزى الله آخرنا واجيبنا (١) .

على أن رستم لم يكتف بهذا ، بل تحت عاطفة السلام التي استولت على
مشاعره ، واصل بحوثه ليتأكد من هدف العرب الذي يهدفون إليه في حروبهم
هذه . فأرسل إلى سعد أن ابعث إلينا رسولا نكلمه ويكلمنا ، فدعا سعد جماعة
ليرسلهم ، فقيل له : إن الخير أن ترسل رجلا واحداً ، فبعث إلى رستم بربعي بن
عامر ، فسار هذا حتى وصل إليهم ، فجمع رستم عظماء فارس واستقبلوا رسول
سعد إليهم ، فدخل الرسول حاملا سلاحه ، بعد أن شق وسادتين ربطتهما فرسه ،
فأظهر الفرس عدم المبالاة بذلك ولكنهم طلبوا منه أن يضع سلاحه فرفض ،
ولم يكتف بهذا بل أخذ يتوكلأ على رمحته ويمزق البسط والتمارق التي زين بها
الفرس غرفة القائد العام ، فلما اقترب من رستم جلس على الأرض وركز رمحته على
البسط فطلب منه أن يجلس على التمارق فرفض قائلاً : انا لا نستحب الجلوس على
زينتكم هذه (٢) . ثم كانت هذه المحادثة الآتية بينه وبين رستم .

رستم . ما جاء بكم ؟

ربعي : الله جاء بنا وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا الى

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٣١٩ — ٣٢٠ .

(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٣٠ .

سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه
لندعوهم إليه ، فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه دوننا ومن
أبى قاتلناه حتى نفى إلى الجنة أو الظفر .

رسم : قد سمعنا قولكم ، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه ،
وتنظروا .

ربى : نعم ، كم أحب إليكم ، أيوما أو يومين ؟

رسم : بل حتى نكتب أهل رأينا ورؤساء قومنا .

ربى : إن مما سن لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا أن لا نمكن الأعداء
أكثر من ثلاث ؛ فنحن مترددون عنكم ثلاثا ، فانظر في أمرك واختر
واحدة من ثلاث بعد الأجل . إما الإسلام ، وندعك وأرضك أو الجزية
فنقبل ونكف عنك ، وإن احتجت إلينا نصرناك أو المنابذة في اليوم
الرابع ، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع . إلا أن تبدأ . أنا
كفيل بذلك عند أصحابي .

رسم . أسيدم أنت ؟

ربى . لا ، ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجير أديانهم على
أعلام^(١) .

وبعد أن انتهت تلك المحاورة بين رسم وربى ، قام رسم فخلا برؤساء قومه
فقال : ما ترون . هل رأيتم كلاماً قط أعرب وأوضح من كلام هذا الرجل . فقالوا معاذ .

ﷲ أن نميل إلى دين هذا الكلب . أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال . ويحكم لا تنظروا إلى الثياب ، ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة إن العرب تستخف باللباس والمأكل وتصون الأحساب لبسوا مثلكم .

فلما كان من الغد، أرسل رسم إلى سعد أن ابعث إلينا ذلك الرجل ، فبعث إليهم حذيفة بن محصن ، فأقبل في نحو من ذلك الزى ، ولم ينزل عن فرسه، ووقف على رسم راكبا ، فقال له : رسم إنزل . فقال حذيفة : لا أفعل . فقال ما جاء بك ولم يجيء الأول قال له إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا في الشدة والرخاء ، وهذه نوبتي . فقال : ما جاء بكم ، فأجابه مثل الأول ؛ فقال رسم : المواعدة إلى يوم ما . قال نعم : ثلاثا من أمس . فردّه ، ثم قال لأصحابه . ويحكم أما ترون ما أرى ، جاءنا الأول أمس فقلبنا على أرضنا وحقر ما نعظمه وأقام فرسه على زبرجنا وربطه به ، وجاءنا هذا ؛ اليوم فوقف علينا وهو في يمين الطائر يقوم على أرضنا دوننا .

ثم يواصل رسم ما اعتزمه من الوقوف على أغراض هؤلاء الفاتحين والمبادة التي اعتنقوها فغيرت أخلاقهم وبدلت سياستهم . فبعد برهة وجيزة من صرف حذيفة ، راسل سعد بن أبي وقاص ليعث إليه برجل آخر يفاضه ويحادثه .

وفي اليوم التالي لسفارة حذيفة أرسل سعد المغيرة بن شعبة ليحادث رسم ويفاضه فأقبل المغيرة إلى الفرس ، وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم مفروشة على مسافة طويلة ، بحيث لا يوصل إلى رسم إلا بالمشي مسافة فأقبل المغيرة حتى جلس على السرير مع رسم فوثبوا عليه وأنزلوه وأمسكوا بتلابيبه . فقال لهم : قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم . أنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً ، إلا أن يكون محارباً لصاحبه . فظننت

أنكم تواسون قومكم كما تتواسى . فكان أحسن من الذى صنعتم ، ان
تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، فإن هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يصنعه
أحد . وإنى لم آتكم ولكن دعوتمنى . واليوم علمت أن أمركم مضجج .
وأنكم مغلوبون ، وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول ؟
فقلت جماهير الفرس صدق والله العربى . وقالت الدهاقين : والله لقد رمى بكلام
لا تزال عبيدنا ينزعون إليه ! قاتل الله أولينا ما كان أحقهم حين كانوا يصفرون
أمر هذه الأمة (يقصد العرب)

ثم تكلم رسم فحمد قومه وعظم أمرهم وقال : لم نزل متمكنين فى البلاد
ظاهرين على الأعداء ، أشرافا فى الأمم فليس لأحد مثل عزتنا وسلطاننا ننصر
عليهم ولا ينصرون علينا إلا اليوم ، واليومين ، والشهر للذنوب . فإذا انتقم الله
منا ورضى علينا رد لنا الكرة على عدونا ، ولم يكن فى الأمم أذلة أصغر عندنا
أمراً منكم ، كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة ، ولا نراكم شيئاً ، وكنتم
تقصدوننا إذا قحطت بلادكم فنأمر لكم بشيء من التمر والشعير ، ثم نردكم ،
وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد فى بلادكم .
فأنا أمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم ، وأمر لكل منكم بوقر (حمل)
تمر وتنصرفون عنا ، فإنى لست أشهى أن أقتلكم ولا أسركم .. وفى هذا
الكلام من رسم كثير من الكهانة والخداع ، فإنه قد ناقض اعتقاده فى مقدرة
هؤلاء العرب ، ونيتهم فى هذه المرة أن يفتحوا بلادهم أو تعتنق مبادئهم وليسوا بطلاب
مأكلا كما زعم وليسوا هم الذين تردهم التمرة واللحمة ، ويرضيهما اللباس ، وإن
طرز بالجواهر . لأن هذا الزمن أدبر إلى غير رجعة ، وقد محيت رموزه من شبه
الجزيرة منذ دانت لمبادئ الإسلام ، وعملت بتعاليم رسولها الكريم فى الدين
والسياسة « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لِيَتَخَلِّقَنَّهُمْ فى الأرض
كما استخلف الذين من قباهم » .

ولذلك وثب المغيرة وثبة العربي المسلم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله خالق كل شيء ورازقه ، فمن صنع شيئاً فأبما هو بصنعه . وأما الذى ذكرت به نفسك وأهل بلادك ، فنحن نعرفه فالله صنعه بكم ووضعه فيكم وهوله دونكم وأما الذى ذكرت فينا من سوء الحال والضيق والاختلاف . فنحن نعرفه ولسنا ننكره والله ابتلانا به والدنيا دول ، ولم يزل أهل الشدائد يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم ويصيروا إليها ، ولو شكرتم ما آتاكم الله . لكان شكركم يقصر عما أوتيتم وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغيير الحال ، ولو كنا فيما ابتلينا به أهل الكفر لكان عظيم ما ابتلينا به مستجلباً من الله رحمة ورافة علينا ، ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه أو كنتم تعرفوننا به ، إن الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولا : ثم ذكر ما ذكر أصحابه من الإسلام والجزية والقتال . وقال إن عيالنا قد ذاقوا طعام بلادكم ، فقالوا لا صبر لنا عنه .

فقال رستم : إذن تموتون دونها ، فقال المغيرة : يدخل من قتل منا الجنة . ومن قتل منكم يدخل النار ، ويظفر من بقى منا بمن بقى منكم .

فاستشاط رستم غضباً ثم حلف بالشمس أن لا يرتفع الصبح غداً حتى يقتل جميع العرب .

بيد أن رستم كما أسلفنا كان مضطرب النفس من هؤلاء العرب ، يخشى من حربهم ولقائهم ، حتى لقد قال لأخيه فى بعض المواقف : انى لأقاد إلى هذا الوجه ، وليس لى رغبة فى حرب هؤلاء القوم ، بل إنه كثيراً ما نصح أشراف فارس أن يصالحوا العرب ولكنه عبثاً حاول إقناع قومه . بيد أنه حينما أيقن بأن قومه مصممون على الحرب لم يشأ أن يخسر قومه ، أو يتخلى عن وطنه ، ولذلك قلب للعرب ظهر المجن وصمم على لقائهم وليكن ما يكون .

وعلى الجملة فإن هذا الرجل لقي حتفه على يد أحد الجنود المسلمين ، وانتهت هذه المقارعات باللسان والسنان بهزيمة منكرة لدولة الفرس وانتصار عظيم للدولة الإسلامية . حسبنا أبنا آنفًا . يقول سيد أمير علي : والآن وقد أصبح سعد حاكمًا مدنيًا وعسكريًا على العراق ومن ضمنه الجزيرة فقد اتخذ المدائن مقرًا لحكمه ، ونزل القصر الملكي كما خصص أجنحته للدوائر الرسمية ، وكان يصلي بالمسلمين صلاة الجمعة في الإيوان الكبير ، ومن هذا القصر طفق يدير شئون الولاية .

ولكن ما أن انقضت فترة وجيزة حتى رأى المسلمون أنفسهم مضطرين إلى امتشاق الحسام ، إذ أن ملك الفرس المقيم في حلوان انقذ جيشًا كثيفًا لاسترداد المدائن ، فالتقى الفريقان في « جلولاء » على بعد خمسين ميلًا من العاصمة في شماليها الشرقي ، فدارت بين الفريقين معركة رائعة أسفرت عن هزيمة الفرس وانتصار العرب ^(١) .

وكانت الجيوش بعد « القادسية » قد تفرقت في صياصي الجبال حول الدجلة ، وهرب الملك يزدرجرد إلى حلوان . وجاءت القبائل المتوطنة في حوض الدجلة تطلب الدخول في طاعة المسلمين على الذمة والجزية .

ولذلك أرسل سعد بعض قواده ، واستولى على حلوان ، ففر ملك الفرس وذهب إلى الري . وعقد العرب معاهدة صلح مع الفرس بعد هزيمة هؤلاء في « جلولاء » قرب حلوان ، وطردهم يزدرجرد من حلوان — كما سبق — كما فتح العرب في هذه الأثناء مرفأ « الأبلّة » على شط العرب .

وفي سنة ١٧ هـ (٦٣٨ م) أنشئت مدينتان جديدتان في العراق وهما :

البصرة على شط العرب ، وقد نزلها عرب الشمال وكونوا غالبية سكانها ، والكوفة ، وقد شيدوها على شاطئ الفرات الغربي على ثلاثة أميال من جنوبي « الحيرة » ، وقد استوطنتها اليمانيون من عرب الجنوب ، وحلت محل المدائن التي هجرها العرب لسوء مناخها. وما يذكر أن هاتين المدينتين شيدتا على أساس منظم فخطت فيهما الشوارع والميادين العامة ، وبني في وسط كل منهما مسجد جامع ، وسوق فسيحة وحدائق غناء .

وقد ظلت الحياة في العراق هادئة ردياً من الزمن ، تفرغوا فيه لإصلاح تلك الولاية الجديدة ، فمسحوا أرضها ، وأدخلوا نظاماً جديداً في تقدير الضرائب فيه تخفيف عن كاهل الفلاحين ، كما أصدر أمراً الخليفة بمنع بيع الأراضي من أربابها أهل السواد ، وأمر بأن يقرضوا مبالغ من المال يستعينون بها في إصلاح أراضيهم . . كذلك أمر الخليفة بمصادرة الضياع الملكية وغابات الصيد وأملأ الأبرار ، وكبار الأغنياء الهاربين ، والأوقاف المحبوسة على معابد النار التي هجرها الكهان ووضعها جميعاً تحت إدارة وكلاء جاءوا خصيصاً من المدينة .

وكان الجنود قد طلبوا أن توزع عليهم الأراضي التي فتحوها ، ولكن أمير المؤمنين عمر رفض هذا الطلب رفضاً باتاً ، واكتفى بتوزيع جزء من إيراداتها على العرب الفاتحين ^(١) .

ولكن هذا الهدوء لم يكن إلا فترة تجهز واستعداد من جانب الفرس طالما بينهم امبراطورهم ينفخ فيهم بغض العرب ، والاستعداد لاسترداد ما أخذوه من الفرس .

(١) أنظر سيد أمير على ص ٢٩ .

وفي أواخر سنة ١٧هـ قام العلاء بن الحضري والى البحرين بحملة ضد اصطخر ، ولم توفق هذه الحملة التي قام بها العلاء إذ أن الفرس تقهقروا أمامها ليخضعوها حتى عبرت البحر بعد أن سدوا عليهم منافذ النجاة وعبثا حاول العرب أن يفلتوا من هذا الفخ الفارسي الذي سببه حب العلاء للفخر ومنافسة قائد القادسية .

ولما بلغت الأخبار عمر سارع بعزل العلاء ، وأرسل عتبة بن غزوان أمير الأبله ، أن يعمل على تخليص الجيش الإسلامي ، وقد أرسل عتبة حوالى اثني عشر ألف جندي ، واستطاع أن ينقذ المسلمين من مارقهم الذي حشرهم فيه أمير البحرين .

كانت حملة العلاء الفاشلة ، سبباً في ظن الفرس أن المسلمين ، شرعوا يتقهقرون عن بلادهم ، وأن الذين هزموا جيش العلاء من الممكن أن يخرجوا العرب الباقين من أراضي الإمبراطورية .

ثم ان عمر كان قد أصدر أوامراً مشددة بأن لا يتقدم المسلمون شبراً في أرض الفرس ، زيادة على الأماكن التي استولوا عليها .

ولهذا أخذ يزدد جرد يتجهز في الري ، ويعد الجيوش لطرد المسلمين ، فكتب سعد أمير العراق إلى عمر بذلك فتردد عمر أول الأمر فأوفد إليه سعد بعض رؤساء الفرق ليقنعوا الخليفة ، بوجوب إزالة رمز الدولة الفارسية الذي لا يكف عن مناوأة المسلمين وكان من كلام بعض أعضاء الوفد لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، إنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد وأمرتنا بالاعتصام على ما في أيدينا وإن ملك الفرس حتى بين أظهرهم وأنهم لا يزالون يساجلوتنا ما دام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه ، وقد رأيت أننا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم وإن ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا في الانسياح في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته

وعن أمته . فهناك ينقطع رجاء أهل فارس ، وكان هذا المتكلم الأحنف بن قيس أمير العالية في العراق ، وطلب عمر الهرمزان الذي أسر آنفا ، واعتنق الإسلام وعاش في المدينة ، أن يبدي رأيه في هذه المسألة فأيد الهرمزان كلام الأحنف ، وبذلك أمر عمر بالانسياح في بلاد الفرس ، ففي سنة ١٧ هـ أمر أبا موسى الأشعري أن يسير من البصرة إلى منقطع ذمة البصرة حتى يأتيه أمره وبعث بفرق متعددة إلى بلاد فارس ، فأرسل الأحنف بن قيس أميراً على فرقة خراسان ، وأسند إلى مجاشع بن مسعود قيادة جيش أردشير وسابور (مدينتين بفارس) وعقد لعثمان ابن أبي العاص لواء فرقة اصطخر .

وكذلك أرسل فرقا أخرى إلى كرمان بقيادة سهيل بن عدي وإلى سجستان بقيادة عاصم بن عمرو ، ومكران للحكم بن عمير التغلبي ولساودار بجرد لساية ابن زنيم الكناني .

وبعد أن فصلت الفرق من العراق ، أرسل عمر على أثرها إمدادات كثيرة ، إذ كان هذه المرة عازماً عزماً أكيداً على إزالة ملك الفرس ، وضم بلادهم إلى دولة المسلمين نهائياً .



أما الفرس ، فإنهم عندما علموا بهذا شرعوا يعدون العدة ، فأعلن يزدجرد التعبئة العامة في جميع بلاد الامبراطورية ، فجاءته الجيوش والمطوعة من حدود الصين ، والمحيط الهندي ومن سائر أنحاء الدولة ، فبلغ جيشه فيما يقال حوالي ١٥٠.٠٠٠ مائة وخمسين ألف مقاتل ، بينما جيش المسلمين لا يصل إلى ثلاثين ألفاً .

ولذلك لما وصلت الأنباء إلى الخليفة داخله القلق حتى فكر في قيادة الجيش بنفسه لولا رأى مجلس الشورى بأن يبقى الخليفة في العاصمة ويبعث أحداً مكانه فأسند عمر القيادة

١ الجيش العامة إلى النعمان بن مقرن أمير خوزستان وفاتحها .

٢ وفي نهاوند التقى المسلمون بالفرس وكانت موقعة فاصلة انهزم فيها الفرس، وقتل منهم حوالي ثلاثين ألفاً، بينما كانت خسارة المسلمين قليلة إذا استثنينا القائد العام الذي خر صريعاً في ميدان القتال .

قررت موقعة نهاوند في سنة ١٨ هـ مصير آسيا، وسميت بفتح الفتوح، وفر يزيد جر ضارباً في الآفاق حتى استقر به المطاف أخيراً وبعد مدة في مرو ثم انتهى به الحال إلى أن فتك به أحد أتباعه في قرية قريبة من تركستان ، في عهد عثمان ابن عفان الخليفة الثالث ..

وباند حارب هذا الجيش ، وبموت يزيد جر د فيما بعد، عنت بلاد الفرس لسلطان المسلمين .

وفي الحال اتخذ الخليفة — كما اتخذ في الجزيرة من قبل — تدابير فعالة ، لإقرار الفلاحين على حالتهم ، وإنقاذهم من ربة العبودية وعسف الدهاقين . (كبار الملاك) ، وأصلح نظام الضرائب وأمر بترميم الجداول وشق الترع ، كما أقر الملاك على أراضيهم على أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وضمن حرية العبادة وحظر على المسلمين التعرض لدين أهل البلاد الأصليين ، وقد أطلق المسلمون على الذين ظلوا على دينهم القديم « أهل الذمة » أو الذميين .

على أن الجزية كانت مما أغرى كثيراً من أهل البلاد على الاعتناق الإسلام ، ولم تكن هذه المبالغ الطفيفة إلا لقاء الإعفاء من الانخراط في سلك الجندية ، وحماية من يدفعها من أي اعتداء يقع عليه ، ولذلك أخذ الناس يدخلون في دين الإسلام أفواجا طوعاً لا كرها ، على ما تفعله الدول الحديثة من الأساليب لتغيير عقائد الناس الذين يدخلون في سلطانهم ، وأقرب الدول إلينا فرنسا وإيطاليا وما اتبعته في المغرب الإسلامي منذ عهد قريب .

على أن الشريعة الإسلامية قد أمرت بالمؤاخاة بين المسلمين من أى جنس .
ولون وبين غيرهم ممن اعتنق الإسلام ، وسموا بالمسوا إلى تمييزا لهم عن العرب .
القائمين ، وهو اصطلاح أمّلته التقاليد أكثر من المبادئ ، لأن الإسلام ليس دين .
العرب وحدهم بل هو دين الإنسانية على مثلها ، وأسمى غاياتها ، وأنبّل شرائعها .
واكن على الرغم من ذلك ، ومن اتباع الحكم العرب اتم قوانين .
العدل والمساواة ، والصالح العام ، فإن الكهنة الجوس لم يكفوا عن إقلاق مضاجع
الدولة الفتية ، إذ طالما حرصوا السكان الذميين على شق عصا الطاعة على المسلمين .
وكانت الدولة أحيانا ربما لجأت إلى ضروب من القسوة تحت تأثير الظروف .
الطارئة . بيد أن السياسة الرشيدة فى عهد الأربعة كانت خاليت من هذا النوع من .
التنكيل بأهل الذمة ، ولكن قد يكون حدث شىء من ذلك فى عهد الملكية .
الأموية ، ومن بعض ولايتها فحسب ، فلما كانت العباسية عاودت سياسة اللين .
والرحمة التى سار عليها خلفاء الإسلام فى أول الأمر ، مع فارق بسيط أملاه .
التطور ، وتغير الأيام .

وعلى كل حال : فقد استطاع عمر بعد أن ثبت أقدام المسلمين فى البلاد .
الفارسية ، وإزالة آخر رمز لسيادتها ، أن ينظم شئونها وأن يرفع الظلم عن أهالى .
البلاد . مما خلده التاريخ بمداد الحمد والثناء ، وأن يجعل جميع الأهالى يقبلون على .
اعتناق الدين الجديد ، ويتفانون فى سبيل نصرته ، ونشر ثقافته وتعاليمه حتى لقد .
كان الموالى من الفرس من أعظم العوامل فى النهضة الإسلامية التى أنارت للعالم .
سبل الحياة فى جميع مناحيها .

وهذا من غير شك ، مما يعزز أن الإسلام ليس دين العرب وحدهم بل .
دين العالم . وأن صلاحيته فى السياسة والإدارة إلى جانب التشريع والعبادة قد .
جربت ونجحت أتم نجاح مع شتى الأمم والشعوب والتاريخ خير شهيد .
وحكم ، فليقرأه من يشاء وليحكم بالحق من أراد .

أما ما نشهده اليوم من هذه الشرازم المريعة من رفع رؤوسها وعقائرها بالإشادة
بفقه علماء الفرنج وانكبابهم على دراسة مؤلفاتهم مع عزوفهم عن معين
الإسلام الصافي وزعمهم أن للدين مدرسة، والمدنية معاهد وغير ذلك مما يشهده
المسلم وهو يتقطع أسي على أبناء الإسلام الذين يدعون النبوة له وهم من أعق
الناس وشرهم عليه ، فإن هذه العقائر ، وتلك الصيحات . ما أملاها إلا ضعف
«النفوس ، والمرضى المتأصل في قلوب هؤلاء .

بِمَقْصِلِ الثَّالِثِ

حروب عمر مع الروم

وننتقل بكم إلى صفحة أخرى من سجل الجهاد الإسلامي الذي سطره أبو حفص، في الميدان الذي اسمناه «العربي» مع الروم في الشام وفلسطين وهو الميدان الذي حالف النصر فيه المسلمين حتى ضموا إلى دولتهم بر الشام، وفلسطين، ثم الأردن، والعريش، ووادي النيل (مصر) ثم مدوا فتوحاتهم إلى المغرب الأقصى، فأسبانيا. وفتحوا جزر البحر الأبيض، وجعلوه بحيرة إسلامية وأصبحت مآذن التوحيد. وشهادة الإسلام. ورسالة محمد ينلدي بها في البر والبحر، من حدود الصين إلى جنوبي أفريقية ومن الهند إلى المحيط الأطلانطي. وذلك في العصور التالية لعمر وسنحاول أن نوجز صورة من حروب الميدان الأنف الذكر في عهد عمر.

ففي جمادى الأولى من سنة ٥١٣هـ (٣١ يولية ٦٢٤ م) توفي أبو بكر، وخلفه عمر، وكان قائد الميدان العربي خالد بن الوليد الذي انتقل من الميدان الشرقي، وتسلم القيادة في حرب الروم بأمر الخليفة أبي بكر وكان تحت إمرته من قواد الفرق: أبو عبيدة بن الجراح ثم عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان يساعده أخوه معاوية بن أبي سفيان ثم شرحبيل بن حسنه.

على أن وفاة أبي بكر لم تحدث تغييرا يذكر في السياسة العامة، فإن عمر كان مطلعاً على جميع شئون الدولة في عهده، وكان موافقاً على كافة الأمور التي تتبعها سلفه فيما عدا قيادة خالد بن الوليد، فإن عمر كان له رأى أبداً. علناً أبلغه

أبي بكر ، حتى ان أبا بكر لما أوصى عمر في أخريات حياته لم يلزمه بإبقاء خالد أميراً ؛ بل إنه أمره بأن يرد جيش خالد إلى الميدان الشرقي . ولم يعرج على ذكر خالد بحرف من كلمة ، مراعاة لشعور عمر الذي كان يميل أبو بكر إلى رأيه — في هذه المسألة — لولا أنه كان لا يريد أن يخطيء قائد جند أمام جنوده إبان المعركة كما أنه كان ينصح الأمراء بما لا يجعلهم ينفرون منه . وهي في رأينا السياسة لا ما كان يرى عمر في تلك المسألة حسبما روى .

ولذلك فإنه ما كاد عمر يبائع له حتى أرسل إلى أبي عبيدة كتاباً بتوليته القيادة العامة وعزل خالد ، وعدم توليته قيادة أية فرقة ولو صغرت .

ولما وصل الرسول بالكتاب وجد المعركة مستمرة بين الروم وبين المسلمين ، فأخذ خالد الكتاب وأسره إلى أبي عبيدة ، ولم يدعه لثلاث ضعف به قوة الجنود ، ثم وضع الكتاب في كنفاته حتى انتهت الموقعة ، بذلك النصر ، فسلم الكتاب إلى أبي عبيدة . وسلم عليه بالامارة ومما يؤثر عن خالد في ذلك اليوم قوله : « الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت ، وكان أحب إلى من عمر ، والحمد لله الذي ولي عمر ، وكان أبغض إلى من أبي بكر ، ثم الزمني حبه » ^(١) .

تولى إمارة الجيش أبو عبيدة بن الجراح . . بعد انتصار المسلمين في موقعة « اليرموك » مباشرة . ولم يشأ أن يذل نفس خالد فيجعله جندياً عادياً ؛ بل أنه قدر فيه رئيسه السابق . وواضع خطة الانتصار في أكبر موقعة خاضها المسلمون حتى اليوم مع الروم بل أنه جعله على مقدمته وبعد أن انتهت الموقعة « اليرموك » ودفن القتلى ووزعت الغنائم والإسلاب . زحف أبو عبيدة إلى ييسان حيث تجمعت فلول الجيش البيزنطي لصد المسلمين عن التقدم نحو الشمال بيد أن خالداً أفسد عليهم خطتهم

وأرغمهم على مغادرة ييسان حيث تحصنوا بمكان اسمه « فخل » فاتبعهم خالد وحصرهم واستطاع أن يرغمهم على التسليم بعد فترة وجيزة .

وفي ذى القعدة من سنة ١٣ هـ سار خالد نحو دمشق لحصارها . وعلى مسافة قليلة منها عسكر انتظاراً لأوامر دار الخلافة .

وفي شهر المحرر من سنة ١٤ هـ وصل خالد إلى دمشق وألقى عليها الحصار وكان يعاونه أبو عبيدة وعمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وشرحيل ، وكل منهم على ناحية من أسوار دمشق المنيعه وقد وصلت الأنباء إلى هرقل ، فأرسل فرقة الفرسان لإنجادها فصدها خيول المسلمين عند حصص ، وكان أبو عبيدة قد فرق جيشه إلى فرق وعين لها مراكز تمتد من فحل إلى حصص شمالاً وفيما بين ذلك كانت الجنود موزعة على مراكز وكائنات — فما كادت جيوش هرقل تغادر حصص ، حتى أوقع بها جند المسلمين ، وهزموها شر هزيمة ، فولت لا تلوى على شيء .

ولما اشتد الحصار على أهل دمشق ، طلبوا الصلح فصالحهم أبو عبيدة والقواد الآخرون ، عدا خالداً . فإنه كان قد سبقهم إلى دمشق عنوة ، فقتل وأسر وغنم ، ولذلك كان فتح الناحية التي دخل منها خالد عنوة ، وبقية نواحي دمشق فتحت صلحاً .

وبعد فتح دمشق ، صرف أبو عبيدة فرقة خالد إلى العراق ، وأمر عليهم هاشم بن عتبة واستبقى خالداً معه وأمره على مقدمة جنده ثم استخلف يزيد بن أبي سفيان على دمشق الذي مد فتوحه إلى نواحي دمشق ، فاستطاع أن يضم إلى ولايته مدن ضيدا وعرة ، وجبيل ، وبيروت وكان على مقدمة يزيد أخوه معاوية ^(١) .

(١) ابن الأثير والحضري .

كذلك أرسل أبو عبيدة ، شرحبيل ومن معه إلى ييسان ، ففضها صلحاً ، كما ضم بعض قواد أبي عبيدة مدينة « طبرية » ونزل أهلها على حكم المسلمين فجعلهم كأهل دمشق .

وفيا كان أبو عبيدة يستولى على القسم الأكبر من سوريا الشمالية كان عمرو ابن العاص ، يحرز في فلسطين النصر تلو النصر . أما الحاكم الروماني المسمى « ارطوبون » فكان قد حشد جيشاً كبيراً للدفاع عنها ، كما عزز ، في الوقت نفسه حاميات القدس وغزة والرملة ، ونزل ميدان القتال بنفسه في أجنادين إحدى القرى الواقعة شرق القدس (إبلية) الواقعة بين الرملة وبين بيت جبرين من أعمال فلسطين^(١) .

ولكن لم يمض قليل وقت حتى زحف قواد العرب إليهم وكان القتال الذي حمى وطيسه حتى كاد يفوق اليرموك ، وقد بذل عمرو جهداً جباراً في هذه المعركة ، إذ أحكم رسم الخطط وسبر غور عبقرته الشهيرة في الدهاء والخذاع ، ضد عدو شديد المراس حتى استطاع أن يظفر بذلك النصر ، الذي قضى على الدولة البيزنطية إلى الأبد في الشرق الأدنى ، وشواطئ آسيا الغربية على بحر الروم (البحر الأبيض) .

ومما يذكر عن عمرو ، أنه بعد أن عسكر بجيشه قبالة أرطوبون قائد الروم ، وطالت المدة ، ولم يستطع أن يستدرج الروم إلى القتال ، سار بنفسه إلى أرطوبون في هيئة رسول لعمرو ، فدخل عليه ، وأبلغه ما أراد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد ، فيقال ان أرطوبون فطن به . وقال لاشك أن هذا هو الأمير أو من يأخذ الأمير برأيه ، وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله . ثم أمر

إنساناً أن يقعد على طريقه ليقته إذا مر به ، فقتل عمرو ولعله . فقال له : قد سمعت مني وسمعت منك ، وقد وقع قولك مني موقعاً ، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر ابن الخطاب ، إلى هذا الوالى لنكاته ويشهدنا أموره ، فارجع فأتيتك بهم الآن ، فإن رأوا الذى عرضت على الآن فقد رآه الأمير وأهل العسكر ، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمهم ، وكنت على رأس أمرك . فقال أرطبون نعم ، ورد الرجل الذى أمره بقتله : وقال لعمرو انطلق وجىء بأصحابك فخرج عمرو من عنده ، ورأى أن لا يعود إلى مثلها وعلم الرومى أنها خدعة خدع بها ، فقال : خدعنى الرجل . هذا أدهى الخلق^(١) .

ويقال إن هذه الحادثة بلغت عمر بن الخطاب . فقال : لله در عمرو .

وقد كان هذا الأسلوب من عمرو فى حروبه ، من أهم العوامل التى أحرز بها النصر إذ استطاع فى مثل هذه المغامرة الناجحة أن يعلم رأى قائد الروم ، وأن يشهد بنفسه العدد والعدد التى ستقابل جنده بعد قليل .

وكان ذلك النصر فى سنة ١٥ هـ فى أصح الروايات .

وكان من نتائج هذا الانتصار فى اجنادين ، تسليم عدة مدن مهمة فى دولة الروم ، مثل نابلس ويافا وعسقلان وغزة والرملة وعكا كما أسلفنا .

وكان فى القدس (ايليا) حامية قوية قاومت مدة طويلة ثم أعلن بطريقها رغبته فى الصلح ، على أن يسلم المدينة للخليفة نفسه ، وعندئذ سار أمير المؤمنين فى غير ما تردد إلى الشام لا يصحبه غير خادم واحد ، وكان فى استقباله فى الجابية .

وفد من أهل دمشق ، فأعطاهم أماناً لأنفسهم ولكنائسهم على أن يدفعوا الجزية .
ومن ثم شخص مع الوفد إلى القدس ، فاستقبله على أبوابها البطريق « صفرونيوس »
فدخلها الاثنان وهما يتحادثان ، ويقال : إن الخليفة امتنع عن الصلاة في كنيسة-
القيامة التي اتفق وجوده فيها وقت الصلاة ، فصلى على إحدى درجاتها ، وقد قال
الخليفة في ذلك : إنه لو صلى في فنائها لنقض المسلمون العهد في المستقبل بحجة-
الاقتداء به في الصلاة .

ثم منح وفد الرملة شروطاً كالتى منحها وفد القدس . أما اليهود الذين كانوا
قد ساعدوا المسلمين على الفتح ، فقد أقرهم على أملاكهم وأعفاهم من الضرائب .
وعندما شقت القبائل الأرمنية والكردية عصا الطاعة أرسل إليهم الخليفة-
قوة كبيرة ، فأنزلت بهم أشد أنواع العقاب—أما هرقل فإنه ظفر بعقد اتفاق مع
المدن الكبرى التي لم تكن قد أذعنت بعد بالتسليم للعرب . ولكن الخليفة عندما
علم بهذا أنفذ إليهم جيشاً كبيراً لقتالهم .

وفي هذه الأثناء أخذ هرقل يحاول المحاولة الأخيرة في معركة حاسمة ضد-
العرب ولذلك أعلن التعبئة العامة في جميع أقاليم الإمبراطورية ، وقد جاءته الجيوش
تتري من مصر والأناضول ، وأرمنية وليبيا وغيرها ، وبلغ جيشه من المقاتلة
حوالى ١٦٠ مائة وستين ألف مقاتل بينما جنود الإسلام لا يبلغون الأربعين ألفاً
تنقصهم أسلحة الروم ، واستعداداتهم ، ولكن لهم قلوباً ، تكن فيها إيماناً قوياً ،
وثقة بالنصر والظفر .

ولهذا فما كاد الروم يغيرون على أرض فلسطين ، ويستولون على بعض مدنها
وقراها حتى وصلت الأنباء إلى القيادة الإسلامية في الشام ، فأصدرت أمراً إلى-
جميع الفرق بالاستعداد للقاء العدو .

ونشب القتال في فلسطين ، وانتصر العرب على الروم وأخرجوهم نهائياً من أرض الشام ، والأرض المقدسة ، ويثس هرقل نهائياً من استرداد هذه البلاد ، ولذلك عزم على الرحيل من انطاكية التي أصبح العرب قاب قوسين منها إلا أنه أراد أن يودع كبار المسيحية وأعوانه الوداع الأخير فجمع كبار قومه في حفل حافل في كنيسة انطاكية يستشيرهم فيما يعمل — ولكنه في هذا الوقت ، كان كأن عقله قد فلج .

ثم عرض للبحث في أمر هؤلاء العرب الذين أغاروا على بلاد الامبراطورية ولم ينحسر مدهم بعد ، مما جعله يوقن بأن المسألة ليست اغارة كأخواتها السابقة حين كان هؤلاء الأعراب ، يغيرون فيردم بحفنة من فتات المائدة ، أو دريهمات . من ضرب الدولة الرومانية الكبرى بل هم في هذه المرة غزاة فاتحون ، مصممون على نشر مبادئ جديدة لم يعهدا الروم من قبل .

فهذه ألقاب جديدة تغدق على قواد الحملة ، وهؤلاء صنف جديد من العرب لم يعرف من قبل ، وهذه فنون عسكرية لم تسبر الدولة الرومانية العظمى غورها بعد .

ليس القوم إذن طلاب دنيا فضلاً عن زاد أو ملابس ، ولا هم دعاة جاه أو نفوذ فلباسهم الخرق الممزقة ، بل إنهم ليفخرون بهذا الطراز من اللباس ويتشددون بهذا اللون من الحياة البسيطة ، إن التغلب على هؤلاء ضرب من المستحيل بل هو المستحيل بعينه .

لقد تواطأ رسلهم جميعاً على كلمات ثلاث ، لم يشذ واحد عنها ، ولم يحور فيها ، ولم يبدل من صرامتها .

كلهم يقول : الإسلام أو الجزية أو المناجزة : أي بلاء ذلك الذي نزل

بالإمبراطورية العظمى .. ؟ إن ذكر القوم : مجرد ذكر أسمائهم سيف الله أمين الأمة - أبو حفص - الصديق ليلقى الرعب في أشجع الروم قلباً ، فما بالك بجند لا جامعة بينهم ، ولا هدف لهم ، جند الإمبراطورية كلهم مرتزقة مأجورون ، ما يكاد الواحد منهم يعرض عليه الدفاع عن شرفها حتى يساوم : بكم قرش هذا الدفاع ، وإذا انتصر فكم ديناراً يمنح . تلك غاية الجند ، وهدف الضباط .

ما أَمَرَ الحياة في هذه البلاد، فلنغادرها ، ولنحاول تحصين مصر ، فلعل فيها عوضاً لنا من فقد الشام وأرض القداسة .

* * *

ما نخال هرقل إلا وقد دار بخلده كل هذا . . . بيد أن شيخاً كبيراً لم يدعه يطيل التفكير ، بل قام وأخذ يبدى أسفه على الموقف الذي وصل إليه الإمبراطور ، والإمبراطورية بأسرها ، قال ذلك الشيخ : إن الروم يعذبون اليوم لعصيانهم كتاب الله وتطاحنهم فيما بينهم وتخاذلهم ، ولما يرتكبون من الربا والقسوة ، وكان عليهم أن يؤخذوا بذنوبهم .

كان قول ذلك الشيخ فصل الخطاب ، فأحس الإمبراطور بضعف الجسم ووهن العقل ، ورأى الحظ يتعثر به وعرف أن مقامه بالشام قد أصبح لاغناء فيه ، فرحل عنها إلى القسطنطينية في البحر في شهر سبتمبر من سنة ٦٣٦م وقال إذ هو راحل : وداعاً يا بلاد الشام ، وداعاً ما أطول أمدته .

ويقال إن هرقل استطاع أيضاً أن يحمل معه الصليب الأعظم وبقية مخلفات المسيحية ، حيث وصل إلى خلقيدونية وإذا كان يقيم في قصر إلى جوارها ؛

ثم سار بعد فترة إلى بيزنطة حيث أودع هذه المقدسات النصرانية كنيسة أياصوفيا .
وبذلك ختمت صفحة الروم في الشام إلى الأبد .

ولكن هل يقنع العرب بالشام ، وهل يظنون هدفا لهؤلاء الروم المتأخمين
في وادي النيل الذي احتلوه في غفلة من أهله ، وضعف من سكانه وظلموا فيه
يوغفوا . . ذلك ما سنتحدث عنه فيما يلي .

الفصل الرابع

فتح مصر

بعد أن سلم البطريق (صفرونيوس) مدينة بيت المقدس ، سار ابن الخطاب أمير المؤمنين وعمرو بن العاص القائد وذهبا نحو الشمال ، وقد أُنقذ الخليفة عمرو ابن العاص ممدداً للجيش المحاصر لقيصرية .

أما الخليفة فقد أقام في دمشق . ولعل عمراً قد أفضى إليه برأيه في فتح مصر منذ كانا في بيت المقدس ، ولكن الخليفة رأى أن وقت ذلك لم يحن بعد . فلما ظهر العرب وانتهت الحرب أو كادت ، عاد عمرو إلى عرض رأيه . وجعل يبين للخليفة ما كانت عليه مصر من الغنى ، وما كان عليه فتحها من السهولة وقال أنه ليس في البلاد ما هو أقل منها قوة ولا أعظم منها غنى وثروة ثم قال : إن حاكم الروم على بيت المقدس — وكان قد هرب من المدينة قبل تسليمها — قد لاذ بمصر وإنه أخذ يجمع فيها جنود الروم وإن العرب ينبغي أن لا يتركوا الوقت يضيع سدى ، بل يجب أن يأخذوا على يد الحاكم الروماني قبل أن يشتد خطره . على أن مصر ستكون بعد فتحها قوة للمسلمين ، وظهر أمهما لهم يستمتعون بغناها ويخصبون بخيراتها .

وإن من المؤكد أن هذا الكلام من عمرو في الاجتماع الذي عقد بالجالية في سنة ٦٣٦ م صادف هوى من عمر ، ولكنه كان يقدر المصاعب التي قد تعرض لها حملة تقصد أرض الكنانة وفيها جيش قوى من جنود الروم المجهزين بالكثيرى العدد ، ولكن الفارات المتوالية التي أخذ الروم يشنونها على أملاك

المسلمين بالشام كانت تستدعي الجذ والتفكير في وضع حد لهذه الإستفزازات المتكررة وهل من الممكن أن يبقى المسلمون بجوار الروم ويعتدى هؤلاء على اراضيهم ثم يقفون مكتوفي الأيدي لا يبالون بصنيعهم ولا يقابلون الإعتداء بالمثل ، فتسقط هيبتهم من نفوس الروم ولهذا كان الخليفة يتنازعه عاملان عامل السلامة والاحتفاظ بالجيش الإسلامية ريثما تستجم وتتجهز وعامل الدفاع عن كرامة الدولة ، وتأمين ممتلكاتها في الشام وفلسطين ، وطرد الروم نهائيا من أرض العروبة التي احتلوها بقوة السلاح. ومصر والشام كل لا ينفصل ، فلا بد من حرب الروم .

ولقد رأى عمر أن فتح مصر فيه خير للمسلمين ، ولكن ظن أن عمرا يقلل من الصعوبات التي قد تعترضه في فتحها . وكان عمر في ذلك الحين لا يمكنه أن ينقص جند الشام فيقطع منه جزءاً يسيراً إلى مصر . وقيصريّة لا تزال صامدة للحصار ، ويتزعّم المقاومة فيها ابن الامبراطور .

على أن عمرا استطاع أن يفتح قيصريّة وأن يرغم نجل الإمبراطور على الفرار ^(١) ، وحينئذ عاود الحديث مع الخليفة في فتح مصر ، ورجاه أن يصرح له بجيش لا يزيد عن أربعة آلاف رجل فوعده أمير المؤمنين أن يفكر في المسألة. إستشار الخليفة مجلس شواره ، فأوصى بالحذر والأناة وعدم الجري وراء عمرو بل وينبغي لفته الى المتاعب التي تلحق المسلمين من فتح مصر .

غير أن الخليفة كان راغبا في فتح مصر وإنما تردد بسبب الظروف التي أشرنا اليها ولذلك أذن لعمرو في السير إلى مصر على أن يرجع إن وصله كتاب منه قبل.

(١) مختصر تاريخ العرب . ويروي البلاذري أن فتح مصر كان وقيصريّة محاصرة ، ولكن الراجع في رأينا بما أثبتناه هنا .

أن يدخل الحدود وإلا فليسر على بركة الله تعالى . فسار عمرو بن العاص في الليل بجيشه الصغير ، ولم يصادفه حادث ما في مسيره حتى صار على الحدود بين فلسطين ومصر . وفي رفح على مرحلة من العريش من أعمال مصر ، أبصر عمرو رسلا تسرع على أفراسها إليه تحمل رسالة الخليفة ، فأخذ عمرو يجد في السير ليصل إلى الأراضى المصرية ، وظفر فعلا بأمنيته . فقد وصلت الرسالة وهو في العريش ففضها فإذا فيها : إنه إذا كان عمرو وقت تسلمه الرسالة مازال في حدود فلسطين فليعد من حيث أتى وإن كان قد دخل أرض مصر فليسر ، وعمر مستعد لإمداده بما يحتاج إليه فاطمأن عمرو بعد أن جعل الجنود يشهدون أمام الرسل بأنهم في أرض مصر فعلا ثم قال لهم : إذن نسير في سبيلنا كما يأمرنا أمير المؤمنين .

ويحدثنا الدكتور بتلر عن سبب تردد عمر بن الخطاب أخيراً بأن عثمان كلم الخليفة في عمرو بن العاص ، وأنه رجل مغامر فيه جراءة وتهور ، وأنه لابد مقتحم بالناس المخاطر ، ورام بهم إلى الهلكة ، فخشى عمر خشية عظيمة وعول على أن يأمر عمرو بن العاص بالرجوع إذا كان ذلك ممكناً ولكنه أحس أن جيش العرب إذا دخل مصر كانت عودته عنها خذلانا وسبة للمسلمين ويكون ذلك بمثابة الفرار من العدو ، وعلى ذلك أرسل كتابه وتقدم فيه إلى عمرو بما سبق^(١) .

ومهما يكن من شيء . فقد وصل عمرو إلى حدود مصر بجيشه البالغ أربعة آلاف فارس كما ذكرنا ، وسار حتى وصل القرما . تلك المدينة التي تعد مفتاح مصر من شماليها الشرقى ، وقد اشتبكت حاميتها مع فرقة عمرو الصغيرة ، ولكن جنود عمرو هزموا حامية المدينة واستولوا عليها دون كبير عناء وبذلك أصبح في يد عمرو معقل يؤمن خط رجعتة ومواصلاته إذا نزلت به هزيمة في المستقبل وخطورة

(١) فتح العرب ص ١٤٨

المهمة التي ستواجهه بعد فتح الفرما فإنه عمد إلى أسوار المدينة وحصونها فهدمها وخربها لينع انتفاع الروم بها في التطورات المقبلة المحتملة .

على أن الروم لم يتحركوا عندما وصلتهم أنباء (الفرما) معتمدين على حامية المدينة في الذود عنها وقد مضى أسبوعان من بدء حصار المسلمين لها. والرومان لا يبدوون أى شيء يشعر باهتمامهم بها .

وحوالى ١٥ من شهر محرم سنة ١٩ هـ (١٧ يناير سنة ٦٤٠ م) سار عمرو في داخل الأراضى المصرية حتى وصل إلى مدينة (مجدول) إلى الجنوب الغربى من الفرما واستولى عليها ، ثم ترك فيها حامية صغيرة وأتجه صوب القنطرة فالسويس وفى التل الكبير هزم الروم الذين ناوشوه بها واستولى على ذلك الموضع ، ثم واصل عمرو سيره حتى بلبس فحصرها قرابة شهر ثم فتحها وأبقى بها حامية صغيرة من جنده .

وهكذا ظل عمرو يسير حتى وصل إلى هليوبوليس حيث فتح أم دنين واحتلها وعسكر فيها ، وكانت شمالى حصن بابليون ، وموضعها الآن حديقة الأزبكية ، ولما علم الروم بمجد العرب فى الفتح وتملك البلاد هب المقوقس نائب الامبراطور وتيودور رئيس الجيش وشرعا فى تجهيز جيش كبير لملاقاة العرب واستطاعا أن يجمعا عددا كبيرا من جند الروم ومتطوعة القبط وبهذا عزموا على لقاء العرب بقيادة عمرو بن العاص ، وقد تحصن الروم فى بابليون « حصنهم الشير » فى جنوبى أم دنين فرأى عمرو ، إزاء هذا التجهز من الروم ، أن يطلب مددا من المدينة وقد أرسل إلى الخليفة بذلك ، فوعده بأنه سيرسل إليه ما يريد من الجند والسلاح .

على أن عمرا أصبح على شيء من القوة باستيلائه على الفرما ، ثم على أم

دنين المجاورة لمعسكر الروم، وفي الوقت نفسه رأى من جن الروم عن لقائه.
ما جعله يقف موقف المتأنى في هيبة وبأس.

وبما يذكر أن عمراً استطاع أثناء مقامه في أم دنين الواقعة على ضفاف
النهر أن يستولى على بعض السفن من الروم، ليعبر بها إلى الشاطئ الغربي
حيث أتجه جنوباً نحو منفيس عاصمة مصر القديمة، فألقى الرعب في نفس الجيش
المتحصن بالحصن، كما استطاع أن يتصل ببعض أهالي البلاد ويعرف نواياهم
نحو العرب، كما اتصل بكبار القبط المسيحيين وكسب ودهم ومساعدتهم من
قبل — في أغلب الظن — حيناً وصل إلى الفرما تلك المدينة التي كانت عامرة
بالكنائس والقساوسة من رجال القبط المسيحيين.

كانت الفرما إذئذ مدينة عظيمة ومهمة إذ منها يبدأ سور مصر العظيم الذي
بناه المصريون في غابر الزمن، وهو الذي سماه العرب (سور العجوز) وقد تهدم
معظم هذا السور وقت مجيء عمرو إلى مصر، ولم يبق منه إلا النذر من جدرانها.
ولقد ظل عمرو بكتيبته الصغيرة مرابطاً على الحدود طول أيام عيد الأضحى
من سنة ١٨ هـ (١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩ م) حتى تمكن من فتح الفرما والسير
إلى أم دنين وتهديد «بابلون» كما أسلفنا.

لم يكن لدى العرب الذين جاءوا مع عمرو شيء من عدة الحصار الحديثة، ولم يكن
لهم علم بطرقه، وما كانوا ليلكبوا مدينة إلا بالمهاجمة وفتح الأبواب، أو بالصبر إلى
أن يضطر العدو الجوع والضيق، أن ينزل إليهم، وقد ملك العرب جميع الأماكن
التي استولوا عليها من الفرما إلى أم دنين، بهذه الوسيلة الساذجة التي كانت في عصرهم.
أما حاكم مصر الروماني «قيرس» فانه عندما علم بخطر العرب، واقتطاعهم
أجزاء مهمة من ولايته سارع إلى جمع جنوده وعسكر في «بابلون» وأخذ
يتجهز للقائهم فحفر الخنادق حول الحصن، وأقام الأسوار حول المدائن المهمة

وخصوصاً الاسكندرية عاصمة وادى النيل حينئذ ..

وبذلك تأهب قيروس، فى الجنوب والشمال للدفاع عن وادى النيل (مصر) «
أما عمرو فقد توقف فى «أم دنين» قليلاً منتظراً المدد من الخليفة بالمدينة ..
وقد سارع الخليفة بإمداده وفى أثناء انتظار الامداد، لم يكف عمرو عن مناوشة
الروم، بل انه، كما أشرنا عبر النهر وسار نحو الجنوب حتى بلغ ممفيس (عاصمة
مصر قديماً) وشاهد مساكن الملوك، ورأى الأهرام الباسقة فى الجانب الغربى
للنيل، وبجوارها عاصمة مصر، وإلى الشاطئ الشرقى صروح الحصن الرومانى
(بابلليون) ثم اتجه جنوباً على سفح الأهرام، حتى وصل إلى حدود الفيوم وكان
حاكمها (دومنتياس) محافظ المدينة، أما حاكم الإقليم فكان اسمه
(تيودوسيوس) وكلاهما رومانى.

ولما رأى حاكم الفيوم، أن العرب يريدون أخذ بلادهم، سارع إلى الدفاع
عنها، ولكن بعد فوات الوقت، إذ سد عليهم عمرو بفرقة الصغيرة، منافذ
النجاة، ففر الرومان إلى حصن بابلليون تاركين أمر الدفاع إلى الأهالى، فقام
(حنّا) النقيوسى قائد كتيبة الخفراء، وحنّا الماروسى مساعدته بقاء العرب، وقد
حاول هذان المصريان أن يعرقل سير العرب نحو الجنوب فعدل العرب إلى
الصحراء الغربية وواصلوا سيرهم، مستولين على كل ما صادفهم من السوائم ..
وظلوا سائرين حتى وصلوا إلى البهنسا ففتحوها عنوة، وقد استطاع عمرو أن
يقضى على كتيبة حنّا الماروسى الذى كان يتبع العرب منذ كانوا فى سفح الأهرام،
والآن ظفروا به ونسكل بفرقة من المغامرين، وكان ذلك فى بلدة يوريط أو أبوريط.
من أعمال البهنسا فى أرجح الروايات^(١)

كان أول سير عمر وإلى الفيوم حوالى شهر مايو من سنة ٦٤٠ ميلادية، وقد قضى فى غزواته بضعة أسابيع أضاعها الروم ضياعاً حتى أنهم خسروا خسارة كبرى، وغنم العرب فيها مغانم كثيرة؛ وبعد ذلك بحوالى شهر وصلت الأمداد التى بعث بها الخليفة إلى عمرو، وكان أولها بقيادة الزبير بن العوام وتبلغ كتيبته حوالى الأربعة آلاف مقاتل، ثم كتيبتان أخريان يبلغ عددهما ثمانية آلاف وبذلك أصبح عدد الجنود العرب حوالى ستة عشر ألفاً إلا قليلاً، وبهذا العدد إلتقى عمرو وهو القائد العام للجيش العربى بجنود الروم بقيادة قيرس (المقوقس) حاكم مصر الرومانى، وبطبيعة الحال كان تحت امرته قواد فرق يأتمرون بأمره سجل منهم الدكتور بقر. تيودور وأنستاسيوس وتيمودوسيوس وغيرهم مما لا ضرورة لذكره، وعلم الروم أن هذا الجيش إنما يهدف الى انتزاع هذه الولاية الغنية من امبراطوريتهم، ولذلك تربصوا بهم قبل أن يفيض النيل لتكون بينهم وبين العرب موقعة فاصلة على أرض ثلجة ولكنهم رغم كثرتهم عجزوا عن القيام بأى عمل يذكر ضد العرب..

لقد أستطاع عمرو فى أقصر فترة أن يملك مدناً وأراضى عظيمة فى وادى النيل قبل أن تصل إليه الأمداد من المدينة، فهذه القرما وبليس وأم دين ومنفيس والأهرام والفيوم والبهنسا وبوط من أعمالها، وما بين العريش والبهنسا تحت قبضة العرب، فلما جاءت الأمداد وبلغ جيش العرب أربعة أمثاله لم يكن من المستطاع على الرومان أن يصدوا لهذا الجيش، وقد عجزوا أن يصدوا أقل من ثلث عدده من قبل.

وإذ لم يكن يد من المناجزة فقد التقى العرب بالروم فى مواقع تعتبر حاسمة من أهمها موقعة عين شمس (هليوبولس) ثم أخيراً حصار حصن بابليون الذى

تجتمع فيه الجيش الرومانى ولم يستطع أن يظهر بأنفه للعرب على أثر موقعة عين شمس (هليوبولس) .

ولذلك رأى المقوقس (قيرس) أن المسألة قد أصبحت فى غاية الحرج ، إذ أصبح العرب سادة البر ، وهم المسيطرون على النيل ..

وحوالى شهر سبتمبر من سنة ٤٠٤ م .. بدأ حصار حصن بابليون . وقد ضيق عليه عمرو الحصار حتى اشتد الحال على الروم الموجودين فيه ، ولا خلاف بين المؤرخين أن قيرس (المقوقس) كان فى الحصن عند بدء الحصار ، كذلك تيودور قائد الرومان المشهور ، ولعل الرجلين قد فزا بعد موقعة هليوبولس ، وعازا بهذا الحصن المنيع ، وكان فى الحصن غير قيرس حاكم مصر . وجورج والأعيرج قائد الجند ، وكثير من أهالى مدينة مصر والأديرة المجاورة ، والى كانت منتشرة شرق الحصن تلك البقعة التى كانت عامره بالنخيل والأعنان ..

لقد ظل المقوقس ومن يحيط به فى ببلليون آمنين على أنفسهم فترة غير قليلة ، وكانت مجانيقهم التى لا تكف عن رمى العرب ، قد جعلت هؤلاء ينفذ صبرهم ، فيمطرون أهل الحصن وابلا من مجانيقهم وسهامهم ، حتى أيقن الروم أن لا بد لهم من التسليم يوماً للعرب وأخيراً اتفقت كلمة الروم ، على أن يفاوضوا العرب فى بذل جزء من المال لهم ، ويرجعوا عنهم ، وأن يكون الوفد برئاسة قيرس . (المقوقس) حاكم مصر .

وفعلا فتح الباب الحديدى المؤدى إلى النهر ، واستقل الوفد السفن ، وعبروا إلى جزيرة الروضة ، فلما بلغها أرسل إلى عمرو جماعة على رأسهم أسقف ببلليون ، فلقبهم عمرو وأكرم وفادتهم . فأدوا رسالتهم فقالوا :-

« إنكم قوم قد ولجتم في بلادنا وألحتم على قتالنا وطال مقامكم في أرضنا وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد اظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل وإنما أنتم أسارى في أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فلهه أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تفشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ولعلمكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبكم »^(١) .

ولكن عمراً لم يبعث جواب ما أرسلوا من أجله ، وحبس الرسل عنده يومين حتى يروا حال المسلمين ، وصرح لهم بالسير في معسكر المسلمين ، ثم بعث بكتاب مع الرسل إلى المقوقس قال فيه « ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال . إما أن دخلتم الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا ، وإن أبيتُم فأعطيتُم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين » .

على أن المقوقس قد خرج عندما رأى الرسل قد عادوا ، بعد حبسهم عنه ، مما جعله يظن أن عمراً قد قتلهم . فلما لقيه الرسل سأله عن حال القوم ، فقالوا « رأينا قوماً . الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة . ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة إنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم . ما يعرف رفعتهم من وضعهم ولا السيد منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لا يتحلف عنها منهم أحد ، يفسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم » . وقد رأى قيرس أن القوم — وهذه نعمتهم — لا تصلح معهم المداورة ولا تقوى الروم لهؤلاء على المناجزة ولذلك

أخذ يستعد لمصالحة العرب ، فأرسل إلى عمرو أن يبعث إليه جماعة من ذوى الرأي ليفاوضهم فى مسألة الصلح ، فبعث عمرو عشرة نفر . أحدهم عبادة بن الصامت وكان عبادة أسود شديد السواد ، وأمره أن يتكلم عن القوم وأن لا يجيب الروم عن شىء يدعونه إليه إلا إحدى هذه الخصال الثلاث . وذهب الرسل إلى المقوقس ، فلما دخل عبادة عليه هابه وارتعدت فرائصه ، ثم قال : « نحواعنى هذا الأسود وقدموا غيره يكلمنى » فقال العرب جميعاً : « ان هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم فينا ، وانما نرجع جميعاً الى رأيه وقوله ، وقد أمره الأمير دوتنا بما أمره ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله . ثم قالوا : « إن الأسود والأبيض سواء عندنا ، لا يفضل أحد أحداً الا بالتقوى » . فقال المقوقس — فى كثير من الرهبة — لعبادة : « تكلم برفق ولا ترعجنى » فقال عبادة رضى الله عنه : « إن فىمن خلفت من أصحابى ألف رجل أسود كلهم أشد سواداً منى ، وانى ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعاً ، وكذلك أصحابى . وذلك انما رغبنا وهمتنا فى الجهاد فى الله ، واتباع رضوانه — وليس غزونا لعدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ، ولا طلب للاستكثار منها — لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه ليله ونهاره وشملة يلتحفها . لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء . انما النعيم والرخاء فى الآخرة » .

وبهذا الكلام البين أثر عبادة فى نفس المقوقس . فالتفت هذا لأصحابه وقال لهم :

« هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل . ان هذا وأصحابه قد أخرجهم الله لخراب الأرض » . ثم أقبل على عبادة فقال : « أيها الرجل الصالح . قد سمعت مقاتلك وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمرى ما بليتم ما بليتم وما ظهرتم على من ظهرتم عليه الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها وقد توجه الينا لقتالكم من

جمع الروم مالا يحصى عدده ، قوم معروفون بالنجدة والشدة ، لا يبالي أحدكم من لقي ولا من قاتل ، وإنا لنعلم أنكم لن تقدرُوا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم ، على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ، ولأميركم مائة دينار وخلقيتكم ألف دينار ، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم .

ومع أن هذا الكلام لم يكن غريباً فحسب من حاكم مسئول لأعظم امبراطورية في ذلك على مصر ، فإنه — في نفس الوقت — مدهش غاية الدهشة ، بعد أن رأى قوة المسلمين لا في الشام ، بل في مصر نفسها ، ثم سمع عبادة يتكلم لا مبلغاً لرسالة فقط ، ولكن كداعية مبادئ ، وواعظ قوم لم تعظم الأيام . ولندع عبادة رضى الله عنه يرد على هذا المقوقس المتغابي عن الحوادث ، بل عن الحق . قال عبادة رضى الله عنه :

« يا هذا لا تفرن نفسك ولا أصحابك ، أما ما نخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وإنا لا نقوى عليهم ، فلعمري ما كان هذا بالذى نخوفنا به . وإن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه . إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته ، وما شئ أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك ، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسينين ، إما أن تعظم لنا بذلك الغنيمة في الدنيا إن ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا ، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا ، وإن الله عز وجل قال في كتابه : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشهادة ، وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده ، وإنما همنا ما أمامنا ، فانظر الذى تريد فيمنه لنا فليس بيننا وبينك خصلة تقبلها منك ولا نجيبك إليها الا خصلة من ثلاث فاختر أيتها شئت . ولا تطمع نفسك في الباطل . بذلك أمرنى

الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل الينا . فحاول قيرس أن يستنزله عن شيء من الخصال الثلاث ، فلم يفلح ، فبين له عبادة أنهم لا يملكون التبديل والتعديل ، لأنه وسائر المسلمين متبعون في هذا لا مبتدعون ، ثم قال له وقد رفع يديه إلى السماء : لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء مالكم عندنا من خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم .

ولما يشى المقوقس من طلب التعديل في مقترحات المسامين الآنفه الذكر ، دعا أصحابه إلى التشاور على ضوء هذه المقترحات العربية . فقالوا : أما الأمر الأول — وهو اعتناق الإسلام — فلا نجيب إليه أبداً ، فلن نترك دين المسيح إلى دين لانعرفه ؛ وأما الثانى — وهو دفع الجزية — فإننا إذا أذعنا للمسلمين ودفعنا الجزية لم نعد أن نكون عبيداً والموت خير من هذا ، فقال عبادة : انكم إذا دفعتم الجزية كنتم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذرائعكم ، وتركت لكم إدارة بلادكم ، فتصبح جميع الوظائف في أيديكم ، كما ستحفظ لكم كنائسكم فلا يتعرض لها أحد بسوء .

ولما شرح لهم عبادة موقف العرب منهم بعد خضوعهم وقبولهم الجزية ، مالت نفس المقوقس إلى المسألة ، ودفع الجزية ، ولكن كبار القوم نازعوا المقوقس ، ومالوا إلى القتال ، أو يهادنوا العرب مدة شهر ليروا رأيهم ، ولكن عمرا لم يقبل مهادنتهم أكثر من ثلاثة أيام وعليهم أن يقولوا كلمتهم خلالها والا فالمناجزة لا محالة .

ومع أن المقوقس قبل الهدنة كما أراد عمرو ، إلا أن القوم وخصوصاً جنود هرقل ، لم يستطيعوا الصبر على القتال فثاروا للقاء العرب خارج الحصن ، وما جاء اليوم الرابع حتى باغتت الروم العرب من فوق قناطرهم .

لكن العرب كانوا حذرين فلم تذهلهم المباغتة ، فأسرعوا إلى أسلحتهم

وأوقعوا بهم هزيمة منكرة ، وفر من نجا منهم وعاذ بالحصن ، وأغلقوا على أنفسهم .
الأبواب . أما المقوقس : فإنه وجد في هزيمة الروم تعزيزاً لرأيه في قبول الصلح ،
فدعا كبار قومه مرة أخرى على أثر الهزيمة وعرض عليهم ما أبوه عليه بالأمس .
فوافقوا مكرهين ، فأسرع المقوقس عند ذلك إلى النهر وعبر إلى الجانب الغربي
حيث العرب وعلى رأسهم داهيتهم عمرو بن العاص ، فلقاه وأبرم معه شروط .
الصالح على أن يدفع الروم الجزية عن يد وهم صاغرون ، وبعد إبرام هذه الشروط .
سافر المقوقس إلى الاسكندرية حيث أرسل صك المعاهدة إلى الامبراطور
في بيزنطة ، وبها ملحق خاص بين فيه الأعذار التي ألجأته إلى إبرامها ، بيد أن
الامبراطور لم يتبين - على ما يقال - كنه هذه المعاهدة ، وهل هي تسليم لبابليون .
وحده أم تسليم لوادى النيل كله ، ولذلك بعث برسالة مستعجلة إلى قيرس .
يستدعيه فوراً إلى القسطنطينية لمقابلته .

وصل قيرس إلى حضرة الامبراطور ، وقص عليه قصة الحرب بينه وبين
العرب ، وقد عقب على ذلك بتبرئة ساحته من وصمة الجبن والخيانة ، ثم كرر
للامبراطور عزمه على طرد العرب يوماً ما وأن كل ما فعله إجراء وقتي أملته
الظروف القاهرة .

وأما الأموال التي دفعها قيرس الى العرب في شكل جزية ، فإنه من السهل
عليه أن يجبي مقدارها وأكث من متاجر الاسكندرية وجماركها فيعوض ذلك .
ما خسرتة خزانة الامبراطورية ، من مال مصر الذي كان كل غايتها من احتلالها .
على أن قيرس ، لم يخف عن الامبراطور ما لمسه في العرب من غرابة وشدة .
بأس لم يعهدا في غيرهم من سائر ألوان البشر ، فهم كما أبانوا عن أنفسهم ، قوم
لا يعبأون بأمر من أمور الحياة ولا زخارفها ، ولا يطلبون منها إلا لقمة يسدون .

بها الرمح وشملة يسترون بها العورة . أنهم جنود « الموت » الموعودون بملك الدنيا .

وبمثل هذه الأقوال كان المقوقس يتحدث إلى مولاه امبراطور الروم العظيم وحاى المسيحية فى الشرق والغرب .

على أن المهم أن الحصن لم يفك عنه الحصار بعد . فقد كان قيرس قد رضى بشرط العرب ووعد بأن يوقعها من الإمبراطور ثم بعد ذلك يعود لحضور خروج جيوش الروم من الحصن إلى حيث يذهبون إلى آسيا الصغرى .

ثم لما ذهب قيرس إلى الإمبراطور وعرض عليه الحالة ، وطلب منه الموافقة على معاهدة سنة ٦٤٠ — ٦٤١ م لم يقبل الامبراطور وبذلك أصبح قيرس فى موقف حرج بين العرب وبين الروم .

وبلغت أخبار قيرس فى بيزنطة مسامع العرب ، فاستعدوا لفتح الحصن بالقوة وكان النهر قد انخفضت مياهه مما أصبح من العسير معه أن يحصل الروم الذين فى الحصن على حاجتهم من الماء العذب الصالح ، فكان يخرج منهم جماعات ليتزودوا بحاجاتهم من ماء النيل ، فيتعرض لهم العرب ويقتل الفريقان فتكون الدبرة طبعاً على هؤلاء الروم المحصورين ، وقد ظلت الحال كذلك فترة غير قصيرة . الروم محصورون فى الحصن لا يخرجون إلا فى غفلة العرب والعرب يوقعون بكل جماعة تخرج من الروم ، ولقد عميت أخبار قيرس عن أهل الحصن ، وكل ما بلغهم أن الإمبراطور قد غضب على حاكمهم ، ولكنه لم يصنع شيئاً لإنقاذهم من الحصار .

وفى مارس من سنة ٦٤١ م سمع أهل الحصن تكبيراً عالياً فى معسكر المسلمين على الضفة الأخرى للنهر ، فلما استطلعوا الأمر علموا أن الامبراطور هرقل قد

ظوق الحياة ولكن الحصن رغم الكارثة التي حلت بعميد الإمبراطورية ، ظل .
حوالى الشهر يقاوم جند العرب .

وحينئذ صمم المسلمون على فتح الحصن ولو كان فى ذلك ذهاب نفوسهم ،
فقام الزبير بن العوام ، ونادى فى الناس : من يهب نفسه فى سبيل الله فتبعه كثير
من المسلمين واتجهوا نحو الحصن ، وسارع الزبير فوضع سلماً على السور ولم
يفطن إليه أحد ، حتى صعد سور الحصن وكبر شارعاً سيفه ، وتبعه المسلمون .
الذين تساقوا خلفه ، وأمطروا الجميع ممن فى داخل الحصن وابلا من سهامهم .

وعند ذلك اجتمع كبار القوم وعرضوا الصلح بدل سفك الدماء ، وتولى
إبرام العقد جورج - وهو القائد الأعلى للروم - مع القائد العربى عمرو بن العاص ،
الذى اشترط على جورج أن يغادر جنوده بابليون فى مدى أيام ثلاثة فقط وأن
يتخذوا سبيلهم فى الجلاء عن طريق نهر النيل ، وأن لا يحمل الجيش الرومانى
معه سوى ما يلزمه من الأقوات لبضعة أيام وأما الذخائر والأسلحة وجميع ما فى
الحصن فيصبح غنيمة للمسلمين وأن يدفع بابليون الجزية للمسلمين .

وكان فتح الحصن فى يوم الجمعة (٦ من أبريل سنة ٦٤١ م) وكان خروج
الروم منه يوم الإثنين ٩ منه وهو عيد الفصح عند المسيحيين ، وقد ظل الحصن
يقاوم قرابة سبعة أشهر فى أصح الروايات ^(١) .

وبعد أن جلا الروم عن الحصن ، وملكه العرب أصبحت بابليون
وما جاورها فى قبضة المسلمين ، وبذلك دان لهم معظم وادى النيل ، ولقد أمر
عمرو بعقد جسر بين الروضة وبابليون فوصل بذلك الجزيرة بالحصن .

هذا وبعد تسليم الحصن أخذ عمرو في إرسال السرايا لفتح البلاد في الوجهين «القبلى والبحرى حتى أخضعها فى فترة قصيرة ، وبذلك لم يكن أمامه إلا الاسكندرية ، وهى العاصمة الكبرى للدولة المصرية ، والعاصمة الثانية للدولة الرومانية الشرقية ، وقد رأى أن لا بد له من فتحها وطرده الروم منها ، وإلا فإنه لم يصنع شيئاً لأن مركز الحكومة لا يزال فى قبضة الروم .

لم يكن الصلح الذى عقد فى بابلون سوى عقد حربى على من فى الحصن . فأمهم عمرو نظير تركهم لكل ما يملكون ، وفرض الجزية على أهل البلاد .

ولكن هذا الصلح أحدث فى دولة الروم أثراً بعيد المدى مع أنه لم يكن إلا صلحاً مقصوراً على جماعة صغيرة وذلك لمكانة بابلون وممفيس فى نفوس الروم ، مما جعل هؤلاء يداخلهم الضعف والوهن أمام العرب . إذ بمجرد أن يحسوا بسيرهم نحو الاسكندرية نرى حامياتهم فى (نقيوس) بمصر السفلى — وهى من أعظم المدن التى ركزت بها جيوش هائلة — نرى الروم وعلى رأسهم قائدهم يفرون إلى الاسكندرية وهكذا فى سائر المدن الواقعة بين بابلون والاسكندرية لم يصادف العرب فى واحدة منها مقاومة تستحق الذكر سوى « كريون » العنيدة . أما فى الاسكندرية ، فقد استعد الروم بجيش جرار بلغ حوالى ٥٠ خمسين ألف مقاتل عدا الأمداد التى توالى إرسالها من بيزنطة إلى الاسكندرية ، كما أن أسوار المدينة كان لها كبير الأثر فى صد العرب عنها فى أول الأمر .

بيد أن العرب ضربوا الحصار على المدينة ، من جهة البر ، وقد استمر حوالى أربعة أشهر نظراً لاتصال المدينة بالقسطنطينية من جهة البحر ، فكانت تصل إليها حاجتها من الأسلحة والأقوات .

ولكن موت هرقل ، وضعف الروم بعد موته ، واضطراب دولتهم ، ثم كره أهل الإسكندرية للحكم الرومانى ومساعدة بطريقها للعرب رغبة فى استقلاله عن الدولة الرومانية البيزنطية . كل ذلك ساعد العرب على أن يفتحوا الاسكندرية ، ويطردوا الرومان منها ، وكان ذلك فى سنة ٦٤١ م . وفتح الاسكندرية ، أصبح العرب يحكمون جميع أراضى النيل ومدنه ، لا ينازعهم فى ذلك أحد .

* * *

أما التغيرات التى أحدثها العرب بعد فتح مصر فمن أهمها :

أولاً — نقل العاصمة من الاسكندرية الى النقطة التى عسكروا بها أولاً فى بابليون فبنوا مدينة « القسطنطين » وجعلوها مركز الحكومة للإمارة المصرية الإسلامية . وقد اختار العرب هذا الموقع لتكون العاصمة متوسطة بين الوجهين البحرى والقبلى لمصر ، ثم لقرب العاصمة الجديدة للبلاد العربية ومركز الخلافة . وقد سارع عمرو بن حفص بفتح القناة التى تصل النيل بالبحر الأحمر ، فسارت السفن من مصر إلى الحجاز .

ثانياً — انضمام كثير من سكان مصر الى العرب إذ اعتنقوا الإسلام ، وأصبحت مصر من ذلك الوقت مركزاً هاماً فى العالم الإسلامى وقل عدد الأسر المسيحية فيها بسبب اعتناق الاسلام .

ثالثاً — أعاد العرب فتح الترع والجداول التى تركها الرومان وأصلحوا طرق المواصلات فتحسنت حالة الفلاحين وتدرجوا فى الرخاء والرقى .

كذلك أطلق العرب الحرية الدينية من عقابها ، وأصبح الملكانيون واليعقوبيون يدعون لمذاهبهم فى حرية مطلقة بدون تدخل من جانب الحكومة ،

كما أن الحكومة المدنية ظلت بدون تغيير يذكر ، وبقى الموظفين المدنيون من الروم والقبط في مراكزهم ، وكل وظيفة خلت حل فيها مصرى ، واكتفى العرب بالإشراف على الحكومة .

الضرائب : أما الضرائب ؛ فقد خففت إلى الحد الذى لا يرهق كاهل المصريين ، وبالجملة فإن حالة المصريين تحسنت بوجه عام ، وأحسوا بعدل العرب وظلم الرومان . فقد كان الرومان يجبون من المصريين سنوياً حوالى ٢٠ مليوناً من الدنانير ؛ فأصبح العرب لا يجبون سوى ١٢ مليوناً . والأهم من هذا أن المدن والأفراد الذين كانت لهم امتيازات فى عهد الرومان أبطلها العرب ، وعاملوا المصريين جميعاً على قدم المساواة .

الفصل الخامس

مكتبة الاسكندرية

ومما ينبغي ذكره هنا ما يقال من أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الاسكندرية ، وأعدم كثيراً من كتب العلم التي ظلت زمناً تضيء للعالم سبل المعرفة وتشع النور في المدارس والجامعات والمجتمع العالمي .

وإننا لنؤكد أن هذه فرية ما فيها مزية ، وأن التاريخ يكذب ذلك بكل قوة . لأن عمراً ليس بالرجل الذي يقدم على مثل هذا ، إذ دينه وخالقه يبعدانه عن مثل هذا الجرم . ثم إن العرب الذين ثبت أنهم احترموا الأديان التي يعتقدون كفر اتباعها يبعد منهم صدور هذا . ومع ذلك فإننا نرى أن تنقل لكم بالنص ما سجله مؤرخ انجليزى^(١) ، إذ يقول :

« لقد كثرت الجدل في أمر مكتبة الاسكندرية العظمى ، وطالما احتدم الخلاف في شأن إحراقها ، وهل كان للعرب يد في ذلك عند فتحهم للمدينة ؟ أو إنهم لم يقارفوا شيئاً من ذلك ؟ » والقصة كما أوردها أبو الفرج كما يلي :

« قد كان في ذلك الوقت رجل اشتهر بين المسلمين اسمه (حنا الأجرومي) وكان من أهل الاسكندرية ، وظاهر من وصفه أنه كان من قسيسي القبط ولكنه أخرج من عمله إذ نسب إليه زيغ في عقيدته ، وكان عزله على مجمع من الأساقفة . وقبل أدرك ذلك الرجل فتح العرب للاسكندرية ، واتصل بعمر وقلقى عنده حظوة ،

(١) راجع بتل في كتاب فتح العرب لمصر .

لما توسم فيه بصفاء ذهنه وقوة عقله من الذكاء . وعجب مما وجد عنده من غزارة العلم ، فلما آنس الرجل من عمرو ذلك الإقبال قال له يوماً : « لقد رأيت للمدينة كلها وختمت على ما فيها من التحف ، ولست أطلب إليك إلا شيئاً لا نفع له عندك وهو عندنا نافع » فقال له عمرو : « وماذا تعنى بقولك ؟ » فقال « أعنى بقولى ما فى خزائن الروم من كتب الحكمة » فقال عمرو : « إن ذلك أمر ليس لى أن أقتطع فيه رأياً دون إذن الخليفة » . ثم أرسل كتاباً إلى عمر يسأله فى الأمر فأجابه عمر قائلاً : « وأما ما ذكرت من أمر الكتب ، فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء فى كتاب الله فلا حاجة لنا به ، وإذا خالفه فلا أرب لنا فيه وأحرقها » . فلما جاء هذا الكتاب إلى عمرو أمر بالكتب فوزعت على حمامات الاسكندرية فما زالوا يوقدون بها ستة أشهر . ثم قال المؤلف : « فاسمع وتعجب ! »

هذه هى القصة كما جاءت فى بعض الكتب العربية ، وقد كتب أبو الفرج ما كتبه فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى ولم يذكر المورد الذى نقل عنه قصته ثم نقله عنه أبو الفداء فى أوائل القرن الرابع عشر ثم المقرئى بعد ذلك .

* * *

لاغرو فقد ذكر عبد اللطيف البغدادى إحراق مكتبة الاسكندرية بأمر عمر حوالى سنة ١٢٠٠ ، ولكنه لم يبد رأياً فيها ، مما يشعر بأنه كان مصداقاً لها . ولعلها كانت متداولة حينئذ . ولكن لم يرد لها ذكر مكتوب قبل مضى خمسة قرون ونصف قرن على فتح الاسكندرية^(١) .

(١) انظر « فتح العرب لمصر » ص ٣٤٨ — ٣٤٩ .

ثم يستعرض الدكتور بثلث ظروف القصة وروايتها ، وظروف المكتبة
دوالأطوار التي مرت بها، وينقل نصوص التاريخ المعاصر في حرق المكتبة والزمن
الذي حدث فيه ذلك-ثم ينتهى بعد ذلك العرض الممتع إلى أن العرب لم يقترفوا
حرق المكتبة ، ويستدل على ذلك بهذه الأمور :

أولاً : إن قصة إحراق العرب للمكتبة لم تظهر إلا بعد نصف وخمسة قرون
من فتح الاسكندرية .

ثانياً : أننا فحصنا القصة وحللناها فوجدنا كل ما جاء بها سخافات مستبعدة
ينكرها العقل .

ثالثاً : إن الرجل (حنا الأجرومي) الذي تذكر القصة أنه كان أكبر عامل
فيها مات قبل غزو العرب بزمن طويل .

رابعاً : أن القصة قد تشير إلى واحدة من مكتبتين . الأولى مكتبة المتحف
وهذه ضاعت في الحريق الكبير الذي أحدثه قيصر ، وإن لم تكن قد أُلقت
عند ذلك فإنها تكون قد ضاعت قبل فتح العرب للاسكندرية بما لا يقل عن
أربعمائة عام . وأما المكتبة الثانية - وهي مكتبة السرايوم - فإما أن تكون قد
نقلت من المعبد قبل عام ٣٩١ م وإما أن تكون قد هلكت وضاعت كتبها ،
فتكون على أى حال قد اختفت قبل فتح العرب بقرنين ونصف قرن .

خامساً : أن كتاب القرنين الخامس والسادس الميلاديين لا يذكرون شيئاً
عن وجودها وكذلك كتاب أوائل القرن السابع .

سادساً : أن هذه المكتبة لو كانت لا تزال باقية عندما عقد (قيرس) صلحه
مع العرب على تسليم الاسكندرية لكان من المؤكد أن ينص على نقل الكتب
إلى جانب المتاع والأموال في مدة الهدنة التي بين عقد الصلح ودخول العرب
المدينة وقدر ذلك أحد عشر شهراً .

سابعاً : لو صح أن هذه المكتبة قد نقلت أو لو كان العرب قد أتلفوها ، لما أغفل ذلك كاتب من أهل العلم / كان قريب العهد من الفتح مثل حنا النقيوسي ، ولما مر ذلك عليه بدون كتابة حرف منه ولا يبقى بعد ذلك شئ في الأمر . فإن الأدلة قاطعة ، كما أيد ذلك ثقات المؤرخين . وأما رواية أبي الفرج على هذا فهي لا تعدو أن تكون قصة من أقاصيص الخرافة ليس لها أساس من التاريخ ^(١) .

يقول سيد أمير علي : ولما كثرت القارات التي كان الروم يشنونها على الشام من مصر وتعددت المناوشات بين أسطول الروم والمسلمين في عرض البحر ، قرر الخليفة بعد قليل من التردد ، أن ينفذ جيشاً إلى أرض مصر ، فسار عمرو بن العاص في أربعة آلاف ، واستولى بهذه القوة الصغيرة على مصر في خلال ثلاثة أسابيع ، ثم تعقب الجيش الروماني وقلوه إلى الاسكندرية التي كلشت تعتبر حصن حكومة الروم الحصين .

وبعد أن حاصر العرب تلك المدينة ردحاً من الزمن ، فتحوها عنوة وأصبحت مصر حتى حدود الحبشة جنوباً وليبيا غرباً خاضعة لسلطان المسلمين . الذين اتخذوا أيضاً في تلك البلاد نفس الإجراءات التي سبق أن اتخذوها في الشام والعراق ، لتحسين موارد الفلاحين فأقروهم على أراضيهم ، وأصلحوا أعمال الري القديمة التي أهملها الرومان ، وأمروا بحفر القناة القديمة التي توصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر ^(٢) ، وعاملوا المسيحيين معاملة ممتازة ، نظراً لما ثبت لهم من حسن نواياهم نحو المسلمين ، ونظموا الضرائب فازدهرت التجارة بتخفيض المكوس .

وفي سنة ٦٤٥ م أغار الروم على الاسكندرية ، واستولوا عليها عنوة ، غير أنها سقطت بعد سنة في أيدي العرب نهائياً .

(١) راجع فتح العرب ص ٣٦٨ — ٣٧٠ .

(٢) وفي بعض المراجع التاريخية بدل البحر الأبيض ، النيل .

قصة حرق المكتبة

وأما قصة حرق مكتبة الاسكندرية التي نسبتها بعض المؤرخين إلى الخليفة عمر بن الخطاب فهي عارية عن الصحة ، إذ أن عملاً كهذا لا يمكن أن يصدر عن حاكم عظيم ، عرف بالتسامح وحرية الرأي..

وفي الواقع ان قسماً كبيراً من تلك المكتبة ، كان قد أريد في زمن الحصار الذي ضربه يوليوس قيصر على المدينة ، كما فقد الجزء الآخر في عهد الامبراطور تيودوسيوس في القرن الرابع الميلادي . ويقال إنه كان مشهوراً بالورع والتعصب ، ومقتة للكتب الوثنية ، فأمر بإتلاف بقية المكتبة . غنفت أوامره بحماس شديد ، بحيث لم يبق في القرن السابع شيء ، يصح أن يثلفه العرب المسلمون . وعقب فتح مصر ، اشتبك عمرو بن العاص في حروب مع القبائل الضاربة على الحدود الغربية ، انتهت باخضاع الساحل برمته حتى مدينة برقة (بنطابوليس)^(١)

* * *

ويصف المستشرق بروكلمان الحلة التي كانت في مصر ابان الفتح العربي الاسلامي لها فيقول : في سنة ٦٢٨ حاول الامبراطور هرقل ، بعد أن استخلص مصر من الفرس الفاتحين أن يربط القبط القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح بالكنيسة الامبراطورية..

وفي سنة ٦٣١ عين كورش (قيرس) المعروف عند العرب بالمقوقس الذي كان حتى ذلك الحين أسقف قاسيس في القبط (القوقاز) بطريركاً على الاسكندرية ، ورئيساً للإدارة المدنية في نفس الوقت.. ولكن سياسة المقوقس الكنسية والحاحه في جباية الضرائب الكثيرة ثقلاً على المصريين إلى درجة كان من الطبيعي

معها أن يرحبوا بالعرب كمنقذين قتل السوريين — وهم اخوانهم في الدين — من قبل .

وتفصيل الأمر أن عمرو بن العاص أول قائد للجيش الغربي في فلسطين، هاجم من هناك سهل الفرما الحصص وليس معه من الجنود عدد كافٍ لئلا هذا الصنيع، ومن غير أن يتلقى — فيما يبدو — أمراً بذلك من الخليفة عمر . فوفقى إلى احتلال الفرما ، ثم توقف في هذه المنطقة لأن قائد الروم تيودور ، جهز جيشاً ضخماً في بابليون (ممفيس القديمة) . وعندئذ بعث عمر بالوزير أحد أصحاب رسول الله السابقين على رأس قوة مؤلفة من خمسة آلاف رجل لنجدة عمرو بن العاص ، ومراقبته أيضاً ، لما عرف عنه من الميل إلى الاستقلال بالرأى والعمل ^(١) .

هذا ونلاحظ في وصف كارل بروكلمان ، جديداً عما قدمناه في ظروف فتح مصر ، كما نشهد جديداً عن عمرو . إذ يقول : إنه لم يأخذ رأى الخليفة في الزحف من فلسطين إلى مصر ، لأن عمر كان متردداً في هذا الأمر ..

وبخيل إلينا أن لكلام بروكلمان ، شيئاً من الصحة لأن الروايات العربية ، وغيرها التي أشرنا إليها ، تذكر أن الخليفة علق موافقته على فتح مصر بوصول كتاب منه إلى عمرو ، وقبل أن يقتحم حدودها الشمالية والشرقية . وهذه الرواية فعلاً ، ليس من السهل تقبلها على علائها ، وإنما من الممكن أن تحدث مجاوزة القائد عمرو بن العاص مع فرقته حدود فلسطين الغربية ويقتحم حدود مصر المتاخمة لفلسطين ، لتتبع قلوب الروم الذين لا ذوا بمصر بعد هزيمتهم في فلسطين ، وهنا يبلغ نبأ ذلك عمر بن الخطاب ، فيرسل أمراً إلى عمرو بأن لا يتجاوز حدود المنطقة التي حدثت له — وهي فلسطين — إلا إذا كان قد اشتبك مع الروم في مناوشات .

داخل الحدود المصرية ، وثبت إقدامه في أرضها ، فإن عليه أن لا يتقهقر حتى لا يظن الروم ، أو يذيعوا أنهم قد هزموا جيش عمرو مهما كان قليلا .
وفي الحقيقة : إن الأقرب لمنطق الحوادث ، هو ذلك التبرير حتى يثبت خلافه ، فإن حالة التردد التي يوصف بها عمر بن الخطاب ، أمر لم يعهد فيه ، لافي الجاهلية ولا في الإسلام ، إذ كان من أولئك القلائل الذين وهبوا دقة الإحساس وسلامة الباطن ، حتى لقد روى أنه من المحدثين (الملهمين) ، ونسب هذا بما يشبه التواتر إلى النبي المعصوم صلى الله عليه وسلم .

وبالجملة ، فإنه لا بأس من أن يواصل عمرو معركته مع الروم في فلسطين الغربية ، حتى يطاردهم إلى الفرما (منطقة العريش الحالية) ^(١) ثم لا يجد مفرأ من مواصلة الحرب بفرقة الصغيرة حتى يدخل حدود مصر ، ويواصل القتال داخلها ولكن عمر بن الخطاب لم يكن قد وضع له الخطة على هذا الأساس ، فيبعث إليه بأن يعود من فوره ، إذ لم يكن في عودته ما يمدح كرامة الجيوش العربية المقاتلة . وهذا ما نميل إليه ، ولا نقبل ما يروى عن التردد الذي يوصف به الخليفة عمر رضي الله عنه .

أما زعم بروكلمان ، أن الزبير كان من مهمته زيادة عن مساندة جيش عمرو الرقابة عليه ، لأنه لا ينفذ الأوامر باستمرار بكل دقة ، فهذا أيضا غير معروف من أخلاق القائد عمرو ، رغم شجاعته وبطولته الخارقة ، إذ كان رجل سياسة ودهاء ، ومداورة كذلك .

ولعل بعض المستشرقين ممن يعرفون هذا الرجل على حقيقته ، قد قرروا هذه الحقيقة ، وفي مقدمتهم الفريد بتلر الإنجليزي ^(٢) ، الذي درس هذه المسائل

(١) في بحث صدر أخيرا في الحضارة الإنسانية تفسير الفرما بأنها مكان بورسعيد الحالية ولا بأس من سموها لذلك لان سهل العريش يمتد إلى منطقة بورسعيد وكان قديما يطلق على ذلك كله اسم « الفرما » فالخلاف غير ذي موضوع على هذا

(٢) انظر كتاب فتح العرب لمصر (للمحقق الخاص بعمرو بن العاص) .

من أوثق المصادر العربية .. ومن الأشياء التي عرض لها بروكلمان ، اتهام المقوقس بالخيانة من جانب هرقل ، بسبب مفاوضاته للعرب قبل أخذ الإذن من الإمبراطور مما نجم عنه اضطهاد هرقل لهذا الأسقف الحاكم في مصر ، ولكن معركة عين شمس ، التي حدثت بين المسلمين والروم كانت فاصلة ، إذ طرد على أثرها الأروام المستعمرون من أرض الكنانة ، وعادت إلى أهلها بفضل الجيوش العربية الإسلامية

يقول بروكلمان : وأغرى عمرو البيزنطيين على الخروج من حصنهم، وخوض المعركة ضده، فهزمهم في عين شمس ، وكان حصن بابليون لا يزال في الوقت ذاته صامداً في وجه المسلمين ، ومن هناك دخل المقوقس في مفاوضات مع عمرو .

وإذن : فإن المقوقس لم يخن بلاده ، وإنما اضطر لإنقاذ البقية الباقية من جيش الروم ، حتى لا تفنيه الجيوش العربية عن آخره ، ولكن الدسائس — فيما يظهر — هي التي حبكت لقيرس ، فكان أن غضب عليه هرقل كإرأينا فيما سبق .

ومما يذكر : أن جميع المستشرقين يؤكدون تسامح العرب المسلمين ، ودقة حُبهم لنشر العدل والأمن والترفيه عن الشعوب ، فقد اكتفى العرب بأن يشرفوا على الإدارة العليا في البلاد، وتركوا جميع الوظائف الأخرى في أيدي المصريين ، وذلك ضماناً لتطبيق العدالة بين الجميع . أما المدن والأرياف التي لم تحارب المسلمين ، فقد تمتعت بكل حريتها وأملأها ، كما فرضت الضرائب بالعدل المشوب بالرحمة والإشفاق حتى لا يدفع أحداً أكثر من طاقته ، وهكذا سار العرب المسلمون في جميع البلاد التي فتحوها ، وحرروا أهلها من طغاة الأمراء والأباطرة والأوصياء على الشعوب بالمنكر والعدوان .

يقول الراهب الفيلسوف «ارنست رينان» لم ينصف المؤرخون الأوروبيون
بآهام المسلمين بقسوة الجهاد والفتح ، مع أن هذا الجهاد كان ضروريا لنشر العدالة
الاجتماعية التي تزدهان بها تعاليم الاسلام المشرقة ، ونضرب مثالا لذلك فنقول :

ترى : كيف ولماذا قلب نصارى سوريا ظهر المجن لأباطرة الرومان المسيحيين
ولاذوا بحمى أبى عبيدة بن الجراح القائد المسلم ، وانضموا إليه فى قتال الروم
لطردهم من الديار الشامية ، ذلك لأنهم تذوقوا عدالة الاسلام ، وفضلوها على الظلم
الذى كانوا يعانونه من الرومان المسيحيين . . إن محمداً العظيم جاء بشريعة
تفجرت منها مدنية عالمية ، لا ينبغي إلى جانبها إتهام أتباعها المتأخرين بالجهود ،
لأن فترات الازدهار والانحطاط مرت على جميع الأمم بما فيها أمم أوروبا
المتعجرفة . وما يدرينا فقد يعود الفكر الاسلامى الخلاق الموهوب إلى ابداع
مدنية أرقى من زميلتها التى اندثرت . بل ما يدرينا ما عساه يكون بعد قليل
للمدنية الأوروبية الراهنة . التى هى وليدة التمدن الاسلامى القديم .

ومن هذا يتضح لنا أن العرب لم يفكروا فى حرق قطر واحد من مكتبة
الاسكندرية كما لم يفتحوا الشام ومصر وإفريقية وغيرها ، إلا لسيادة العدل ،
ورفاهية الشعوب . ولم يكن هدفهم التوسع والاستعمار بشهادة المستشرقين
أنفسهم .

وإذ كان فتح الاسكندرية ، وتسليمها إلى العرب ، تم بطريق الصلح الذى
حمله قيرس من القسطنطينية إلى عمرو قائد الجيش كاسبق ، فاننا نؤثر أن تنقل هنا
نص معاهدة الصلح كما سجلها الدكتور بتر فى كتابه (فتح العرب لمصر) وقد
سجل لنا أيضاً محضر مقابلة المقوقس عمرو بعد غياب طويل فى منفاه الشاق الذى
لقيه بسبب مهادنته للعرب فى عهد هرقل ، بالأمس الدابر يقول فى ذلك :

كان القائد العربي قد عاد إلى بابلين بعد أن فتح بلاد الصعيد أو على الأقل بلاد مصر الوسطى ، كما يستريح بأصحابه في أوان فيضان النيل . وفيما كان هناك في ذلك الحصن ، وافاه قيرس . وقد جاء يحمل عقد الأذعان والتسليم فرحب به عمرو وأكرم وقادته . ولما علم منه ما جاء من أجله من أمر الصلح قال له لقد أحسنت في الشخوص الينا فقال البطريق : إن الناس قد عولوا على دفع الجزية ، كما تقف رحي الحرب ثم قال : إن الله قد أعطاكم هذه الأرض فلا تدخلوا بعد اليوم في حرب مع الروم ^(١) .

ويقال إن مفاوضة قيرس مع عمرو استطالت مدة طويلة . ثم انتهت إلى صلح كتب به عقد في نوفمبر من سنة ٦٤١ م ، ويسمى هذا الصلح بصلح الاسكندرية تمييزاً له عن صلح بابلين . وها هي ذى شروط الصلح كما ارتضاها ثقات المؤرخين :

- (١) أن يدفع الجزية كل من دخل في العقد .
- (٢) أن تعقد هدنة لنحو أحد عشر شهراً تنتهى في أول شهر بابة القبطى للثامن والعشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٤٢ م .
- (٣) أن يبقى العرب في مواضعهم في مدة هذه الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم ولا يسعوا أى سعى لقتال الاسكندرية وأن يكف الروم عن القتال .
- (٤) أن تسير حامية الاسكندرية في البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأنوالهم جميعاً . على أن من أراد الرحيل من جانب البر فله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزءاً معلوماً ما بقى في أرض مصر في رحلته .
- (٥) أن لا يعود جيش من الروم إلى مصر أو يسعى لردّها .

(١) نص ٢٧٧ من المصدر السابق .

(٦) أن تترك الكنائس للمسيحيين ، ولا يتدخل المسلمون في شئونها بأى لون من التدخل .

(٧) أن يباح لليهود الإقامة في الاسكندرية .

(٨) أن يبعث الروم رهائن من قبلهم إلى العرب كضمان لإنفاذ عقد الصلح وحدثت الرهائن بمائة وخمسين رجلاً من غير الجند .

وبعد إبرام هذا العقد أخذ الروم يغادرون المدينة (الاسكندرية) وهم يضررون القدر ونقض العهد . فقد عادوا بعد ثلاث سنين تقريباً ، وأخرجوا العرب من الاسكندرية ولكن هؤلاء استطاعوا أن يهزموهم ويعيدوهم إلى بيزنطة مرة أخرى .

وبهذا كان الخلاف في تقدير فتح المسلمين لمصر وهل كان صلحاً أم عنوة . بطريق القتال والناجزة . ولعل في الإلمامة الموجزة التي سقناها ما يوضح المسألة على حقيقتها ، فقد كان الفتح في أول الأمر عنوة مع إعطاء عهد حربي بالأمان لمن تعاقد معهم العرب في بابلين ، ثم كان عهد الإسكندرية ، فأجرى فتح مصر مجرى الصلح ، ثم لما أغار الروم وملكوا الإسكندرية ونقضوا العهد الذي بينهم وبين المسلمين نبذ هؤلاء إليهم على سواء وأجروا فتح مصر مجرى البلاد التي أخذت بقوة السلاح .

على أننا نجد فرقاً ظاهراً بين حكام مصر من الروم ، وبين أهالي مصر الأصليين ، فهؤلاء — في الواقع — لم يكونوا أبداً أعداء للعرب ، وإنما كانوا يتربصون بالروم الذين لم يخلصوا لهم وخصوصاً في الوقت الذي دخل فيه العرب قاتحين لاضطهاد الروم هؤلاء بسبب عدم اتفاقهم معهم في المذهب الديني .

وكانت معاملة الأهالي تختلف في نظر العرب ، عن معاملة الروم إلا من دخل .

من هؤلاء في عقدم ووفى لهم ، فالذمة له مرعية مبذولة ، ولعل الطبرى يوضح لنا هذا المسلك من قائد العرب نحو سكان مصر في تلك المعاهدة أو عقد الأمان الذى أورده إذ يقول :

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ولا تنساكنهم النوبة، وعلى أهل مصر أن يدفعوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم ، خمسين ألف ألف وعليهم ما جنى لصوصهم ، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا بمن أبى بريئة ، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل في صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبى منهم واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطانتنا عليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم ، على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمة المؤمنين ، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا فرساً على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردية، وشهد عليه الزبير، وعبد الله، ومحمد إبنه، وكتب وردان وحضر^(١).

ثم إلى جانب عقد الأمان السالف برواية الطبرى وابن الأثير يلخص المقرئى^(٢) لنا عقداً بذله العرب لأهالى مصر ، فى ستة مواد هى بعد الديباجة كما يلى :-

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير

ج ٢ ص ٢٩٦

(٢) الخطب ج ١ ص ٢٩٤ .

- (١) أن لا يخرجوا من ديارهم .
- (٢) أن لا يفرق بينهم وبين أزواجهم .
- (٣) أن لا يطردوا من قراهم .
- (٤) أن لا تنزع منهم أرضهم .
- (٥) أن لا تزداد عليهم الجزية .
- (٦) أن يمنعوا من عدوهم .

والمهم أن فتح مصر لم يكن كله عنوة ولا كله صلحاً ، بل ينبغي التفرقة بين الروم الحكام الذين قاتلوا العرب ، ونقضوا عهدهم معهم ، وبين الأهالي المسلمين . فهؤلاء لهم عهد وذمة ، وأولئك لا عهد لهم ولا ذمة ، حتى إنه لما أراد عبد الله ابن سعد بن أبي سرح أن يأخذ أرضاً من مصر دفع ثمنها ، لأن البلاد كانت لها ذمة محترمة إذ لم تناصب المسلمين العداء ، أما الذين ناجزوا العرب وهم الروم المستعمرون فقد طردوا من البلاد ولم يبق لهم أثر بعد ، كما أبنا آتفا .

فتح ليبيا

بعد أن تم فتح مصر ، سارع عمرو إلى إرسال السرايا إلى المناطق المجاورة فأخضعها لحكم الدولة الإسلامية وبذلك جعل جميع سواحل البحرين الأحمر والأبيض تدين بالولاء لحكم الدولة الإسلامية .

ولما كان عمرو ميالاً بطبعه إلى الحرب والنضال ، راغباً في بسط مبادئ الإسلام على كل ما يمكن أن تصل إليه جيوش العرب ، فإنه قد أرسل بعثاً إلى ليبيا وهو الإقليم الذى يلى مصر غرباً . وإذا كان عمرو قد وطد نظم الحكم في مدة شهور الهدنة الأحد عشر . حتى إذا ما انقضت تلك الهدنة ودخل العرب الإسكندرية لم يبق عليهم إلا أن ينظموا إدارتها وشئونها ثم أرسل عمرو فرقة

-مجهزة احسن تجهيز سارت غربا حتى وصلت إلى برقة فاستولى عليها ، وضمها إلى مصر، وسار بعد ذلك نحو طرابلس فاستطاع أن يهزم الروم بها بعد حصارهم فترة من الزمن .

كذلك فتح عمرو مدينة (سبرة) التي تعرف الآن بزرارة ، بدون خسارة تذكر ، وفي سبرة توقف عمرو ، ثم عاد إلى برقة حيث جاءته قبيلة (لواتة) وقدمت له فروض الطاعة ، ثم عاد بجيشه إلى مصر وفي ركابه عدد لا يحصى من الأسرى والغنائم النقدية والعينية .

ولنا عودة إلى شمال إفريقيا في عهد عثمان ومن تلاه من أمراء المؤمنين حيث امتدت الفتوحات إلى بحر الظلمات (المحيط الأطلانطي) ثم عبرت خليج الزقاق (بوغاز جبل طارق) فتأسست في أسبانيا دولة إسلامية . على أننا لا نحب أن نغادر هذا المكان من مفاخر العرب ، بدون أن نسجل وصف عمرو لمصر الذي بعث به لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فقد طلب عمر هذا الوصف - فيما روى - فأجابه عمرو بالكتاب الآتي :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل أغبر ورمل اعفر يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات تجري فيه الزيادة والفيضان كجرى الشمس والقمر له أوان يدر حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمدد عيون الأرض ومنابعها حتى إذا اضلختم عجابه وتعظمت أمواجه فاض على جانبيه حتى لا يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض لافي صفار المراكب وخفاف القوارب وزوارق كأنهن في الخايل ورق الأصائل . فإذا تكامل في زيادة نكص على عقبيه كأول ما بدا في جريته وطما في درته . فعند ذلك تخرج أهل ملة محفورة وذمة مخفورة يحرثون بطن الأرض ويبذرون بها الحب يرجون بذلك النماء من الرب . لغيرهم ما سعوا من كدم . فسأله منهم بغير جذم ، فإذا أهدق الزرع وأشرق سقاه الندى وغذاه من تحت الثرى فيبدا مصر

يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء إذا هي عنبرة سوداء فإذا هي زمردة خضراء . فإذا هي ديباجة رقشاء فتبورك الله الخالق لما يشاء لأن الذي يصلح هذه البلاد وينمبها ويقر قاطنيتها فيها ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها وإلا يستادى خراج ثمرة إلا في أوانها وأن يصرف ثلث أرزاقها في عمل جسورها وترعها فإذا تقرر الحال مع المال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق في المبدأ والمآل^(١) .

ومن مآثر عمرو رضى الله عنه إبطاله عادة إغراق فتاة النيل التي اعتاد المصريون أن يقدموها إليه كل موسم ولكن حينما كان الفتح الإسلامي وجد هذه العادة فأبطلها وأزالها ، وإن كان الدكتور بتلر ينكر وجودها وقت الفتح العربي لمصر وهو قول يعززه حسن الظن أكثر من أى شيء آخر في رأينا^(٢) .

(١) أنظر فتح العرب لمصر . (٢) نفس المصدر السابق

الفصل الثاني من

طراز جديد من الحكم

يعجب الباحثون ، أشد العجب ، إذ يدرسون سيرة عمر في التنظيم والإدارة ، وفي السياسة وأصول الحكم ويبدى كثير من المستشرقين دهشته وحيرته من سلوك ذلك الرجل العربي الذي لم يدرس فلسفة الحكم العالى ، ولم يتخرج من جامعة كتلك الجامعات التى تباهى بمجدها وعديد أقسامها ، ثم يلوذ البعض من هؤلاء ، بأن أمثال هذا الحاكم الموهوب ، قد سفل لقريش فى الجاهلية وعرف الحضارات العالمية ، واذن فلا بد أنه قد قبس منها أو أخذ عنها ، ولعل ذلك يفسر لهم أحد الجوانب فى شخصية ابن الخطاب ، وربما دللوا على ذلك بما ثبت من تنظيمه للديوان على نسق ما كان سائداً لدى الفرس والروم ، كما أنه ورث ضمن ماورث ، ذلك التراث الهائل من أساليب المدنية والحضارة التى خلفها أباطرة الأمس ، بعد ضم أملاكهم ودور ثقافتهم إلى الدولة الإسلامية . يقول در منجم « خرج العرب ففتحوا الأقطار ، واختلطوا بالشعوب ولم يكن يخلو عملهم من شدة ، ولكنهم كانوا على جانب عظيم من الحكمة ، وكان فيهم استعداد ليرثوا ممالك الفرس والروم المحتضرة ، ولم يكونوا كالونداى والجرمان فى الميل إلى العبث والتدمير ، فتناولوا مصايح العلم من أيدي الروم والفرس ، وساروا بها فى فتوحهم فكان الإسلام فى إحدى يديهم ، والمدنية اليونانية والفارسية فى الأخرى ، وكانت الخلافتان الأموية والعباسية من أعجى أدوار التاريخ ^(١) » . يقول السيد شبيب

(١) انظر كتاب « حاضر العالم الإسلامى » لسترلوتروب وتعليق شبيب

أرسلان رداً على مثل هذه المزاعم: ولما كان أعداء الإسلام يريدون أن ينتقموا
بأى شكل من الأشكال ، فقد حاولوا إنكار أن يكون له مدينة خاصة به ،
وزعموا أنه مازاد على أن نقل ونسخ ، وما أشبه ذلك من الأقاويل ... فقصارى
هذه الفئة أن يجحدوا أن المسلمين ، قد ابتكروا علوماً ، وسبقوا إلى نظريات
صارت خاصة بهم وغايتهم أن يقولوا إن المسلمين لم يزيدوا على أن نقلوا وأذاعوا .
ولعل أعجب ما قرأت لأحد المستشرقين ، ماسطره كارل بروكلمان
في تاريخ الشعوب ، إذ يتهم الإسلام بأنه نسخة من الملل التي كانت سائدة في
عصر تشريعه ، كما اتهم المسلمين بأنهم تأثروا في فرائض الدين الأساسية
بالزرادشتية واليهودية : يقول في ذلك « لقد اقتبس النبي عن التوراة فكرة
الخطيئة الأصلية . ابتغاء تحذير الجنس البشرى من الخطيئة^(١) » ويقول أيضاً :
« وبينما كان محمد وأصحابه يصلون مرتين في اليوم في مكة ، وثلاث مرات في
المدينة كاليهود فقد جعلت الطقوس المتأخرة المتأثرة بالفرس ، عدد الصلوات
المقروضة في اليوم الواحد ، خمساً » .

وهكذا نجد أصحابنا هؤلاء ، يخطئون خبط عشواء ، وهم لا يفقهون أبجديات
التاريخ الإسلامى ، ولا تشريعات هذا الدين ، مما يجعلنا نكتفى بأن تقول لهم :
يجب أن تدرسوا الإسلام من مصادره الأصلية وهى كتاب الله وسنة رسوله ، ثم
تاريخ التشريع وحكمته ، ثم بعد ذلك عليكم أن تتجردوا من العصبية والحق ، ونحن
نؤكد لكم بعد هذا ، أنكم سوف تؤمنون بالحقيقة التى لا ريب فيها .. إذا كان
عمر ، قد أوتى قدراً كبيراً من الحكمة وحسن السياسة ، فإن مرد هذا ليس إلى
حضارات العالم القديم بوجه عام ، لأن نقل هذه الحضارات ونظرياتها التى قامت

(١) نفس المصدر السابق .

عليها لم يكن قد بدىء في التفكير فيه في عصر الراشدين ، وصدر الدولة الأموية على الأقل وان عصر الترجمة والتعريب لأدب الفرس واليونان والهند وغيرها ، إنما حدث في أواخر العصر العباسي الأول أو القرن الثاني الهجري ، فأنى لمثل عمر وأصحابه أن يقلدوا حضارات وأنظمة لا يعرفون من أمرها شيئا .

إن حركة الفتوح الإسلامية التي بدأت في عهد أبي بكر ، استمرت إلى أواخر العصر الأموي وكانت الدولة الإسلامية كلها في حالة تعبئة عامة ضد الظالمين والطفاة ، ولم يفرغ أحد من المسئولين في الدولة ، ليولى اهتماما خاصا لدراسة الحضارات القديمة أو حتى مجرد نسخها وتعريبها ، وكل ما حدث في عهد عبد الملك لم يتعد الرسائل والعملة النقدية وتعريب الدواوين . .

وهذه حقيقة لا جدال فيها بين المفكرين في الشرق والغرب ، ولا يمارى فيها أحد وأما تدوين الدواوين في عهد عمر ، فهو وإن كان يشبه بعض الشيء لافتات بعض النظم الإدارية لدى الفرس والروم ، إلا أنه في الجوهر والموضوع ، لا مشابهة له إطلاقا بين دواوين الدولة في أيام عمر ، ودواوين الفرس ، إلا من حيث الشكل المتطور ، السريع التغير . وسنعرض لهذا في فصول الحضارة في هذا الكتاب إن شاء الله .

أما زعم بروكلمان ، اقتباس هيئة الصلاة التي استقر عليها الوضع أخيرا وهي خمس صلوات في اليوم والليلة ، من دين زرادشت ، فهو زعم لا أساس له من الصحة ، والحقيقة تكذبه ، لأن الصلوات الخمس فرضت في مكة لا في المدينة كما يدعى ، ولعل قصة الإسراء والمعراج التي حدثت في مكة شيء مشهور ، ومذكور في كل الأسفار التاريخية ، ومدونات السير والمغازي ، وصحاح الحديث ، ومفروض في باحث واسع الاطلاع كصاحبنا هذا أن يشير إلى هذه الحقيقة الثابتة في جميع

الكتب العريقة ، فليس من المعقول أن يؤلف مثل هذا المستشرق موسوعة في تاريخ الإسلام وتعاليمه ، وتاريخ الأمة العربية وآدابها ثم هو لم يقرأ — فيما يبدو — حرفاً من هذه التعاليم ، وتاريخ تشريعها ، فضلاً عن تاريخ الإسلام والعرب بوجه عام .

على أن القرآن الكريم — وهو مصدر الإسلام الأول — قد ندد بجميع الملل والنحل التي سبقتة وعاصرتة بسبب التشويه والخلط ، والتفسيرات الجاهلية التي حشيت بها تلك النصوص النادرة التي وصل إلى القرن السادس بعضها ، وليس من المعقول ، أن يعيبها ويسفها ثم يأخذ عنها ، ويقتبس منها ، فذلك غير مستساغ في منطق للبشر . بله شرائع الله رب العالمين .

وإذن فإن عمر ، قد تخرج فعلاً من جامعة الإسلام ، وتفق في آدابه وتشريعها ثم برزت آثار هذه الدراسة الواسعة في ذلك السلوك العبقري في حكم الدولة وسياسة الأمة .

أما مقومات الرسالة التي آمن بها وطبقها ، فقد كانت استقلالية ومتحررة وإيجابية ، ثم هي عامة ومرنة وخالدة ، وليست مقتبسة ولا مستوردة ، لأن الرجل الذي أملى أصولها ومقوماتها الذاتية ، كان أمياً تماماً ، ولم يقل أحد ممن عاصره ، أو جاء من بعده . من أشد الناس عداوة له ولرسالته ، إن محمداً درس في أديرة الرهبان ، أو التحق بمدارس إسرائيل ؛ أو صحب الكهان والعرافين وكل ما اتهم به من الوثنيين أو بالأصح من أفراد منهم ؛ هو ما حدث به القرآن الكريم إذ يقول « يقولون إنما يعلمه بشر » ثم سفه هذه الفرية المفضوحة بقوله تعالى « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا (القرآن الكريم) لسان عربي مبين » .

ومهما يكن من شيء ، فإن العظمة الخارقة التي امتاز بها عمر بن الخطاب ، وما تم في عهده من فتوح كبرى ، كانت السبب المباشر في تحبط الموتورين ، والمتربصين ؛ والذين أذهب الإسلام امتيازاتهم ، وقضى عمر على نفوذهم وتسلطهم .

ونضرب صفحا عن هذه المقتريات التي يطول سردها بدون فائدة في هذا البحث لنصل الحديث عن أبي حفص عمر رضى الله عنه ..

يقول المؤرخون: إن عمر مكث زمانا في الخلافة ، لا يأكل من المال العام شيئا حتى دخلت عليه في ذلك خصاصة ، وأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فاستشارهم . فقال : قد شغلت نفسي في هذا الأمر ، فما يصلح لى منه ، فقال عثمان بن عفان : كل واطعم . وقال مثل ذلك ، سعيد بن زيد . فقال عمر لعلى : فما تقول أنت . في ذلك . قال : غداء وعشاء ، فأخذ عمر بذلك وكان عمر يقوت نفسه وأهله ويكتسى . الحلة في الصيف ، وربما خرق الأزار حتى يرفعه فما يبدل مكانه حتى يأتى الإبان . (الوقت الذى سبق أن اشترى فيه حلته) ، وما من عام يكث فيه المال ، إلا كانت كسوته فيه أدنى منها في العام الذى قبله ، فكلمته في ذلك حفصة ابنته فقال : إنما اكتسى من مال المسلمين ، وكان عمر يستنفق كل يومه وليله درهمين فقط . ولما حج أحصى ابنه عبد الله ما أنفقه فوجده ستة عشر درهما ، ولما سمع بهذا المبلغ قال لابنه : يا عبد الله بن عمر . لقد أسرفنا في هذا المال .

يقول المسعودى : بويح لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فلما أن دخلت سنة ثلاث وعشرين خرج فأقام الحج في تلك السنة ثم أقبل حتى دخل المدينة ، فقتله فيروز أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين فكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وأربع ليال ، وقتل في صلاة الصبح وهو ابن ثلاث وستين سنة ودفن مع النبي ﷺ وأبى بكر عند رجل . النبي ﷺ وقيل ان قبورهم مسطرة . أبو بكر إلى جنب النبي ﷺ وعمر إلى جنب أبى بكر . وحج في خلافته تسع حجج ، وبعد أن قتل صلى بالناس عبد الرحمن بن عوف ، وجعل الأمر شورى إلى ستة وهم على عثمان وطلحة والزبير ، وسعد . وعبد الرحمن بن عوف وصلى عليه صهيب الرومى ، فكانت وفاته بعد ثلاثة أيام من الاعتداء .

وهو أول من سمي بأمير المؤمنين ، سماه عدي بن حاتم وقيل غيره وأول من سلم بها المغيرة بن شعبه ، وأول من دعاه بهذا الاسم على المنبر ، أبو موسى الأشعري .. وكان متواضعاً ، خشن اللبس شديداً في ذات الله ، واتبعه عماله في سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه ، كلهم يتشبه به من غاب أو حضر . وكان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم ويشتمل بالعباءة ، ويحمل القربة على كتفه مع هبة . قدر رزقها ، وكان أكثر ركوبه على الإبل ، ورحله مشدودة بالليف ، وكذلك عماله مع ما فتح الله عليه من البلاد ، وأوسعهم من الأموال ^(١) .

وكان من عماله سعد بن عامر بن حذيم ^(٢) واليا على حمص بالشام فتقدم أهلها بشكوى ضده ، وطلبوا عزله عنهم فسكت عمر مليا ، ثم قال : اللهم لا تخيب فراستي فيهم . ثم أتجه إليهم وقال : ما الذي تشكونه من أميركم ، قالوا : لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار ، ولا يجيب أحداً بليل ، وله يوم في الشهر لا يخرج إلينا . فقال عمر : على به . فلما جمع بينهم وبينه . قال : ما تنقمون منه . قالوا : لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار . فقال : ما تقول يا سعد قال : يا أمير المؤمنين إنه ليس لأهلي خادم ، فأعجن عجيني ، ثم أجلس حتى يخنثر ، ثم أخبز خبزى ، ثم أتوضأ وأخرج إليهم . قال : وماذا تنقمون منه . قالوا : لا يجيب بليل . قال سعد : قد كنت أكره أن أذكر هذا . إني جعلت الليل كله لربي وجعلت النهار لهم . قال : وماذا تنقمون منه قالوا : له يوم في الشهر لا يخرج إلينا . قال نعم . ليس لي خادم ، فأغسل ثوبى ، ثم أجفقه فامسى فقال عمر : الحمد لله الذى لم يُقل فراستى فيكم . يا أهل حمص استوصوا بواليكم خيراً .

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٤١٦ .

(٢) ضبطه المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار « حذيم » بالفتح (الخلفاء ص ٢٣١)

وما هنا من المسعودى في مروج الذهب .

ثم بعث إليه عمر بألف دينار ، وقال استغن بها . فقلت له امرأته ، قد أغنانا الله عن خدمتك . فقال لها : ألا ندفعها إليهم يأتينا وأحوج ما كنا إليه . قالت : بلى ، فصرها صررا ثم دفعها إلى من يشق به وقال انطلق بهذه إلى فلان ، وبهذه إلى يтим بنى فلان ، ومسكين آل فلان ، حتى يبق منها شيء . يسير فدفعه إلى امرأته وقال : انفق هذه ثم عاد إلى خدمته ..

فقلت له امرأته : ألا تبعث بذلك المال فتشترى لنا منه خادما . فقال سيأتيك أحوج ما تكونين إليه .

هذا طراز من عمال عمر ، وموظفيه الكبار إياه محافظ حصص التي كانت من كبرى مدن الشام وأجناد سوريا ، ومع هذا فقد كان يستطيع أن ينلم على الوثير ، ويلبس الحرير ، ويتخذ من منصبه سبيلا إلى الراحة والإتراء ، ويحيط نفسه بالانتهازين وأصحاب المنافع ليستظهر بهم ، ويتزردعائتهم .. ولكن دينه وبقينه بالمستولية الكبرى بين يدي الله لا عمر فحسب ، حالت دون ذلك ، بل لقد حرمته حتى من أبسط ضروريات المتع المباحة لأنه قبل كل شيء .. يخاف الله وفضيحة اليوم الآخر ، إن هو تمكن من الإفلات من فضيحة الحياة الدنيا ، ثم أخيرا رقابة عمر ، التي كانت لا تنام ، ولا تأخذها في العدل المطلق ، لومة لائم ، أو شفاعة شفيع .

سلمان الفارسي :

كانت المدائن عاصمة الامبراطورية الفارسية العظمى ، فلما سقطت الأكسرة ، ولى عمر عليها سلمان الفارسي — وهو رجل من فارس ، كان إبان الامبراطورية قد فر من نير المجوسية والأكسرة ، وراح يبحث عن دين تطمئن إليه نفسه ، ويستروح به قلبه ولقى في سبيل ذلك الأمرين ، حتى إذا كان بالمدينة المنورة التي استقر بها أخيرا كرقيق لأحد اليهود ، وعلم بأن النبي ﷺ قد هاجر من مكة إليها ،

لقى رسول الله ﷺ وآمن به ، واتبعه وظل على العهد حتى قبض الرسول وخلفه أبو بكر ثم خلف أبا بكر عمر ، وكان مثال المؤمن الورع ، جاهد في الله جق جهاده ، وحبس نفسه لسدانة الخنيفة السمحة ، ثم فتحت فارس ، وضمت إلى الدولة الإسلامية ، فكان من المنطق الرشيد أن يتولى أمر العاصمة الامبراطورية رجل من ذوى الكفاية والعلم ، والمعرفة بتقاليد الفرس وعاداتهم . فكان سلمان رضى الله عنه خير رجل يحمل هذا العبء ، إذ هو مواطن أصيل في بلاد الفرس ، وله خبرة تامة بكل أحوالهم .

ثم هو في نفس الوقت يمثل الانسان ذا الضمير اليقظ ، والقلب المؤمن ، الذى عرف الله وآمن بالحق بعدمشاق عنيفة لا يصبر عليها ، إلا من فرغوا أنفسهم لله والدار الآخرة كما يتضح من قصة بحثه عن الدين الحق قبل الاسلام ، ومن ثم فقد وفق عمر في اختياره نائباً عنه في إدارة « المدائن » ولعل ذلك كان شبه إعلان لوجوه الامبراطورية المتهارة ، بأن الوضع الجديد الذى جاء به الاسلام ، قد هدم الطبقة والفروق ، وجعل الناس سواسية كأسنان المشط ، وأن العربى كالمولى في الحقوق والواجبات ، وسائر الأعمال والمقررات ^(١) بل إن أبناء القرى ، وسلالات

(١) لجهل الكثيرين بشخصية سلمان الفارسى ، رأينا أن نثبت هنا ما ذكره ابن اسحاق وغيره من خبره منذ كان مواطناً فارسياً . إلى أن أصبح بطلاً اسلامياً ، وقد قص لنا أصحاب السير حديث سلمان على لسانه ، فيما حكموا . قال سلمان : كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان وكان أبى دهقان قريته (شيخ القرية) وكنت أحب خلق الله إليه لم يزل به حبه اياى حتى حبسنى في بيته ، كما تحبس الجارية ، واجتهدت في المجوسية حتى كنت خادم النار ، الذى يوقدها . . قال : وكانت لأبى ضيعة عظيمة فشغلنى ببنائها يوماً ، فقال لى : يا بنى انى شغلت فى بدياننى هذا اليوم عن ضيعتى ، فاذهب إليها ، وأمرنى ببعض ما يريد ، ثم قال لى : ولا تحبس عني ، فانك ان احتبست عني كنت أهم إلى من ضيعتى وشغلتنى عن كل شيء من أمرى . . قال : فخرجت أريد الضيعة التى بعثنى إليها ففررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها =

وهم يصلون . وكنت لا أدري ما أمر الناس ، لحبس أبي إياي في بيته ، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون . فلما رأيتهم اعجبتي صلاتهم . وورغت في أمرهم وقلت : هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه ، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس ، وتركيت ضيعة أبي قلم آتيا . ثم قلت لهم . أين أصل هذا الدين . قالوا بالشام . فرحمت إلى أبي ، وقد بعث في طلي ، وشغلته عن عمله كله ، فلما جئت قال أي بني أين كنت ، أو لم أكن عهدت إليك ماعهدت . . قال سلمان . قلت له : يا أبت . مررت باناس يصلون في كنيسة لهم ، فاعجبت ما رأيت في دينهم ، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس . قال أي بني . أنه ليس في هذا الدين من خير . . دينك ودين آبائك خير منه . فقلت له . أنه خير من ديننا . فخافني . فجعل في رجلي قيدا ثم حبسني في بيته . . قال وبعثت إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام فاخبروني بهم . فقدم عليهم ركب من الشام تجار ، فاخبروه . فقال لهم : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم . فاذنوني بهم . فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم . أخبروه بهم قال : فالتقيت الحديد من رجلي . ثم خرجت معهم حتى أتيت الشام ، فلما قددتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين علماً . قالوا الأسقف في الكنيسة . فبعثته . فقلت له : اني قد رغبت في هذا الدين ، وأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك ، فأتعلم منك وأصلي معك . قال : أدخل فدخلت معه وكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها . فإذا جمعوا إليه شيئاً منها اكتنزها لنفسه ولم يعطه للمساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب ، فأبغضته بغضاً شديداً ، لما رأيته يصنع . ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه . فقلت : ان هذا كان رجلاً سوء ، يأمركم بالصدقة ، ويرغبكم فيها ، فإذا جثثوه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط للمساكين منها شيئاً ، فقالوا لي : وما علمك بذلك . قلت لهم . أنا أدلكم على كنزهِ . قالوا فدلنا عليه ، فأریتهم موضعه . ولما رأوه قالوا : والله لا ندفنه أبداً . فصلبوه ورجموه بالحجارة ، وجاءوا برجل آخر فجعلوا مكانه . قال سلمان : فما رأيت رجلاً كان أفضل منه وأزهد في الدنيا ، ولا أرغب في الآخرة ، ولا أداب ليلاً ونهاراً منه فأحبته جبالاً لم أحب شيئاً من قبله . ثم حضرته الوفاة . فقلت له : يا فلان : اني قد كنت معك : وأحبك حباً لم أحبه شيئاً من قبلك ، وقد حضرتك ما ترى من أمر الله تعالى : فإني من توصي بي ، وبم تأمرني .

قال : أي بني : والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه ، فقد هلك

الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه . إلا رجلاً بالموصل ، وهو فلان وهو على ما كنت عليه ، فالحق به . قال : فلما مات وغيب ، لحقت بصاحب الموصل ، فقلت له يا فلان إن فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك ، وأخبرني أنك على أمره : فقال لي . أقم عندي . فأقمت عنده فوجدته خير رجلاً على أمر صاحبه . فلم يلبث أن مات ، وأوصاني أن ألحق برجل في نصيبين وسماه فلحقت به وأخبرته خبري ، فقال : أقم عندي فأقمت عنده ، فوجدته على أمر صاحبه ثم مالبت أن حضرت الوفاة ، فطلبت منه أن يشير على رجل على أمرهم ، فقال : لا يوجد إلا رجل بعمورية من أرض الروم . فلحقت بصاحب عمورية فوجدته على هدى أصحابه وأمرهم . ثم أخذت أعمل حتى أصبح لدى بقر وغنم . ثم حضرت الرجل الوفاة فطلبت منه أن يدلني على آخر على هديه . فقال : لا يوجد الآن على وجه الأرض من هو على أمرنا ولكن قد أظن زمان نبي يبعث بدين إبراهيم عليه السلام ، يخرج بأرض العرب ، مهاجرة إلى أرض بين حرتين ، بينهما نخل . به علامات لا تخفى . يا كل الهدية ولا يا كل الصدقة ، وبين كتفيه خانم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل ، ثم مات وغيب ؛ ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث ؛ ثم مر بي نفر من تجار قبيلة كلب ، فقلت لهم : أحمِلُونِي إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي وغنيمي هذه . قالوا : نعم . فأعطيتهم أياها وحملوني معهم حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني ، فباعوني من رجل يهودي عبداً فسكنت عنده ورأيت النخل ، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي فبينما أنا عنده ، إذ قدم ابن عم له من بني قريظة من المدينة فابتاعني منه ، فاحتملني إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي ، فأقمت بها ، وبعث رسول الله ﷺ فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق ، ثم هاجر إلى المدينة ، فوالله أني لفي رأس عذق لسيدى أعمل له فيه بعض العمل . وهو جالس ، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه ، فقال : يا فلان . قاتل الله بني قيلة ، والله أنهم الآن لمجتمعون بقاء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي . فلما سمعتها أخذتني رهدة ، حتى ظننت أني ساقط على سيدى ، فزلت عن النخلة ، فجعلت أقول لابن عمه : ماذا تقول . فغضب سيدى ، فلكمني لكمة شديدة ، فقلت : =

الدهاقين (مشايخ القرى) ليسوا أدنى منزلة ومكانة من أبناء كسرى، وسلالات أنوشروان^(١) في وزن الأعمال، والكفاية، وإن الإنسان لن يعرف إلا بعمله وكفايته ومواهبه، أما النسب والحسب، والمال والطين، وما إلى ذلك مما رفع أقواماً وخفض آخرين، فقد محاهها الإسلام من سجل البشرية، وأقام على أنقاضها

== لا شيء. = لما أردت أن أستبيته عما قال. وقد كان عندي شيء قد جمته فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله (س) وهو بقاء، فدخلت عليه فقلت له: لانه قد بلغني أنك رجل صالح وملك أصحاب لك غريباء ذوو حاجة، وهذا شيء قد كان عندي للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم وقدمته إليه، فقال رسول الله (س): كلوا وأمسك يده فلم يأكل. فقلت في نفسي: هذه واحدة ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً ثم جئته به فقلت له: إنني قد رأيتك لاتأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها فاكل — من — منها وأكل أصحابه. فقلت في نفسي: هاتان اثنتان... ثم جئت رسول الله (س) وهو في بقيع الفرقد، ينبع جنازة رجل من أصحابه، فسلمت عليه واستدريت أنظر إلى ظهره لأرى الخاتم، فرأيت به بعد أن خلم (س) ردائه فأقبلت عليه أفبله وأبكي ثم قصصت خبري، فمجب النبي (س) وأحب أن يسمع ذلك أصحابه. ثم شغل سلمان بالرق حتى فاته بدر واحد، ثم قال لي رسول الله (س) كاتب فكاتبت على ثلثائة نخلة أحبيها له، وأربعين أوقية. فقال (س): أعينوا أخاكم، فأعانوني بالنخل حتى اجتمعت في ثلثائة، فأحييت النخل وبني على المال، فأتى رسول الله (س) بمثل بضعة الدجاجة من بعض المعادن، فقال: ما فعل الفارسي المسكاتب، فدعيت له. فقال: خذ هذه فأدما بما عليك يا سلمان. قلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما على، فقال (س): خذها فإن الله سيؤدي بها عنك، فأخذتها فوزنت له منها أربعين أوقية فأوفيته حقه منها، فشهدت مع رسول الله (س) الحندي حراً، ثم لم يفتني معه مشهد...

هذه قصة الرجل الذي تولى أخيراً حكم عاصمة الإمبراطورية الفارسية بعد فتحها في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ومما يلاحظ أن الرسول — من — لم يصرح لسلمان بالتخلل من الرق — رغم أنه تم بطريق غير معرّوج — إلا بعد أن سلك السبيل المتبع حسب التقاليد المربعة — إذ ذاك — وهذا منتهى الدقة في الحفاظ على النظام القائم مهما كان فيه من ثغرات، حتى يستبدل بنظام آخر، لأن ذلك أدعى لاستتباب الأمن، والاطمئنان مهما نجم عن ذلك من تضحيات مادية، لأن الفوضى أو الخروج على النظم والقوانين، أخطر وأعظم ضرراً من تصحيح الأوضاع بدون الطريق القانوني. فالقوانين لا تغير إلا بقوانين مهما كانت وضعيتها.

وفي قصة سلمان لفتات كثيرة، ومواعظ لا تحصى، ليس هنا موضع بسطها وتفصيلها.

(١) معنى أنوشروان «الروح الخالدة» وسبب تليق كسرى الأول بهذا يرجع إلى وقت انتشار المزدكية التي كادت تقضى على نفوذ رجال الدين الزرادشتي، وامتيازات النبلاء وأشرف فارس، وقد أبدى قباز الأول الإصلاح الاشتراكي الذي وضعه «مزدك» ويتلخص =

وبديلا عنها إيمانا قويا ؛ وعملا متواصلا ، لإسعاد الناس والنهوض بالمجتمع .
وبذلك كان عمر عظيما في نفسه ، وفي سلوكه وفي سجلات الخلود .

على أن في تولية سلمان الفارسي ، رمزا بعيد المدى في حياة الشعب الفارسي .
الحديث العهد بالديمقراطية والعدالة الاجتماعية ، ونبذ الفوارق بين الطبقات ، لأن .

== في تطبيق المساواة في خيرات الامبراطورية ، بحيث لا يتميز أحد عن أحد في كل ضروريات الحياة ، وكان هذا بطبيعة الحال من أهم العوامل في غضب الأشراف وكهنة الزرادشتية ، الذين ألغيت مخصصاتهم الشرفية والكهنوتية فتاروا وزجروا ، ثم تمكنوا من خلع قباذ وتولية كسرى الأول ، الذي أعاد إليهم امتيازاتهم ومخصصاتهم ، فلقبوه عندئذ « أنوشروان » أي الروح الخالدة كما أسلفنا .

أقد كانت الديانة الزرادشتية قد شرعت التمهيد المنصري ، إذ أوصت بالزواج من الأقارب دون غيرهم ... أما الشعب الفارسي القديم فلم يقيم على أساس منصري أو طبقي ، ولكنه كان مدججا ومتناسكا ، ولكل فرد فيه حقوق وواجبات متعادلة مع سائر المواطنين في الدولة ، وقد استمر هذا الوضع حتى كانت الزرادشتية واشتد نفوذ كهنتها في عهد سابور (٢٤١ — ٢٧٢) حيث ظهر المصلح « ماني » فأحس رجال الدين الزرادشتي أن نفوذهم قد خف وتدهور أو كاد ولكتهم تربصوا به حتى انتهى عصر سابور ، وجاء بهرام الأول ، فقبض على ماني ووضع في غياهب السجون حيث قضى بقية أيامه ، ثم أخذ يستقصي عن أتباعه حتى شردهم وبدد شملهم .

ومع هذا . فإن المانوية ، قد تسربت إلى آسيا الوسطى حيث آمن بها الترك واءتروا بها ، بل لقد وصلت إلى الهند ونافست البوذية ، كما ظلت المانوية موضع تقدير أهل بابل وما حاورها ، ولها أتباع ونصره .

ولكن كهنة زرادشت الذين تمتعوا بامتيازاتهم بعد ماني ، مدة تقرب من مائتي عام ، فوجئوا مرة أخرى برجل آخر أشد خطراً على نفوذهم من ماني ... وذلك هو « مزدك » الذي أكد وجوب القضاء على جذور الجريمة في المجتمع البشري ، ولا سيما تلك المخصصات الهائلة التي يرتم في نعيمها وترفها النبلاء ورجال الدين ، الذين لا يؤدون للدولة ولا للإنسانية عملاً ، بل هم على العكس من ذلك ، يشعلون الجدل والفسطة وبقيمون الدنيا ويقعدونها من أجل خرقة بالية يعتبرونها أثراً مقدساً يجب أن يقدم لها الناس كل شيء ، ولو نجح عن ذلك أن يموتوا جوعاً أو عرياً أو جهداً ونصباً ، طالما يستمتع السادة الأشراف ، وأئمة الهدى الزرادشتي والباطرة المقدسون ؛ من حاة هذه الشيطانيات التي يزعمونها زرادشتية يكهنون بها في الأرض ؛ ويسلبون بها الأموال والنفوذ .

وإذن فالمثل الأخير ، هو أن تلقى الامتيازات والفروق ، ويتساوى الناس في كل شيء ؛ حتى في « الابضاع » فليس أحد أولى من الزواج من أي فتاة ؛ من الآخر ؛ فلا فضل لأحد ==

سلمان الفارسي ، فوق أنه من أبناء الدهاقين ، يعتبر ممن درسوا - عن كذب - جميع الشرائع السائدة في عصره قبل الإسلام ، ثم راقب تطور الدعوة الإسلامية

على آخر ، لأن النار من آدم وآدم من تراب ؛ ولم يدع إلى الإباحية الحيوانية وإنما إلى الزواج المنظم . . هذا في الحقيقة ؛ هو جوهر وروح « المزدكية » ولكن هل هذا يرضى رجال الدين ؛ وكهنة زرادشت ؛ والباطرة للسلطين . . لقد قامت قيامة هذه الفئة المدعوة « رجال الدين » وأخذت تشتم على المصلح « مزدك » كما شتمت على « ماني » من قبل ، واتهمته بالخروج على تعاليم الدين الزرادشتي ، بل لقد زعمت أنه يدعو إلى الإباحية في الأعراس ؟ ؟ ولكن القدر أراد أن يلقنهم درساً آخر ؛ لذك أكثر أتباع مزدك ؛ وآمن بدعوته جمهور الشعب الفارسي . فاضطر الملك قباد الأول إلى اعتناق مذهب « المزدكية » في سنة ٤٨٨ م ، وأعلن حمايته ورعايته لهذا المصلح وجميع أتباعه ؛ وتبنى برنامجه في الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي ؛ وبذلك سقط و أبقى رجال الدين والنبلاء والأشراف ، وحواشي الامبراطورية الفارسية .

ولكن أباء الأمامي ؛ كما وصف المسيح ؛ إخواناً لهم بذلك ، لم يلقوا سلاح الناصر . فأخذوا يدبرون لجولة أخرى ، كمتلك التي فعلوها مع ماني ، فأحاطوا بأحد الأمراء وشجذوه للقضاء على قباد حامي المزدكية ، فتمكن بمعاونتهم من خلع قباد وتولي الملك بدله ، وهنا هلك الكهنة ؛ والافطاعيون ، وأطلقوا على كسرى الأول « أنوشروان » كما سبق .

على أن القدر لم يهمل هذه الأفاعيل ، فقد ولد في هذا الوقت ذلك الإنسان الكامل الذي بدل الأوضاع كلها ، وفضى بعد حوالي نصف قرن وبضع وعشرين عاماً على الامبراطورية الفارسية ، والكهنة الزرادشتية ، على يد أصحابه وأتباعه من العرب المؤمنين بشريعة الكفاية والعدل ، التي نزل بها كتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ من لدن حديم عليم .

وذلكم هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد : فهل كانت الحركات المانوية والمزدكية مثل الشرائع الأخرى سماوية وأرضية ، مقدمات ضرورية لحتمية الحل الأخير لمشكلات البشرية بوضع الشريعة الإسلامية ، التي أحاطت بكل شيء ، ووضعت العلاج الجاع لجميع المتناقضات والرواسب ، والانتكاسات في بني كل جيل وأمة . . إن الدراسة المتحررة لمقومات هذه الشريعة ، يفرض على طالب الحق التحقق ؛ أن يقول ويؤكد - في يقين واطمئنان - اللهم نعم .

نفسها قبل أن يعلن إيمانه بشريعتها ، ودرس شخصية النبي ﷺ بنفسه ، ولم
يسلم إلا عن اقتناع وعلم ، وبعد فحص وبحث وإذن فعلى أبناء الشعب الفارسي ،
أن يقتدوا بالمواطن سلمان ، الذي قضى زهرة شبابه وكهولته ، ضارباً في أنحاء
الأرض ، يبحث عن الحق ، ثم انتهى به المطاف إلى الإيمان بشريعة العدل التي
لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وتتسق وهوائف الفطرة ، واحتياجات
الجماعة ، وتتمتع بالوضوح ، واليسر . فلا عذر لمن لا يؤمن بها إلا أن يكون
جاهلاً بمباهجها ومثل هذا ينبغي أن يدرس كما فعل سلمان .

ومهما يكن من شيء ، فقد كان هذا الفارسي ابن شيخ القرية مثلاً صالحاً
لأبناء الفرس ، جعلهم يقبلون على اعتناق الإسلام ، وينشرون حضارته وثقافته ..
يقول السعودي : وحينما كان سلمان واليا على المدائن ، كان يلبس الصوف .
ويركب الحمار بيردعته بغير إكاف ، ويأكل خبز الشعير ، وكان ناسكاً زاهداً ...
وطبعاً لم تكن المدائن فقيرة . ولكن سلمان كان يضرب المثل للولاة .

ومن عمال عمر ، أبو عبيدة بن الجراح ، وكان يظهر للناس وعليه الصوف العادي .
فعوتب على ذلك ، وقيل له : إنك بالشام ، وأمير المؤمنين ، وحولنا الأعداء
فغير من زيك ، واصلح من شارتك ، فقال : ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه .
في عصر رسول الله ﷺ .

ومن السياسة الحكيمة التي سارعا عليها عمر إزاء الموالى الذين لم يسلموا أو أسلموا
حديثاً ، حظر إقامتهم في العاصمة (المدينة) فكتب إليه المغيرة بن شعبه^(١) : إن
عندي غلاماً نقاشاً نجاراً حدادا ، فيه منافع لأهل المدينة فإن رأيت أن تأذن لي في
الإرسال به ففعلت ، فأذن له وقد كان المغيرة جعل عليه كل يوم درهمين ، وكان .

(١) كان في ذلك الوقت والياً على البصرة ، وكانت إقامة المرس بها .

يدعى أبا لؤلؤة ، وكان مجوسيا من أهل نهاوند ، فابث ماشاء الله ، ثم أتى عمر يشكو إليه ثقل خراجه فقال له عمر ، وما تحسن من الأعمال ؟ قال : نقاش نجار حداد.. ولعل هذا هو السبب في انتقال فيروز من مدينة البصرة التي يقيم بها جلة أمراء الفرس السابقين ، إلى المدينة ، مما نجم عنه تفكير كثير منهم في أخذ مثل هذا الإذن للإقامة بالمدينة مثل الهرمزان وجفينة ، كما سنبين ذلك في موضعه .

عمر في مجال الحكم : يعتبر عمر من أفذاذ الحكم وخيرة الراشدين ، واستقراء أسلوب معاملته لعماله وكبار موظفي الدولة ، يرينا صورة الرجل على الطبيعة .

ذكر عبد الله بن عباس ، رضى الله عنه ، أن عمر أرسل إليه فقال : يا ابن عباس . إن عامل حمص هلك ، وكان من أهل الخير . وأهل الخير قليل ، وقد رجوت أن تكون منهم ، وفي نفسى منك شيء ، ولم أره منك وأعيانى ذلك فما رأيك في العمل . قال : لن أعمل لك حتى تخبرنى بالذى في نفسك . قال وما تريد إلى ذلك قال ، أريده . فإن كان شيء أخاف منه على نفسى ، خشيت منه عليها الذى خشيت ، وإن كنت بريئا من مثله ، علمت أنى لست من أهله . فقبلت عملك هنالك . فإنى قلما رأيت أو ظننت شيئا إلا عانيتة فقال . يا ابن عباس . إنى خشيت أن يأتى على الذى هو آت وأنت فى عملك ، فتقول . هلم إلينا ولاهلم إليكم دون غيركم ، إنى رأيت رسول الله ﷺ يستعمل الناس وترككم . قال ابن عباس : والله قد رأيت من ذلك ، فلم تراه فعل ذلك . . قال عمر : والله ما أدرى ، أضن بكم عن العمل ، فأهل ذلك أنتم . أم خشى أن تباعوا بمنزلتكم منه .

ثم قال عمر لابن عباس : فما رأيك . لقد قرعت لك . قال ابن عباس : أرانى لا أعمل لك . قال : ولم . قلت ان عملت لك وفى نفسك ما فيها . لم أبرح قذى فى عينك . قال : فأشر على . قلت إنى أرى أن تستعمل صحيحا منك ، صحيحا لك .

ويذكر المسعودي : أن عمر كان يشاور الهرمزان في فارس واصبهان وأذربيجان ، ثم شاوره مرة في ذلك فقال . أصبهان هي الرأس ، وفارس وأذربيجان الجناحان ، فإن قطعت أحد الجناحين ، نأى الرأس بالجناح الآخر ، وإن قطعت الرأس وقع . فابداً بالرأس فدخل المسجد فإذا هو بالنعمان بن مقرن يصلي . فقعد إلى جنبه ، فلما انتهى من صلاته قال : ما أرانى إلا مستعملك . قال : أما جاييا فلا ولكن غازيا ، قال : فإنك غاز . وكتب إلى أهل الكوفة ان يمدوه وبعث معه الزبير بن العوام ، وعمر بن معديكرب ، وحذيفة وابن عمر ، والأشعث ابن قيس ، مساعدين له في قيادة الجيش وتوجيه الحرب ضد الفرس .

لقد كان عمر شوريا بطبعه ، لا يبرم أمرا إلا بعد استطلاع آراء كل ذى خبرة ورأى .

أسلوب عمر في مؤاخذه العمال :

كان عمر رضى الله عنه — يهيمه رضا الشعب واطمئنانه ، أكثر من حرصه على موالاة العمال وكبار الموظفين . إذ كان الوالى فى نظره فردا من الناس ، فضل له على من يلى أمرهم ، فهو فقط مشرف على تنفيذ قوانين الدولة ، يقضى بين الناس بالحق ، ووظيفته تعتبر نوعا من الخدمات العامة التى يؤديها كل مواطن ، من فلاح الأرض إلى رئيس الدولة .

ولهذا كان يجمع بين الشاكي والمشكو فى حقه ، ويوقف الاثنين أمام ناضى أو أمامه ، مهما كان مركز الخصمين فى الدولة ، لأن المساواة المطلقة فى حقوق والواجبات ، هى الشريعة التى يعرفها ويطبقها بغاية الدقة ، وهكذا كان رسول الله ﷺ وصاحبة الصديق أبو بكر — رضى الله عنه — حتى لقد ثبت أن نبي الله ﷺ كان يقص من نفسه . وكان عمر لا يعدل بسنة رسول الله (ص) شيئا

أما ما قد يظن من حرص أبي بكر على هيبة الموظفين فإن ذلك لا يطفى على الحقوق ! ثم ان أبا بكر لم يبد هذا الحرص إلا إبان الحروب مع اقتناعه بكيدية الشكاوى التى أسندت أمورا غير صحيحة إلى مثل خالد بن الوليد — رضى الله عنه .

ومع هذا فقد أعجبني تحليل لطيف للرحوم عبد الوهاب النجار تثبته للعلم قال :

إن سواس الأمم يختلفون فى شأن مؤاخذه العامل ذى السلطان بما يصدر منه من المفوات ، ومجازاته بما يحترم من السيئات لأن فريقا يرون أن التجاوز عن سيئاته ، وغض الطرف عن زلاته أهيب لمقامه فى نظر الناس ، ومن هذا القبيل سياسة الدولة الانجليزية مع عمالها فى المستعمرات ، لاتكسرهم أمام المحكومين ، ولا تؤاخذهم بما يصدر عنهم من المخالفات لئلا يكون ذلك مصدراً لكثرة الشكاوى الكيدية : . أما فى بلاد الانجليز أنفسهم ، فإن الحاكم إذا تى حدود عمله وسام أحد الرعية باذى . فإن القضاء له بالمرصاد ، والقانون يوفيه جزاءه العادل . وقد كان أبو بكر على هذا الضرب من السياسة مع قواده وعماله فى أيام الردة وقيام الاضطراب فى كل ناحية . وهى حال يغتفر فيها مالا يغتفر فى غيرها .

وكان عمر يخالفه فى هذا النحو من السياسة ، ويشير عليه بالأخذ من كل مخالف^(١) .

(١) الخلفاء الراشدون ص ٢٣٧ .

يقول الطبرى ^(١) : قال عمر : إذا كنت فى منزلة تسغنى وتعجز عن الناس فوالله ما تلك لى بمنزلة ، حتى أكون أسوة الناس .

إن مبدأ المساواة حتى فى الأمور الخاصة ، كان شريعة عمر فهو لا يقبل أن يترفع عن أدنى الناس ، ولو فى المطعم والملبس والسكن ، وذلك سر عظمة هذا الرجل .

كان عمر حريصا على تطبيق العدل بين جميع أفراد الأمة ، وكان يعمل جاهدا فى سبيل الوصول إلى هذا الهدف العظيم .

روى الطبرى عن الحسن قال : قال عمر : لئن عشت إن شاء الله تعالى لأسيرن فى الرعية حولا فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى . أما عمالمهم فلا يرفعونها إلى وأما هم فلا يصلون إلى .. ويقول ابن الأثير ^(٢) : جاء عمر بن الخطاب إلى عبد الرحمن بن عوف وهو يصلى فى بيته ليلا ، فقال له عبد الرحمن ، ما جاء بك فى هذه الساعة . قال : رفقة نزلت فى ناحية السوق ، خشيت عليهم سراق المدينة ، فانطلق فلنحرسهم فأتيا السوق فقعدا على نشز (مرتفع) من الأرض يتحدثان ، فرفع لهما مصباح ، فقال عمر : ألم أنه عن المصاييح بعد النوم ، فانطلقا ، فإذا قوم على شراب لهم ، قال انطلق فقد عرفته ، فلما أصبح أرسل إليه . قال يافلان كنت وأصحابك البارحة على شراب قال : وما أعلمك يا أمير المؤمنين . قال شىء شهدته . قال أولم ينهك الله عن التجسس ، فتجاوز عنه وإنما نهى عمر عن المصاييح خشية أن تقسب فى إشعال الحرائق وكانت السقوف من جريد .

(١) الأمم والملوك ٥٠ ص ٢٣ .

(٢) الكامل فى التاريخ ج ٣ .

مسائل سنها عمر

من المعروف أن عمر أول من دون الدواوين — وهى سجلات تمسك بها الاعطيات (الرواتب السنوية) وأسماء المجاهدين ، والموظفين ، ومقادير ما يصرف لكل مواطن من العمال وغيرهم ، وسنأتى على ذلك فى باب الحضارة إن شاء الله . وعمر أول من كان يتفقد حال الناس بنفسه ليلاً . . حدث بعض خاصته أنه خرج إلى حرة واقم من ضواحي المدينة فإذا نار توقد مشتعلة فأتجه إلى مكانها ، فوجد امرأة معها صبيان لها ، وقدر منصوبة على نار ، وصبيانها يتضاغون ، فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء ، وكره أن يقول : يا أصحاب النار . قالت وعليك السلام قال : أأذنوا . قالت : أذن بخير أودع . فدنا فقال : ما بالكم . قالت قصر بنا الليل والبرد . قال فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون قالت : من الجوع . قال : فأى شئ فى هذه القدر . قالت مالى ما أسكتهم به حتى يناموا ، فانا أعلهم ، وأوهمهم انى اصلح لهم شيئاً حتى يناموا . والله بيننا وبين عمر . قال : أى رحمتك الله . ما يدرى عمر ؟ قالت : يتولى أمرنا ويغفل عنا .

فأقبل عمر على رفيقه وقال : انطلق بنا ، فخرجنا نهروا حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلاً فيه كبة شحم ، فقال : إحمله على ظهري . فقال رفيقه — وهو أسلم — : أنا أحمله عنك — قال ذلك مرتين أو ثلاثاً — فقال عمر : أنت تحمل عني وزري يوم القيامة ، لا أم لك . يقول أسلم : فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه نهروا حتى انتهينا إليها ، فالتقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول ذرى على وأنا أحسن لك ، وجعل ينفخ تحت القدر ، وكان ذا لحية عظيمة ، فجعلت أنظر إلى الدخان من خلال لحيته حتى أنضج لهم الطعام ، ثم أنزل القدر ، فأتته بآنيها فأفرغها فيها ثم قال : أطعميهم وأنا أسطح لك ، فلم يزل حتى شبعوا ،

ثم ترك عندها فضل ذلك وقام وقت معه ، فجعلت المرأة تقول : جزاك الله خيراً أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين . فيقول : قولى خيراً . فإنك إذا جئت أمير المؤمنين ، وجدتنى عنده هناك إن شاء الله ، ثم تنحى ناحية ، ثم استقبلها ورطب ، لا يكلمنى حتى رأى الصبية يضحكون ويصطرون ، ثم ناموا وقد أوا . فقام وهو يحمد الله فقال : يا أسلم . الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحييت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم .

يقول سالم بن عبد الله بن عمر ، حفيده : كان عمر إذا نهى الناس عن شيء جمع أهله فقال : إني نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم . نظر الطير إلى اللحم ، وأقسم بالله لا أجد أحدا فعله ، إلا أضعفت عليه العقوبة .

أمثلة حية للحاكم المؤمن ، الذى أشرب قلبه حقيقة الإيمان باليوم الآخر ، وأنه مسئول عن كل شيء رضى تحمل أمانته ، فلا عذر له طالما هو قد تعرض لهذه المسئولية الخطيرة التى تناط بحقوق العباد ، ومرافق البلاد .

إن عمر قد آمن بأن كل راع مسئول عن رعيته ، وكان يجهد نفسه أشد الاجتهاد ، ليؤدى هذا الواجب على أتم ما يكون ، ومع هذا فقد ظن — رضى الله عنه — أنه قصر ، ولم يستطع تنفيذ كل منهجه فكان آخر عهده بالدنيا يتأوه ، ويقول : ولى . ولى إذا لم يغفر الله لى .

أين حكام العالم اليوم من هذا الإنسان الذى كان يحكم أكثر من عشرة أضعاف ماتحكمه روسيا أو الولايات المتحدة ، أو بريطانيا ، ومع هذا كان يرى أنه مسئول . مسئولية مباشرة عن كل شبر أرض فيه ذوكبد حررى ، أو إنسان ذو عقل ودين ، وإنه لا مفر من سؤاله عن المريض والجائع ، والعارى ، والجاهل ، والمظلوم ، والمسكين وابن السبيل ، وعن كل شيء تصدر لرعاية شئونه ، وإدارة أموره ،

ومن رأى عمران «الأعمال» ليست تجارات ، أو أرباحا ومغانم ، أو إكراميات
للأصهار وذوى القربى والنافقين والوصوليين وملحقاتهم .

لقد أدرك عمر هذه المعانى كلها ، وقاومها بكل شدة ، فلم يكن فى دولته ذلك
الداء الويل الذى فشا أخيرا فى شتى الشعوب والدول من تقريب السعادة وإبعاد
الراشدين الوعاة .

يقول المؤرخون ان عمر أول من لقب بأمير المؤمنين ، وأول من جمع الناس
فى صلاة التراويح ، وأول من حمل الدرة ، وأول من عاقب على الهجاء وأول من
كتب التاريخ الهجرى .. ويقول أبو هريرة رضى الله عنه : يرحم الله ابن حنظلة ،
لقد رأيت فى عام الرمادة ، وإنه ليحمل على ظهره جرابين وعكة زيت فى يده ،
وأنه ليعتقب هو وأسلم (كل منهما يحمل فترة) فلهذا رأى قال : من أين يا أبا هريرة
قلت قريبا ، فأخذت اعقبه .

فحملنا حتى انتهينا إلى صرار فإذا نحو من عشرين بيتا من محارب (قبيلة)
فقال لهم ما أقعدكم . قالوا الجهد ، وأخرجوا لنا جلد الميتة مشويا كانوا يأكلونه
ورمة العظام مسحوقة ، كانوا يستقونها فرأيت عمر طرح رداءه ، ثم اتزر فمال
يطبخ حتى أشبعهم ، ثم أرسل أسلم إلى المدينة ، فجاءنا بأبيرة فحملهم عليها حتى
أنزلهم فى مكان اسمه « الجبانة » ثم كسام ، وكان يختاف إليهم وإلى غيرهم . .
ويقول موسى بن عقبة : أتى رهط إلى عمر ، فقالوا له :

كثر العيال ، واشتدت المؤنة ، فزدنا فى عطائنا . قال : فعلمتموها . جمعتم بين
الضرائر ، واتخذتم الخدم من مال الله . لوددت أنى وإياكم فى سفينة فى لجة البحر ،
تذهب بنا شرقا أو غربا ، فان يعجز الناس أن يولوا رجلا منهم ، فإن استقام

«اتبعوه ، وإن جنف قتلوه .. فقال طلحة : وما عليك لو قلت . وإن
تعوج عزلوه ..

ذكر عند عمر زجل فقيل : يا أمير المؤمنين ، إنه إنسان فاضل ، لا يعرف
من الشر شيئاً . قال : ذاك أوقع له فيه .

عمر يتحدث بنعمة الله

حدث سعيد بن المسيب عن عمر ، قال : حجج عمر ، فلما كان ببعض الأمكنة
التي كان يرتادها وهو شاب ، قال : لا إله إلا الله العظيم العلي المعطى ما شاء من
شأنه .. كنت أرى أبل الخطاب في هذا الوادي في مدرعة صوف ، وكان قفا
غليظاً يتعبنى إذا عملت ، ويضربني إذا قصرت ، وقد أمسيت وليس بيني وبين
الله أحد ، ثم تمثل :

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| لا شيء فيما ترى تبقى بشاشته | يبقى الاله ويودي المال والولد |
| لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه | والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا |
| ولا سليمان إذ تجري الرياح به | والانس والجن فيما بينها برد |
| ابن الملوك التي كانت نواقلها | من كل اوب اليها راكب يفد |

أمانته وعطفه

ذهبت هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان ، إلى عمر ، واستقرضت منه
أربعة آلاف من بيت المال ، تتجر فيها وتضمنها ، فأقرضها ، فخرجت فيها إلى
بلاد بني كلب ، فاشتريت وباعت ، فبلغها أن أبا سفيان وابنه عمرأ أتيا معاوية .
فعدلت إليه — وكان أبو سفيان قد طلقها — فقال لها معاوية : ما أقدمك أي

أُتِيَتْ . قالت : النظر إليك أيُّ بُنَى . انه عمر ، وإنما يعمل لله . وقد أتاك أبوك .
 تخشيت أن نخرج إليه من كل شيء ، واهل ذلك هو . ولا يعلم الناس من أين .
 أعطيته . فيؤنبونك ويؤنّبك عمر . فلا تستقبلهما أبدا فبعث إلى أبيه وأخيه .
 بمائة دينار ، وكساهما وحمّاهما فتسخطّها عمر ، فقال أبو سفيان لا تسخطها ، فإن
 هذا عطاء لم تغب عنه هند ، ورجعوا جميعاً فقال أبو سفيان لهند : أربحت قالت :
 الله اعلم . فلما أتت المدينة وباعت ، شكت الضيعة (الخسارة) فقال لها عمر :
 لو كان مالي لتركته لك ولكنه مال المسلمين . وقال لأبي سفيان . بكم أجازك
 معاوية . قال : بمائة دينار .

تمنع عمر بملكه النقد الادبي

حدث عبد الله بن عباس ، فقال بينا عمر بن الخطاب وأصحابه يتذاكرون
 الشعر ، فقال بعضهم : فلان اشعر ، وقال آخرون : بل فلان أبلغ . قال فأقبلت
 فقال عمر : قد جاءكم أعلم الناس بها . من اشعر الشعراء ، فقلت : زهير بن ابى .
 سامى . فقال : هلم من شعره ما يستدل به على ما ذكرت فقلت : امتدح قوماً من
 غطفان فقال :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
 قوم أبوهم سنان حين تنسبهم طابوا وطاب من الاولاد ما ولدوا
 تحسدون على ما كان من نعم لا ينزع الله منهم ما له حسدوا

فقال عمر : احسن والله . وما اعلم احداً أولى بهذا الشعر من هذا الحى .
 لا غرو فقد كان عمر عبقرى حتى فى فنون الادب والثقافة :

نساء عمر وأولاده

حدث الطبرى فى تاريخه عن حياة عمر الخاصة فقال :

تزوج عمر فى الجاهلية ، زينب ابنة مظعون ، فولدت له عبد الله وعبد الرحمن الأكبر وحفصة .

وتزوج مليكة بنت جرّول الخزاعى ، فى الجاهلية فولدت له عبيد الله بن عمر الذى قتل يوم صفين ، وكان فى جيش معاوية .

وتزوج قريبة بنت أمية المخرومى أخت أم سلمة زوج الرسول ﷺ ثم طلقها
وتزوج أم حكيم بنت الحارث المخزومية - فى الاسلام - فولدت له فاطمة
ثم طلقها .

وتزوج جميلة بنت ثابت بن قيس الانصارى ، فولدت له عاصما ثم طلقها .
وتزوج أم كلثوم بنت على بن أبى طالب من فاطمة ابنة رسول الله ﷺ
فولدت له زيدا ورقية .

وتزوج لهيئة اليمنية فولدت له عبد الرحمن الأصغر وعبد الرحمن الأوسط ، وقيل
تزوج فى الاسلام كذلك فكية فولدت له زينب .

ويقال انه خطب أيضاً أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق - وكانت صغيرة -
فنهاه عمرو بن العاص ، وعارضت عائشة أم المؤمنين .

ومما يلفت النظر فى سلوك عمر الشخصى ، ان المؤرخين يكادون يتفقون على
انه لم يتزوج بامرأة إلا بعد مفارقتها لمن كانت زوجة له قبلها ، فهو لا يجمع بين

ضرتين . ولعل هذا المسلك كان نادرا في تلك العصور ، وبخاصة بعد ازدهار المدينة بعدد من اسارى فارس والروم ، وجواريهما الفاتنات . بيد ان عمر - فيما يبدو - لم يكن مهتما بهذه المتعة لتفرغه الكامل لشئون الدولة ، وتنظيم مرافقها ، وهذا لون آخر من جوانب العظمة الانسانية التي يمتاز بها عمر رضى الله عنه .

يقول الامير شبيب ارسلان « حدث الربيع بن زياد الحارثي قال : شكاه عمر طعاما غليظا أكاه ، فقال الربيع ، يا أمير المؤمنين . ان احق الناس بطعام لين ، ومركب لين ، ومابس لين ، لأنك . فرفع عمر جريدة معه فضرب بها رأسه وقال : اما والله ما اراك اردت بها الله ، وما اردت بها إلا مقاربتى . هل تدري مامثلى ومثل هؤلاء . قال : وما مثلك ومثلهم قال : مثل قوم سافروا فدفعوا نفقاتهم الى رجل منهم فقالوا له : انفق علينا . فهل يحل له ان يستأثر منها بشيء : قال لا يا أمير المؤمنين . قال : فكذلك مثلى ومثلهم . ثم قال عمر : إني لم استعمل عليكم عمالي ليضربوا أبشاركم ، وليشتموا أعراضكم ، ويأخذوا أموالكم . ولكنى استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم . وسنة نبيكم ، فمن ظلمه عامله بمظلمة ، فلا اذن له عليه . ليرفعها الى حتى اقضه منه :

ومما يعزز ما اسلفناه عن عزوف عمر عن اتخاذ الاماء واستخدام الاسرى ، واستيلاء الفتيات منهن ، كما صنع غيره ، ما حدث به الاحنف بن قيس ، قال : كنا جلوسا بباب عمر ، فمرت جارية . فقالوا : سرية أمير المؤمنين ، فبلغ ذلك عمر ، فدعانا فقال : ماذا قلتم . قلنا لم نقل بأسا . مرت جارية فقلنا : هذه سرية أمير المؤمنين . فقال : ما هى لأمر المؤمنين بسرية ، وما تحل له . انها من مال الله . فقلنا فما يحل له من مال الله . فقال : انا أخبركم بما استحل منه . يحل لى حلتان .

حلة في الشتاء ، وحلة في الصيف أو في القيظ ، وما احج عليه واعتمر من الظهر ، وقوتي ، وقوت اهلي ، كقوت رجل من قريش ليس باغنام ولا اققرم ، ثم أنا بعد ذلك رجل من المسلمين . يصيبني ما أصابهم .

عمر قبل وفاته

لما طعن ابو لؤلؤة الفارسي ، عمر وهو يصلي قال : من قتلى فقيل له : غلام المغيرة بن شبة ، وكان نجارا . فقال عمر : قاتله الله والله لقد كنت امرت به معروفا ، ثم قال : الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الاسلام ، ثم قال لعبد الله بن عباس : لقد كنت انت وابوك تحبان ان نكثر العلوج (غير العرب) في المدينة ، فقال ابن عباس ان شاء اخرجوهم منها . فقال له عمر : ابعد ماتكلموا بكلامكم ، وصلوا بصلاتكم ونسكوا نسككم .

ولما ايقن عمر بالوفاة ، قال لابنه : يا عبد الله بن عمر ، أنظر . كم على من الدين . فحسبه فوجده ، ستة وثمانين ألف درهم ، فقال : يا عبد الله بن عمر . ان وفي مال آل عمر فأدھا عني من أموالهم والا ، فاسأل فيها بنى عدى بن كعب ، فإن لم تف فاسأل فيها قريشاً ، ولا تعدم الى غيرهم .

وقالوا له حين حضره الموت : استخلف . فقال : لا أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض فأيهم استخلف فهو الخليفة من بعدى ، وسندكر في الفصل التالى تفصيل الشورى ، وحقيقة المؤامرة التى اغتيل عمر على أثرها . فالى ذلك الفصل والله ولى التوفيق .

الفصل السابع

حول المؤامرة الفارسية

إرتقى عثمان الخلافة بذلك الشكل الذى أشار به حينما ألحوا عليه فى تعيين خليفة له على الناس . إذ كان يرى ألا يستخلف ؛ فإن رسول الله (ص) لم يستخلف ، وما كان عمر بالذى يعدل فى الناس برسول الله أحداً .

لذلك رأيناه عندما طعن « رضى الله عنه » بالمسجد الجامع بالمدينة يأمر بعض^(١) خاصته من المساميين أن ينظر من قتله حتى إذا عرف أن الذى^(٢) تولى ذلك من « علوج » فارس يحمد الله أن لم يجعل منيته على يد واحد من المسلمين . يحاجه يوم القيامة ، ثم يطلب منه أن يستخلف على الناس فيجيبهم بأنه « ان لا يستخلف فإن رسول الله (ص) لم يستخلف وهو خير الناس ، وان يستخلف فقد عهد إليه من قبل من هو خير منه ، وهو أبو بكر رضى الله عنه . ثم كثر عليه الطلب فى تعيين خليفة من بعده ، وأنه لو كان الإنسان راعياً لقطع من الإبل أو من الغنم ، ما حل له أن يدعها بدون راع^(٣) وكأنما عمر كان يتنازعه عاملان مختلفان فإنه ليرى فى رسول الله خير أسوة ، ومع ذلك لم يعين خليفة على الناس ، وبين يديه أبو بكر حب رسول الله (ص) ، وأفضل الناس من بعده ، وقد سلف أن عهد إليه ولكن بعد أن استشار الناس ، واطمأن إلى رضاهم بعمر . . . إنها حيرة لا مخرج منها إلا بحسن توفيق من الله .

(١) عبد الله بن عباس - رضى عنهما .

(٢) غلام لاغيرة بن شعبة المجوسى لا النصرانى كما هو مذكور فى ابن الأثير

والطبرى

(٣) تيسير الوصول لابن الديع - بتصرف ج ٢ ص ٤٩ .

رسول الله لم يستخلف . هذا حق .

ولكن . . ألا يكون ذلك لأنه رسول الله ، ولا ينطق عن الهوى ، فلو أنه عين شخصاً أو جماعة لكانت لهؤلاء دولة ، ولترك لذلك الأفضل من الناس ، ولقالوا إن هذا عينه رسول الله ، والذي يخالفه يعصى الله ورسوله .

ثم شكل الخلافة، أهو وحى من الله؟ يجب على الناس أن لا يعدوا ما يرسمه الرسول . لو كان . . أم هو من شئون الدنيا، وخصائص الأيام — فلكل مقام مقال ، ولكل زمان دولة ورجال — فقد تكون طريقة أبي بكر وعمر خيراً للناس في الوقت الذي كان فيه أبو بكر وعمر ، وقد يتدع الناس طرائق من الاستخلاف ربما كان فيه خير للناس ، وبقيا للمسلمين ، وقد يبدعون فيها عن أبي بكر وعمر حسبما يرونه من المصلحة العامة للإسلام والمسلمين .

ثم أبو بكر — وهو من نعرف في تقواه وورعه، وعقيدته ودينه أيخالف رسول الله في أمر يكون العصيان في فعله ، والخير في تركه . هذا ما لن يكون من رجل كأبي بكر يعرفه عمر ويطمئن إلى أنه لن يتعمد مخالفة رسول الله بحال ما ، بل يعرفه أكثر من ذلك منذ قبض رسول الله ، وذهل عمر وثبت أبو بكر . فثبت الناس ورجعوا إلى الحق ، وإلى قول أبي بكر .

ثم منذ حركة الارتداد العربية إثر موت رسول الله (ص) وقد كان الناس جميعاً في جانب وأبو بكر في جانب ، وفي النهاية رجع الناس إلى رأى أبي بكر فكان هو عين اليقين، ودعامة الحق الذي مكن للمسلمين فيما بعد في الأرض .

ما نزن ذلك كله إلا قد فكر فيه عمر ، وقلبه من جميع وجوهه ، وشتى مناحيه، ثم برز ذلك أخيراً في عهده إلى أولئك الستة الذين قال رسول الله (ص) إنهم من أهل الجنة ، والذين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم

راض^(١) فإنهم حتى مقتل عمر لم يبدلوا تبديلاً .

وأخيراً انتخب عثمان من هؤلاء الستة ، وبعد أن أخذ عليه أن يعمل بكتاب الله ، وسنة رسوله ، وسنة الشيخين من قبله^(٢) أما تفصيل الطريقة التي اختبر بها عثمان فإننا نجمله فيما يلي :

بعد أن رأى عمر وسمع من حال الناس وحديثهم أنهم يريدون أن يوصى بالخلافة لبعض المسلمين وأنه إن لم يفعل فقد تكون فتنة ، وأن عدم عهد الرسول لأحد من الناس ، لأنه صاحب الشريعة ، وعمله سنة واجبة الاتباع وأيضا فإن الله سبحانه لم يوح إليه أن يستخلف : وإلا لاستخلف اطاعة لأمر الله تعالى ، وعلى ذلك فقد عهد أبو بكر إلى عمر خشية فتنة الناس وبعد أخذ رأيهم ولهذا أيضا أشار عمر ببيعة واحد من هؤلاء الستة : علي ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، ووضع لهم نظاما للبيعة حتى لا يختلفوا ، وتنشق عصا المسلمين ، وهم لا يزالون في ريعان دولتهم ومبتدأ أمرهم . والحرب بينهم وبين أعدائهم قائمة في جبهتين قال عمر :

ما أرى أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله (ص) وهو عنهم راض فسمى علياً ، وعثمان ، والزبير ، وطلحة ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعداً رضى الله عنهم وقال : ويشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من هذا الأمر شيء — كهيئة التعزية له^(٣) فإن أصابت الامارة سعداً فذاك وإلا فليستعن به أيكم ما أمر ، فإنني لم أعزله عن عجز ولا خيانة .. فلما فرغ من دفن عمر . اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة

(١) تيسير الوصول لابن الديع الزبيدي ج ٢ ص ٥٢ .

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٧ .

(٣) للصدر السابق

منكم . فقال الزبير قد جعلت أمري إلى علي ، وقال طلحة قد جعلت أمري إلى عثمان ، وقال سعد قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف . فقال عبد الرحمن : أيكم يتبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه ، والله عليه والإسلام . لينظرون أفضلهم في نفسه . فأسكت الشيخان علي وعثمان فقال عبد الرحمن : أفتجعلونه إلى والله علي والإسلام أن لا آلوا عن أفضلكم . قالا نعم . فأخذ بيد أحدهما . فقال : لك من قرابة رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام . ما قد علمت . فإله عليك لن . أمرتك لتعدلن ، ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن . ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك فلما أخذ الميثاق قال : إرفع يدك يا عثمان فبايعه وباع له علي وولج أهل الدار فبايعوه^(١) ، قال الذهبي^(٢) « اشتور أهل الحل والعقد بعد عمر ثلاثة أيام ، واتفقوا على مبايعة عثمان بن عفان الأموي - رضى الله عنه وهو من بنى عم النبي (ص) ويقال له ذو النورين ، لأنه زوجه النبي (ص) بابنتيه ، رقية ، وأم كلثوم — رضى الله عنهما ، فسار بسيرة عمر ستة أعوام »^(٣) .

قال ابن الأثير^(٤) : لما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة ، وقيل في بيت المال ، وقيل في حجرة عائشة باذنها ، وطلحة غائب . وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب فخصبهما سعد وأقامهما . وقال تريدان أن تقولان حضرنا وكنا في أهل الشورى . فتنافس القوم في الأمر ، وكثر فيهم الكلام فقال أبو طلحة : أنا كنت لأن تدفعوها

(١) تيسير الوصول ج ٢ ص ٥٢

(٢) دول الإسلام للذهبي ج ١ ص ٩ .

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ٣٦ : ٢٧ .

أخوف منى لأن تتنافسوها ، والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة
التي أمر ، ثم أجلس في بيتي فانظر ما تصنعون .

وفي الحق أن بيعة عثمان بن عفان - رضى الله عنه - كانت غريبة في شكلها
وهيئتها كما أن كثيراً من الناس كانوا يزون أحقية غيره بها من أمثال علي
- رضى الله عنه - وقد ألصقوا بعثمان بسبب ذلك كثيراً من التهم للنيل من بيعته .
فقد قيل ان عبد الرحمن بن عوف حابى عثمان ، لصهره ولتكون له من بعده وقد رفع
المقداد عقيرته قبل أن يفرغ الناس من البيعة بالاحتجاج على تصرف عبد الرحمن
بصرف الأمانة عن علي وآل محمد ﷺ إلى بنى أمية وعبد شمس ذلك . والبيعة لم
تم بعد ، والأمانة لم تكد يسلم بها على عثمان . ولعل الناس لحظوا في عثمان فرط
حيائه ، وبروز لينه مما لا يتناسب والبيئة العربية إذ ذاك .

بل لعله فوق ذلك ، كانت فكرة التشيع لآل البيت وأنهم ظلموا غير مرة .
قد تركزت في نفوس كثير من القوم ، وصادفت هوى من نفوسهم فأرادوا
أن يعطوا الأمراءه فيما زعموا والقوس باريها — وانه ليتبين لنا ذلك من حديث
المقداد وغيره أثناء بيعة عثمان رضى الله عنه .

وإذن فلم يكن انتخاب عثمان بإجماع مطلق من القوم . وإنما كان مطلباً
ملحاً هوى لاغلب الناس ، مكنت له ظروف خاصة . وأيده فعل عبد الرحمن بن
عوف في خلع نفسه من الأمانة ، وإن قام بها بتفويض من إخوانه حتى يختار
لها الأصلح من بينهم بعد استيثاقه منهم ، ومن أنه سوف لا يفضل ذا رحم لرحمه
ولا صهراً لصهره ، وإنه سيفعل الموافق لمقتضى الحق والعدل والتقوى والإسلام .

ولكن هل فعل ابن عوف رضى الله عنه ما أخذ نفسه بأن يفعله ذلك
ما سنعالجه فيما يأتى وعلى ضوء ما سلف أن قررناه .

بعد أن انضم الريير إلى علي وسعد إلى عبد الرحمن وطلحة^(١) إلى عثمان رأى عبد الرحمن — رضى الله عنه — أن يحسم مادة الخلاف ، فعرض عليهم اقتراحا وهو من يخلع منهم نفسه من الإمارة ، على أن تكون له مدة الأيام التي حددها عمر لهم ، حتى يختار خليفة من بينهم ، لا يألوم جهداً في تحرى العدل والحق ، ونبذ الجهل والعصبية . ثم رأيناه يتقابل مع المسلمين ، ويناقشهم في عثمان وعلي ، ويتعرف رأيهم فيمن يصلح منهم للإمارة ، وهكذا مضى ابن عوف جاداً فيما أخذ به نفسه من تعرف لإرادة الأمة ، ومن توليه سلطانها ، وتمنحه تفضيلها من ذينك الرجلين ذوى الأسبقية والقدم في الهجرة والإسلام .

هذا ولم تمض الأيام الثلاثة إلا ونرى عبد الرحمن يجمع الناس ثم يأخذ بيد علي ، ويقول له ، عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفين من بعده فيقول علي . أرجو أن أفعل فأعمل بمبلغ علمي وطاقتي — ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي . فقال نعم نعمل فرفع « عبد الرحمن » رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان ، فقال . اللهم انى قد جعلت ما في رقبتى من ذلك في رقبة عثمان . فبايعه . فقال علي فيما يزعمون ، ليس هذا أول يوم تظاهر تم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ؛ والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك ، والله كل يوم هو في شأن ؛ فقال عبد الرحمن يا علي لا تجعل على نفسك حجة وسبيلاً ؛ فخرج وهو يقول سيبلغ الكتاب أجله^(٢) .

ذلك — فيما يزعم الرواة — ما كان بين عبد الرحمن بن عوف وبين المرشحين

(١) كذلك في تيسير الوصول ، ولكن بن الأثير الجزرى في الكامل يذكر أن طلحة كان عائباً ولم يحضر إلا بعد للبايعه لعثمان ، وعليه فلم يذكر القصة التي فيها انضمام بعض أهل الشورى إلى بعض .

(٢) ابن الأثير ج ٣

للخلافة من إخوانه وزملائه أهل الشورى ، ومنه يبدو أن علياً رضي الله عنه كان غير مطمئن إلى عبد الرحمن بن عوف . أن كان يرى نفسه أولى الناس بهذا الأمر ، ولكنه وافق على رغبته منه ، لأنه كان كما قال للعباس عمه رضي الله عنه . انه يكره الخلاف^(١) — وأما جمهور المسلمين من غير أهل الشورى ، فالظاهر أن كثيراً منهم كان قلقاً من نتيجة هذا الانتخاب وبدا ذلك جلياً في حديث المقداد ابان البيعة لعمان فقد قال المقداد لعبد الرحمن ، أما والله لقد تركته « يقصد علياً » وانه من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون ، فقال له عبد الرحمن يا مقداد والله لقد اجتهدت للمسلمين ، قال إن كنت أردت الله . فأثابك الله ثواب المحسنين فقال المقداد . ما رأيت مثل ما أتى إلى أهل هذا البيت بعد نبيهم إني لأعجب من قريش إنهم تركوا رجلاً ما أقول ولا أعلم أن رجلاً أفضى بالعدل ولا أعلم منه ، والله لو أجد أعواناً عليه . فقال عبد الرحمن : يا مقداد اتق الله فإني خائف عليك الفتنة^(٢) .

ذلك — وإن هذه المحاورة على قصرها بين المقداد بن الأسود ، وبين عبد الرحمن بن عوف لتدل دلالة واضحة على ما كان يجيش بنفوس القوم من أفكار وآراء ، ظهرت فيما بعد ، واتسعت في خلافة عثمان ، وحياته الجهم الذي لمسه فيه الرسول (ص) نفسه حتى قال (الا أستحيي ممن تستحي منه الملائكة)^(٣) . ثم أمر آخر تعيينه من محاورة العباس لعل ، ومفاجأة أبي طلحة لهما وها

(١) ابن الأثير ٣ - وتيسير الوصول ٢ - والطبري في تاريخ الأمم والملوك .

(٢) ابن الأثير في الكامل ٣ .

(٣) ابن أبي شيبة ٣ - تيسير الوصول ٣ .

يتعادثان — وخلاصة الحديث ، كما رواء الاخباريون من محترفي إذاعة الأنباء وقتئذ أن العباس بن عبد المطلب لقي علياً رضي الله عنه بعد أن خرج أهل الشورى لأول اجتماع لهم ، فقال علي : عدلت عنا ، فقال وماعملك . فقال قرن بي عثمان ، وقال : كونوا مع الأكثر فإن رضي رجلان رجلاً ورجلان رجلاً ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف فسعد لا يخالف ابن عمه ، وعبد الرحمن صهر عثمان ، لا يختلفان فيوليها أحدهما الآخر ، فلو كان الآخران معي لم ينفعاني ، فقال له العباس . لم أرفعك في شيء إلا رجعت إلى مستأخراً لما أكره . أشرت عليك عند وفاة رسول الله ﷺ أن تسأله فيمن هذا الأمر فأبيت فأشرت عليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت وأشرت عليك حين سماك عمر في الشورى أن لا تدخل معهم فأبيت ، احفظ عني واحدة ، كل ماعرض عليك القوم . فقل لا إلا أن يولوك ، واحذر هؤلاء الرهط . فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم لنا به غيرنا ، وإيم الله لا يناله إلا نفر لا ينفع معه خير فقال علي : أما لئن بقي عثمان لأذكرنه ما أتى ، ولئن مات ليتداولونها بينهم ، ولئن فعلوا لتجدني حيث يكرهون .

والتفت علي فرأى أبا طلحة ؛ فذكره مكانه ، فقال أبو طلحة لن ترع أبا الحسن .

ونستطيع أن نستنتج من هذه المحاورة المزعومة بفرض صحته بين العباس وعلي عدة أمور ربما كان لها أثر فيما بعد في مقتل عثمان رضي الله عنه . بل وفيما نجم عن ذلك من نتائج وخيمة ، سمرت نار الحروب الأهلية شهوراً وأعواماً بين الذين كانوا بالأمس الدابر كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . فمن ذلك أن بذرة التشيع لتفضيل علي كانت قد اختمرت في أنفس كثير من عظماء الصحابة أمثال المقداد بن الأسود الذي جعله عمر بمنزلة الرقيب

على هؤلاء المرشحين لمنصب الخلافة ؛ والذي لم يكديري المبايعة لعثمان حتى يحتاج على تصرف ابن عوف ، وأنه تخطى علياً بغير حق . حسبما زعم الرواة .
وكذلك أبو طلحة الذي وكل إليه عمر أن يستعمل القوة في إرغام المرشحين على انتخاب واحد منهم في المدة التي عينت لهم . وأنهم إذا اختلفوا ولم ينتخبوا واحداً من بينهم . كان أبو طلحة في حل من اهدار دماء المخالف منهم . . . هذا الرجل الذي كان بهذه المنزلة رأيناه يعطف على علي فعندما كان العباس يتحدث وعلياً اطلع عليهما أبو طلحة فكره مكانه علي ، فطمأنه أبو طلحة ، وصارحه الحب والتفضيل من هذه العبارة (لن تراعأبا الحسن^(١)) مع أن علياً كان يتحدث والعباس في منتهى الصراحة منتقداً سياسة أهل الشورى في تفضيلهم غيرهم عليهم مع أنهم أحق الناس بهذا الأمر . . . ومعلناً أنه سوف يغامر بالاغضاء عن هفوات الناس هذه المرة أيضاً ، ولكنه سوف يخالفهم في المستقبل إذا أصرروا على هذه السياسة التي وضعت الأمور في غير نصابها . . . ومن هذه الأمور أيضاً . أن علياً رضى الله عنه كان يشعر بأنه قد ظلم . وخصوصاً في بيعة الشورى . فان عمر نفسه قد صرح بأنه كان يود أن يعهد إلى الرجل الذي هو أخرى أن يحملهم على الطريق . وهو علي بن أبي طالب لولا أنه خشى عليه فرأى حول علي براؤ فاجراً . فعدل عن البيعة له خاصة وجعلها شورى بين النفر الذين يعتقد أنهم رؤوس القوم وخيرهم والذين هم في نظره لا يبدلون الخبيث بالطيب ولو قل الطيب وكثر الخبيث . فوق أن رسول الله ﷺ قال انهم من أهل الجنة .

وإذا كان بعض الناس يميل إلى أن علياً رضى الله عنه ، لم يتلعم في البيعة
تواحد من الثلاثة، فإن ذلك لم يكن إلا لما صرح به على نفسه من أنه فقط - يكره
الخلاف - وإلا فإنه كان يرى أنه أحق الناس بهذا الأمر وأن الذين يصرفونها عنه
إنما كانوا مخطئين في هذا الصرف ، ولو بعض الخطأ - واليك رد على علي
عبد الرحمن عندما قبل هذا خلع نفسه من الخلافة.. قال عبد الرحمن: أياكم يخرج منها
نفسه ، ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ، فلم يجبه أحد ، فقال فانا أنخلع منها فقال
عثمان أنا أول من رضى ، فقال القوم . قد رضينا ، وعلى ساكت ، فقال: ما تقول
يا أبا الحسن ، قال أعطنى موثقاً لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا
رحم ، ولا تألوا الأمة نصحاً . فقال اعطونى موثيقكم على أن تكونوا معى على
من بدل وغير ، وأن ترضوا من اخترت لكم ، وعلى ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم
لرحمه ولا ألو المسلمين فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله . فقال لعلى تقول انى أحق
من حضر بهذا الأمر لقرابتك وسابقتك؛ وحسن اثرك في الدين ولم تبعد في نفسك،
ولكن أرايت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر . من كنت ترى من هؤلاء الرهط
أحق به ، قال عثمان وخلا بعثمان فقال : تقول شيخ من بنى عبد مناف وصهر
رسول الله ﷺ وابن عمه ولى سابقة وفضل ، فأين يصرف هذا الأمر عنى ،
ولكنك لو لم تحضر أى هؤلاء الرهط ترى أحق به. قال على :

فأنت ترى أن علياً كرم الله وجهه لا يتعجل الإجابة على ابن عوف
لا بالإيجاب ولا بالسلب ، وإنما يلتزم السكوت في الوقت الذى يجيب عثمان بقوله
(أنا أول من رضى) ثم يردفه القوم بأنهم أيضاً رضوا ، ولكن علياً لا يزال مصراً
على التزام الصمت حتى يوجه إليه عبد الرحمن الحديث مرة أخرى فيجيب على بأنه
موافق ، ولكن على أن يعطيه العهد والميثاق أن لا يتبع الهوى ، وأن لا يؤثر

ذا رحم لرحمه ، ولا صهراً لصهره وإذن فعلى كان - كما قلنا - غير مطمئن إلى واحد من القوم لا يرى أنه وحده أحق بهذا الأمر من سائر الناس ، وأنه ظلم ، وإليك حديثاً آخر دار بين سعد بن أبي وقاص ، وبين علي ، يوضح لنا ناحية أخرى من النواحي التي كان يرى فيها على أنه أحق الناس بالخلافة من سواه . لقي على سعداً فقال له : اتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، أسألك برحم ابني هذا من رسول الله ﷺ وبرحم عمي حمزة منك أن لا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيراً ، وهذا قبل أن يدور ابن عوف على الناس ليعرف اتجاهاتهم نحو علي وعثمان فيما زعم الرواة كهذه جمل موجزة لبيان الكيفية التي انتخب بها عثمان لإمارة المؤمنين وما احاط بها من عوامل ، وما بدا فيها من أغراض وغايات ، وفيها أيضاً بيان موجز لصورة العصر الذي حدثت فيه هذه البيعة ، وعرض لبعض الشخصيات التي كان لها أثر بين فيما بعد في الفتنة ، وفي الحروب الأهلية بين علي ومعاوية ، وبين علي وأصحاب الجمل ، ولا بد من تسجيل صورة ولو مصغرة لبعض هذم الشخصيات العثمانية والعلوية التي لعبت دوراً مهماً في انتخاب عثمان ، وفي بيعة علي وإليك ما حدث بالمسجد يوم البيعة لعثمان :

بعد أن جمع عبد الرحمن الرهط من أهل الشورى ، وأهل السابقة والفضل من المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد قال :

أيها الناس إن الناس قد أجمعوا على أن يرجع أهل الأمصار إلى أمصارهم فأشيروا على فقال عمار إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع علياً فقال المقداد بن الأسود صدق عمار . إن بايعت علياً قلنا سمعنا وأطعنا ، وقال ابن أبي سرح . إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان ، فقال عبد الله بن ربيعة : صدقت . إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا فتبسم ابن أبي سرح فقال عمار متى كنت تنصح

المسلمين ، فتكلم بنوهانسم وبنو أمية فقال عمار : أيها الناس ان الله أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه . فاني تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم . فقال رجل من بنى مخزوم لقد عدوت طورك يا ابن سمية . وما أنت وتأمير قريش أنفسها . فقال سعد بن أبي وقاص . يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس : فقام عبد الرحمن فقال : إني قد نظرت وشاورت فلا تجعل أيها الرهط على أنفسكم سبيلا . وإذا كنا لا نحب أن نسهب في التعليق على هذا الذي حدث بين عمار وممن على شاكلته ، وبين ابن أبي سرح ومن يتحزب له ، فإنما ذلك . فقط لأننا نجل جميع الأصحاب الذين رشفوا من معين الوحي النبوي . ان تزل قدم بعد ثبوتها ، مهما اشتد بينهم خطب الخلاف ، وتفاقم سعي الأضغان .

لذلك سوف نمر — على كل ما حدث بين صحابة رسول ﷺ من الكرام فنسجل ما يستحق التسجيل — من غير تعليق كبير — وننبذ ما يستوجب النبذ — من دون أن نحقر أو نستهن ، إجلالا لصدر الإسلام واكباراً لسلف القادة من أهل الإيمان .

بعد أن استقر الأمر لعثمان بن عفان — رضى الله عنه — التفت إلى شئون الدولة الإسلامية ، فبدأ بمسألة عبيد الله بن عمر وقد كان قاتل أبيه أباؤلؤلوه^(١) ، وقتل جفينة ، وقتل الهرمزان ، فلما ضربه بالسيف . قال .

لا إله إلا الله . فلما قتل هؤلاء أخذه سعد بن أبي وقاص وحبسه في داره ، وأخذ سيفه وأحضره عند عثمان ، وكان عبيد الله يقول . والله لاقتلن رجلا ممن شرك في دم أبي — يعرض بالمهاجرين والأنصار — أما السبب الذي من أجله قتل

(١) يروى أنه بعد أن قتل تقرأ من الصحابة بعد عمر . نحر نفسه بخنجره .

عبيد الله هؤلاء جميعا . مع أنه لم يباشر قتل عمر منهم غير أبي لؤلؤة ، فقد قيل ان عبد الرحمن بن أبي بكر قال غداة قتل عمر . رأيت عشيبة أمس : الهرمزان ، وأبا لؤلؤة ، وجفينة ، وهم يتباحثون فلما رأوني ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه ، وهو الخنجر الذي قتل به عمر فلما سمع ابن عمر ذلك غضب وقتل هؤلاء جميعا فلما ولي عثمان . قال أشيروا على في هذا الرجل الذي فتق في الإسلام ما فتق فقال على رضى الله عنه ، أرى أن تقتله . فقال بعض المهاجرين . قتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم ، فقال عمرو بن العاص إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث ولك على المسلمين سلطان ، فقال عثمان أنا وليه ، وقد جعلتها دية واحتملها في مالى .

على أنه قيل في سبب إطلاق عبيد الله قصة أخرى يرويها ابن الأثير^(١) وهي . قال الغاديان ابن الهرمزان . كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض فمر فيروز أبو لؤلؤة بالهرمزان ؛ ومعه خنجر له رأسان . فتناولوه منه وقال ما تصنع به . قال . استعين به . فرآه رجل . فلما أصيب عمر . قال . رأيت الهرمزان دفعه إلى فيروز . فأقبل عبيد الله فقتله فلما ولي عثمان امكنتني منه . فخرجت به ، وما في الأرض أحد إلا معي ، إلا أنهم يطلبون إلى فيه فقلت لهم ، إلى قتله قالوا نعم ، وسبوا عبيدا الله ، قلت لهم أفلكم منعه ، قالوا لا وسبوه فتركته لله ولهم ، فحملوني ، فوالله ما بلغت المنزل إلا على رؤوس الناس .

هاتان روايتان أوردتهما المؤرخون في قصة إطلاق عبيد الله بن عمر ، وعدم قتله في ثلاثة أراق دماءهم من غير حق ظاهر ، اللهم إلا فيروزا - على فرض حياته بعد طعن عمر - ولو كان في قتلهم حق له ، لما كان ذلك إليه ، وإنما هو إلى

من^(١) وكل إليه إقامة الحدود ، وتأمين السبل ، وإلزام كل حده وطوره ، لا جرم أن تمسك على بقتل عبيد الله وظل على رأيه^(٢) ذلك حتى ولي الخلافة ، فطلب عبيد الله فهرب منه إلى معاوية رضى الله عنه .

ذلك . . . ولابد من المقارنة بين الروايتين ؛ وما تلقى كل منهما من شعاع على مقتل عمر ، ثم ما يتبين من خلاهما من قصد اتهام الهرمزان وجفينة ، ومشاركتها لفيروز ، أو تبرئتهما ، ونفى التآمر عنهما .

(١) قال أبو حنيفة إن القصاص لا يستوفى إلا بالسيف ، يقصد أن رئيس الدولة أو نائبه هو الذى ينفذ حكم القصاص لا الأفراد . وأظن ذلك هو للتسق مع الشريعة الإسلامية ، وإلا لكان الأمر فوضى ، والشريعة تأمر بالنظام .

(٢) تمسك على بعد ذلك دليل على أن عثمان لم يحكم به وهو صاحب الأمر على المسلمين ، فيكون حكماً واحداً الفاذ ، ولا يصح الرجوع فيه لمن يأتى بعده من الأئمة ، وقد يكون حدث ذلك لمجرد تهمة الثورة . ودفع للفسدة مقدم على جلب المصلحة ، إذ (لا ضرر ولا ضرار) ولما رأى على بعد ولايته أن قد هدأت الفتنة بهذا الأمر طلب عبيد الله بن عمر . فلذلك هرب وآواه معاوية . وظل عنده حتى قتل في الحرب بينه وبين على في « صفين » .

هذا ولعل علياً كان يرى خطأ عثمان في هذا الحكم . وأنه حكم في رأيه بغير ما ينبغى ، لأن عبيد الله قتل جماعة منهم أظهر إسلامه وقت قتله وهو الهرمزان ، والآخرون أقل ما فيه أن له ذمة في أعناق المسلمين ، ما ينبغى أن تخفى ولا حجة له في قتلهم فأتى املى - رضى الله عنه - أن يتجاوز عن مثل هذا الدم الذى أريق من غير حق ، وهو يعلم أن طاعة الخليفة في هذا غير واجبة . إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وقد قال الله سبحانه (ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب) وقال (النفس بالنفس) الآية ، فلملى بعض الحق ، ولعثمان شيء من المذر ؛ وغفر الله لعثمان ؛ ورضى الله عنه وعن على ، وعن سائر السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان .

أما في الرواية التي ثبتت التهمة على الهرمزان وجفينة فإنها تحكى عن بعض الثقات الذين لا غرض لهم من ورأسها وهو شاهد عدل لما رأى، وقد أخبر بأنه رأى كل هؤلاء الثلاثة يتناجون ومعه شيء بينهم، فلما رأوه ثاروا فسقط منهم خنجر له رأسان وهو الذي قتل به عمر رضى الله عنه .

نعم — قد يقال : لماذا لم يلتقط عبد الرحمن هذا الخنجر ما دامو قد ثاروا لرؤيته ، ولم يثبتوا مكانهم . مما يدل على أنهم شارعون في أمر ربما قلب الدولة الإسلامية ، ولعل عبد الرحمن كان خالي الذهن من مثل هذه المؤامرات فهو لم يعهد أمثالها كثيراً في البيئة الإسلامية ، كما أنه كان يستبعد مثل هذه الأفكار أن تكون في رؤوس نفر أذلة بين قوم سادة أعزة لو أنهم فعلوا لقطعوا إرباً ، ولمزقوا بدداً .

وأما في الرواية الأخرى . فإنها . مع إثباتها أصل الاجتماع — تنفى أن يكون بقصد التآمر منهم جميعاً ، وإنما هو استرواح بعض العجم إلى بعض ، ولم يكن إمساك الهرمزان بالخنجر للثبوت من قيامه بمهمة صاحبه ، وإنما هو مجرد الاستطلاع فقط ، كما أن جفينة أيضاً كان جاهلاً كل الجاهل بما حدث حتى قتله عبيد الله وهذا فوق أن في الرواية الأخيرة كثيراً من التكلف — ونواحى من اللف والدوران — على أنها تروى عن ابن الهرمزان نفسه ، وكأنه يريد أن ينفي عن أبيه تهمة التآمر على رئيس الدولة خشية منه وحذراً — لذلك يقول ابن الأثير . والأول أصح في إطلاق عبيد الله . لأن علياً بعد ذلك طلبه فهرب منه إلى معاوية بن أبي سفيان .

على أن أمرين آخرين لابد من تفنيدهما قبل مغادرة هذه المسألة وهما :

١ — هل حدث قتل عبيد الله لهذا النفر وقت وفاة عمر أو بعدها .

٢ — هل اشترك كعب الاحبار في هذه المؤامرة الخطيرة ولماذا لم يتعرض له ابن عمر كما تعرض لصاحبيه ، مع أن التهمة له أظهر .

(١) أما عن المسألة الأولى فإنه ليخيل إلينا أن القتل لهؤلاء الفرس إنما حدث بعد موت عمر . فإننا لا نجد رأياً له رضى الله عنه في مثل هذه المسألة على خطورتها ، مع أن الهرمزان ليس بالشخصية المجهولة . فهو قد كان من عظماء فارس ، وهو أيضاً لا يزال موضع إجلال عمر ، يستشير به ويأخذ برأيه في كثير من مشا كل الفرس الداخلية وغيرها وجفينة ظهير لسعد بن مالك

على أننا إذا قطعنا النظر عن كل اعتبار آخر . نرى أن الهرمزان عند ما ضرب به ابن عمر . يقول : لا إله إلا الله ، فمعنى ذلك أنه أسلم ، وأنه لا يحل اعبيد الله قتله — إلا بحق ولا حجة على تلوث الهرمزان بدم عمر . فأتى للمسلمين — وهم لم ينأبهم الزمن بعد عن صاحب الشريعة — أن يروا مثل هذا الدم يراق بغير حقه . ولا يقتصون من القاتل وسماً عمر فهو إذن لم يكن موجوداً وقت قتل الهرمزان وصاحبه — أو صاحبيه وإلا لرأيا منه موقفاً آخر يتناسب ومواقفه الحاسمة في تاريخ الإسلام ثم انه يوجد هناك دليل آخر يؤخذ ضمناً من حديث المؤرخين بصدد هذه المسألة — فقد روى أن عبيد الله لما قتل الهرمزان وجفينة وأبالؤلوة^(١) أيضاً لحقه سعد بن أبي وقاص فقبض عليه وحبسه وأخذ منه السيف وأحضره إلى عثمان^(٢) .

وإذن فلم يحضره سعد إلى عمر ، ولم يحضره كذلك إلى أهل الشورى جميعاً وإنما أحضره إلى عثمان وإلى عثمان بالذات وأظنك تعلم أن عثمان إنما تولى الخلافة بعد موت عمر بأيام . ولذلك رأينا عثمان يأمر باحضار عبيد الله . ويستشير

(١) هذا على القول بعدم انتحاره بمنجبره وقت الحادث .

(٢) الكامل لابن الاثير

الصحابة . ثم يرفض الرأى القائل بقتل عبيد الله ويجعل عوض القصاص دية يحتملها فى ماله — حيث هو صاحب الأمر : والمهم من ذلك كله أن عمر لم يكن حيا حين قتل ابنه عبيد الله بعض رجال من فارس .

أما عن مسألة « كعب الإخبار » واشتراكه فى التآمر على عمر ، فإن من العسير على من يقرأ قصته باهتمام أن يخلى طرفه من هذه التهمة ؛ وإن صح ما يروى عنه مع عمر . فإنه يكون — بلا ريب — من أبطال هذه المؤامرة الخطيرة بل لعله الروح الفعالة فى حبكها وإحكامها ، وإليك خلاصة هذه القصة .

بعد حوار وجيز بين عمر — رضى الله عنه — وبين فيروز غلام المغيرة ابن شعبة ، شاكيا إلى عمر كثرة خراجه وقلة إيراده — ثم مصرحا بكلمات فهم منها عمر روح التهديد والوعيد ، وإن كان لا يعبأ بمثاتها ومثل المصرح بها . لظروف الناس وقتئذ — بعد هذا غدا إليه كعب الإخبار ، وقال له : يا أمير المؤمنين إنك ميت بعد ثلاث فاعهد ، فقال له عمر ، وما عرفك هذا ، فيقول كعب : إنه يجد هذا فى التوراة ، ثم يكرر كعب الإخبار هذه النصيحة لعمر مرتين أخريين ، وفى اليوم الثالث تقع الجريمة الشنيعة من فيروز غلام المغيرة ثم يدخل كعب على عمر فيمن يدخل من الناس ، فما يكاد عمر يراه حتى يقول :

توعدنى كعب ثلاثا أعدها ولا شك أن القول ما قال لى كعب
وما بى حذار الموت أنى لميت ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

هذه هى القصة كما يرويها المؤرخون ، والغريب المدهش أن تروى على أنها من الأمور العادية التى يسوغها العقل ، ولا ينبوعنها المنطق ولكن لو أننا سلطنا عليها شيئا من عصارة الأفكار الإسلامية ، ووضعناها فى ميزان النقد والتحليل التاريخى لتبين لنا أنها موضوعة من أساسها ، مقولة على السنة طالما كادت للإسلام ، وبفته عوجا .

ذلك . وان الناظر في هذه القصة ، أو بالحري الأسطورة ليرى فيها . أن .
عمر كان رجلا من رجال التصوف في الأيام الأخيرة ، يصدق كل ما يلقي إليه .
ولا يأبى أن يستمع إلى حديث الغيب ، وأن يوافق المتحدث به ، وتصور القصة .
لنا كعب الاحبار بصورة الرجل الناسك الزاهد الخائف على الاسلام والمسلمين .
في شخص أميرهم ورئيسهم كما أنها تدعو من طرف خفى إلى الإيمان بكتب
اليهودية ، وتقديس هذه التوراة التي يستند إليها الاحبار من إخوان كعب .
ووهب ، وابن السوداء ، وإن ذكر الكتاب أن التوراة لحقها التبديل والتغيير ،
وأن اليهود بنوع خاص يحرفون الكلم عن مواضعه ، وانهم من شر خلق الله .
انساناً وأن الله سبحانه قد غضب عليهم ولعنهم ، وجعل منهم القرود والخنازير ،
ومن عبد الطاغوت .

فمن غير الممكن عقلاً أن نسلم بهذه القصة على علاقتها ؛ بل . إما أن يكون .
لكعب ضلع في هذه المؤامرة وأراد تبرئة نفسه . فقال ذلك ؛ فلم يعره عمر اهتماماً .
تحقيراً لشأنه — على أن يكون الثابت هو — فقط — أصل القصة ، لا هذا .
الخصم من الأكاذيب والمفتريات التي حشيت بها القصة .

وإما أن تكون القصة مختلفة ؛ والفرض منها . هو الغاية من كل ما وضعه .
اليهود ومن لف لفهم من صرف الناس عن الاسلام . بإدخال الخرافات فيه .
والنيل من الشخصيات التي قام عليها . وتصوير القادة الذين نشروه بصورة
خيالية تشمئز من سماع الحديث عنها العقول الصافية . والألباب الناضجة .

الباب الثالث

الفتنة الكبرى

محمّد

ظلت دولة الإسلام ، طوال عهدي الشينين الجليلين أبي بكر وعمر ،
بوصدرا من عصر ذي النورين عثمان بن عفان — رضى الله عنهم ، على جانب
كبير من القوة والازدهار والتقدم ، حتى اكنسحت أعظم إمبراطورية في
العالم القديم ، وهى دولة الأكاسرة ، وضمت جميع أملاكها ومستعمراتها ،
والشعوب المتحالفة معها ، أو المنضوية تحت نفوذها ، إلى الدولة الإسلامية ، في
مدة قصيرة جداً لم تتجاوز عشر سنوات ، وهذا في مشرق الأرض الذى فى حكم
أباطرة الفرس .

أما فى القسم الغربى ، فإن الدولة الرومانية الشرقية التى كانت تبسط
نفوذها على أوروبا الشرقية ، وجزر البحر الأبيض ، والشام ، ومصر ، وإفريقية ؛
وكانت تنافس الامبراطورية الفارسية فى الجزيرة العراقية ، والموصل لم تقو على
مواجهة القوة العربية الإسلامية ، إذ انهزمت الجيوش الرومانية الجرارة ، فى
اليرموك ، ثم فى أجنادين ؛ وأخيراً فى موقعة « عين شمس » الفاصلة التى قضت
نهائياً على نفوذ الروم فى آسيا ، وإفريقية ، وبهذا أظّل النفوذ العربى الإسلامى
هذه الرقعة الفسيحة من قارتى آسيا ، وإفريقية ، وأظلت مبادئ الإسلام ،
بوحضارته ، وشريعته السمحة شعوب تلك الأقطار الشامعة .

لقد كان هذا كله في فترة وجيزة ، لا تعدو بضعة عشر عاماً ، بل أدنى من ذلك بكثير ، فأحدث ذلك ذهولاً خطيراً في أنحاء الدنيا ، إذ لم يكن يحول بخاطر أحد ممن يرقبون التطورات العالمية ، أن تبلغ الوثبة العربية هذه القمة من الحكم والسلطان .

ولكن الذي لا ريب فيه ، أن الحركة الثورية الهادفة ، التي أشعلها البعث الاسلامي ، قد أيقظت العملاق العربي ، وكشفت عن الخصائص الأصيلة للأمة العربية ، كما أوضحت لكل عربي ، أنه يتمتع بمقومات فطرية ممتازة ، وأنه لم يترهل من الترف والسرف والتبذل ، كما كان الحال في دولتي الأكرسة والقيصرة ، بل ظلت الفطرة الانسانية على جبلتها في جبهة القبائل والشعوب العربية ، على اختلاف مشاربها وأقاليمها ولهجاتها .

ومرة أخرى ، نؤكد أن هذا الانتصار الساحق ، الذي أحرزه العرب المسلمون في ميادين الحرب والسياسة ، وفي أدب ، البحث والفكر ، والمناظرة ، رغم عدم ممارستهم لأساليب الفلسفة ، والحضارات الرائجة في بعض الأمم والشعوب التي كانت تصاقبهم ، وتعاملهم ، كان مثاراً لتساؤلات ، ومؤامرات لدى دول العالم .

هذه واحدة ، ينبغي أن نعيها ونذكرها دائماً في مستقبل العروبة والاسلام في أخريات العهد الرشيد ، وإبان الفتنة الكبرى ، التي بدأت بطعن عمر ثم تفاقم أمرها في عهد عثمان وخلفائه .

أما الأخرى ، فإن أمر دراستها ، ينبغي أن يتجه شطر الصراع الذي سلف للمسلمين مع يهود إسرائيل ، أولئك الذين حاولوا تدعيم مركزهم في يثرب من إقليم الحجاز بشتى الوسائل والأساليب ، المادية العسكرية والثقافية اليهودية ، ثم بالمخالفات والاستحواذ على بعض ضعاف النفوس ، من منافقي العرب ، حتى لقد بلغ منهم

الأمل والطموح ، إلى حد أن يصنعوا التيجان المرصعة ، ليضعوها على رأس
العميل الوضيع عبد الله بن أبي في أرض الحجاز، ولكن الذي كتب على اليهود،
الذلة أننا ثقفوا خلق الظروف التي جعلت حملة المبادئ الإسلامية ، ودعاة
الحنيفية ملة إبراهيم الحقيقية ، يهاجرون إلى يثرب، ويركزون فيها نشاط الحركة
الإسلامية التي آمن بها جبهة الأوس والحزرج — وهم أهل المدينة الأولون —
ثم نظموا مع إخوانهم المهاجرين ، دولة جديدة ، وأمة مثالية ، يقوم على قيادتها
محمد رسول الله الذي استطاع بحكمته السديدة ، أن ينهض بكل المرافق العامة في
أول دولة عربية سجلها التاريخ لتلك الأمة ، في عصر الجشع الاستعماري القديم
الذي نفذ إلى أطراف الجزيرة من دولتي الفرس والروم، ثم اقتحم منطقة الحجاز
في شكل حصون حربية يتردد لليهود إقامتها في شمالي يثرب ، وعلى جانبي الطرق
التجارية ، الموصلة بين الشام والحجاز ، حيث القوافل العربية تواصل نقل تجارتها
الدائبة بين الشام والحجاز .

نقول : إن إقامة ددلة عربية إسلامية في بلد أحاطه اليهود بالقواعد العسكرية
بقصد التركيز والتوسع الإسرائيلي من جهة ، ثم بفرض تدعيم الاستعمارين
الفارسي والروماني من جهة أخرى ، خيب أمل اليهود ، وهزركأثر الاستعمار
الفارسي في العراق واليمن ، والروماني في مصر والشام ، وشمالي إفريقيا . ولهذا
هب اليهود أولا في شبه حركة جنونية ، يكيدون للإسلام ورسوله ودولته ،
ويدبرون ضروب المؤامرات لهدم مبادئ الدين ، وإذاعة المفتريات والشائعات
الضارة بدولة العرب .

وإذ قد رأينا فيما سبق، طرفا من النشاط الإسرائيلي ضد الإسلام ودولته، فلا
غري أن نعيد الآن تفاصيله، و فقط نشير هنا إلى أن تأمين دعوة الإسلام واستتباب

الأمن والنظام، قد أصبح غير ممكن مع وجود شراذم العدوان الاسرائيلية الحاقدة والضالعة علنا مع أعداء الدين والدولة .

وبالرغم من ذلك كله ، فإن رسول الله (ص) لم يعجل في أخذهم بتلك الأفعال ، بل صبر عليهم ، حتى أسفروا عن حقيقة موقفهم بالاعتداءات المتلاحقة على المسلمين والمسلمات ، بل لقد قرروا ضرب الجيش الاسلامى في ظهره يوم الخندق وغيره ، مما اقتضى فرض الحصار عليهم ، وإنزال الجزاء العادل بهم وبامثالهم ، سواء بطردهم من أرض الدولة ، أو تأميم مؤسساتهم وأموالهم .

على أن الذى أثار حفيظة اليهود أكثر من أى شيء آخر ، هو : الاعلان العالمى العام بإلغاء نظام الربا ، الذى أذاعه القرآن الكريم وأكده بالتنفيذ والتطبيق العملى النبى محمد (ص) ، وبهذا فقد اليهود مبالغ ضخمة كانت مستحقة لهم بحكم شريعة الربا الفاحش ، التى كانوا يمارسونها فى أوسع مدى ، وإلى أبعد الحدود .

ومع هذا فقد رضح اليهود للأمر الواقع ، فى عهد النبى (ص) وصاحبيه ولم يتمكنوا من إثارة فتنة ذات بال ، إذا استثنينا « حركة الردة » التى ظنوها قاصمة الظهر لدولة العرب الإسلامية ، ولكن حزم الصديق وحكمته ، وصمود المسلمين ، فوت عليهم هذا الغرض ، إذ أخذت تلك الحركة الانفصالية الخطيرة فى بضعة أشهر ، واصل العرب بعدها — وهم كتلة واحدة ، نضالهم ضد طغاة الفرس والروم ، حتى دحروهم كما سبق .

ومما لا ريب فيه ، أن اليهود منذ ذلك الوقت ، وهم دائبو التفكير والتدبير فى عمل شيء يشبع نفوسهم الطلعة إلى الإثم والعدوان ، يظاهرون بقايا الفرس الذين تقلص نفوذهم .

لهذا : فقد بدأت الحلقة الأولى من سلسلة الفتنة ، والتآمر ضد الإسلام ،
ورجاله ودولته، بجريمة اغتيال عمر التي أسلفنا جملة عنها ، ثم باغتيال عثمان وعلى
ومحاولة اغتيال معاوية وعمرو ، مما نعرض لبسطه في الفصول التالية ، وبعد أن
نقدم ترجمة موجزة للتعريف بهذا الرجل العظيم ، عثمان بن عفان رضى الله عنه،
الذى حمل عبء الخطر الأكبر الذى استعر فى العقد الرابع ، من القرن الأول
للهجرة النبوية .

الفصل الأول

عثمان يواصل توجيه الجهاد

نسبه وسيرة :

هو : عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف .
ولد في السنة الخامسة من ميلاد الرسول (ص) ومن عام الفيل ، وشب على مكارم
الأخلاق ، وعرف بالحياء والحلم ، وشجاعة الجنان .

أسلم على يد أبي بكر في مرحلة الدعوة السرية ، وتزوج بنتي رسول الله
(ص) رقية وأم كلثوم ، وهاجر المجرتين : الحبشة والمدينة ، حضر المشاهد كلها
عدا بدرأ التي عاقه عنها تمرضه لزوجته المشرفة على الموت ، وسفر بين المسلمين
والمشركين في عمرة الحديبية . ومن أجله بايع الرسول محبه بيعة الرضوان . ولقد
أسهم في تبوك بقدر كبير من المال لم يستطعه سواه ، ووضع نفسه وماله وتقوده
تحت تصرف دينه ورسوله .

كتب لأبي بكر وعمر ، وكان من كبار أعضاء مجلس الشورى في زمن الرسول
وصاحبيه . ثم بعد أن طعن عمر اتفقت أغلبية أهل الشورى على انتخابه خليفة
بعد عمر . فساس الدولة خير سياسة في أيامه الأولى ، ثم ابتلى بالفتن والدعاوى التي
نفشت أباطيلها في الأمصار ، إلى جانب أقاربه من بني أمية الذين زينوا له حسن
تقديمهم على المهاجرين والأنصار ، وأنه صلة منه لأرحامهم ، وهم ذوو كفاية وقدرة
أكثر من غيرهم ، فكانت العاقبة ما نتلو بعد في موضعه .

فتوح عثمان :

بعد أن بلغ المد الإسلامي غاية ما بعدها غاية في عهد عمر . إذ أزال الامبراطورية الفارسية من لوحة الوجود ، وضم أملاكها إلى الدولة . وطرده الرومان من الشام وفلسطين ومصر وطرابلس وبرقة ، وقسمت هذه الأقطار إلى ولايات على كل منها أمير ياتمر بأمر المدينة ، ولم يكن حين تولى عثمان شيء من النضال بين المسلمين ومجاوريهم يستحق أن يطلق عليه مواقع مهمة ، بل كل ما حدث إنما هو إما إخضاع لإقليم يحاول الانتفاض ، وإما توسع في أنحاء صغيرة متاخمة .

ولهذا فإننا سنذكر أهم الولايات التي قام أمراؤها ببعض الحركات الحربية في عصر عثمان .

جهاد الكوفة : ومن أهم الولايات التي كانت لها حروب ، ولاية الكوفة ، وقد كان ميدانها في الري وأذربيجان ، وكان بالكوفة أربعون ألف جندي ، وقد رابط منهم عشرة آلاف بالري ، ومثلهم بأذربيجان بعد فتحهما ، وقد انتقضت أذربيجان في إمارة الوليد بن عقبة للكوفة ، فأخضعها لحكم الدولة الإسلامية .

وحدث أن أرادت أرمينية أن تخرج على الخلافة ، فمنعت الجزية والخراج فأرسل إليها الوليد ، أحد قواده ، وهو : سلمان بن ربيعة الباهلي ، فأعادها إلى الطاعة .

وفي إمارة سعيد بن العاص على ولاية الكوفة ، تم فتح طبرستان ، وقد سار إليها بجيش كبير شمل بعض أبناء المهاجرين والأنصار ، ومنهم الحسن والحسين ابنا

على ، والعبادة أبناء عمر وعمر ، والمباس والزيبر ، حذيفة بن اليمان ، وغيرهم .
وقد صالح سعيد بن العاص أهل طبرستان .

وحوالى سنة ٣٢ هـ وصل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى إلى بحر الخزر
(قزوين) حيث استولى على إقليم بلنجر ، جنوبى البحر المذكور .

ولكن الترك الضاريين حول البحر اجتمعوا وهجموا على جيش العرب
المسلمين ، وأوقعوا به هزيمة شديدة ألجأت بعضهم إلى الفرار إلى جرجان
وجيلان ، والبعض الآخر ارتد جنوبا ووصل إلى أملاك الدولة الإسلامية .

جهاد البصرة : أما البصرة فكانت لا تقل عن الكوفة أثراً فى الفتح
والتوسع وكانت مغازيها فى بلاد فارس وخراسان وثمر السند والأقاليم المتاخمة
لأملاكها ، ففى عهد عبد الله بن عامر انتقض أهل فارس وقتلوا أميرهم عبيد الله
ابن معمر ، فسار إليهم ابن عامر وأوقع بهم هزيمة منكرة .

وفى عهد ابن عامر قتل يزدجرد آخر ملوك الفرس قتله بعض أتباعه كما أسلفنا .

وحوالى سنة ٣١ عصى أهل خراسان ، فسار إليهم أمير البصرة فى جيش
كثيف فما كاد يشرف على الطبسين حتى تلقاه أهلها طالبين الصلح فأجابهم :

أما أهل قهستان : فقد قاتلوا ودافعوا عن بلادهم ، ولكن كرات المسلمين
كانت شديدة ، فطلب القهستانيون الصلح فصالحهم ابن عامر . وكذلك حذت
نيسابور حذو طبس الأولى ، فعرضت الصلح بدون قتال .

ومن أشهر قواد البصرة : الأحنف بن قيس ، فقد فتح هذا الرجل بجيشه
مدن طخارستان ومرو الروذ ، وصالح أهل بلخ وأخضعهم ، ولم تمتنع عنه سوى
خوارزم من تلك الجهات الفارسية .

وقد عاد عبد الله بن عامر بعد أن غفر بهذه الفتوح إلى ولايته (البصرة) .

جهاد الشام : أما الشام ، فقد جمعت معاوية بن أبي سفيان ، فأصبح قائداً لجناده كلها جميعاً ، وكانت له غزوات مع الروم في البر والبحر ، وقد وصل معاوية إلى عمورية مسقط رؤوس أباطرة بيزنطة وأسكن الحصون التي بين الشام وبين عمورية جماعة من الجند كسالح تحميها من هجمات الروم ، وتحمي الحدود أيضاً من الأعداء .

وقد امتدت فتوحات معاوية إلى أقصى بلاد أرمينية ، فأخضعها وصالح أهلها ثم استمر في فتوحه إلى تفلّيس جهة باب الأبواب جنوب غربي الخزر .

وحوالي سنة ٢٨ هـ فتح معاوية جزيرة قبرص ، وهي من الغزوات البحرية الناجحة التي جعلت المسلمين يفكرون جدياً في مواصلة هذا اللون من النضال . البحري المفيد مما مكن لهم في تجهيز الأساطيل العظيمة فيما بعد ، ففتحوا معظم الجزر في بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) وصيروه بحيرة إسلامية .

جهاد مصر : وأما في القسطنطينية فقد كافي أميرها إلى أواخر عهد عثمان عمرو بن العاص ، وقد أسلفنا فتحه للاسكندرية صلحاً ، والآن في سنة ٢٥ هـ ، أي بعد ثلاث أو أربع سنوات نقض الروم الصلح ، وأغاروا على الاسكندرية . فسار إليها عمرو ، وهدم أسوارها ، وأوقع بالروم شر هزيمة ، وغنم كثيراً من مراكب الأسطول الروماني .

وقد أراد عمرو أن يمد رقعة ولايته في المغرب . فأعد جيشاً بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي مروح ، وسيره إلى سواحل أفريقية الشمالية ، وقد سار عبد الله ، وفتح في طريقه كثيراً من المدن ، بعد طرابلس غرباً ، وقد عاد بعد أن غنم مغانم كثيرة .

أهم نتائج هذه الفتوح :

قد يخطئ من يظن أن حروب العرب في صدر الإسلام ، إنما كانت لغرض الفتح والتوسع ، للاستعمار أو للمال والنفوذ ، وإرغام الدنيا على اعتناق مبادئ الإسلام ، كرهاً أو طوعاً ، ولذلك فإن مهمة المؤرخ النزيه من أشق المهام ، ولا سيما حين يعرض لبحث نتائج حروب تعتبر في زمننا الحاضر خاطفة . فقد استطاع العرب أن يفتحوا الدنيا المعروفة حينئذ في أقل من جيل .

ومن الغريب : أن تتركز هذه الفتوحات ، وتظل تشهد لهؤلاء الغزاة بالعبرية والنضوج في الحرب وسياسة الشعوب ، بل في التعمير والإنشاء ، وطرق الحكم والإدارة ، مما جعل البلاد التي حلوها فاتحين تخضع لحكمهم ، لا كخضوع البلاد المحتلة اليوم بل إطاعة الراضى المطمئن لأمثل لإدارة شرعها الإنسان لأخيه الإنسان . فما هي الخوافز لهؤلاء العرب المسلمين إلى فتح بلاد الأمم ، وما هي النتائج الحقيقية التي أثمرتها تلك الحروب ؟ ذلك ما نوضحه بعد ، في إيجاز :

إن المتتبع لتاريخ المسلمين ، وكيف ظلوا زمناً — في بدء الدعوة — لا يستطيعون الجهر بمبادئهم ، ولا عبادة ربهم ، إلا سرا وخفية من الناس ، حتى إذا ما أحس العالم بدينهم طاردهم وتآمر عليهم ، وأعلن حرباً إجماعية على نبيهم ، فهؤلاء سادة العرب ، وعلى رأسهم قريش ، قد يبتوا أمرهم على قتل الرسول وتشريد صحبه المسلمين .

وهذا امبراطور فارس يرسل إليه نبي الإسلام ، ورئيس الدولة الاسلامية محمد بن عبد الله ، كتاباً يفيض رقة وعذوبة ، ويخلص له النصيح وسبل الهداية ،

فيجيبه بتمزيق الكتاب الكريم ، ويرسل إلى أحد عماله بأن ينكل بمرسله ، ويستأصل أتباعه حتى لا يبقى في الجزيرة من يقول « لا إله إلا الله » .

وهذا امبراطور الروم يقف من المسلمين موقف العداء السافر ، فيعين المتعمردين في مشارف الشام على المسلمين ، ويمدهم بالأسلحة والعتاد ، ويحارب العرب بالعرب ، وغير هؤلاء ممن حاربهم المسلمون لو فتشنا عنهم من التاريخ الصحيح لوجدناهم جميعاً قد بدأوا بالعداء ، وحاولوا الوقوف في سبيل المبادئ الإسلامية ، التي لم تكن إلا دعوة التحرير والمساواة وشريعة الإصلاح المنتظر لشتى مناحي الحياة .

ونرى من هذه الإلمامة السريعة . أن الحروب الإسلامية في عهد النبي وخلفائه الراشدين . ترجع جملة الأسباب التي شنت من أجلها إلى أمرين اثنين ، هما : الدفاع عن النفس . وحماية الدعوة الإسلامية . وأما الأموال ، والنفوذ ، وتوسيع رقعة الدولة . فهي أمور ترتبت على القتال بحكم الظروف وملابسات الحرب وتقاليدها .

ويمكن إجمال أهم النتائج الإيجابية لفتوح الراشدين في الأمور الآتية :

أولاً — ظهور الأمة العربية في الميدان الدولي :

فقد كانت هذه الأمة وقت رسالة الاسلام ، موزعة هنا وهناك ، لا بجمعية نظام واحد تدين له بالولاء ، وليست لها سياسة موحدة ، ولا شريعة منظمة ، بل كانت منها جماعة تتبع الفرس في العراق واليمن ، وأخرى تدين للروم في الشام وما جاورها . وكانت شهرة العرب في التنازع والتنابد ، والهمجية والفوضى .

اللهم إلا ذلك الضرب من الفصاحة الفطرية والبلاغة البدوية التي لا يد لهم فيها ،
ولا شأن لقومهم في تكلفها ، وما اشتهر به العربي من الأنفة ، والشجاعة ،
والكرم ، والنجدة ، والتي استغلها المستعمرون من الفرس والروم في ضرب القبائل ،
بعضها ببعض ، ففرقوا بينهم ليسودوا عليهم ، ويسخروا جزيرتهم لصوالحهم ،
وشهواتهم المتعددة .

فلما توحدت الجزيرة ، وانضوت تحت شريعة الاسلام ، أصبح للعرب
شخصية ، ودولة قوية أمكنها أن تقوض دولة الفرس والروم ، وأن تؤسس على
أنقاض الظلم والظفیان ، والاستبداد التي أشاعها هؤلاء في الدنيا ، دولة مؤسسة على
التقوى من أول يوم . فشاع العدل . وعمت المساواة . وأخصب الناس في كل شبر
دان بالاسلام . ورضى بإدارته . وبذلك أصبح للأمة العربية صفة دولية قوية .
وكانت الدولة الإسلامية العظمى .

على أن من أهم الانقلابات المترتبة على ظهور الدولة العربية في أحضان الإسلام
ذلك الانقلاب الشامل الذي غمر المعمورة كلها . فلقد زالت امبراطورية الفرس
نهائيا . وأصبحت أملاك الأكاسرة قطعة من الدولة العربية الإسلامية . وغزت
مبادئ الإسلام قلوب الفرس فدانوا — طوعا لا كرها — بمبادئه ، وأسلموا
لله ، وأصبحوا من أخلص الناس لتعاليم محمد ، وشريعة القرآن .

وليس الروم المسيحيون بأقل شأنا من الفرس ، فهذه أملاك الدولة البيزنطية
في آسيا وأفريقية تقتطع من أباطرة الروم ، وتتبع الدولة الإسلامية ويعتق الشاميون
والمصريون والأفريقيون إلا قليلا منهم — مبادئ الإسلام ، ويصبحون عاملا
قويا من عوامل نشره والدفاع عن دولته . وهذا الانقلاب ليس إلا وليد الحروب
التي دافع بها العرب المسلمون عن أنفسهم ومبادئهم فكان انتصارهم على الظالمين

وتملك أرضهم وديارهم ورعاياهم الذين رضوا بشريعة العرب ، وقوانين الإسلام التي تضمن للجميع العدل والرحمة والمساواة .

ثانيا — التطور في فنون الحرب والسياسة :

فقد كانت الحرب تنشأ بين الشعوب من أجل قطعة من الأرض، يراد تملكها أو بسبب اعتداء يقع على بلد أو قبيلة ، ولكنها الآن تطورت فأصبحت الحروب بسبب المبادئ ، فالمسلمون يريدون أن تكون مبادئهم هي السائدة على الجميع والمشركون والمجوس وغيرهم يريدون سيادة مبادئهم، وهنا اصطدمت هذه المبادئ المتناقضة ، وأصبح اتباعها وجهاً لوجه .

على أن هذا لم يكن كل شيء في التطور الحربي ، بل نجد لونا جديداً آخر، وهو ما كان يعرضه الغزاة العرب على أعدائهم من : الإسلام أو الجزية أو المناجزة وعدم التعديل في هذه الكلمات الثلاث حسب ترتيبها ، وهذا ضرب لم يعرف لدى الفرس والروم ولا غيرهما من قبل .

ثم هذه المعاهدات، التي أبنا بعضها منها فيما سلف ، لم تكن معروفة بشكلها الإسلامي قبل ظهور الدولة الإسلامية وحروبها .

على أن النتيجة الفريدة التي نجمت عن حروب المسلمين بعد فتح البلاد ، هي تلك السياسة الفذة التي أرضت جميع الشعوب ، إلا من كان في قلبه حقد على العدل والمساواة ممن كانت تحذتهم نفوسهم بالفتن والعصيان ، وهؤلاء اضطروا المسلمين أحيانا إلى الشدة معهم والتفكيك بهم .

لقد ساس المسلمون الشعوب التي فتحوها ، فأحببتهم وقلدتهم ، وامتزجت معهم حتى كان هذا اللون البديع من عباقرة الإسلام في الشرق الإسلامي ؛ وأسبانيا ومصر الإسلاميتين ؛ وغيرهما .

ثالثاً - ومن أهم النتائج التي ترتبت على الحروب ، إلى جانب توسيع رقعة الدولة ، ونشر مبادئ الاسلام في البلاد المفتوحة ، وانتشار العلوم ، والحضارة العربية والاسلامية تسرب المبادئ الاسلامية إلى الملل والنحل الأخرى ، التي كانت تدين بها الأمم المجاورة ، وقد زالت بعض هذه الديانات بعد أن التقت بالاسلام ، في أول جولة ، من جولات النضال ، وذلك يظهر بوضوح في ديانات الفرس من زرادشتية ، وماتوبة ومزدكية . ومن تلك الديانات ما صمدت ، ولكنها بدأت تعدل في مبادئها وفقاً لما ينادى به العرب في كل مكان من توحيد الله . ونلاحظ هذا التعديل بعد الاسلام ، في الخلاف الذي نشأ حول عبودية المسيح وألوهيته والوهبة العذراء وبشريتها ، وعبادة الصور وتقديسها ، أو باعتبارها أموراً عادية ، ولقد تفاقم هذا النزاع بين قساوسة المسيحية ولا سيما في بيزنطة وأيا صوفيا حيث كان المسلمون والمسيحيون يلتقون كثيراً ويتحدثون في الدين وغيره بحكم العادة . ولعل كثيراً من مذاهب المسيحية يدين بوجوده لتعاليم محمد والقرآن .

فالفتوحات الاسلامية إذن أنتجت تعديلات كثيرة في الملل ، والديانات الأخرى ، بل ان الباحث عن نشوء الفرق المسيحية أو جلها ، وكذلك اليهودية ليرى أن أساسها احتكاك هؤلاء بالمسلمين وتسرب الاسلام بمبادئه الصافية الصريحة إلى نفوسهم .

وعلى الجملة فإن حروب الراشدين التي كان هدفها — كما أسلفنا — الدفاع عن النفس والمبادئ قد أثمرت ثمرات شهاً طيباً في تأمين النفس والمبادئ ، وأصبح الراكب يسير من صنعاء إلى بصرى ، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه كما أخبر رئيس الدولة الأول عليه السلام .

هذا فضلاً عن ذلك الابتكار والتجديد في نظم الحكم والادارة مما سجله

علماء الدنيا بالحمد والثناء على العرب القاطنين وأسلوبهم الحارم في معاملة الشعوب
التي دانت لدولتهم أمداً طويلاً ، وخضعت لسلطانهم فترة غير قصيرة .
ونجترىء بهذا القدر من نتائج حروب الخلفاء ، لتسرع بكم إلى حقبة غامضة
من أحقاب التاريخ الاسلامى . وتلك فتنة السبئية في الأمصار على الخليفة الثالث ،
وما انتهت إليه ، ثم خلافة على ونزاعه مع معاوية وكيف انتهى هذا النزاع .
ومع اكفهرار ليل الحوادث المتناقضة في هذه الحقبة . فإننا نرجو أن نوجز
كلمة في هذا تعطينا فكرة واضحة يمكن الاطمئنان إليها بإذن الله تعالى .

الفصل الثاني

فتنة في الأمصار

من أهم أسباب الفتنة تلك الدعاية الخبيثة التي تولى بثها ابن السوداء^(١) وألف لها أنصارا يدعون لمذهبه في الوصية والرجعة^(٢) ، والطعن على ولادة عثمان بما زعموه أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر .

ومن أهم الأسباب أيضاً عزل عثمان عمال عمر ، وتولية بدلهم من أقاربه ، فعزل عمرو بن العاص عن القسطنطين ، وولى بدله عبد الله بن سعد ، وعزل أبا موسى الأشعري ، وعزل المغيرة بن شعبه وولى على العراق عبد الله بن عامر وجعل مروان وزير الخلافة الأول ، والمتصرف في جميع شئونها . ومعاوية منفرد بأجناد الشام ، وبذلك أصبح المهاجرون والأنصار ليس لهم من أمر الدولة شيء ، وقد قامت بسيوفهم وتضحياتهم .

ولذلك تفاعلت هذه الأسباب مجتمعة ، وكانت تلك الفتنة الجامعة التي لم يستطع كبار المسلمين أن يحولوا بينها وبين هدفها الوحيد من عزل عثمان أو قتله إن لم يعتزل .

(١) هو عبد الله بن سبأ أحد يهود اليمن الذين أسلموا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ونظم دعايته ليوقع الفوضى بين المسلمين في عهد عثمان كما سنوضح بعد .

(٢) من مبادئ السبئية القول برجعة الرسول بعد موته ؛ ويقيئون ذلك على رجوع موسى من التيه أو ما روى من رجعة عيسى بن مريم كذلك يقول ابن السوداء بأن الرسول نص على خلافة علي بعده ، ووصى للمسلمين في نص وضموه كذبا على رسول الله وسنشرحه في الفصول التالية من الكتاب .

ولما ارتفعت الشكوى من عمال عثمان وإشاعة استبدادهم بالرعية في إماراتهم ، ذهبت وفود من القسطنطين والبصرة والكوفة متظلمة من أمراء عثمان في نواحيهم وقد حاول عثمان أن يصلح الأمر ويتلافاه كما تكلم على عدة مرات في هذا الشأن . وصرف الوفود إلى بلادها ولكن عثمان بتعريض مروان بن الحكم فيما قيل قدأبى الاستماع إلى نصائحه ، وأخيرا جاءت الوفود إلى المدينة تحمل كتابا يقال إنه من مروان ، كتبه بخطه . وختمه بخاتم الخليفة وأرسله مع ورش غلام عثمان إلى عامله على مصر يأمره الخليفة بقتل الذين وفدوا على المدينة ولقد عرض هذا الكتاب على الخليفة عثمان ، فصرح بأنه لا يعلم من أمره شيئا ، وهنا طلب منه أن يسلم إليهم مروان فأبى أن يسلمه ، فاستشاطوا غضبا ، وحاصروا الخليفة في بيته . ويقال ان أقاربه تخلوا عنه وقت الشدة وهربوا من المدينة ولكن عليا وأولاده ومواليه دافعوا عنه دفاعا مشهودا بحيث لم يستطع المتآمرون أن يتغلبوا عليهم إلا بعد جهد عظيم وأخيرا تسلق إثنان منهم جدار بيته وقتلاه وهو ابن اثنين وثمانين أوست وثمانين عاما وكان متوسط القامة بارز عضلات الوجه يمتاز بالجود والكرم البالغ ، والحذب الشديد على أقاربه وكان مما أذاعه المغرضون عنه منح مروان بن الحكم وعبد الله بن سعد بن أبي سرح أموالا طائلة من بيت المال كما منح غيرهما من أقاربه . وقد جلبت عليه تلك الشائعات سخط كثير من قادة الرأي العام ونظر الخطورة هذه الفتنه فإننا نرى أن نفصل ظروفها وملابساتها من المصادر العربية الأصلية وذلك فيما يتلو .

يقول المؤرخون : لما ورد ابن السوداء إلى الشام لقي أباذر فقال : يا أباذر ، ألا تعجب من معاوية يقول : المال مال الله . ألا إن كل شيء لله كأنه يريد أن يحتجنه من دون الناس ويمحو اسم المسلمين فأتاه أبوذر فقال لمعاوية : ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله الساعة قال : يرحمك الله يا أباذر ألسنا عباد الله والمال حماله . قال . فلا تقله . قال . سأقول مال المسلمين فأبى ابن السوداء أبا السوداء فقال له

مثل ذلك فقال : أظنك يهودياً . فأتى عبادة بن الصامت فتعلق به عبادة وأتى به معاوية فقال : هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر ، وكان أبو ذر يذهب إلى أن المسلم لا ينبغي له أن يكون فى ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفقه فى سبيل الله أو يعده لكریم . ويأخذ بظاهر القرآن « الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » فكان يقوم بالشام ويقول : يامعشر الأغنياء واسوا الفقراء . بشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم . فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء وشكا الأغنياء ما يلقون منهم .

فأرسل إليه معاوية بألف دينار فى جنح الليل فأنفقها . فلما صلى معاوية الصبح دعا رسوله الذى أرسله إليه فقال اذهب إلى أبى ذر فقل له : انقذ جسدى من عذاب معاوية فإنه أرسلنى إلى غيرك وإنى أخطأت بك ففعل ذلك فقال له أبو ذر يا بنى : قل له والله ما أصبح عندنا من دنائرك شيء ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجتمعها فلما رأى معاوية أن فعله يصدق قوله كتب إلى عثمان : إن أبا ذر قد ضيق على ، وقد كان كذا وكذا الذى يقوله الفقراء ، فكتب إليه عثمان : إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ، ولم يبق إلا أن تثب ، فلا تنكأ القرح وجهز أبا ذر إلى ، وابعث معه دليلاً ، وكفكف الناس بنفسك ما استطعت ، وبعث إليه بأبى ذر ، فلما قدم المدينة ورأى المجالس فى أصل جبل سلع قال : بشر أهل المدينة بغارة شعواء ، وحرب مذكارة ، ودخل على عثمان فقال له ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك فأخبره . فقال : يا أباذر ، على أن أقضى ما على . وأن أدعوا الرعية إلى الاجتهاد والاقتصاد . وما على أن أجبرهم على الزهد ، فقال أبو ذر ، لا ترضوا من الأغنياء حتى يبذلوا المعروف ويحسنوا إلى الجيران والأخوان ، ويصلوا القرابات . فقال كعب وكان ..

حاضرا — من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه ، فضربه أبو ذر فشجه ، وقال له :
يا ابن اليهودية ، ما أنت وما ههنا ، فاستوهب عثمان كعباً شجته . فوهبه . فقال :
أبو ذر لعثمان : فأذن لي في الخروج من المدينة ، فإن رسول الله ﷺ أمرني
بالخروج منها إذا بلغ البناء سلماً فأذن له ، فنزل الربذة وبنى بها مسجداً ، وأقطعه
عثمان عدداً من الإبل وأعطاه مملوكين وأجرى عليه كل يوم عطاء ؛
وكذلك على رافع بن خديج ؛ وكان قد خرج أيضاً عن المدينة لشيء سمعه
وكان أبو ذر يتعاهد المدينة مخافة أن يعود إعرابياً ؛ وأخرج معاوية إليه أهله
ومعهم جراب مثقل يد الرجل ؛ فقال ؛ انظروا إلى هذا الذي يزهد في الدنيا ما عنده
فقلت امرأته ؛ والله ما هو دينار ولا درهم ؛ ولكنها فلوس . كان إذا خرج عطاؤه
ابتاع منه فلوساً لحوائجنا .

ولما نزل أبو ذر الربذة ، أقيمت الصلاة وعليها رجل يلي الصدقة ، فقال : تقدم
يا أبا ذر فقال : لا . تقدم أنت فإن رسول الله (ص) قال لي : اسمع وأطع وإن كان
عليك عبد مجدع وأنت عبد ولست بأجدع ، وكان من رقيق الصدقة ، اسمه
مجاشع^(١) .

وقصة أبي ذر هذه ، كان ينبغي أن تفتح الأعين على ابن السوداء وشرذمته ،
ولا سيما وقد قبض عليه عبادة بن الصامت ، وقدمه بحذافيره إلى معاوية رضي الله عنه .
بيد أن القوم حينئذ كانوا لا يأخذون بالظنة ، ولا يعاقبون بالشبهة ، ولعل
معاوية كان يقدر أن كلمة ابن السوداء ، إنما أملاها مجرد السعي للمعرفة ، والتفقه
في الدين ، واستجلاء الجائز من غيره حتى في تسمية الأشياء ، والتعبير عن المبادئ
والمثل ، ولهذا فإنه لم يعمل على التحقيق معه ، والبحث عن دخيلة أهدافه ونواياه

(١) راجع الطبري وابن الأثير في قصة أبي ذر رضي الله عنه .

وكل ما قلم به ، هو اخطار عثمان بما حدث ، وإبعاد أبي ذر عن الشام حتى لا يحرض
الفقراء على الأغنياء ، وتكون صراعا طبقياً بين طوائف الأمة ، وربما ترهق فيها
الأرواح . . ولكن ينبغي أن لا تنقل قول الخليفة لمعاوية « إن الفتنة قد أخرجت
خطها وعينها » .

وإذن فقد عرف عثمان مما حدث ، أن الجدال ليس بريثا ، وإنما هو لغرض
الفتنة ، لأن حق الفقراء ليس موضع جدل ، بل هو من أركان الإسلام الخمسة .
كذلك ينبغي أن لا نهمل قول الصحابي الجليل أبي الدرداء لابن سبأ : أظنك
يهوديا وإذا أضفنا كل ذلك إلى تعلق عبادة بن الصامت بابن السوداء ، وتقديمه
إلى حاكم الشام يتضح لنا أن نشاط هذا الخبر الخبيث (ابن سبأ) قد كشف
— ولو إلى حد ما — هذه الدعوة ولكن من الحق أن نقرر أيضاً ، أن حقيقة الدعوة
السبئية كانت معماة على المسلمين ولم يكن يعرف عنهم أكثر من أنهم جماعة تدعو
إلى الزهد والتسك ، وإسناد الأمور إلى من ترشحهم مواهبهم وتضحياتهم لها ،
ثم هم يسرون في الناس متظاهرين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حسبة لله
تعالى ، ومن ثم اتخذ بهم جمهور المسلمين .

ومع هذا فإن السبئية ، قد استغلت اعتزال أبي ذر في قرية الربذة القريبة من
المدينة ، فأشاعت ما أشرنا إليه من نفية واضطهاده . والتضييق عليه ولعل هذا
يحفزنا لأن نجمل أمورا فعلها عثمان ، وهي مشروعة في الدين والسياسة ولكن
السبئية ، اتخذت منها سبيلا للطعن على عثمان وعهده وعماله .

وأول شيء يواجه عثمان في سنة استخلافه ، هو تنفيذ وصية عمر في ارجاع
سعد بن أبي وقاص إلى الكوفة ، بعد عزل المغيرة بن شعبة . يقول ابن الأثير في
ذلك . عزل عثمان المغيرة بن شعبة سنة ٨٢٤ عن الكوفة ، واستعمل سعداً بن
أبي وقاص عليها بوصية عمر . فإنه قال : أوصى الخليفة بعدى أن يستعمل سعدا ،

فإني لم أعزله عن سوء ولا خيانة ، فكان أول عامل بعثه عثمان فعمل عليها سنة
وبعض أخرى ، وقيل بل أقر عثمان عمال عمر سنة ، لأن عمر أوصى بذلك ،
ثم عزل المغيرة بعد سنة واستعمل سعدا .

وفي نفس هذه السنة تم عزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة وابداله بالوليد
ابن عقبة وهو أخو عثمان لأمه ، وذلك بسبب خلاف شديد نشب بين سعد
وعبدالله بن مسعود الذي كان على يئتم مال الكوفة ، فرأى عثمان أن يحسم الأمر
بعزل الاثنين عنها وتولية الوليد .

وثمة أمور أخرى حدثت من عثمان ، مثل الزيادة في الحرم المكي ، مما ترتب
عليه هدم بعض البيوت المجاورة وضمها إليه ، وقد دفع عثمان الثمن لأصحاب هذه
البيوت ، ومن رفض منهم تسلم استحقاقه وضعه في بيت المال على ذمة صاحبه .

وفي سنة ٢٦هـ عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر ، وولى عليها عبدالله بن سعد بن
أبي سرح وهو أخو عثمان من الرضاعة ويقال إن عمرو بن العاص قد غضب لذلك

وفي سنة ٢٩هـ عزل عثمان أبا موسى الأشعري عن البصرة . واستعمل
عبد الله بن عامر وهو خال عثمان . يقول ابن الأثير في سبب عزل أبي موسى :

وكان سبب عزله أن الأكراد كفروا في السنة الثالثة من خلافة عثمان ، فنادى
أبو موسى في الناس ، وحضهم على الجهاد وذكر من فضل الجهاد ماشيا ، فحمل
نفر على دوابهم وأجمعوا على أن يخرجوا رجاله . وقال آخرون ، لانهجل بشيء

حتى ننظر ما يصنع ، فإن أشبه قوله فعله ، فعلنا كما فعل فلما خرج ، أخرج ثقله من
قصره على أربعين بغلا ، فتعلقوا بعنانه وقالوا : أحملنا على بعض هذه الفضول ،

وارغب في المشي ، كما رغبتنا ، ف ضرب القوم بسوطه فتركوا دابته فمضى ، وأتوا
عثمان فاستعفوه منه وقالوا ما كل مانع نحب أن تسألنا عنه فأبدلنا به وقد أبدلهم

عثمان عنه عبد الله بن عامر بن كريز وسنه لم تتجاوز خمسا وعشرين وجمع له
عثمان جند أبي موسى الأشعري ، وجند عثمان بن أبي العاص الثقفي من عمان

والبحرين ، واستأنف ابن عامر الجهاد على نطاق واسع .

وفي سنة ٢٩ هـ زاد عثمان في مسجد النبي ﷺ ونقل إليه الجعن من بطن نخيل، وبناه بالحجارة للنقوشة، وجعل عمده من حجارة فيهارصاص، وجعل طوله ستين ومائة ذراع (١٦٠) وعرضه خمسين ومائة ذراع (١٠٥)، وجعل أبوابه على ما كانت عليه أيام عمر، ستة أبواب وفي نفس تلك السنة حج عثمان بالناس، وضرب فسطاطا بمنى، فكان أول فسطاطا ضربه عثمان بمنى، وأتم الصلاة بها، وبعرفة، فكان أول ما تكلم به الناس في عثمان علنا حين أتم الصلاة وقد عاب كثير من الصحابة إتمام الصلاة حتى لقد سألوا عثمان عن السبب في هذا الصنيع الذي يفعله لأول مرة مخالفا الرسول وخليفته، بل حتى عثمان نفسه قبل سنة ٢٩ هـ ويقال إن عثمان أجاب معتذرا عن ذلك بأنه رأى رآه وأنه قد اتخذ بمكة اهلا، وبالطائف مالا، وأنه فوق ذلك شهد من أهل اليمن وآخرين يقولون إن الصلاة للمقيم ركعتان وأنهم احتجوا بصلاته، فأراد أن يعلمهم أن صلاة المقيم أربع تسكينا لهذه الفتنة.

وبالرغم من هذا فإن الذي فعله عثمان في منى، قد لفت أنظار الصحابة بالذات فجعلهم يشفقون على عثمان، بل وقد يتسامحون في الاستماع إلى الشائعات التي راجت فيما بعد.

وفي سنة ٣٠ هـ عزل عثمان الوليد بن عقبة عن الكوفة، وولاه سعيد بن العاص، كما أنه حدث تسير أبي ذر — حسب طلبه — إلى الربذة كما سبق.

جمع القرآن :

وفي هذه السنة كان أمر المصاحف، وما نجم عن ذلك من جدال. يقول المؤرخون : لما عاد حذيفة من غزو الرى والباب، قال لسعيد بن العاص وإلى الكوفة، لقد رأيت في سفرتي هذه أمرا لئن ترك الناس ليختلفن في القرآن، ثم لا يقومون عليه أبدا. قال وما ذاك قال : رأيت أناسا من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم، وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد، ورأيت أهل

دمشق يقولون ان قراءتهم خير من قراء غيرهم، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك وأنهم قرءوا على ابن مسعود . وأهل البصرة يقولون مثل ذلك، وأنهم قرءوا على أبي موسى ، ويسمون مصحفه لباب القلوب ، فلما وصلوا الى الكوفة ، أخبر حذيفة الناس بذلك وحذرهم ما يخاف ، فوافقه أصحاب رسول الله ﷺ وكثير من التابعين ، وقال له أصحاب ابن مسعود ، ماتنكر . ألسنا نقرؤه على قراءة ابن مسعود ، ففضب حذيفة ومن وافقه . وقالوا انما أنتم اعراب فاسكتوا فانكم على خطأ . وقال حذيفة والله لئن عشت لآتين أمير المؤمنين ولاشيرن عليه ان يحول بين الناس وبين ذلك ، فاعلظ له ابن مسعود ، ففضب سعيد وقام ، وتفرق الناس ، وغضب حذيفة وسار الى عثمان فاخبره بالذي رأى ، وقال . انا النذير العريان ، فادركوا الأمة ، فجمع عثمان الصحابة وأخبرهم الخبر ، فاعظموه ورأوا جميعا ما رأى حذيفة ، فارسل عثمان الى حفصة بنت عمر ، ان ارسلى الينا بالصحف ننسخها ، وكانت هذه الصحف هي التي كتبت في أيام أبي بكر . فإن القتل لما كثر في الصحابة يوم اليمامة ، قال عمر لابي بكر . ان القتل قد كثر واستحرق بقاء القرآن يوم اليمامة ، واني اخشى ان يستحرق القتل بالقراء فيذهب من القرآن كثير ، واني أرى ان تأمر بجمع القرآن . فأمر أبو بكر ، زيد بن ثابت فجمعه من الرقاع والعشب وصدور الرجال ، فكانت الصحف عند أبي بكر ، ثم عند عمر ، فلما توفي عمر أخذتها حفصة فكانت عندها ، فارسل عثمان اليها فأخذها منها . وأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد ابن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان . إذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قریش ، فانما نزل بلسانهم ، ففعلوا ، فلما نسخوا الصحف . ردها عثمان الى حفصة وأرسل الى كل أفق بمصحف ، وحرق ما سوى ذلك ، وأمر ان يعتمدوا عليها ويدعوا ما سوى ذلك ، فكل الناس

عرف فضل هذا الفعل.. إلا ما كان من أهل الكوفة فإن المصنف لما قدم عليهم فرخ به أصحاب النبي ﷺ وأما أصحاب عبد الله ومن وافقهم ، فقد امتنعوا من ذلك ، وعابوا للناس... ولما قدم ابن مسعود الكوفة قام إليه رجل فعاب عثمان بجمع الناس على المصنف، فصاح وقال: أسكت . فمن ملأ منا فعل ذلك، فلو وليت منه ما ولي عثمان، لسلكت سبيله.

هذه قصة جمع القرآن . وهي تحكى لنا قصة توحيد كلمة الأمة الاسلامية ، كلما انحرفت بها السبل ، وتعددت المذاهب والاهواء، ولسنا نجد وسيلة عملية مؤكدة النجاح في جمع شعوب المسلمين وقبائلهم ، وإزالة الشقاق والفرقة من بينهم سوى هذا السبيل القاصد وهي اجتماعهم على كتاب الله .

سقوط الخاتم النبوي :

ومن الأشياء التي لا كتبها السنة السبئية سقوط خاتم النبي (ص) الذي كان في يد عثمان ، في بئر أريس — وهي على ميلين من المدينة ، وكانت قليلة الماء ، وكان رسول الله (ص) اتخذه لما أراد أن يكتب الاعاجم ، يدعوهم إلى الله تعالى ، فقبل له إنهم لا يقبلون كتابا ، إلا مختوما ، فأمر رسول الله (ص) أن يعمل له خاتم من حديد ، فلما عمل جعله في أصبعه ، فأثاه جبريل فنهاه عنه ، فنبذه ، وأمر بعمل له خاتم من نحاس وجعله في أصبعه ، فقال جبريل : انبذه فنبذه ، وأمر رسول الله (ص) بخاتم من فضة فصنع له ، فجعله في أصبعه فأمره جبريل أن يقره ، فأقره ، وكان نقشه ثلاثة أسطر . محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر ، فتختم به رسول الله (ص) حتى توفي ، ثم تختم به أبو بكر حتى توفي ، ثم عمر حتى توفي ، ثم تختم به عثمان ست سنين ، فحفروا بئرا بالمدينة شربا للمسلمين . فقام على رأس البئر ، فجعل يبعث بالخاتم فسقط من يده في البئر فطلبوه فيها ونزحوا ما فيها من

الماء ، فلم يقدروا عليه ، فجعل فيه مالا عظيما لمن جاء به واعتم لذلك غما شديدا .
فلما يئس منه صنع خاتما آخر على مثاله ونقشه ، فبقى في أصبعه حتى هلك ، فلما
قتل ذهب الخاتم ، فلم يدرك من أخذه

ومن العجيب أن يتخذ السبئية من قصة الخاتم ذريعة للطعن على عثمان وعهده ،
حتى لقد رموه بالتهاون وانتهاك الحرمات ، لأن خاتما في يده سقط في البئر بقضاء
الله وقدره .

رأى آخر في السبئية :

يرى بعض الباحثين ، أن شخصية ابن سبأ شخصية أسطورية ولا وجود
له وإنما هي فرية لفقها سيف بن عمر التميمي ، ثم نقلها عنه السري وغيره ، فاثبتها
الطبرى في كتابه « تاريخ الأمم والملوك » وابن عساكر في « تاريخ دمشق » .
ثم تداولها المتأخرون من أمثال ابن الأثير ومن عاصره أو تلاه فرددوا جميعا
هذه الأسطورة ، لمجرد تبرير قتل عثمان ^(١) .

(١) يقول السيد / مرتضى العسكري في كتابه « عبد الله بن سبأ » للطبوع
في سنة ١٣٨١ بالقاهرة « اشتهرت قصة ابن سبأ وشاعت ، وقد رأيت أن
الذين يذكرون سند روايتهم لها ، يشتهون إلى الطبرى بلا واسطة أو بواسطة
واحدة أو أكثر . وفي الكتاب وللؤرخين من يوردها في تأليفه ولا يذكر سند
روايته ولا للمصدر الذي اعتمد عليه فلذا ذكر مصادر بحثه بالجملة وجد اسم
الطبرى أو أسماء الكتب التي أخذت عنه .

وتحت عنوان « سند الطبرى » يقول : قد أورد الإمام أبو جعفر محمد بن يزيد
ابن خالد بن جرير الطبرى الآملى للتوفى سنة ٣١٠ هـ قصة السبئية في كتابه -
« تاريخ الأمم والملوك » منحصرا عن طريق سيف بن عمر التميمي . فقد قال
في ذكره حوادث سنة ٣٠ هـ (وفي هذه السنة أعنى سنة ٣٠ هـ كان ما ذكر من
أمر أبي ذر ، وأشخاص معاوية إياه ، منها في أمور كثيرة كرهت ذكر أكثرها .
فأما العاذرون معاوية في ذلك ، فانهم ذكروا في ذلك قصة كتب بها إلى السري ، =

وفاة أبي ذر:

في سنة ٣٢ هـ غاصت روح الصحابي الجليل أبي ذر الفقاري في قرية « الربرة » وقد حزن عثمان لوفاته ، وأمر بضم أولاده إليه ، ورعايتهم ، وسد جميع احتياجاتهم .

يذكر أن شعبيا حدثه سيف عن عطية ، عن يزيد التميمي قال . لما ورد ابن السوداء الشام ، لقي أبا ذر فقال . يا أبا ذر ألا تمحب معاوية . ثم يورد في ذكر حوادث سنة ٣٠ .. ٣٦ قصة ابن سبأ والسبئية في مقتل عثمان وحرب الجمل عن طريق سيف وحده ، وليس له طريق آخر لها وللطبري إلى أحاديث سيف طريقان .
١ — عبيد الله بن سعيد الزهري عن عمه يعقوب بن إبراهيم عن سيف ، وما يخرج الطبري من أحاديث مشافهة .

٢ — السري بن يحيى . عن شبيب بن إبراهيم ، عن سيف ، ويخرج الطبري بهذا الطريق . أحاديث سيف من كتابه « الفتوح والردة » وكتابه « الجمل ومسير عائشة » بلفظ — كتب إلى ..

هذا وينتهي السيد العسكري في بحثه هذا الذي خص به قصة السبئية بالحديث ، إلى القول بأن عبد الله بن سبأ أسطورة لفقها سيف التميمي ، ولاحظ لها من الصحة . ولكن إذا نحينا الدعوة السبئية من المجتمع الإسلامي الثوري السياسة والنزعة ، والتعاوني للباديء والساوكة ، فمن يكون ذلك الذي لفته إلى الملكية والاحتكارية ، والطبقية وملحقاتها ..

هل يمكن أن تكون تلك الأحاديث للفترة على النبي وأصحابه ، وعامة المؤمنين والتأويلات المنحرفة لآيات الكتاب وكلماته من غير فاعل ، أم أن بعض المسلمين قد فعلها وارتد بعد إسلامه ؟

ثم أليس من الخير للأمة أن تعلم أن الذين حرقوا الكلم الإلهي عن مواضعه ، هم أنفسهم الذين أشعلوا الفتنة وكان بكل أسف — في المسلمين اعراب وسذج — سماعون لهم ، طالما فطن بعض العلماء إلى هذه الحقيقة وكشف عنها ، مما كانت منزلته من الثقة والضيعة ، فإن ذلك أجدر بأن لا يلصق هذا الائم بمسلم أو مسلمة أيا كان .
على أن للباديء التي تناقلتها جمهرة من الفرق العالية فيما بعد قد كشفت عن دعوة ابن سبأ وأثرها في تلك للباديء فلا ضرورة إلى جملة أسطورة .

ومع هذا فقد قامت قيامة المفرضين بعد وفاة الرجل ، وأخذوا يذيعون -
للمفتريلت ضد عثمان زاعمين أنه عذب بأذى ، وأهله ، وغير ذلك ليثيروا الرأى العام -

دعوة حكام الأقاليم لبحث الموقف ::

لم تكن أنباء المفرضين خافية عن عيون عثمان وأجهزة في أول الأمر ،
وإن لم تتضح لهم حقيقة أشخاصهم ، ولهذا فقد أرسل عثمان كتابا إلى الأمصار
ليقرأ على الناس ، وقد جاء فيه « أما بعد ، فإنى آخذ العمال بموافاتى فى كل
موسم ، وقد سارت الأمة منذ ولت على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،
فلا يرفع على شىء ولا على أحد من عمالى إلا أعطيته ، وليس لى أو لعمالى حق
قبل الرعية إلا وهو متروك لم وقد رفع إلى أهل المدينة ، أن أقواما يشتمون ،
وآخرين يضربون ، فيأمن ضرب سراً وشتم سراً ، من ادعى شيئا من ذلك ،
فليواف الموسم ، فليأخذ بحقه حيث كان منى أو من عمالى ، أو تصدقوا ، فإن
الله يجزى المتصدقين ، يقول الطبرى ، ولما قرئ الكتاب على الناس بكوا
ودعوا لعثمان .

وبعث إلى عمال الأمصار ، فقدموا عليه : عبد الله بن عمر ، ومعاوية ،
وعبد الله بن سعد وأدخل معهم فى المشورة سعيدا وعمرا فقال : ويحكم . ماهذه
الشكاية ، وما هذه الإذاعة إنى والله لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم ،
وما يعصب هذا الأمر الابى . فقالوا له : ألم تبعث ، ألم يرجع إليك الخبر عن
القوم ، ألم يرجعوا ولم يشافهم أحد بشىء . لا والله ما صدقوا ولا يروا .
ولا نعلم لهذا الأمر أصلا وما كنت لتأخذ به أحدا فيقيمك على شىء . وماهى
إلا « إذاعة » لا محل للأخذ بها ولا الانتباه إليها . قال : فاشيروا على . فقال .
سعيد بن العاص : هذا أمر مصنوع ، يصنع فى السر فيلقى به إلى غير ذى .
المعرفة فيخير به فيتحدث به الناس فى مجالسهم .

قال : فما حواء ذلك . قال : طلب هؤلاء القوم ، ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم .

وقال عبد الله بن سعد : خذ من الناس الذى عليهم ، إذا أعطيتهم الذى لهم ، فإنه خير من أن تدعهم .

قال معاوية : قد وليتني . فوليت قوما لا يأنيك عنهم إلا الخير . والرجلان أعلم بناحيتهما . قال : فما رأى . قال : حسن الأدب . قال : فما ترى يا عمرو : قال : أرى أنك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر . فأرى أن تلزم طريقة صاحبك ، فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين . إن الشدة تنبغى لمن لا يألو الناس شرا ، واللين لمن يخلف الناس بالنصح وقد فرشتها جميعا اللين . فقام عثمان فحمد الله وأثنى عليه وقال : كل ما أشرتكم به سمعته . . ولكل أمر باب يؤتى منه . إن هذا الأمر الذى نخاف على الأمة ، كائن ، وإن بابه الذى يغل على فيكفكف به اللين والمؤاتاة والمتابعة ، إلا في حدود الله أنى لم آل الناس خيرا ولا نفسى . ووالله إن رحي الفتنة لدائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها . . كفكفوا الناس ، وهبوا لهم حقوقهم واغفروا لهم وإذا تعوطيت حقوق الله ، فلا تدهنو فيها .

هذا مثل من محاولة عثمان ، إخماد الفتنة قبل تفاقمها، ولكن باللين والمؤاخاة والمتابعة؟؟ اللين والمؤاخاة . . كلمات جميلة ، وأسلوب سمح كريم يأمر بانتهاجه أعظم رئيس لكبرى دول الأرض في ذلك الحين . وقد كان حريا بالذين فتنوا أن يدفنوا أحقادهم ، ويشرئبوا بقلوبهم وأفتدتهم إلى رجل المؤاخاة والتسامح ، والخير .

يبد أن تلك الدعوة ، أو هذه الخطوة لم تسفر عن جملها إلا بطل أن اتسع الفتق ، وحزب الأمر ، فلم تلق الدعوة الكريمة ، ما ينبغي لها من سمع وانصات ..
ولذلك فقد كان المؤتمر الذي أسلفنا جملته ، والمنعقد في موسم سنة ٣٤ هـ من أهم العوامل في تعجيل الساعة التي يقضى فيها على عثمان . فاصحاب الفتنة قد علموا بدون شك بما دار في هذا المؤتمر ، وعرفوا كل أغراضه ومقاصده ، وعلموا أن عثمان لن يغنى عن نفسه شيئا ، ولن يعدل عن جبلته المفطورة على الحياء والسماحة والحب ، وتجنب الأذى والاساءة حتى إلى مبغضيه .

هذا الرجل ، لن ينزل من سمو فضائله ، لينازل المفتونين والحقادين ، ولذلك فانه يرفض في بساطة ، عرض معاوية ، أن ينتقل أمير المؤمنين إلى دمشق ، أو يبعث إليه معاوية بجيش يحرسه . يقول الطبري « قال معاوية لعثمان (بعد انتهاء المؤتمر) : أمير المؤمنين انطلق معي إلى الشام ، قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به ، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا . فقال : أنا لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بشيء ، وإن كان فيه خبط عنقي ، قال : فابعث إليك جندا منهم يقيم معك بين ظهري أهل المدينة لنائبة إن نابت المدينة أو أياك ، قال : أنا أقتر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند بساكنهم ، واضيق على أهل دار الهجرة والنصرة ؟؟^(١) » .

هذا وعندما يلح عليه معاوية ، ويخوفه الاغتيال والقتل ، لا يزيد في رده عليه بغير تلك الكلمة الخالدة « حسبي الله ونعم الوكيل^(٢) »

وأخيرا حوصر الرجل في بيته أكثر من أربعين ليلة ، ثم انقضوا عليه وقتلوه ،

(١) نفس المصدر السابق

(٢) نفس المصدر السابق

وهو يتلو كلام الله ، ويرتل من مصحفه آياته الينيات ، ولم يرفع وجهه عن كتاب الله حتى غشيت الغوغاء ، فالتفت إليهم ، في وقار وحزم وسخرية ، ولم يطبق المصحف ، ثم قال : إذا قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم ثم لا يرفع الله عنكم الاختلاف أبدا^(١).

ولكن الاشقياء من خبثاء السبئية لم يصبروا على الرجل حتى يصلح ما زعموه فاسدا ، بل تعجلوا فعجل الله لهم العذاب ووقع ما تنبأ به الصحابي الكريم ، مما تعرض له فيما بعد وشيكا .

(١) نفس المصدر السابق

الفصل الثاني

عثمان للتاريخ

يتحدث كاتبون معاصرون عن أخطاء عثمان ، وتشبته بالحكم وإمارة المؤمنين ، ويستدلون على تلك الدعوى ، بأن عثمان كان يأخذ من بيت المال لنفسه وأقاربه، وقال لدعاة الفتنة حينما طلبوا منه اعتزال أمور الأمة : لا أنزع قميصا البسنيه الله ، أو مثل قوله : لأن أقدم فتضرب عنقي في غير حد أحب إلى من أن أنزع سرايا ، سريلنيه الله عز وجل ، ويردف هؤلاء قولهم أو دعواهم تلك بمثل هذه العبارة : لم تكن الخلافة عند عثمان — إذن — تكليفا تلقاه من المسلمين ، ويستطيع أن يرده عليهم إن شاء هو ، أو شاءوا هم ، وإنما كانت الخلافة عنده ثوبا أسبغه الله عليه ، وليس له أن ينزعه عن نفسه ، وليس لأحد غيره أن ينزعه عنه ، وإنما الله وحده هو الذي يملك تجريد من هذا الثوب .

ويقول بعض آخر من أصحابنا هؤلاء : فهم عثمان — يرحمه الله — ان كونه إماما يمنحه حرية التصرف في مال المسلمين بالهبة والعطية ، فكان رده في كثير من الأحيان « وإلا فقيم كنت إماماً ، كما يمنحه حرية أن يحمل ، بنى معيط على رقاب الناس ، وفيهم الحكم طريد رسول الله . لقد منح عثمان من بيت المال زوج ابنته الحارث بن الحكم يوم عرسه ، مئتي ألف درهم ، فلما أصبح الصباح جاءه زيد بن أرقم خازن بيت المال ، وقد بدا في وجهه الحزن وترقرقت في عينه الدموع فسأله أن يعفيه من عمله ، ولما علم منه السبب وعرف أنه عطيته لصهره من مال المسلمين : قال مستغرابا : أتبكي يا ابن أرقم أن وصلت رحمي .. فرد الرجل الذي يستشر روح الإسلام المرفه : لا يا أمير المؤمنين . ولكن ابكي لأنني أظنك

أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقت في سبيل الله في حياة رسول الله . والله . لو أعطيته مائة درهم لكان كثيراً ففضب عثمان على الرجل الذي لا يطيق ضميره . هذه التوسعة من مال المسلمين على أقارب خليفة المسلمين وقال له : ألق بالمفاتيح . يا ابن أرقم فإننا سنجد غيرك . . يقول مؤلف « العدالة الاجتماعية في الإسلام » ، والأمثلة كثيرة في سيرة عثمان على هذه التوسعات ، فقد منح الزبير ذات يوم . ستمائة ألف . ومنح طلحة مئتي ألف ، ونقل مروان بن الحكم خمس خراج إفريقية ، ولقد عاتبه في ذلك اناس من الصحابة على رأسهم علي بن أبي طالب ، فأجاب : إن لي قرابة ورحماً فأنكروا عليه وسألوه : فما كان لأبي بكر وعمر قرابة ورحم فقال : إن أبا بكر وعمر ، كانا يحسبان في منع قرابتهما ، وأنا أحسب في إعطاء قرابتي ، فقاموا عنه غاضبين يقولون : فهديهما والله أحب إلينا من هديك . يقول مؤلف العدالة المذكورة : نعم وأحب إلى الإسلام ، وأقرب إلى حقيقة الإسلام . وغير المال كانت الولايات تغدق على الولاة من قرابة عثمان ، وفيهم معاوية الذي وسع عليه عثمان في الملك ، فضم إليه فلسطين وحمص ، وجمع له قيادة الأجناد الأربعة . ومهد له بعد ذلك ، أن يطلب الملك في خلافة على وقد جمع المال والأجناد ولقد كان الصحابة يرون هذا الانحراف عن روح الإسلام ، فيتداعون في المدينة لإيقاظ الإسلام ، وإيقاظ الخليفة من المحنة ^(١) .

وفي سبيل تعزيز الرأي الحديث الذي يقول : إن منصب الخلافة كان في صدر الدولة العربية الإسلامية يمنح شاغله حق البقاء فيه مدى الحياة ، مهما غير . وبذل ، وأن ذلك هو رأى الصحابة ، يقول بعض المعاصرين : وعذر عثمان .

(١) من كتاب العدالة الاجتماعية لسيد قطب ص ١٨٦ - ١٨٨ .

نقضى ذلك أنه رأى صاحبيه من قبل قد نهضا بالخلافة ، فلم تنزع عن أحدهما ما أقام على الحياة ، فهو إذن مثلها قد نهض بالخلافة ، ويجب أن يستمسك بها ما امتدت له أسباب الحياة . . وإذا كان هذا رأيه فى الخلافة وفيما تبيح له من سلطان ، فليس غريباً أن يضيق بالذين يجادلونه فى سلطانه^(١) ، ويقول قبل ذلك ، وأخرى يجب أن نلاحظها فى تفسير السياسة المالية لعثمان ، وهى أنه لم يكن يرى ، فيما يظن أن للمسلمين الحق ، فى أن يراقبوه فضلاً عن أن يعاقبوه ، فهو قد أعطى العهد الذى أعطاه ، وهو مسئول عن هذا العهد أمام الله ، لا أمام الناس ، يدل على ذلك اقتناعه بأن الذين طلبوا إليه أن يخلع نفسه ، قد طلبوا إليه شيئاً عظيماً ، وقوله لهم ولغيرهم ما كنت لأخلع قميصاً قمصنيه الله .

ومما له صلة بهذا الحديث ما يراه بعض آخر من الباحثين فى تاريخ الإسلام ، وهو المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ، إذ يقول : كانت النظم القائمة فى الروم وفى الفرس ، هى التى تأثر بها نظام الحكم الإسلامى ، فقد أنشأ عمر الديوان ، ثم ازداد تأثراً بها فى عهد عثمان^(٢) .

وواضح من هذه التعليقات التى أسلفناها لثلاثة من كتابنا المعاصرين ، على عهد عثمان ، أنهم جميعاً يكادون يهتمون العهد وصاحبه بالانحراف عن عهد رسول الله ﷺ وصاحبيه ، وبذلك يكون التبرير المنطوق على أمير المؤمنين الشيخ ، عثمان بن عفان رضى الله عنه .

(١) الفتنة الكبرى للدكتور طه حسين .

(٢) الإمبراطورية الإسلامية ص ٣٤٠ .

وقبل أن تناقش هذه الآراء التي تمثل جميع الأطراف في هذه المسألة ، نضع بين أيديهم جميعاً ما رواه ثقات المؤرخين ، بالإضافة إلى ما أبناه فيما سلف .

يقول الطبري في حوادث سنة ٣٥ هـ^(١) كان أهل مصر ، كاتبوا أشياعهم من أهل الكوفة وأهل البصرة ، وجميع من أجابهم ، أن يثوروا خلاف أمرائهم ، واتعدوا يوماً حيث شخص أمرائهم ، فلم يستقم ذلك لأحد منهم ولم ينهض إلا أهل الكوفة فإن يزيد بن قيس الأرحبي ثار فيها واجتمع إليه أصحابه ، وعلى الحرب يومئذ القعقاع بن عمرو ، فأتاه فأحاط الناس بهم وناشدوهم ، فقال يزيد للقعقاع : ما سبيلك علي وعلى هؤلاء ، فوالله إني لسامع مطيع ، وإني للملازم لجماعتي وهم ، إلا أني أستعفى ومن ترى من إمارة سعيد فقال . اتستعفى الخاصة من أمر قد رضيته العامة ، قال فذاك إلى أمير المؤمنين ، فتركهم والاستعفاء ولم يستطيعوا أن يظهروا غير ذلك ، فاستقبلوا سعيداً فردوه (عن ولاية الكوفة) واجتمع الناس على أبي موسى الأشعري ، وأقره عثمان رضي الله عنه .

ولما رجع الأمراء لم يكن للسبئية سبيل إلى الخروج إلى الأمصار ، وكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار أن يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون ، وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف ويسألون عثمان عن أشياء لتطير في الناس ، ولتحقق عليه ، فتوافوا بالمدينة ، وأرسل عثمان رجلين ، مخزومياً وزهرياً فقال : أنظرا ما يريدون ، واعلما علمهم ، وكانا ممن قد ناله من عثمان أدب ، فاصطبرا للحق ، ولم يضطغنا ، فلما رأوها بائنهما (كاشف السبئية الرجلين) فأخبروهما بما يريدون . فقالا : من معكم على هذا من أهل المدينة ، قالوا ثلاثة نفر : قالوا فكيف تريدون أن تصنعوا ، قالوا : نريد أن تذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس ، ثم نرجع إليهم

(١) الأمام واللوكة ج ٥ ص ١٠١ .

« فنزعم لهم أنا قررناه بها فلم يخرج ولم يتب ، ثم نخرج كأننا حجاج حتى نقدم .. فنحيط به فنخلعه فإن أبي قتلناه .. فرجعا إلى عثمان بالخبر ، فضحك وقال : اللهم سلم هؤلاء ، فإنك إن لم تسلمهم شقوا^(١) » وبعد أن يذكّر الطبري رأى عثمان في موقف كل من عمار بن ياسر ، ومحمد بن أبي بكر وغيرهما من الساخطين ، يقول « فأرسل (عثمان) إلى الكوفيين والبصريين ونادى بالصلاة جامعة » وهم عنده في أصل المنبر ، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى أحاطوا بهم فحمد الله وأثنى عليه ، وأخبرهم خبر القوم .

ثم قال ان هؤلاء ذكروا أمورا قد علموا منها مثل الذي علمتم ، إلا أنهم زعموا أنهم يذاكرونيها ليجبوا على عند من لا يعلم . وقالوا : اتم الصلاة في السفر ، وكانت لا تتم . ألا وإني قدمت بلدا فيه أهلى فأتممت لهذين الأمرين أو كذلك . قالوا نعم .

وقالوا : وحيت حمى . وإني والله ما حيت إلا حمى قبلى . والله ما حموا شيئا لأحد ما حموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة ، ثم لم يمنعوا من رعيه احدا ، واقتصروا لصدقات المسلمين ، يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ، ثم ما منعوا ولا نمحوا أحدا وما لى من بعير غير راحلتين ، وما لى ثاغية ولا راغية ، وإني قد وليت ، وإني أكثر العرب بعيرا وشاه ، فما لى اليوم غير بعيرين لحجى .. ا كذلك . قالوا : اللهم نعم .

وقالوا : كان القرآن كتبنا فتركناها إلا واحدا ؟ ألا وان القرآن واحد ، جاء من عند واحد ، وإنما أنا في ذلك تابع لهؤلاء .. ا كذلك .. قالوا : نعم .

وقالوا : انى رددت « الحكم » وقد سيره رسول الله ﷺ والحكم مكي
سيره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف ، ثم رده رسول الله ﷺ فرسول الله
سيره ، ورسول الله رده . ا كذلك . قالوا : اللهم نعم .

وقالوا : استعملت الأحداث ، ولم استعمل إلا مجتمعا محتملا مرضيا .
وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه ، وهؤلاء أهل بلدهم .. ولقد ولى من قبلى أحدث
منهم وقيل فى ذلك لرسول الله (ص) أشد مما قيل لى فى استعماله أسامة .
أ كذاك . قالوا : اللهم نعم . يعيبون للناس مالا يفسرون .

وقالوا : أعطيت ابن أبى سرح ما أفاء الله عليه . وإنى إنما نفقته خمس
ما أفاء الله عليه من الخمس فكان مائة ألف ، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر
وعمر رضى الله عنهما . فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك ، فرددته عليهم ، وليس
ذلك لهم .. ا كذاك ، قالوا : نعم .

وقالوا : إنى أحب أهل بيتى وأعطيهم . فأما حبي ، فإنه لم يكل معهم على
جور ، بل أحمل الحقوق عليهم . وأما اعطاؤهم . فانى ما أعطيهم إلا من مالى ،
ولا استحل أموال المسلمين لنفسى ولا لأحد من الناس . ولقد كنت أعطى
العطية الكبيرة الرغبة من صلب مالى ا زمان رسول الله (ص) وأبى بكر وعمر
وأنا يومئذ شحيح حريص . أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى ، وفنى عمرى ،
وودعت الذى لى فى أهلى ، قال الملحدون ما قالوا وإنى والله ما حملت على مصر
من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله ، ولقد زدته عليهم ، وما قدم على إلا
الأخماس ، ولا يحل لى منها شيء إذ تولى المسلمون وضعها فى أهلها دونى ، ولا تبلغت
من مال الله بفلس فما فوقه ، وما انبلغ منه ما آكل إلا من مالى .

وقالوا : أعطيت الأرض رجالا ، وأن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون

والأنصار أيام افتتحت ، فمن أقام بمكان من هذه الفتوح ، فهو أسوة أهله ، ومن رجع إلى أهله ، لم يذهب ذلك ماحوى الله له ، فنظرت في الذى يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب ، فنقلت إليهم نصيبهم فهو في أيديهم دونى^(١) » يقول الرواة : وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بني أمية ، وجعل ولده كبعض من يعطى ، فبدأ يبنى أبي العاص ، فأعطى آل الحكم ، رجالهم عشرة آلاف عشرة آلاف فأخذوا مائة ألف ، وأعطى بني عثمان مثل ذلك ، يقول المؤرخون « ولانت حاشية عثمان لأولئك الطوائف (من أهل الكوفة والبصرة وسائر اتباع ابن سبأ) وأبى المسلمون لإعقوبتهم ، وأبى عثمان إلا تركهم ، فذهبوا ورجعوا إلى بلادهم على أن يغزوه مع الحجاج ، كالحجاج فتكاتبوا وقالوا موعدكم ضواحي المدينة في شوال ، حتى إذا دخل شوال من سنة اثنتى عشرة^(٢) ، ضربوا كالحجاج فنزلوا قرب المدينة . وذلك في سنة ٣٥ هـ إذ خرج أهل مصر في أربع رفاق على أربعة أمراء المقلل يقول : ستمائة ، والمكثر يقول « ألف » على الرافق ، عبد الرحمن بن عديس البلوى — وهو رجل — فيما قيل له صحبة ، ومن بايع تحت الشجرة^(٣) — وكنانة بن بشر الليثي ، وسودان بن حمران السكوني ، وقتيرة ابن فلاق السكوني ، وعلى القوم جميعاً الغافقي بن حرب العكي ، ولم يجترؤا أن يعلموا الناس بخروجهم إلى الحرب ، وإنما خرجوا كالحجاج ، وخرج أهل الكوفة في أربع رفاق وعلى الرافق ، زيد بن صوحان العبدى ، والاشتر النخعي ، وزيد بن النضر الحارثي ، وعبد الله بن الاصم أحد بني عامر بن

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) سنة اثنتى عشرة من بدء خلافة عثمان رضى الله عنه ، وقد آثرنا أن ننقل هذه العبارة حرصاً على الأمانة العلمية أنظر الطبرى والمودى .

(٣) مروج الذهب ج ١ ص ٤٤٠ .

صعصعة، وعددهم كعدد أهل مصر، وعليهم جميعاً، عمرو بن الأصم، وخرج أهل البصرة في أربع رفاق . وعلى الرفاق حكيم بن جبلة العبدى، وذريح بن عباد العبدى، وبشر بن شريح القيسى، وابن الحرش بن عبد عمرو الحنفى، وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعاً . حرقوص بن زهير السعدى، سوى من تلاحق بهم من الناس فأما أهل مصر فإنهم كانوا يشتهون علياً، وأما أهل البصرة فإنهم كانوا يشتهون طلحة وأما أهل الكوفة فإنهم يشتهون الزبير، فخرجوا وهم على الخروج جميع، وفي الناس شتى لا يشك كل فرقة أن النصر معها وأن أمرها سيتم دون الآخرين، فخرجوا حتى إذا كانوا من المدينة على ثلاث مراحل، تقدم جماعة من أهل البصرة ونزلوا ذا خشب، ونام من أهل الكوفة، فنزلوا الأعوص وجاءهم ناس من أهل مصر وتركوا عامتهم بذي المروة، ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة، زياد بن النضر وعبد الله بن الأصم، وقالوا: لا تعجلوا ولا تعجلونا حتى ندخل لكم المدينة ونرتاد . فإنه بلغنا أنهم قد عسكروا لنا فوالله إن كان أهل المدينة قد خافونا واستحلوا قتالنا ولم يعلموا علمنا، فهم إذا علموا علمنا أشد، وإن أمرنا هذا لباطل، وإن لم يستحلوا قتالنا ووجدنا الذى باغنا باطلا، لندرجن إليكم بالخبر قالوا: إذهب، فذهب الرجلان فلقيا أزواج النبي ﷺ وعلياً وطلحة والزبير وعائشة، وقالوا إنما نأتم (نقصد) هذا البيت وتستغنى هذا الوالى من بعض عمالنا، ما جئنا إلا لذلك، واستاذنهم للناس بالدخول، فكلهم أبى ونهى . . فرجعا إليهم، فاجتمع من أهل مصر نفر فأتوا علياً ومن أهل الكوفة نفر فأتوا الزبير، ومن أهل البصرة نفر أتوا طلحة . . يقول الرواة: فغضب على وطلحة والزبير، وطردها هؤلاء الذين عرضوا عليهم عزل عثمان وعرضوا باسناد الأمر إليهم، وقام هؤلاء السادة من المهاجرين، فبعثوا بأبنائهم لحراسة عثمان والسهر على رعايته، وأخذوا يعملون جاهدين على رد الكيد عنه بكل سبيل ولكن القدر سبقهم، فاعتدى السبئية على عثمان بعد تمهيدات كيدية، وحصار شديد .

أما بعد :

فإن الشبه التي عبر عنها نفر من الباحثين في العصر الرشيد من المعاصرين ، ليست جديدة إلا من نافذة العرض والزمن ، والأسلوب الحديث ، ولذلك فقد أردنا حسمها من نفس دفاع الرجل الذي حامت حوله وزعم هؤلاء أن جملتها ، كانت السبب المباشر في ثورة الأمصار عليه ، وطلب اعتزاله ، فلما رفض تخلصوا منه بإراقة دمه وقتله .

ومن أطرف التبريرات التي ساقها كتابنا أولئك ، أن عثمان قد تلاعب بشريعتي المال والسياسة فظن أن المال ملك يمينه ، وأن رئاسة الأمة تخليد مدى الحياة لشخصه ، وبذلك كان يكره أن يعارض ، أو يناقش في شيء من ذلك ؟؟ إن مثل هذا الكلام ، الملقى على مسئولية أصحابه ، لاحظ له من الحقيقة ولا من التاريخ أو الواقع الإسلامي .

ولعل في النص الذي قدمناه من أوثق مصادرنا العربية والإسلامية ، ما يؤمن شخصية عثمان ، وتصرفاته السياسية والمالية من الانحراف إلى الامبراطورية أو التسلط ، فالرجل — كما تحدث إلى السبئية — بمشهد من الصحابة لم ينحرف عن سنة رسول الله والشيخين من بعده ، ولم يقترب ما يناهز الشورى ، وإقامة العدل والكفاية في الدولة الإسلامية الاشتراكية النزعة .

كذلك لم يستحل عثمان . كما اكده فلسا فاكثر من مال المسلمين لنفسه أو لأقاربه ، ولم يعزل عاملاً إلا بعد تحقيق وبينه ، ولم يؤل إلا « مجتمعا محتملا مرضيا » ، فهو — إذن — لم يركب بنى معيط والحكم رقاب الناس ولم يعط الزبير ولا طلحة ، ولا مروان ، ولا الحارث بن الحكم زوج ابنته « فلسا فاكثر » غير حقه المفروض له في نظام الدولة من أين — إذن — استقى مؤلف هذه « العدالة في الإسلام » تلك المزاعم التي قالها السبئية وسبق أن رد عليها عثمان بحضور جميع الصحابة . وقد كان عثمان يذكر الإذاعة ،

ثم يناقشها ويبين وجهة نظره، فكان جميع الصحابة يقولون مؤكدين استقامة سياسته في الحكم والادارة وأسلوب الجباية والتوزيع، وسائر الشئون العامة — اللهم نعم^(١) .

وهكذا أيضا ترى أن لاجمال لفهم كلمة عثمان التي قيل إنه رد بها على السبئية، من أنه لا ينزع قميصا ألبسه الله إياه، على أن الخلافة في رأيه مقدسة، يناط شأن شاغلها في الجزاء والمراجعة بالله وحده، وليس للأمة أن تعترض. بل إن الأدنى إلى المنطق العربي، الذي كان معروفا إبان العصر الأول، أن تفهم مثل هذه العبارة، على أنها مجرد تعبير عن الرفض وكف غير المستول عن الدخول فيما لا يعنيه، لئلا تكون فوضى في دولة مرد الأمر فيها إلى الأمة وحدها.

ومن غير شك أن الذين انشبوا الفتنة، لم يكونوا يبنون إلا الفتنة، ولم يكن لهم من هدف إلا القتل والتخريب، واشعال الحروب الأهلية بين طوائف الأمة الإسلامية، ولم يكن معهم صحابي واحد على رأيهم سوى ما أشيع عن عمار بن ياسر، ومحمد بن أبي بكر، وقيل وعبد الرحمن بن عديس، ولم يثبت أن هذا له صحبة إلا في رواية محمد بن اسحاق التي حكاه المسعودي في مروج الذهب^(٢) .

وأخيرا نرى أن عثمان لم يقترف من الأخطاء ما يمس السياسة الشورية الديمقراطية، أو شريعة العدل والكفاية في توزيع الحقوق والواجبات، ولم يكن ضعيفا أو متهاونا في شيء من مسئولياته كلها، وقد قرر ذلك على مرأى ومسمع من جميع الصحابة، ورجالات الأمة فأكدوا تأمينهم على كل حرف من ذلك.

وإذن فقد كانت «فتنة لا ثورة»، واجهها عثمان باللين والمواتاة والتسامح، ولم يحسم الأمر كما كان ينبغي في مثل هذه الظروف، ولو أنه فعل لتغير وجه التاريخ.

(١) راجع حديث عثمان إلى وفود الأمصار بحضور صحابة الرسول ﷺ فيما سبق.

(٢) انظر ص ٤٤٠ ج ١.

ولكن .. قدر الله ، وما شاء فعل ، يقول الذهبي أحد أئمة الحديث والتاريخ في التذكرة . « أمير المؤمنين عثمان ، من تستحي منه الملائكة ، ومن جمع الأمة على مصحف واحد بعد الاختلاف ، ومن افتتح نوابه إقليم خراسان ، وإقليم المغرب ، وكان من السابقين المنفقين في سبيل الله ، ومن شهد له رسول الله بالجنة ، من نظر في تحريره وقت جمعه للقرآن ، علم مرتبته وقدره . »

هاجت رؤوس الفتنة والنشر ، وأحاطوا به وحاصروه ليخلع نفسه ، بقوة السبئية وبدون رأى الأمة التى انتخبته بلرادتها وقتلوه . قاتلهم الله فصبروا كف نفسه ، حتى ذبح صبرا في داره ، والمصحف بين يديه . »

ونجى به هذا القدر الآن لنوجز جملة عن المرحلة التالية ، حيث بويع لأمر المؤمنين على بن أبى طالب ، ثم واجه الفتنة من أول يوم أخذت له فيه البيعة ، وظل في صراع عنيف حتى اغتيل في سنة ٤٠ هـ ، فانتخب الشيعة ابنه الحسن الذى تنازل إلى معاوية بن أبى سفيان كما سنوضح بعد .

الفصل الرابع

عصر علي

نسبه وسيرته :

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف أبو الحسن، وابن عم محمد ﷺ، لأن أبا طالب وعبد الله شقيقان، وأمه فاطمة بنت أسد... بزواجه الرسول ابنته فاطمة بنت خديجة رضى الله عنهما، وأكثر المؤرخين وأهل العلم، على أنه أول الناس إسلاماً^(١)، ولد قبل البعثة بعشر سنين في أصح الروايات، وكان ممن سبق إلى الإسلام لم يتلعم، وجاهد في الله حق جهاده، وشهد له الرسول (ص) بالجنة، ونهض بالعلم والعمل^(٢) وكان حازماً متحريراً، وشجاعاً في الحق، جليلاً في الحرب، فارساً ماهراً. ومحارباً من الطراز الأول. لانهزم له راية، ولا يقوى على مبارزته إلا مغامر بنفسه

كفله الرسول ﷺ وهو صغير، تخفيفاً للعبء عن عمه وكافله السابق، أي طالب، إذ أصابته ضائقة، وقد نام مكان النبي (ص) ليلة الهجرة، مضجياً بنفسه في سبيل الله ورسوله، شهد المشاهد كلها عدا تبوك، إذا استخلفه الرسول فيها على أهله.

عرف بقوة العزيمة، والثبات على الحق، والفقه في الدين، واستقامة السلوك،

(١) الإصابة ج ٤ ص ٢٦٩

(٢) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٠

مع تواضع كريم، وحذب شديد على الضعفاء والمساكين وابن السبيل . حتى يقال إنه نزلت فيه الآية الكريمة « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً » فصاحته وبلاغته ، ولسنه ، مضرب الأمثال حتى اليوم ، يبغض الفرقة والخلاف ، ويحب الألفة والجماعة .

بايع لأبي بكر وعمر وعثمان ، وهو مطمئن النفس ، ساكن القواد ، يؤمن بكليته بأن الأعمال خدمة عامة ، وتكليف بأداء واجب ، وليست سبيلاً إلى الجاه والسلطان ، والإثراء ، أو استغلال الآخرين لم يسئل لعابه قط لمنصب الخلافة وإمارة المؤمنين ، بل كان يعزف عنها كل العزوف ، توجه إليه السبئية قبل حصار عمان ، وعرضوا له بالخلافة ، فزجرهم وطردهم . كان أبرز الأبطال في جميع الغزوات والفتوح الكبرى .

بيعته :

يقول الرواة : اختلفوا في كيفية بيعته فقيل إنه لما قتل عثمان اجتمع أصحاب رسول الله (ص) من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة والزبير فأثوا عليها فقالوا له : إنه لا بد للناس من رئيس قال لا حاجة لي في أمركم فمن اخترتم رضيت به . فقالوا ما نختار غيرك وترددوا إليه مرارا وقالوا له في آخر ذلك إنا لانعلم أحداً أحق به منك لا أقدم سابقة ولا أقرب قرابة من رسول الله (ص) فقال لا تفعلوا فإني أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً ، فقالوا والله مانحن بفاعلين حتى نبايعك قال ففي المسجد فإن بيعتي لا تكون خفية ولا تكون إلا في المسجد ، وكان في بيته وقيل في حائط لبني عمرو فخرج إلى المسجد متوكئاً على قوس ، فبايعه الناس . وكان أول من بايعه من الناس ، طلحة بن عبيد الله وبايعه الزبير وقال لهما على إن أحببنا أن تبايعاني وإن أحببنا بايعتكما فقالا : بل نبايعك وقالوا بعد ذلك إنما فعلنا ذلك

خشية على نفوسنا ، وعرفنا أنه لا يبايعنا وخرجا إلى مكة بعد قتل عثمان بأربعة أشهر فيما قيل وبايعه الناس وجاءوا بسعد بن أبي وقاص ، فقال له علي - بايع فقال : لا حتى يبايع الناس ، والله ما عليك مني من بأس ، فقال خلوا سبيله ، وجاءوا بابن عمر ، فقالوا بايع قال لا حتى يبايع الناس . قال علي : إئتني بكفيل قال لا أرى كفيلة ، قال الأشتر : دعني أضرب عنقه قال علي : دعوه أنا كفيله ، وبايعت الأنصار إلا نفرا يسيرا منهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، ومسلمة بن مخلد ، وأبو سعيد الخدري ، ومحمد بن مسلمة ، والنعمان بن بشير ، وزيد بن ثابت ، ورافع بن خديج ، وفضالة بن عبيد ، وكعب بن عجرة ، وكانوا عثمانية

ولم يبايعه عبد الله بن سلام ، وصهيب بن سنان . وسلمة بن سلامة بن وقش وأسامة بن زيد وقدامة بن مظعون ، والمغيرة بن شعبه ، فأما النعمان بن بشير فإنه أخذ أصابع نائلة امرأة عثمان التي قطعت وقيص عثمان الذي قتل فيه وهرب به فلحق بالشام . فكان معاوية يعلق قميص عثمان . وفيه الأصابع على منبر المسجد فإذا رأى ذلك أهل الشام زادوا غيظا^(١) .

يقول المسعودي : إن علياً بعد أن استقرت البيعة له . انترع أملا كما كانت لعثمان أقطعها جماعة من المسلمين وقسم ما في بيت المال على الناس ولم يفضل أحدا على أحد وإن قميص عثمان ذهبت به إلى معاوية أم حبيبة بنت أبي سفيان وأم المؤمنين ، مخضبا بدمائه ومعها النعمان بن بشير الأنصاري^(٢) وقد بايعت الكفوفة أخذ له البيعة على أهايا أبو موسى الأشعري ، وكان عليها عاملا لعثمان .

يقول المؤرخون . وأتى المغيرة بن شعبه عليا فقال له إن حق الطاعة النصيحة

(١) أنظر بيانه في (كلمة عنه) بعد قائل .

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٤ .

وإن رأى اليوم تحوز به مافى عد. وإن التصارع اليوم تضيع به مافى غد.. أقرر معاوية على عمله ، وأقرر ابن عامر على عمله ، وأقرر العمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وطاعة الجنود استبدلت أو تركت . قال : حتى أنظر فخرج من عنده وعاد إليه من الغد فقال : إني أشرت عليك بالأمس برأى وتعقبته ، وإما رأى أن تعاجلهم بالنزع فتعرف السامع من غيره ويستقل أمرك ثم خرج فلتقاه ابن عباس خارجاً وهو داخل فلما انتهى إلى علي . قال رأيت المغيرة خارجاً من عندك فقيم جاءك قال جاءني أمس بكيت وكيت ، وجاءني اليوم بزيت وزيت . فقال أما أمس فقد نصحتك ، وأما اليوم فقد غشك قال فما رأى قال : كان رأى أن تخرج حين قتل عثمان أو قبل ذلك فتأتى ينبع فتدخل دارك فتغلق عليك بابك فإن العرب كانت لجائلة مضطربة في أمرك لا تجد غيرك . فأما اليوم فإن بنى أمية يستحسنون الطلب بأن يلزموك شعبة من هذا الأمر .

على أن وفادة المغيرة بن شعبة فيما يبدو كانت بياعث النصيحة فعلا في أول الأمر وقد نصح علياً ، ولكن لم يكن لدى علي استعداد لقبول هذا التوجيه للظروف القائمة والمحيطه بعلي . فإن الشكوى من الذين قتلوا عثمان إنما كانت في ظاهرها على الأقل من هؤلاء العمال فكان لابد لحسم الشكوى من عزلهم جميعاً حتى يمكن استئناف حياة جديدة مع أشخاص يطمئن إليهم ولذلك نرى علياً لا يعير نصيحة المغيرة . لا سيما وأنه لم يبايع - أى اهتمام - ولهذا فقد أصدر قراراً بعزل جميع عمال عثمان واستبداهم بآخرين

يقول الرواة : بعث علي عماله إلى الأمصار فبعث عثمان بن حنيف على البصرة . وعمارة بن شهاب على الكوفة وكانت له هجرة ، وعبيد الله بن عباس على اليمن . وقيس بن سعد على مصر . وسهل بن حنيف على الشام ، فأما سهل فإنه خرج حتى إذا كان بتبوك لقيته خيل لمعاوية فقالوا من أنت ؟ قال : أمير . قالوا : على أى شيء .

قال : على الشام فالوا: إن كان عثمان بعثك فحيا هلا بك. وإن كان بعثك غيره فارجع قال : أو ما سمعتم بالذى كان قالوا : بلى فرجع إلى على .

وأما قيس بن سعد فإنه لما انتهى إلى أيلة لقيته خيل فقالوا من أنت ، قال : من فالة عثمان فأنا أطلب من أوى إليه وانتصربه قالوا : من أنت ، قال قيس بن سعد . قالوا : إمض فمضى حتى دخل مصر فافترق أهل مصر فرقاً، فرقة دخلت في الجماعة وكانوا معه وفرقة وقفت واعتزلت . وقالوا: إن قتل قتلة عثمان فنحن معكم وإلا فنحن على جذيلتنا حتى نحرك أو نصيب حاجتنا . وفرقة قالوا: نحن مع على ما لم يقدر ويقتل إخواننا وهم في ذلك مع الجماعة . وكتب قيس إلى أمير المؤمنين بذلك .

وأما عثمان بن حنيف فسار، فلم يرده أحد عن دخول البصرة ولم يوجد في ذلك لابن عامر رأى ولا حزم ، ولا استقلال بحرب . وافترق الناس بها فاتبعت فرقة القوم ودخلت فرقة في الجماعة وفرقة قالت ننظر ما يصنع أهل المدينة فنصنع ما صنعوا .

وأما عمارة فأقبل حتى إذا كان قرب الكوفة لقيه طليحة بن خويلد وقد كان حين بلغهم خبر عثمان خرج يدعو إلى الطلب بدمه. فخرج حين رجع القعقاع من إغاثة عثمان فيمن أجابه حتى دخل الكوفة ، فطلع عليه عمارة قادماً من الكوفة فقال له : إرجع فإن القوم لا يريدون بأمرهم بدلاً وإن أبيت ضربت عنقك فرجع عمارة وهو يقول . احذر الخطر ما يماسك الشر خير من شر منه فرجع إلى على بالخبر .

وانطلق عبيد الله بن عباس إلى اليمن فجمع يعلى بن أمية كل شيء من الجبابرة وتركه وخرج بذلك وهو سائر على حاميته إلى مكة فقدمها بالمال . ولما رجع سهل بن حنيف من طريق الشام واثته الأخبار ورجع من رجع دعا على طلحة والزبير فقال إن الذى كنت احذركم قد وقع وإن الذى وقع لا يدرك إلا باماتته وإنها فتنة كالنار كلما سمرت ازدادت واستثارت . فقالوا له فأذن

لنأن نخرج من المدينة فقال سأمسك الأمر ما استمسك . فإذا لم أجد بداً فأخر الدواء .
الكي . وكتب إلى معاوية . وإلى أبي موسى . فكتب إليه أبو موسى بطاعة أهل الكوفة
ويعتقهم . وبين الكاره منهم بالذي كان والراضى بالذي قد كان ومن بين ذلك
حتى كان على على المواجهة من أمراء أهل الكوفة وكان رسول على إلى أبي موسى
معبداً لاسمى وكان رسوله إلى معاوية سيرة الجهني . فقدم عليه فلم يكتب معاوية بشيء .
ولم يجبه . وماطل في الرد على رسوله . وجعل الجهني كلما تنجز الكتاب لم يزد معاوية على
المطالبة بالوعود حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان في شهر صفر سنة ٣٦ .
دعا معاوية برجل من بني عبس يدعى قبيصة فدفع إليه طوماراً مختوماً عنوانه
« من معاوية إلى على » فقال : إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار ، ثم
أوصاه بما يقول لعلى . وعند ذلك سرح رسول على وخرجا - رسول على مع
رسول معاوية إلى على - فقلما المدينة في ربيع الأول لغرته فلما دخل المدينة رفع
العيسى الطومار . كما أمره معاوية وخرج الناس ينظرون إليه ففترقوا إلى منازلهم .
وقد علموا أن معاوية معترض ثم مضى الرسول حتى دخل على على فدفع إليه .
الطومار وسلمه إليه فلم يجد في جوفه كتابة فقال للرسول ما وراءك قال . آمين أنا .
قال نعم . ان الرسل آمنة لا تقتل . قال رسول معاوية . ورأى أنى تركت قوما
لا يرضون إلا بالقود « القصاص » قال على . بمن . قال . من خيط نفسك .
وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر
دمشق . فقال على . منى يطلبون دم عثمان أأست موتوراً كثرة عثمان ، اللهم
إني أبرأ إليك من دم عثمان ، نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله ، فإنه إذا أراد
أمراً أصابه ، أخرج . قال ؛ وأنا آمن قال على . وأنت آمن ، فخرج العيسى ،
وصاحت السبئية وقالوا . هذا الكلب ، هذا وافد الكلاب اقتلوه فنادى بالمضر
يا قيس الخيل والنبل إني أحلف بالله جل اسمه ليردنها عليكم أربعة آلاف
فانظروا كم الفحولة والركاب ، وأحاطوا به فمنعته مضر ، وجعلوا يقولون له .

اسكت . فيقول : لا والله لا يفلح هؤلاء أبداً . فلقد أتاهم ما يوعدون . فيقولون .
له اسكت . فيقول : لقد حل بهم ما يحذرون . إنتهت والله أعمالهم وذهبت ريحهم .
ثم انصرف .

طلحة ، والزبير

في الرواية السابقة التي ذكرها بعض المؤرخين مثل ابن الأثير والطبري يتضح
أن طلحة والزبير قد هربا من المدينة ولحقا بمكة بدون علم علي ، بل وربما
وهما منابذان له . . . ولكن بعض المؤرخين يرى أنهما كانا على وفاق مع علي .
وأنهما عرضا عليه أن يخرج من المدينة ليكونا له ظهراً في الأمصار الأخرى^(١) .

يقول هؤلاء : قال طلحة لعلي دعني فلا أخرج إلى البصرة فأكون ظهراً لك وأنا في
قوة . وقال الزبير : وأنا أيضاً أذهب إلى الكوفة وأكون ظهراً لك وأنا في قوة .
ولكن علياً أبدى لهما ضرورة وجودهما إلى جانبه فعاودا الطلب مرة أخرى فأذن .
لهما على فخرجا ولكنهما لم يذهبا إلى البصرة والكوفة وإنما لحقا بمكة ، وأحب
أهل المدينة أن يعلموا رأي علي في معاوية ليعرفوا بذلك رأيه في قتال أهل القبلة ،
أيجسر عليه أو ينكل عنه فدرسوا إليه رياء بن حنظلة التميمي وكان منقطعاً إلى علي .
فجلس إليه ساعة ، ثم قال له علي يا زياد تيسر « تجهز » فقال : لأى شيء . فقال :
تغزو الشام ، فقال زياد : الأناة والرفق أمثل وتمثل

ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بميسم
فتمثل عليٌّ وكأنه لا يريد :
متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاساً تجتنبك المظالم

(١) أنظر مروج الذهب ج ٢ ص ٦ وتاريخ الأمم ؛ ومحاضرات الحضري

ثم خرج زياد إلى الناس وأعلمهم بأن علياً سيحارب معاوية وكل من يخرج عليه .

موقعة الجمل :

بعد أن خرج طلحة والزبير من المدينة ، ولم يذهبا إلى العراق بل إلى مكة كما أسلفنا . لقياً عائشة أم المؤمنين ، ووالى مكة الذى كان قد ولاه عثمان وهو عبد الله ابن عامر الحضرمى . كما لقياً بنى أمية الذين خرجوا من المدينة بعد قتل عثمان ، والتفّ حولهم أعراب البوادي والغاضبون للاعتداء على أمير المؤمنين .

وكانت أم المؤمنين عائشة قد قضت نكسها ورجعت فى طريقها إلى المدينة ، ثم بلغها نبأ قتل عثمان . فيقال إنها غضبت إبتشاعاً لهذه الجريمة فرجعت ثانية إلى مكة فالتقت بطلحة والزبير واجتمع عددهاثل من المسلمين فى المسجد الحرام ، ثم توجهت عائشة إلى المسجد وخطبت الناس فقالت : يا أيها الناس ، إن الفوغاء من أهل الأمصار ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أن عاب الفوغاء على هذا المقتول بالأمس . استعمال من حدثت سنّه وقد استعمل أسنانهم قبله ، ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم ، وهى أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم عنها إستصلاحاً لهم ، فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً خاجوا (اضطربوا) وبادروا بالعدوان ونبا فعلهم عن قولهم فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستحلوا الشهر الحرام ، والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ، ويشرد من بعدهم ، والله لو أن الذى اعتدوا به عايه كان ذنباً خلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء . وهنا وبعد أن انتهت أم المؤمنين من تلك الكلمة الثائرة قام عبد الله بن عامر الحضرمى أمير مكة وقال : ها أنذا لها أول طالب ، وأول مجيب .

على أن الأمر تفاقم بتجمع الناس ورؤيتهم لطلحة والزبير وقد كانا بالمدينة
وتحدثا بكل الجرائم التي ارتكبتها السيئة ، فازدادت ثورتهم ، والتهبت
عواطفهم ، واندفعوا يريدون السير إلى المدينة ، فأشار بعضهم بالترث ،
والذهاب أولاً إلى الشام . فقال عبد الله بن عامر : قد كفاكم معاوية أمر الشام .
فقال طلحة والزبير فأين إذن قال : البصرة . فإن لي بها صنائع وهم من أنصار
طلحة . فأجمع أمرهم على السير إلى البصرة . وهنا عرض لهم أمر التجهز لما
ينتظرهم من حرب بينهم وبين المؤيدين لعلی . والمعارضين لعهد عثمان . ولكن
يعلى بن أمية الذي كان أميراً على اليمن أبدى استعداداً لتمويل هذا الجمع بكل
احتياجاته المدنية والعسكرية وكان من قوله « معي ستمائة ألف ، وستمائة بعير » .
ثم تلاه ابن عامر وقال : معي كذا وكذا وبذلك أصبح في استطاعة هذه الجموع
أن تسير وهي واثقة بالنصر ، وتجهزت السيدة عائشة لتسير مع هذه الجموع
فتصدى لها أزواج النبي محمد ﷺ من كانوا في مكة ونهوها عن الخروج .
ولكنها أصرت ، ثم واصل هؤلاء سيرهم حتى عسكروا بجوار البصرة .

وبعثت أم الفضل بنت الحارث رجلاً من جهينة ، يدعى ظفراً ، فاستأجرته .
على أن يطوى ويأتي علياً بكتابها ، فقدم علياً بكتاب أم الفضل
بالخبر ، وهنا قام علي بالتجهز للحيولة دون تلك الجموع والاستيلاء على
البصرة ، فأمر علي المدينة تمام بن العباس ، وبعث إلى مكة قثم بن العباس .
ثم أسرع بالخروج على رأس قوة ضاربة ، وهو يرجو أن يلحقهم
بالطريق ، وأراد أن يعترضهم ، فقاتوه فجد في السير بعد أن أعد العدة .
يقول الاخباريون : بلغ عليا الخبر وهو في المدينة باجتماعهم على الخروج .

للبصرة ، وبالذى اجتمع عليه مأوهم طلحة ، والزير ، وعائشة ، ومن تبعهم .
وبلغه قول عائشة ، وخرج على ييادرهم فى تعبته التى كان تعبى بها إلى الشام ،
وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخفين فى سبعمائة رجل .

ولقيه فى الطريق عبد الله بن سلام ، فأخذ بعنانه ، وقال :

يا أمير المؤمنين : لا تخرج ، فوالله لئن خرجت من المدينة لا ترجع إليها ،
ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً . ولكن لم يلق هذا النصيح قبولا من
أصحاب على .

وأرسل على^١ إلى أهل الكوفة أن يتجهزوا ويستعدوا ، وذهب رسوله
إليهم محمد بن أبى بكر ، ومحمد بن جعفر ، وقابلا أبا موسى الأشعرى أمير
الكوفة ، وساماه كتاب على . ثم قاما فى الناس وطلبا منهم الخروج إلى أمير
المؤمنين ، فلم يجابا إلى ذلك ، بل توجه أهل الكوفة إلى أبى موسى لأخذ رأيه ،
فقال لهم : كان رأى بالأمس ، ليس اليوم . إن الذى تهانونم فيه فيما مضى ، هو
الذى جرّ عليكم ماترون اليوم .

إنما هما أمران : القعود سبيل الآخرة ، والخروج سبيل الدنيا ، فاختاروا .
فلم ينفر إلى على أحد من أهل الكوفة ، فغضب رسولا على ، وأغلظا القول
لأبى موسى فقال لهما : والله إن بيعة عثمان لفى عنقى ، وعنق صاحبكما ، فإن لم
يكن بد من قتال ، فلا تقاتل أحداً حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا .

فرجعا إلى على وأخبراه بما حدث من أبى موسى - وعلى^٢ معسكر فى ذى قار -
فأمر الأشتر أن يذهب مع ابن عباس إلى أبى موسى الأشعرى ليعدل عن رأيه فى

منع الناس من الانضمام إلى علي ضد أصحاب الجمل ، فكلمأ أبا موسى واستمعانا عليه بنفر من أهل الكوفة . يقول الرواة : فقام لهم أبو موسى وخطبهم ، وقال :

أيها الناس . إن أصحاب النبي ﷺ الذين صحبوه ، أعلم بالله وبرسوله ممن لم يصحبه ، وإن لكم علينا لحقا وأنا مؤد إليكم نصيحة : كان الرأي أن لا تستخفوا بسلطان الله « يعنى باتباع القانون » وأن لا تجترئوا على الله . وأن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا . فهم أعلم بمن تصلح له الإمارة . (فى ابن الأثير الامامة) .

وهذه فتنة صماء . النائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان خير من القاعد . والقاعد خير من القائم . والقائم خير من الراكب والراكب خير من الساعى . فكونوا جرثومة من جرائم العرب فأغمدوا السيوف . وانصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار . وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر . وتنجلي هذه الفتنة فرجع ابن عباس والأشتر إلى علي ، فأخبراه الخبر ؛ فأرسل ابنه الحسن ، وعمار بن ياسر وقال لعمار . انطلق فأصلح ما أفسدت . فأقبلا حتى دخلا المسجد ، وكان أول من أتاهما المسروق بن الأجدع . فسلم عليها ، وأقبل على عمار فقال : يا أبا اليقظان : علام قتلتم عثمان . قال : على شتم أعراضنا وضرب أبشارنا . قال : فوالله ما ماعاقبتم بمثل ما عوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . فخرج أبو موسى ، فاقى الحسن ، فضمه إليه .

وأقبل على عمار فقال : يا أبا اليقظان أعدوت على أمير المؤمنين فيمن عدا ، فأحلت

نفسك مع الفجار. فقال : لم أفعل ولم يسؤنى ، فقطع الحسن عليهما الكلام ، وأقبل على أبي موسى . فقال له . لم تثبط الناس عنا ، فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء . فقال . صدقت بأبي أنت وأمي ، ولكن المستشار مؤتمن . سمعت رسول الله (ص) يقول : إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الراكب ، وقد جعلنا الله إخوانا وقد حرم علينا دماءنا وأموالنا .

فغضب عمار وسبه وقام وقال : أيها الناس ، إنما قال له وحده أنت فيها قاعد خير منك قائماً . فقام رجل من بني تميم فسب عمارا وقال . أنت أفس مع الفوغاء ، واليوم تسافه أميرنا وثار الناس ، وجعل أبو موسى يكفكف للناس ، ولكن زيد بن صوحان ثار ووقف على باب المسجد ومعه كتاب إليه من عائشة تأمره فيه بأن ينصرها ويلزم بيته . وكتاب آخر إلى أهل الكوفة بمعناه ، فأخرجهما فقرأهما على الناس ، ثم قال . أمرت أن تقر في بيتها وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة ، فأمرتنا بما أمرت به ، وركبت ما أمرنا به .

فقال له شبت بن ربيع . يا عماني (كان زيد بن صوحان من عبد القيس وهم يسكنون عمان) سرت بجدولاء فقطعت يدك ، وعصيت أم المؤمنين ، وقام أبو موسى وقال . أيها الناس . أطيعوني وكونوا جرثومة العرب ، يا أوى إليكم المظلوم ويأمن فيكم الخائف ، إن الفتنة إذا أقبلت فقد شبهت ، فإذا أدبرت بينت ، وإن هذه الفتنة فاقرة كداء البطن تجري بها الشمال والجنوب ، والصبا والدبور ، تذر الحليم وهو حيران . . إلزموا بيوتكم . . أطيعوني يسلم لكم دينكم ودنياكم . . فقام زيد فشال يده المقطوعة فقال : يا عبد الله بن قيس . رد الفرات على أدراجه من حيث أتى ، يعود كما بدا ، فإن قدرت على ذلك ، فستقدر على ما تريد ، فدع عنك مالست مدركه ، سيروا إلى أمير المؤمنين وسيد المسلمين .

إنفروا إليه أجمعين تصيبوا الحق ، فقام القمعاق بن عمرو فقال : إني لكم ناصح أمين وعليكم شفيق . أحب لكم أن ترشدوا ، ولأقولن لكم قولاً وهو الحق . أما ما قال الأمير فهو الحق ، لو أن إليه سيلاً ، وأما ما قال زيد ، فزيد عدو هذا الأمر ، فلا تستصحوه والقول الذي هو الحق ، أنه لا بد للناس من إمارة تنظم الناس ، وتنزع الظالم وتعز المظلوم ، وهذا أمير المؤمنين ، وقد أنصف في الدعاء ، وإنما يدعو إلى الإصلاح فانفروا وكونوا من هذا الإمام بمرأى ومسمع ،

وقال عبد الخير : يا أبا موسى . هل بايع طلحة والزبير ؟ قال نعم : قال هل أحدث ما يحل به نقض بيعته . قال : لا أدري . قال : لأدريت . نحن نتركك حتى تدري ، هل تعلم أحداً خارجاً من هذه الفتنة ، إنما الناس أربع فرق : على بظهر الكوفة ، وطلحة والزبير بالبصرة ، وفرقة بالحجاز لا غناء بها ولا يقاتل بها عدو . فقال أبو موسى : أولئك خير الناس وهي فتنة ، فقال عبد الخير . غلب عليك غشك يا أبا موسى فقال سيحان بن صوحان . أيها الناس لا بد لهذا الأمر وهؤلاء الناس من وال يدفع الظالم ويعز المظلوم ، ويجمع الناس ، وهذا واليكم يدعوكم لتتنظروا فيما بينه وبين صاحبيه ، وهو المأمون على الأمة ، الفقيه في الدين ، فمن ينهض إليه فإننا سائرون معه . فلما فرغ سيحان . قال عمار . هذا ابن عم رسول الله (ص) يستنفركم إلى زوجة رسول الله ﷺ وإلى طلحة والزبير ، وإني أشهد أنها زوجته في الدنيا والآخرة ، فانظروا ثم انظروا في الحق ، فقاتلوا معه ، فقال له رجل : أنا مع من شهدت له بالجنة ، على من لم تشهد له ، فقال الحسن . اكفف عنا فإن للإصلاح أهلاً ، وقام الحسن بن علي فقال . أيها الناس أجيئوا دعوة أميركم وأعينونا على ما ابتلينا وابتليتم به .

وان أمير المؤمنين يقول . قد خرجت مخرجي هذا ظالماً أو مظلوماً . وإني اذكر الله رجلاً رعى حق الله إلا نفر ، فإن كنت مظلوما أعانني ، وإن كنت

(م ١٢ — الراشد بن)

خلالما أخذ منى - والله ان طلحة والزبير أول من بايعنى وأول من غدر ، فهل استأثرت بمال أو بدلت حكما . فانفروا ومروا بالمعروف وانهاوا عن المنكر ، فسامح الله الناس .. فأجابوا ورضوا .

وبعد ذلك وجد الحسن أنصارا وأعوانا فقال . أيها الناس إني غادفن شاء أن يخرج معى على الظهر ، ومن شاء فى الماء ، فنفر معه قريب من تسعة آلاف ، أخذ فى البر ستة آلاف ومائتان ، وأخذ فى البحر ألفان وأربعمائة .

ويقال ان الأشتر بعث به على بعد الحسن ، وأنه دخل مسجد الكوفة فوجد الحسن وعمارا فى نزاع مع أبى موسى ، فتركهم ودعا القبائل أن تتبعه إلى القصر حتى اجتمع معه عدد كبير . فدخل قصر الإمارة وأخلاه من عبيد أبى موسى وموظفيه وخاصته ، واحتل القصر ، فخرج هؤلاء إلى أبى موسى بالمسجد فأخبروه أن الأشتر طردهم وأهانهم . فخرج أبو موسى من المسجد إلى القصر فدخله فصاح به الأشتر . أخرج . فقال أبو موسى . اجانى هذه العشية . فقال الأشتر . هى لك ولا تبين فى القصر الليلة وحاول الناس نهب متاع أبى موسى فمنعهم الأشتر وقال : أنا له جار . فكفوا عنه ، فكفوا ، ونفروا إلى على ، وانضموا إلى العدد الذى أسلفناه ، فبلغ عدد من انضم إلى جيش على حوالى اثنى عشر ألفا فى أصح الروايات^(١)

ومهما يكن من شىء ، فقد عسكر أصحاب على ، واصحاب طلحة والزبير وعائشة (أصحاب الجمل) يقول المسعودى^(٢) « وكان مسير على إلى البصرة فى

(١) انظر الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ١١٥ وما بعدها .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠ .

سنة ست وثلاثين ، وفيها كانت وقعة الجمل ، وذلك في يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى ، وقتل فيها من أصحاب الجمل وأهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر ألفا ، وقتل من أصحاب علي خمسة آلاف ، وقد تنازع الناس في مقدار من قتل من الفريقين فمن مقال ، ومكثر . فالقليل يقول . قتل منهم سبعة آلاف على حسب ميل الناس وأهواؤهم إلى كل فريق منهم ، وكانت وقعة الجمل وقعة واحدة في يوم واحد . ويقول الطبري « ان صاحب الجمل الذي اشترى للسيدة عائشة رضى الله عنها . قال : بينا أنا أسير على جمل إذ عرض لي راكب فقال : يا صاحب الجمل . تبيع جملك . قلت نعم . قال بكم ؟ قلت : بألف درهم . قال مجنون أنت ؟ جمال تباع بألف درهم . قال قلت نعم . جملي هذا . قال : ومِمَّ ذلك . قلت . ما طلبت عليه أحدا قط ، إلا أدركته ، ولا طلبني وأنا عليه أحد قط إلا فتنه . قال : لو تعلم لمن تريده لأحسنيت بيعنا . قال : قلت ولمن تريده . قال لأملك قلت : لقد تركت أمي في بيتها قاعدة ما تريد براحا قال : إنما أريده لأم المؤمنين عائشة . قلت : فهو لك . خذه بغير ثمن . قال لا ولكن ارجع معنا إلى الرجل فلنعطك ناقة مهرية ، ونزيدك دراهم . قال فرجعت فأعطوني ناقة لها مهرية ، وزادوني أربعمئة أو ستمئة درهم ، فقال لي « يا أخا عريضة هل لك دلالة بالطريق ، قال : قلت نعم أنا من أدرك الناس قال فسر معنا فسرنا معهم ، فلا أمر على واد أو ماء إلا سألوني عنه حتى طرقنا ماء الحوآب فنبحتنا كلابها . قالوا : أي ماء هذا قلت : ماء الحوآب . قال : فصرخت عائشة بأعلى صوتها ثم ضربت عضد بغيرها فأناخته ثم قالت : أنا والله صاحبة كلاب الحوآب طروقا . ردوني . تقول ذلك ثلاثا . فأناخت وأناختوا حولها ، وهم على ذلك ، وهي تأتي حتى كانت الساعة التي أناختوا فيها من الغد . قال فجاءها ابن الزبير فقال : النجاء النجاء ، فقد أدرككم والله على بن أبي طالب ، قال فارتحلوا وشتمونني فانصرفنا فمأسرت إلا قليلا ، وإذا أنا بعلی وركب معه نحو من ثلثمائة . فقال لي علي : يا أيها الراكب فأتيته

فقال : أين اتيت الفلعينة ؟ قلت في مكان كذا وكذا ، وهذه ناقها وبعثهم جملى .
قال : وقد ركبته . قلت نعم وسرت معهم حتى أتينا ماء الخوآب فنبعث عليها
كلابها . فقالت كذا وكذا فلما رأيت اختلاط أمرهم ، انفتلت وارتحلوا — في
حديث طويل لاضرورة للاتيان على بقيته^(١) .

ولكن هل ترك الفريقان الأمر يسير في طريق الحرب الساخنة بعد أن ظلوا
فترة في التجهز والإعداد ، وهم في قلق واضطراب ؟

لقد أرسل على إلى أصحاب الجمل ، رسولا أميناً راشداً ، وهو القعقاع بن .
عمرو ، وزوده بتعليمات خاصة قد تجمع الكلمة ، وتدفن الضغن ، واختبره فيما ليس .
لديه فيه أوامر ، فوجده واعياً حسن الحديث ، وكان القعقاع من الصحابة الأجلاء ، .
الذين فطروا على حب الأمن والسلام والعمل على استتابها في ربوع الدولة ، كما
كان رئيس الشرطة في مدينة الكوفة في عهد عثمان ، وولاية أبي موسى الأشعري ، .
وقد توجه القعقاع إلى السيدة الفاضلة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وقابلها وأبلغها
رسالة على بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقدم ما يقدر عليه من نصيح ، وميل إلى .
الوحدة والجماعة ، يقول المؤرخون : لما نزل على ذاقار (مكان قرب البصرة) أرسل .
ابن عباس والأشتر بعد محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن جعفر ، وأرسل الحسن بن علي .
وعمار بن ياسر . تخف في ذلك الأمر جميع من كان نفر فيه ولم يقدم فيه الوجوه .
أتباعهم .

وكان القعقاع بن عمرو أحد رؤساء الجماعة التي نفرت مع علي ، إلى جانب .
الرؤساء الآخرين مثل : سعد بن مالك ، وهند بن عمرو ، والهيثم بن شهاب ، ومثل .
زيد بن صوحان ، والأشتر مالك الحارث النخعي ، وعدي بن حاتم ، وبزید بن قيس ، .

حمن رؤساء النصارى دون الجماعة ، فلما نزلوا على قار ، دعا على القعقاع من أصحاب
النبي ﷺ فأرسله إلى البصرة وقال له : إلق هذين الرجلين يا ابن الحنظلية ،
فادعهما إلى الألفة والجماعة ، وعظم عليهما الفرقة ، وقال : كيف أنت صانع فيما
جاءك ، منهما ، هما ليس عندك فيه وصاة منى فقال : تلقاهم بالذى أمرت به ، فإذا
جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأى ، اجتهدنا الرأى وكنناهم على قدر
ما نسمع ، ونرى أنه ينبغي . قال : أنت لها . فخرج القعقاع حتى قدم البصرة ،
فبدأ بعائشة رضى الله عنها ، فسلم عليها وقال : أى أمه ما أشخصك وما أقدمك
هذه البلدة . قالت : أى بنى . إصلاح بين الناس قال : فابعثى إلى طلحة والزبير ،
حتى تسمى كلامى وكلامهما . فبعثت إليهما فحضرا ، فقال : إني سألت أم
المؤمنين ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد فقالت : إصلاح بين الناس ، فما تقولان
أنما أمتا يعان أم يخالفان . قالا : متابعان . قال فأخبرانى ما وجه هذا الإصلاح .
فوالله لئن عرفناه لنصلحن ، ولئن انكرناه لا نصالح . قالا . قتلة عثمان رضى الله
عنه . فإن هذا ان ترك ، كان تركا للقرآن . وان عمل به ، كان إحياء للقرآن
فقال . قتلما قتلة عثمان من أهل البصرة ، وأنتم قبل قتلهم ، أقرب إلى الاستقامة
منكم اليوم قتلتم ستمائة إلا رجلا ، فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من
بين أظهركم ، وطلبتم ذلك الذى أفلتت يعنى حرقوص بن زهير ، فمنعه ستة آلاف ،
وهم على رجل ، فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون .

فقلت أم المؤمنين ، فتقول أنت ماذا . قال . أقول هذا الأمر دواؤه التسكين
فإن أنتم بايعتمونا ، فعلامة خير وتبشير رحمة ، وعافية وسلامة لهذه الأمة ، وإن
أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر فأثروا العافية ترزقوها ،
وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم ، ولا تعرضونا للبلاء ، ولا تعرضوا له فيصرعنا
حوياكم . وإيم الله إني لأقول هذا وأدعوكم إليه ، وإني لخائف ان لا يتم حتى يأخذ
الله عز وجل حاجته من هذه الأمة ، التى قل متاعها ، ونزل بها ما نزل فإن هذا

الأمر الذى حدث . ليس يقدر وليس كالأمر . فقاتلوا . نعم إننا . قد أحسنت . وأصبت المقالة . فارجع فإن قدم على وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر ، فرجع . القعقاع إلى على فأخبره ، فأعجبه ذلك ، وأشرف القوم على الصلح ، كره ذلك من كرهه ، ورضيه من رضيه ، وأقبلت وفود البصرة نحو على حين نزل بذي قار . فجاءت بنو تميم . وبكر قبل رجوع القعقاع ، لينظروا ما رأى اخوانهم من أهل الكوفة ، وعلى أى حال نهضوا إليهم وليعلموا أن الذى عليه رأيهم الاصلاح . ولا يخطر لهم قتال على بال ^(١) .

وبذلك التقى القوم جميعاً عند نقطة محددة ، وهى أن يعودوا أمة واحدة ، أخوة متحابين ، وأن يعملوا جميعاً على تسكين الفتنة بكل سبيل ، ثم بعد ذلك . يحققون فى هذا الأمر الذى نجم عنه قتل عثمان . وهذا ما اتفق عليه على وشيعته . وأصحاب الجمل ، ثم أمر على بالرحيل . وقال من خطابه أو البيان الذى أذاعه « ولا يرتحلن معنا غداً أحد أعان على عثمان بشئ » وليغن السفهاء عنى أنفسهم » يقول ابن الأثير ^(٢) « وأشرف القوم على الصلح ، ورجعت وفود أهل البصرة برأى أهل الكوفة ورجع القعقاع من البصرة ، فقام على خطيباً ، فحمد الله وذكر الجاهلية وشقاءها ، والإسلام والسعادة ، وانعام الله على الأمة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله ﷺ ثم الذى يليه ، ثم الذى يليه ، ثم حدث هذا الحدث الذى جرّه على هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا . حسدوا من أفاءها الله عليه وعلى الفضيلة ، وأرادوا رد الإسلام والأشياء على أدبارها ، والله بالغ أمره ألا وأنى راحل غداً فارتحلوا . ولا يرتحلن أحد أعان على عثمان بشئ من أمور الناس وليغن السفهاء عنى أنفسهم . فاجتمع نفر منهم : علباء بن الهيثم ، وعدى بن حاتم وسالم بن ثعلبة القيسى ، وشريح

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ١٩٢ .

(٢) الكامل فى التاريخ ج ٣ ص ١١٧ .

ابن أوفى ، والأشتر النخعي في عدة ممن سار إلى عثمان ، ورضي بسير من سار ، وجاء معهم آخرون وابن السوداء ، وخالد بن ملجم ، فتشاوروا فقالوا : ما الرأي . وهو والله أبصر بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان ، وأقرب إلى العمل بذلك ، وهو يقول ما يقول ، ولم ينفر إليه سواهم ، والقليل من غيرهم فكيف به إذا شام القوم وشاموه ^(١) ورأوا قتلنا في كثرتهم ، وأنتم والله ترادون وما أنتم بالحي من شيء . فقال الأشتر : قد عرفنا رأي طلحة والزبير فينا وأما علي فلم نعرف رأيه إلى اليوم ، ورأي الناس فينا واحد . فان يصطلحوا مع علي ، فعلى دمائنا . فهلما بنا ثب على علي وطلحة فنلحقهما بعثمان ، فتعود فتنة يرضى منافيها بالسكون . ولكن هذا لم يعجب ابن سبأ فانبرى ابن السوداء ، يستمع إلى مختلف الآراء ويناقشها مما نوجزه بعد :

(١) يعني اعطلحوا .

الفصل الخامس

الفتنة تتفاقم

مؤتمر ابن السوداء :

بعد خطبة على السابقة ، دعا ابن سبأ إلى اجتماع عاجل ، لمناقشة الموقف بعد اتفاق على وأصحاب الجمل على انتهاء حالة التوتر ، وقد أبدى بعض المؤتمرين آراء لم تعجب ابن السوداء ، مثل رأى علباء بن الهيثم بأن ينصرفوا ويتركوهم . فقد عقب عبد الله بن سبأ على هذا بقوله : بشئ ما رأيتم . ود والله الناس انكم انفردتم ولم تكونوا مع أقوام براء ، ولو انفردتم لتخطفكم الناس .

وقال عدى ابن حاتم : والله مارضيت ولا كرهت ، ولقد عجبت من تردد ، من تردد عن قتله في خوض الحديث ، فأما إذا وقع ما وقع ، ونزل من الناس بهذه المنزلة ، فإن لنا عتادا من خيول وسلاح . فإن أقدمتم أقدمنا ، وإن أمسكتم أمسكنا .

قال ابن السوداء : أحسنت .

وقال سالم بن ثعلبة : من كان أراد بما أتى الدنيا فإني لم أرد ذلك ، والله لن لقيتهم غدا لا أرجع إلى شيء .

قال ابن السوداء : لقد قال ابن ثعلبة قولا .

وقال شريح ابن أوفى : أبرموا أموركم قبل أن تخرجوا (تقوافي الحرج والضيق)

ولا تؤخروا أمراً ينبغي لكم تعجيله ، ولا تعجلوا أمراً ينبغي لكم تأخيرهُ ، فإننا عند الناس بشر للنازل ، وما أدرى ما الناس صانعون إذا ما هم التقوا . .

قال ابن السوداء : يا قوم . إن عزمكم في خلطة الناس ، فإذا التقى الناس غدا فأنشوا القتال ، ولا تفرغوهم للنظر . فمن أنتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع ويشغل الله عليا وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم ، عما تكرهون فابصروا الرأي وتفرقوا عليه . والناس لا يشعرون . يقول الرواة : وأصبح علي على ظهر ومضى ، ومضى معه الناس ، حتى نزل على عبد القيس فانضموا إليه وسار من هناك حتى نزل الزواية ، ثم غادرها إلى البصرة ، وسار طلحة والزبير وعائشة فالتقوا عند موضع قصر عبيد الله بن زياد ، فلما نزل الناس ، أرسل شقيق بن ثور إلى عمر بن مرحوم العبدى ، أن اخرج فإذا خرجت فمل بنا إلى عسكر على فخر جافي عبد القيس وبكر بن وائل فعدلوا إلى عسكر على ، فقال الناس : من كان معه هؤلاء غلب . وأقاموا ثلاثة أيام لم يكن بينهم قتال . فكان يرسل على إليهم يكلمهم ويدعوهم ، وكان نزولهم في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ، ونزل بهم على وقد سبق أصحابه وهم يتلاصقون به . فلما نزل قال أبو الجرباء للزبير : إن الرأي أن تبعث ألف فارس إلى على قبل أن يأتيه أصحابه ، فقال الزبير : قد فارقنا وفداهم على أمر ، وأنا أرجو أن يتم لنا الصلح ، فابشروا واصبروا .

يقول المؤرخون : بعث على إلى طلحة والزبير وعائشة : ان كنتم على مفارقتهم القعقاع ، فكفوا ودعونا ننظر في هذا الأمر ، فنزلوا في البصرة والقوم لا يرتابون في أمام الصلح وعودة الوحدة إلى الصفوف ومشت السفراء بين الفريقين ، ثم بات القوم ينتظرون السلام ، وانتهاء حالة الحرب الوشيكة الحدوث .

يبدأن السبئية الذين أشرنا إلى مؤتمهم السابق ، وما انتهى إليه من ضرورة

أنشأ القتال بين المسلمين ، قاموا في الفلج ، ووضعوا السلاح في عسكر أهل البصرة فسأل طلحة والزبير عن السبب فقيل لهما : إن أهل الكوفة هم الذين اعتدوا عليهم ليلاً . فيقال إن طلحة والزبير قالوا : إن علينا غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمات وإنه لن يستجيب للصالح ولن يطاوعنا .

وسأل علي عن الخبر — وكان السبئية قد وضعوا رجلاً قريباً منه يخبره بما يريدون — فقيل له : لقد فوجئنا بقوم من أصحاب عائشة وطلحة والزبير ، قد يتنونا ، فرددناهم من حيث أتوا ، فوجدنا القوم متأهبين للقتال وهجموا علينا ، فثار الناس ، واشتبكوا في المعركة . فقال علي : قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفك الدماء ويستحلا الحرمات وأنهما لن يطاوعانا ، ولم يكن بد من القتال .

أما أم المؤمنين عائشة فقد كانت فوق الجمل في هودجها بين أهل البصرة ، وكان ذلك اليوم من أشد أيام المسلمين هولاً ، فقد فيه المسلمون بعد المعركة التي لم تمكث أكثر من بياض يوم واحد حوالى اثني عشر ألفاً على أقل تقدير .

يقول المسعودي^(١) : لما قدم على البصرة دخل مما يلي السقف ، فأتى الزاوية فورد موكب نحو ألف فارس يقدمهم فارس على فرس أشهب عليه قلنسوة وثياب بيض متقلد سيفاً معه راية ، وإذا القوم مدبجون بالسلاح والحديد ، فقيل من هذا . فقالوا : أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ وهؤلاء الأنصار وغيرهم ، ثم تلاهم فارس آخر عليه عمامة صفراء وثياب بيض متقلد سيفاً ، متنكب قوساً ، معه راية على فرس أشقر في نحو ألف فارس . فقيل من هذا . فقالوا :

هذا خزيمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين ثم مر فارس آخر على فرس كيت معتم بعمامة صفراء من تحتها قانسوة بيضاء متقلد سيفاً متنكب قوساً في نحو ألف فارس من الناس ومعه راية فقيل من هذا فقالوا : أبو قتادة بن ربعي . . ثم مر فارس آخر على فرس أشهب عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سد لها بين يديه ومن خلفه معه راية بيضاء في ألف من الناس ، وحوله مشيخة وكهول وشباب ، كانوا قد أوقفوا للحساب . أثر السجود قد أثر في جباههم . فقيل من هذا فقالوا : هذا عمار بن ياسر في عدة من الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم . ثم مر فارس آخر على فرس أشقر عليه ثياب بيض ، متنكب قوساً ، متقلد سيفاً تخط رجلاه في الأرض في ألف من الناس ومعه راية بيضاء . فقيل من هذا . قالوا : هذا قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري . ثم مر فارس آخر ، على فرس أشهب ما رأينا أحسن منه ، عليه ثياب بيض بلواء ، فقيل من هذا فقالوا : عبد الله بن عباس في عدة من أصحاب رسول الله ﷺ ثم تلاه فارس آخر في موكب أشبه الناس بالأولين ، فقيل من هذا . فقالوا : قثم بن العباس أو سعيد بن العاص ثم أقبلت الموكب والرايات يقدم بعضها بعضاً ، واشتبهت الرماح ، ثم ورد موكب فيه خلق كثير من الناس ، عليهم السلاح والحديد مختلفوا الرايات في أوله راية كبيرة يقدمهم رجل كأنما كسر وجبر^(١) ، وكأنما على رؤوسهم الطير ، وعن يسرتهم شاب حسن الوجه قيل من هؤلاء . فقالوا : هذا علي بن أبي طالب . وهذا الحسن والحسين عن يمينه وشماله . وهذا محمد بن الحنفية بين يديه معه الراية العظمى . وهذا الذي خلفه ، عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وهؤلاء ولد عقيل وغيرهم . . وهؤلاء المشايخ من أهل بدر من المهاجرين والأنصار . فساروا حتى

(١) كسر وجبر معناه أنه رجل شديد الساعدين . نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى السماء وهذا مثل عربي تقول العرب في وصفها إذا عبرت عن الرجل القوي للتواضع .

تزلوا الموضع المعروف بالزاوية ، فصلى (على) أربع ركعات وعفر خديه على التربة
موقد خالط ذلك دموعه . ثم رفع يديه يدعو :

« اللهم رب السموات وما أظلت ، والأرضين وما أقلت ، ورب العرش العظيم
هذه البصرة ، أسألك من خيرها وأعوذ بك من شرها ، اللهم أنزلنا خير منزل
وأنت خير المنزلين . اللهم هؤلاء القوم . قد خلعوا طاعتي وبنفوا على ونكثوا
بيعتى . اللهم احقن دماء المسلمين . »

وبعث إليهم من يناشدهم الله فى الدماء . وقال : علام يقاتلونى فأبوا
إلا الحرب ، فبعث رجلا من أصحابه يقال له « مسلم » معه مصحف يدعو إلى
الله ، فرموه بسهم فقتلوه ، فحمل إلى على . وقالت أمه :

يارب إن مسلما أتاهم يتلو كتاب الله لا يخشاهم
فخضبوا من دمه لحاهم وأمه قائمة تراهم

وأمر على رضى الله عنه ، أن يضافوهم ولا يبدؤوهم بقتال ، ولا يرموهم
بسهم ولا يضربوهم ولا يطعنوهم برمح حتى جاء عبد الله بن بديل بن ورقاء
الخرامى من الميمنة بأخ له قتيل ، وجاء قوم من اليسرة برجل قد رمى بسهم
فقتل . فقال على : اللهم اشهد ، وأعدروا إلى القوم . ثم جاء عمار بن ياسر بين
الصفين . فقال : أيها الناس ، ما أنصفتم نبيكم حيث كفتم عتقاء تلك الخدور ،
وأبرزتم عقيلته للسيوف . وعائشة على جمل فى هودج من رفوف الخشب ، قد
ألبسوه المسوح وجلود البقر وغيظها ، فدنا عمار بن ياسر من موضعها ، فنادى :
إلى ماذا تدعينى . قالت : إلى الطلب بدم عثمان . فقال : قتل الله فى هذا اليوم
الباغى والظالم والطالب بغير الحق ، ثم قال : أيها الناس . إنكم لتعلمون أننا
المالء فى قتل عثمان ، ثم أنشأ يقول وقد رشقوه بالنبل :

فمنك البكاء ومنك العويل ومنك الرياح ومنك اللطر

وأنت أمرت بقتل الأمير وقاتله عندنا من أمر

وتواتر عليه الرمي واتصل ، فحرك فرسه وزال عن موضعه . فقال : ماذا تنتظر يا أمير المؤمنين ، وليس لك عند القوم إلا الحرب . فقام على رضى الله عنه . فقال :

أيها الناس ، إذا هزمتهم ، فلا تجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيرا ولا تتبعوا موليا ولا تطلبوا مدبرا ، ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل ولا تهتكوا سترا ولا تقربوا من أموالهم ، إلا ما تجدونه في عسكرهم من سلاح أو كراع أو عبد أو أمة ، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله^(١)

لم يحاول على رضى الله عنه ، أن يستغل الموقف ، أو يباهى بقوته التى تفضل قوة خصومه ، ولكنه ظل إلى آخر لحظة ، بل وحتى أثناء القتال وبعده ، يعمل جاهدا على تضيق دائرة الانقسام والشجار ، بقدر استطاعته .

يقول الرواة : « وخرج على نفسه حاسرا على بغلة ، لاسلاح عليه ، فنادى : يا زبير أخرج إلى ، فخرج شاكيا سلاحه ، فقيل لعائشة . فقالت واحرباه باسماء فقيل لها : إن عليا حاسر ، فاطمأنت ، واعتنق كل واحد منهما صاحبه . فقال له على : ويحك يا زبير . ما الذى أخرجك قال : دم عثمان . قال : قتل الله أولانا بدم عثمان . أما تذكر يوم لقيت رسول الله ﷺ فى بنى يياضة وهو راكب حماره ، فضحك إلى رسول الله (ص) ، وضحكت أنت معه فقلت أنت :

يا رسول الله . ما يدع على زهوه . فقال : ليس به زهو . أتجبه يا زبير . فقلت :
إني والله لأجبه . فقال لك : انك والله ستقاتله وأنت له ظالم . فقال الزبير :
أستغفر الله ، لو ذكرتها ما خرجت . فقال : يا زبير . ارجع فقال : وكيف أرجع
الآن . وقد التقت حلقتا البطان . هذا والله العار الذي لا يغسل . فقال : يا زبير .
ارجع بالعار ، قبل أن تجمع العار والنار ، فرجع الزبير ، وهو يقول :

اخترت عارا على نار مؤججة ما أن يقوم لها خلق من الطين
نادى على بأمر لست أعلمه عار لعمرك في الدنيا وفي الدين
فقلت حسبك من عدل أباحسن فبعض هذا الذي قد قلت يكفيني

فقال ابنه عبد الله : أين تدعنا . فقال : يا بني . أذكرني أبو حسن بأمر
كنت قد أنسيته فقال لا والله ، ولكنك فررت من سيف بني عبد المطلب ، فإنها
طوال حداد تحملها فتية أنجاد . قال : لا والله . ولكني ذكرت ما انسانيه الدهر ،
فاخترت العار على النار . أبالجبن تعيرني . لأبالك ، ثم آمال سنانة فشدي الميمنة
فقال على أفرجوا له فقد هاجوه . ثم رجع فشد في الميسرة ، ثم رجع فشد في القلب
ثم عاد إلى ابنه فقال . أيفعل هذا جبان ، ثم مضى منصرفا حتى أتى وادي السباع
والأحنف بن قيس معتزل في قومه من بني تميم ، فأتاه آت فقال له : هذا الزبير مار
فقال : ما أصنع بالزبير ، وقد جمع بين فئتين عظيمتين من الناس يقتل بعضهم بعضاً
وهو مار إلى منزله سالماً ، فلحقه نفر من بني تميم فسبقهم إليه عمرو بن جرموز ، وقد
نزل الزبير إلى الصلاة . فقال له أتؤمنني أو أمك فأمه الزبير ، فقتله عمرو في الصلاة ،
وقتل الزبير رضي الله عنه وله خمس وسبعون سنة . وقد اتهم الأحنف بن قيس في
إرسال بعض قومه لارتكاب هذا الإثم . ولكن لم يثبت ذلك .

وأتى ابن جرموز إلى علي بن أبي طالب بالسيف الذي كان مع الزبير وخاتمه ورأسه ،

فقال علي : سيف طال ماجلا الكرب عن رسول الله ﷺ لكنه الجين ومصارع السوء ، وقاتل ابن صفية في النار .

هذا . وقد أتجه علي بعد رجوع الزبير إلى طلحة بن عبيد الله ، فناداه : يا أبا محمد . ما الذي أخرجك . قال : الطلب بدم عثمان ، قال علي : قتل الله أولانا بدم عثمان . ثم قال : أنت أول من بايعني ثم نكثت . وقد قال الله عز وجل : « ومن نكث فأنا ينكث على نفسه » فقال طلحة : استغفر الله ، ثم رجع . وقد قيل إنه قد جرحه عبد الملك في وجهه بعد رجوعه ، ورماه مروان ابن الحكم فقتله^(١) .

وطلحة بن عبيد الله ابن عم أبي بكر الصديق ، وهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عبيد الله بن عمر بن كعب بن سعيد بن تيم ، وأمه «الصعبة» بنت أبي سفيان صخر بن حرب ، وأخت معاوية بن أبي سفيان أمير الشام ، وقد قتل طلحة وله من العمر أربع وستون سنة في أصح الروايات ، ودفن بالبصرة وقبره ومسجده بها كما دفن الزبير بوادي السباع ، وقتل محمد بن طلحة مع أبيه في ذلك اليوم ، ويقال إن عليا مر به ضمن القتلى فعرفه فقال : هذا رجل قتله بره بأبيه وطاعته له ، وكان يدعى بالسجاد ، وروى الواقدي أنه يكنى أبا سليمان . أما ابن عدى فقد قال : إن كنيته أبو القاسم .

هذا وقد انتهت وقعة الجمل — كما أسلفنا — في يوم الخميس في ١٥ من جمادى الآخرة سنة ٥٣٦ هـ ، ودخل على مدينة البصرة بعد أن ظل في معسكره ثلاثة أيام متألماً ، وندب الناس إلى موتاهم فدفنهم ، فطاف عليهم — وبعد أن صلى على جميع القتلى من الفريقين وترحم عليهم جميعاً — وخطب الناس فقال : يا أهل المسجد،

يا أهل المؤتفكة يا جند المرأة . يا أتباع البهيمة ، رغا فأجبتم . وعقر فانهزمت ،
أخلاقكم رفاق ، وأعمالكم نفاق ، وديكم زيغ وشقاق ، وماؤكم أجاج
وزعاق ^(١) .

يقول الطبرى : كان قتلى وقعة الجمل ، عشرة آلاف نصفهم من أصحاب
على . ونصفهم من أصحاب عائشة وقيل قتل من أهل البصرة في المعركة الأولى
خمسة آلاف ، وفي المعركة الثانية خمسة آلاف ، فكان عشرة آلاف قتيل من أهل
البصرة ومن أهل الكوفة خمسة آلاف .

أما المعركة الأولى التي يشير إليها الطبرى قبل وقعة الجمل فهي التي حدثت
بين أصحاب الجمل وبين عثمان بن حنيف .

وذلك أن القوم (طلحة والزبير وعائشة) دخلوا البصرة قبل مجيء على ومن معه
فخرج إليهم عثمان بن حنيف فمنعهم وجرى بينه وبينهم قتال ، ثم إنهم إصطلحوا بعد
ذلك على كف الحرب إلى قدوم على ؛ فلما كان في بعض الليل يتتوا عثمان بن حنيف
فأسروه وضربوه ، كما يقال إنهم تنفوا لحيته ، ثم خلوا عنه خشية من أخيه سهل
ابن حنيف بالمدينة ، وأرادوا بيت المال فمنعهم الخازن وموظفوه فقتل منهم حوالي
سبعين رجلا غير من جرح وأصيب .

هذا وقد بايع أهل البصرة لعلى ، وفي مقدمتهم الأحنف بن قيس وسائر القبائل
العربية ، ثم توجه على إلى بيت المال ، فإذا فيه حوالي ستمائة ألف . فقسمها على من
شهد وقعة الجمل فيقال إنه أعطى كل رجل خمسمائة خسمائة . يقول الطبرى :
وقال على لمن قسم عليهم المال . لكم إن أظفركم الله عز وجل بالشام مثلها إلى

(١) نفس المصدر السابق والزعاق غير المذب .

أعظياتكم ، وخاض في ذلك السبئية وطعنوا على علي من وراء وراء^(١) ، فاتهموه بأنه قد بدد الأموال ، وحابى شيعته الخ . .

وقد أسند على إمارة البصرة إلى الصحابي الجليل عبد الله بن عباس ، كما أسند ولاية الخراج إلى زياد بن أبي سفيان ، ثم انصرف على عائداً إلى الكوفة حيث أخذ يتجهز لإخضاع معاوية بن أبي سفيان أمير الشام الذي رفض أن يعزله أمر ولاية الشام ، حسبما نوضح بعد .

أما بعد : فهل كانت هناك مبررات قوية تفرض هذه المعركة التي سفكت فيها دماء طاهرة كان الإسلام في أشد الحاجة إلى بقائها .

إن الذي نراه ، أن المسئولية ، يجب أن يتحملها هؤلاء الذين ألهب السبئية مشاعرهم وعواطفهم وأثاروا العصبية القبلية بينهم ، فانساقوا في أتون الجاهلية التي هدمها الإسلام ، فقاموا يطالبون بثار عثمان بحسبانه رجلاً من بني أمية ، أو رجلاً من عامة الشعب ، لا باعتباره رئيس دولة ، وأمير المؤمنين ، وجميع أفراد الأمة مسئولون عن جريمة اغتياله .

لقد كان الذين يحرضون على القتال ، وإثارة الجماهير ضد علي إلى جانب السبئية جماعة من بني أمية ، مثل مروان بن الحكم ، وغيره ، كما أن بعض القبائل تعصبت لأفراد منها ممن قتلهم أصحاب الجمل ، وبذلك اختلطت عوامل الفتنة الإجرامية التي أشعلها ابن السوداء ، بعصبية القبائل والبطون ، ولم تفلح نصائح علي وسائر العقلاء في كف الفريقين عن الالتحام ، وقتال بعضهم بعضاً .

وهكذا انتهت هذه المعركة التي يسرت على المسلمين بعد ذلك أن يواجه بعضهم بعضاً ، وأن يستحل بعضهم دماء بعض ، مما نتج عنه في صفين وشيكا .

(١) الامم والملوك ج ٥ ص ١٢٢ .

يقول الشيخ الخضرى — رحمه الله — « لا يمكننا أن نبرر عمل الفريقين المتحاربين من كل الوجوه . فإن طلحة والزبير وعائشة ، خرجوا — كما يقولون — للمطالبة بسدم عثمان الذى سفك حراما ، من غير ترة ولا ذنب يوجب ذلك . ولا نرى كيف فهموا أن ذلك ممكن من غير أن يكون للمسلمين رئيس يرجع إليه الأمر ، فى تحقيق هذه القضية الخطيرة ، التى تناط بالاعتداء على رئيس الدولة الذى اختارته بكامل حريتها وإرادتها .

إن إعطاء الحق للأفراد فى أن يتجمعوا لإقامة حد قصر رئيس الدولة فى إقامته أو بالهوانة فيه مفسدة للنظام الذى أسس عليه الإسلام .

ولكن الفتن إذا أقبلت تشابهت وإذا أدبرت تبينت ، ولم يكن عند على من الأناة ما يمكنه من المصابرة حتى يلتئم هذا الصدع أحسن مما كان .

حقيقة ان هؤلاء الشياطين الذين لا يريدون بالأمة خيراً ، أعجلوه وأنشبوا الحرب حتى اشتبه عليه الأمر . وعلى أصحاب الجمل ^(١) .

ومهما يكن من شيء ، فإن صحابة النبي ﷺ لم يكن ليحدث بينهم ما حدث لولا الدسائس السبئية التى أشرنا إليها ، ولكن هل كانت تلك الدسائس ، هى كل ما سحر الفتنة ، أم كانت هناك أشياء حدثت ، ولم تتضح للناس حكمتها . ذلك ما سوف نعرض له بالبحث إثر حديث الفتنة إن شاء الله تعالى .

الفصل السادس

بين علي ومعاوية

لم يكن في برنامج علي - فيما يبدو - أن يقاتل أصحاب الجمل ، ولكن الظروف التي أشرنا إليها قد أوجتته إلى خوض المعركة ، فكان ما قدر الله .

ولذلك فإنه ما أن انتهى من تلك المعركة حتى أخذ يفكر جدياً في أمر معاوية الذي أعلن المعارضة من دون الولاية ، وبعث رسولا من قبله يبلغه علياً أن معاوية يضع في عنقه مسئولية قتل عثمان ، وقد حاول علي جاهداً حسم الأمر بالحسنى والتفاهم ، فلم يصل إلى حل يحقن الدماء . يقول المؤرخون : بعد أن استقر علي بالكوفة ، واصل البحث في أمر معاوية ، فبعث بجريز بن عبد الله البجلي ، رسولا إلى معاوية ابن أبي سفيان ، يطلب إليه بذل البيعة له ، فذهب جريز إلى الشام ، ولقي معاوية وأبلغه رسالة علي . ولكن معاوية ماطله ، واستنظره ، حتى يريه موقف عرب الشام من علي ومن حوله ممن اشترك في التحريض على عثمان .

لقد كان أهل الشام ثأرين لمقتل عثمان حتى ليروى أنهم قد آلى رجالهم أن لا يمسوا النساء ولا يناموا على القرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ، وكان الشام - في ذلك الوقت - مجمع أجناد المسلمين ، إذ كانت الثغر الذي يجاور الأمبراطورية الرومانية المحاربة للدولة الإسلامية ، وبعد سقوط الدولة الفارسية تركزت زهرة الجيوش الإسلامية تجاه الروم ، ولهذا فقد كان لدى معاوية القوة الرئيسية الضاربة في أجناد الشام التي هو أميرها كما كان معاوية من دهاء السياسة ، ورجال العرب ، سوله من طول الباع في جذب الأنصار ، ومقازبة الناس ، ما ليس لسواه .

لقد عاشر معاوية أهل الثغور الشامية، مدة طويلة، وكان سياسياً محنكاً، وإدارياً ماهراً حتى إن السبئية الذين أفسدوا في الأرض، وخذعوا كبار الصحابة، لم تنطل عليه إلا عيبتهم، بل لقد تمكن من كشفهم والقبض على رأسهم، ونفيه من الشام — كما سبق.

وإذن فلم يكن من السهل أن يستجيب معاوية لعلی، بعد أن أعلن معارضته لبيعته.

ولهذا فقد فشلت سفارة جرير، كما تنبأ الأشتر التخمي^(١)، إذ رجع جرير وأخبر علياً بعناد معاوية، فبعث على بوفد آخر، من بشير بن عمرو الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني، وشبث بن ربعي التميمي، فساروا حتى وصلوا الشام وقابلوا معاوية. فتكلم بشير بن عمرو، وقال: «يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة: وإنك راجع إلى الآخرة. وإن الله محاسبك بعملك ومجازيك عليه، وإني أنشدك الله، أن تفرق جماعة هذه الأمة. وأن تسفك دماءها بينها، فقطع معاوية كلامه. وقال: هلا أوصيت صاحبك بذلك. فقال ابن عمرو: إن صاحبي ليس مثلك.. إن صاحبي أحق بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام. قال معاوية: فماذا يقول. قال يأمرك بتقوى الله وأن تجيب ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق، فإنه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة أمرك. قال معاوية: ونترك دم عثمان. لا والله لا أفعل ذلك أبداً.

هذا وبعد جدال كثير بين سفراء علي ومعاوية، لم يصل الطرفان إلى حل للموقف، فرجع الوفد إلى علي، وبسط له موقف معاوية وأنه غير راغب في مسألمته.

(١) الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٢٠.

هو أنه لن يعترف له ببيعة ، وإنما هو يطلب تسليم قتلة عثمان ليقتلوا به ، ثم يكون الأمر للأمة ، فإن شامت اختارت علياً وإن شامت رفضت بيعته واختارت غيره ، وأسهب الوفد في نعت حالة عرب الشام ، وتربصهم بعلي ، وأنها مهم إياه بالاشتراك في التحريض على عثمان وإيواء قتلته .

ولهذا فقد خرج علي فمسكر بالنخيلة ، خارج الكوفة ، فقدم عليه عبد الله ابن عباس في جموع أهل البصرة ، وأخذ يتجهز لحرب معاوية .

معاوية يستشير عمرو بن العاص :

بلغت أنباء خروج علي معاوية ، فاستدعى عمرو بن العاص للاستشارة فيما يصنع إزاء علي بن أبي طالب — وكان قد ذهب إلى الشام قبل قتل عثمان — في أغلب الظن — يقول ابن الأثير في ذلك : كان عمرو قد سار عن المدينة قبل أن يقتل عثمان نحو فلسطين ، وسبب ذلك أنه لما أحيط بعثمان قال : يا أهل المدينة لا يقيم أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله بذل . . من لم يستطيع نصره فليهرب . فسار معه ابنه عبد الله ومحمد ، فسكن فلسطين حتى قتل عثمان ، فسار إلى دمشق وهو شديد الحزن على هذا الحادث ، فلقى معاوية ولزمه ، حتى كان الخلاف بين علي وبين معاوية ، فبالأمعوية ضد علي — وقد أشار عمرو على معاوية بأن يقف من علي موقفاً مشابهاً لمسلكه ، فإذا سار علي إلى الشام لحربه فعليه أن يخرج أيضاً لملاقاته في حومة الوغى^(١) .

على يبعث بولائه إلى الأمصار :

لم يقتصر أمر على بعد مبايعته على الاعداد لإخضاع معاوية بأي سبيل ، ولكنه أصبح مسئولاً عن شتى مرافق الدولة المترامية ، ولهذا فإنه كان قد عين على مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ، وأرسله أميراً عليها بعد أن قتل محمد بن حذيفة الذي وليها بعد طرد عبد الله بن سعد والي عمان ، ثم اشتبك في قتال مع معاوية بقصد استرداد مصر إلى ولاية عمان مرة أخرى ، وقد قتل ابن حذيفة في هذه المعارك . ولكن أهل مصر حالوا دون استيلاء معاوية عليها إلى أن جاءهم قيس بن سعد من قبل أمير المؤمنين على .

هذا وقد نسب إلى محمد بن حذيفة أنه الذي سرب المصريين إلى عمان . ولكن لم يثبت هذا . على أنه يروى أن محمد بن حذيفة ظل أميراً على مصر حتى جاء قيس بن سعد فتسلمها منه ، أما عبد الله بن أبي سرج ، فقد لجأ إلى معاوية ، ولم يشتبك في حرب مع ابن أبي حذيفة ^(٢) ومهما يكن من أمر ، فقد دخل قيس مصر ، وتمكن من أخذ البيعة من أهلها لعل بن أبي طالب . يقول الطبري : في سنة ٣٦ بعث على بن أبي طالب على مصر ، قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري . وقال له : سر إلى مصر فقد وليتكها ، وأخرج إلى رحلك ، واجمع إليك ثقاتك . ومن أحببت أن يصحبك فخرج قيس في سبعة نفر من أصحابه حتى دخل مصر ، فصعد المنبر فجلس عليه ، وأمر بكتاب معه من أمير المؤمنين فقرأ على أهل مصر وفيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله على أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابي هذا : من المؤمنين والمسلمين . سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو .

أما بعد . فإن الله عز وجل بحسن صنعه وتقديره ، وتديره ، اختار الاسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله ، وبعث به الرسل عليهم السلام إلى عباده ، وخص به من انتخب من خلقه ، فكان مما أكرم الله عز وجل هذه الأمة وخصها به من الفضيلة ، أن بعث إليهم محمداً ﷺ فعلمهم الكتاب والحكمة والفرائض والسنة لكيما يهتدوا ، وجمعهم لكيما لا يتفرقوا ، وزكاهم لكيما يتطهروا . . فلما قضى من ذلك ما عليه قبضه الله عز وجل ، صلوات الله عليه ورحمته وبركاته . ثم ان المسلمين استخلفوا به أميرين صالحين ، عملاً بالكتاب والسنة واحسنا السيرة ، ولم يعدوا السنة . ثم توفاهما الله عز وجل رضى الله عنها ، ثم ولى بعدهما وال فأحدث أحداثاً ، فوجدت الأمة عليه . مقالا ، فقالوا ثم نعموا عليه فمعبروا . ثم جاءونى فبايعونى ، فاستهدى الله عز وجل بالهدى واستعينه على التقوى . ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسوله (ص) والقيام عليكم بحقه ، والتنفيذ لسنة والنصح لكم بالغيب والله المستعان . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وقد بعثت اليكم قيس بن سعد بن عبادة ، أميراً فوازيروه وكاتفوه وأعينوه على الحق . وقد أمرته بالاحسان إلى محسنكم ، والشدة على مريكم ، والرفق بعموكم وخواصكم ، وهو ممن أرضى هديه وأرجو صلاحه ونصيحته . أسأل الله عز وجل لنا ولكم عملاً زاكياً وثواباً جزيلاً ورحمة واسعة . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد أن انتهى قيس بن سعد من قراءة خطاب على أهل مصر ، قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم وقال « الحمد لله الذى جاء بالحق وأما الباطل ، وكبت الظالمين . أيها الناس . إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا (ص) فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله (ص) فإن

نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم . فقام الناس فبايعوا واستقامت له مصر ، وبعث عليها عماله ، إلا أن قرية منها يقال لها : « خربتا » فيها أناس قد اعظموا قتل عثمان رضى الله عنه ، وبها رجل من كنانة ثم من بنى مدلج ، يقال له يزيد بن الحارث من بنى الحارث . فبعث هؤلاء إلى قيس : إنا لانقاتلك فابعث عمالا . فالأرض أرضك . ولكن أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس .

كذلك قام مسلمة بن مخلد الأنصارى ، ورهط من بنى ساعدة عشيرة قيس بن سعد ، فنعوا عثمان ، ودعوا إلى الطلب بدمه . فأرسل قيس بن سعد إلى مسلمة بن مخلد يقول : ويحك .. على ثوب فوالله ما أحب أن أملك الشام إلى مصر ، وإنى قتلتك فأرسل إليه مسلمة . انى كاف عنك مادمت أنت والى مصر .

لقد أحسن على اختياره قيسا لهذه المهمة ، فقد كان يتمتع بحزم ، وسداد رأى ، وحلم وسعة أفق ، فاستطاع أن يسكن الفتنة وأن يهدىء من حالة السخط التى كان يمثلها أهل خربتا ، وبعض الأنصار من عشيرته بزعامة مسلمة بن مخلد . وكانت امارة قيس قبل موقعة الجمل كما أسلفنا ، ولذلك فقد جعل مصر لا تشور على على إبان اشتباكه مع أصحاب الجمل .

لقد أصبح قيس — وهو الرجل المخنك — شوكة فى جنب معاوية ، وكان يحتل جانبا كبيرا من اهتمامه منذ اعتزم على الخروج إلى صفين ، إذ يصبح معاوية محصورا بين مصر والعراق وبهذا يكون من المحتمل جدا ، أن يطبق عليه على من الشرق ، وقيس من الغرب ؛ فيقضيان عليه بأسرع مما قد يظن .

ومن ثم فقد كتب معاوية إلى قيس رسالة جاء فيها « أما بعد . فانكم

نقمتم على عثمان في آثرة رأيتموها ، ، أو ضربة سوط ضربها ، أو شتيمة رجل أو في تسييره آخر أو في استعماله لفتى ، فإنكم قد علمتم ، إن كنتم تعلمون أن دمه لم يكن يحل لكم ، فقد ركبتم عظيما من الأمر وجئتم شيئا اذا ، فكتب إلى الله عز وجل ياقيس بن سعد ، فإنك كنت من المجلبين على عثمان بن عفان رضى الله عنه .. فاما صاحبك ، فانا استقيننا أنه الذى أغرى به الناس وحملهم على قتله حتى قتلوه ، وأنه لم يسلم من دمه عظم قومك . فإن استطعت أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل . تابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين إذا ظهرت ما بقيت ولن أحببت من أهل بيتك و سلطان الحجاز ، مادام لى سلطان ، وسلى غير هذا مما تحب فإنك لا تسألنى شيئا إلا أعطيته ، واكتب إلى برأيك فيما كتبت به إليك والسلام فكتب إليه قيس . أما بعد . فقد بلغنى كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من قتل عثمان رضى الله عنه ، وذلك أمر لم أقارفه ، ولم أطف به . وذكرت أن صاحبي هو الذى أغرى الناس بعثمان ودسهم إليه حتى قتلوه ، وهذا ما لم أطلع عليه .

وذكرت أن عظم عشيرتى لم يسلم من دم عثمان ، فأول الناس كان فيه قياما عشيرتى وأما ما سألتنى من متابعتك وعرضت على من الجزاء ، فقد فهمته ، وهذا أمر لى فيه نظر ، وليس هذا مما يسرع إليه ، وأنا كاف عنك ولن يأتيك من قبلى شيء تكرهه حتى ترى ونرى إن شاء الله . والمستجار الله عز وجل ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . فلما قرأ معاوية كتابه لم يره إلا مقاربا مباعدا ، ولم يأمن أن يكون له فى ذلك مباعدا مكايدا .

فكتب إليه معاوية : أما بعد . فقد قرأت كتابك ، فلم أرك تدنوا فاعدك سلما ، ولم أرك تباعد فاعدك حربا . أنت فيما هنا كحنك الجزور ، وليس مثلى يصانع المخادع ولا ينزع للمكاييد ، ومعه عدد الرجال ، ويده أسنة الخيل ، والسلام عليك .

فلما قرأ قيس بن سعد ، كتاب معاوية ، ورأى أنه لا يقبل معه المدافعة والمماثلة أظهر له ذات نفسه ، فكتب إليه « بسم الله الرحمن الرحيم . من قيس ابن سعد ، إلى معاوية بن أبي سفيان . أما بعد : فإن العجب من اغترارك وطمعك في ، واستسقاطك رأيي . أتسومني الخروج من طاعة أولى الناس بالإمرة ، وأقولهم للحق ، وأهداهم سبيلا وأقربهم من رسول الله ﷺ وسيلة وتأمرني بالدخول في طاعتك . طاعة أبعد الناس من هذا الأمر ، وأقولهم للزور ، وأضلهم سبيلا ، وأبعدهم من الله عز وجل .

وأما قولك . إني مالىء عليك مصر خيلا ورجلا . فوالله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك ، إنك لذو جد : والسلام « يقول الرواة : فلما بلغ معاوية كتاب قيس بن سعد ، أيس منه وثقل عليه مكانه »^(١) .

ولكن هل يسكت معاوية وعمره عن قيس بن سعد . ؟ لقد نثرنا كنانة الدهاء الذي عرفنا به في المجتمع العربي ، ففكرا في شيء يبغض قيسا إلى علي بن أبي طالب بدون إراقة قطرة من الدم . يقول الطبري « وكان معاوية بن أبي سفيان ، وعمره بن العاص جاهدين على أن يخرجاه من مصر ليغلبا عليها فكان قد امتنع فيها بالدهاء والمكايدة فلم يقدرأ عليه ولا على أن يفتتحا مصر ، حتى كاد معاوية قيس بن سعد من قبل علي . وكان معاوية يحدث رجالا من ذوى الرأي من قريش يقول . ما ابتدعت مكايدة قط كانت أعجب عندي من مكايدة كدت بها قيساً من قبل علي ، وهو بالعراق حين امتنع منى قيس . قلت لأهل الشام . لا تسبوا قيس بن سعد ولا تدعوا إلى غزوه فإنه لنا شيعة تأتينا نصيحته سرّاً .

(١) إقرأ ترجمة وافية لقيس بن سعد في « عصر الأمويين » للمؤلف

ألا ترون إلى ما يفعل ياخوانكم الذين عنده من أهل خربتا . يجرى عليهم أعطياتهم . وأرزاقهم ويؤمن سربهم ، ويحسن إلى كل راكب قدم عليه منكم لا يستنكرونه . في شيء . قال معاوية : وهمت أن أكتب بذلك إلى شيعتي من أهل العراق ، فيسمع بذلك جواسيس على عندي وبالعراق . فبلغ ذلك عليا ونماه إليه محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر بن أبي طالب ، فلما بلغ ذلك عليا . اتهم قيساً وكتب إليه ، يأمره بقتال أهل خربتا ، وأهل خربتا يومئذ عشرة آلاف . فأبى قيس . ابن سعد أن يقاتلهم ، وكتب إلى علي : إنهم وجوه أهل مصر وأشرفهم ، وأهل الحفاظ منهم . وقد رضوا أن يؤمن سربهم وأجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم . وقد علمت أن هواهم مع معاوية . فليست مكايدهم بأمر أهون على وعليك من الذي أفعل بهم ، ولو أنى غزوتهم ، كانوا لي قرناً . وهم أسود العرب ، ومنهم يسر بن أرطاة ، ومسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج . فذرنى فأنا أعلم بما أدارى . منهم . فأبى على الاقتالهم ، وأبى قيس أن يقاتلهم . فكتب قيس إلى علي : إن كنت تهمنى فاعزلنى عن عملك ، وابعث إليه غيرى . فعبث علي ، الاشترا أميرا على مصر ، حتى إذا صار بالقلم ، شرب شربة عسل كان فيها حتفه . فبلغ معاوية وعمره . فيقال أن عمره قال : إن لله جندا من عسل . فبلغ عليا وفاة الاشترا ، فأرسل محمد بن أبي بكر أميرا بديلا عنه ، ويقال أن المسألة بالعكس . إذ أن الذي مات بالقلم هو محمد بن أبي بكر ، وأن الاشترا هو الذي خلفه^(١) .

وعلى أية حال فإن الاشترا لم يصل مصر ، وإنما الذي ذهب ليحل محل قيس . هو محمد بن أبي بكر في أرجح الرويات . يقول الاخباريون : بعث علي محمداً أميراً بدل قيس بن سعد على مصر وكتب معه إلى أهل مصر كتاباً ، فلما قدم على قيس قال له : ما بال أمير المؤمنين ماذا غيره أدخل أحد بيني وبينه . قال له : لا .

وهذا السلطان سلطانك . قال : لا أقيم معك ساعة واحدة ، وغضب حين عزله . فخرج منها مقبلا إلى المدينة . فقدمها فجاءه حسان بن ثابت شامتا به ، وكان حسان عثمانيا . فقال نزعك على وقد قتلت عثمان ، فبقى عليك الاثم ولم يحسن الشكر . فقال له قيس يا أعمى القلب والبصر . والله لولا أن ألقى بين عشيرتي وعشيرتك حربا لضربت عنقك . أخرج غنى . ثم ان قيس بن سعد وسهل بن حنيف ، خرجا حتى قدما على علي ، فخبروا قيس فصدقه على ، ثم ان قيسا وسهلا شهدا مع علي صفين^(١) .

واما خراسان فقد أمر على عليها خليد بن طريف اليربوعي . وبهذا فإن عليا يكون قد أمسك بمقاليد الأقطار الإسلامية كلها ما عدا الشام . وهنا أعد العدة لإرغام معاوية على تركها بقوة السلاح ، إذ لم تفلح المفاوضات .

مقدمات صفين :

بعد أن استقر رأى على وأصحابه على حرب معاوية ، خرج إلى النخيلة - كما سبق - ثم عقد مؤتمرا ودعا ذوى الرأى لمناقشة الموقف . فأشار عليه قوم بأن يقيم ويبعث الجنود وأشار آخرون بالسير ، فأبى على إلا أن يباشر القتال بنفسه ، فجهز الناس ثم بعث زياد بن النضر الحارثي طليعة في ثمانية آلاف ، وبعث معه شريح ابن هانيء في أربعة آلاف ، وخرج على من النخيلة بمن معه ، فلما دخل المدائن انضم إليه من فيها من المقاتلة والجنود ، وولى على المدائن سعد بن مسعود الثقفي عم المختار ابن عبيد . ووجه من المدائن معقل بن قيس في ثلاثة آلاف وأمره أن يأخذ طريق

(١) نفس الصدر السابق .

الموصل حتى يوافيه . فلما انتهى على إلى « الرقة » أمر بإقامة جسر على الفرات .
ليعبر إلى الشط الغربي حيث الشام ، فأقام أهل المنطقة جسرا بعد تهديد مالك
الأشتر لهم لامتناعهم في أول الأمر ، ثم عبر على والجيش بجميع توابعه وعتاده .
ووقف الأشتر يرقب حركة العبور ، حتى لم يبق من الناس أحد إلا عبر إلى الشام ،
ثم عبر هو آخر الناس ، وتكاثر الخيل حتى زحم بعضها بعضاً ^(١) .

يقول المسعودي ^(٢) ، وسار معاوية من الشام ، وقد تنوزع في مقدار من كان .
معه ، فكثر ومقل ، والمتفق عليه من قول الجميع خمس وثمانون ألفاً ، فسبق علياً
إلى « صفين » وعسكر في سهل أفصح اختاره قبل قدوم علي ، على شريعة لم يكن
على الفرات أسهل منها للوارد إلى الماء ، وما عداها مواضع إلى الماء وعرة ، ووكل
أبا الأعور السلمي بالشريعة مع أربعين ألفاً ، وكان على مقدمته . .

أما علي وجيشه فقد باتوا عطاشاً قد حيل بينهم وبين الماء . فقال عمرو بن
العاص لمعاوية : ان علياً لا يموت عطشاً هو وتسعون ألفاً من أهل العراق ،
وسيوفهم على عوانقهم ولكن دعهم . . يشربون ونشرب فقال معاوية : لا والله
أو يموتوا عطشاً كما مات عثمان . وعلى يدور في عسكره بالليل ، فسمع قائلاً
يقول :

أيمنعنا القوم ماء الفرات وفيما الرماح وفيما الحنف ^(٣)
وفيما على له صولة إذا خوفوه الردى لم يخف
ونحن غداة لقينا الزير وطلحة خضنا غمار التلف
فما بالناس أمس أسد العرين وما بالناس اليوم شاة النجف

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٣٨ .

(٢) ج ٢ ص ١٧ .

(٣) الحنف التروس والدرق جمع - حنة وهى الترس إذا كان من جلد بدون خشب .

وَأَلْقَى فِي فِسْطَاطِ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ رُقْعَةً بِهَذَا الْمَعْنَى ، فَأَتَى عَلِيًّا وَأَخْبَرَهُ ،
فَقَالَ لَهُ : أَخْرَجَ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنَ الْخَيْلِ حَتَّى تَهْجُمَ فِي وَسْطِ عَسْكَرِ مُعَاوِيَةَ ،
فَتَشْرَبُ وَتَسْتَقِي لِأَصْحَابِكَ أَوْ تَمُوتُوا عَنْ آخِرِكُمْ ، وَأَنَا أُسِيرُ فِي خَيْلٍ وَرِجَالَةٍ
وَرَاءَكَ ، فَسَارَ الْأَشْعَثُ وَهُوَ يَرْتَجِزُ :

لأوردن خيلى الفراتا شعث النواصى أو يقال ماتا

ثُمَّ دَعَا عَلَى الْأَشْتَرِ ، فَسَرَحَهُ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنَ الْخَيْلِ وَالرِّجَالِ ، فَصَارَ يَوْمَ
الْأَشْعَثِ صَاحِبَ رَايَتِهِ ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنَ النَّخَعِ . ثُمَّ سَارَ عَلَى وَرَاءِ الْأَشْتَرِ بِبَاقِي
الْجَيْشِ ، وَمَضَى الْأَشْتَرُ حَتَّى هَجَمَ عَلَى عَسْكَرِ مُعَاوِيَةَ ، فَأَزَالَ أَبَا الْأَعُورِ
عَنِ الشَّرِيعَةِ ، وَغَرَقَ مِنْهُمْ عَدَدٌ كَثِيرٌ مِنَ الرِّجَالِ وَالْخَيْلِ ، وَاضْطُرَّ مُعَاوِيَةُ إِلَى
الْإِرْتِحَالِ عَنِ الْمَوْضِعِ الَّذِي سَبَقَ أَنْ أَتَاخُذَهُ وَقَدْ كَشَفَ الْأَشْتَرُ أَهْلَ الشَّامِ عَنِ الْمَاءِ ،
ثُمَّ نَزَلَ عَلَى وَجَيْشِهِ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ فِيهِ مُعَاوِيَةُ وَجُنْدُهُ ، وَعَطَشَ أَصْحَابُ
مُعَاوِيَةَ لِبُعْدِهِمْ عَنِ الْمَاءِ ، فَبَعَثَ مُعَاوِيَةُ إِلَى عَلِيٍّ يَسْتَأْذِنُهُ فِي وَرُودِهِ وَاسْتِقَاءِ النَّاسِ
مِنْهُ ، فَأَذِنَ لِكُلِّ طَالِبٍ مَاءً أَنْ يَرِدَ وَيَأْخُذَ حَاجَتَهُ ، ثُمَّ أَرْسَلَ عَلِيٌّ إِلَى مُعَاوِيَةَ ،
يَطْلُبُ إِلَيْهِ الدَّخُولَ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ ، وَالْإِقْرَارَ لَهُ بِالْبَيْعَةِ ، وَتَوْحِيدَ الْكَلِمَةِ
وَحَقْنَ الدَّمَاءِ ، وَلَكِنْ الْمُرَاسَلَاتُ بَيْنَهُمَا طَالَتْ حَتَّى بَلَغَتْ أَكْثَرَ مِنْ شَهْرٍ إِذْ
بَدَأَتْ فِي أَوَاخِرِ ذِي الْحِجَّةِ مِنْ سَنَةِ ٣٦ هـ إِلَى نَهَايَةِ شَهْرِ الْحَرَمِ مِنْ سَنَةِ ٣٧ هـ .
وَلَكِنْ لَمْ تَوْدِ الْمَفَاوِضَاتُ إِلَى نَتِيجَةٍ .

وَفِي آخِرِ يَوْمٍ مِنَ الْحَرَمِ سَنَةِ ٣٧ هـ بَعَثَ عَلِيٌّ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ إِنِّي
أَحْتَجُّجُ عَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَدَعْوَتِكُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنِّي قَدْ نَبَذْتُ إِلَيْكُمْ عَلَى سِوَاءِ
إِنْ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْخَائِنِينَ ، فَلَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ جَوَابًا إِلَّا : السِّيفَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَوْ يَهْلِكَ
الْأَعْجَزُ مِنَّا .

وفي غرة صفر من سنة ٣٧ هـ أصبح القوم جميعاً على أهبة الاستعداد، فتصاف أهل الشام وأهل العراق، واشتبك الفريقان في قتال مرير، ظل طوال اليوم، ثم أسفر آخر النهار عن آلاف القتلى والجرحى.

وفي يوم الخميس - وهو اليوم الثاني للقتال - اشترك القوم في عراق جبار، كان أشد عنفاً من اليوم السابق، وهكذا ظلت تلك المعركة الصاخبة ما يقرب من عشرة أيام متتالية، حتى كان اليوم العاشر من صفر سنة ٣٧ هـ وتفاقم أمر المعركة، وتهاوت الرؤوس والجثث، واشتد الخطب على الفريقين، وازداد في أهل الشام، القتل حتى لقد أصبحت هزيمتهم قاب قوسين أو أدنى فعند ذلك رأى معاوية أن يضع حداً لهذا الشجار، فاجتمع بعمر بن العاص، وطلب منه الرأي حتى يمكن الإبقاء على البقية الباقية من أبطال الإسلام. الذين هزموا فارس والروم بالأمس القريب. فأشار عمرو بطلب التحكيم. فأصدر معاوية أمراً إلى جميع كبار المسلمين من شيعته بأن كل من يحمل مصحفاً فليرفعه على رمحه، فكثرت في الجيش رفع المصاحف، وارتفعت الضجة ونادوا « كتاب الله بيننا وبينكم. من لثغور الشام، بعد أهل الشام، ومن لثغور العراق بعد أهل العراق، ومن لجهاد الروم، ومن للترك، ومن للكفار ورفع في معسكر معاوية نحو خمسمائة مصحف^(١).

وهنا لم يكن بد من الاستجابة لهذه الدعوة التي أشار بها عمرو بن العاص. فلما رأى أهل العراق ذلك، قالوا نجيب إلى كتاب الله، ولكن علينا أفهمهم أنها خديعة وأنهم ما فعلوا ذلك إلا بعد أن عضتهم الحرب. ولكن أهل العراق كانوا

قد يشسوا من طول القتال ، ثم رأوا في عدم الاستجابة للدعوة إلى كتاب الله ،
لونا من الاستهانة بذلك الكتاب الذي يعتبر دستور دينهم وسلوكهم . ولهذا
طلبوا إلى على أن يوافق على التحكيم ، فأعلن موافقته ووقف القتال فوراً ريثما
تبحث القضية وتدرس في أناة ومكث . وبواسطة هيئة قضائية تختار لهذا الغرض ،
كما فصل ذلك بعد .

أمر التحكيم :

في العرض السابق لمركة صفين ، استبعدنا كثيراً من التفاصيل التي قالها
رواة الأنباء لعدم اطمئناننا إلى صدقها ، وإنما أثبتنا فقط وصفاً موجزاً للحقائق
التي حدثت بالفعل ، وهي جوهر الخلاف بين الخصمين ، ثم هي السبب في عدم
الالتقاء عند نقطة تقنع كلا منهما ، فنجم التراشق بالأقلام واللسان ، ثم التماسك
بالرماح والسنان ثم تدخل الرأي ، وشائج الأخوة والدين ، فكان السلام بعد
الخصام ، وارتضى الطرفان أن يعودا إلى الحكمة والقرآن ، إذ حدثت المعركة بعد
أن توادعا شهراً كاملاً ، كاد يتم فيه الصلح لولا إساءة الذين اضطلوعوا بعبء
التمهيد له مثل شبت وأضرابه .

مسئولية السفراء:

على أن من الحق أن نشير إلى أن بعض الأفراد الذين قاموا بالمفاوضة بين على
ومعاوية لم يكونوا موفقين في الأسلوب الذي عرضوا به وجهات النظر للطرفين .
وعلى سبيل المثل ، عندما بعث على إلى معاوية بالوفد الثلاثي قبل صفين ،
قال شبت بن ربيع أحد أعضائه لمعاوية . يا معاوية . إني قد فهمت ما رددت به
إنه والله لا يخفى علينا ما تطلب . إنك لم تجد شيئاً تستغوى به الناس وتستميل به
أهواءهم إلا قولك . قتل عثمان مظلوماً . فنحن نطلب بدمه ، فاستجاب لك سفهاء
طغام ، وقد علمنا أنك أبطأت عنه بالنصر ، وأحببت له القتل لهذه المنزلة .

ولعل هذا وأشباهه ، مما أوغر صدر معاوية ، وجعله يختار الطريق الشائك حفاظاً على كرامته الشخصية ، ثم لعدم اطمئنانه إلى الذين يحيطون به ، من أمثال شيب بن ربيع ممن يعتبرون من ذوى رأى . وإذن فكيف بغيرهم من الدهماء .

ومهما يكن من شئ ، فإن تهيب القوم من قتال بعضهم بعضاً هو الذى مهد لتلبية داعى الكف عن العنف ، والالتجاء إلى رأى والبحث ، والتحكيم .

لقد سبق لهم قبل المعركة ، أن لجأ القوم إلى المواقعة فى الحرم ، ومشت بينهما الرسل تمهيداً للصلح وإزالة الشقاق ، ولكن لأمر ما لم يوفق السفراء فى أسلوب العرض ، أو سلوك السبيل الواضح فى التعبير عن وجهتى النظر لكل من على ومعاوية ، ففشلت المفاوضات وكانت حرب العشرة أيام فى معركة صفين قد أهلكت عشرات الألوف من أبطال نهاوند وأجنادين ، ومن كان ينبغى أن يدخروا للقاء الروم ، والقوط فى معارك العدل والحرية ، وإغاثة الشعوب .

والآن وقد رضى الناس بالقضاء وحكم القانون ، فقد أخذوا يبحثون الموقف على هذا الضوء فأرسل على إلى معاوية وشيعته وفداً على رأسه ، الأشعث بن قيس . حسب طلبه ، ليسأله عما يريد . يقول الرواة :

جاء الأشعث بن قيس إلى على بن أبى طالب ، فقال له : ما أرى الناس إلا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم إلى مادعهم إليه من حكم القرآن . فإن شئت أتيت معاوية ، فسألته : ما يريد ، فنظرت ما يسأل . قال : إئتته إن شئت فسله فأناه فقال : يا معاوية لأى شئ رفعت هذه المصاحف . قال : لترجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله عز وجل به تبعثون منكم رجلاً ترضون به ، ونبعث منه رجلاً ، ثم نأخذ عليهما أن يعملأ بما فى كتاب الله ، لا يعدوانه ، ثم تتبع ما اتفقه (م ١٩ — الراشدين)

عليه ، فقال الأشعث بن قيس : هذا الحق ، فانصرف إلى علي فأخبره بالذي قال معاوية . فقال الناس : فإننا قد رضينا ، وقبلنا ، فقال أهل الشام : فإننا قد اخترنا عمرو بن العاص .

فقال الأشعث بن قيس : وأولئك القوم الذين صاروا خوارج بعدُ ، فإننا قد رضينا بأبي موسى الأشعري .

قال علي . فإنكم قد عصيتموني في أول الأمر ، فلا تعصوني الآن . إني لا أرى أن أولى أبا موسى .

فقال الأشعث ، وزيد بن حصين الطائي ، وآخرون : لا نرضى إلا به ، فإنه ما كان يحذرنا وقعنا فيه .

قال علي : فإنه ليس لي بثقة ، قد فارقني وخذل الناس عني ثم هرب مني ، حتى آمنت به بعد أشهر . ولكن هذا بن عباس ، نوليه ذلك . قالوا : ما نبالي ، أنت كنت أم ابن عباس ، لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ، ليس إلى واحد منكما بأدنى منه إلى الآخر . فقال علي : فإنني أجعل الأشر .

قال الأشعث — فيما يروى — وهل سعر الأرض غير الأشر ، أو وهل نحن إلا في حكم الأشر . قال علي : وما حكمه .

قال الأشعث : حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيوف .

وهنا رأى علي أن الفتنة كادت تقع في شيعته ، فقال . ايتم إلا أبا موسى . قالوا . نعم ، قال . فاصنعوا ما أردتم ، فبعثوا إليه — وقد اعتزل القتال — فأتاه مولى له ، فقال . إن الناس قد اصطلحوا . فقال . الحمد لله رب العالمين ، قال . قد جعلوك حكماً . قال . إنا لله وإنا إليه راجعون .

وجاء أبو موسى حتى دخل العسكر ، وجاء الأشر حتى أتى عليا ، فقال :
اجمعني بعمر بن العاص . فيؤ الله الذي لا إله إلا هو ، لن ملأت عيني
منه لأقتلنه .

وجاء الأحنف ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنك قد رميت بحجر الأرض
وإني قد عجمت هذا الرجل ، وحلبت أشطره ، فوجدته كليل الشفرة ، وأنه
لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدرؤ منهم حتى يصير في أكفهم ، ويبعد عنهم
حتى يصير بمنزلة للنجم منهم ، فإن أبيت أن تجعلني حكما ، فأجعلني ثانيا أو
ثالثا ، فإنه لن يعقد عقدة إلا حللتها ، ولن يحل عقدة أعقدها إلا عقدت لك
أخرى أحكم منها ، فأبى للناس إلا أبا موسى والرضى بالكتاب .

فقال الأحنف : فإن أبيت إلا أبا موسى ، فادفثوا ظهره بالرحال فكتبوا :
بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقاضى عليه عليٌ أمير المؤمنين ، فقال عمرو :
اكتب اسمه واسم أبيه ، هو أميركم ؛ فأما أميرنا فلا .

وقال له الأحنف : لا تمح اسم إمارة المؤمنين ؛ فإنني أتخوف إن محوتها ،
لا ترجع إليك أبداً ، وإن قتل الناس بعضهم بعضا ، فأبى ذلك عليٌ مليا من
النهار ، ثم إن الأشعث بن قيس قال : امح هذا الاسم فمحي .

وقال عليٌ : الله أكبر ، سنة بسنة ، ومثل بمثل ، والله إني لكاتب بين
يدي رسول الله (ص) يوم الحديبية إذ قالوا لست رسول الله ولا تشهدك
به ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فكتبه .

فقال عمرو بن العاص : سبحان الله ، ومثل هذا أن نشبه بالكفار ،
ونحن مؤمنون ..

فقال عليّ: يا ابن النابغة ، ومتى لم تكن للناسقين وليا .. في كلام كثير .
ساقه المؤرخون والاختاريون ، نسلت في صحة صدوره بهذا الأسلوب ، وإن
كان توتر الأعصاب قد بلغ مداه ، وهم بشر على كل حال رضى الله عنهم جميعاً .

وقد كتب الكتاب كما رأى الذين ندبوا لإملائه من الفريقين المتنازعين ،
وهذه نسخته كما رواها الطبري في تاريخه ^(١) . . وقد كتب هذا الكتاب في
يوم الأربعاء ١٣ من صفر ، سنة ٣٧ هـ على أن يعلن القرار في رمضان من
نفس العام .

وثيقة التحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، قاضي عليّ ،
على أهل الكوفة ، ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين . وقاضي
معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين . أما نزل عند
حكم الله عز وجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره . وإن كتاب الله عز وجل بيننا :
من فاتحته إلى خاتمته : تحيى ما أحيا ، ونميت ما أمت .

فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل — وهما : أبو موسى الأشعري .

(١) الأمام واللوك ج ٦ ، ص ٢٩ — . ويقول السعودي . إن الصحيفة
كتبت لأيام بقين من صفر سنة ٣٧ . وقبل . بعد هذا الشهر . (مروج الذهب
ج ٢ . ص ٢٩) .

عبد الله بن قيس ، وعمر بن العاص القرشي عملا به ، وما لم يجدوا في كتاب الله عز وجل : فبالسنة الغدالة الجامعة غير المفرقة .

وأخذ الحكماء من علي ومعاوية ومن الجندين من اليهود والميثاق والثقة من الناس . انهما آمانان على أنفسهما وأهلها . والأمة لها أنصار على الذي يتقاضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين : كلتيهما عهد الله وميثاقه . أنا على ما في هذه الصحيفة وإن قد وجبت قضيتهما على المؤمنين ، فإن الأمن والاستقامة ، ووضع السلاح بينهم ، أينما ساروا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم . وشاهدكم وغائبهم .

وعلى عبد الله بن قيس ، وعمر بن العاص : عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ، ولا يرداها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا . . وأجل القضاء إلى رمضان وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراضٍ منهما .

وإن توفي أحد الحكمين ، فإن أمير الشيعة يختار مكانه ، ولا يألوا من أهل المعدلة والقسط . وإن مكان قضيتهما الذي يقضيان فيه ، مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام . وإن رضيا وأحبا : فلا يحضرهما فيه إلا من أرادا .

ويأخذ الحكماء من أرادا من الشهود ، ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة . وهم أنصار على من ترك ما في هذه الصحيفة ، وأراد فيه إلحاداً . وظلماً . . . اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة .

وقد شهد من أصحاب علي : الأشعث بن قيس الكندي ، وعبد الله بن عباس ، وسعيد بن قيس الهمداني ، وعبد الله العجلي ، وحجر بن عدي الكندي ،

وعبد الله بن الطقيل العامري، وعقبة ابن زياد الحضرمي، ويزيد بن حجة التيمي،
ومالك بن كعب الهمداني، ومن أصحاب معاوية أبو الأعور السلمي وعمر
ابن سفيان وحبيب بن مسلمة الفهري، والمخارق بن الحارث الزبيدي ويزيد
ابن عمرو العذري وحمزة بن مالك الهمداني، وعبد الرحمن بن خلاد المخزومي،
وسبيع بن يزيد الأنصاري، وعلقمة بن يزيد الأنصاري، وعتبة بن أبي سفيان،
ويزيد بن الحر العبسي^(١).

ويحدثنا الطبري عن موقف الناس بعد كتابة الصحيفة، وكيف حدثت
حركة تدمر شديد في شيعه علي، مما دفع مثل الأشعث بن قيس لأن يقرأ الصحيفة
على جموع القبائل حتى تهدأ ثورة نفوسهم فيقول: لما كتبت الصحيفة دعي
لها الأشر فقال: لا صعبتني يميني ولا نفقتني بعدها شمالي، إن خط لي في هذه
الصحيفة اسم على صلح ولا موادة. أو لست على بينة من ربي من ضلال
عدوى. أو لستم قد رأيتم الظفر لو لم تجمعوا على الجور. فقال له الأشعث
ابن قيس: إنك والله ما رأيت ظفراً ولا جوراً. هلم إلينا فإنه لا رغبة بك عنا:
فقال: بلى والله لرغبة بي عنك في الدنيا للدنيا والآخرة، ولقد سفك الله
عز وجل بسيفي هذا دماء رجال ما أنت عندي خيراً منهم، ولا أحرم دماً.
وخرج الأشعث بالكتاب يقرؤه على الناس ويعرضه عليهم فيقرؤونه حتى مر به
على طائفة من بني تميم، فيهم عروة بن أدية— وهو أخو أبي بلال فقال عروة
بن أدية: أتحكمون في أمر الله عز وجل الرجال، لا حكم إلا الله. ثم شد بسيفه
فضرب به عجز دابته ضربة خفيفة، واندفعت الدابة، وصاح به أصحابه أن املك.

يدك . فرجع ففضب للأشعث قومه وناس كثير من أهل اليمن ، فشئ الأحنف ابن قيس السعدى ، ومعتل بن قيس الرياحى ، ومسر بن فدى وناس كثير من بنى تميم ، فنتصلوا إليه ، واعتذروا فقبل وصفح^(١) .

ولعل من الواضح مما سبق ، أن غلبا وكثيراً من كبار شيعته لم يكونوا مطمئنين إلى نتيجة التحكم ولكن الجمهور ، والغالبية الساحقة ممن عضتهم كوارث الفتنة عضا عنيفا سروا بالصلح ورضوا به مهما كانت النتائج ، وقد عبر عنهم الأشعث بن قيس ، وأملى ارادتهم على الأشتر وأصحابه ، بل وعلى على نفسه . إذ فرفضت جماهير الشيعة العلوية أبا موسى الأشعري ، لأنه فى نظرم الرجل الوحيد الذى سينهى حالة الحرب ويعيد السلام إلى أرض العروبة والاسلام ، وحتى لو نجم عن ذلك ابعاد على نهائيا عن رياسة الدولة لأن هدف الناس قد أصبح متركزا فى أمر واحد لا ثانى له ، وهو إنهاء حالة الحرب . وليكن بعد ذلك ما يكون هذا فيما يبدو هو الذى كان يشغل جماهير العرب والمسلمين بعد أحداث الجمل وصفين .

اجتماع الحكامين :

فى الوثيقة السابقة ، جعل أقصى مدة لإعلان قرار التحكيم ، شهر رمضان من سنة ٣٧ هجرية إلا إذا رأى الحكمان مد المدة فلها ذلك ، وبهذا كان لابد من الاسراع فى بحث القضية الخطيرة التى سوف ينجم عنها سلام دائم ، أو حرب مبيرة .

وفى دومة الجندل — وهو المكان العدل بين الكوفة والشام حسب نص الوثيقة — اجتمع أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص ، وأخذا يبحثان الموقف ،

(١) نفس المصدر السابق .

ويقلبان وجوه الرأي . يقول بعض الرواة : لما اجتمع عمرو بأبي موسى ، أخذ يقدم عبد الله بن قيس في الكلام ويقول : انك صحبت رسول الله (ص) قبلي ، وأنت أكبر مني سناً ، فتكلم ثم اتكلم . وكان عمرو قد عود أبا موسى ان يقدمه في كل شيء ، وإنما اغتره بذلك ليقدمه فيبدأ بخلق على . فنظرا في أمرهما وما اجتماعا عليه ، فاراده عمرو على معاوية فأبى ، وأراده على ابنه فأبى ، وأراده أبو موسى على عبد الله بن عمر فأبى عليه عمرو . قال : فأخبرني ما رأيك يا أبا موسى . . قال رأيي ان أخلق هذين الرجلين ، عليا ومعاوية ، ثم نجعل الأمر شورى بين المسلمين يختارون لأنفسهم من شاءوا ومن أحبوا . فقال له عمرو : الرأي ما رأيت وقال عمرو : يا أبا موسى : انه ليس أهل العراق بأوثق بك من أهل الشام لغضبك لعثمان وبغضك للفرقة ، وقد عرفت حال معاوية في قريش ، وشرفه في عبد مناف ، وهو ابن هند وابن أبي سفيان . فما ترى . قال : أرى خيراً . أما ثقة أهل الشام بي فكيف يكون ذلك وقد سرت إليهم مع علي ؟ وأما غضبي لعثمان . فلو شهدته لنصرته ، وأما بغضي للفتن فقبح الله الفتن . وأما معاوية فليس بأشرف من علي . ثم باعده أبو موسى ، فرجع عمرو مغموماً ثم أقبل إلى الناس وهم مجتمعون ، فتكلم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : ان رأيي ورأي عمرو ، قد اتفقا على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة . قال عمرو : صدق . ثم قال . يا أبا موسى فتكلم ، فتقدم أبو موسى ليتكلم فدعاه ابن عباس فقال . ويحك اني لأظنه قد خدعك . ان كنتم قد اتفقنا على أمر ، فقدمه قبلك ، فيتكلم بذلك الأمر قبلك ثم تكلم أنت بعده ، فان عمرا رجل داهية ، ولا آمن ان يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه ، فإذا قت به في الناس ، خالفك . فقال له أبو موسى : انا قد اتفقنا . . فتقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا أيها الناس : انا قد نظرت في أمر هذه الأمة ، فلم تر شيئا هو أصلح لأمرها وألم لشعنها من أن لا تتباين أمورها ، وقد أجمع رأيي ورأي صاحبي عمرو ، على خلع علي ومعاوية ، وأن نستقبل هذا الأمر ، فيكون شورى بين المسلمين ، فيولون أمورهم من أحبوا ، وإني قد خلعت عليا ومعاوية ، فاستقبلوا أموركم وولوا من رأيتم لها أهلا . ثم تنحى ، وقام عمرو مقامه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ان هذا قال ما قد سمعتم وخلق صاحبه ، وأنا أخلعه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية في الخلافة ، فانه ولي عثمان ، والطالب بدمه وأحق الناس بقمه فقال له أبو موسى : مالك . لا وفقك الله . . فقال له عمرو : مثلك مثل الحمار يحمل أسفارا ثم حدث هرج ، ولفظ انصرف بعده أبو موسى إلى مكة ، ورجع عمرو إلى الشام حيث سلم بامارة المؤمنين على معاوية^(١).

هذه رواية نصر بن مزاحم لقصة الحديث الذي دار بين عمرو وأبي موسى ، ثم للقرار الذي قضيا به وأعلنه أبو موسى ، ثم نقضه عمرو ، كما يزعم مؤلف «وقعة صفين» . على ان أبا الحسن المسعودي ، قد روى القصة كما ذكرها ابن مزاحم ، مما يدل على انه أخذها عن طريقه ولكنه أوضح لنا عدد القتلى في صفين حيث يقول : وقد تنوزع فيمن قتل من أهل الشام والعراق ، فذكر عن يحيى بن معين ان عدة من قتل بها من الفريقين ، مائة ألف وعشرة آلاف من الناس . من أهل الشام تسعون ألفا ، ومن أهل العراق عشرون ألفا . ونحن نذهب إلى أن عدد من حضر الحرب من أهل الشام بصفين ، أكثر مما قيل في هذا الباب ، وهو خمسون ومائة ألف مقاتل سوى الخدم والأتباع . وعلى هذا يجب ان يكون مقدار القوم جميعا من قاتل ومن لم يقاتل من الخدم وغيرهم ، ثلثمائة ألف . بل أكثر من ذلك لان أقل من فيهم معه واحد يخدمه ، وفيهم من معه خمسة والعشرة من الخدم والأتباع ، وأكثر من ذلك .

وأهل العراق ، كانوا في عشرين ومائة ألف مقاتل دون الاتباع والخدم .
وأما المهيم ابن عدى الطائي وغيره ، فذكروا ان جملة من قتل من الفريقين جميعا ،
سبعون ألفا . من أهل الشام خمسة وأربعون ، ومن أهل العراق خمسة وعشرون
ألفا ، فيهم خمسة وعشرون بدريا ، وان العدد كان يقع بالاحصاء للقتلى في كل
وقعة ، وتحصيل ذلك يتفاوت لأن في قتلى الفريقين من يعرف ، ومن لا يعرف ،
وفيه من غرق ، وفيهم من قتل في البر ، فأكلته السباع فلم يدركهم الاحصاء ،
وغير ذلك مما يعسر^(١) .

ويصف المسعودي حال الناس عندما وقع التحكيم فيقول « ولما وقع التحكيم
تباغض القوم جميعا . يتبرأ الأخ من أخيه ؛ والابن من أبيه ، وأمر على بالرحيل
لعله باختلاف الكلمة وتفاوت الرأي وعدم النظام لأموهم .

ولما دخل على الكوفة ، حدثت حركة انفصالية خطيرة ، وهي مسألة
الخوارج ، اذ يروى أنه فوجىء بالناس ممن صاروا ، حرورية ، بعد ذلك ينادونه
قائلين « جزعت من البلية ورضيت بالقضية ، وقبلت الدنية ، لا حكم إلا الله »
فيقول لهم : حكم الله انتظر فيكم فيقولون « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من
قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . فيقول على : فاصبر
ان وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » .

وهكذا فتح باب الجدل ، والفتنة ، وانشق أصحاب على عليه حتى الجىء أخيرا
إلى محاربتهم إلى أن قضى نحبه بأيدي هؤلاء الذين كانوا بالأمس ينصرونه
ويقاتلون عدوه .

ومما ذكره المسعودي ، زيادة على ما أسلفنا أن معاوية اجتمع بمعمرو قبل لقائه لأبي موسى وأوصاه بقوله « يا أبا عبد الله . ان أهل العراق . قد اكرهوا عليا على أبي موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك وقد ضم اليك رجل طويل . اللسان ، قصير الرأي ، فخذ الجدة ، وطبق المفصل ، ولا تلقه برأيك كله » وقد وافاهم سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن يغوث الزهري ، والمغيرة بن شعبة الثقفي ، وغيرهم . وهؤلاء ممن قعد عن بيعة علي في آخرين من الناس ، وذلك في شهر رمضان^(١) .

يقول المرحوم الخضري : يظهر للمتتبع أخبار ما بين علي ومعاوية ، ان الرجلين كانا على تباين تام فعلى يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقرابة ما ليس لغيره من سائر الناس حتى أشياخ قريش وأصحاب السابقة منهم ، وزاد به الفكر حتى كان يرى ان الاشياخ يعلمون ويفضون عنه وكان يرى في معاوية انحطاطا هائلا عنه ، ولما ذالأنه من الطلقاء وأولاد الطلقاء الذين عادوا رسول الله وحاربوه ، وربما ظن فيهم أنهم لم يدخلوا في الاسلام إلا كرها ،

ولكن هل ما يقوله المرحوم الخضري ، له حظ من الصحة . ان الذى نراه في هذا ان عليا ما كان يحقر أحداً أو يترفع عن أحد ، وإنما كان يريد ان تسير الأمور العامة في سبيلها القاصد الذى الذى شرعه الله ورسوله ، من الشورى ، واحترام رأى الأمة ، والأخذ على يد الذين يعملون بأى وسيلة على تمزيق وحدتها ، واحداث الفتن بينها ، ومن ثم فقد حاول رد أصحاب الجمل ، وأهل صفين بالحسنى ، حرصا على الاخوة والوحدة ، وحقن الدماء . فلم يمكنه المفسدون والمخدوعون . . .

ولقد بويج لعلى من جماهير أهل المدينة ، وغالبية أعضاء مجلس الشورى ، ثم

(١) نفس المصدر السابق .

بذات الأمصار الأخرى البيعة له ، ولم يتخلف عن هذا إلا معاوية وأهل الشام ،
وهم أقلية بالنظر إلى بقية أقطار الدولة . وجماهير الأمة في رأى على ، فكان ذلك
الموقف من معاوية ، فوق اتهام على بإيواء قتلة عثمان ، من عوامل السخط
والغضب على معاوية ، كما كان لابد من أن يسلك السبيل التي سلكها حتى
لا ينفطر عقد الوحدة العربية ، والاسلامية ، إذ لا يتصور أن يترك رئيس دولة
مستول بعض الناس يتجمعون بدعوى المطالبة بإقامة الحدود ، وإذن فما هو عمله ،
وما هو اختصاصه ؟

ومع هذا فإننا ربما ننزه معاوية عن الأسفاف الذي اتهمه به الاخباريون
وجلهم من غلاة التشيع ، ونرى أنه قد اجتهد هو وعمرو ومن على رأيهما ،
وقد يكون التوفيق جانبهما بعض الشيء ، ولكننا مع هذا نشك كل الشك
في ذلك الخضم الهائل الذي حشيت به كتب المؤرخين من أخبار على ومعاوية
وأنصارهما ، والجدل ، والآهام الذي فاضت به تلك المؤلفات . ونظن أن الحقيقة
وراء ذلك كله ؛ وهي اختلاف وجهات النظر في تكييف الموقف بعد اغتيال
الرجل الفاضل عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وإذا كنا قد نلصق بعلى شدته على معاوية ؛ ونبرر به عناد معاوية حتى
حاربه في صفين ؟ فهل نستطيع تبرير خروج أم المؤمنين عائشة ؛ والصحابيين
الجليلين : طلحة ، والزبير مما نجم عنه وقعة الجمل ؛ وقتل آلاف المسلمين بها .

ألم يكن من الأفضل للذين خرجوا : أن يترشوا بعض الوقت ليروا ماذا
سوف يصنع على مع الذين اقترفوا جريمة قتل أمير المؤمنين عثمان بعد أن تهدأ
العاصفة وتسكن الفتنة .

لقد قتل عثمان بعد إذاعات ملأت الجو بأن عماله يعاقرون الخمر ، ويعتدون على الناس ، ويفعلون الأفاعيل ، ولم يكن على راضيا عن مسلك السبئية ولا تصرفاتهم ، بل كان دائما يؤكدهم صدق عثمان وبراءته مما يتهمون به ، وقد دافع عنه بنفسه وبنيه وبكل طاقته . ثم حم القضاء فلم يستطع له رداً ، ثم أرغم على أن يقبل رئاسة الدولة ، من جماهير أهل المدينة التي كانت حتى ذلك الوقت تعتبر الهيئة الممثلة للأمة في انتخاب أمير المؤمنين ، فهي أشبه بمجلس الأمة في العصور الحديثة .

ومع هذا فإن الرجل الفاضل على بن أبي طالب لم يكتف برأى جمهرة أهل المدينة ، وإنما تمسك بالرفض حتى يحضر زملاؤه الذين سبق أن وضعهم الأمة موضع المرشحين لرياستها وقيادتها . فاستدعى طلحة ، والزبير ، وسعداً ، وابن عمر . وبايعه طلحة ، والزبير ، ولم يمتنع سعد وابن عمر . وإنما وعدا ببذل البيعة بعد أن ينجلي الموقف ويبايع الناس .

على إذن — لم يتخل عن عثمان ولم يخذله ، ولم يسلك سبيلاً ما ، ليصل إلى رئاسة هذه الأمة ، ولم يقبل هذه الوظيفة إلا عن طريق الاستفتاء العام — بلغة العصر ولم يكن راغباً في هذا المنصب ، بل كان كارهاً له ، ولكنه ألقى إلى قبوله من الجماهير وإذن فليتحمل مسئولياته كاملة ، وليؤد الأمانة . أمانة الحفاظ على النظام والأمن وتنفيذ القوانين ، واللوائح بكل دقة .

على أن من أبجديات القانون : أن يكون عقاب المتهم بارتكاب جريمة ماعن طريق الهيئات المختصة ، وليس عن طريق الأفراد والجماعات ، وهذا هو المنطق الذي سار عليه على ، ونصح به كل من خرج ضده ، وقد استجاب له أصحاب الجمل وعرفوا أنه الحق وروح الإسلام .

بيد أن أهل الفتنة من السبئية الذين أومأنا إلى مؤتمراتهم التآمرية بتوجيه الخبر الأسود عبد الله بن سبأ ، قد دبروا إشعال الحرب بين الإخوة في حادث « الجمل » كما أن أشباها لهم كذلك هم الذين سعروها في صفين .

وإذن : فلو لا تلك العناصر المندسة بين المسلمين لما حدث بينهم ما حدث . ولكن قدر الله وما شاء فعل .

وأخيراً أعلن قرار التحكيم ، وفيه عزل على ومعاوية كما سبق . ولكن هل رضخ المحكمون لهذا القرار ، أم رأوا ، أو رأى بعض منهم . أن القرار لم يصدر وفق القضية المعروضة للبحث ، وهي القتال ، بينما الذي بحث وأعلن الحكم فيه هو رئاسة الدولة ، ولم يتعرض لأمر الدماء التي أريقَت في صفين .

وإذن : فلا بد من إجمال وجهة نظر المتنازعين ، وبخاصة على بن أبي طالب في هذه المسألة الخطيرة .

يقول المؤرخون : بعد أن اختلف أبو موسى وعمرو في إعلان صيغة القرار الذي سبق أن اتفقا على إعلانه ، لحق أبو موسى بمكة ، ورجع عمرو إلى معاوية فسلم عليه بالخلافة ، ورجع عبد الله بن عباس إلى على بالكوفة ، فردّه إلى البصرة . أميراً عليها ، ثم اجتمع الناس بالكوفة ، فقام على فيهم خطيباً ، فقال : الحمد لله : وإن أتى الدهر بالخطب اللقح ، والحدثان الجلل . وأشهد أن لا إله إلا الله . وأشهد أن محمد رسول الله .

أما بعد :

فإن المعصية تورث الحسرة . وتعقب الندم : وقد كنت أمرتكم في هذين

الرجلين . وفي هذه الحكومة أمرى . ونحلتكم رأيى . لو كان لقصير أمر .
ولكن أيتيم إلا ما أردتم . فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن :

أمرتهمُ أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصيحَ إلا ضحى الغدِ .

ألا ان هذين الرجلين اللذين اخترتموها حكيمين ، قد نبذا حكم القرآن وراء
ظهورهما وأحييا ما أمات القرآن ، واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله .
فكما بغير حجة بينة . ولا سنة ماضية واختلفا فى حكمهما ، وكلاهما لم يرشد ،
فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين . . استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام ،
وأصبحوا فى معسكرهم إن شاء الله يوم الاثنين ثم نزل وكتب إلى الخوارج بالنهروان
« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله على أمير المؤمنين إلى زيد بن حصين ،
وعبد الله بن وهب ومن معها من الناس . أما بعد : فان هذين الرجلين اللذين
ارتضىناهما حكيمين قد خالفا كتاب الله واتبعا هواهما بغير هدى من الله فلم يعملوا
بالسنة ولم ينفذا القرآن ، حكما . فبرئ الله منهما ورسوله والمؤمنون . فإذا بلغكم
كتابى هذا فاقبلوا إلينا ، فإننا سائرون إلى عدونا وعدوكم ، ونحن على الأمر
الأول الذى كنا عليه ، فكتبوا إليه : أما بعد . فانك لم تغضب لربك ، وإنما
غضبت نفسك . فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا
وبينك . وإلا فقد نبذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين ، فلما قرأ كتابهم
أيس منهم ورأى ان يدعهم ويمضى بالناس حتى يلقي أهل الشام فيناجزهم ، فقام
فى أهل الكوفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد . فإنه من ترك الجهاد فى
الله وادهن فى أمره كان على شفا هلكة إلا أن يتداركه الله . فاتقوا الله وقاتلوا
الذين لبسوا لهذا الأمرا هلا . والله لو ولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل

كسرى وهرقل :

حلى بن أبى طالب ، يحذر المسلمين من أسلوب الحكم الذى كان يسير عليه كسرى وهرقل ، ويتوجس خيفة من معارضيه ، بل انه ليرى أن الأمر الذى يتشبثون به ، أبعد بكثير من الطلب بدم عثمان والقصاص من قتلته . . انه - فى رأى على - أسلوب الحكم والسياسة ، فهو يرى أن توزيع الأموال على المستحقين ، ولو خلا بيت المال ، طالما توجد الضرورات الشديدة إلى انفاقها . وهذا ما صنعه فى ولاية البصرة بعد وقعة الجمل ، كما سبق . بل هذا هو رأيه حين وضع عمر الديوان ، فقد قال لعمر : أرى أن تنفق جميع ما فى بيت المال حتى يشبع الناس ، وينعموا .

ولكن عثمان وجمهرة الصحابة ، رأوا أن يدخر فى الخزانة العامة شيء للطوارئ ، وأن يعطى الناس قدر الكفاية ، وبقدر الإمكان ، مع ملاحظة البلاء والتقوى فى الأعمال والخدمات .

وعلى الجملة : فإن الذى يبدو من سلوك على ، وتوجيهاته ، وبياناته ، أنه كان مفطورا على العدل والمساواة ، وكراهية الترفع والطبقية ، كما كان مجبولا على حب المساكين والعمال ، والبطولات الراشدة ، والشفف الشديد بتطبيق الكفاية والعدل على أوسع نطاق .

ومن ثم ، فإنه لم يقبل أن تصبح سياسة الحكم ، موضوعا للجدل والمهاترة ، أو محلا للمساومة والمناورة ، وإنما هو يرضى من الناس ، الوضوح ، والصراحة ، والصدق مع النفس ، والاستقامة فى المجتمع ، كما يقدر الواجب ، ولا يقبل فى ادائه شفاعا أو مداراة . وقد أسفر عن تلك النعوت بجلاء فى مواقفه المختلفة ، سواء إبان بيعته ، أم بعد ذلك حينما طلب منه المغيرة وغيره عدم عزل عمال عثمان ، ولا سيا معاوية ، مع أن الشكوى لم تكن إلا منهم .

كذلك نرى هذا الخلق واضحاً في محاورته لرسول معاوية ، ومن قبل لأصحاب
الجل . . حدث ابن الأثير في تاريخه قال :

بعث معاوية إلى علي ، حبيب بن مسلمة الفهري ، وشرحبيل بن السمط ،
ومعن بن يزيد الأخنس ، فدخلو عليه . فحمد الله حبيب وأثنى عليه ثم قال :
أما بعد فإن عثمان كان خليفة مهدياً يعمل بكتاب الله وينيب إلى أمره .
فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه فقتلوه فادفع إلينا قتلة عثمان إن
زعمت أنك لم تقتله ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولونه من
أجمع عليه أمرهم ، فقال له علي : ما أنت لا أم لك والعزل وهذا الأمر . اسكت
لست هناك ولا بأهل له . فقال والله لتريني بحيث تكره ، فقال له علي : وما
أنت لا أبقى الله عليك إن أبقيت علينا . اذهب فصوب وصعد ما بدا لك .

وقال شرحبيل : ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي ، فهل عندك جواب غير
هذا . فقال علي : ليس عندي جواب غيره . ثم حمد الله وأثنى عليه وقال :

أما بعد : فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ ، بالحق . فأنقذ به من الضلالة
والهلكة ، وجمع به من الفرقة ، ثم قبضه الله إليه ، فاستخلف الناس أبا بكر ،
واستخلف أبو بكر عمر ، فأحسننا السيرة وعدلا وولى الناس عثمان ، فعمل أشياء
عابها الناس ، فساروا إليه فقتلوه . ثم أتاني الناس فقالوا لي : بايع ، فأبيت .
فقالوا بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك ، وأنا نخاف أن لم تفعل أن يتفرق الناس ،
فبايعتهم فلم يرعنى إلا شقاق رجلين قد بايعاني وخلاف معاوية . . ألا وإنى
أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإمارة الباطل وإحياء الحق ومعالم الدين ،
أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين .

قالا : تشهد أن عثمان قتل مظلوماً . قال لهما : لا أقول أنه قتل مظلوماً ولا

ظالماً ، قالاً : من لم يزعم أنه قتل مظلوماً فتحن منه براء ، وانصرفا فقال علي بعد انصرافهما : إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء ، إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادى العمى عن ضلالهم . إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون^(١) .

والذى نغنى به فى مثل هذه المواقف من على ، أن الرجل كان يرى أنه رئيس دولة منتخب مثل أسلافه ، وأن الأمة هى التى أسندت إليه أمرها بعد أن حاول جاهداً رفض هذا الأمر ولكنهم أرغموه ، ولقد اختارته جميع الأمصار والأقطار ، وبذل له البيعة جميع المرشحين ممن يعتد برأيهم ، وحتى سعد وابن عمر لم يطعنا فى انتخابه ، وإنما توقفا مليا لظروف تتعلق بأشخاصهما ، ووعدا بالبيعة متى بايعت الأمصار .

وإذن فلعلى حق الطاعة على الأمة ، وليس لأى فرد أو جماعة أن تطلب منه اعتزال أمور الناس وإلا لأصبحت الحياة فوضى ، وينعدم النظام والأمن ، لأن كل فرد لا يعجبه أو لا يلبى طلبه رئيس الدولة المنتخب ، فى شىء ما ، يذهب إليه ويطلبه بالتخلى عن مسئولياته !!

وهذا منتهى الاسفاف ، والافتيات على حق الامة ، واختصاصات من اختارته لرعاية شئونها وإدارة مراقبها ، وليس من منطق السياسة والحكم ، أن تسود للفردية فى دولة شورية ديمقراطية .

على أن الذى نراه أن علينا أن كل الحق فى رد كل مشاكس إلى حدود

(١) آية ٥٣ من سورة الروم للمكية .

«الطاعة والجماعة» ، لولا هذه السحب القائمة التي لبدت الجو إثر قتل رئيس الدولة عثمان . فلقد وجد بعض الناس سبيلا إلى الطعن في إمارة علي ، التي تمت في ظروف هذه الفتنة ، فزعموا أن البيعة له ، لم تخل من التهديد للناس وإن السبئية كانوا سادة الموقف في اختيار علي ، وهم الذين قتلوا عثمان بن عفان رضي الله عنه . ولكن : هل بذل البيعة من السبئية لعل في تلك الظروف ، يسوغ قذف الرجل بأنه قد اشترك في التحريض على عثمان ، بينما هو لم يسكن إبان حصار عثمان ، بل تحرك وبذل كل ما يستطيع للدفاع عنه ، والحفاظ على كرامته وقدره ، بله سلامته وحياته .

على أن الذي يلفت النظر في مسألة الهجوم على عثمان ، بعد أن ظل معتكفا في بيته أكثر من خمسين يوما في حالة حصار ، أنه لم يحاول أحد من المحيطين بمنزله أن يتسلق الجدر ويقتله ، كما أنه كان من اليسير على المصريين ومن معهم أن يتخلصوا منه إبان خروجه للصلاة الجامعة ، وعودته إلى بيته — لو أرادوا — ولكن الحقيقة في أغلب الظن — أن سبب القتل كان عارضا بالنسبة للشاكين من عرب مصر — على الأقل — وإن كان هو الهدف الذي دبره أصحاب ابن السوداء ، ولكن لم يكن أهل مصر من شيعته سوى نذر يسير منهم ربما قد استغواهم هذا الآثم الخبيث . يقول المؤرخون : وقد انتهى النضال إلى ذروته عندما رشق أحد المدافعين عن عثمان ، رجلا من المصريين بحجر فقتله ، وطالب الثأرون بتسليم القاتل . فلم يجابوا إلى طلبهم ، فانقضوا على المنزل من المنازل والعقارات المجاورة وقتلوا الخليفة عثمان .

وإذن : فلم يكن هدف المصريين بالذات هو قتل عثمان ، وإنما كان — بحسب مجرد الشكوى من مظالم لهم — بدليل أنه عند ما تدخل علي ، يروا ابن أبي حذيفة في الأمر ، وتحدثوا إلى عثمان وبذل الخليفة وعدا بالنظر في

شكواهم ، انصرفوا راجعين إلى مصر ، لولا ذلك الخطاب المشثوم الذي ضبطوه مع ورش غلام عثمان ، والذي كتبه مروان ليعاقب الشاكين في شدة وقسوة ، فعند ذلك رجعوا للتحقق من صحة الخطاب ، واستبعدوا أن يحدث ذلك من أمير المؤمنين عثمان ، وقد صدق ظنهم . فإن عثمان لم يكن يعلم بشيء من محتوياته . ولكنهم ثاروا لما حدث كشأن سائر البشر ، ثم كان قتل غلمان عثمان لبعضهم ، فازدادت ثورتهم ، وأفلت الزمام من قادتهم ، وذوى الرأي فيهم ، فاشتبكوا في معركة نجم عنها قتل عثمان رضى الله عنه .

وبهذا يمكن أن يكون التدبير من ابن سبأ ، الذي سبقت الإشارة إليه . قد أثر في أهل البصرة وأهل الكوفة دون جمهور أهل مصر بسبب إقامة كثير من الفرس واليهود في العراق ، حتى أن قاتل عمر كان من الفرس الذين وفدوا من العراق ، وليس من مصر ، ولا من تدبير أهلها .

كذلك نرى أن ابن السوداء عندما يطرده معاوية حوالى سنة ٣٠ هـ من الشام لا يذهب إلى مصر ، وإنما يتجه إلى البصرة ، ثم إلى الكوفة ، وفيهما يبيض ويفرخ . أما ما يزعمه بعض المؤرخين من وجود ابن السوداء مع أهل مصر إبان رجوعهم بخطاب ورش ، فقد يكون ذلك أيضا من تدبير السبئية . الذين يندثون دائما بين الساخطين ، لاستغلال الظروف وانتهاز الفرص .

يقول المرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادي « لم يكن ممكنا أن تظل مصر وقد اتضحت مكانتها في الفتوح الكبرى بمنأى عن مجرى الأحداث السياسية ، . والانقلابات العامة . التي رعت الدولة الاسلاميه رجأ عنيفاً .. والحق أننا نلاحظ . أثر مصر بارزا في أشد هذه الحوادث وأخرجها . ولنبدأ بالفتنة الكبرى التي . كان أقطع أحداثها مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان .

لا نريد أن نخوض في هذا المقام. في أسباب هذه الفتنة ، فقد اختلطت فيها العوامل الاقتصادية والاجتماعية بعصبية القبائل العربية، وقد يكون عجباً من العجب أن تشترك مصر في هذه الفتنة وأن تبوء بالجانب الأكبر فيها- فيما روى الأخباريون- مع أنها في ذلك الوقت كانت أرغد أقاليم الدولة الإسلامية حالاً وأحسنها إدارة ونظاماً .. غلطة صدرت عن السياسة العليا، هي في نظرنا السبب في انقلاب مصر على عثمان وتلك هي عزل عمرو بن العاص عن مصر، وتوليته مكانه أحد أقاربه وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح . وعمرو رجل نفاع ضرار ، يرجى للشر كما يرجى للخير، ولم يظن الخليفة الثالث لذلك عندما عزل عمراً عن مصر ، كما فطن له معاوية من بعد^(١) !!

وفي موضع آخر يبين الأستاذ العبادي قدر مصر لدى العرب والعالم الإسلامي فيقول : « لم تكن مصر في نظر العرب عندما أقدموا على فتحها في سنة ١٨ هـ كغيرها من الأقطار التي فتحوها في نهضتهم العظمى، بل كان في أخيلتهم وخواطرم مكانة ممتازة لا تشبها إلا مكانة قطر آخر هو الشام .. ذلك بأن القرآن الكريم ذكر مصر في مواضع عدة ذكراً كريماً تارة بالتصريح وأخرى بالإشارة والتلميح فمن ذلك قول القرآن مخبراً عن فرعون، «أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي» وقوله مخبراً عن يوسف عليه السلام «أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين» وقوله ربنا إنك آتيت فرعون وملائه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا» وكما اشتمل القرآن على جملة آيات فيها تنويه بقدر مصر وخطرها وثرائها ، فإن السنة النبوية ذكرت مصر ونوهت بأهلها خاصة، لأسباب وردت في قصص الكتب المقدسة . من مثل ما يروى من أن النبي ﷺ قال : إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً . . . والمعروف من التاريخ المقدس، أن مصر دخلها غير

(١) انظر كتاب « صور وبحوث من التاريخ الإسلامي » ص ١٢٥

واحد من الأنبياء والرسل فقد قدمها إبراهيم الخليل عليه السلام، ودخلها يوسف، ويعقوب والأسباط، وفيها ولد موسى ونشأ عليه السلام كما دخلها عيسى وأمه عليهما السلام^(١) ومنها هاجر أم إسماعيل جد العرب العدنانيين، وأصل عرب الحجاز، فالصريون أحوال الحجازيين . ومارية أم إبراهيم بن محمد رسول الله ﷺ . أيضاً مصرية . فلامصريون كذلك أحوال لبعض ولد النبي ﷺ وهناك العلاقات التجارية الكبرى بين مصر والحجاز، ثم إن المصريين هم الذين كانوا في الجاهلية يصنعون الثياب البيضاء المعروفة بالقباطي لتكسى منها الكعبة ، منذ العصر الجاهلي واستمر ذلك في العصر الإسلامي وإلى يومنا هذا^(٢) .

كل هذه الذكريات المستمدة من المصادر التي ذكرناها ، كانت تجول بخواطر العرب عندما أقدموا على فتح مصر . فلما تم لهم فتحها فعلا واختلطوا بأهلها ، وعانوا نياها العجيب وتربها الحصبة وخيرات الوافرة . وآثارها الرائعة ، ووضعها الجغرافي الفريد وداعة أهلها وانصرافهم إلى العمل والتكسب بالزراعة والصناعة والتجارة . كل ذلك جعلهم يرون أن قد صدق الخبر الخبر، فانطلقت أسنتهم تشيد بحج مصر وخيرات مصر ، ونيل مصر ، وعجائب مصر وجعلوها « جنة الدنيا » و « كفانة الله في أرضه » وقالوا « من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثله في الدنيا ، فلينظر إلى أرض مصر . حين تخضر زروعها وتنور ثمارها » .

ومن قبيل ذلك الوصف البديع، ما بعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب . يصور فيه اختلاف الأفق المصري من لدن أن يكون مغموراً بمياه الفيضان ، إلى أن ينحسر عنه الماء وتحث الأرض ، وتخضر بالعشب والنبات ، وتنضج

(١) نفس المصدر (٢) أنظر السيرة النبوية لابن إسحاق (نبي البر)

الزروع وتتنوع ألوانها فيقول : فيينا مصر — يا أمير المؤمنين — لؤلؤة بيضاء ،
إذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء ، فإذا هي دياحة رقشاء ، فتبارك
الله الخالق لما يشاء^(١) .

ومرة أخرى ، تعود فتؤكّد أن عرب مصر الذين خرجوا إلى المدينة شاكين
إبان عهد عثمان لم يكن في منهم قتل الرجل في أغلب الظن وإنما الحادثان
المشثومان . خطاب ورش ، وقتل أفراد منهم بيد موالى عثمان وأفراد من موظفي
الخليفة ، هما اللذان أثارا حفيظة المصريين فحاولوا قتل مروان ، وقاتل من قتل منهم ،
فكانت معركة ، أفلت فيها الزمام فقتل عثمان رضى الله عنه .. ومع ذلك ، فلن
نستطيع اغفال حب المصريين لعلی بن أبی طالب وتفضيله لخلقه وكفايته عن سائر
معاصريه مثل طلحة والزبير . ونجتزئ بهذا الموجز لأطوار الفتنة ، لنهى الكلام
بجملة عن نيت علی وأولاده ، ونبذة من شمائله ، ثم عن تنازل الحسن ابنه لمعاوية
رضی الله عنهما .

بيت علی وولده :

أول امرأة بنى بها علی بن أبی طالب ، هي فاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ .
وقد أنجب منها حسنا وحسينا . ويقال أنها ولدت أبنا آخر يسمى محسنا توفي
صغيرا ، كما ولدت له زينب الكبرى ، وأم كلثوم الكبرى ، ولم يتزوج عليها
حتى توفيت بعد رسول الله (ص) ببضعة أشهر .

وتزوج بعد وفاة فاطمة ، أم البنين بنت حزام ، فولد لها منه العباس وجعفر
وعبد الله وعثمان ، وقتلوا مع الحسين في كربلاء ، ولم يعقبوا ولدا إلا العباس .

(١) وقد اثبتنا فيما سبق وصف مصر لعمر بن العاص رضى الله عنه فراجعوه ..

وتزوج ليلي ابنة مسعود الحنظلية ، فولدت له عبيد الله وأبابكر ، وقد قتل
مع الحسين ، وقيل إن الذي قتل عبيد الله هو المختار بن أبي عبيد ، ولا بقية
(خلف) لها .

وتزوج أسماء بنت عميس الخثعمية فولدت له يحيى ، ومحمدا الأصغر ، ويقال
أنهما لم يتركا خلفا ، وحكى الواقدي ، أن أسماء ولدت له عونا .

وانجب من الصبيان ، أم حبيب بنت ربيعة التي يقال أنها أم ولد ، من سبي
خالد بن الوليد في عين التمر . أنجب منها عمر ، ورقية ، وقد عاش على حوالى
خمس وثمانين سنة .

وتزوج أمامة بنت أبي العاص من بنى عبد مناف ، وأمها زينب بنت رسول
الله (ﷺ) فولدت له محمدا الأوسط .

وتزوج خولة ابنة جعفر بن قيس الحنفية فولدت له محمدا الأكبر الذى
عرف بمحمد بن الحنفية .

وتزوج أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفى ، فولدت أم الحسن ورملة
الكبرى ، وكان له بنات من أمهات شتى منهن . أم هانىء وميمونة ،
وزينب الصغرى ، ورملة الصغرى ، وأم كلثوم وفاطمة ، وأمامة وخديجة ،
وأم الكرام ، وأم سلمة ، وأم جعفر ، وجمانة ونفيسة بنات على رضى الله عنه
يقول الطبرى . وتزوج محياة ابنة امرئ القيس من قبيلة كلب ، فولدت له جارية
هلكت صغيرة وحدث الواقدي عن طريق هذه الفتاة أنها كانت تخرج إلى
المسجد وهى جارية فيقال لها . من أخوالك فتقول . وه . وه . تعنى كلبا .
فجميع ولد على لصلبه أربعة عشر ذكرا ، وسبع عشرة امرأة . . وكان النسل

من ولد الحمسة : الحسن والحسين . ومحمد بن الحنفية ؛ والعباس بن الكلابية وعمر بن التغلبية .

عماله على الأمصار :

كان واليه على المدينة في آخر سنى حياته ، أبا أيوب الانصارى ، وقيل سهل ابن حنيف ، والكوفة مقر الحكم للدولة وعلى البصرة عبد الله بن العباس وكانت إليه الصدقات والجند والمعاون كلها مدة ولايته وكان على قضاء البصرة من قبل على ، أبو الأسود الدؤلى ، وتولى زياد بن أبى سفيان أمر البصرة فترة قصيرة ؛ بعثه بعدها إلى فارس لحربها وخراجها أما عامله على البحرين واليمن ومايلها . فهو قثم بن العباس^(١) .

كلمة عن على :

مكث على في الخلافة خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ؛ وقيل أكثر من ذلك بيوم أو بعض يوم^(٢) ، وكان أصلع إلى القصر أقرب ، عظيم العينين^(٣) ، عظيم اللحية كثير شعر الصدر ، فوق الربة ضخمة عضلة الذراع ، ضخمة عضلة الساق ؛ وكان من أحسن الناس ، ولا يغير شيبه ، كثير التبسم^(٤) . لم يلبس في أيامه ثوبا

(١) تاريخ الأمم للطبرى ج ٦ ص ٨٩ وكتاب الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٠١

(٢) الطبرى في تاريخ الأمم ج ٦ ص ٤٠

(٣) نفس المصدر

(٤) الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٠١

جديداً ولا اقتنى ضيعة ولا ربعاً إلا شيئاً يسيراً مما تصدق به وحبسه ، وكان يقول : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها الدنيا مسجد أحباء الله ، ومصلى ملائكته ومهبط وحيه ، ومتجر أوليائه . اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنة . فمن ذا ينمها وقد آذنت بينها ونادت بفراقها ونعت نفسها وأهلها ، ومثلت لهم ببلائها البلاء ، وشوقت بسرورها إلى السرور^(١) .

دخل ضرار بن حمزة على معاوية — وكان ضرار من خواص علي — وافداً . فقال له : صف لي علياً . قال : أو تعفيني يا أمير المؤمنين . قال معاوية : لا بد من ذلك . فقال : أما إذا كان لا بد من ذلك ، فإنه كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يعجبه من الطعام ما خشن ، ومن اللباس ما قصر ، وكان والله يمجينا إذا دعونا ، ويعطينا إذا سألناه ... يبسم عن ثغر كاللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويرحم المساكين ، ويطعم في المسغبة ، يتما ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة . يكسو العريان وينصر اللهقان ويستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل وظلمته ، وكأني به وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه ، وهو في محرابه قابض على لحيته ، يتململ تلمل السليم ، ويبكي بكاء الحزين ويقول :

يا دنيا غري غيري ، إلى تعرضت ، أم إلى تشوفت . هيهات . هيهات .
لا حان حينك ، قد ابنتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك . عمرك قصير ، وعيشك حقير .
وخطر كسير . آه من قلة الزاد ووحشة الطريق ، فقال له معاوية : زدني شيئاً من كلامه . فقال ضرار : كان يقول : أعجب ما في الإنسان قلبه ، وله مواد

(١) نفس المصادر السابقة .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٥

من الحكمة وأضداد من خلافها ، فإن سئح له الرجاء أماله الطمع ، وإن مال به الطمع أهلكه الحرص ، وإن ملكه القنوط قتله الأسف ، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وإن أسعده الرضا نسي التحفظ .. فكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له مفسد . فقال معاوية : زدنى كل ما وعيته من كلامه . قال ضرار : هيهات أن آتى على جميع ما سمعته منه . ثم قال : سمعته يوصى كميل ابن زياد (وكان من قوله) : « يا كميل . ذبَّ عن المؤمن ، فإن ظهره حمى الله ، ونفسه كريمة على الله ، وظالمه خصم الله واحذركم من ليس له ناصر إلا الله .

وقيل لعللى رضى الله عنه : من خبار العباد ، قال : الذين إذا أحسنوا استبشروا ، وإذا أساءوا استغفروا ، وإذا ابتلوا صبروا ، وإذا غضبوا غفروا^(١) .

يقول المسعودى « حفظ الناس عنه من خطبه فى سائر مقاماته أربعمائة خطبة . ونيفاً وثمانين خطبة يوردها على البديهة ، تداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً^(٢) .

بعد أن تولى الخلافة ، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال^(٣) :

إن الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً ، بين فيه الخير والشر ، فخذوا الخير ودعوا الشر . الفرائض أدوها إلى الله سبحانه ، يؤدِّكم إلى الجنة . إن الله حرم حرماً غير مجهولة ، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها . وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين ، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق ، ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب . بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت . فإن الناس أمامكم وإن

(١) نفس المصدر السابق

(٢) نفس المصدر

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى ج ٥ ص ١٥٧

.. ما من خلقكم الساعة تحذوكم .. تحقفوا تلحقوا . فإنما ينتظر الناس أخراهم .
اتقوا الله عباده في عباده وبلاده . إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم .
أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه . وإذا رأيتم الخير فخذوا به . وإذا رأيتم الشر
فدعوه . واذكروا إذا تم قليل مستضعفون في الأرض . هذا مثل من بياناته
الرائعة وكلماته الراشدة رضى الله عنه وأرضاه .

الحسن بن علي :

بويح للحسن — رضى الله عنه — بعد أن توفي علي بن أبي طالب بيومين
في أرجح الروايات : وإذا كان الاعتداء على أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، قد
حدث في ١٧ من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ وتوفي بعد يومين من ضربة ابن ملجم ^(١) .

(١) سبب قتل علي هو عداؤه الشديد للخوارج ، وقتل كثير من رؤوسهم في
الحروب التي نشبت بينه وبينهم ، ومع هذا فإن الطبرى ذكر في سبب القتل قصة
مؤتمر عقده الخوارج وقرروا فيه قتل الدين فرقوا جماعة للمسلمين — في زعمهم —
وهم معاوية وعمر بن الخطاب . يقول في ذلك « من حديث ابن ملجم وأصحابه أن ابن
ملجم والبرك بن عبد الله ، وعمر بن عبد بكر التميمي ، اجتمعوا فذكروا أمر الناس وعابوا علي
ولأنهم ثم ذكروا أهل النهر وان ، فترحموا عليهم ، وقالوا : ما نصنع بالبقاء بعدهم
شيئاً إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لا يخافون في الله لومة
لائم . فلو شربنا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم
لاخواننا . فقال ابن ملجم . أنا أ كفيكم علياً . وقال البرك . أنا أ كفيكم معاوية .
وقال عمرو بن بكر . أنا أ كفيكم عمرو بن العاص فتعاهدوا وتواثقوا . ثم أخذوا
أسياقهم واتعدوا لسبع عشرة تحلوا من رمضان ، أن يثبت كل واحد منهم على صاحبه
فأقبل كل منهم إلى اللصر الذي صاحبه فيه . فأما ابن ملجم للراوى فخرج فلقى أصحابه
بالكوفة . وكأهم أمره كراهة ان يظهر واشيئاً من أمره . ثم لقي امرأة من تيم الرباب
يقال لها « قطام » ابنة الشحنة ، وقد قتل أبواها وأخوها يوم النهر وان وكانت فاتكة الجمال =

.....

== فلما رأها التبت بعقله ونسى حاجته التي جاء لها ثم خطبها . فقالت : لا أتزوجك حتى .
تشفى لي قال : وما يشفيك . قالت : ثلاثة آلاف وعبد وجارية وقتل علي بن أبي طالب .
قال هو مهر لك . فأما قتل علي (فلا أراك) ذكرته لي وأنت تريدني قالت : بلى
البحس غرته فإن أصبت شفيت نفسك ونفسي ، وبهنتك العيش معي . وإن قتلت .
فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها . قال : فوالله ما جاءني هذا للمصر إلا
قتل علي ، فلك ما سألت .. قالت : إني أطلب لك ما يسند ظهرك ويساعدك على
أمرك فبعثت إلى رجل من قومها من تيم الرباب (وكان علي قتل عشرة منهم) يقال .
له وردان فكلته فأحابها . وأتى ابن ملجم رجلا من أشجع يقال له شبيب بن بحرة .
فقال له : هل لك في شرف الدنيا والآخرة . قال : وما ذاك قال : قتل علي بن أبي
طالب . قال : تكلمت أمك . لقد جئت شيئا إذا . كيف تقدر علي علي . قال . أكن .
له في المسجد فإذا خرج لصلاة الغداة ، شددا عليه فقتلناه . فإن نجونا شفينا أنفسنا
وادركننا ثأرا . وإن قتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها . قال ويملك لو كان
غير علي لكان أهون علي . قد عرفت بلاءه في الإسلام وسابقته مع النبي صلى الله
عليه وسلم وما أجدني أنشرح لقتله . قال ابن ملجم : أما تعلم أنه قتل أهل النهروان .
العباد الصالحين قال بلى قال : فقتله بمن قتل من إخواننا فأجابه : فجاءوا قطام وهي
في المسجد الأعظم متكئة . فقالوا لها قد أجمع رأياء على قتل علي . قالت : فإذا أردتم ذلك
فأتوني . ثم عاد إليها ابن ملجم في ليلة الجمعة التي قتل في صبيحتها على سنة . فقال :
هذه الليلة التي واعدت فيها صاحبي ، أن يقتل كل واحد منا صاحبه فدعت لهم بالحريز
فمصبتهم به وأخذوا أسيافهم وجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي . فلما خرج
ضربه شبيب بسيفه فوقع السيف في عضادة الباب ، وضربه ابن ملجم في قرنه بالسيف
وهرب وردان ، حتى دخل منزله فدخل عليه رجل من بني أبيه وهو ينزع الحريز
عن صدره والسيف ، فأخبره بما كان وانصرف ، فجاء بسيفه فملا به وردان حتى قتله .
وخرج شبيب نحو أبواب كندة في القليس . وصاح الناس فلحقه رجل من حضرموت .
يقال له عويمر وفي يد شبيب السيف فأخذه وجثم عليه الحضرمي ، فلما رأى الناس ==

فيكون الحسن قد بايعوه بالخلافة في ٢١ من رمضان سنة ٤٠ . يقول الطبرى «ضرب على ليلة الجمعة فكث يوم الجمعة والسبت وتوفي ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة ٤٠ وهو ابن ثلاث وستين سنة» وبهذا قال جمهرة المؤرخين — روى أن جندب بن عبد الله، دخل على عليّ بعد ضربته، فسأله، فقال: يا أمير المؤمنين . إن فقدناك — ولا نفقدك — فتبايع الحسن . فقال: ما أمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر، ثم دعا حسنا وحسينا فقال «أوصيكما بتقوى الله، وألا تبغيا الدنيا وإن بفتكما، ولا تبكيا على شيء زوى عنكما، وقولا الحق، وارحما اليتيم، وأغنيا الملهوف، واصنعا للآخرة، وكونا للظالم خصما، وللمظلوم ناصرا، وأعمالا بما فى الكتاب، ولا تأخذكما فى الله لومة لائم، ثم نظر إلى محمد ابن الحنفية فقال: هل حفظت ما أوصيت به أخويك؟ قال: نعم . قال . فإنى أوصيك بمثله وبتوقير أخويك، لعظم حقهما عليك، فاتبع أمرهما ولا تقطع أمرا دونهما . ثم التفت إلى حسن وحسين وقال: أوصيكما به، فإنه شقيةكما؛ وقد علمتا أن أباكما كان يحبه .

== قد أقبلوا فى طلبه وسيف شبيب فى يده خشى على نفسه فتركه، ونجاشيب فى غمار الناس، فشدوا على ابن ملجم فأخذوه، إلا أن رجلا من همدان، أخذ سيفه فضرب رجله فصرعه وتأخر على، ورفع فى ظهره صعدة بن هميرة بن أبى وهب. فعلى بالناس الغداة (الفجر) ثم قال على: على بالرجل، فادخل عليه . ثم قال . أى عدو الله المأمن إليك، قال . بلى . قال فما حملك على هذا قال: شجذته أربعين صباحا وسألت الله أن يقتل به شر خلقه . فقال على . لا أراك إلا مقتولا به، ولا أراك إلا من شر خلقه .

وبذكر الطبرى (٦ ص ٨٥) أن ابن ملجم عندما ضرب عليا قال: الحسبك الله يا على لالك ولا لأصحابك . ثم أهوى طى قرنه بالسيف، فقال على . لا يفوتنكم الرجل فاخذ ابن ملجم وأدخل عليه فقال . النفس بالنفس إن أنامت فاقتلوه كما قتلنى، وإن بقيت رأيت فيه رأى

وقال للحسن : أوصيك أى بنى . بتقوى الله ، وإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة عند محلها، وحسن الوضوء ، فإنه لا صلاة إلا بطهور ، ولا تقبل صلاة من مانع الزكاة . وأوصيك بفقر الذنب وكظم الغيظ وصلة الرحم، والحلم عند الجهل، والتفقه فى الدين . والتثبت فى الأمر ، والتعاهد للقرآن وحسن الجوار ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واجتناب الفواحش .

ويروى أنه لما حضرت عليا الوفاة ، قال للحسن : أوصيك يا حسن وجميع ولدى وأهلى ، بتقوى الله ربكم ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، فانى سمعت أبا القاسم — صلى الله عليه وسلم — يقول : إن صلاح البين أفضل من عامة الصلاة والصيام ... والله الله فى أصحاب نبيكم ، فإن رسول الله أوصى بهم ، والله الله فى الفقراء والمساكين فاشركوهم فى معاشكم .. الصلاة . الصلاة لا تخافن فى الله لومة لأثم . يكفيكم من أرادكم وبغى عليكم .. فى وصية طويلة سجلها الطبرى فى تاريخه^(١) .

ذلك وبالرغم من أن عليا لم يشر ببذل البيعة لأحد من أبنائه حتى لا ينحرف الناس عن شريعة الشورى ، ولا يحمل نفسه مالا يحب ، فإن أنصاره بايعوا لابنه الحسن كما سبق .

ولكن الحسن — رضى الله عنه — كان كارها فى هذا الأمر ، راغباً فى جمع كلمة المسلمين على أى شخص لأن الجماعة خير من الفرقة ، وإذا كان معاوية رضى الله عنه — أقوى شخصية تصلح لرياسة دولة الاسلام فى هذا الظرف ، فقد أخذ يفكر جدياً فى جمع الأمة من حوله، وبدأ ذلك واضحاً فى أسلوبه فى تقبل بيعته

من الشيعة ، إذ كان يشترط على من يبايعه أن يسلم من سالم ويحارب من حارب ،
وعندما قال بعضهم في مبايعته ، أبايعك على الكتاب والسنة وقاتل المحلّين (ولعله
يقصد معاوية ومن معه) قال : على كتاب الله وسنة نبيه ، فإن ذلك يأتي من
وراء كل شرط .

كان مثل هذا الأسلوب في اختيار الخلفاء غير معروف لدى الناس حينذاك ،
ولا سيما في جماعة الشيعة الذين لا يفكرون في مهادنة معاوية ، فضلا عن إسناد
أمر الأمة إليه مع وجود أبناء على وغيرهم . ولهذا فقد راجت الإذاعات بأن الحسن
يرفض عدواة معاوية . ولا يفكر في استئناف القتال معه . وكان الحسن فعلا
مشغولا بوضع حد لتلك الفتنة التي فرقت وحدة الأمة ، وكادت تجعل أعداءها
يعدون العدة لغزوها بعد أن تفوقت عليهم في كل الميادين . يقول الطبري : في
سنة ٣٥ هـ سار قسطنطين بن هرقل فيما ذكر محمد بن عمر الوافدي في ألف مركب ،
يريد أرض المسلمين ، فسلط الله عليهم قاصفا من الريح ففرقهم ، ونجا قسطنطين بن
هرقل قاني صقلية ، فصنعوا له حماما ، فقتلوه فيه . وقالوا : قتلت رجالنا .

وإذن فقد انتهز الروم فرصة الخلاف الذي استعر بين المسلمين ، وأرادوا أن
ينتقموا لأنفسهم ولولا أن الله سبحانه لطف بالأمة فاغرق أسطول الأروام ، ثم
قتل امبراطورهم بأيدي الروم أنفسهم ، لربما كان للدولة الإسلامية ، شأن آخر
إبان الفتن التي عمت أقطار الدولة آنئذ ، ثم تفاقمت بعد سنة ٣٥ ، وكادت تهدم
حصونها ومعقلها بأيدي المؤسسين لها ، ولولا الضعف البالغ الذي كان يخيم على
أعدائها ، لفكروا جديا في القضاء عليها بأسرع مما يظنون ..

ومهما يكن من شيء فقد قدر الله لهذه الأمة أن تجتمع بعد هذه المحنة المبيدة ؛
وأن تتحد وتتكتل مرة أخرى ، بفضل النوايا الطيبة التي دفعت الحسن بن علي

ومعاوية بن أبي سفيان ثم بفضل الجهود الجبارة التي بذلها عمرو بن العاص
والمغيرة بن شعبة ، وبنو العباس وعلى وغيرهم من ذوى النفوس الصافية ، والقلوب
المؤمنة فى العمل على إعادة الوحدة والألفة الى دولتهم العظمى .

وإذا كان المؤرخون قد سجلوا بعض المهارات الشكلية فى أسلوب إتمام
هذه الوحدة الجامعة بين الحسن ومعاوية ، فإن الرغبة الصادقة التى أبدأها الرجلان ،
قد دلت هذه الصعوبات حتى قضت عليها ، والتقى الطرفان فى مدينة الكوفة
فى سنة ٤٠ للهجرة حيث تم توقيع وثيقة الوحدة واجتماع الكلمة ، وإعادة السلام
والوثام إلى دولة الإسلام فكان عام الجماعة المبارك فى تاريخ هذه الأمة .

يقول المسعودى : بويح الحسن بن على بن أبى طالب بالكوفة بعد وفاة على
أبيه بيومين فى شهر رمضان من سنة أربعين ، فوجه عماله إلى السواد والجبل ،
وقتل الحسن ، عبد الرحمن بن ملجم ، ودخل معاوية الكوفة بعد صلح الحسن
لخمس بقين من شهر ربيع فى سنة ٤١ وكانت وفاة الحسن ، وهو يومئذ ابن خمس
وخمسين سنة .. ودفن بالقيع مع أمه فاطمة بنت رسول الله (ص) ^(١) .

ويقول ابن جرير الطبرى ^(٢) . « بايع أهل العراق الحسن بن على بالخلافة . فطفق
يشترط عليهم الحسن : إنكم سامعون مطيعون ، تسالون من سالت ، وتحاربون من
حاربت ، فارتاب أهل العراق فى أمره ، حين اشترط عليهم هذا الشرط ، وقالوا
ما هذا لكم بصاحب ، وما يريد هذا القتال ، فلم يلبث الحسن بعدما بايعوه إلا قليلا
حتى طعن طعنة أشوبته (لم تصب منه مقتلا) فازداد لهم بغضا وازداد منهم ذعرا ،

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٠

(٢) الأُمم والملوك ج ٦ ص ٩٣

فكتاب معاوية وأرسل إليه بشروط ، قال : إن أعطيتني هذا فأنا سامع مطيع ،
وعليك أن تني لي به ، ووقعت صحيفة الحسن في يد معاوية وأرسل معاوية
قبل هذا إلى الحسن بصحيفة بيضاء مختوم على أسفلها وكتب إليه أن اشترط
في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت فهو لك ، فلما أتت الحسن اشترط
أضعاف الشروط التي سأل معاوية قبل ذلك ، وأمسكها عنده ، وأمسك معاوية
صحيفة الحسن التي كتب إليه يسأله الوفاء له بما فيها . فلما التقى معاوية والحسن
سأله الحسن أن يعطيه الشروط التي شرط في السجل الذي ختم معاوية في أسفلها ،
فأبى معاوية أن يعطيه ذلك فقال : لك ما كتبت إلى أو لا تسألني أن أعطيكه .
فإني قد أعطيتك حين جاءني كتابك . قال الحسن : وأنا قد اشترطت حين
جاءني كتابك وأعطيتني العهد على الوفاء بما فيه فاختلفا في ذلك ، فلم ينفذ معاوية
للحسن من الشروط شيئاً .

وبعد . فهل تعتبر الأحداث التي أثارها ابن السوداء في الدولة الإسلامية ،
ثورة إصلاحية لم يقدر لها الظفر كما يزعم بعض المعاصرين ، أم هي « فتنة »
ومؤامرة اشترك في إيقاظها نفس الذين أثاروا فتنة الردة ، وتآمروا على اغتيال عمر ؟
إن الذي نراه ، هو نفس ما رآه الصحابة والتابعون ، وعلماء الأمة من
المحدثين والفقهاء والمؤرخين ، وجماهير المسلمين من أنها كانت فتنة كسابقتها
ثم أجهز عليها الحسن بن علي ، ومعاوية بن سفيان في سنة ٥١ هـ . وبهذا قضى
على تلك المؤامرة العدوانية ، وكان عام الجماعة من أسعد الأيام في تاريخ العروبة
والإسلام .

وإلى هنا ينتهي هذا البحث في عصر الراشدين ، والله ولي التوفيق .

وكان الفراغ من تأليف هذا الكتاب في غرة شهر رمضان المبارك لسنة

عبد الحميد بن حيت

١٣٨٢ « الموافق ٢٥ يناير سنة ١٩٦٣ »

القِسْمُ الثَّانِي

بحوث ودراسات

حَقِيقَةُ حَضَارَةِ الْإِسْلَامِ، وَجَمْعُ الْقُرْآنِ، وَسِيرُ الْأَبْطَالِ

١ (الحضارة الإسلامية في عصر الراشدين)

مقوماتها — مظاهرها — إدارة الدولة

مقدمة

مما لا ريب فيه أن عصر الأربعة الراشدين ، يعتبر العصر الذهبي ، للدولة الإسلامية .

وليس ذلك لمتعة هؤلاء بصحبة النبي ﷺ وأخذهم عنه ، أو ممارسة التجربة معه ، أو ما إلى ذلك من مقومات لها وزنها الخطير في الإعداد والتوجيه وسلوك الناس . فحسب

وإنما — إلى جانب هذا — لتطبيق المبادئ الإنسانية التي جاءت بها شريعة محمد ﷺ في المجتمع العربي ، ثم في المحيط العالمي ، مما أوحى بالتفكير العميق ، في وضعية المبادئ ، والروح الجديدة التي نشأت عنها ، وتفجرت منها ثم سرت في أنحاء الدنيا ، كما تسرى الحياة في جسم الإنسان ، أو الغيث المنهمر في الهضاب والصخور لا يلبث أن يشق سبيله ، إلى بلد ميت فيحيي لأرض بعد موتها وينهض الناس ، للارتفاع بما انتهى إليه من أنهار وجداول ، يسقون منها زروعهم وأنعامهم ، وأنفسهم ، ويعمد المفكرون منهم إلى بناء الجسور ، والخزانات ، وإنشاء السدود ، واستخراج الحرارة والكهرباء من مياهه المتدفقة ، وهكذا كانت مبادئ الإسلام ، أشبه بسر الحياة ، أو الغيث المنتظر إبان الجفاف والاملاق ، فأدرك الراشدون من سلف هذه الأمة قدره ، وقدرته في النهوض والارتقاء وتم لهم النصر على كبري دول الأرض ، رغم الضعف والقلة ، والفقر والمسغبة ولكن الوعي والإيمان ، والإيجابية ، لانهزم بأية قوى مادية مهما عظم شأنها

ومن ثم فقد اتسعت فتوح الدولة الإسلامية ، إبان العهد الرشيد ، شكل لم يعهد له مثيل في تاريخ البشر .

لقد عرف التاريخ قوة الإسكندر المقدوني ، كما عرف قوى فراغة وادي النيل ، وأكسرة فارس ، وقياصرة الروم ، وسائر الفاتحين العظام في القديم والحديث ، ولكن المؤكد ، أن أحداً من هؤلاء ، لم تبلغ فتوحه ما بلغت فتوح الدولة العربية بعد الإسلام ، وعلى الأقل ، لم تتركز حضارة الفاتحين القدامى والمحدثين ، كما تركزت حضارة الفاتحين المسلمين ، ولذلك فإننا نستطيع أن نقرر بأن حجة الحضارة ، وليس سلطان السلاح ، هي التي هزمت القوى الامبراطورية القديمة وأزالتها من حكم الشعوب ، ثم مكنت لحضارة الإسلام في أرض الأكسرة والقياصرة وغيرهم ، فأخرجت منهم خير أمة في القرنين السابع والثامن لميلاد المسيح عليه السلام .

ولكن ما هي الحضارة التي أنشأها الإسلام ، إنشاءً ، وخلقها خلقاً .

أهي تلك المزيج من تقاليد العرب ، وآداب الإسلام ، أم هي هذه المظاهر الاجتماعية والفكرية والتنظيمية التي وفدت إلى الدولة الإسلامية بعد التعريب الواسع النطاق لأفكار وآداب الأمم الأخرى منذ العصر العباسي ؟ وإذن فهل حضارة الإسلام ، هي هذا الخليط المتراكم من فلسفات الشرق والغرب أم ان حركة الترجمة والتعريب ليست سوى لون من ألوان النشاط الثقافي ، لمجرد المعرفة ، والعلم بما عند الآخرين ، من تجارب قد تفيد الإنسانية ، إذا ما سلطت عليها أضواء الاسلام ، واشعاعاته القوية .

الشريعة والحضارة :

إن جملة الأسس التي أنشأت الحضارة الإسلامية ، هي أصول تلك الشريعة وأحكامها وآدابها ، فهي التي شكلت حياة الأمة ، وأفاضت من روحها

على توجيه نظم الحكم والسياسة ، ومسائل المال والاقتصاد ، والمجتمع بوجه عام .

النظام السياسى :

ولعل من يتتبع أسلوب الاختيار لرئيس الدولة العربية بعد الإسلام لن يخالجه شك فى سمو هذا النظام البديع الذى وجهت إليه « الاسلامية » فقد كانت « الشورى » أساساً لا تتخاب أمراء المؤمنين ، ولم تتدخل عوامل أجنبية عن شريعة الشورى ، سواء فى تنصيب أبى بكر أو عمر أو عثمان وعلى ، بل وحتى الحسن ومعاوية ، رغم الملابسات التى أحاطت بذلك .

ولهذا فقد أطلق المؤرخون على ذلك العهد عنوان « الراشدين » لأن الغلب والصراع ، والمناورات السياسية وغير السياسية التى تلابس اختيار رؤساء الدول الشورية « الجمهورية » لم يكن لها وزن فى ذلك العصر ، إلى جانب الدقة البالغة فى تطبيق شريعة الكفاية والعدل فى المجتمع الإسلامى .

والحديث عن الشورى أو الديمقراطية السياسية المثالية التى وجهت إليها شريعة محمد (ص) وتمثلت بوضوح فى عصر الراشدين ، يعطف بنا شطر الديمقراطية الاجتماعية والديمقراطية الاقتصادية ، أو بعبارة العصر « الاشتراكية » و « التطبيق الاشتراكي » .

لقد بَزَّ الخلفاء الراشدون ، فى هذا المجال ، جميع المذاهب التى نادى ، وما زالت تعمل جاهدة على مناهضة الفروق ، والطبقية والحرمان ، والسلبية فى المجتمعات العالمية ، لتصل إلى عدالة التوزيع لمقدرات المجتمع البشرى .

. والذين يطالعون سيرة الرسول (ص) وسيرة الراشدين من بعده سيؤمنون
بأن النبي محمداً (ص) إمامٌ مثاليٌّ للاشتراكية الحديثة في أضواء صورها ،
وأوسع مجالاتها وكذلك جميع أصحابه .

والجمل الموجزة التي تقدمها اليوم لمقومات الحضارة الإسلامية ، ليست إلا
دراسات ممهدة لبحث أوفى لمظاهر وأصول تلك الحضارة في شتى فروعها ،
نسل الله سبحانه أن يوفق لإخراجه قريباً . والله ولي التوفيق .

المقومات الأساسية لحضارة الإسلام

« ١ »

قبل الحديث عن مقومات الحضارة الإسلامية في الصدر الأول ، نرى أن نشير إلى وصف موجز ، صاغه بعض المؤرخين والكتاب المتأخرين ، لهذه الحضارة ، وأهم مقوماتها ومظاهرها .

يقول سيد أمير على ... طراً تغيير هام على الشعب العربي خلال الثلاثين سنة التي عاشت فيها الجمهورية (عصر الراشدين) إذ لم تكن حياة العرب الاجتماعية عندئذ قد استقرت نظمها . ولكنهم منذ ذلك الحين شرعوا يكونون لهم ذوقاً خاصاً ، ساعدهم فيما بعد على ترقية تلك الحياة .. فشيدت المباني الجميلة ، وازدانت بها المدن الكبرى كما أصبحت الحياة محفوفة بالترف والفخامة ، وأطلق على العجم والترك والروم ، الذين اعتنقوا الإسلام ، اسم الموالي عقب انتسابهم إلى الأسر العربية ... ولما كانت قواعد الإسلام ومبادئه تميل إلى الديمقراطية ، ذات الصبغة الاشتراكية فقد أصبح الناس جميعاً ، غنيهم وفقيرهم ، متساوين أمام الله ، وأصبح الحكام والولاة حماة للشعوب من الاستبداد والظلم... أما الإيرادات فلم تكن تنفق لمنفعة الأمراء والحكام أو لإثرائهم ، وإنما كانت تستخدم لخير المسلمين جميعاً ، كما كانت الزكاة تجبي من الأغنياء وتنفق في وجوهها المشروعة .

وفي صدر الإسلام لم يكن يخشى على بيت المال من الفصب والنهب ، إذ كان يوزع على الجنود والفقراء كما كانت الغنائم توزع بالسوية على الصغير والكبير والحر والعبد ، والذكر والأنثى.. لعدم وفرة الأموال في تلك الفترة.. وعدم كفايتها لغير الضرورة . ولذلك لم تمسك السجلات في عهدي الرسول (ص) وأبي بكر لعدم الحاجة إليها .

ولما كان عهد عمر ، وكثرت الإيرادات ، وتعددت مصادر النعم ، رأى استبدال هذا التقسيم برواتب معينة ، فخصت الرواتب من الإيرادات العامة ، لكل فرد من المسلمين الذين لم يقتصر ذلك عليهم وحدهم ، بل كان لأهل النعمة منه نصيب كبير ... كذلك لم تقرر رواتب ملكية أو مصروفات استثنائية .. ولم يفكر النبي (ص) ولا خليفته عمر ، في تقسيم الأراضي ، إذ كان ذلك يؤدي إلى إفقار الأسر ، ومن أجل ذلك منع تقسيم أراضي المدينة كما أن الأراضي الأميرية في البلاد المفتوحة ، لم توزع على الجنود . بل بقيت ملكاً للدولة على أن تقسم إيراداتها بعد سداد المصروف على مستحقيها .

ويقول الدكتور هيكل : « إن القواعد الجديدة التي جاء بها الإسلام لتنظيم السلوك والمعاملات . كانت مقدمة لتنظيم سياسي ، لا مفر من استقراره . وفي مقدمة القواعد التي تأثر بها النظام السياسي للإسلام ، الإيمان بالله ، وبأنه وحده له العبادة ، فقد أدى هذا الإيمان إلى تقرير مبادئ المساواة والأخاء والحرية فالؤمنون جميعاً سواسية أمام الله . تجري عليهم جميعاً سنته بالقسط ، ولا فضل لعربي على عجمي ، وهم لذلك إنما يجزون بأعمالهم والناس أحرار في كل شيء . أحراراً في العقيدة نفسها ، فلا إكراه في الدين ، ولا إيمان إلا بعد اقتناع بالحجة والموعظة الحسنة .

ولئن لم يضع الإسلام للحكم نظاماً مفصلاً ، فقد وضع مبادئ أساسية للحضارة الإنسانية من شأنها أن تتطور على الرمن . . . والأساس الإسلامي للحضارة روعي يدعو إلى حسن إدراك الإنسان لصلته بالوجود ومكانه منه ، وفي البلوغ بهذا الإدراك حد الإيمان ، وعلى هذا الأساس الروحي يجب أن ينظم الإنسان سلوكه في الحياة ، على مبادئ الأخوة والمحبة والبر والتقوى ، وعلى أساس هذه المبادئ كذلك ، يجب أن ينظم الحياة الاقتصادية للجماعة الإنسانية .

كيف نستخلص من هذه المبادئ التي وضعها الإسلام ، أساساً للحضارة . مما يمكن أن يكون نظاماً للحكم ، صالحاً لتحقيق أغراضها . . نستخلص هذا النظام من تاريخ الاسلام نفسه . لقد دعا الاسلام إلى وحدة العقيدة على أساس بسيط كل البساطة ، يتقبله العقل الانساني في مختلف الأمم والأزمان . . ففكرة التوحيد من البساطة والوضوح بحيث يدعو إليها كل عقل وكل جنان .

هذا هو المبدأ الأول ، للحضارة الاسلامية . . والمبدأ الثاني ، هو ثبات سنة الكون ، وقد وردت آيات كثيرة تنص على أنه لن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً . . وقد انتهى العلم في عصرنا إلى تقرير هذا المبدأ في أ ر الأحياء وغير الأحياء . . إننا لو استطعنا أن نبليغ من طريق العلم معرفة شئون الأحياء بالدقة التي تعرف بها مواقيت كسوف الشمس وخسوف القمر ، لأتيح لنا أن نقرر على أساس علمي ثابت مصير الانسانية بعد قرون وقرون .

وحدانية الله ، وثبات سنته في الكون ، يقتضيان المساواة بين الناس . . وهذه المساواة هي المبدأ الثالث من مبادئ الحضارة الاسلامية ، وعلى أساسها أقام العرب مجتمعاتهم ، وصلاتهم بغيرهم من الأمم . . هذه المبادئ وما يتصل بها من قواعد الخلق تعتبر في نظر الإسلام ، واجبات وثيقة الاتصال بالايان بالله ، وبراها فروضا لا يصح للانسان أن ينزل عنها أو يتهاون فيها . . هي حقوق إزاء أمثاله ، وواجبات عليه إزاء بارئه جل شأنه . . هو خالقه ليستمتع بها ، واستمتاعه الصحيح بها ، عبادة لله ، فإذا هو نزل عنها أو قصر فيها ، كان مسئولاً أمام الله في هذه الدنيا ، وكان مسئولاً أمامه في الآخرة .

والاسلام يقر التملك ، والأسرة ، والميراث ويقررها . ويرى بعضهم لذلك أنه يتفق في اتجاهه الاقتصادي مع المذهب الفردي . وهذا خطأ . فالإسلام حين يقرر التملك والأسرة والميراث ، يجعل في مال ذي المال ، حقاً معلوماً للسائل .

والمحروم ، ويجعل فرداً على الجماعة أن تكفل للفرد حياته . . . وهذه الكفالة تبدأ من يوم يولد ، وتظل إلى يوم يموت ، وهي لا تقف في حدود القوت لمن لا يجد القوت ، بل هي تتناول حاجات الفرد الانسانية على اختلاف صورها . . . فمنذ عهد النبي (ص) كان تعلم الناس وتفقهم في دينهم بعض واجبات الجماعة للفرد . وأمر الصحة كأمر التعليم .

ونظرية الواجب أساسية في النظام الإسلامي ، وهي مستمدة من مسئولية الإنسان أمام الله . . . والجماعة الإنسانية مسئولة أمام الله كمسئولية الفرد سواء بسواء . هذا وبعد أن يسهب الدكتور هيكل في شرح الواجب يقول : وتقرير نظرية الواجب على هذا النحو ، يجعل ما نسميه في التفكير الحديث حقوقاً . بعض هذا الواجب علينا أفراداً وجماعات ، ولهذا لا تملك النزول عنه . فالحرية العقلية واجب والدفاع عن حرية الغير واجب ، ورسول الله يقول : من رأى منكم منكراً فليغيره . وحب الخير واجب ، وفعله واجب ، وتضامنه مع الجماعة واجب .

وتحت عنوان « أسس الاشتراكية الإسلامية » يقول - رحمه الله عليه - : الاشتراكية الإسلامية تناقض الشيوعية ، وتخالفها إذ تعتبر الملك والأسرة والميراث نظماً أساسية في الحياة الاجتماعية لكنها ترى الغنى الفاحش مصدر طغيان يخشى خطره ، لذلك عملت على الحيلولة دون قيام الملكية الكبيرة على أساس غير المجهود الذاتي ، فحرم القرآن الربا ، وجعل الميراث وسيلة فعالة لتفتيت الملكية ، ثم فرض للفقراء حقوقاً على الأغنياء ، وجعل هذا كله من فرائض الإيمان ، فكفل بذلك للاشتراكية الإسلامية القوة والبقاء .

ويستطرد بعد ذلك فيقول : على هذا الأساس ، كانت الزكاة ركناً من أركان الاسلام ، وكانت الصدقة فريضة من فرائض الإيمان ، والزكاة لها قواعدها والوالى ينظمها حسب مقتضيات الوقت كما تنظم الحكومات الضرائب ، ويقتضيها

الناس بقوة الشرع وسلطانه ، فإذا نكل الناس عن أدائها أكرهوا عليه ، وامتناع العرب عن أداء الزكاة هو الذى أدى إلى حروب الردة فى عهد أبى بكر . أما الصدقة ، ففريضة تعبدية أوجبها الإسلام على كل قادر عليها لخير من هو فى حاجة إليها ، وجعل جزاءها عند الله كجزاء الإيمان ، وذلك قوله تعالى « أنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين .. وقوله جل شأنه .. إنما الصدقات للفقراء والمساكين » إلى أن يقول سبحانه « فريضة من الله والله عليم حكيم » والأحاديث الواردة فى الصدقة متفقة مع ما جاء فى كتاب الله تعالى ، وقوية غالبة للقوة .

تحديد الثروة :

إن نزعة الإسلام إلى تحديد الثروة ، ورغبته عن الثروات الضخمة ، واضح فى القرآن كل الوضوح . من ذلك قوله تعالى « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ومنه قوله تعالى : والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم » وهذه كلها ميول اشتراكية واضحة . على أن أشد ميول الإسلام الاشتراكية ، اتفاقاً مع ما تنادى به بعض المذاهب الاشتراكية ، المعتدلة فى عصرنا الحديث ، جعله العمل الأساس الأول لتوزيع الثروة ، واعتباره رأس المال ، وسيلة للعمل ، وليس عنصراً قائماً بذاته تترقب لصاحبه ثمرات كالتي تترتب للعامل ، أو لمالك الأرض وغير الأرض من أدوات الإنتاج .. هذا الاعتبار هو السبب الجوهرى ، لتحريم الربا ... إذ معناه اشتراك رجل لا يعمل فى ثمرة عمل يقوم به غيره .

ومن الملاحظ على رأى المرحوم الدكتور هيكل ، أنه يجعل الزكاة التى من أركان الإسلام شيئاً آخر غير الصدقة ، ويقرر أن آية التوبة « إنما الصدقات — الآية » وكل آية أو حديث فيه كلمة صدقة لا تدل على الزكاة ، لأن هذه منظمة بقواعد خاصة ، ولها وضعية خاصة بين أركان الدين . أما الصدقة بهذا

الاسم ، فإنها فريضة على كل من يملك ما يزيد على كفايته ، فإن لم يؤد هذه الفريضة كان آثماً ويسأل أمام الله ، ولكنه فيما يبدو لا يقاتل على أدائها، وإنما يطلب منه بالحكمة والوعظة الحسنة .

وإننا نرى أن هذا الاجتهاد الواعى ، والفهم الراشد ، فيه حل الكثير من مشكلاتنا الاقتصادية والاجتماعية . لو علمه الناس وآمنوا به .

ومع ذلك ، فإن من الخير أن يبحث هذا الموضوع فى أناة وتبصر ، لأن المشهور لدى الناس جميعاً أن الصدقة ليست مفروضة، ولا حتى سنة مؤكدة وإنما هى من نافلة التطوع فمن تصدق فيها وله أجره ، ومن لم يتصدق فلا إثم عليه .

أما الدكتور هيكل فإنه يرى أن الصدقة - غير الزكاة - فريضة ، ويستدل بآية التوبة « فريضة من الله » مع أن بعض الفقهاء والمفسرين ، يحمل الصدقات فى تلك الآية على ركن الزكاة ويجعل مصارفها ما ورد فى تلك الآية ، ويستدل كذلك بأحاديث مسندة إلى بعض الصحابة بل إلى رسول الله نفسه ، تفيد أن الصدقة والزكاة قد يتفقان وقد يختلفان . بل لعلنا نظن أن شأنهما فى ذلك شأن كلمتى الايمان والاسلام ، أعنى أنهما إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا . . . والمسألة - إذن - فى حاجة إلى دراسة مركزة حتى يستبين هذا الأمر الخطير .

وسنعود لبسط مفهوم الاشتراكية الاسلامية، التى أشار إليها السيدان /أمير على ، وهيكل كما سوف تفصل أسلوب الراشدين فى تطبيقها ، وبيان المراحل التى حدث التطبيق فيها، ثم مقارنة أسلوب العرب المسلمين، بأساليب الآخرين .. وذلك بعد الانتهاء من عرض النظم السياسية والادارية اثر إثبات آراء مؤرخى الحضارة ، استكمالاً لما بدأناه .

ويقول أرنست رينان: إن القرآن هو أساس الإسلام، وقد احتفظ بكيونته القديمة

بدون أن يعثر به أدنى تبديل أو تحريف ، وعندما تستمع إلى آياته وما فيها من فصاحة وسحر تأخذك رجفة الوله والوجد ، وبعد أن تتعمق في دراسة روح التشريع المنطوية عليه بعض آيات الكتاب لا يسمعك إلى أن تجل هذا الكتاب الإلهي وتقده . وقد برهنت البحوث العامة والتاريخية التي قمت بها ، على أنه لاصحة مطلقا ، لما اتهم به النبي ﷺ من كذب وافتراء ، مصدرها بعض التباين في الاعراف والتقاليد القومية ، والتي أراد بعض أدعياء العلم مثل فولتير وغيره ، أن يستغلوها لتعصبهم ومرض نفوسهم ، كقولهم أن محمداً كان يريد السيطرة والسيادة ؟؟ .

لقد أثبتت الوثائق التاريخية وشهادات كبار علماء التاريخ ، عكس هذه الاتهامات الوفة إذ كان النبي محمداً ﷺ بريئاً من روح الكبر وكان متواضعاً صادقاً أميناً . لا يحمل الحقد لأحد وكانت طباعه نبيلة ، وقلبه طاهراً ، رقيق الشعور .

ويستطرد أرنست رينان فيقول : لم ينصف المؤرخون الأوروبيون ، الإسلام بآتهامه بقسوة الجهاد والفتوح ، مع أن هذا الجهاد كان ضرورياً لنشر العدالة الاجتماعية التي تزدان بها تعاليم الإسلام المشرقة ؛ ونضرب مثلاً لذلك لعلمائنا للمؤرخين الذين اتهموا الإسلام بالتعصب ، وحب القتال ، وحجب المرأة ، فتقول : —

تري . كيف ولماذا قلب نصارى سوريا ، ظهر الجحش ، لأباطرة الرومان المسيحيين والتجثوا إلى حمى أبي عبيدة بن الجراح ، القائد المسلم ، وانضموا إليه في قتال الرومان لطردهم من الديار السورية . ذلك لأنهم تذوقوا العدالة التي جاء بها الإسلام ، وفضلوها على الظلم الذي كانوا يعانونه من المسيحيين الرومانيين .

إن الإسلام خال من الخرافات والأساطير ، فالجهود العلى ، والمنطقى بارزان في معظم التقاليد الإسلامية ، فإذا درست المذاهب الأربعة (الحنفية والمالكية ،

والشافعية والحنبلية) لا تجد غير دساتير أخلاقية متينة ، وقواعد تعبدية منسجمة ، تستهدف تحرير الحق من شوائب الباطل . وما البروتستانتية التي نشر المصلحون المجددون (لوثر وأتباعه) لواءها سوى صورة لتقاليد البساطة الإسلامية ، سواء في طقوس العبادة ، أو في استئصال عادات الاغريق الوثنية .

وإذن فلا يحق لأوروبا أن تلجأ إلى طبع الأديان غير المسيحية بطابع حضارتها وأن توسعها طعناً وتزييفاً . إن محمداً العظيم ، جاء بشريعة انبثقت عنها مدنية عالمية لا ينبغي إلى جانبها ، إتهام أتباعها المتأخرين بالجمود ، لأن فترات الازدهار والاحطاط مرت على جميع أمم الأرض بما فيها أوروبا المتعجرفة ، وما يدرينا ، فقد يعود العقل الاسلامي الخلاق ، الموهوب ، إلى إبداع مدنية أرقى من زميلتها التي اندثرت ، بل ما يدرينا ما عساه يكون بعد قليل للمدنية الأوروبية الراهنة ، التي هي وليدة التمدن الاسلامي القديم .

ويقول المرحوم الشيخ محمد عبده ، تعليقا على كلمة الفيلسوف الفرنسي رنان تالله لو انبريت أنا بنفسى للدفاع عن الاسلام ونبيه لما استطعت أن أجيده ، كما أجاده هذا العبقرى الفرنسي .

ونجتزئ بما أسلفناه من آراء المفكرين في وضعية الحضارة الاسلامية ، لنحدثكم — في إيجاز مناسب — عن تلك الحضارة ، ونبدؤه بالخلافة ونظام الحكم :

الخلافة كنظام سياسى :

إذا اعتبرنا كلمة « خلافة » عنوانا لنظام الحكم الاسلامي ، فيجب أن يكون هذا النظام متركزا على الشورى ، ويارادة حرة من جميع المسلمين . كما يجب أن يكون من مجرؤ على ترشيح نفسه لتلك الرئاسة العامة على العالم الاسلامي

فوق مستوى الشهوات والشبهات ، والانفعالات إلى آخر ماشرطه الباحثون الإسلاميون .

أما إذا نظرنا إلى هذه الكلمة « خلافة » نظرة فاحصة ولو أنها تخالف الأخطاء المشهورة والمسطورة في جمهرة الكتب التاريخية ، فإننا لا بد لنا من استبعادها كنظام ، مع الإبقاء عليها كلقب جديد لا ينبغي أن يسعد بالتمتع به إلا شخص واحد فقط بعد محمد رسول الله ﷺ ، وهو الصديق أبو بكر خليفة النبي ﷺ ، وذلك ما ارتضيناه ، ونراه .

وعلى أى حال ، فإن رئاسة الدولة الإسلامية ، الذى يقال له « خلافة » — فى نظر البعض — يعتبر نظاما جمهوريا بالمصطلح الحديث ، كما يعتبر كذلك نظاما سياسيا ديمقراطيا نظيفاً ، وأقصد بقولى « نظيفاً أو سليماً » أنه خال من كل شوائب الضغط والاغراء ، وصادر عن إدارة حرة من ضباط الجماهير اعنى عن الشورى. وهى وضع الأمور على بساط البحث والمناقشة، ثم الانتهاء الى ما يرضاه الأمة ، وجماهيرها ويستوى فى ذلك ، أن تجتمع كل الأمة ، أو ممثلوها فى حرية واختيار — فالهم هو أن تتحقق الشورى ، وينعدم الاستبداد ، والاستغلال بشتى صوره ، حتى يكون الحكم ديمقراطياً أعنى صادراً عن رأى الجماهير .

على أن الملاحظ فى « الديمقراطية » التى قبستها الأمم عن الفلسفة الاغريقية ثم تداولت استعمالها الدول الحديثة أنها قاصرة على النواحي السياسية ، ولم تستعمل حتى الآن ، كتقويم للأمور الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية إلا فى بعض الدول والمعصور .

الشورى جامعة :

أما كلمة الشورى ، فإنها كلمة جامعة لكل الشئون ، وذلك هو الذى تصرح به الآية الكريمة « وشاورهم فى الأمر — وأمرهم شورى بينهم » فالشورى

عامة ، تستعمل في السياسة والاقتصاد ، والمجتمع ، وليست مقصورة على النظم السياسية لأن الأمر موضوع التشاور لا يختص بالأمر السياسية وإنما يتناول كل أمر

على أن تؤكد الاسلام لواحدية الله ، وجعل الايمان بها جواز الدخول فيه . هو أساس نظريته العلمية ، وهو كذلك أساس روحه الديمقراطية ، فكلمة العقل تتطلب من كل الكائنات العاقلة ، نفس السلوك في نفس الظروف ، وبقدر ما يكون الناس عقليين ، يكونون سواسية عند الله ، انه لا فرق بين انسان وآخر من حيث الانسانية ، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى . وهذا أكد الإسلام معنى المساواة النظرية والعملية . وهذا في ذاته نصر باهر سبق به الاسلام ما حرت عليه معظم الأديان الأخرى ^(١) .

ومن الوجهة النظرية نجد أن كل دين يعترف بأن الله رب الناس ، وأن الناس أخوة ، غير أنه من الناحية العملية ، ظل هذا المبدأ ماداً من مواد العقيدة . لا يكاد ينسحب على المعاملات اليومية في الحياء ، فإن الصراع على أساس اللون والتمييز على أساس المولد والمركز والثروة ، قد أضعف من مبدأ الأخوة وكاد يطمس معالمه .

ولكن الإسلام باعتراف أعدائه ، حطم التمييز العنصري والقبلي بين المسلمين فلا فضل فيه لشريف قرشي على عبد حبشي ، لافي الصلوات وحدها ، بل في المعاملات الاجتماعية اليومية . لقد قال الفيلسوف برناردشو عبارة فيها كثير من الحق . قال « إن الحكم الصحيح للديمقراطية هو حرية الزواج » وقد يستطيع الفرد في أداء العبادات أن يتخذ موقف المساواة مع غيره ، كما يستطيع أن يظهر بمظهر المساواة في الحياة السياسية والاقتصادية وحتى المشاركة في الطعام ولكن كل هذا قد يكون مجرد عرض ظاهري في مناسبات خاصة أما حرية الزواج فهي الحكم الذي لا يخطئ .

(١) انظر همايون كبير في كتابه « العلم والديمقراطية والاسلام »

الدعوة إلى التجريب سبب آخر من أسباب إصرار الإسلام على المساواة بين الناس أمام الله ، وفي المجتمع ، ذلك لأن تعلق أنظار الناس بجنة عرضها السموات والأرض ، يمكن الإنسان من أن يحتمل أو يفضى عما قد يواجهه في حياته من هوان . ونسكن إذا كانت الحياة الراهنة هنا ذات أهمية عظمى ، فإن من الضروري أن يدرك الفرد قيمته في هذا الكون ، وهذا أيضاً ما يفسر خلو الاسلام من طبقة كهنوتية .

وفي معظم الأنظمة الدينية والاجتماعية القديمة ، كان رجال الدين يعملون كوكلاء عن الله ، وكل الكوكلاء في الحياة العلمانية ، كانت لهم سلطة تربو كثيراً على قيمة الخدمات التي يؤدونها .

لقد كانوا سدنة العلم ، وهم وحدهم العليمون بالطقوس السرية الضرورية للاسترضاء القوى الخفية التي تتحكم في مقاديرنا . . كان لرجال الدين سلطة ولم تكن عليهم مسئولية . وإذا كانت السلطة تفسد صاحبها ، فإن السلطة بغير المسئولية ، تكون أكثر إفساداً وإضراراً ، فسلطة رجال الدين ، قد جعلتهم حكومة أثرياء ، طابعها الرجعية والطفانيان . والاسلام باستغنائه عن طبقة رجال الدين ، كطبقة لها نفوذها وسلطانها ، قد رفع من شأن الفرد وقيمه ، وحرره من صورة تعد من أبشع صور العبودية الفكرية .

وهذه الدعوة إلى الديمقراطية ، قد وجدت تعبيراً حياً عنها في عدة نظم جديدة استحدثها الاسلام ، وكان أول هذه النظم وأبرزها ، هو الاعتراف للمرأة بالشخصية القانونية ، فجعل لها الحق في التصرف والتملك .

وإذا كانت الشرائع السابقة ، قد منحت المرأة مركزاً أدنياً وروحياً رقيقاً فإن الوضع الاقتصادي — وهو أساس الوضع الاجتماعي كله . لم تستمتع به المرأة

إلا في ظل الاسلام ؛ وبذلك صحت الوضعية القانونية للمرأة في المجتمع البشرى .

وكذلك كان الاسلام ، إذ وجه ضربته إلى طغيان الامتيازات التي استأثر بها الرجل ، عوناً للديمقراطية في إحراز نصر جديد في مجال المساواة بين الجنسين .

أسلوب الاسلام في تأكيد التضامن الاجتماعي :

لقد أوضح الاسلام ، أن أخطر شيء على التضامن الاجتماعي هو تركيز الثروات في أيدي قليلة ، قد ينجم عنه إثارة السخط والقلق في المجتمع ، بسبب سوء التوزيع الذي يترتب عليه عادة تقسيم الأمة إلى طبقات ، وإن لم يتدارك هذا الخطر في الوقت المناسب فإنه سوف يتحول إلى تمييز متوارث بين فئات المجتمع .

وثمة طريقتان يمكن بهما منع هذا التحول . إحداهما إلغاء الملكية الفردية إلغاء تاماً ، ونزع ما في حوزة الناس من أملاك ، وهذه هي الطريقة التي سلكتها الشيوعية نظرياً وتطبيقياً .

أما الطريقة الثانية ، فهي الإبقاء على الملكية الفردية ؛ مع وضع قيود على تكديس الثروة ، والتأكد من أنها لا تتركز في أيدي بذاتها بل يتداولها المجتمع باستمرار ، وقد اختار الاسلام الطريقة الثانية وشرع من القوانين ما يقضي على الاحتكار ، ويفرض التداول وكان من أهم هذه التشريعات ، نظام الميراث فهو يحدد بطريقة لا تخطيء من تفاقم الدخل غير المكتسب ، وبالتالي يؤدي إلى الإبقاء على مرونة النظام الاجتماعي عن طريق التداول المستمر لثروة الأسرة .

كذلك فقد كانت الزكاة من أهم أركان الاسلام ، وهي كذلك من أنجع السبل في تحصيل بقاء التداول في الأموال والمقومات ، وفي فرض الاشتراك الاقتصادية في كل

رؤوس الأموال التي تنطبق عليها ضوابطها . لأن الشعور بأن المجتمع صاحب حق في الثروة التي في يد كل فرد فيه ؛ يدعم التكافل الاجتماعي ، وبالتالي يحد من شرة التكالب على حيازة الترواث حتى من طرفها المشروعة .

على أن فكرة إسهام الأغنياء في أعمال البر والخدمات الاجتماعية فكرة قديمة . والجديد في الزكاة أنها اجبارية ، ومحدودة المقدار بنسب معتدلة جداً إذا قورنت بالضرائب التي تفرضها الدول المعاصرة .

وإذا نظرنا إلى هذا النظام ، ونظرنا في الوقت نفسه إلى قانون المواريث ، وكانت نظرتنا إليهما من حيث الروح . لا من زاوية النص الحرفي فحسب ، وجدنا أنهما يحولان دون تركيز الثروة في دوائر الأسرة ويحرران الممتلكات من اعتبارات المولد والمصالح الخاصة .

لقد أومأنا فيما سبق — إلى حرية الزواج التي دعا إليها الاسلام كل المؤمنين وهي محك الديمقراطية — كما قال برنارد شو — وضمن لتطبيقها في المجتمع الإسلامي . وكذلك كانت فكرة الاسلام في الزكاة والميراث إسهاما لتحقيق نفس الهدف ونفس الغاية

على أننا لا نستطيع أن نتجاهل مسألة إلغاء الأسماء القبلية والعائلية وإقامة الأخوة الانسانية بدلها ، تحقيقا لمعنى المساواة داخل المجتمع . ان الظلم في توزيع الثروة يميل دائما إلى أن يأخذ شكل طبقات مختلفة ولكن هذا الاتجاه يضعف ، بل قد يقضى عليه ، إذا نحن أزلنا المظاهر التي تؤدي إلى استمرار وجود الفوارق ، فاسم الأسرة شعار لكبرياتها ولا يكاد انسان ينطق — عادة — باسم الأسرة حتى يتحدد وضع الفرد في المجتمع . لا على أساس خصائصه الشخصية الذاتية ، ولكن على أساس المركز الذي حددته له صدقة الانتساب إلى أسرة بذاتها ، تتميز بوضع

خاص في النظام الاجتماعي . فإلغاء الأسماء القبلية والعائلية ، والألقاب المصطنعة في العصور الحديثة وملحقاتها ، يقضى على مثل تلك الشعارات ، ويزيد من الاهتمام بذاتية الفرد .

إن حل مشكلة التفاوت الاجتماعي والاقتصادي ، ينبغي أن يكون بروح العلم وروح الدين معا ، وبهذا يمكن تقرير الديمقراطية في المجتمع البشرى .

ولعل من البديهيات أن الإسلام قد بدأ دعوته على أساس العلم « إقرأ باسم ربك » ثم أضاف ذلك بتقرير الديمقراطية في أول مقومات شريعته « لا إله إلا الله » . وأخيراً فصل المهاج السلوكى الذى ينبغي أن يأخذه الفرد وتطبقه الجماعة وبهذا قامت حضارة الاسلام على ركائز العلم والديمقراطية وجدية السلوك .

ولاية العهد :

الدولة الإسلامية في أصل نشأتها — لم تقم على الغلب والتملك ، ولم تكن وليدة الضغط أو ناشئة عن الإرهاب ، أو التسايط بالأنساب والأحساب ، والطبقات وإنما تأسست على دعائم الحرية ، والأخاء والمساواة ، ودراسة الكيفية التي لا بدت ظروف وجودها يؤكد هذه الحقيقة .

فقد هاجر النبي والمؤمنون إلى يثرب « المدينة » في أوائل القرن السابع الميلادى فراراً من اضطهاد أهل مكة والمشركين ، فاستقبلهم أهل المدينة بالحفاوة والابتهاج ، وتسابقوا في إكرامهم وإيثارهم على أنفسهم .

وكان الرسول (ص) قد أكد الروابط المشتركة بينهم في وحدة العقيدة برباط المؤاخاة الذى يجعل من كل اثنين من المهاجرين والأنصار أسرة واحدة وهذا تم اندماج المؤمنين من المهاجرين وأهل يثرب في جامعة إسلامية واحدة .

كذلك أصدر الرسول (ص) بياناً سياسياً ، أوضح فيه كفالة الحريات للامة ، وتطبيق مبدأ التكافؤ ، بين المواطنين في السلم والحرب ، وكان ذلك كلمة برغبة الجميع ورضاهم ، وكامل حريتهم ومشورتهم .

بل نلاحظ أكثر من هذا ، وهو انضمام بعض يهود المدينة إلى الدولة الجديدة برياسة محمد رسول الله ، واستعدادهم للمشاركة في الدفاع عنها بأموالهم ، ونصت الوثيقة التأسيسية على ذلك . وبهذا الشكل نشأت دولتنا الاسلامية .

وإذن فلم يحدث أى اعتراض من الجماعات التى تشكلت منها دولة الإسلام ، بل كان الحب والشورى ، والاخاء شعار الدولة ، والعروة بين المؤسسين لها ، والداعين إليها . . ومن الأمور الهامة ، التى ينبغى عدم إغفالها ما قرره الوثيقة التأسيسية من تأكيد المساواة والعدالة بين جميع المواطنين ، على اختلاف عقائدهم وتقاليدهم وفق مواد الوثيقة ، وبنودها .

على هذا الأساس ، وبهذا الشكل الديمقراطي السليم ، قامت الدولة الإسلامية وأخذت مكانها ومكانتها ، ووضعت التشريعات والقوانين المناسبة ، على مراحل متدرجة تجاوزت عشرة أعوام ، حتى استكملت جميع المقومات المعتمدة فى العرف السياسى وأصبحت دولة ذات سيادة حقيقية ومطلقة على جميع سكانها وأراضيها ومقدراتها كما أقامت علاقات سياسية واقتصادية وثقافية مع جيرانها ، تحكمها مبادئها التى قامت عليها من الحق والعدل ، والتعاون .

وإذ كان يحكم نظام هذه الدولة . التكافؤ التام بين أفرادها . فلم يكن فى دستورها امتيازات أو فروق ، أو سيادة لعنصرية أو إقليمية ، بل كانوا سواسية كأسنان المشط لافضل لأحد منهم على الآخر .

ومن ثم فقد كان أمرهم كله شورياً ، يختارون حكومتهم بكل حريتهم ، وجماهيرهم هى أهل الحل والعقد فى دولتهم ، ولا يملك فرد منهم أن يلزمهم بشئ ، لا يتفق مع إرادتهم .

هذه هي الأسس العامة التي قامت عليها دولة العرب المؤمنين في صدر الإسلام ، وقد سلك سبيلها الراشدون من خلفاء النبي (ص) وظلت الشورى معمولاً بها إلى عهد معاوية رأس الدولة الأموية ، إذ قام بعرض اسم ابنه يزيد على الأمصار ، ولكن زياداً واليه بالعراق نصحه بالترث والأناة ، فعدل معاوية أول الأمر ، ولكن بعد وفاة زياد ، وتحت تأثير بعض رجاله . عاود الدعوة لأخذ البيعة لابنه ؛ وتم له ما أراد ، وبذلك بدأت الشورى تتقلص من المجال السياسي في الدولة الإسلامية .

ولسنا بصدد مناقشة معاوية وبطائته في هذا التقليد الجديد الذي أدخلوه في تنصيب رئيس الدولة في الإسلام . فقد أوضحنا ذلك مفصلاً في موضعه .

ولاية العهد في العصر الأموي:

على أن هذا التقليد الذي حدث في عهد معاوية . سار على هديه جميع خلفاء الأمويين مع تعديل أملت الظروف ، ولكنه لتدعيم مركز ولاية العهد وتفاقم شررها . وليس تهذيبها أو الحد من ضرواتها

ولنأخذ مثلاً مروان بن الحكم . فقد اختار ولي عهده ، عبد الملك بن مروان ابنه ، وهذا بالمثل اختار الوليد وسليمان ابنه ، وهكذا نجد جميع أمراء الدولة الأموية يختارون أولياء عهودهم ، ما عدا نقرأ قليلاً منهم ، وهم معاوية الثاني ، ويزيد الثالث ، ومروان بن محمد آخر خلفاء الدولة ، وذلك لظروف خاصة ، اقتضت ذلك .

ومما يستحق الذكر ، أن هذه السابقة أصبحت سنة في عصر العباسيين وغيرهم من الدول التي حكمت في العالمين العربي والإسلامي ، وبذلك قام أصحاب الأقلام ، والانتهازيون بصياغة الأحكام ، وإقحام النصوص لإلباس هذه الأوضاع ثوب الشرعية مع أنها مصادرة للديمقراطية النظيفة التي أوصى بها محمد (ص) ، وطبقها خلفاء النبي الراشدون .

وكانت الأمور التي تناط بالخليفة هي :

- ١ — تعيين حكام الأقاليم .
- ٢ — محاسبتهم عن كل ما ينسب إليهم .
- ٣ — تعيين القضاة .
- ٤ — تعيين جباة الأموال .
- ٥ — تعيين قائد الجيش .
- ٦ — تعيين والي الصلاة .

وكان الخليفة أحياناً يفوض إلى الحكام الإداريين ، تنظيم أقاليمهم حسب ظروفها وبذلك كانوا يقومون بإسناد الوظائف إلى رجال يختارونهم ، ثم يخطر الخليفة بذلك الاختيار للموافقة عليه .

الدواوين:

يعتبر عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — أول حاكم سياسى فى الاسلام شرع فى إنشاء الديوان ، وسجل فيه جميع أصحاب الرواتب وقد ظل تنظيم عمر سائداً مع تعديلات وزيادات اقتضتها ظروف التطور ؛ وقد أشرنا إلى ذلك فى القسم الأول .

أما فى العهد الأموى ، فقد أصبحت الدواوين أربعة ، هي :

(١) ديوان الخراج ، ويشبه وزارة الخزانة فى الوقت الحاضر ، وإيراداته العامة هي :

- ١ — الخراج ، وهو عائد الأراضى الزراعية التى يعمل فيها الفلاحين ، بعد خصم نفقاتها وكفايتهم .

٢ — الزكاة، وهي نسبة معينة تجبى من الأموال والركاز والمقومات وما إليها :

٣ — الجزية، وهي ضريبة على الذميين المحاربين الذين دخلوا في حماية الدولة.

٤ — الفىء، وهو ما يؤخذ من الأعداء بدون قتال .

٥ — العشور وهي الضرائب التى تؤخذ من التجار الأجانب عن الدولة، نظير تصريف سلمهم فى ربوعها .

(ب) ديوان الخاتم، وهو الذى كان يختص بإصدار القرارات، والأوامر إلى الولاة، ويهيمن على شئون جميع الولايات، كما كان يختص بختم جميع الرسائل الصادرة إلى الولايات وغيرها وكان محل عناية الخلفاء الأمويين .

(ج) ديوان الجند . وكان مختصا بمصر جند الولايات، ورواتبهم، وجميع السجلات الخاصة بشئون الجيوش، ويشبه وزارة الحرب فى وقتنا الحاضر .

(د) ديوان المستغلات، ويختص بشئون الإيرادات المتفرقة التى تجبى إلى الخزانة العامة (بيت المال) من مختلف المرافق، مثل ضرائب الأسواق، والمباني وما إليها .

وكانت الخدمة العسكرية إجبارية على جميع العرب، وكان الجندى وهو فى ميدان القتال يتقاضى راتبا أكثر من راتبه إبان السلم . وسنعرض فى الحديث عن الإدارة بتفصيل واف .

توحيد العملة :

ظلت العملة الذهبية والفضية ومفرداتها، على حالها، بدون تغيير طوال عصرى النبى (ص) وأبى بكر .. وفى عهد عمر ضرب الدراهم على نقش الكسروية . وشكلها بأعيانها وأضاف إليها بعض كلمات مثل « لا إله إلا الله » والحمد لله، إلا أن الوزنبقى على حاله .

وفي عهد عثمان ، ضربت دراهم ، وكتب عليها « الله أكبر » ، واستمر الوضع النقدي كما هو في عهد علي . أما في عهد معاوية الأول ، فيقال انه أنقص العملة في الوزن ، ولكن الشكل ظل كما هو في الأقاليم الإسلامية ، كما يقال إن معاوية أيضا ضرب دنانير جديدة وعليها صورة تمثال متقلد سيفاً . وفي عهد عبد الله بن الزبير (٦٤ — ٧٢ هـ) ضربت عملة بمكة عاصمة خلافته ، وكانت مستديرة الشكل ، كما كانت دراهم ، نقش على أحد وجهيها ، (محمد رسول الله) وعلى الوجه الآخر : أمر الله بالوفاء والعدل . . . وضرب مصعب بن الزبير ، دراهم بالعراق .

وفي عهد عبد الملك بن مروان بحث أمر الأوزان والنقود ، وسائر المكاييل ، وأنشأ داراً كبرى نسك النقود ، وتوحيد العملة المعدنية .

وفي سنة ٧٦ هـ قام بضرب عملة موحدة بعد أن كانت فارسية ورومية ومصرية وما إليها وقد جعل وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطاً إلا حبة بالشامي . وجعل وزن الدرهم خمسة عشر قيراطاً ، والقيراط أربع حبات ، وكل دانق قيراطاً ونصف قيراط .

كذلك ضرب الحجاج بالعراق ، امتثالاً لأمر عبد الملك ، وكان على نقشها صورة بارزة ولم يتمتع المسلمون ، وفي مقدمتهم أصحاب رسول الله (ص) عن التعامل بها ، وكذلك كبار التابعين ، حتى ان سعيد بن المسيب العالم الجليل ، كان يبيع بها ويشتري في مدينة رسول الله (ص) .

وقد أبنأنا في حديثنا عن عبد الملك طرفاً من ذلك كما أوضحنا الإصلاح الذي قام به في تعريب ديوان الرسائل والخاتم ، وديوان الخراج ، بعد أن كانت بلغات الأقاليم التي لا تتكلم العربية فليراجع في موضعه .

طراز البناء :

لم يقف المسلمون في فن العمارة عند الأشكال التي وجدوها لدى الفرس والرومان وغيرهم بعد الفتح ، بل أوجدوا طرازاً عربياً إسلامياً يناسب مبادئهم وتقاليدهم ، وقد أبدعوا في ذلك حتى تفوقوا على الأمم الأخرى ، ولكن في إطار تقاليدهم ومقدساتهم.. فتراهم مثلاً ، يشيدون القصور الفاخرة ، ويخرفونها بالأقواس والقباب والأعمدة ، والمداخل المنسقة .

الحياة العقلية :

لم تزدهر الحياة العقلية في الفلسفة والعلوم والفنون ، كما ازدهرت في عصر الدولة العباسية بسبب حركة الفتوح التي شغلت بها الدولة في كل عهودها حتى آخر القرن الأول الهجري ، حيث شغل أواخر عهد خلفائها بالمعارضين لسياساتهم من الموالى ودعاة الأسرة العباسية ، فلم يحدث استقرار عام في الدولة حتى توجه نشاطها إلى مجالات الفكر والاختراع . . .

وبالرغم من ذلك فقد قامت حركة علمية على نطاق محدود ، في الصر الأموى ، إذ أخذ بعض خلفائها يستدعى العلماء في الكيمياء والفلك والطب ، ونقلت بعض مؤلفات في هذه العلوم من اللسان اليونانى وغيره بأشراف مدرسة الاسكندرية .

أما في ميدان الفكر فقد كان لمدرسة جعفر الصادق ، أثر بارز في تلك النهضة التي ظهرت فيما بعد في الآراء الفقهية والاعتقادية ، إذ كان أبو حنيفة صاحب المذهب المشهور تلميذاً في مدرسة جعفر الصادق ، التي كان من أبرز أهدافها تقرير حرية الإرادة التي دعا الإسلام إلى تحريرها .

كذلك نشأت في العصر الأول فرق أهل السنة بزعامة الحسن البصري ،
وفرقه المعتزلة التي قادها واصل بن عطاء .

وإلى جانب هؤلاء ، كانت انتفاضات فلسفية أخرى قد تتفق أو تختلف
مع أهداف الحكم الأموي مثل المدارس الدمشقية التي أسسها معبد الجهنى ،
وغيلان الدمشقي ، وأبو يونس الاسوارى . أما جهنم بن صفوان فكان يقول
بالتقدر ، ويزعم أن الأمر أنف ، لا يعلم قبل حدوثه .

وبالجملة فإن العصر الأموي ، كسلفه عصر الراشدين ، لم تزدهر في جنباته
البحوث الفلسفية بسبب تعبئة جميع قوى الدولة في الحروب الخارجية ، ثم الفتنة
التي شغلت الناس في فترات متلاحقة في العصرين .

وقد أشرنا في حديثنا عن الراشدين ، إلى الفرق التي بدأت تأخذ وضعها في
ذلك العصر وهي أهل السنة أو جمهور الأمة ، ثم الشيعة ، ثم الخوارج الذين ظهروا
في عهد علي ، وكان في السقيفة حزب الأنصار .. ولكن تلك الفرق كلها منذ
مؤتمر السقيفة وبيعة أبي بكر إلى أن كانت حركة القدرية في أواخر العصر
الأموي ، لم يكن نشاطها البارز في غير « الخلافة » والحديث عن حرية الإرادة .
غير أنها — بدون شك — كانت نواة لتلك النهضة الفكرية التي نشطت في عصر
الدولة العباسية .

« ٢ »

أبنا فيما سبق أهم مقومات الحضارة الإسلامية ، وتحدث فيما يتلو عن التخطيط
الاجتماعي الذي رسمه الاسلام في المجتمع البشري بادئين بأولى لبناته وهي الأسرة التي
تتألف من الزوجين : الرجل والمرأة ..

وإذ كان الرجل هو الوجه البارز ، في السلم والحرب ، والقيادة والتوجيه ،
مما أوحى إلى غالبية الشعوب في شتى الأزمان والأجيال ، أن يجعله كل شيء حتى
في الاستبداد بالأموال والمناصب ، وسائر مقومات الحياة الاجتماعية ، والسياسية ،

والاقتصادية ، وتجعل المرأة — وهى النصف الآخر للأشرة — لا تملك حتى من أمر نفسها شيئاً ، وبهذا تعطل عن الحركة والعمل والايجابية ، ما يربو على نصف المجتمع ، بل لقد جرى على كثيرات من النساء ، أفسى ألوان العنت والاجرام مما أدى بهن إلى الانزلاق فى أتون الشطط والانحراف ، والسلبية ، فقد انحدرت القيمة الإنسانية ، بله الاجتماعية حتى للمرأة الفاضلة . إن هذه الوضعية الخسيسة التى فرضها الفرس والروم ، وغيرها على المرأة ، تجعل الانسان يتسائل فى إصرار . . . وما هو موقف الإسلام ، الذى تقولون وتؤكدون أنه دين الحضارة والمدنية من المرأة ، وهل وضع من التشريعات والحصانات ما يصون كرامتها وعزتها . . .

إننا نشهد مناظر كثيرة فى المجتمع الاسلامى المعاصر ، وبعض هذه الأوضاع لا تقنع طالب البحث أو الراغب فى الحق . فهل قوّم الإسلام المرأة ، تقويماً يتسق مع آدميتها وأخوتها للرجل . . أم هو قد أقرحجب المرأة ، وحبسها وعدم التصريح بخروجها من سجون الأحياء إلا مرتين اثنتين فى عمرها الطويل المديد . مرة يوم زفافها ، والثانية والآخرة يوم وفاتها . . لقد كانت هذه التقاليد هى المعروفة المتبعة لدى أباطرة الفرس وقيصرة الروم ، بل لقد وصلت إلى فرنسا الثورة فى عصر نابليون بونابرت ، كما يقول الأستاذ العقاد فى كتابه (عبقرية محمد) صلى الله عليه وسلم .

ولقد تمكن الإسلام بحضارته الايجابية الراشدة ، أن يجعل الجمهورية ، والديموقراطية ، والاشتراكية ، أسلوباً فى الحكم والسياسة والاقتصاد ، فهل استطاع كذلك أن يمكن لمبدأ المساواة الذى يجعل من المرأة انساناً حراً كريماً ليس مسترقاً لرجل ما ، وليس عبداً إلا لله الذى بيده وحده الخلق والأمر .

المرأة فى المجتمع الإسلامى :

ما من شك فى أن شريعة محمد ﷺ قد أنصفت المرأة ، ولعل النظرة العابرة

فى تعاليم الاسلام ، وآدابه ، تؤكده حرية المرأة كإنسان ، كما تؤكده تكافؤها كعضو متعاون فى أكثر من مرفق من شئون المجتمع الهامة ، ولا مبرر لإطلاقا لسلبها تلك الحرية التى أكدتها لها الأوضاع الطبيعية والانسانية والدينية .

ولذلك فقد رفع الاسلام من شأن المرأة عما كانت عليه لدى جميع الأمم ، التى كانت إبان نزول القرآن ، فقررها لها الحق ، فى ممارسة جميع حقوقها المشروعة — شخصية واجتماعية — كالزواج والطلاق ، والتربية والتعليم وسائر الحقوق . وإذا كان من المحذور على المرأة ، أن تنهون فى مقدسات شرفها وعفتها وكرامتها ، فإن ذلك وأشباهه ، محذور على الرجل كذلك « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ... وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن .. »

وهذا غاية العدل فى وزن الطاقات البشرية ، وإيضاح تكافؤها وتعاونها ، بل إنه لحسم واضح صريح فى أقيمتها المطلقة ، ووقوفها على خط الخلق والأمر ، فى مساواة لا ريب فيها وبدون ما طبقية أو تمايز ، بينها وبين الرجل ، فكلاهما مكلف بالإيمان والعمل الصالح

التشريعات الاجتماعية :

على أن من ينظر فى التشريعات الاسلامية المنوطة بالمرأة سواء فى الموارث ، وتقييد حرية الانفصال الأسرى ، أو بسط نوع من الاشراف لعقلاء الرجال على عائلاتهم وزوجاتهم ، لا يرتاب فى سلامة هذه التشريعات .

النسبة إلى الآباء :

كذلك لا يخذش حرية المرأة ومساواتها — فى الخلق والأمر — للرجل ؛ ماجرى عليه التقليد القديم من نسبة المواليد إلى آبائهم . والاسلام إذ يقبر هذا (م ٢٣ — الراشدين)

لإيوجه ولا يحرم غيره . ولعل ذلك من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى دراسة وبحث . فقد قال الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام « وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر ... كما أخبر عن المسيح عيسى عليه السلام بأنه ابن مريم ، وكرر ذلك في أكثر من مناسبة في القرآن الكريم ... وليس في هذا النسب المختلف بين الأب والأم أى مساس بكرامة الرسولين الكريمين .

وهكذا يمكن أن ننظر إلى الأوضاع المشابهة ، من نافذة الحق والعدل ، وليس من زوايا الرواسب والتقاليد الموروثة .. ولنأخذ مثلاً ، مسائل الاستلحاق التى تحدث عنها جمهرة المؤرخين وفقهاء الشريعة ، واستغلها بعض غلاة التشيع لقوم ضد آخرين ... إن مثل هذه الأمور لا تعدوا أن تكون مسائل اجتهادية ، ليس فيها نصوص محكمة تلزم المجتمع بوضع معين حتى يكون تشريعاً مرسوماً تلزم به الأمة ، وتنفذه الدولة .

أما والأمر منوط بالتوجيهات التى رسمها القرآن ، فإنه يعتبر من المشروع غير المحظور أن ينسب الإنسان إلى أبيه أو أمه ، أو حتى إلى الدولة ، ولا ضرر ولا ضرار .

وإذا كان الحديث ، ذا شجون كما قيل ، فإن هذا يذكرنا بما أفاض فيه المؤرخون من قصة استلحاق زياد بأبي سفيان بن حرب ، حتى لقد صوروا منها مسرحية طريفة يعرضونها فى المناسبات والمساجلات . يقول الطبرى ، زعموا أن رجلاً من عبد القيس ، كان مع زياد لما وفد إلى معاوية فقال لزياد : إن لابن عامر عندي يداً ، فان أذنت لى أتيته ، قال : على أن تحدثنى بما يجرى بينك وبينه . قال نعم فأذن له ، فأتاه . فقال له ابن عامر : ان ابن سمية ، يقبح آثارى ، ويعترض لعمالى . لقد هممت أن آتى بقاسمة من قريش ، يحلفون بالله ، أن أباسفيان لم يرَ سُمَيَّةَ . فلما رجع سأله زياد ، فلم يخبره ، فألح عليه فأخبره .

مفأخبر زياد معاوية بذلك .. فقال معاوية لحاجبه : إذا جاء ابن عامر فاضرب وجهه .
 دابته عن أقصى الأبواب ، ففعل ذلك به ، فأتى ابن عامر يزيد فشكا إليه ذلك ،
 فركب معه حتى أدخله ، فلما نظر إليه معاوية ، قام فدخل . فقال يزيد لابن عامر :
 اجلس فكم عسى أن يقعد في البيت عن غير مجلس ، فلما أطلال خرج معاوية
 وهو يتمثل :

لنا سباق ، يولكم سباق قد علمت ذلكم الرفاق

ثم قعد فقال : يا ابن عامر : أنت القائل في زياد ماقلت . أما والله لقد علمت
 . العرب أنى كنت أعمرها في الجاهلية : وإن الاسلام لم يزدنى إلا عزا ، وإنى لم
 أتكثر بزياد من قلة . ولم أتعزز به من ذلة ، ولكن عرفت حقاله ، قد وضعته
 . موضعه . فقال يا أمير المؤمنين : نرجع إلى ما يحب زياد . قال اذن نرجع إلى ما تحب .
 فخرج ابن عامر إلى زياد ، فترضاه ، فلما قدم زياد الكوفة قال : قد جئتمكم في
 أمر ما طلبته إلا لكم ، قالوا ماتشاء . قال : تلحقون نسبي بمعاوية . قالوا :
 أما بشهادة الزور . فلا . فأتى البصرة فشهد له رجال .. يقول ابن الأثير « هذا
 ما ذكره أبو جعفر في استلحاق معاوية نسب زياد ، ولم يذكر حقيقة الحال ،
 وإنما ذكر حكاية جرت بعد استلحاقه .. فانه من الأمور المشهورة الكبيرة في
 الاسلام . لا ينبغي إهمالها . وكان ابتداء حاله أن سمى أم زياد كانت لدهقان
 فارسي ، ثم آلت إلى الطبيب الثقي الحارث بن كلده . فولدت عنده أبا بكرة
 واسمه نفيح ، فلم يقربه الحارث ، ثم ولدت له نافعا فلم يقربه به أيضاً . فلما نزل
 أبو بكرة إلى النبي (ص) حين حضر الطائف ، قال الحارث لنافع أنت ولدي
 . وكان الحارث قد زوج سمية من غلام له اسمه عبيد — وهو رومي — فولدت له
 زيادا وكان أبو سفيان بن حرب قد سار في الجاهلية إلى الطائف . فنزل على
 . أبي مریم السلولى النجار ، فأتاه بسمية فاتصل بها فعلقت زياد ، ثم وضعته ...

إلى آخر تلك القصص التي ساقها ابن الأثير وأتينا عليها في مؤلفنا «عصر الأمويين» ، مما يضمن عليها لونا من تلك الأساطير الهادفة

على أن هذه القصص وما شاكلها ، مما ترتب عليه جدل كثير بين غلاة التشيع وغيرهم ما كان ينبغي أن تثير هذه السفسة التي تفرق الوحدة ، وتسيء إلى قوم لقوا ربهم وذهبت دولتهم .

ولقد تحدث القرآن الكريم ، عن مثل عليا من رجالات العالم ، وقادة البشر ، كمثل من أشرنا إليهم آنفا ، وكالرجل الصالح الذي أمر موسى - عليه السلام - أن يلقاه ويتلقى عنه العلم ، ومبادئ السلوك ، ولم ينسب هذا العبد الصالح إلى أب أو أم ، ومع ذلك لم يكن هذا مما ينال من كرامته أو سمعته .

ولهذا نرى أن مسألة الاستحقاق التي شغلت حيزاً كبيراً من وقت الفقهاء والمؤرخين والباحثين ، حتى ان رجلا جليلا مثل ابن الأثير ، يقول : إنها من الأمور الكبيرة في الإسلام لا ينبغي إهمالها إن هذه المسألة ، ليست من فرائض الدين ولا من سننه ، وليس في الكف عن الحديث فيها ضرر أو ضرار ، بل العكس هو الصحيح ، الذي يعصم القلم واللسان من القذف - وترديد المفتريات والشعوبيات .

إن مسألة الاستحقاق ، لا وزن لها في المقررات الدينية أو الأوضاع الاجتماعية اللهم إلا من حيث التقاليد المرعية لبعض الشعوب ، التي تعز بأنسائها ، وتفاخر بأبائها . وإن كان هذا التقليد ، قد لا تسلكه جميع الأمم في القديم والحديث . فان بعض الشعوب تنتسب إلى جدها الأعلى ، أو شهرة أحد آبائها الأولين . وربما ينسب الأبناء إلى أمهاتهم لمعنى خاص ، مثل انتساب أحد أبناء علي بن أبي طالب إلى أمه ، وهو محمد بن علي الذي اشتهر في التاريخ بابن الحنفية ، ومثل جميع أفراد الأسرة التي حكمت مصر والمغرب العربي ردحا من الزمن وعرفت .

كذلك باسم « الدولة الفاطمية » وهكذا لا نجد أى نص يوجه إلى وضع خاص فى النسبة إلى الأب أو الأم ، وإنما ترك ذلك للمجتمع وأصحاب الشأن كيفونه حسب العرف والمصلحة ، أما توجيه الإسلام ، فإنه مسفر عن حقيقته فى مسلكه العلمى وتعبيراته السديدة ، إذ نسب بعض المصطفين الأخيار إلى أمهاتهم أحيانا ، وإلى آبائهم تارة ، ولم ينسبهم إلى أحد تارة أخرى ، ولم يعقب على شيء من ذلك باستحسان أو استهجان بل جعل كل ذلك عدلا وقواما ، والله الحجة البالغة .

أما الأمر فى الآية الكريمة « ادعواهم لآبائهم » هو أقسط عند الله « فإنه خاص بالأدعياء الذين لهم آباء معروفون مشهورون ، ثم هو كذلك مقصود به ابطال تقليد جاهلى فى حظر الزواج بمطلقات الأدعياء ممن ليسوا بأبناء .

على أن هذه النظرة الفسيحة المتسقة مع المبادئ والأوضاع الإسلامية ، تذلل أمامنا السبيل فى تقبل ما هو واقع بالفعل فى بعض الشعوب من إلحاق أنساب مجهولى النسب بالدولة ، حرصا على شخصيات قد يكون لها قدر وإيجابية ، فى دفع ركب التطور والنهوض ، والتقدم الحضارى .

وهكذا ينبغى أن ننظر إلى الناس . مجرد بن عن آبائهم وأمهاتهم ، أو أصلهم وحسبهم ، لأن المسئولية المشروعة لا تعدو شخص الإنسان وحده ، ولا ينبغى أن نزنه بالوراثة أو النسب . أو غير ذلك مما يعتبره المتخلفون من رواسب المجتمع ولكن « كل نفس بما كسبت » ولا تزر وازرة وزر أخرى » ذلك هو منطق الإسلام ومنطق الحضارة الإنسانية .

ومن ثم نرى أن كل ما دار حول نسب زياد واستلحاقه بأبى سفيان ، وشغل به حيز ضخم من الوثائق ، والأسفار ، ليس إلا أقاصيص ابتدعوها ، لإشاعة الفتنة فى المجتمع الإسلامى .

ومن ذلك يتضح أن المرأة مساوية للرجل في انتساب أولادها إليها، وأن هذا أبرز ضروب المساواة في المجتمع البشرى .

لكن تبقى بعد ذلك أمور هامة ، ينبغي بحثها وإبداء الرأي فيها ، وذلك . مثل جعل الطلاق في يد الرجل ، كما يرى جمهرة الفقهاء وبهذا يستطيع الرجل أن يرفض الطلاق . رغم كراهية الزوجة في معاشرته ، فيذرهما كالمعلقة ، فلا يمكنها الزواج من غيره ، أو التحلل من أغلال معاشرته ، وهذا — إن صح — كان أدنى إلى فرض التساط والطبقية ، مما لا يتفق مع شريعة المساواة التي تؤكدها مبادئ الإسلام ومقرراته .

ولكن هل جعل الطلاق في يد الزوج ، يشير كل تلك الإنفعالات ، والتخربات ، ويجعل بعض السطحين يحاول اتهام الإسلام . دين العدل والكفاية . والمساواة ، بأنه يفرض سيطرة طبقة من الذكور على الأنثى .

إن الدراسات القشرية لمقررات الشريعة ، قد تثير هذه الشبهات ، ولكننا حين نعمق نظرنا إلى روح الإسلام ، سوف نفتنع بكل ما أوصى بسلوك سبيله ، ولتوضيح ذلك نقول : إن مصدر هذه الشبهة هو اللمسة العابرة لظاهر الآية القرآنية « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم » . ثم اختلاف الفقهاء من أئمة الاجتهاد في تفسير القوام في الآية الكريمة « الرجال قوامون على النساء » . إذ رأى البعض أنها رياضة الإنسان القوي الذي ينفق ويوجه ، بحكم وضعه الشخصي ، والاجتماعي وهذا شيء جُبِل عليه الرجل بالفطرة ، ورشح لممارسته بالفريضة ، فليس من العدل أن ينزع منه هذا السلطان الذي يعتبر صمام الأمن ، وعصب النظام ، وذلك لا يقدح في شريعة المساواة في الحقوق والواجبات . بين الذكور والآنثى ، لأن من المساواة أن توزع الأعمال والسلطات على أهل الذكر بها ، والمتخصص في دقائقها بحكم الخلق والتكوين ، أو التربية والتعليم .

على أن وضع مقاليد الأسرة في يد الرجل الرشيد ، سوف يحصنها من الهزات والانتكاسات ، ويسبغ عليها ألواناً من الجلال والنقاء ، والايجابية . وهذا بدوره يضع حداً فاصلاً بين الوحدة الرشيدة لكيان الأسرة ، وبين الانهيار المترىص الذي غالباً مايكون بسبب توتر الأعصاب . وقصر النظر الذي يدب إلى عروتها . وهذا الرأي يفرض وضع السلطة العليا للأسرة في يد الزوج ، ويستند إلى ما روى من ذلك الأثر الكريم « الطلاق لمن أخذ بالساق » إلى جانب ظاهر الآية السابقة .

بيد أن ثمة جمهرة أخرى من العلماء والباحثين ، فسروا القوامة بالتوجيه والارشاد ، بحيث يكون الرجل في محيط الأسرة بمثابة المعلم القدوة ، الذي يعتبر قوله وعمله وسلوكه ، أسوة حسنة لزوجته وأولاده ، وسائر توابعه . ولكن لاسلطان للرجل على إرغام المرأة ، حتى تظل في عصمته أئىً ومتى شاء ، فقدأباح لها أن يكون أمرها بيدها ، وطلاقها وعصمتها طوع إرادتها ، وسواء عليها أن يرضى الزوج أو يفضب طالما هي كارهة في معاشرته . فذلك هو الأنسب لمبادئ الحنيفية السمحة ، وشريعة العدل والتكافؤ . . . وكل ما هنالك أن الأسرة من حقها أن تقدم الزوج لحكم الأسرة وتصريف أمورها بالمعروف ، وحرية إرادة ورضا كامل من الزوجة وجميع أفراد الأسرة تطبيقاً لشريعة الشورى ، وإعمالاً للنص المحكم « وشاورهم في الأمر — وأمرهم شورى بينهم » . وإذا كانت الشورى واجبة في اختيار الوحدات السياسية ، فإن ذلك أوجب في اللبنة الأولى في بناء الأمة التي تختار منها هذه الوحدات ، وليشب أفراد الأسرة المسامة ديمقراطيين منذ الطفولة ، فيكون ذلك أدعى إلى الأمن والاطمئنان .

تعقيب : على أن الناظر في هذين الرأيين ، لا يكاد يشك في استهداف كل منهما لمعانى كريمة ، وسديدة في الحق والعدل والصالح العام . لأن من

يوصون بجعل السلطة في يد الزوج ، إنما يذهبون إلى ذلك حفاظا على كيان الأسرة وعزتها وأمنها ووحدتها ، وللإبقاء على الروابط الوثيقة بينها ، ومن ثم كان — في رأيهم -- من الحتم أن يوضع صمام الأمن والأمان ، والمحافظة على الهدوء والنظام . في يد واعية رشيدة ، حتى لا ينجم عن تصرفات قد تكون منحرفة ، وغالبا ماتحدث من الزوجة بسبب إرهابها بشئون البيت والأسرة ، والعمل ، فتسبب إلى العلاقات الطيبة بين أعضاء العائلة . ولهذا تقضى الحكمة بوضع السلطة في يد الرجل حتى يحكم إشرافه وقيادته الحازمة لأهله وولده ، ومن يعول . وليس في ذلك استبداد أو طبقية بشكل ما .

أما هدف الرأي الثانى ، فهو تقرير الحرية الإنسانية للمرأة ، بغض النظر عن اعتبارها عضوا في محيط أسرة ، تفرض عليها بعض الواجبات ، لا الأغلال أو القيود ، ومن ذلك أن تعطى القوس لباريها ، وأن تقبل راضية النفس ، بوضع السيف في موضع السيف ، والندى في موضع الندى .

وإذ كان الرجل أقدر وأقوى ، على تحمل الأعباء الثقالة ، والكفاح والقتال ، فإن من الحكمة ومصلحة المرأة أن لا تؤخره لتتصدر ، أو تنحيه لتتقدم ، فذلك ليس من منطق العدل أو صالح البشر ، وهذا كله لا يقدح في تقرير مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات ، بل يدعمه ويقويه .

ومهما يكن من شيء ، فإن الخلاف في تلك المسألة ، لا يعدو بحث ما ينبغي لتحسين الأسرة من الهزات والانتكاسات وليس للعاس بمبدأ المساواة . الذى قرره الشريعة ، وأكده النبي الكريم صلى الله عليه وسلم .

مسألة الميراث : أما في هذه المسألة الحيوية . التى فرضت للرجل أكثر من .

تصيب المرأة فإن الأوضاع الاجتماعية التى درج البشر على ممارستها منذ فجر التاريخ حتى اليوم . بل سوف يظل — فيما يبدو — يحرص عليها أشد الحرص ، وهى قيام الذكران بالإتفاق وتحمل العبء الأكبر من التبعيات ، والالتزامات ، يفرض .

— فى منطق العدل — أن يعوض هؤلاء عما يصيبهم فى سبيل تلك المسئوليات بينما لانكاد نشهد الغالبية الساحقة من النساء حتى اليوم يقمن بإكرام ضيف أو سد حاجة محتاج ، بل إنهن مازلن يقبضن من الرجال المهور والهدايا والاتحافات المتلاحقة ولا يدفن لهم شيئا .

وإلى جانب هذا فإن النساء مازلن — رغم مرور آلاف السنين والأجيال — يعشن فى خيال الزينة وزخرف الحلى والجواهر الكريمة ، وقليل منهن من توجه طاقها شطر العلم والفن ، والعمل الإيجابى المنتج .

لقد فرضت الشرائع كلها منذ أبى البشر إلى محمد خاتم النبیین (ص) على المرأة أن تؤمن وتعمل . ولم يقل دين ولا رسول ، ان المرأة خلقت لمجرد المتعة ، أو لتكون تمثالا من تماثيل الزينة فى بيوت الرجال ... فكم من النساء استجبن لهذه الدعوات الكريمة على مر العصور .

تحديد الأنصبة :

ومما يتخزص به بعض المفتونين باتهام الإسلام ، مسألة أنصبة الميراث وتحديداتها بالشكل الذى حددت به ... والواقع أن الجدل فى هذا غير مستساغ فى منطق العقل لأن التركات منذ أقدم العصور ، مثار الخصومات ، والمطامع ، بل لقد ثبت بالتجربة أنها العوامل المباشرة فى حدوث الجرائم الخطيرة فى المجتمع ، فانها إذا ما تركت بدون تحديد ، وجعل إلى الأمم ، أمر توزيعها . فسوف يؤدى ذلك إلى صراع ، وسفك دماء ، وتمزيق وحدة الأمة . ولذلك فقد كان من حكمة شريعة الإسلام أن تفرض التحديد بشكل قاطع لاشبهة فيه . وأن تلبسه ثوب القداسة ، وتنص عليه فى كتاب الله ، فلا يفكر نبي أو رسول فضلا عن حاكم أو امبراطور ، فى تعديله أو تشديده ، أو تعطيل فريضته .

وهذا من مفاخر الإسلام ، لامن أمثاله ، فإن الوقاية من حدوث الجريمة

خير من علاجها بعد وقوعها ، وفي التحديد بشكل ديني مقدس ، ما يحصن المجتمع وبقية شر الجرائم الناجمة عن تقسيم التركات .

على أن الذين في قلوبهم مرض ، ممن يثيرون هذه السفسة ، لم يقيموا الدنيا ويقعدوها ضد المزدكية والماركية ، وغيرها ممن نادوا بإلغاء الميراث من أساسه ، بحجة أن تقسيم التركات ينجم عنه جرائم تفسد الروابط البشرية ، مع أن في هذا اعترافا ضمنيا ، بما برره المشترون المسلمون ، فريضة المواريث
ولتأكيد « الإسلامية » لبدأ المساواة ، وردت في القرآن الكريم نصوص كثيرة ، تكشف للناس — كل الناس في كل العصور — أن الرجل والمرأة متكافئان في الحقوق والواجبات ، والجزاءات ، والعقوبات . . يقول الله تعالى في القرآن الكريم « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر ، نصيبا مفروضا » ويقول القرآن العزيز « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض » ويقول الكتاب « والمؤمنون والمؤمنات . بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله . أولئك سيرحمهم الله . إن الله عزيز حكيم » وفي هذه الآية من سورة التوبة (رقم ٧١) جمع الله سبحانه كل مقومات الحياة الإنسانية والدينية والاجتماعية ، وقرن فيها المرأة بالرجل ، حتى في الاضطلاع بعبد الأمر والنهي المطلقين من كل قيد أو تحفظ ، سوى بين الرجل والمرأة . وليس بعد هذا من تطبيق لبدأ المساواة كقوم للحضارة الإسلامية الإنسانية .

وفي التسوية حتى في العقوبة أورد الكتاب هذه النصوص « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم . نسوا الله فنسيهم ، إن المنافقين هم الفاسقون » ويقول جل شأنه

« بسم الله الرحمن الرحيم . سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون (١) الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين (٢) الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة . والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك . وحرم ذلك على المؤمنين (٣) من سورة النور المدنية) . وفي مسألة الطلاق شرع الله قبل وقوعه التحكيم مع كفالة حقوق الرجل والمرأة على السواء وبدون مساس بكيان المرأة وحرمتها الشخصية والاجتماعية . يقول الله في ذلك « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا (آية ٣٥ من سورة النساء المدنية) وإذن فالمساواة الكريمة بين الرجل والمرأة ، هي شريعة محمد ﷺ المحكمة . وأما ما قد يرى من سلوك وتصرفات في بعض الشعوب والمجتمعات الإسلامية فالمسئولية فيها ليست على مبادئ الإسلام ، وإنما تقع على الذين ابتدعوها ومارسوها إن لم تتفق مع مقوماته الحضارية التي أوصى بها الكتاب ونفذها المعصوم منذ أربعة عشر قرنا . . . ونختتم هذه الإشارة العابرة في هذه المسألة بكلمة ساقها بعض المؤرخين المعاصرين قال ، يظن بعض علماء الاجتماع ، أن الإسلام هضم المرأة حقها حيث أعطاهما النصف في الميراث ، وجعل الرجل يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع ، وجعل الطلاق بيد الرجل ومنح الرجل سلطة ليست للمرأة ، فخرمها الكثير من الحقوق التي يتمتع بها الرجل ... ويكفي في الرد عليهم أن نحيلهم إلى ما كتبه المنصفون . . »

لقد كانت المرأة في العصور القديمة والوسطى عند اليونان والرومان وغيرهم كالمحتاج أو كالحيوان ، فلم يكن لها حق التملك عن أى طريق ولم يكن لها ميراث أصلا ، كما لم يكن لها حظ من التعليم والتهديب ... أما الإسلام فقد أوجب تعلم العلم على كل مسلم ومسلمة ، كما أوجب على أمهات المؤمنين أن يعلمن أبناءهم وبناتهم « واذكرن .

ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة . كما سوى الاسلام بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق . . . فقد أباح لها أن تزوج نفسها وأن توكل غيرها دون اعتراض عليها ، كما أباح أن يكون أمرها بيدها ، فتطلق نفسها متى شاءت ، وقد أباح الاسلام الطلاق على أنه ضرورة ، وقد قال فيه الرسول ﷺ أبغض الحلال إلى الله الطلاق . . .

أما ان الرجل يصح له الزوج بأكثر من واحدة فيرجع إلى : (١) إن هذا خير طريق للاكثار من النسل الذي يعمل الاسلام على تشجيعه في بعض الظروف حتى تنتشر في الأرض أنواع جديدة من الأجيال المؤمنة الواعية . التي تعبد الله وتحكم بالعدل . وبذلك يمكن عزل الرواسب الرجعية والصهيونية ، إن لم يتمكن المؤمنون من القضاء عليها وإزالة أثرها ، فالتعدد — إلى جانب الضرورات الأخرى — مقصود به ، جعل الغالبية الساحقة من المؤمنين

٢ — وثمة ظروف أخرى مثل العقم والحروب والحالات المشابهة التي يكثر فيها النساء ويقل الرجال .. هذه الطوارئ احتاط الاسلام لها ، فشرع التعدد بشروطه المذكورة في فقه الشريعة ، وبهذا تكون مشروعية التعدد نعمة على البشرية ، تحصن المجتمع من الوصيفات والجوارى ومن سائر ألوان الفحشاء والمنكر . . . ونجتزى بهذا لنرجع الحديث إلى أسلوب التوزيع لمصادر بيت المال « الخزانة العامة » ثم دراسة موجزة ، لتشريع الزكاة والصدقة ، وهل هما مترادفان أم متباينان ، وبهذا تكمل الصورة العامة في الاقتصاد الاسلامي .

(٣)

أسلوب التوزيع للدخل القومي

(١) مصادر الانتاج والدخل :

أبنا فيما سبق جملة المصادر التي تجبي منها الأموال لتمويل الخزانة العامة ، « بيت المال » وقد ظلت هذه الموارد بدون تغيير كبير ، في عصرى الراشدين . والأمويين ، كما استمر أسلوب التوزيع الذى آتخذه عمر بن الخطاب ، سائدا فى الدولة الاسلامية لبضعة قرون ، باستثناء بعض الانحرافات الجانبية فى السياسة الاقتصادية ، منذ اندلعت الفتنة الكبرى فى أواخر العصر الرشيد .

على أن الملاحظ فى المصادر التى أسلفناها ، وهى الزكاة والصدقات والغنائم والنفى والجزية والخراج والعشور وما إليها ، أن بعضها ثابت فى كل الظروف ، وعلى مر الزمن مثل الزكاة والصدقات ، والخراج . . إلى حد ما . وبعضها موقوت بأسباب ومبررات طارئة مثل الجزية والنفى والغنائم والجمارك (العشور) . وسائر الموارد التى تمول ديوان المستغلات الذى أنشأه الأمويون فيما بعد .

ومن ثم فإن الزكاة — وهى مصدر الدخل الثابت — قد جعلت ركنا من أهم أركان الاسلام وشددت الشريعة فى وجوب جبايتها من كل مال أو مقوم يبلغ النصاب المحدد فى محله من فقه الشريعة . وشرع قتال من يمتنعون عن أدائها لخزانة الدولة « بيت المال » فقاتل عليها أبو بكر وجباها بالقوة ، بل أطلق على الممتنعين اسم « المرتدين » كما سبق .

والجدير بالملاحظة كذلك ، أن العشور منوطة بالتجارة الواردة من خارج الدولة وأنه لو توقفت لأمرنا ، فإن هذا المصدر ينقطع عن تمويل بيت المال ،

والأمر كذلك في الجزية ، والغنيمة والفيء . فإن إسلام من تجبى منهم يرفعها عنهم ، ثم لا يبقى من مصادر الدخل الذى يمد الخزانة العامة ، إلا الزكاة والصدقات والخراج .

على أن الخراج كذلك معرض للهزات ، إذ هو مرتبط بنسبة الإنتاج الزراعى فى القلة والكثرة ، ووضع الملكية العامة لأرض الخراج ، فى يد الدولة ، كما استقر عليه رأى ، والتطبيق فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه . لا يجعلنا نجزم بكفاية تلك المصادر الثابتة فى جميع الظروف والتطورات المتجددة ..

ولعل هذا هو السبب الحقيقى فى رفض عمر قسمة الأراضى الزراعية فى البلاد التى تم فتحها بين الجنود كغنائم ، وقد أبدى ملاحظة هامة فى هذه المسألة التى تشغل حيزاً ضخماً من اهتمام العالم اليوم . يقول المؤرخون ، وكان عمر لما فتح السواد والشام ، شاور الناس فى قسمة الأرض التى فتحها المسلمون فتكلم فيها قوم وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا ، فقال عمر : فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض قد اقتسمت وورثت عن الآباء ، وحيزت . ما هذا برأى فقال عبد الرحمن بن عوف ، فما رأى ، ما الأرض والعلاج إلا بما آفأ الله عليهم ، فقال عمر ما هو إلا ما تقول . ولست أرى ذلك ... فإذا قسمت أرض العراق بعلاجها (فلاحيتها) وأرض الشام بعلاجها ، فما يسد الثغور ، وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق فأكثروا على عمر ، وقالوا : تقف ! آفأ الله علينا بأسياقتنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء القوم ولأبناء أبناءهم ولم يحضروا ، فكان عمر لا يزيد على أن يقول : هذا رأى . قالوا فاستشار المهاجرين الأولين ، فاختلفوا ، فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ، ورأى عثمان وعلى وطلحة وابن عمر ، رأى عمر . فأرسل إلى عشرة من الأنصار ، خمسة من الأوس ، وخمسة من الخزرج من كبارهم

وأشرافهم فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله . ثم قال : إني لم أزعجكم إلا لأن تشركوا معي فيما حملت من أموركم ، فإني واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تفرقون بالحق .. خالفني من خالفني ، ووافقني من وافقني ، ولست أريد أن تتبعوا هذا أو ذاك . معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ، ما أريد به إلا الحق ، قالوا نسمع يا أمير المؤمنين قال : قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم . وإني أعوذ بالله أن أركب ظلما لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم ، لقد شقيت . ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه ، وأنا في توجيهه . وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم الخراج ، فتكون فينا للمسلمين ، المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم . أرايتم هذه الثغرة . لا بد لها من رجال يلزمونها . أرايتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ، لا بد لها من أن تشحن بالجيوش ، وإدراك العطاء عليهم . فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون . فقالوا جميعا الرأي رأيك ، فنعم ما قلت وما رأيت .. إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال ، وتجرى عليهم وما ينفقون به ، رجع أهل الكفر إلى مدنها ، فقال : قد بان لي الأمر ، فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ، ويضع على العلوج (الفلاحين) ما يهتملون .. فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف ، وقالوا : تبعثه إلى ذلك ، فإن له بصرا وعقلا وتجربة ، فأرسل عمر إليه فولاه مساحة الأرض (أرض السواد) فأدت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر ، بعام مائة ألف ألف درهم ، وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المتقال .

هذا وقد صنع عمر بأرض الشام ومصر وسائر الأراضي الزراعية في الدولة مما فتح لعهد ، ما صنعه في سواد العراق .. وظلت نسبة الخراج مترددة بين الزيادة

والنقص حسب الناتج من الأرض ، والمقدار الذى يفرض عليها بما يتلاءم مع إنتاجها . أما بقية الأراضى التى فى أيدى أهلها المسلمين ، فقد اختلفت وجهة النظر فيها ، فمن الفقهاء من يرى أنها منفعة ورقبتها للدولة ، ومنهم من يبيح تملكها رقبة ومنفعة ، ولعل الأصل فى هذا هو الأثر المشهور (الناس شركاء فى الماء والكلا والنار والملح) وما فيه حق ثابت بالنص للشركاء لا يملك لفرد بعينه ، بل له حق الانتفاع بالمعروف ، ولغيره كذلك ، والمسألة اجتهادية على كل حال . وأصل الاختلاف فى رأى فيها — فى ظنى — هو تفسير حقيقة الشركة ، وحدودها ، والناتج الإيجابية المترتبة على ذلك ، فمن نظر إلى أن الشركة ، تظل تلازم هذه الضروريات مدة بقائها ، وأنها ضرورية لكل كائن حتى فقد حظر بيع الأرض ، والتصرف فيها ، وأباح الانتفاع بها بالعدل .. وأما من نظر إلى أن هذه الشركة ، تزول بالقسمة أو وضع اليد عليها بطرق مشروعة فإنه أباح تملكها على أن لا ينبجم عن ذلك ضرر للآخرين أو للدولة أو للمجتمع .. فإن ترتب على التملك أى ضرر أو أضرار ، فإنه يحظر اتقاء للضرر وهذه المسألة مبسوطة فى كتب الفقه ، فلتراجع ثم .

مقارنة : والذى نغنى به فى هذه المسألة ، هو إبراز عدالة الإسلام ، وعمل الراشدين خلفاء النبي (ص) فى مسألة الأراضى الزراعية ، إذ سبق عمر جميع فلاسفة العالم ولا سيما فى العصر الحديث إلى هذا الأسلوب الذى يعتبر اليوم أهم الوسائل لتحقيق العدل والكفاية فى المذاهب الاشتراكية كلها علمية ونظرية ، معتدلة ومتطرفة . وهذا كمثل يحتذى ويقاس عليه كل مرفق عام يمد الجميع بمقومات حياتهم ومعاشهم . فرضى الله عن عمر وجزاه خيراً .

التأميم والتحديد إسلاميان :

تأميم الأراضى الزراعية بمعنى تملك رقبتها للدولة ، وتنظيم الانتفاع بها بالمزارعة أو التأجير أو أى ضريبة عادلة تفرضها الدولة ، هو الأسلوب الذى سلكه عمر فى

الشام والعراق ومصر وغيرها من البلاد الزراعية التي فتحها المسلمون كما سبق .
أما تحديد الملكية بمعنى وضع حد أعلى لما يملكه المواطن في الدولة من الأقطان
الزراعية، فهو كذلك من سلطة الدولة الشرعية في الاسلام، تفريعاً على الأصول الفقهية
التي وضعت في هذا الشأن، مثل وجوب سد الثرائع، وتقديم دفع الضرر على جلب
النفع، والمسألة على كل حال من المصالح المرسله، ويسرى عليها كذلك الأصل
المتفق عليه « لا ضرر ولا ضرار » ثم : الضرورات تبيح المحظورات « فمن اضطر
غير باغ ولا عاد ، فلا إثم عليه » .

وقد روى المؤرخون ، أنه لما فتحت الأندلس في العصر الإسلامي، صودرت
أمولاك الأشراف ورجال الدين ، ثم وزعت على عبيد الأرض والفلاحين وسائر
الطبقات التي كانت محرومة إبان الإقطاع الاجتماعي والديني والسياسي والذي فرض
امتيازات لا تحصى للسكينة والنبلاء والسادة والأشراف . يقول بعض المستشرقين
« لقد كان الفتح الإسلامي حسنة لأسبانيا إذ حقق ثورة اجتماعية ذات أهمية بالغة،
قضت على آلام رزح الأسبان تحتها عدة قرون. ولقد زالت امتيازات الكنيسة
والنبلاء . ووزعت الأراضي المصادرة بين عدد كبير من الأفراد الذين ظلموا ،
واستغلهم السادة ردحاً من الزمن ، وكان توزيع الملكية على العمال الزراعيين (أقنان
الأرض) مصدراً للسعادة ، وسبباً في ازدهار الزراعة في أسبانيا العربية . . . ولقد
حكم العرب وفق الطريقة الآتية : أنقصت الضرائب عما كانت عليه من قبل ،
ثم بعد أن صودرت أراضي الأغنياء وزعت بين الفلاحين ، وبذلك نمت
المحاصيل ، وزادت غلة الأرض . . . ويقول السيد مصطفى حسني : إن الدول
الإسلامية في أوائل قيامها ، كانت سياستها بالنسبة إلى تملك الأرض المفتوحة
تتخذ أحد طريقين :

١ — إما نقل الملكية إلى الدولة ، على أن يكون عمالها الزراعيون

أجراء عليها .

٢ — وإما تقسيمها إلى ملكيات صغيرة بين عمالها حتى يصبحوا جميعاً مالكين لها وتزول معالم الملكيات الكبيرة وآثارها المفجعة .

ولو استمر الإسلام في سيره الطبيعي ، ولم ينحرف ولاية السوء عن هدفه الإشتراكي العظيم . لظلت أراضي الشام ومصر والعراق ، كما كانت ملكاً للدولة ، يشتغل الناس فيها بخراج المقاسمة ، وبذلك تكون بلادنا أول بلاد في العالم ، طبقت مبدأ ملكية الدولة لرقبة الأراضي . . هذا المبدأ الذي نادى به كثير من العلماء الاجتماعيين في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وطبقته روسيا في الربع الأول من هذا القرن ...

وقد استمر الأمر إلى عهد عبد الملك بن مروان ، لا يجري في أراضي هذه البلاد بيع ولا شراء ، ثم أذن عبد الملك والوليد ، وسليمان في الشراء ، على أن يدفعوا ثمنها إلى بيت المال ، وأراد عمر بن عبد العزيز أن يرد الأمر إلى نصابه ، فينتزع الأراضي من أيدي أصحابها الجدد ، ولكنه وجد من الصعوبة ما لم يجد معه حيلة ، فقد تقسمت الأراضي في الموارث ومهور النساء والديون والمعاملات وغيرها ، فأقر ما كان قبل عهده ، ونهى عن شراء الأراضي وبيعها بعد ذلك ... وكذلك حاول أبو جعفر المنصور في العصر العباسي ، فلم يستطع ... يقول الأوزاعي : « أجمع رأي عمر وأصحاب رسول الله (ص) لما ظهر على الشام والعراق على إقرار أهل القرى على ما كان بأيديهم ، بعمرونها ويؤدون خراجها ويرون أنه لا يصح لأحد من المسلمين شراء هذه الأراضي طوعاً ولا كرها . لاتفاقهم على أنها لاتباع ولا تورث .. ومن هذا نعلم حكم أراضي مصر والشام والعراق في العهود الإسلامية الأولى (راجع كتاب اشتراكية الإسلام) .

ولنكمل الحديث عن موضوع الخراج ثبت لكم ما ذكره مؤلف تاريخ الإسلام السياسي بمصادره . يقول : « المال الوارد لبيت المال ، إما أن يكون ضريبة

على الأرض ، أو عن أشياء أخرى غير الأرض ... فضريبة الأرض تسمى عشرا
وخراجا . ويؤخذ العشر من غلة الأرض التي أسلم أهلها بدون قتال أو التي فتحت
عنوة فصارت غنيمة للمسلمين . ثم قسمها الخليفة على الفاتحين (تقدم أن عمر رفض
التقسيم وأبقى الأرض ملكا للدولة فليلاحظ ذلك) ... ويؤخذ الخراج عن الأرض
التي فتحها المسلمون عنوة إذا عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ، ووقفها على
المسلمين ... ويضاف إلى ذلك الزكاة وكان لبيت المال موارد أخرى ، كنصيب
من الفئء والغنائم والركاز وكجزية الرؤوس ، والعشر أو العشور ... ويقول المواردي :
« وأما الأرضون التي استولى عليها المسلمون فتقسم إلى ثلاثة أقسام : أحدها
ما ملكت عنوة وقهراً حتى فارقوها بقتل أو أسر أو جلاء ، فقد اختلف الفقهاء
في حكمها بعد استيلاء المسلمين عليها فذهب الشافعي إلى أنها تكون غنيمة كالأموال
فتقسم بين الفاتحين إلا أن يطيبوا نفساً بتركها ، فتوقف على مصالح المسلمين ...
وقال مالك : تصير وقفاً على المسلمين ولا يجوز قسمتها بين الفاتحين ...
وقال أبو حنيفة ، للامام فيها الخيار بين قسمتها بين الفاتحين ، فتكون أرضاً
عشرية ، أو يعيدها إلى أيدي المشركين بخراج يضربه عليها ، فتكون أرض
خراج ...

ومن ذلك يتضح أن سلفنا الصالح قد بحثوا أمر الكفاية الإنتاجية وعدالة
التوزيع . ومن أجل هذا كان حظر تملك الأراضي الزراعية للأفراد ، فكان
خراجها إلى جانب الموارد الأخرى محققاً للتوازن الاقتصادي .

(ب) أسلوب التوزيع :

أبنا فيما سبق مصادر الدخل القومي في الدولة الإسلامية ، وتحدث في هذه
الكلمة عن الكيفية التي كان يوزع بها على ذوي الحقوق من المواطنين ، وهل
تتحقق بذلك إبعاد المجتمع وإزالة الفوارق الشاسعة بين الطبقات ، ثم هل قضى

فيه على الحرمان والمذلة والمرض والفاقة ؟. إن الواقع التاريخي يقول بملء سجلاته وثائقه . . . نعم .

يقول المؤرخون : كان عمر إذا استعمل العمال ، خرج معهم يشيهم ، فيقول إني لم استعملكم على أمة محمد ﷺ على أشعارهم ، ولا على ابشارهم ، إنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة ، وتقضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل ، وإني لم أسلطكم على ابشارهم ولا على أشعارهم . . . جردوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن محمد ﷺ وأنا شريككم ، وكان يقص من عماله ، وإذا شكى إليه عامل له جمع بينه وبين من شكاه ، فإن صح عليه أمر يجب أخذه به ، أخذه به . وروى الطبري بسنده أن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — استشار المسلمين في تدوين الدواوين فقال له على بن أبي طالب : تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ، فلا تمسك منه شيئاً ، وقال عثمان بن عفان : أرى مالا كثيراً يسع الناس ، وإن لم يحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن يتقشر الأمر ، فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة : يا أمير المؤمنين . قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا فدون ديونا وجند جندا ، فأخذ بقوله ، فدعا عقيل بن أبي طالب ، ومخرمة بن نوفل ، وجبير بن مطعم وكانوا من أنسب قريش فقال : اكتبوا الناس على منازلهم فكتبوا فلما نظر فيه عمر قال : وددت والله أنه هكذا . ولكن ابدؤا بقراءة رسول الله ﷺ الأقرب فالأقرب ، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله . . . ويذكر الطبري كذلك أن عمر — رضى الله عنه — حين عرض عليه الكتاب قال : ابدؤوا بالأقرب فالأقرب من رسول الله ﷺ وضعوا عمر موضعه . فجاءت بنو عدي إلى عمر فقالوا : أنت خليفة رسول الله ﷺ فقال : أو خليفة أبي بكر وأبو بكر خليفة رسول الله ﷺ

قالوا . وذلك ، فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم فقال: بخ بخ . بنى عدى ، أردتم الأكل على ظهري وأن أذهب حسناتي لكم . لا والله . إن لي صاحبين سلكا طريقا ، فإن خالفتهما خولف بي . والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال ، وجئنا بغير عمل . فهم أولى بمحمد منا . . فلا ينظر رجل إلى قرابة ، وليعمل لما عند الله . فإن من قصر به عمله ، لم يسرع به نسبه .

وقد حدث الثقات أن عمر — رضى الله عنه — كان يقول :
” والله الذى لا إله إلا هو ما من أحد إلا له فى هذا المال حق ، أعطيه أو منعه .
وما أحد أحق به من أحد ، وما أنافيه إلا كأحدكم .

هذه نبذة قصيرة كشفنا بها عن حقيقة الرجل الذى جازف بعض الكتابين المعاصرين فأسند إليه ابتداع التفاوت المالى الذى كان نواة للتفاوت الطبقي وزعم أنه ندم فى أواخر عمره وفكر ، فى الرجوع عنه لولا معالجة المنية له . كما سمعت بعض ذوى المراكز الثقافية فى البلاد الإسلامية يتهم عمر أو يسكاد ، مما برهن لى على تقادم جهل الكثيرين بعدل الرجل وورعه^(١)

ونحن نرى أن عمر صنع ما ينبغى وأنه لم يكن يرى لأحد فضلا على أحد إلا بالتقوى ، ومظرها الجهاد فى سبيل المستضعفين فى الأرض ولهذا فقد زاد فى إعطيات الأحياء منهم مكافأة لهم واغراء لغيرهم لمنافستهم كما زاد فى إعطيات عائلات المجاهدين . وسنين ذلك بعد .

التوزيع فى عصر الراشدين :

سجل المؤرخون طريقتين فى توزيع الدخل القومى فى عصر الخلفاء الراشدين تشبهما فيما يلى :

١ — طريقة أبى بكر الخليفة الأول ، وتتلخص فى جعل الضرورة والحاجة ، هى الأساس فى منح الأعطيات ، والرواتب السنوية ، وسائر الأموال

(١) انظر العدالة الاجتماعية لسيد قطب .

والضروريات التي حدث فيها توزيع . وقد تم هذا كله في مساواة تامة بين جميع الأفراد ، ذكورا وإناثا ، وسابقين في العمل أو متأخرين فيه . وقال أبو بكر في تبرير اختياره لهذا الأسلوب :

هذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الاثمة .

وقد روى المؤرخون ، أن عمر وبعض الصحابة اعترضوا على أبي بكر في هذا ، وأبدوا رأيهم في التسوية بين السابقين في الإسلام والجهاد . وبين المتأخرين والخاملين ، فقال لهم أبو بكر : إنما أسلموا لله ووجب ثوابهم عليه يوفيههم ذلك في الآخرة وإنما هذه الدنيا بلاغ وعندما انفتح معدن (كنز) بنى سليم بالقرب من المدينة ، سار أبو بكر بنفسه حتى وقف على رأس الكنز ثم استخرجه . وسار في قسمته على رأيه في تقسيم ما يبقى من مال الزكاة وغيره . في بيت المال ، إذ سوى بين السابقين وغيرهم ، وبين الذكور والإناث والأحرار والعبيد ولم يميز أحداً على أحد . يقول كاتب معاصر ، هذه النزعة الجديدة إلى الاشتراكية لم تكن مألوفة لدى العرب ولذلك كانوا يعترضون على أبي بكر في مساواته هذه في التوزيع بين المسلمين وكان أبو بكر يحتج بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثل القصة الشهيرة التي سجلها المحدثون والمؤرخون من سؤال النبي صلى الله عليه وسلم لأشاعرة اليمين وما يسأكونه إذا أملقوا (أصابتهم ضائقة مالية) إذ أجابوا بأنهم يجمعون ما يملكه كل فرد من طعام ثم يخلطونه ثم يقسمونه بينهم بالسوية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« نعم القوم الأشاعرة هم مني وأنا منهم » . وغير ذلك من التوجيهات النبوية إلى جانب السنة العملية المتواترة .

٢ — أسلوب عمر بن الخطاب وقد جنح في أساس التوزيع إلى اعتبار العمل والإنتاج إلى جانب الحاجة والضرورة كما رأى أن يفرض لبعض الناس

مبالغ على سبيل التعويض وبذلك فاوت في توزيع الدخل بين المواطنين وثبت فيما يلي طرفاً مما ذكره المؤرخون .

يقول أبو يوسف في كتابه الموسوم بالخراج ، فرض عمر لكل رجل شهد بداراً خمسة آلاف درهم في العام وفرض لكل من كان له إسلام كإسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ومن شهد أحداً أربعة آلاف في كل عام وفرض لأبناء البدرين ألفين ، وفرض لكل رجل هاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم ولكل رجل من مسلمة الفتح ألفين ولغلمان أحداث من أبناء المهاجرين والأنصار كفرائض مسلمة الفتح وفرض للناس على منازلهم وقرعاتهم للقرآن (يعني على قدر ثقافتهم) وجهادهم (خدمتهم للدولة) ثم جعل من بقي من الناس باباً واحداً ففرض لمن جاء من المسلمين إلى المدينة وأقام بها خمسة وعشرين ديناراً وفرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق ألفين إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلثمائة ولم ينقص أحداً عن ثلثمائة وقال لئن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم . ألف لسفره وألف لسلاحه وألف لأهله وألف لفرسه وبغله . وقد روى أن عمر برر هذا التفاوت في الأنصبة التي وزع بها الدخل القومي على المواطنين بقوله : الرجل وبلاؤه في الإسلام (جهاده وخدمته) والرجل وقدمه في الإسلام والرجل وغناؤه في الإسلام والرجل وحاجته في الإسلام .

وهكذا نجد عمر يوزع الأعطيات على أساس مزدوج من الحاجة والعمل والتعويض وليس على أساس العمل والخدمات فقط كما ظن بعض المكاتبين في « العدالة الاجتماعية في الإسلام » .

لقد كان أبو بكر - في رأينا - موقفاً كل التوفيق إذ أنه وزع الأموال القليلة التي كانت تبقى في بيت المال بعد سد النفقات الضرورية على الأسلحة والجنود وسائر المرافق الأخرى للدولة على المواطنين بالسوية لعدم كفاية الدخل

القوى لأكثر من ضروريات الحياة لكل فرد . ويستوى فيها الذكر والأنثى والسابق واللاحق والحر والعبد فلا مبرر إطلاقاً للتفاوت في مثل تلك الظروف . أما في عهد عمر فقد فاضت الأموال وزادت عن قدر الحاجة والضرورة فكان من المصلحة أن يراعى في توزيع الدخل عدة إعتبارات أخرى مثل منح مكافآت اضافية لدوى الأعمال والإنتاج الرفيع كما كان من الواجب أن لا يحرم الذين أصيبوا بسبب أداء واجبات كانوا يؤدونها للدولة من بذل مبالغ فوق الضرورة كتعويض لهم ومع هذا فقد فرض عمر لجميع المواطنين ما يكفيهم في ذلك الزمن كحد أدنى لدخل الفرد المجزى بكل احتياجاته وهو ثلاثمائة درهم في العام .

وإذن ، فلم يحذف عمر بحق أحد في مقدار ما يكفي الفرد العادى بل رتب له ما يسد جميع مطالبه من مطعم وملبس ومسكن وسائر ما تستلزمه حياة الناس حينذاك وبذلك لا يكون ثمة ضرر من التفاوت في الاعطيات ولأن كل إنسان يناله من الدولة رعاية كاملة تجعله في بحبوحة ونعمة لا تجعله يفكر في مد بصره أو قلبه إلى مالدى الآخرين إذ كل لديه ما يغنيه .

ليس من الحق إذن إتهام عمر بأنه بذر التفاوت أو الطبقيه أو خالف رأى أبى بكر استهدافاً للتمايز^(١) وإنما المنطق يحتم أن نقرر أن اختلاف أسلوب التوزيع بسبب اختلاف الظروف وقلة الدخل وكثرته ، فحيث كانت الأموال لا تكفى لغير الحاجة كان التوزيع بالسوية وحين فاض المال تفاوت التوزيع مع تقديم المساواة في المقدار الذى يسد الحاجة إذ لا ينجم عن ذلك ضرر بالفرد أو بالدولة .

ولعل هذا سبق في عصرى أبى بكر وعمر يجعلنا نفقه مراحل التوزيع

(١) انظر كتاب العدالة الاجتماعية ، وفيها اتهام عمر وقده النخ .

التي سلكها الخلفاء الراشدون في صدر الإسلام كما نستطيع أن تؤكد سلامة هذه المراحل في تقرير اشتراكية الإسلام التي قبستها أمم وشعوب كثيرة منذ القرن السابع لميلاد المسيح إلى القرن العشرين لهذا الميلاد ثم أخذت عناوين وسمات شتى ولكنها لم تخرج في جوهرها عن اشتراكية أبي بكر وعمر وأسلوبهما في توزيع الدخل القومي ، الذي ساد كذلك في عهدي عثمان وعلي وسائر الحكومات الإسلامية .

وقد أسلفنا القول في رأى عمر في الأراضي الزراعية في مصر والشام والعراق وقد أجمع مع جمهرة الصحابة على أن تظل ملكا للدولة ولايجرى عليها بيع ولا رهن ولا إرث ولا شيء وأن ينتفع بها الفلاحون على خراج المقاسمة وذلك ما أطلق عليه في العصور الحديثة اسم « التأميم » وقد سبق به عمر جميع فلاسفة أوروبا وروسيا والصين .

وعلى ذلك فهل ما حدث في هذه الأراضي في العصور الأخيرة من تصرفات بالبيع والشراء والميراث ونحوها يعتبر صحيحا أم يقع باطلا يجب على الدولة أن تصدر من القوانين ما يرد الأمر إلى عهد عمر ... ؟

لقد أومأنا إلى ما قام به عمر بن عبد العزيز من إنشاء ديوان المظالم ومحاولته إرجاع الأمر إلى عصر عمر الأول وتأميم الأرض الزراعية بحيث تصبح ملكا للدولة وفي سبيل هذا نزع ملكية الأراضي التي يملكها الأمويون وأقاربهم . وأصدر أمرا بحظر التصرف بأي شكل في الأراضي الزراعية فمنع بيعها وتقسيمها وهبتها وما إلى ذلك ولكن المنية عاجلته فتوقف المشروع .

رأى برنارد شو :

ولعلنا نستطيع تقدير سلفنا الراشدين إذا استعرضنا آراء فلاسفة العالم في عصرنا الحاضر ... وننقل لكم رأى العلامة الفيلسوف « برنارد شو » في توزيع الدخل القومي ومقدار ما يسد حاجة الفرد العادي في المجتمع يقول : « إنه يوافق

على ما قرره ويلزم اعتبار الحد الأدنى لدخل المواطن في المجتمع الاشتراكي (الذي يتمتع بكفاية الإنتاج وعدالة التوزيع) المأمول بمبلغ أربعة آلاف جنيه في العام وأطلق عليه اسم الدخل الأساسي . وهو ما يكفي للشخص لكي يكون له بيت ريفي وشقة في المدينة ومكتبة وسيارة وبيانو واحدى وسائل الرياضة الخلوية ، ثم يقول : إننا إذا بلغنا هذا المستوى ثم تفاوت الناس بعد ذلك فوق هذا الحد الأدنى ما شاء لهم التفاوت فلن يحدث ضرر اجتماعي أوصحي من ذلك ولن يتهدد الجنس البشري خطر الانقراض أو خطر السلالات الرديئة .

الاشتراكية في رأى شو :

ويفسر برنارد شو الاشتراكية تفسيراً يشبه كل الشبه ما قام به أبو بكر وعمر مما يجعلنا نعجب ونتساءل عن سر هذا التوافق العجيب حتى في رقم الدخل الأساسي للفرد كما نبين بعد . يقول الفيلسوف شو : إن الاشتراكية هي رأى أو وجهة نظر في طريقة توزيع الدخل وهذا ليس ظاهرة طبيعية بل إنه مسألة تنظيم وهو عرضة للتغيير كأي تنظيم آخر وقد أصابه التغيير في خلال المدة التي تعيها ذاكرة الأحياء ولا يزال في تغيير مستمر من عام إلى عام .

أما رأى أبي بكر وعمر فقد أشرنا إليه وقد اختلف شكل التوزيع في عهديهما كنتيجة لاختلاف وجهة نظر كل منهما ، ولاختلاف مقدار الدخل في القلة والكثرة .

ولكن اللافت للنظر هو أن عمر قال منذ أربعة عشر قرناً « لن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم ، ألف لسفره وألف لسلاحه وألف لأهله وألف لفرسه وبغله » .

أما ويلز وشوفيقلان : إن الحد الأدنى لدخل الفرد في المجتمع الإشتراكي المأمول هو أربعة آلاف جنيه ليكون له بيت ريفي وشقة في المدينة ولتكون له مكتبة وسيارة ووسائل للرياضة والترفيه ...

عمر يرجو أن يصبح دخل الفرد أربعة آلاف درهم وشو يرجو أن يكون دخل الفرد أربعة آلاف جنيه مع ملاحظة أن درهم عمر أكثر قيمة من جنيهه شو لبعده الزمن . وعمر يذكر الاحتياجات الضرورية لإنسان القرن السابع (الأول الهجرى) فيشير إلى حاجة الشخص إلى السفر وتغيير الجو مما يقتضيه الكثير من النفقات ، وشو يحدد حاجة انسان القرن العشرين إلى شقة في المدينة ومنزل في الريف ... وعمر يشير إلى حاجة الإنسان إلى أدوات الحمل والركوب فيذكر الفرس والبغل وشو يشير إلى السيارة أداة الركوب في العصر الراهن وهكذا نجد توافقا بين حاجة رجال عمر إلى السلاح كحاجة أصحاب شو إلى المكتبات فما أعجب التقارب بل التوافق بين الرأيين ...

وإذن فما هو الجديد في أسلوب شو وآماله في تقرير العدل والكفاية في المجتمع بله أسلوب الفلاسفة التقدميين أو حتى الذين يقال عنهم أنهم متطرفون عما صنعه عمر ثم فكر في تطبيقه إذا كثر الدخل ومكنه من رفع المستوى لكل المواطنين .

إننى لا أرى جديدا في التطبيق الاشتراكي المأمول بين الماضي والحاضر فقد حدث في واقعنا التاريخي أكثر مما يفكر فيه بل ما قد يعلم به كثير من متطرفي دعاة الاشتراكية العلمية في القرن العشرين .

وإذن فالاشتراكية العربية يمكن تعريفها بأنها : أسلوب اجتهادى في طريقة توزيع الدخل القومى وتنظيم العمل والإنتاج وسائر المرافق العامة من أجل المواطنين وهنا غير محكوم بنصوص بل متروك للأمة تشكله حسب المصالح واحتياجات المواطنين في كل عصر ومصر .

أسلوب عثمان وعلى

لم يخالف عثمان بن عفان النظام الذى وضع فى عهد عمر بن الخطاب فى توزيع الدخل القومى ، وكذلك على بن أبى طالب . إذ كان هذا النظام بمشهد منهما وبرأيهما ، كما كان برأى الأمة كلها ولهذا لانكاد نرى جديداً فى أمر الديوان الذى دونه عمر ، سواء فى نظام الجباية أو أسلوب التوزيع .

أما الاتهامات التى وجهت إلى عثمان ، فقد أوضحناها ، وأبنا الدوافع إليها ومدى اسفافها فى فصل خاص إبان الحديث عن عهده .

كذلك لانكاد نعثر على أية مخالفة من على لأسلوب التوزيع الذى تم فى عصر الخليفة عمر . ولقد ظلت السياسة التى نهجها عمر هى السائدة فى جميع الشئون سواء الاقتصادى منها أم الاجتماعى بوجه عام . بل ان سائر الدول الإسلامية التى جاءت بعد الراشدين من أمويين وعباسيين ، لم تخالف فى جوهر النظام الذى وضعه المسلمون أيام عمر ، وان حدثت تطورات تمس الشكل والعرض المتغير .

ولعل هذا الديوان الذى انشأه عمر ، مستعينا بتجارب الأمم السابقة فى تنظيمه ، مثل الفرس والروم ، وغيرها هو الأساس الذى نظمت على مثاله دواوين الموظفين فى العصور الوسطى والعصر الحديث ، بل وإلى الوقت الراهن لأن جوهر تنظيم عمر فى منح الاعطيات والرواتب السنوية بنى على أساس العمل والانتاج ، والضرورة والتعويض ، مع احترام المؤهل العلمى والثقافى والفنى ، واعتبار الانخراط فى سلك الجندية مؤهلاً يفرض لصاحبه العطاء .

كذلك سن عمر لمن يؤدون خدمة عامة للدولة راتباً من بيت المال وأعلن أنه مسئول عن حاجة كل مواطن وأمنه وسلامته معها بعدت به الشقة عن عاصمة الدولة .

وإذن ، فهل من جديد فى ألوان التنظيمات التى ابتدعها عالم اليوم ؟ .

نعم . ثمة جديد عما كان فى عهد عمر بن الخطاب وسلفه وخلفه وهو انه لم يكن يوجد فى الأمة الإسلامية ودولتها المترامية من يشكو ظلما ، أو يتسول لحاجة ، أو يخون ويفدر لدنيا أو لدين ؟ لأن العدل شريعة الله ، كان هو نفسه شريعة عمر التى طبقها حرفيا فنعم الجميع بكل ما تتطلبه ضرورة الإنسان من حقوق أساسية . تناط بالسكن والملبس والمطعم والمشرّب ، والعلم والصحة والثقافة والأمن والرياضة والترفيه . وبحسب عمر أن يتمنى لو كثر المال لمنح كل فرد ما يفضل على ضروراته ، بعد أن أعطى كل مواطن ما يسد تلك الضرورات التى يعتبر كثير منها اليوم من الكماليات .

وإلى أن يوفق الله سبحانه لإخراج موسوعة فى حضارة الاسلام نجتزئ بهذا القدر لننتقل إلى أسلوب ادارة الدولة بوجه عام . . . والله ولى التوفيق .

إدارة الدولة

وإذ قد أوجزنا جملة عن مقومات الحضارة الإسلامية في العصر الذهبي لتاريخ الاسلام ، وأتيننا على آراء الباحثين في الحضارات العالمية فاننا نرى أن نسوق جملة أخرى عن إدارة الدولة في عصر الراشدين بادئين بعرض سريع لما شرعه النبي (ص) من نظم كانت هي الأساس لتلك النهضة الشاملة التي قامت في عهد خلفائه الأربعة ، إذ كان عصره - ص - مرتبطاً كل الارتباط بعصر أصحابه الأربعة حتى انه لا يمكن وضع حدود وفواصل بين المراحل التي حدثت في هذه الفترة . واذن فلا بد من الحديث عن إدارة الرسول - ص - قبل تفصيل الحديث عن إدارة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، لتشابك العصرين . فنقول وبالله التوفيق .

الادارة في حياة الرسول (ص) .

لما ظهر الاسلام على الشرك ، طفق الرسول يدعو إلى دينه جهره وأخذ يرسل أمثلاً من دخلوا في الاسلام من الرجال ، لتلقين العرب الدين وأخذ الصدقات منهم . وإذا وفد عليه وافد يعهد اليه أن يعلم قومه دينهم و(امام كل قبيلة منها لنفور طباع العرب أن يتقدم على القبيلة أحد من غير أهلها) وإذا كان الوافد من رؤوس قبيلة يوسد اليه جباية الفىء ويأمره أن يبشر الناس بالخير ويعلمهم القرآن ويفقههم في الدين ، ويوصيه أن يلين للناس في الحق ، ويشدد عليهم في الظلم ، وأن ينههم إذا كان بين الناس هيج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر ، ليكون دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له ، وأن يأخذ خمس الأموال وما كتب على المسلمين في الصدقة ، وأن من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلاماً خالصاً

من نفسه ودان دين الإسلام فإنه من المؤمنين ، له مثل مالهم وعليه مثل ما عليهم
ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يفتن عنها ، وبعث معاذاً إلى اليمن فقال له :
إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله تعالى فإذا
عرفوا الله تعالى فأخبرهم أن الله تعالى فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد
على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم واتق دعوة
الظالم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب . وكتب إلى عمر بن حريث عامله على
نجران كتاباً في الفرائض والسنن والصدقات والديات . واكتفى الرسول بأخذ
الجزية من أهل نجران وأيلة وهم نصارى من العرب ، ومن أهل دومة الجندل
وهم نصارى وأكثرهم عرب وبلغ أناساً من المشركين ممن لم يكن لهم عهد
ولم يوافقوا الموسم ، أن رسول الله أمر بقتال المشركين ممن لا عهد لهم فقدموا
على الرسول ليجددوا حلفاً فلم يصالحهم الرسول إلا على الإسلام وإقام الصلاة
وايتاء الزكاة فأبوا فحلى سبيلهم حتى بلغوا مأمهم ، وكانوا نصارى من قيس
ابن ثعلبة فلاحقوا باليمامة ، حتى أسلم الناس ، فمنهم من أسلم ومنهم من أقام على
نصرانيته . ولما كان الهدف الأسمى هو نزع الشرك من نفوس العرب أولاً ، رأينا
الشارع يميل إلى الرفق بأهل الكتاب لا يباديهم الشر إلا إذا قاوموه .

وقد أحسن معاملة نصارى نجران . وفدوا عليه ستين راكباً فيهم العاقب
أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم ، والذي يصدر عن رأيه وأمره ،
وفيه ثمالهم وصاحب رحلهم ومعهم أسقفهم وخبزهم وإمامهم وصاحب
مدراسهم فمأهده على أداء الجزية . وقال الرسول : من ظلم معاهداً أو انتقضه
أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة .
وقال : من قتل قتيلاً من أهل الذمة لم يرح رائحة الجنة .

وقال : من قتل نفساً معاهدة بغير حلها حرم الله عليه الجنة أن يشمها .

وجعل دية المعاهد كدية المسلم ألف دينار ، وعن مالك بن الوليد قال : أوصاني الرسول أن لا أخطو إلى إمارة خطوة ، ولا أصيب من معاهد إبرة فما فوقها ، ولا أبغى على إمام بالسوء . ولم يحارب الرسول اليهود في خيبر وغيرها إلا لأنهم خانوا عهده وأرادوا قتاله وكشفوا ستر سيدة من الأنصار . ويهود بنى النضير وبنى وائل هم الذين حاربوا الأحزاب عليه ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعواهم إلى حربته ، وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقطع نخل بنى النضير ثم صالحهم على أن يحقن لهم دماءهم ، وأن يخرجهم من أوطانهم ، ويسيرهم إلى أذرعات بالشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بغيراً وسقاء على أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلقة ، وطاوله يهود خيبر وما كسوه ثم صالحوه على حقن دماهم وترك الذرية ، على أن يجلوا ويخلوا بين المسلمين وبين الأرض والصفراء والبيضاء والبزة^(١) إلا ما كان منها على الأجساد ، وأن لا يكتموا شيئاً ، ثم قالوا للرسول : إن لنا بالعمارة والقيام على النخل علماً فأقرنا فأقرهم .

وفي بنى النضير نزلت سورة الحشر . وأبى بنو قريظة لنقضهم العهد ومظاهرتهم المشركين على الرسول . فأمر بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم واستفاء أموالهم ووضع الرسول على المسلمين وغيرهم وعلى الأرضين والثمار والماشية أموالاً بين الكتاب العزيز أصنافها في عدة آيات وبين حكم انفاقها فقال : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) (واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) (إنما الصدقات للفقراء

(١) البزة هنا الثياب والأمتعة.

والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم .

فألقى خراج يؤخذ من أرض العنوة والخراج ما يؤخذ من أرض الصلح ومما فتح عنوة وأكثر أهله عليه ، والجزية مال يتقاضى من أهل الكتاب ، والعشر ما يؤخذ من زكاة الأرض التي أسلم أهلها عليها كأرض العرب ، أوفتح عنوة وقسم بين الغزاة . وما كانت الجزية تقبل من غير الكتابيين في الأرض العربية ، ولا يقبل من المشركين عبدة الأصنام إلا الإسلام . ومن الأرض ماصولح أهله على النصف من ثمارهم كأهل فدك ، وجعل النبي فدك له خاصة لأنه لم يوجف عليها المسامون بخيل ولا ركاب . والأنفال والغنائم في القتال ، والصدقة في رأى الجمهور أنواع هي الزكاة وهي عشر الغزات التي تأتي من الأرض التي خلت من سكانها أو كانت مواتاً فأحيوها ، وصدقات الماشية هي زكاة السوائم من الإبل والبقر والغنم دون العوامل والمعلولة والصدقات عروض التجارة قال ابن حبيب : أول ما بعث الله نبيه بالدعوة بعثه بغير قتال ولا جزية ، فأقام على ذلك عشر سنين بمكة بعد نبوته يؤمر بالكف عنهم ثم أنزل الله عليه :

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) الآية ، وأمره بقتال من قاتله والكف عن من يقاتله وقال الله عز وجل : (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً) ثم نزلت براءة لثمان سنين من الهجرة فأمره بقتال جميع من لم يسلم من العرب من قاتله أو كف عنه إلا من عاهده ولم ينتقص من عهده شيئاً فقال : (فإذا انسלخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل في مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) . وكل ذلك كان يؤخذ من اهتدوا إلى الدين الخفيف ومن بقوا على دينهم من اليهود والنصارى بعدل لا شطط فيه يدفعه (٢٥٠ م — الراشد)

المسلمون والعاهدون طيبة نفوسهم ولم يتبرم به أحد . شكايهودخير —
« وكانت قرية الحجاز ريفاً ومنعة ورجالا » وكان فيها عشرون ألف مقاتل —
عبد الله بن رَوَاحَة . وكان الرسول يبعثه كل عام يخرص^(١) عليهم تمرهم ثم يقول :
إن شتم فلکم وإن شتم فلي ، فكانوا يضمنونه فشكوا إلى الرسول شدة
خرصه وأرادوا أن يرشوه جللوا له حلياً من حلى نسائهم فقالوا : هذا لك وخفف
عنا وتجاوز في القسم . فقال عبد الله : يا معشر اليهود . انکم لمن أبغض خلق
الله تعالى إلى وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم وأما ما عرضتم على من الرشوة
فإنها السحت وإننا لاناكلها . فقالوا :

بهذا قامت السموات والأرض . . ولقد كان الرسول يتخير عماله من صالحى
أهله وأولى دينه وأولى علمه ، ويختارهم على الأغلب من المنظور إليهم في العرب
ليوقروا في الصدور ، ويكون لهم سلطان على المؤمنين وغيرهم ، يحسنون
العمل فيما يتولون ويشربون قلوب من ينزلون عليهم الإيمان ، ويكشف أبدأ
علمهم أى يفتشهم ، ويسمع ما ينقل إليهم من أخبارهم .

وقد عزل العلاء بن الحضرمي عامله على البحرين لأن وفد عبد القيس شكاه
وولى أبان بن سعيد وقال له : استوص بعبد القيس خيراً وأكرم سرائهم . وكان
يستوفى الحساب على العمال . يحاسبهم على المستخرج والمصروف ، وقد استعمل مرة
رجلاً على الصدقات فلما رجع حاسبه فقال : هذا لكم وهذا أهدي إلى ، فقال : أفلا
قعد في بيت أبيه وأمه فنظر أهدى إليه أم لا . وقال : من استعملناه على عمل
ورزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول .

وما انفك الرسول من استشارة أهل الرأي والبصيرة ومن شهد لهم
بالعقل والفضل ، وأبأنوا عن قوة إيمان ، وتغان في بث دعوة الإسلام وهم سبعة

من المهاجرين وسبعة من الأنصار، منهم حمزة وجعفر وأبو بكر وعمر وعلي وابن
مسيود وسلمان وعمار وحذيفة وأبو ذر والمقداد وبلال وسموا النقباء لأنهم ضمنوا
لرسول إسلام قومهم، والنقيب الضمين وكان له عرفاء أي رؤساء جند ويكتب
له بعض جلة الصحابة من الكهنة، والكهنة في الجاهلية وأول الإسلام هم الذين كانوا
يكتبون بالعربية ويحسنون العوم والرمي. كان كاتب اليهود إذا عاهد والصالح إذا
صالح على بن أبي طالب. ومن كتب له أبو بكر وعمر وعثمان والزبير، وخالد
وأبان ابن سعيد بن العاص وحنظلة الأسدي والعلاء بن الحضرمي وخالد بن الوليد
وعبد الله بن رواحة ومحمد بن مسلمة وعبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول والمغيرة
ابن شعبة وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان يكتب فيما بينه وبين العرب
وجهم بن الصلت وشرحبيل ابن حسنة وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وبلغ
كتابه اثنين وأربعين رجلاً وكان صاحب سره حذيفة بن اليمان وكان الحارث بن
عوف المري على خاتمه وخاتمه من فضة نقش ثلاثة أسطر محمد سطر، ورسول سطر
والله سطر، ويضع خاتمه أيضاً عند حنظلة بن الربيع بن صيفي بن أخى أكرم،
ويكون خاتمة كل كاتب من كتاب النبي غاب عن عمله، فغلب عليه اسم الكاتب
وكان معيقيب بن أبي فاطمة يكتب مغانم الرسول وكذلك كتب بن عمرو بن زيد
الأنصاري كان يقال له صاحب الغنائم وحذيفة بن اليمان يكتب خرص تمر الحجاز،
والعلاء بن عتبة وعبد الله بن الأرقم يكتبان بين الناس في قبائلهم ومياهم وفي دور
الأنصار بين الرجال والنساء. وكان عبد الله بن الأرقم يجيب الملوك عن الرسول،
والزبير بن العوام وجهيم بن الصلت يكتبان أموال الصدقات، والمغيرة بن شعبة
والحصين بن نمير يكتبان المدائن والمعاملات، وشرحبيل بن حسنة يكتب
التوقيعات إلى الملوك. ومن شعرائه حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكتب
ابن مالك انتدبهم لهجو المشركين، وخطيبه ثابت بن قيس. وكان زيد بن
ثابت ترجمانه بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية واليهودية. وتاجية الطقاوي

ونافع بن ظريب النوفلي يكتبان المصاحف وشتاء أم سايان بن أبي حنيفة تعلم النساء الكتابة. عبادة بن الصامت يعلم أهل الصفة القرآن. وكلت دار مخزومة ابن نوفل بالمدينة تدعى دار القرآن.

وأول قاض في المدينة عبد الله بن نوفل. ومقرئ المدينة مصعب بن الزبير. وأول لواء عقد في الإسلام لواء عبد الله بن جحش، وعقد لسعد بن مالك الأزدي. راية على قومه سوداء وفيها هلال أبيض وكان لواؤه أبيض أو أصفر أو أغبر وله راية تدعى العقاب من صوف أسود مكتوب على رايته : لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وأول مقيم قسم في الإسلام مقيم عبد الله بن جحش. ومن عماله أبو دجاجة الساعدي وسباع بن عرفة عاملاه على المدينة، وكان ثلاثة أرباع عماله من بني أمية لأنه إنما طلب للأعمال أهل الجزاء من المسلمين والنساء، ولم يطلب أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها كما قال معاوية. واستعمل الرسول أباسقيان بن حرب على نجران فولاه الصلاة والحرب، ووجه راشد بن عبد الله أميراً على القضاء والمظالم.

وكان الرسول كثيراً ما يقول أرحم أمتي أبو بكر، وأشدّهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي، وأعلمهم بالحلّال والحرام معاذ ابن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبي بن كعب، ولكل أمة أمين. وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح. وقال : خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة وجمع القرآن أي حفظه جميعه من الأنصار أبو معاذ وزيد بن ثابت وأبو قيس بن السكن، هؤلاء أهم رجال الإدارة والقضاء والفقهاء والقرآن.

وهناك طبقة أخرى تتولى الأعمال مثل عتاب بن أسيد الذي استعمله

والياً على مكة ، ورزقه كل يوم درهما فقام يخطب ويقول : أيها الناس أجمع
 الله كبد من جاع على درهم فقد رزقني رسول الله درهما كل يوم ، فليست بي
 حاجة إلى أحد . وهذا الراغب من أول ما وضع من الرواتب للعمال . وقد يكون
 رزقهم ما يطعمون منه على نحو ما أجرى على قيس بن مالك الأرحبي من
 همدان لما استعمله على قومه عربهم ومواليهم فأقطعه من ذرة يسار
 مائتي صاع ومن زبيب خيوان مائتي صاع جارٍ له ذلك ولعقبه من بعده أبداً
 أبداً أبداً . أما كبار الصحابة فكانوا يعطون ما يتبلغون به من الغنائم
 وغيرها ، ومنهم من كان غنياً في الجاهلية والإسلام فجهز من ماله جنداً في
 سبيل الله ، بل منهم من أنفق كل ماله في هذا الغرض وهو راضى مقتبط .

ولقد آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار بأخوة الإسلام والإيمان ولطالما
 أقطع القطائع ، وكان يتألف على الإسلام ، ويعطى من الصدقات من يريد تأليف
 قلوبهم ، فدعى من يأخذون ذلك «المؤلفة قلوبهم» وهم أحد وثلاثون رجلاً من
 سادة العرب تألفهم وتألف بهم قومهم ، ليرغبوهم في الإسلام ، ولئلا تحملهم
 الحمية مع ضعف نياتهم على أن يكونوا إلماً مع الكفار على المسلمين ، وما منهم
 إلا الشريف المسود والعالم والخطيب والشاعر والداهية الباقعة ، وكل منهم سيد
 بني قومه مطاع فيهم ، قال صفوان بن أمية :

لقد أعطاني رسول الله يوم حنين وإنه لمن أبغض الناس إلى ، فما زال
 يعطيني حتى إنه لمن أحب الناس إلى . وقال الرسول : إني لأعطي قوماً أتألف
 خلعهم وجزعهم وأكل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى .
 وكان يعامل المسلمين بقواعد المساواة التامة ، ويفضل مثلاً من الأزد الأنصار وهم
 الأوس والخزرج أبناء حارثة بن عمرو بن عامر وهم أعز الناس نفساً وأشرفهم ،
 وهم لم يؤجروا اتاوة قط إلى أحد من الملوك .

كانت الحكمة في تأليف من قضت للصالحية بتأليفهم ، وأعطى كل واحد من المؤلفات قلوبهم في احصى غزواته مئة من الإبل ومقداراً من الفضة ، فلما دخل الناس في الدين أفواجاً ، وظهر المسلمون على جميع أهل الملل بطل العطاء للمؤلفات قلوبهم ، ودخل بعضهم في خدمة الدولة وتولوا العائلات وقيادة الجيوش ، ولم يبق عربى بعد واقعة حنين والطائف إلا أسلم ، ومنهم من قدم على الرسول ومنهم من لم يقدم ، وقنع بما أتاه به وافد قومه من الدين . ولما فتحت مكة دانت العرب للإسلام وعرفوا أن لا طاقة لهم بحرب الرسول ولا عداوته ، فدخلوا في دينه وقل ان دخل فيه الا من اعتقد صدق صاحبه ، وقد جاء قيس بن نسيبة السامى فأسلم ورجع الى قومه فقال : يا بنى سليم ، قد سمعت ترجمة الروم وفارس واسفار الرهاب والكهان وقول حمير فما كان كلام محمد يشبه شيئاً من كلامهم . وقال أبو سفيان بن حرب : ما رأيت أحداً يحب أحداً من الناس كحب أصحاب محمد محمداً وكثرت الوفود في السنة التاسعة للهجرة حتى سمي عام الوفود ، وبعث رساله الى ملوك الأرض يدعوهم الى الإسلام ، وفي سنة سبع بعث دحية الكلبي بكتاب الى عظيم بعصرى فدفعه هذا الى هرقل ، وبعث عبد الله بن حذافه السهمي الى كسرى ، وعمر بن أمية الى النجاشي وحاطب ابن أبى بلتعنة الى المقوقس ملك الاسكندرية والعلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى ملك البحرين وشجاع بن وهب الاسدي الى الحرث بن أبى شمر الفسائي ، والمهاجر بن أبى أمية الى الحرث ملك اليمن . وجاءت وفود العرب من كل جهة ، وكان الرسول (ص) يكرمهم ويفضل عليهم بمعطائه ، ومنهم من يضيفه عشرة أيام كوفد عبد القيس ، ومنهم من يبالغ في اكرامه كلوك اليمن ، وإتماموا ملوكاً لأنه كان لكل واحد منهم واد يملكه بما فيه . وكانت كتبه الى ملوك الأطراف خارج الجزيرة باغة مضر وفصيح ألفاظها وكلها موجزة ، واستعمل ألفاظاً في بعض

كتبه الى أهالى اليمن وغيرهم غير معروفة للعرب كافة الا فى قبيل واحد ، وذلك
إرادة إفهام القوم ومخاطبتهم بما لو فهم من العبارات .

قال على للرسول وقد سمعه يخاطب وفد بنى فهد : يا رسول الله نحن بنو أب
واحد ، ونراك تكلم وفد العرب بما لا تفهم أكثره . فقال : أدبنى ربى فأحسن
تأديبى ، وربيت فى بنى سعد .

فكان يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم بما يفهمون . ولم يكن
للرسول بيت مال ، وكان يخبأ الأموال فى بيته وبيوت أصحابه وفى الغالب أن
الغنى يقسم من يومه ، خصوصاً إذا كان من الناطق كالإبل والشاة والخيل
والبغال . والرسول يعطى الأهل من الغنى وحظين والعرب حظاً وما كانت تأخذه
بالمشركين هوادة لا سيما بعد أن فتحت مكة ، وأطاعت الحجاز واليمن واليمامة
وغيرها من اصقاع الجزيرة ، وما كان هوى من رسوخ الإسلام فى قلوبهم فى شئ
من حطام الدنيا ، فقد بلغ من تبادل الثقة والحب بين المسلمين فى صدر الإسلام
أنهم كانوا خلطاء بالمال ، يأخذ فقيرهم من مال الآخر مصداقاً لقوله تعالى :
(ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) . ولقد أهديت لعبادة بن الصامت
هدية وإن معه فى الدار اثنى عشر من أهل بيته فقال عبادة : إذهبوا بهذه إلى
آل فلان فهو أحوج إليها منا : قال الوليد بن عبادة فأخذتها فكنت كل ما جئت
أهل بيت يقولون إذهبوا بها إلى آل فلان فهم أحوج منا إليها ، حتى رجعت
بالهدية إلى عبادة قبل الصبح .

وأسلف عبد الله بن جعفر الزبير بن العوام ألف ألف درهم فلما قتل الزبير
قال ابنه عبد الله لعبد الله بن جعفر إني وجدت فى كتب أبى إن له عليك
ألف ألف درهم فقال : هو صادق فأقبضه إذا شئت . ثم لقيه فقال : يا أبا جعفر

وهمت .. المال لك عاينه فهو له قال: لا أريد ذاك. قال: فاختر إن شئت فهو له وإن كرهت ذلك فله فيه نظيره ما شئت ، وإن لم ترد ذلك فبعتى من ماله ما شئت .

مثال آخر من هذا الإيثار . كان بالمدينة في زمن النبي شاب يقال له مالك ابن ثعلبة الأنصاري ولم يكن بالمدينة شاب أغنى منه ، فمر بالنبي والنبي يتلو هذه الآية (والذين يكنزون الى قوله فذوقوا ما كنتم تكنزون) فغشى على الشاب فلما أفاق دخل على النبي فقال : بأبى أنت وأمى هذه الآية لمن كنز الذهب والفضة فقال له النبي : نعم يا مالك . قال : والذي بعثك بالحق ليسين مالك ولا يملك ديناراً ولا درهماً . قال : فتصدق بماله كله . وما كان أصحاب رسول الله بالمنحرفين ولا المتزمتين يتناشدون الأشعار ، ويجلسون في مجالسهم ، ويذكرون جاهليتهم فإن أريد انسان منهم على شيء من أمر دينه دارت عيناه فترى حماليقها غضباً . بل كان منهم من إذا ارتكب كبيرة يعاقب عليها الإسلام يأتي الرسول يطلب اقامة الحد الشرعى عليه ، أو يسمع منه ما ينقلب به الى أهله مسروراً ، يأخذ حكمة تتأجج بها نفسه ، ويعتقد أنه تحلل من ذنبه واستغفر له الرسول .

وأراد النبي محمد مرة إحصاء المسلمين فقال : اكتبوا الى من تلفظ بالإسلام من الناس ، فكتبوا له ألفاً وخمسة رجل . وما كان يجمع المسلمين في أول أمرهم كتاب حافظ أى ديوان مكتوب وكان إذا نودى للرحف وتختلف عنه أحدهم لعذر أو شبه عذر، يلومه الرسول وأصحابه ، وإذا تبين أنه تعمده أن يكون مع المتخلفين عن القتال يعاتب ، ويقاطعه الجماعة ويحتنبونه لا يكلمه أحد . ولما أمر الرسول بالتهيؤ لغزو الروم في اليرموك ، ثاقل المسلمون عنها وأعظموا غزوهم ، فنافق من نافق من المنافقين ، حين دعوا الى ملاحمته اليه من الجهاد . وكان ذلك في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجذب من اليلاد ، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون التغوص على

الحال من الزمان الذي هم فيه وجاء المتخلفون عن هذه الغزاة وكانوا ثمانين رجلاً فقبل الرسول منهم علانيتهم وإيمانهم ، واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله . وفي هذه الغزوة حض الرسول أهل الفنى على النفقة والحملان فى سبيل الله فحمل رجال من أهل الفنى واحتسبوا ، وكان من أفضل القربات أن يجهز أرباب اليسار أناسا للغزو يتكفلون بطعامهم وإطعام ذويهم ، ويُعطونهم السلاح والكراع واللباس ليغزوا ويرابطوا وكان للمسلمون كلهم جنداً يقاتلون للدين وكان لا يزال فيهم أبداً من يبذل شطراً صالحاً من ماله فى وجوه البر والقرب لا يريدون على إسلامهم ونصرهم للرسول جزاء . وجميع ماغزا الرسول بنفسه سبع وعشرون غزوة وكانت بعوثه وسراياه ثمانياً وثلاثين بين بعث وسرية ، وكان يورى بغزواته ، وقل أن يعين لأصحابه الوجهة التى يقصدها فى غزاته ، وكتب مرة لأحدهم كتاباً وأمره أن لا يقرأه حتى يبلغ مكان كذا وكذا . ولا يستكره من أصحابه أحداً أى يندبهم للعمل فان باغى قرأ ، وذلك ليرصد بذلك قريشاً ويعلم له من أخبارهم .

ولم يكن للمسلمين سلاح جاهز . وسلاحهم القوس والنبل والخربة والسيف والدرع ثم اتخذ أنواع السلاح التى كانت موجودة إذ ذاك عند الأمم . واستعار الرسول يوم هوازن مئة درع بما يكفيها من السلاح من « صفوان ابن أمية » ليلقى بها العدو على أن تكون عارية مضمونة حتى يؤديها إليه ورأى الرسول أن اتساع الفتوح يقضى بأن يتعلم بعض أصحابه صنعة الدبابات والمجانيق والضبور أى صنائع القتال فأرسل إلى اليمن إثنين من أصحابه يتعلمانها . وكان أهل الطائف أول من رمى بالمنجنيق . وأخذ المسلمون بعد ذلك يعدون لأعدائهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ، لأنهم قادمون على فتح الشام والعراق على ما بشرهم به الرسول فقال لعدي بن حاتم لعلك يا عدى إنما

يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه . ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها تزور هذا البيت لا تخاف ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم . وقال مرة : أبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوا فيها فتهلككم كما أهلكتهم .

رأينا الرسول في طور ضعفه ، ثم في طور قوته ، يحرص على رجاله حرصه على أعز شئ لديه . ولما دخل عمر في الإسلام إعتر به وترك به المسلمون التقية في دينهم ، بل انه كان إذا سقط في يده أحد أذكىاء المشركين أبقى عليه ، مهما كان من ايدائه للمسلمين أو له خاصة ، لعل في حياته ما يستفيد منه الإسلام إذا أسلم . أما من قتلوا النفس التي حرم الله فهو لاء لا تأخذه بهم رحمة ؛ قدم عليه نفر من العرب قد ماتوا هزالا فأسلموا واجتروا المدينة فأمرهم الرسول أن يأتوا إبل الصدقة يشربوا من ألبانها ففعلوا وصحوا وسمنوا فارتدوا وقتلوا الراعى واستاقوا الإبل فبعث في آثارهم فما ترجل النهار حتى جىء بهم وأوقع عليهم أشد العقوبة الشرعية .

وكان يحسن معاملة النساء عامة كما يحسن معاملة أزواجه خاصة فيؤثرن أى تأثير في الرجال ، ويجعل منهن أدوات صالحة له يبت بواسطتهن دعوته ، ويرعى مصالح المسلمين ، وقد أوصى بهن أجمل وصاة في خطبته يوم حجة الوداع . وهذا غاية في حسن الإدارة والسياسة لأن حل المسائل بدون مشا كل ، أنفع من حلها بطرق جافة . والنساء في هذا المعنى من أفعل أسباب الدعوة ، خصوصا إذا كن

كالصحايايات يأخذن بمجامع القلوب بحميل عاطفتهن وجمال بلاغتهن . وكان .
يسمح باستخدام النساء في حروبه وغزواته يخدمن الجرحى ويأخذن من العطاء .
ويتولين من الرجال ما يصلحهن له كالطعام والاسقاء ، ويحمسن من يحتاج الى .
تحميس وجعل سعد بن . معاذ في خيمة لامرأة يقال لها ربيعة في مسجده كانت .
تداوى الجرحى وتحبس نفسها على خدمة من كان فيه خفيفة من المسلمين .
وكذلك كانت أخت ربيعة واسمها كعبه بنت سعد الأسامية . ومنهن من كن .
يخطن القرب . فالنساء في حكومته ممرضات طاهيات ساقيات خياطات محمسات .
داعيات . وأمر الرسول أن لا يقتل النساء في الحرب . فكان بذلك يستفيد من .
كل قوة في بلده يستعين بها على الظهور على المشركين .

ومن خطبه الإدارية ماورد في الثقات أنه قعد على بعير له وأخذ إنسان .
بخطامه أو بزمامه فقال أى يوم هذا . قال من حضر : فسكتنا حتى ظننا أنه .
سيسميه بغير اسمه . فقال : أليس يوم النحر : قلنا : بلى . قال : فأى شهر .
هذا . قال : فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : أليس بذى الحجة .
قالوا : بلى . قال : فأى بلد هذا . قال : فأمسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه .
فقال : أليس بالبلد الحرام . قلنا : بلى . قال : فان دماءكم وأعراضكم (وفي رواية .
وأموالكم) بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا .
فليبلغ الشاهد الغائب .

هذا جملة ما يقال في تدبير الرسول في الإدارة من بث دعوة ، وجهاد
عدو ، وأخذ غنائم وصدقات وجزى وعشور ، وقسمتها بين المجاهدين وأهل .
البلاء من المهاجرين والأنصار ، ثم على فقراء المسلمين ، وما كان من توزيعه
العمل بين عماله ومعاملته لهم وللوفود والنساء الى غير ذلك من أسباب .
القوة واتخاذ الجند والمحاربين ، واشتداده في الحق ولينه اذا دعت الحال

إلى اللين ، واغضائه أحياناً لما يلحق به من الأذى ، يرقب القرص لمن يكيد للمسلمين .

ومما يصح التمثيل به في باب اللين أنه رضى يوم الحديبية أن يدخل وأصحابه مكة ثلاثة أيام فقط على أن يكونوا بجلبان السلاح وصالح سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لوى فدعا علياً بن أبي طالب . فقال ، أكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل لا أعرف هذا ولكن أكتب باسمك اللهم . فقال رسول الله . اكتب باسمك اللهم . فكتبها ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك . ولكن اكتب إسمك واسم أبيك . فقال رسول الله . اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلاحاً على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه . وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا إغلal وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه . ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه إلخ . فاستاء المسلمون من هذا العهد بعد أن فازوا على أعدائهم ؛ وأحب الرسول حقن الدماء فقبل من خصمه هذا العنت ، وكانت العاقبة له ولقومه .

إدارة الخلفاء الراشدين :

سار أبو بكر بسيرة الرسول في الإدارة الإسلامية واحتفظ بالعمال الذين استعملهم صاحب الشريعة ، والأمراء الذين أمرهم ، ومن العمال من أبي أن يعمل لغير رسول الله فاعتزل العمل . . ولما وسدت الخلافة إلى الصديق قال له أبو عبيدة . أنا أ كفيك المال . وقال عمر : وأنا أ كفيك القضاء . فكث عمر سنة لا يأتیه رجلان ، ولم يخاصم إليه أحد وذلك لأن الناس كانوا أول ظهور

الاسلام يرون من الطبيعي أن يعطى الحق ويأخذ الحق ، ويقف عند حدود الله . لا يقارف منكراً ولا يسرف على نفسه ، ويبعد عن الزور وأكل أموال الناس بالباطل ، ويجعل رائده الصدق في أقواله وأفعاله .

كان إذا نزل بالصديق أمر يريد فيه مشاورة أهل الرأي والفقهاء ، ودعارجالاً من المهاجرين والأنصار ، دعا عمرو وعثمان وعلياً وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ، وكل هؤلاء كان يفتى في خلافة أبى بكر ، وإنما تصير فتوى الناس إلى هؤلاء . على أن أبابكر كان جد عالم بالشرعية . وأخبار الناس وأيامهم وأنسابهم وسياستهم ، إلى مارزق من صدر رجب يطالب من كل صاحب إدارة ، واختار من القضاة ما اختاره الولاية غالباً ، وكان ولاية المدينة هم الذين يختارون القضاة ويولونهم ، ويكتب لأبى بكر على بن أبى طالب وزيد بن ثابت .

ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان ويكتب له من حضر ومن عماله عتاب . ابن أسيد وعمرو بن العاص وعثمان بن أبى العاص والمهاجر بن أبى أمية وزيد بن عبيد الله الأنصارى ويعلى بن منية وأبو موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل والعلاء ابن الحصرمى وجريز بن عبد الله وعبد الله بن ثور وعياض بن غنم وأبو عبيدة ابن الجراح وشرحبيل بن حسنة وزيد بن أبى سفيان وخالد بن الوليد .

ما تجاوزت رقعة الملك الاسلامى في أيام أبى بكر أكثر من جزيرة العرب قسمت إلى ولايات أو عمالات وهى مكة والمدينة والطائف وصنعاء وحضرموت وخولان وزبيد ورمع والجند ونجران وجرش والبحرين ، أما القواد الآخذون بفتح الشام والعراق فيولون عمالاً من عندهم في الأرض التى يفتحونها . بمعنى أن الحجاز قسم إلى ثلاث ولايات ، واليمن إلى ثمان ، والبحرين وما إليها ولاية .

ولما ولى أبوبكر قال : قد علم قومى أن حرفتى لم تكن تعجز عن مؤونة

أهلى ، وقد شغلت بأمر المسلمين في ما لهم وسياً كل آل أبي بكر من هذا المال ، فجعلوا له الفين وفي رواية ثلاثة دراهم كل يوم من بيت المال . ثم قال : زيدوني فإن لي عيالا وقد شغلتموني عن التجارة فزادوه خمسمائة . ولما مات ابنه في خلافته ترك سبعة دنائير فاستكثرها أبو بكر ولم يفرض أبو بكر ولا الرسول من قبل عطاء مقررراً للجند وكانوا إذا غزوا وغنموا أخذوا نصيباً من الغنائم قررته الشريعة لهم ، وإذا ورد المدينة مال بعض البلاد أحضر إلى مسجد الرسول وفرق فيهم يصيب منه الأنصار والمهاجرون وكل مسلم بحسب غنائه في نصرة الدين . جرى الأمر على ذلك مدة خلافه أبي بكر . وكان لأبي بكر بيت مال بالسنح من ضواحي المدينة إلى أن انتقل إلى المدينة فقيل له ألا تجعل عليه من يحرسه ، قالوا فكان يتفق جميع ما فيه على المسلمين فلا يبقى منه شيء .

ولما قضى نحبه ذهب عمر في نفر من الصحابة لاستلام بيت المال فلم يجدوا فيه شيئاً . وجرى أبو بكر على كشف أحوال العمال ، وكان كصاحبه يختار أكثرهم علماً وعملاً . ولما عزل خالد بن سعيد أوصى به شرحبيل بن حسنة وكان أحد الأمراء فقال : انظر خالد بن سعيد فاعرف له من الحق عليك مثل ما كنت تحب أن يعرف لك من الحق عليه لو خرج والياً عليك ، وقد عرفت مكانه من الإسلام وإن رسول الله (ص) توفي وهو له وال ، وقد كنت وليته ثم رأيت عزله ، وعسى أن يكون ذلك خيراً له في دينه ما أغبط أحداً بالامارة . وقد خيرته في أمراء الأجناد فاخترتك على غيرك ، واختارك على ابن عمه ، فإذا نزل بك أمر تحتاج فيه إلى رأى التقى الناصح ، فليكن أول من تبدأ أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ، وليك خالد بن سعيد ثالثاً . فإنك واجد عندهم نصحاً وخيراً .

وليك واستبداد الرأى عنهم أو تطوى عنهم بعض الخبر .

وشغل أبو بكر بقتال أهل الردة فوطد دعائم الدولة بإظهار قوة المسلمين لمن خالفهم ؛ فجمع الشمل الذي كان يخشى من انبثائه ، وبدأ منه حزم عجيب بإدارة شديدة رشيدة ، وخالف جميع أصحابه في قتال من اخلوا بشروط الإسلام فأصر على قتالهم .

ولقد قال عمر : ان العرب لما ارتدت وضعت شامها وبعيرها أجمع رأينا كلنا أصحاب محمد ان قلنا لأبي بكر : إن رسول الله كان يقاتل العرب بالوحي والملائكة يمدده الله بهم ، وقد انقطع ذلك فالزم بيتك ومسجدك ، فإنه لا طاقة لك بقتال العرب . فخالفهم كلهم أبو بكر وأعلن هذه الحرب على المرتدين حتى أذعنت العرب بالحق .

استبد أبو بكر برأيه فكان رأيه الصواب ، وقضى بصادق عزيمته وبعيد نظره قضاء مبرماً على آخر أثر من آثار الوثنية في الأرض العربية ، ولما أرسل الصديق الأمراء لقتال أهل الردة أوصاهم أن يقتصدوا بالمسلمين ، ويرفقوا بهم في السير والنزل ، ويتفقدوهم ويستوصوهم في حسن الصحبة ولين القول ، وأمر قواده في المرتدين أن لا يقاتلوهم حتى يدعوهم إلى الله ، فمن استجاب لهم وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعين عليه ، ومن أبى يقاتل على ذلك ، ولا يبقون على أحد منهم قد روا عليه ، وان يحرقوهم بالنار ويقتلوهم كل قتلة ، ويسبوا النساء والذراير ، ولا يقبل من أحد إلا الاسلام . ومن أوصايا أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان لما أرسله إلى الشام قوله :

« وإذا دخلت بلاد العدو فكن بعيداً من الحملة فإنى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر بالادلء ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه . واحترس من البيات فإن في العرب غرة ، وأقلل من الكلام فإن لك ماوعى عنك ، وإذا أتاك كتابي فأنفذه فإنما اعمل على حسب انفاذه . وإذا قدمت عليك وفود

المعجم فأنزلهم معظم عسكرك وأسبغ عليهم النفقة ، وامنع الناس عن محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين ، ولا تلحن في عقوبة فإن أدناها وجع ، ولا تسرعن إليها وأنت تكفى بغيرها ، واقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله في سرائرهم ، ولا تجسس عسكرك فتفضحه ولا تهمله فتفسده . ولم يحدث أبو بكر في أيامه أحداثاً جديدة ، والفتوح لم تقف مع حروب الردة ووجه وجهته نحو الشام وكان آخر جيش جهزه جيش اليرموك ، جهزه بكل حكمة وبذل في تنظيمه أقصى الجهد ؛ وجعل فيه قاضياً وجعل أباسفيان بن حرب قاصاً يسير في الجماعة ويقول : الله عباد الله انصروا الله ينصركم ، اللهم هذا يوم من أيامك ، اللهم انزل نصرك على عبادك ، يا نصر الله يقترب يا نصر الله يقترب وقصاص الجند يقصون عليهم أخبار الوقائع والفروسية ليقوا قلوبهم ، وقيل ان تيمما الدارى كان أول من قص في مسجد الرسول في عهد عمر ، كان يذكر المسلمين بالله ويقص عليهم قصصاً وأحاديث عن الأمم الماضية وأساطير وحكايات .

* * *

إدارة عمر :

كانت أول خطبة خطبها عمر بن الخطاب لما ولي الخلافة : أيها الناس انه والله ما فيكم أحد اقوى عندى من الضعيف حتى آخذ له الحق ، ولا أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه ، وما كان عمر ممن أولع بإلقاء الخطب كثيراً على بلاغة فيه مستحكمة وعلم غريز ، ولا يرنقى المنبر إلا إذا قضت الضرورة وأراد بيان أمر ذهب فيه نزوات النفوس مذهباً لا يرضاه . وكثيراً ما قال : إن هذا الأمر لا يصلح فيه إلا اللين في غير ضعف ، والشدة في غير عنف . وكذلك كان عمر يجمع بين اللين والشدة وهو إلى هذه ولا سيما على عماله أقرب . وإذا كان أكبر رجال الإدارة تحصي عليهم عشرات من الأغلاط فإن عمر لا يستطيع أكبر الناقدين أن يحصى عليه غلطتين أو ثلاثاً ، وقد يجاب عليها بأن ذلك محض اجتهاد منه ، والمجتهد قد يصيب ويخطئ . والحكم الآن على مسائل لم

بتجلى كل التجلى بما نقله الناقلون ، وما أحاط بها من أحوال دقيقة غير مرئية ، يدعو إلى أن نتمسك عن إرسال القول فى النقد ، ولا سيما قد رجل بجمت أمم كثيرة أن تنجب أفضل منه وأعظم . وطريقة عمر فى الإدارة طريقة أبى بكر وصاحبه من قبل ؛ إطلاق الحرية للعامل فى الشؤون الموضعية ، وتقييده فى المسائل العامة ، ومراقبته فى خلوته وجلوته .

« وكان علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته ، كعلمه بمن بات معه فى مهاد واحد ، فلم يكن له فى قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحي عامل ولا أمير جيش إلا وعليه له عين لا يفارقه ما وجدته ، فكانت الفاظ من بالشرق والمغرب عنده فى كل ممشى ومصباح . وأنت ترى ذلك فى كتبه إلى عماله وعمالهم حتى كان العامل منهم ليتهم أقرب الخلق إليه وأخصهم به فكان كما قال المغيرة ابن شعبه أفضل من أن يخدع وأعدل من أن يخدع . كان إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول : إني لم استعملكم على أمة محمد على أشعارها ولا على إشارها ، وإنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسوا بينهم بالعدل ولا تجلدوا العرب فتذلوها ولا تجمروها فتفتنوها ولا تغفلوا عنها فتحرموها ، جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم . وكان يقص من عماله ، وإذا شكى إليه عامل جمع بينه وبين من شكاه ، فإن صح عليه أمر يجب أخذه به أخذه . وكان إذا بعث أمراء الجيوش يوصيهم بتقوى الله وأن لا يعتدوا ولا يجبنوا عند اللقاء ولا يمثلوا عند القدرة ولا يسرفوا عند الظهور ولا يقتلوا هرماء ولا أمراء ولا وليداً وأن يتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند زحمة النهضات وفى شن الغارات وأن لا يفلوا عند الغنائم وأن ينزهوا الجهاد عن غرض الدنيا . وكان عمال عمر عرضة لكشف أحوالهم مهما بلغ من منزلتهم ، وكان إذا شكى إليه عامل أرسل محمد بن مسلمة يكشف

الحلال ، وله عدة طرق في كشف سيرة عماله ، منها أن يأمر عماله أن يوافوه بالموسم فإذا اجتمعوا قال : أيها الناس إني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم ، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم ، وليقسموا فيثكم بينكم ، فمن فعل به غير ذلك فليقم ، فما قام إلا رجل واحد فقال : إن عاملك فلاناً ضربني مائة سوط ، قال فيم ضربته ؟ قم فاقصص منه .

فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذ بها من بعدك . فقال أنا لا أقيد . وقد رأيت رسول الله يقيد من نفسه قال : فدعنا فلنرضه قال : دونكم فارضوه ، فافتدى منه بمائتي دينار كل سوط بدينارين . وقال من ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له على إلا أن يرفعها إلى حتى أقصه منه . فقيل له : أرأيت أن أدب أمير رجلا من رعيته انقصه منه فقال : ومالي لا أقصه منه ، وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه . وكان يستدعي عماله ليطلع على مطاوي نفوسهم ويكشف بنفسه ان كانوا أخذوا أنفسهم بأسباب التعليم لأن عمر يؤثر الخشونة ويريد عماله أن يتبعوه في سائر أفعاله وشيئة وأخلاقه فكان كل يتشبه به من غاب أو حضر ، وهو يلبس الجبة الصرفة المرقعة بالأديم وغيره ، ويشتمل بالعباءة ويحمل القربة على كتفه مع هبة قد رزقها ، وكذلك كان عماله مع ما فتح الله عليهم من البلاد وأوسعهم من الأموال . وكان ينهى عماله عن جيد اللبوس والركوب والمأكول ويلتف في كسائه وينام في ناحية المسجد قلما ورد بالهرمزان صاحب تستر عليه ، جعلوا يسألون عنه فيقال مرهنا آتفا فيصغر في قلب الهرمزان اذ رآه كبعض السوق حتى انتهى إليه وهو نائم في ناحية المسجد فقال الهرمزان : هنا والله الملك الهنيء ، يقول لا يحتاج إلى جراس ولا عدة فلما جلس عمر امتلاً قلب العالج منه هيبة لما رأى عنده من الجد والاجتهاد والبس من هبة التقوى . قالوا وكان أبا العيال يسلم على أبوابهن

هو يقول ألكن حاجة وأيتكن تريد أن تشتري شيئاً فيرسلون معه بحواشجهن ومن ليس عندها شيء اشترى لها من عنده ، وإذا قدم الرسول من بعض الثغور يتبعه بنفسه في منازلهن بكتب أزواجهن ويقول : أزواجكن في سبيل الله وأنتن في بلاد رسول الله ، إذا كان عندكن من يقرأو الأفاقرين من الأبواب حتى أقرأ لكن ثم يقول : الرسول يخرج يوم كذا وكذا فاكتن حتى نبعث يكتبكن ثم يدور عليهن بالقراطيس والدواة يقول : هذه دواة وقرطاس فاذنين من الأبواب حتى أكتب لكن ويمر الى المصليات فيأخذ كتبهن فيبعث بها الى أزواجهن . وكان اذا استعمل عاملاً أو صاه يتقوى الله واصلاح الرعية وكتب عليه كتاباً وأشهد عليه رهطاً من الأنصار أن لا يركب برذوناً ولا يأكل نقياً ولا يلبس رقيقاً ولا يغلّق باباً دون حاجات المسلمين ثم يقول : اللهم اشهد . وكتب الى عماله : أما بعد قايكم والهدايا فإنها من الرشا: اهتدى الى عظيم ضرر الهدايا مما بدر من رجل كان يهديه نخذ جزور نخاصم اليه رجلاً فقال : يا أمير المؤمنين اقض بيننا قضاء فصلاً كما يفصل الرجل من سائر الجذور ، فقضى عليه عمر ، ثم كتب الى عماله ان الهدايا هي الرشا . وكان عمر اذا قدم العمال يأمرهم أن يدخلوا نهائراً ولا يدخلوا ليلاً كي لا يحتجوا شيئاً من الأموال . وكان يعس بنفسه ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد أحوالهم ، ويتعهد أهل البؤس والفاقة بنفسه .

كتب الى أبي موسى الأشعري عامله على العراق يأمره بالتقدم عليه هو وعماله وأن يستخلفوا جميعاً ، يريد أن يعرف حالتهم بعد أن تبفكوا في النعيم وعهدت اليهم مصالح الناس ، فأدرك عامل البحرين من بين كثير من العمال أن عمر يرغب في الخشونة وعرف أنه سيد عوم الى طعامه فتجوع له واتخذ خفين مطارقين ولبس جبة صوف ولاث عمامته على رأسه فدعاهم عمر الى خبز جواً كسار فجعلوا يعافونه لأنهم حديث عهدم بلين العيش ، وعمر يلحظهم ،

ولفت عامل البحرين نظر عمر، ونهاهته على تناول الطعام، فسأله عمر عن عمله
ثم عن جعله فأجاب إنه يرزق القاء فقال له عمر : إنه كثيرا ما تصنع به قال :
أتقوت منه شيئا وأعود به على أقارب لي فما فضل عنهم فعلى فقراء المسلمين .
فأمر عمر أبا موسى أن يستبدل بأصحابه ، وأبقى عامل البحرين في عمله لأنه رآه
مقلا متقشفا لا يخشى أن يسرف في المال . وولى عمر رجلا بلدا فوفد عليه فجاءه
فوجدته حسن الحال في جسمه عليه بردان فقال له عمر : أهكذا وليناك ثم عزله ،
ودفع إليه غنيمة يرعاها ثم دعا به بعد مدة فرآه بالياً أشعث في ثوبين أطلسين .
وذكر عند عمر بخير فردّه إلى عمله وقال . كلوا واشربوا وادهنوا فإنكم تعلمون
الذي تهون عنه .

وكان إذا قدم عليه الوفد سألمهم عن حالهم وأسماهم وعن يعرف من أهل
البلاد وعن أميرهم هل يدخل إليه الضعيف وهل يعود المريض ، فإن قالوا نعم .
حمد الله تعالى وإن قالوا لا كتب إليه أقبل . وكان من سنة عمرو سيرته أن .
يأخذ عماله بموافاة الحج كل سنة للسياسة وليحجزهم بذلك عن الرعية وليكون
لشكايتهم وقت وغاية ينهونها إليه . كتب الى أبي موسى الأشعري : أما بعد
فإن للناس نفرة فأعوذ بالله أن تدركني وإياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة ، أقم
الحدود ولو ساعة من نهار ، وإذا عرض لك أمران أحدهما لله والآخر للدنيا .
فآثر نصيبك من الله فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقى ، وأضيعوا الفساق واجعلوهم
يداً يداً ورجلاً ورجلاً ، وعد مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم وافتح لهم
بابك ، وباشر أمورهم بنفسك فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أشغلهم
حملاً . وقد بلغني أن فشالك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك .
ليس للمسلمين مثلها ، فإياك يا عبدالله أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصيب
فلم يكن لها هم الا السمن وإنما حتفها في السمن ، واعلم أن العامل اذا زاغ زاغت
رعيته ، وأشقى الناس من شقى الناس به والسلام . وهذا من كتبه للمتعة في .

الإدارة وطريقته فيها . وبلغ عمر أن أبا عبيدة عامله على الشام يسبغ على عياله وقد ظهرت شارته فنقصه من عظامه الذي كان يجري عليه ، ثم سأل عنه فقيل له قد شحب لونه ، وتغيرت ثيابه . ، وساءت حاله ، فقال : يرحم الله أبا عبيدة ما أعف وأصبر ، فرد عليه ما كان حبس عنه وأجراه عليه . ودخل عمر منزل أبي عبيدة فلم ير الا لبداء وصحفة وشنا ، وسأله طعاماً فأخرج له من جونة كسرات خبكي عمر وقال : غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة ، وأرسل اليه أربعائة دينار ، وسأل من أرسله أن يقف على ما يفعل بها فوزعها أبو عبيدة كلها . وأرسل مثلها الى معاذ ابن جبل فوزعها الأشياء قليلة سألته امرأته اياها لحاجتها . فقال عمر لما أخبر بذلك : الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا . وكان معظم عمال عمر على غرار أبي عبيدة ومعاذ من التقشف والتبليغ باليسير ، وكان اذا لم تقنع نفسه بحسن سيرهم على الصورة التي لا يرى غيرها لا يتلکأ عن عزلهم . فقد شكى أهل حمص عاملهم سعيد بن عامر وسأله عزله لأنه لا يخرج للناس حتى يرتفع النهار ، ولا يجيب أحداً بليل ، وله في الشهر يوم لا يخرج فيه ، فلما أيقن عمر أن عامله يعجن كل يوم خبزه ويجلس حتى يختمر فيخبزه ثم يخرج للناس ، وأنه يجعل الليل كله للمبادة ، وأنه يشتغل مرة في الشهر بغسل ثيابه بعث اليه عمر ألف دينار يستعين بها فوزعها على جيش من جيوش المسلمين ..

وقدم سعيد بن عامر على عمر بالمدينة فلم يرفعه إلا عكاز أحمل عليه زاده . وقدح يا كل فيه . وكان من عماله عمير بن سعد وفيه يقول عمر : وددت لو أن لي رجلاً مثل عمير بن سعد أستعين به على أعمال المسلمين . وعمير هذا هو الذي يقال على منبر حمص : « لا يزال الاسلام منيعاً ما اشتد السلطان وليس شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط ، ولكن قضاء بالحق وأخذاً بالعدل »

وهذا من أبعد مرامي الإدارة العادلة إذا أحس أهل عمل من عاملهم العقل لا يحتاج في سياستهم إلى شيء من الشدة . كتب عمر إلى عمر أياكم كان عامله على حمص أقبل بما أصيبت من فيء المسلمين . فسأله عمر عما عمله قال : بعثني حتى أتيت البلد فجمعت صلحاء أهلها فوليتهم جباية فيئهم ، حتى إذا جمعوهم وضعتهم مواضعه ، ولو نالك منه شيء لأتيتك به . قال فما جئتنا بشيء .

قال : لا . قال جددوا العير عهداً . فقال عمر : لا عملت ولا لأحد بعدك ، والله ما سامت بل لم أسلم لقد قلت لنصراني أي أخزأك الله . فهذا ما عرضتني له يا عمر ، وإن أشقى أيامي يوم خلقت معك يا عمر . وكان إذا استعمل عاملاً كتب عهده : « وقد بعثت فلانا وأمرته بكذا » فلما استعمل حذيفة . ابن اليمان على المدائن كتب في عهده أن أسمعوا له وأطيعوه وأعطوه ما سألكم فيما قدم المدائن استقبله الدهاقين ، فلما قرأ عهده قالوا : سلنا ما شئت . قال أسألكم طعاماً آكله وعلف حماري مادمت فيكم . فأقام فيهم ، ثم كتب إليه ليقدم عليه ، فلما بلغ عمر قدومه كن له في الطريق فلما رآه عمر على الحال التي خرج من عنده عليها أتاه ، فالتزمه وقال : أنت أخي وأنا أخوك .

فعمر إذا لم يختار للأعمال إلا أفاضل الرجال ممن كانوا على سمته وزهده .

وكان كثيراً ما يستعمل قوماً ويدع أفضل منهم لبصرهم بالعمل ويقول : اكره أن أدنس هؤلاء بالعمل . وكان يشاور في كثير من الوقائع حتى قال يوماً لأصحابه : اشيروا على ودلوني على رجل استعمله في أمر قد ذهني فقولوا ما عندكم فإني أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنه واحد منهم ، فقالوا نرى لهذه الصفة الربيع بن زياد الحارثي . فنشير على أمير المؤمنين به . فأحضره وولاه ، فوفق في عمله ، وقام فيه بما أربى على رجاء عمر فـ فيه وزاد على عمله ، فشكر عمر من اشاروا عليه بولاية الربيع .

كتب إلى عامله على البحرين العلاء بن الحضرمي أن سر إلى عتبة بن غزوان
 فقد وليتك عمله ، واعلم أنك تقدم على رجل من المهاجرين الذين سبقت
 لهم من الله الحسنى ، وإني لم أعزله إلا يكون غنياً صلياً شديداً بالبأس ، ولكن
 ظننت أنك أغنى عن المسلمين في تلك الناحية فأعرفه حقه . ولما سير عمر عتبة
 ابن غزوان إلى البصرة ليقاتل من بالأبلة من فارس قال له انطلق أنت ومن معك
 حتى تأتوا أقصى مملكة العرب وأدنى مملكة العجم ، وأمره أن يشاور عرجة
 بن هرثمة لأنه ذو مجاهدة للعدو وذو مكابدة . وعزل عن بعض ولايات الشام
 شرحبيل ابن حسنة واستعمل بدلاً عنه معاوية بن أبي سفيان واعتذر على رؤوس
 الإشهاد وبأنه لم يعزله عن شيء هجته به بل أراد رجلاً أقوى من رجل وبعث
 المغيرة بن شعبة عاملاً على الكوفة لأنه قوى مشدد ، وكان عمر سأل عن الضعيف
 والقوى فقال : أما الضعيف المسلم فضعفه عليك وعلى المسلمين وفضله له ، وأما
 القوى المشدد فقوته لك وللمسلمين وشداده عليه . وعزل عامله على ميسان النعمان
 بن عدى لأنه بلغه أنه قال أبياتاً للتثبيت تشير إلى أنه يتعاطى الراح ، مع أنه
 عارف أن ذلك لم يكن وإنما هو قول شاعر ، وعزل زياد بن أبي سفيان فقال
 زياد : أعن عجز عزلتني يا أمير المؤمنين أم عن خيانة ؟ فقال : لا عن ذاك ولا عن
 هذا ، ولسكني كرهت أن أحمل على العامة فضل عقلك . وكتب إلى سعد بن أبي
 وقاص أن شاور طليحة الأسدي وعمرو بن معدى كرب في أمر حربك ولا قولها
 من الأمر شيئاً ، فإن كل صانع هو أعلم بصنعتة . وكتب إلى النعمان بن مقرن
 أن قبلك رجلين هما فارسا العرب عمرو بن معدى كرب وطليحة بن خويلد
 فشاوزا في الحرب ولا تولها شيئاً من الأمر . وبعث مع عبيد بن مسعود سليط
 ابن قيس لفتح العراق وقال له : لولا عجلة فيك لوليتك وإلكن الحرب زيون
 لا يصلح لها إلا الرجل المكث .

وسأل « عمر » « عمرو بن معدى كرب عن خبر سعد بن أبي وقاص نفسه

مقال : متواضع في الخيائه ، عري في نمرته ، أسد في تاموره ، يعدل في القضية ،
ويقسم بالسوية ، ويبعد في السرية ، ويعطف علينا عطف الأم البارة ، وينقل
إلينا حقنا نقل النرة . ولما شكى أهل الكوفة سعداً عزله عمر ولم تأخذه به هودة ،
لأن الغاية إنفاذ العمل النافع للناس على يد أى كان من عماله ، وأن لا يفتح
للمسلمين باباً للشكوى . وخير دروب السياسة أن يكون عمل العاملين فيها أكثر
من قول القائلين . « وسعد » هو الذى كان أجمع الصعابة على توسيد حرب
العراق إليه فأوصاه عمر بقوله : يا سعد سعد بنى وهيب لا يغرنك من الله أن قيل
خال رسول الله وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء
ولكنه يمحو السيء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته ،
فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، ويتفاضلون
بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الأمر الذى رأيت النبي منذ بعث
إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر . هذه عطى إليك إن تركتها ورغبت عنها
بحبط عملك ، وكنت من الخاسرين .

وذهب سعد بهذه النصيحة فكان على يده فتح العراق . كان عمر على
شدة فيه مع عماله إذا أحس باعتداه أو شبه إعتداء وقع على أحدهم ، يشتد على
المعتدين في تلك الناحية ليبقى للعامل هيبة توقره في الصدور ؛ ومهابة يلجم بها
العامة والخاصة .

وقع له مرة أن حصب أهل العراق إمامهم ، وقد كان عوضهم إماماً مكان
إمام كان قبله فخصبوه ، قفضب وقال لأهل الشام : تجهزوا لأهل العراق فإن
الشیطان قد باض فيهم وفرخ ، ودعا عليهم . ذلك لأن شكوى العراقيين
عاملهم كانت باطلة ، وهو الذى يتحرى في انتقاء عماله ولا يستسلم لأحد منهم ،
بل يجعل بعضهم رقيباً على بعض ، وله عليهم سلطان دونه كل سلطان .

شكاعة بن غزوان تسلط سعد بن أبى وقاص عليه فسكت عنه عمر ،

خاطب عتبة ذلك مراراً ، فلما أكثر على عمر قال : وما عليك يا عتبة أن تفرز بالإمرة لرجل من قريش له صحبة مع رسول الله وشرف . فقال له عتبة : أأنت من قريش والرسول يقول حليف القوم منهم ، ولى صحبة مع رسول الله قديمه لا تنكرو ولا تدفع فقال عمر : لا ينكر ذلك من فضلك . قال عتبة : أما إذا صار الأمر إلى هذا فوالله لا أرجع إليها أبدا . فأبى عمر إلا أن يرده فردته فمات بالطريق . وهذا من تأثير عمر في عماله ومعاملته لهم كما تريد المصلحة لا كما يريدون . مثال آخر يخالف هذا — والإدارة تختلف باختلاف الأزمان والبلدان — خالف معاوية وهو أمير الشام عبادة بن الصامت في شيء أنكره عبادة فأغلظ له معاوية في القول فقال عبادة : لا أسأكنك بأرض واحدة أبدا ورحل إلى المدينة فقال عمر : ما أقدمك . فأخبره . فقال : إرجع إلى مكانك يفتح الله أو لست فيها أنت ولا أمثالك . وكتب إلى معاوية لا إمرة لك عليه ، ذلك أن عمر لم يكن يستغنى عن خدمة معاوية ولا عن فضل عبادة . كان عمر وهو خليفة لا يميز نفسه عن جمهور الناس بشيء في لباسه ، ومركبه ، وحركته ؛ يختلط بالشعب كأنه واحد منهم ، ومع هذا كان الناس يخافونه ، ولو وقع مثل هذا التواضع أو التبذل من أحد أفراد الناس لجسروا عليه وضعف سلطانه عليهم إن كان من أرباب السلطان . ولقد كلم الناس عبد الرحمن بن عوف أن يكلم عمر في أن يلين لهم فإنه قد أخافهم حتى أنه أخاف الأباكر في خدورهم فقال عمر : إني لا أجد لهم إلا ذلك إنهم لو يعلمون مالهم عندي لأخذوا ثوبي عن عاتقي . وقال عمر : قد ولينا وولى علينا معناه قد ولينا فعلنا ما يصلح الوالى ، وولى علينا فعلنا ما يصلح الرعية .

وما أرانا نبعد عن الصواب إذا حكمنا أن شطراً عظيماً من وقت عمر في ولايته كان يصرفه في سياسة العمال وكشف حالهم وانتقاء أصلحهم وتسليكهم في الإدارة والسياسة والقضاء على أسلوب محكم لا تكاد تلحق به في هذا القرن

أغرق الدول الحديثة في المدنية وأفضلها بنظمها الإدارية والدستورية . ولعل في الناس من يقول : إذا عرضنا هنا لمصادرات عمر ، وهذا أيضاً من باب الشدة المتناهية والحجر على حرية العمال ، وإدخال الخوف عليهم بالضرب على أيديهم على صورة تحريمهم متع الحياة ، ولا توليهم منه غير الجفاء والخشونة في المعاملة . نعم هكذا كان عمر ، وهذا وضع أساس الحكم الإسلامي ؛ هو لا يُحوّز إغناء أفراد بإفقار أمة ، ولا اسعاد فئة بأشقاء مجموع . كان ممن يشترون رضا العامة بمصلحة الولاية ، فكان الوالي في نظره فرداً من الأفراد ، يجري حكم العدل عليه كما يجري على غيره من سائر الناس ، فكان حبه للمساواة لا يعدله شيء في أخلاقه . إذا اشتكى العامل اصفر الرعية جروه إلى المحاكمة حيث يقف الشاكي والمشكو منه يسوى بينهم في الموقف حتى يظهر الحق فإن توجه ، قبل العامل اقتص منه إن كان هناك داع إلى القصاص أو عامله بما تقضى به الشريعة أو عزله . ومن عادة عمران يكتب أموال عماله إذا ولاهم ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك وربما أخذ منهم . . مر بيناء بيني بحجارة وجص فقال : لمن هذا ؛ فذكروا عاملاً له على البحرين فقال : أبت الدراهم إلا أن تخرج اعناقها ؛ وشاطره ماله وكان يقول : لي على كل خائن أمينان الماء والطين . ولقد صادر عمر عامله على مصر عمرو بن العاص ، لأنه فشت له فاشيه من مئاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن له حين ولي مصر ، فادعى عمرو أن أرض مصر أرض مزدرع ومتحرر وأنها اثمان خيل وسهام اجتمعت وأنه يصيب فضلاً عما يحتاج إليه لنفقته ومع ذلك قاسمه عمر ماله . وصادر أباهريرة عامله على البحرين لأنه اجتمعت له عشرة آلاف وقيل عشرون ألفاً وادعى إن خيله تناسلت وسهامه تلاحقت وإنه أبحر فقال له عمر : انظر رأس مالك ورزقك فخذ ، واجعل الآخر في بيت المال ، يريد بذلك أن يحصر العامل وكده في خدمة أهل عمله ، أما الاتحاد وتشير الأموال فهذا ليس من شأن عمال الدولة ، فإن هؤلاء ما يتبلغون به من

رزق . وكان يرى في مصادرة المال وقهرهم ترويضاً لهم على الطاعة وترك العجبج والإدلال على الرعية وعن شاطرهم أيضاً النعمان بن عدي عامله على ميسان ، ونافع بن عمر والخزاعي عامله على مكة ، ويعلى بن مينه عامله على اليمن ، وسعد بن أبي وقاص عامله على الكوفة ، وخالد بن الوليد عامله في الشام ، وأخذ خالد ابن الوليد لأنه امره أن يحبس المال على ضعفة المهاجرين فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان فأجاز الأعشى لشعره ففضب عمر ، وكان أحد الشعراء كتب إليه يقول :

نحج اذا حجوا ونفزوا اذا غزوا فاني لهم وفر ولسنا بذى وفر
اذا التاجر المندى جاء بفارة من المسك راحت في مفارقهم تجرى
فدونك مال الله حيث وجدته سيرضون ان شاطرتهم منك بالشر

فشاطرهم عمر أموالهم وتولى ذلك منهم محمد بن مسلمة لثقته به ولم ينتطح في عمله عنزان .. لقد شاطر عمر سعداً وعمراً وخالداً وهم ممن يفتخر بهم الإسلام ، استكثر عليهم أن ينعموا وان كان الأول فاتح العراق والثاني فاتح مصر والثالث فاتح الشام . وقيل لعمر : ان عياض بن غنم ، وهو من كبار الفاتحين ورجال الإدارة في حكومته ، يتوسع كثيراً في اعطاء المال بحيث لا يقل في هذا المعنى عن خالد بن الوليد فقال : ان ذلك من شأن أبي عبيدة وعياض من أقرباء أبي عبيدة وعياض بن غنم هذا جلد دارا حين فتحت فأغلظ له هشام بن حكيم القول . حتى غضب عياض ، ثم مكث ليالى فأتاه هشام فاعتذر اليه ، ثم قال هشام لعياض . ألم تسمع رسول الله يقول : إن من أشد الناس عذاباً أشدهم للناس عذاباً في الدنيا . فقال عياض . قد سمعت ورأيت ما رأيت ، أو لم تسمع رسول الله يقول من أراد أن ينصح لذي سلطان عامة فلا يبد له علانيته ولكن ليخل به فإن قبل منه فذاك والا كان قد أدى الذي عليه . وانتك يا هشام لأنك الجريء إذ تجترى على

ساجطان لله فهلا خشيت أن يقتلك السلطان فتكون قتيل سلطان الله. كان عمر بن العاص يبعث الى عمر بعد حبس ما كان يحتاج اليه والمال يجبي من اموال الجزية وما يؤخذ من الخراج ، والنصارى واليهود اقروا على ما في ايديهم من الأرض يعمرونها ويؤدون خراجها ، ووضع في مصر عمر على كل حالم دينارين جزية الا أن يكون فقيراً ، والزم كل ذى أرض مع الدينارين ثلاثة أراذب حنطة وقسطين زيتا وقسطين عسلا وقسطين خل رزقاً للمسلمين تجمع في دار الرزق وتقسم فيهم . وأحصى عمرو بن العاص المسلمين فالزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف وبرنساً أو عمامة وسراويل وخفين في كل عام أو بدل الجبة الصوف ثوباً قبطياً . واستبطأ عمر في بعض السنين خراج مصر . فكتب الى عمرو : انى فكرت في أمرك والذى أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيقة ، وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوة في بر وبحر وأنها قد عاجلها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوهم وقفرهم ، وعجب من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدود الى آخر ما قال له ، وهز أعصابه بكلمات قاسية : فأجابه عمرو : لقد عملت لرسول الله ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأمانتنا حافضين لما عظم الله من حق أمانتنا ، نرى غير ذلك قبيحاً ، والعمل به سيئاً ، وقال : فامض في عملك فإن الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها . فكتب اليه انى لم أقدمك الى مصر اجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك ، فإذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج فإنما هو فيء المسلمين وعندى من قد تعلم قوم محصورون ... فأجابه عمرو . ان أهل الأرض استنظرونى الى أن تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق خيراً من أن نخرق بهم فيصيروا الى بيع مالا غنى بهم عنه .

ومع هذه الهيمنة من عمر على عماله تراه يشهد لعمر بن العاص بحسن السياسة دليلاً على تقدير عامله قدره .

وكان من رأى عمرو بن العاص في سياسة مصر أن الذى يصلح هذه البلاد وينميها ، ويقر قاطنيتها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها ، ولا يستأدى خراج ثمرة الا في أوانها . وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وتربتها . وكان عمر يقول ، اذا رأى رجلاً يتلجلج في كلامه : خالق هذا وخالق عمر بن العاص واحد . وعمرو بن العاص المثل السائر في حسن السياسة بين رجال العرب ، واحس قبط مصر بحميل عمله ، فدخلوا في الإسلام كثيراً . وأدى بهم التسامح أن رفع نصراني إليه أن غرقة بن الحارث الكندي من أصحاب الرسول الذين مكنوا مصر ضربه فوق أنفه . فقال عمرو للصحابي : إنا قد أعطيناهم العهد ، كأنه يريد أن يؤخذ الصحابي بما فعل فقال غرقة : معاذ الله أن نعطيهم العهد على أن يظهروا شتم النبي وإنما أعطيناهم العهد على أن نخلى بينهم وبين كنائسهم يقولون فيها ما بدا لهم ، وأن لا نحملهم ما لا يطيقون وان أرادهم عدو بسوء قاتلنا دونهم ، وعلى أن نخلى بينهم وبين أحكامهم الا أن يأتونا راضين بأحكامنا فتحكم بينهم وأن غيبوا عنا لم نتعرض لهم . فقال عمرو : صدقت .

خطب يوماً في الجانبية من حوران فكان مما قاله : ألا وإني ما وجدت صلاح ما ولانى الله الا بثلاث : أداء الأمانة ، والأخذ بالقوة ، والحكم بما أنزل الله ، ألا وإني ما وجدت صلاح هذا المال إلا بثلاث : أن يؤخذ من حق ويعطى في حق ويمنع من باطل . وكتب معاوية إلى عمر يصف له سوء حال الشام فكتب إليه في مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها ، وإقامة الحرس على مناظيرها واتخاذ المواقيد لها . ثم جاء عمر الشام مرات أربعة يكشف حال عمالها ويعنى بقسمة

الأرزاق ويسمى الشواتى والصوائف أى غزوات الشتاء والصيف ويسد الفروج
والمسالح فى كل كورة ويستعمل أناسا لهم غناء على السواحل من كل كورة أو
يقسم المواريث بعد طاعون عمواس ، وكان هلك فيه من المسلمين خمسة
وعشرون ألفا .

وقيل ان عماله استقبلوه مرة بأبهة فزل وأخذ بالحجارة ورماهم بها وقال
سأ أسرع مارجعتهم عن رأيكم إياى تستقبلون فى هذا الزى وإنما شبعتم منذ
سنتين وبالله لو فعلتم هذا على رأس الثنتين لاستبدلت بكم غيركم . واعتذر
له معاوية عامله فى الشام عن الموكب الثقيل الذى كان له قائلا . انا فى بلاد
لا تمتنع فيها من جواسيس العدو فلا بد لهم مما يرهبهم من السلطان فإن أمرتنى
فى ذلك قتت عليه ، وان نهيتنى عنه إنهيت . فلم يامر به ولم ينه عنه . فقال
عبد الرحمن بن عوف لعمر . لحسن ما صدر من هذا الفتى عما أوردته فيه
فقال : لحسن مصادره وموارده جشمناه ما جشمناه .

وقيل إنه قدم معاوية على عمر من الشام وهو أبض الناس فضرب عمر بيده
على عضده فأقلع عن مثل الشراب أو مثل الشراك . فقال : هذا والله لتشاغلك
بالحمامات وذوو الحاجات تقطع أنفسهم حشرات على بابك . وقال عمر : لئن
عشت إن شاء الله لاسيرن فى الرعية حولا فإنى أعلم للناس حوائج تقطع عنى ،
أما هم فلا يصلون إلى ، وأما عيالهم فلا يرفعونها إلى ، فأسير إلى الشام فأقيم بها
شهرين ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين
ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين .

وخصلة أخرى أيضاً لعمر ، تعتبر من بدائع إدارته الحسنة ، وهو أنه ما كانت
تفوته مسألة فيها تقوية قلوب الأمة والاعتماد على نفسها ... خطب مرة فقال :
أعطوا الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تتحاكموا إلى فإنه

ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة ، وأنا حبيب إلى صلاحكم ، عزيز على عتبيكم ، وأنتم أناس عامتكم حضر في بلاد ، وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع إلا ما جاء الله به إليه .

يريد أن يعلم الناس أن لا يكثرُوا من الرجوع إلى الحاكم للفصل بينهم في خصوماتهم ، ليصرف وقته في التفكير في أمورهم الخطيرة ، وأن يعتمدوا على أنفسهم لا على صاحب السلطان ، وأن يعرفهم حالة الحاضر والبادي منهم ، ويعلمهم أن يعملوا ولا يسرفوا لأنهم فقراء . وطالما قال لقومه أصلحوا أموالكم التي رزقكم الله ولقليل في رفق خير من كثير في عنف . يريد أن يسوق الناس إلى المدنية بتؤدة على صورة فيها تدريج . وكان يقول : من كان له مال فليصلحه ومن كانت له أرض فليعمرها وانه يوشك أن يحىء من الا يعطى إلا من أحب . ونظر الى رجل مظهر للنسك متماوت فحققه بالدرة وقال له : لا تمت علينا ديننا أماتك الله . وكان يقول : ليس قوم أكيس من أولاد السراى لأنهم يجمعون عزم العرب ودهاء العجم .

وكان عزام عمر أبدأ أن يلحق قومه العمل ويبعد بهم عن حياة الكسل ، ولطالما قال لكتابه وعماله ان القوة على العمل أن لا تؤخروا عمل اليوم لغد فإنكم اذا فعلتم ذلك تذاءبت عليكم الأعمال فلا تدرُونَ بأياها تبدأون ولا بأياها تأخذون . وما كان يرى ابعاد العامة عن المجالس العالية لثلاثفوتهم الفوائد وليتربوا على أيديهم بما يسمعون وينقلون عنهم . ويوزع الأعمال بين الكفاة وأرباب التخصص ويقول : أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني ، فإن الله جعلني له خازناً وقاسماً .

وكتب عمر الناس على قبائلهم أى أحصاهم ، ففرض الفروض وأعطى
المطايا على السابقة ، بدأ بالأقرب فالأقرب من الرسول وفرض لأهل بدر ولبن
بعدم الى الحديبية وبيعة الرضوان ثم لمن بعدم ولأهل القادسية واليرموك وأعطى
نساء النبي وغيرهم ورزق الصبيان والأئمة والمؤذنين والمعلمين والقضاء والشعراء .
وحلف على أيمان ثلاث فقال : والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد وما أنا أحق
به من أحد والله ما من المسلمين من أحد الاوله في هذا المال نصيب الا عبداً
مملوكاً ولكننا على منازلنا من كتاب الله تعالى ، وقسمنا من رسول الله ، فالرجل وبلاؤه
في الإسلام ، والرجل وقدمه في الإسلام ، والرجل وغناؤه في الإسلام ، والرجل
وحاجته ، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال
وهو يرعى مكانه .

جمع عمر المسلمين لأول عهده وقال ما يحل للوالى من هذا المال فقالوا جميعاً
أما لخاصته فقوته وقوت عياله ، لاوكس ولاشطط وكسوتهم وكسوته للشتاء
والصيف ودابتان إلى جهاده وحوأئجه وصلاته وحجه وعمرته ، والقسم بالسوية
وأن يعطى أهل البلاد على قدر بلائهم ويرم أمور الناس بعد ، ويتعاهددهم عند
النوازل ، حتى تنكشف ويبدأ بأهل الفء . وكان عمر إذا احتاج أتى صاحب
بيت المال فاستقرضه فربما عسر فيأتيه صاحب بيت المال فيتقاضاه فيلزمه
فيحتال له عمر ، وربما خرج عطاؤه فقضاه . وطلق أحد أصحابه أن يقرضه ما لا فقال
له ما يمنعك أن تقرض من بيت المال فأجابه إذا مات وهو له مدين ربما
غفلوا عن تقاضى ما اقترض ، أما صاحبه فإنه لحرصه ماله يطالب الورثة بماله
فيستوفيه وتبرأ ذمة عمر .

ومما تعلق به همّة عمر إحداث أوضاع جديدة قنضتها حالة التوسع في
الفتوح فهو أول من حمل الدرة وهو أول من دون الدواوين على مثال دواوين

للقمرس والروم ، دونها له عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم ، وكانوا من نبهاء قريش لهم علم بالأنساب وأيام الناس . والديوان الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية . وعرفوا الديوان بأنه موضع لحفظ ما تعلق بحقوق السلطة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال ، وأطلق بعد حين على جميع السجلات والأضابير والطوامير . وثبت أنه كان له سجن وأنه سجن الخطيئة على الهجو وسجن ضبيعاً على سؤاله عن الذاريات والمرسلات والنازعات وشبههن وضربه مرة بعد مرة ونفاه إلى العراق ، وكتب أن لا يجالسه أحد فلو كانوا مائة تفرقوا عنه حتى كتب إليه عامله أن حسنت توبته ، فأمره عمر نخلى بينه وبين الناس . وكانت أعمال عمر جداً كلها لا يجوز لأحد أن يجلس في المسجد في غير أوقات الصلاة ، وبني في المسجد رحبة تسمى البطيحا ، قال من كان يريد أن يلفظ أو ينشد شعراً أو يرفع صوته فليخرج إلى الرحبة . وما كان المسجد في أيامه لغير الصلاة والقضاء . وكان الخلفاء الراشدون يجلسون في المسجد لقضاء الخصومات . ولما كثرت الفتوحات وأسلمت الأعاجم وأهل البوادي وكثر الولدان أمر عمر ببناء بيوت المكاتب ونصب الرجال لتعليم الصبيان وتأديبهم .

وضع عمر أول ديوان في الإسلام للخراج والأموال بدمشق والبصرة والكوفة على النحو الذي كان عليه قبل . وقيل إن أول ديوان وضع في الإسلام هو ديوان الإنشاء ودواوين الشام تكتب بالرومية ، ودواوين العراق بالفارسية ودواوين مصر بالقبطية ، يتولاها النصارى والمجوس دون المسلمين ، والسبب في تدوين الدواوين أن عامل عمر على البحرين أتاه يوماً بخمسمائة ألف درهم فاستعظمها وجعل عليها حراساً في المسجد فأشار عليه بعض من عرفوا فارس والشام أن يدون الدواوين يكتبون فيها « الأسماء وجعل الأرزاق » (م ٢٧ — الراشدين)

مشاهرة » وجعل عمر تابوتا أى صندوقا لجمع صكوكه ومعهاداته .
وجند الأجناد أى ألف الفيلق ، فصير فلسطين جنداً أو الجزيرة جنداً ، والموصل
جنداً وقسرين جنداً ، وأصبح كل جند فى الشام والعراق يتألف من مقاتلة
للمسلمين ويسير الناس بقضهم وقضيضهم إلى الزحف عند الحاجة حتى النساء
والأولاد . وما كان الجند يحملون كلهم فى السلاح بل يترك بعضهم فى البلاد
يكونون على استعداد للوثبة عند أول إشارة ، والغالب أنه كان يُترك فضل فى
بيوت الأموال خارج الحجاز يستخدم فى طارىء إذا طرأ وما كانت الصوافى تحمل
كلها إلى الحجاز ، بل يدخر بعضها فى بيوت الأموال فى الشام والعراق ومصر ،
وجزء عظيم من دخل الدولة يصرف فى الوجوه التى أشرنا إليها .

وعمر هو أول من لقب بأمير المؤمنين ، وأول من استقضى القضاة ، وأول
من أحدث التاريخ الهجرى فأرخ سنة ست عشرة بهجرة رسول الله من مكة
إلى المدينة ، فكان أول من أرخ الكتب وختم على الطين . قال اليعقوبى
وأمر زيد بن ثابت أن يكتب الناس على منازلهم وأمره أن يكتب لهم صكا من
قراطيسه ثم يختم أسافلها ، فكان أول من صك وختم أسفل الصكاك وغيره .
أسماء المسلمين بأسماء الأنبياء . وكان أول من مصر الأمصار ، مصر المصرين
البصرة والكوفة وكان إذا جاءته الأقضية المعضلة قال لعبد الله بن العباس : انها
قد طرأت علينا أقضية وعضل فانت لها ولأمثالها ، ثم أخذ بقوله . وما كان يدعو
لذلك أحداً سواه ، وكان فى المسائل العامة يسأل الناس فى المسجد عن آرائهم
ثم يعرض رأيه ورأيهم على مجلس شورا وهم من كبار الصحابة ، فما استقر
عليه رأيهم أمضاه ، فكانت أعماله ثمرة ناشجة من الآراء الصائبة ، ولذلك
ندرت هفواته فى الإدارة بالقياس إلى غيره لأنه يتروى ويعمل بآراء أهل الرأى
ولما أرسل عبد الله بن مسعود الى العراق وزيراً ومعلماً مع عمار بن ياسر الذى
ولاه الامارة كتب إلى أهل العراق « وقد جعلت على بيت مالكم عبد الله

ابن مسعود وآثرتم به على نفسه ، وقد يبعث إلى بعض الأقطار عاملاً على الصلاة والحرب ويسميه معلماً ووزيراً كما فعل في العراق أو يجمع للعامل بين الصلاة والخراج كعامل مصر . وتقسيم العائلات في الشام يختلف عن اليمن وعامل البحرين لا يكون كعامل اليمامة وقد يبعث أناساً لمساحة الأرض ، وأناساً لتقدير الخراج ، وآخرين لإحصاء الناس ، وقال لعاملين له توليا مساحة العراق ووضع الخراج على سوادها : أخاف أن تكونا حملتا الأرض مالا تطيقه ، لئن سلمني الله لأدعن أرامل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدى أبداً . وقال : اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار فإني إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ويعملوا عليهم ويقسموا فيهم بينهم ويرفعوا إلى ما أشكل عليهم من أمورهم . وكان يرزق العامل بحسب حاجته وبلده ولما استعمل زيد بن ثابت على القضاء ففرض له رزقا ، وكان يرزق عامله على حمض عياض بن غنم كل يوم ديناراً وشاة ومداً . وبعث إلى الكوفة عمار بن ياسر على الثغر ، وعثمان بن حنيف على الخراج ، وعبد الله بن مسعود على بيت المال . وأمر هذا أن يعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين ، وفرض لهم شاة كل يوم ، وجعل شطرها وسواقطها لعمار بن ياسر ، والشرط الآخر بين عبد الله بن مسعود وعثمان بن حنيف . . كان أبو بكر يساوي الناس في العطاء ولا يفضل أهل السابقة ويقول إنما عملوا الله فأجورهم على الله . وإنما هذا المال عرض حاضر يأكله البر والفاجر وليس ثمناً لأعمالهم . وكان عمر يقول لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ولم يقدر عمر الأرزاق إلا في ولاية عمار فأجرى عليه ستمائة درهم مع عطائه لولائه بوكتابه ومؤذنيه ومن كان يلي معه في كل شهر .

وكان عطاء عثمان بن حنيف خمسة آلاف درهم في كل شهر وربيع شاة في كل يوم ، وأجرى على شريح القاضي مائة درهم في كل شهر وعشرة أجرة ، وإنما فضل عمار لأنه كان على الصلاة . قال الحسن وكان عطاء سلمان خمسة

آلاف وكان على زهاء ثمانين ألفاً من الناس . وأثناء عبث الله بن عمر السعدي قال له عمر : ألم أحدث أنك تلي من أعمال المسلمين أعمالاً فإذا أعطيت العمالة كرهتها فقال : بلى . فقال عمر : ما تريد إلى ذلك . قل : إن لي أفراساً وأعبداء وأنا بخير وأريد أن تكون عمالتي صدقة على المسلمين . فقال عمر : لا تفعل فإني كنت أردت الذي أردت ، وكان رسول الله يعطيني العطاء فأقول : أعطه أفقر اليه مني . فقال النبي (ص) خذه فتموله وتصدق به ، فما جاءك من هذا المال من غير مسألة ولا إشراف فخذ ، ومالا فلا تتبعه نفسك .

كان عمر يأمر الناس بالتفقه في الدين ويجد في إرسال الفقهاء إلى الأمصار يفتقرون المؤمنين ويعلمونهم دينهم وقد لا يرسلهم إلا بعد أخذ رأيهم ولما أراد أن يرسل سعد بن عبيد ، وكان لا يسمى القاريء من الصحابة غيره قال له : هل لك في الشام فإن المسلمين تزفوا وإن العدو قد دثروا عليهم وذلك بعد طاعون . عمواس . وكان يقول حين خرج : هاذ بن جبل إلى الشام : لقد أخل خروجي بالمدينة وأهلها بالفقه ، ولقد كنت كملت أبا بكر رحمه الله أن يجلسه لحاجة الناس إليه . فأبى علي وقال : رجل أراد جهاداً يريد الشهادة فلا أجلسه . وفي كتب عمر إلى قضاائه وعماله كآبي موسى الأشعري والقاضي شريح وأبي عبيدة ومعاوية وغيرهم قوانين في التشريع والإدارة سنّها للمسلمين لا تزال إلى يوم الناس هذا هي الممول عليها . ورسائله في القضاء إلى أبي موسى الأشعري جمع فيها « جمل الأحكام ، واختصرها ، بأجود الكلام ، وجعل الناس بعده يتخذونها إماماً ، ولا يجد بحق عنها معدلاً ، ولا ظالم عن حدودها محيصاً » ولقد قالوا : « إذا اختلف الناس في أمر فانظر كيف قضى عمر ، فإنه لم يكن يقضى في أمر لم يقض فيه قبله حتى يشاور » وكان أبدأ يأخذ آراء أصحابه لا يقطع أمراً عظيماً من دون استشارتهم . ويقول : الرأي الفرد كالخيط السحيل ، والرأيان كالخيطين المبرمين ، والثلاثة مزار لا يكاد ينتفض . هذا ولو وضع علم عمر في كفة كما قال ابن مسعود . ووضع علم أحياء العرب .

بقى كفة لرجل بهم علم عمر... وأنشد عمر ذات يوم شعر زهير بن أبي سلمى
قلما بلغ قوله :

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو تقار أو جلاء

جعل يتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها ويقول : لا يخرج الحق من
يأحدى ثلاث..، اما يمين أو محاكمة أو حجة .

وكانت المدينة في أيام عمر أشبه بمدرسة يتخرج فيها القضاة والعمال والقواد
والأمراء فلا يبعث الى الأمصار إلا من اختبره في الجملة ، وقلما أخطأت فراسته
في الناس ، وهو المثل الأمثل في جده . كان كعب بن سور جالساً عند عمر فجاءته
امرأة تشتكى زوجها فقال لكعب : اقض بينهما فلما قضى بما أعجبه وما لم يخطر
له ببال قال لكعب : إذهب قاضياً على البصرة . ساوم عمر بفرس فركبه ليشوره
فخطب فقال للرجل : خذ فرسك . فقال الرجل : لا . قال : اجعل بيني وبينك
حكماً . قال الرجل : شريح . فتحاكما اليه فقال شريح : يا أمير المؤمنين
خذ ما ابتعت أو زد كما أخذت . فقال عمر : وهل القضاء الا هكذا ، سر الى
الكوفة فبعثه قاضياً عليها . قالوا وإنه لأول يوم عرفه فيه . وبقى شريح قاضياً
هناك ستين سنة .

ومن الفقهاء في أيامه أبو موسى الأشعري ، وسلمان بن ربيعة الباهلي ، وأبو قرة
الكندي ، وأبو اليرداء ، وأبو سعيد الخدري ، وعبد الله بن عباس . ومن
عماله نافع بن عبد الحارث الخزاعي ، وسفيان بن عبد الله الثقفي ، وعبد الله بن أبي
ربيعة ، وعبادة بن الصامت ، وشداد بن أوس ، وقتادة بن النعمان ، وعمر
بن وهب بن خلف الجحفي ، وعتبة بن مسعود ، وعدى بن أبي الرعاء الجهني ،

وعويم بن ساعدقة ، وسهيل بن رافع ، ومسعود بن أوس بن زيد الأنصاري ،
وواقد بن عبد الله التميمي ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم . من كل من هو فرد
في علمه ، متميز بحسن سياسته وإدارته . كتب إلى أبي موسى الأشعري : انه لم
يزل للناس وجوه يرفعون حوائج الناس فأكرم وجوه الناس ، فبحسب المسلم
الضعيف من العدل أن ينصف في الحكم والقسمة يعني أن عمر أوصى بالأخيار ،
وإن كان يكره الشفاعة والوساطة فقد توسط مولى عمر بأن يكتب كتاباً إلى
عامل في العراق ليكرم أحدهم قصدوا إليها فلتنهره عمر وسبه وقال : أتريد أن
يظلم الناس وهل هو الا رجل من المسلمين يسه ما يسعهم ؟

كان ابن الخطاب يفحص أموراً لا تخطر ببال أحد . كتب إلى أبي موسى
الأشعري « إني قد بعث إليك مع غاضرة بن سمرة العنبري بصحف فإذا أتاك
لكذا وكذا فأعطه مائتي درهم وإن جاءك بعد ذلك فلا تعطه شيئاً واكتب
إلى في أي يوم قدم عليك » يريد بذلك أن يعلم من يستعملهم الجدة والاهتمام
والحرص على الأوقات وضبط المواعيد ، هو يعطى من أرسله بالصحف مائتي
درهم إذا جد فوصل البلد الذي عين له في الأجل المضروب وإلا فيحرم أجرته ..
وكتب إلى أبي موسى الأشعري أيضاً إذا أتاك كتابي هذا فضرب كاتبك
سوطاً واعزله عن عمله . وذلك أن كاتب أبي موسى كتب إلى عمر (من
أبو موسى) وكان عليه أن يقول (من أبي موسى) . ودبر علم الرملة (١٧ - ١٨)
تديراً إدارياً ناجحاً عندما رأى الناس يهلكون من المجاعة ، فكتب إلى
أمراء مصر والشام والعراق أن يوافوه بالميرة فأتته القوافل تحمل طعماً كثيراً
وغيره ، فوسع على الناس ، وكان قطاع الطعم عن نفسه وأطعم الجائع ، ولولا
تدابيره هذه لهلك أهل الحجاز جميعهم ..

ومن جملة تدابير الإداريّة أنه « حَجَرَ على أعلام قريش من المهاجرين الخروج من البلدان إلا بإذن وأجل فشكوه فبلغه فقام فقال: ألا إني قد سنّبت الإسلام سن البعير يبدأ فيكون جذعاً ثم ثنياً ثم رباعياً ثم سداسياً ثم بازلاً ، ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ، ألا فإن الإسلام قد بزل ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا أمال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حيّ فلا . إني قائم دون شعب الحرّة آخذ بمحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار » . هذا مجمل من إدارة عمر ، وقد كان شديداً في إقامة الحدود يقيمها على أقرب الناس إليه : حد في الخمر ابنه ، وعاقب ابن عمرو بن العاص عامل مصر ، لأن أحد قبضها استعداد عليه . قال السائب بن يزيد كنا نوثق بالشارب على عهد رسول الله وأماراة أبي بكر وصدر من خلافة عمر ، فنقوم إليه بأيدينا ونعالنا وأرجلنا وأرديتنا ، حتى كان آخر إمرة عمر فجلد أربعين ، حتى إذا عتوا وفسقوا جلدوا ثمانين . ولما ضعف نصاب الشهادة على المغيرة بالزنا سرى عنه لأنه ما أراد أن يرجم أحد من الصحابة وأراد أن يحد جبلة بن الأيهم من ملوك غسان لأن رجلاً فزارياً في الحج وطىء على أزاره فلطمه جبلة فهشم أنفه ، وشكاه الفزاري فأراد عمر جبلة على أن يقتدى نفسه أو يأمر الرجل بلطمه ، فقال جبلة : كيف ذلك وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال : ان الإسلام جمعكما ، وسوى بين الملك والسوقة في الحد . ففر جبلة والتحق بالروم . وكان يساوى بين الناس في القضاء مهما علت منزلتهم ، وبلغه عن بعض عماله وهو في دار الحرب أنه تعدى حداً من حدود الله فأغضى عنه لثلاثا يعتصم ببلاد الروم .

وكان إذا أراد أن يأمر المسلمين بشيء أو ينهاهم عن شيء مما فيه صلاحهم بدأ بأهله وتقدم إليهم بالوعظ لهم ، والوعيد على خلافهم أمره . وما كان يميز أحداً من آل بيته في شيء ، وربما هضم بعض حقهم وأعطاه من هو أجدر منهم . . . قسم عمر مروطاً بين نساء المدينة فبقي فيها مرط جيد فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين ، أعط هذا ابنة رسول الله التي عندك فقال : أم سليط أحق به فإنها ممن بايع رسول الله ، وكانت تزفر لنا القرب يوم أحد . وقال أحدهم لعمر اتق الله يا أمير المؤمنين فقال : لا خير فيكم إن لم تقو لو هالنا ، ولا خير فينا إذا لم نقبها منكم وردت عليه امرأة فرج إليها وقال : رجل أخطأ وامرأة أصابت .

وكان لا يقرب الشعراء ولكنه يجري عليهم رزقا يسكفيهم . كتب مرة إلى المغيرة بن شعبة أن استنشد من قبلك من الشعراء ما قالوا في الجاهلية والإسلام فأرسل إلى الأغلب العجلي فقال إنه على استعداد لأن ينشده ، ثم أرسل إلى لبيد بن ربيعة فقال أنشدني فقال : إن شئت أنشدتك مما عفى عنه من شعر الجاهلية قال : لا . . . أنشدني ما قلت في الإسلام ، فانطلق إلى أديم فكتب سورة البقرة فقال : أبدلني الله مكان الشعر هذا . قال فكتب بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر : إنه لم يعرف أحد من الشعراء حق الإسلام إلا لبيد بن ربيعة فأنقص من عطاء الأغلب خمسمائة واجعلها في عطاء لبيد .

نهج عمر بن الخطاب لمن يخلفه النهج الذي يجب السير عليه في تدبير الدولة . وأوصى الخليفة بعده أن يقر عماله سنة فيما قيل ، وأوصاه بتقوى الله لا شريك له وبالمهاجرين الأولين خيراً وأن يعرف لهم سابقتهم ، وأوصاه بالأنصار خيراً يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئتهم ، وأوصاه بأهل الأمصار خيراً فإنهم

رده العدو وحياة الفء ، وأن لا يحمل فيثهم إلا عن فضل منهم ، وأوصاه بأهل البادية خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام ، وأن يأخذ من حواشى أموال أغنيائهم فيرده على فقرائهم ، وأوصاه بأهل الذمة خيراً وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفهم فوق طاقتهم إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعاً أو عن يد وهم صاغرون ، وأوصاه بالعدل فى الرعية والتفرغ لحوائجهم وتغورهم وأن لا يؤثر غنيهم على فقيرهم ، وأن يشتد فى أمر الله وحدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم ، ثم لا تأخذه فى أحد رافة حتى ينتهك منه مثل ما انتهك من حرم الله ، ويجعل الناس عنده سواء لا يبالى على من وجب الحق ، ثم لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وأوصاه أن لا يرخص لنفسه ولا لغيره فى ظلم أهل الذمة ، وأنشده الله أن يرحم جماعة المسلمين ويحل كبيرهم ويرحم صغيرهم ويوقر عالمهم ، وأن لا يضربهم فيذلوا ، ولا يستأثر عليهم بالفء فيفضبهم ، ولا يحرمهم عطاياهم عند محلها فيفقرهم ، ولا يحرمهم فى البعوث فيقطع نسلهم ، ولا يجعل المال دولة بين الأغنياء منهم ، ولا يفلق بابه دونهم فياً كل قويمهم ضعيفهم .

ولما أفضى الأمر إلى عثمان بن عفان حافظ على الأوضاع التى وضعها عمر ، وكان أول كتبه إلى أمراء الأجناد : « قد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان على ملأ منا ، ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم » وكان أول كتبه إلى عماله : « فان الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وان صدر هذه الأمة قد خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . ألا وان أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم ، فتعطوهم ما لهم وتأخذون بما عليهم ، ثم تشفوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذون بالذى عليهم » وكتب إلى عمال الخراج : « أما بعد فإن الله تعالى خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق ، خذوا الحق وأعطوا

الحق ، والأمانة الأمانة قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم ، والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المحروم فإن الله خصم لمن ظلمهم ، وكتب إلى الأمصار أن يوافيه العمال في كل موسم ومن يشكهم ، وكتب إلى الناس في الأمصار أن ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، ولا يذل المؤمن نفسه فأبى مع الضعيف على القوى مادام مظلوماً إن شاء الله . » واعتمد عثمان لأول ولايته في مشورته على من اعتمد عليهم الشيخان من قبل ، وفي الولايات على بعض من كانوا عمالاً لعمركم على أناس من أهله وعشيرته ومن اعتمد عليهم مروان بن الحكم . وكان مروان في ولايته على المدينة يجمع أصحاب الرسول يستشيرهم ويعزل بما يجمعون عليه . ولم يكن عثمان مبتدعاً بل كان متبعاً اتبع سيرة العمرين في الحكومة . وما عزل أحداً إلا من شكاة أو استعفاء من غير شكاة . وكثر المال في أيامه فكان لا يتوقف في إنفاقه . قيل انه باع غنائم أفريقية بخمسمائة ألف دينار وأعطاهم مرواناً ولم يطالبه بها ، ولم يزل المال متوفراً حتى لقد بيعت الجارية بوزنها ورقاً وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار وبيع البعير بألف والنخلة الواحدة بألف . وأعطى عبد الله بن الأرقم وكان عمر استعمله على بيت المال ثلثمائة ألف درهم فأبى أن يقبلها وقال : عملت لله وإنما أجرى على الله .

وكان عثمان جواداً ويحث عماله على الجود . قدم المدينة ابن خاله عبد الله بن عامر فاتح خراسان وأطراف فارس وسجستان وكرمان وزابلستان وهي أعمال غزاة فقال له عثمان : صل قرابتك وقومك . ففرق في قریش والأنصار شيئاً عظيماً من الأموال والكسوات . وأرسل إلى علي بن أبي طالب بثلاثة آلاف درهم وكسوة ، فلما جاءته قال : الحمد لله أنا نرى تراث محمد يأكله غيرنا . فبلغ ذلك عثمان فقال لابن عامر : قبح الله رأيك أترسل إلى علي بثلاثة آلاف درهم . قال : كرهت أن أغرق ولم أدر ما رأيك قال : فأغرق . قال : فبعث إليه بعشرين

ألف ذرهم وما يتبعها. قال : فراح على إلى المسجد فأنهى إلى حلقة وهم بهذا كرن .
صلات ابن عامر ، هذا الحى من قریش . فقال على : هو سيد فتیان قریش غير .
مدافع . وكان ذلك من سياسة عثمان وحسن إدارته .

ومن ذلك أن عامله على الكوفة كتب إليه أن أهل الكوفة قد اضطرب .
أمرهم ، وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة ، والغالب على
تلك البلاد روادف ردت وأعراب لحقت حتى ما ينفر إلى ذى شرف ولا بلاء
من نازلتها ولا نابتها فكتب إليه عثمان :

أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن
من نزلها بسببهم تبعاً لهم . إلا أن يكونوا ثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به
وقام به هؤلاء ، واحفظ لكل منزلته ، فأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق فإن
المعرفة بالناس بها يصاب العدل . ١ هـ .

وكانت مغازى أهل الكوفة في زمنه الرى وأذربيجان وكان بالثغرين
عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة ستة آلاف بأذربيجان وأربعة بالرى وكان
بالكوفة إذ ذاك أربعون ألف مقاتل وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة
آلاف في كل سنة فكان الرجل يصيبه في كل أربع سنين غزوة . وضعفت
الإدارة في النصف الأخير من عهد عثمان لشيخوخته ، ولأنه لا يستطيع من كان
في سنه أن ينظر في جميع المسائل . واشتغل بعض كبار العمال بأطماعهم في الولايات ،
وشاغب المحرمون على النصويين ، وكثيراً ما كان يصر على تنفيذ أوامره
لا يبالي كثيراً بالشكاوى لعلمه بأنها صادرة على الأكثر من أغراض شخصية ،
وما نفع اللين ولا الشدة يوم حم القضاء فكان من قتله ما كان . ومن أهم الأسباب
في مقتله غلطة إدارية بدرت منه ساق إليها الغضب والعجلة . قالوا أنه اجتمع أناس

من أصحاب النبي كتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خلف فيه عثمان من سنة رسول الله ، وما كان من تطلوله في البنيان ، وما كان من إفشائه العمل والولايات في أهله وبني عمه من بني أمية وهم أحداث وغلبة ، لا صحة لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالأمر ، وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح وهو أمير عليها أربع ركعات ثم قال لهم : إن شئتم أن أزيدكم ركعة زدكم ، وتعطيله الحد عليه وتأخير ذلك عنه « جلده حين شهد عليه بشرب الخمر وأنه تعاطاها » وتركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شيء ، ولا يستشيرهم واستغنى برأيه عن رأيهم ، وما كان من الحمى الذي حمى حول المدينة ، وما كان من إرادة القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي ثم لا يغزون ولا يذبون ، وما كان من مجاوزته الخيزران إلى السوط ، وأنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس ، وإنما ضرب الخليفين قبله بالدرة والخيزران . ثم تعاهد القوم ليدفعن الكتاب في يد عثمان ، وكان ممن حضر الكتاب عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وكانوا عشرة ، فلما خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان والكتاب في يد عمار ، جعلوا يتسللون عن عمار حتى بقي وحده ، فمضى حتى جاء دار عثمان فاستأذن عليه فأذن له في يوم ثبات ، فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم وأهله من بني أمية فدفع إليه الكتاب فقرأه فقال له : أنت كتبت هذا ؟ قال . نعم . قال : ومن كان معك ؟ قال : كان معي نفر تفرقوا فرقاً منك قال : ومن هم ؟ قال : لا أخبرك بهم . قال : فلم اجترأت على من بينهم ؟ فقال مروان : يا أمير المؤمنين إن هذا العبد الأسود (يعني عماراً) قد جرأ عليك الناس وإنك إن قتلته نكلت به من وراءه . قال عثمان : اضربوه فضربوه وضربه عثمان معهم حتى فلقوا بطنه ، ففشى عليه فجروه حتى طرحوه على باب الدار . وغضب فيه بنو المغيرة وكان حليفهم . ذلك لأن عماراً كان من أعظم الصعابة ومن النقباء في مجلس شورى الرسول ، ومنالقه كثيرة في الإسلام ،

فمثل هذا لا يضرب على هذه الصورة البشعة ، ومكلفته مكافئته بين المسلمين .
 والمثل العربي يقول : « العبد يقرع باللعصا والحر تكفيه الملامة أو الإشارة » .
 ومعلمة عمار بهذه القسوة ساقته إلى أن كان من أعظم من ألّب الناس على عثمان
 وخدم علياً ضروب الخدم حتى قتل في صفين . ومن عمال عثمان عبد الله بن
 الحضرمي ، والقاسم بن ربيعة ، وعبد الله بن عامر ، وحبيب بن سلمة الفهري ،
 وأبو الأعور الأسلمي ، وعلقمة بن حكيم ، وجابر بن فلان المزني ، وسماك الأنصاري ،
 والقعقاع بن عمرو ، وجريز بن عيلان . والأشعث بن قيس ، وعتيبة بن النحاس ،
 ومالك بن حبيب ، وسعيد بن قيس ، والسائب بن الأقرع ، وعقبة بن عامر ،
 ومعاوية بن أبي سفيان ، والغالب عليه مروان بن الحكم ، وكان عثمان ست سنين
 في ولايته وهو أحب الناس من عمر بن الخطاب وكان عمر رجلاً شديداً وقد ضيق
 على قريش أنفاسها لم ينل أحد معه من الدنيا شيئاً إعظاماً له وإجلالاً وتأييماً به
 واقتداءً ، فلما وليهم عثمان وليهم رجل لين ثم أنكر الناس عليه أشياء أثراً وبطراً .
 قال ابن عمر : لقد عيبت عليه أشياء لو فعلها عمر ما عيبت عليه .

أما طريقة علي بن أبي طالب فكانت أيضاً في الإدارة طريقة من سبقوه
 إلى الإمامة : يولي العامل ويطلق يده على الجملة ويكشف حاله ، ويدعو عماله
 إلى التبليغ بميسور العيش والرفق بالرعية ويضع لهم المنهاج الذي يسرون عليه .
 أوصى أحد عماله بأهل عمله فقال : إذا قدمت عليهم فلا تبين لهم كسوة شتاء
 ولا صيفاً ، ولا رزقاً يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضرب أحداً منهم
 سوطاً واحداً في درهم ، ولا تقمه على رجله في طلب درهم ، ولا تبع لأحد منهم
 عرضاً في شيء من الخراج ، فإنما أمرنا أن نأخذ العفو منهم . ومما كتبه إلى الأشر
 النخعي وهو مما لم ينفذ وبقي في حيز الأقوال ، لمقتل الأشر قبل أن يبلغ مصر
 قوله : وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن في إصلاحه وصلاحتهم صلاحاً لمن
 سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم . لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله .

فوليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أضربا البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلا . . . وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإشراف الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالعبر .

وعما جاء في هذا الكتاب : ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً . ولا تولهم محابة وأثرة ، فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة ، وتوج منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام . فإنهم أكثر أخلاقاً وأصح أعراضاً وأقل في المطامع إشرافاً ، وابلغ في عواقب الأمور نظراً ، ثم اسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم وابتعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ، فإن تعاهدك في السر لأموالهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية ، وتحفظ من الأعوان فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك ، اكتب بذلك شاهداً فابسط عليه العقوبة في بدنه .

وجاء في هذا الكتاب أيضاً : ثم إن للوالى خاصة وبطانة فيهم استئثار . وتناول وقلة إنصاف في معاملة ، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال . ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة ، ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤنته على غيرهم .

ومن وصية لعل بن أبي طالب كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات ، وهي أشبه بالأوامر العامة : « انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا

تُرَوِّعَنَّ مَسَامًا ، ولا تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارَهَا ، ولا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ . فإذا قَدِمْتَ عَلَى الْحَيِّ فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ : مِنْ غَيْرِ أَنْ تَخَالُطَ أَيْبَاهُمْ . ثُمَّ امْضُ إِلَيْهِمْ ، بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ ، وَلَا تَخْدُجْ ^(١) بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ ، ثُمَّ تَقُولَ : عِبَادَ اللَّهِ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيَ اللَّهِ وَخَلِيفَتُهُ لَأَخْذِ مَنْكُمْ حَقَّ اللَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ ، فَهَلْ لِلَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّهُ إِلَى وَلِيِّهِ . فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : لَا . فَلَا تَرَاجِعْهُ وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مِنْعٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَخِيفَهُ ، أَوْ تُوعِدَهُ ، أَوْ تُسَيِّفَهُ أَوْ تَرْهَقَهُ . فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ . فَإِنْ كَانَ لَهُ مَاشِيَةٌ أَوْ إِبِلٌ فَلَا تَدْخُلْهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَإِنْ أَكْثَرَ هَالَهُ ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلَا تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ ، وَلَا عَنِيفٍ بِهِ ، وَلَا تَنْفِرَنَّ بِهِيمَةً وَلَا تَفْرَعْنَهَا ، وَلَا تُسَوِّأَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا ، وَاصْدَعْ الْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيْرِهِ ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تُعْرِضْ لِمَا اخْتَارَهُ . فَلَا تُزَالْ كَذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ فَاقْبِضْ حَقَّ اللَّهِ مِنْهُ ، فَإِنْ اسْتَقَالَكَ فَأَقْلَهُ ، ثُمَّ اخْلُطْهَا ثُمَّ أَصْنَعْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلًا حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللَّهِ فِي مَالِهِ . وَلَا تَأْخُذَنَّ عَوْدًا وَلَا هَرْمَةً وَلَا مَكْسُورَةً وَلَا مَهْلُوسَةً وَلَا ذَاتَ عَوَارٍ . وَلَا تَأْمَنْ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ تَثِقَ بِدِينِهِ . رَافِقًا بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوَصِّلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ وَلَا تُوَكِّلْ بِهَا إِلَّا نَاصِحًا شَفِيفًا وَأَمِينًا حَفِيفًا . غَيْرَ مُعْنَفٍ وَلَا مُجْجَفٍ وَلَا مُلَغَبٍ وَلَا مُتَعَبٍ ثُمَّ أَخْذِرْ إِلَيْنَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ نَصِيرُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ ، فَإِذَا أَخْذَاهَا أَمِينُكَ فَارْغِزْ إِلَيْهِ أَنْ لَا يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ وَبَيْنَ فَصِيلَةٍ ، وَلَا يَمْصُرَ لِبْنَهَا فَيُضِرَّ ذَلِكَ بَوْلَهَا وَلَا يَجْهَدُهَا رُكُوبًا ، وَلِيَعْدَلَ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذَلِكَ وَبَيْنَهَا ، وَلِيَرْفَهُ عَلَى اللَّاغِبِ ، وَلِيَسْتَأْذِنَ بِالْمَنْعَبِ وَالظَّالِعِ ، وَلِيُورِدَهَا مَا تَمْرِيهِ مِنَ الْفَدْرِ ، وَلَا يَعْدَلَ بِهَا عَنْ نَبْتِ الْأَرْضِ إِلَى جَوَادِ الطَّرِيقِ وَلِيُرَوِّحَهَا فِي السَّاعَاتِ ، وَلِيَمِيلَهَا عِنْدَ النَّطَافِ ^(٢) وَالْأَعْشَابِ ، حَتَّى تَأْتِيَنَا بِإِذْنِ اللَّهِ بِدَنَاءٍ مُنْقِبَاتٍ غَيْرِ مُتَعَبَاتٍ وَلَا مُجْهُودَاتٍ لِنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَإِنْ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِكَ وَأَقْرَبَ لِرُشْدِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . »

ومن كتاب له إلى بعض عماله وفيه جماع سياسة المخالفين والموافقين إذا جعله كل عامل دستوره في عمله قال : أما بعد فإن دهاقين أهل بلدك شكوا منك غلظة وقسوة واحتقاراً وجفوة ، ونظرت فلم أرحم أهلاً لأن يدنوا لشركهم ، ولا أن يقصوا ويحفظوا لمهدم ، فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة ، وداولهم بين القسوة والرافة ، امزج لهم بين التقريب والإدناء ، والإبعاد والإقصاء إن شاء الله . وكتب إلى زياد وكان عامله على فارس : أما بعد فإن رسولي أخبرني بعجب ، زعم أنك قلت له فيما بينك وبينه إن الأكراد هاجت بك فكسرت عليك كثيراً من الخراج وقلت له : لاتعلم بذلك أمير المؤمنين . يازياد وأقسم بالله إنك لكاذب ، ولئن لم تبعث بخراجك لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفرة ثقيل الظهر ، إلا أن تكون لما كسرت من الخراج محتملاً . وكتب إلى كعب بن مالك : أما بعد فاستخلف على عملك واخرج في طائفة من أصحابك حتى تمر بأرض كورة السواد فتسأل عن عمالي وتنظر في سيرتهم فيما بين دجلة والعذيب . قال اليعقوبي إن علياً حكم بأحكام عجيبة حتى إنه حرق قوماً ودخن على آخرين ، وقطع بعض أصابع اليد في السرقة ، وهدم حائطاً على اثنين وجدهما على فسق ، وكان يقول : استروا بيوتكم والتوبة وراءكم ، من أبدى صفحته للحق هلك ، إن الله أدب هذه الأمة بالسوط والسيف ، وليس لأحد عند الامام هوادة . قالوا في القرآن أربعة سيوف : سيف على المشركين حتى يسلموا أو يؤسروا فإمأنا بعد وإما فداء ، وسيف على المنافقين وهو سيف الزنادقة ، وقد أمر الله بمهادهم والإغلاظ عليهم في سورة براءة وسورة التحريم وآخر سورة الأحزاب . وسيف على أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، وسيف على أهل البغي وهو المذكور في سورة الحجرات ، ولم يسلم الرسول هذا السيف في حياته وإنما سلمه عليٌّ في خلافته . وكان يقول : أنا الذي علمت

علمت الناس قتال أهل القبلة ، وله صلى الله عليه وسلم سيوف أخرى منها سيفه على أهل الردة وهو الذي قال فيه : من بدل دينه فاقتلوه ، وقد سله أبو بكر من بعده في خلافته على من ارتد من قبائل العرب . ومنها سيفه على المارقين وهم أهل البدع كالخوارج .

وروى عن علي أن النبي أمر بقتال المارقين والناسك كثرين والقاسطين . وقد حرق على طائفة من الزنادقة فصوب ابن عباس قتلهم ، وأنكر عليه تحريقهم بالنار فقال علي : ويح ابن عباس لبحاث عن الهنات . وقالوا إن علياً كان يقسم مافي بيت المال كل جمعة حتى لا يترك فيه شيئاً . ودخل مرة إلى بيت المال فوجد الذهب والفضة فقال : ياصفراء اصفري . ويابيضاء ابيضى وجرى غيري ، لاجاجة لي فيك . وانتهى إليه أن أحد عماله يفرق ويهب الأموال وكان عليها . ولألمه أن قسم في المسلمين في قومه ومن اعتراه من السألة والأحزاب وأهل الكذب من الشعراء كما يقسم الجوز . فأجابه عامله إنه منذ ولي العمل لم يرزأ من عمله ديناراً ولا درهماً ولا غيرها وأن العزل أهون عليه من هذه التهمة .

وقال علي : لئن بقيت لنصاري بني تغلب لأقتلن مقاتلة ولأسبين الذربة ، فإني كتبت الكتاب بينهم وبين رسول الله على أن لا ينصروا أولادهم ، ورأى على داراً للقاضي شريح عمرها فقومت عليه بثمانين ديناراً فوعظه وبكته ضمناً مع أنه كان يرزق خمسمائة درهم . وكان يقبل الهدية ويكافئ بمثلها . وهو من أكبر قضاة الصدر الأول . ومن مجموع هذه الفقرات من كتب علي بن أبي طالب عرفنا منزعه في تدبير الملك ، وشدة على من يعطيل يده بالأذى إلى الرعية وإلى أموال الدولة ، كان هديه هدى أصحابه الثلاثة من قبل ، ولكن التوفيق أخطأه ، استغرقت الفتن أيامه ، أكثر من التنظيم والإدارة . وفقد الاستقرار في البلاد للنزاع الذي قام بينه وبين خصومه . قال الجاحظ : لا يعلم رجل في الأرض متى

ذكر السبق في الإسلام والتقدم فيه، ومتى ذكرت النخوة والذب عن الإسلام، ومتى ذكر الفقه في الدين، ومتى ذكر الزهد في الأمور التي يتناحر الناس عليها كان مذكوراً في هذه الخلال كلها إلا على .

ومما يعد من مآخذ الإدارة مبادرته إلى عزل جميع عمال عثمان ولم يتربص بالأمر وصول البيعة إليه من أهل الأمصار، ولم يصنع إلى تحذير المحذرين ولا نصح الناصحين بل أبى من الإبقاء عليهم أو أحد منهم إبقاء تاماً كأنه قد وقر في نفسه أن هؤلاء العمال لا يصلحون لأن يلوا شيئاً من أمر المسلمين وأن الإبقاء على واحد منهم يوماً كاملاً نقص في دينه، ولو أنه اتأد في الأمر، وعالجه برفق وأناة واصطبر حتى استتب له الأمر وبايعه أهل الأمصار لما كان في عزل الولاة شيء، لأن الخليفة هو الذي يعطى الولاة سلطانهم، فهو حر في اختيار عماله. ولما طالبه أصحاب الرسول بإقامة الحد على من شرك في دم عثمان بين لهم أن القوم الذين في أيديهم دم عثمان يملكون أهل المدينة ولا يملكونهم، وقد ثارت إليهم العبدان وفاءت إليهم الأعراب، وبأيديهم الحول والطول بالمدينة، وأهلها لا يقدرّون منهم على شيء، وطلب إليهم انظاره حتى تهدأ الحال ويتمكن من أخذ المجرمين بذنوبهم. ومن عماله مرضى الله عنه - عبد الله بن عباس وكان واليه على البصرة وإليه الصدقات والجند والمعاون وقثم بن العباس وعبد الله بن عباس وأبو الأسود الدؤلي وسهل بن حنيف وغيرهم.

(القرآن الكريم)

جميعه وتلويته والدراسات العامة المنوطة بذلك

القرآن ، هو كتاب الله المنزل على محمد (ص) متجها من ليلة السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده (ص) حيث أوحى إليه من غار حراء الذي كان يتحنث فيه . وأول آية نزلت هي (بسم الله الرحمن الرحيم . إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) إلى تاسع ذى الحجة يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة ، والثالثة والسنتين من ميلاده (ص) حيث أوحى إليه بآخر آية وهي (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) . فالمدّة بين مبدأ التنزيل ومختتمه اثنتان وعشرون سنة وشهران واثنتان وعشرون يوما .

والليلة التي ابتداء فيها نزول القرآن هي ليلة القدر التي قال الله فيها (إنا أنزلناه في ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر . تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر . سلام هي حتى مطلع الفجر) وقد أشار القرآن إلى ذلك في قوله تعالى (إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان . يوم التقى الجمعان) والمراد بيوم التقاء الجمعين ، يوم التقاء المسلمين والمشركين ببدر . وهو يوم الجمعة ١٧ من رمضان من السنة الثانية للهجرة ، ويوم الفرقان هو اليوم الذي ابتداء فيه نزول القرآن ، فهما متحدان في الوصف ، وهو أنهما جميعا يوافقان يوم الجمعة ١٧ من شهر رمضان وإن لم يكونا من سنة واحدة .

روى الطبري في تفسيره بسنده عن الحسن بن علي قال : كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من شهر رمضان .

وقد حكى القسطلاني في شرحه على صحيح أبي عبد الله البخاري ، خلاف العلماء في تعيين هذه الليلة على أقوال كثيرة . ومنها القول الذي مال إليه ابن

إسحاق في مغازيه وقال . إنه رواه ابن أبي شيبة والطبراني من حديث زيد بن أرقم ، وأنا كالشيخ الخضرى في محاضراته أميل إلى هذا رأى ثقة منى بأن هذه الليلة على جلالة قدرها ورفعة شأنها ، يبعد أن يغفل القرآن تعيينها ولو بالإشارة . وقد أشار إليها في أحسن موقع فإنه يتكلم عن غنائم بدر ، وهو اليوم الذى أعز الله فيه المسلمين وأراهم من أعاجيب نصره ما ضمن لهم عزة دينهم وارتفاع أقدارهم . وكان يوم تلك الموقعة ، هو اليوم الذى شرف الله فيه محمداً (ص) برسالته ، فحسن جداً أن يشير القرآن إلى ذلك فقال (وما أزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) وأما يوم الختام فقد قال الطبرى فى تأويل قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) قالوا : وكان ذلك يوم عرفة عام حج النبى (ص) حجة الوداع ، وقالوا لم ينزل على النبى (ص) بعد هذه الآية شىء من الفرائض ، ولا تحليل شىء ولا تحريمه ، وإن النبى (ص) لم يعش بعد نزول هذه الآية إلا حدى وثمانين ليلة ، وروى ذلك عن ابن عباس والسدى وابن جريج .

وروى النيسامورى فى تفسيره عن ابن عباس ، أنه قرأ هذه الآية ومعه يهودى ، فقال اليهودى : لو نزلت علينا فى يوم لآخذناه عيداً . فقال ابن عباس : إنها نزلت فى عيدين اتفاقاً فى يوم واحد . فى يوم الجمعة وافق يوم عرفة .

تنجيم القرآن واعتراض المشركين :

وكان نزول القرآن منجماً مثار الاعتراض من المشركين ، وقد ذكر ذلك الكتاب وأجاب عنه فقال : وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة . كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً .

السور المكية والمدنية

ويتميز عهد نزول القرآن بظاهرتين واضحتين وذلك أنه نزل كثير من

سوره وآياته قبل الهجرة والبعض نزل بعد الهجرة إلى المدينة . ومن ثم فقد أطلق الباحثون الإسلاميون اسم : المكي . على ما نزل قبل الهجرة ، والمدني على ما نزل بعدها .

السور المدنية والمكية

وما هي ذى السور بنوعها

السور المدنية :

(١) البقرة (٢) آل عمران (٣) النساء (٤) المائدة (٥) الأنفال (٦) التوبة (٧) الحج (٨) النور (٩) الأحزاب (١٠) القتال (١١) الفتح (١٢) الحجرات (١٣) الحديد (١٤) المجادلة (١٥) الحشر (١٦) المتحنة (١٧) الصف (١٨) الجمعة (١٩) المنافقون (٢٠) التغابن (٢١) الطلاق (٢٢) التحريم (٢٣) النصر .

أما باقى سور القرآن فأنها مكية

ومجموع القرآن أربع عشرة ومائة سورة . أولها الفاتحة وآخرها سورة الناس . والسورة — فى لغة العرب — المنزلة من منازل الارتفاع قال الشاعر النابغة

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذنب
يعنى بذلك أن الله أعطاك منزلة من منازل الشرف قصرت عنها منازل الملوك
والسورة مخففة ، وبعضهم يهزها فيقول (سورة) وتأويلها فى رأى
من يهزها أنها القطعة من الكتاب الكريم تلى سورة أخرى . ومن ذلك
قول أعشى ثعلبة يصف امرأة فارقت .

فبانت وقد أسارت في القواد صدعا على نأيها مستطيراً

ولكل سورة من هذه السورة اسم خاص . فمنها ما أخذ اسمها من مطلعها ، وهو أكثر السور مثل سورة الأنفال وسورة طه ، وسورة المؤمنون ومعظم سور القرآن . وفي الكتاب خمس وثلاثون سورة سميت بأسماء أشياء لم تذكر في أوائلها ، كسورة البقرة وآل عمران والنساء وغيرها .

كان القرآن ينزل على النبي (ص) خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل . وقد صح نزول عشر الآيات في قصة إلافك جملة .

وصح نزول عشر آيات كذلك من أول سورة المؤمنون . . . وكان النبي (ص) أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، دل على ذلك القرآن في قوله في سورة الروم (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) فكان — ص — يتحملة من الملك حفظاً ، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى (لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه) وقوله سبحانه (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه وقل ربي زدني علماً) وقوله تعالى سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى ، وقوله جل شأنه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

كان — ص — بعد نزول السور والآيات يأمر بكتابة ما نزل بين يديه على أي شيء تيسر الكتابة عليه مثل جريد النخل والأحجار الرقاق أو الرقاع أو غيرها . وكان له كتاب معروفون يكتبون له — ص — قيل أن عددهم نيف على الأربعين ممن كان يلزمه ، عدا كثرة أخرى لم تساعد ظروف حياتها على تلك الملازمة الكريمة .

ومن أشهر هؤلاء الكتاب : الخلفاء الأربعة ، وعامر بن فهيرة وكان

بكتب الرسائل للملوك وغيرهم ، ومنهم أبى بن كعب ، وهو أول من كتب له من الأنصار بالدينة ، وكان فى أغلب أحواله يكتب الوحى وهو أحد الفقهاء الذين كانوا يكتبون فى عهده - ص - ومنهم ثابت بن قيس بن شماس ، وزيد بن ثابت وغيرهم هذا ولأن موضوع جمع القرآن وتدوينه وما يتعلق بذلك من الدراسات . من الأمور الحيوية فى المجتمع الإسلامى بوجه عام فقد آثرنا أن نسهب فيه بعض الشيء حتى نتم الفائدة من وراء نشره وإذاعته .

ومن ثم فقد أعجبني هذا البحث الذى نشر فى بعض دوائر المعارف^(١) العربية فرأيت من الخير أن أثبتة هنا بنصه لعظم فائدته وذلك فيما يتلو .

القرآن

القرآن الكريم « كتاب مبین یرہدی به اللہ من اتبع رضوانہ سبل السلام ویخرجہم من الظلمات إلى النور بإذنه ویہدہم إلى صراط مستقیم » (١٥ ، ١٦ - المائدة) .

بمثل هذا حدث القرآن عن نفسه ، فكان أبین وأدل من بیان أصحاب أصول الفقه له بمثل قولهم انه « اللفظ العربی المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، للتدبر والتذكر ، المنقول متواترا وهو ما بین الدفتین ، المبدوء بسورة الفاتحة ، المختوم بسورة الناس » . فإن ما يقولون من التدبر والتذكر لا ینفی بامكان القرآن ، الذى هو فى العربیة قاموس لغتها وتاج أدبها ، وهو فى الإسلام معجزة دعوته ودعامة شریعته ، وهو فى الانسانية دعوة خالدة إلى سبل السلام والخیر .

اسمه :

اسمه « قرآن » مهموزا ، أو « قران » بغير همز ويقول القدامى الكثير فى

بيان أصل هذا الاسم الكريم: لغة ومعنى وتصريف، وما إلى ذلك فهو إذا همز — وهو الأكثر — من «قرأ» بمعنى تلا، أو بمعنى جمع، أو بمعنى طرح: لأنه متلو، أو لأنه يجمع السور بعضها إلى بعض، أو لأن القارئ يلتقي اللفظ ويطرحه.. وإذا لم يهمز، فهو من «قرن» بمعنى ضم: لضمه السور والآي والحروف، أو بمعنى المشابهة لأن بعضه يشبه بعضه ويؤيد بعضه، أو يكون من «قرأ» وقد خففت همزته.

وقد يعبر عنه بأسماء أخرى: كالفرقان، والكتاب... ويباغون بهذا الأسماء إلى نيف وتسعين اسماً، ويتحدثون عن معانيها واشتقاقها وقد يفرّدونها بالتأليف وهي في الأغلب ليست إلا صفات للتنزيل: كالهدى، والرحمة، والشفاء، والموعظة، والحكمة.

نزوله:

في المدة التي مضى فيها الرسول عليه السلام يبلغ دعوة الاسلام. كان ينزل القرآن منجماً مفرقاً في المناسبات التي تطلب ذلك، وقد استغرق هذا النزول بضعة وعشرين عاماً — منذ بعث عليه السلام إلى أن لحق بربه — وهذا هو الزمان الذي أنزل فيه القرآن: أما المكان فهو في جملة وأغلبه الحجاز، حيث جال عليه السلام مبلغاً رسالته، ومواجهاً أحداثها المختلفة التي ظهرت بها الأسباب المتطلبة لنزول آي القرآن الكريم ولعل العرب كانوا من الناحية العقلية والدينية، ثم من الناحية الاجتماعية والحيوية، في حال لا يهيئهم كثيراً لتلقي كتاب كامل، وصحف تامة، فكانت الحكمة في أن ينزل إليهم القرآن منجماً مفرقاً يتلقونه شيئاً فشيئاً، وقد احتفت به مناسبات نزوله، وتوجهت النفوس إلى تلقيه فكانت أكثر تهيؤاً لقبوله... وفي كل هؤلاء مسابقة لما ينال.

مجتمعهم في هذه الفترة الانتقالية الهامة من تغير وتدرج ؛ يسايره القرآن ويسير معه فكان نزول القرآن المفرق خلال تلك السنين الطويلة أعون على حفظه ؛ وأثبت في وعيه ؛ وابقى له على الدهر ؛ وأبعد له من شر التحريف . أو التشويه الذي منى به في غيره .

وقد فهم أصول هذه المعاني من فسر آية « وقال الذين كفروا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا » (٣٢ — الفرقان) . فقررنا أن من أسباب النزول المتقطع أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن قارئاً . . . كان بخلاف موسى وداود وعيسى ، فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ ، فأنزله الله عليه منجماً . . . ليكون أقرب إلى الضبط ، وأبعد عن النسيان والسهو ، وأن نزول الشرائع متدرجاً أسهل على المكلف من نزولها دفعة ، وأن نزوله بحسب الوقائع والحوادث أوفق في باب التكاليف والاستبصار ، وأدل على الأخبار عن الحوادث في أوقاتها (تفسير النيسابوري على هامش الطبعة الأولى للطبري ، ١٩٠ ، ص ١٢) .

ولعل هذه المعاني وغيرها في سبب التنجيم وحكمتها يجمعها قوله تعالى : « كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا » .

ولسعة زمن النزول واختلاف أماكنه ، نسبت سور القرآن وآياته إلى أزمانها وأماكنها ، فكان من أشهر ما أطلق على الآيات أنها « مكية » أو « مدنية » . نسبة إلى مكة ، وهي المهد الأول للدعوة الإسلامية ، وإلى المدينة ، وهي مستقر هذه الدعوة كما قد ينسب منه شيء إلى غير هاتين المدينتين كالحديبية والجحفة والطائف ، لكن النسبة إلى هاتين المدينتين هي أشهر نسبة ، وإليها وجهت العناية ببيان المكي والمدني من آي القرآن ، وتعيينه وترتيبه ووضعه وما إلى ذلك . ولهم في ذلك اصطلاحات أشهرها : أن المكي ما نزل قبل الهجرة

وإن كان بالمدينة ! والمدنى ما نزل بعد الهجرة وإن كان بمكة . كما قيل ان الأقرب تنزيل قول من قال « مكى ومدنى » على أنه خطاب : المقصود به ، أو جل المقصود به ، أهل مكة ، وكذلك بالنسبة إلى أهل المدينة (الزركشى ، كتاب البرهان فى علوم القرآن ، ج ١ ، ص ١٨٧ و ١٩١ ، طبعة أولى) .

وقد كان من أثر ذلك وجود سور مكية وأخرى مدنية ، ووجود آيات مدنية فى السور المكية وآيات مكية فى السور المدنية .

وجميع ما نزل بمكة من سور القرآن هو خمس وثمانون سورة ، وجميع ما نزل بالمدينة تسع وعشرون سورة — على اختلاف الروايات فى بعض ذلك ، كالخلاف فى فاتحة الكتاب : مكية أو مدنية .

وقد يذكرون خصائص تعبيرية للمكى والمدنى من القرآن ، كالقول بأن كل سورة فيها « يأياها الناس » ، وليس فيها « يأياها الذين آمنوا » ، فهى مكية ، أو أن كل سورة فيها « كلا » فهى مكية ، أو نحو ذلك . ولكن هذا فى الغالب والأكثر فقط ، وليس بعام مطرد .

ولعل أقوى من هذا فى تمييز المكى من المدنى فى القرآن ، ما يرجع إلى حالة الحياة الإسلامية فى العهدين ، وما كان يعنى به القرآن فى كل عهد : كالقول بأن كل سورة ذكرت فيها الحدود والفرائض فهى مدنية ، وكل ما كان فى ذكر القرون الماضية فهو مكى ... إذ يمكن القول بجملة ان القرآن إنما عنى فى الدور المكى بالأسس الاعتقادية الكبرى : كتصحيح التوحيد ، وإبطال الشرك ، وتقرير الألوهية ، وشتون الرسل مع أممهم ، وجهاد أولئك الرسل فى سبيل دعواتهم ، وما إلى ذلك من أسس الرسالة الإسلامية وأصولها الدينية العامة . وفى الدور المدنى ، حين تميز وجود المجتمع الإسلامى ، جعل القرآن يعنى بالشئون الحيوية التفصيلية ، والنظم العملية للمجتمع الجديد ، من تنظيم الروابط والعلاقات الاجتماعية

بين الفرد وأمته ، والفرد وجماعته الصغرى وهى الأسرة ، وبين الجماعات بعضها مع بعض ، وما يكون من صلات ومعاملات ، وعلاقات عملية ، حربية وسياسية ، وما إلى ذلك .

وباختلاف الشئون التى يعرض لها القرآن فى كل دور من الدورين ، يختلف — ولا بد — موضوع الحديث وأسلوبه وجوه وطابعه ، ومن هذا يمكن تقرير خصائص فنية أدبية لكل أسلوب من الأسلوبين القرآنيين : المكى والمدنى ، يتميز بها كل واحد منهما بتميز حال المخاطبين ، فى كل عهد ، ومدى تهيؤهم النفسى لما يلقى إليهم ، وتقبلهم له ، أو مقاومتهم إياه . . . إلى جانب ما ذكر من اختلاف مجال القول فى الدورين ، وأن أحدهما جدال واقناع ومناقشة ورد ، كما يكثر ذلك فى العصر المكى مثلاً ، والثانى تلقين وتوجيه وترغيب وتفصيل ، كما هو الشأن الغالب فى العصر المدنى . وكذلك تجد هذه الخصائص المميزة للعصرين واضحة فى كل فن من فنون القول فيهما . وحسبنا على ذلك مثلاً القصص القرآنى فى العصرين ، فإنه فن واحد بعينه من فنون القول : لا تتغير طبيعته فى عصر عنها فى آخر . لكن يتغير الهدف بتغير العصر . فإن يكن للعبارة دائماً ، فإن حال المعتبرين به متفاوتة متغيرة وموضع العبارة من القصص يختلف كذلك باختلاف حال من يقص عليه . ومن هنا نجد القصص القرآنية قد عرضت فى العصر المكى عرضاً يختلف اختلافاً واضحاً عن عرضها فى العصر المدنى ، من حيث نظم الآية ، وقصرها وطولها . بل من حيث ألفاظها ، ومعدن تلك الألفاظ ووقعها الصوتى ، ثم من حيث الإيجاز المختصر المركز : تسلط فيه الأضواء على مشهد واحد قصير من أحداث القصة فى مكة ، ثم الإسهاب المغاير لذلك فى المدينة . . . إلى غير ذلك من فروق يبينها الدرس الأدبى المتخصص ، ويكشف عن روائع من الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم فى القصص وحده .

ولعل من الالتفات إلى هذا بعض قول الأقدمين : كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية (الزركشى ، البرهان ، ج ١ ص ١٨٨) . وقد يفسر ذلك أنها خاصة ، ببدء الخلق وافتاء نوازع الشر في التكوين الإنساني ، إلا أن هذه القولة القديمة لا يلبث أن يلحقها الاستثناء ، إذ يجدون سورة البقرة المدنية قد ذكرت فيها قصة آدم وإبليس (المرجع السابق في الموضع نفسه) .

وتنظر إلى النسيج القرآني لقصة آدم وإبليس في العصر المكي فتلمس ما أشرنا إليه من خصائص واضحة مميزة له عن تناول تلك القصة في العصر المدني بسورة البقرة . ومن هذا يجد الدرس الفني البلاغي لهذا القصص القرآني ناحية من نواحي الإعجاز القرآني في هذا القصص وحده كما ذكر آنفا .

أسباب نزوله

وهي ما يسميه المصريون من أهل الأدب « ماحول النص » من ملاسبات ومناسبات وظروف محتفة بالنص الأدبي الذي يدرسونه ، ويرون فيها ما يلقي الأضواء القوية على معاني النص وأعراضه ومرامييه ، ويهيء السبيل لفهم نفسية القائل فيها يافتم إلى ما في عبارته من إحاء واثارة معنوية تكشف عن معالم الصورة البلاغية التي يخرج فيها القائل معانيه . وقد أجمالنا قريباً القول عن الخصائص الأدبية والمميزات البلاغية للسور المكية والمدنية بتميز الحياة الإسلامية في كل دور منها وفي هذا الإجمال ما يكشف عن أهمية « ماحول » القرآن : في فهمه الفهم الصحيح الدقيق ، وتقديره التقدير الفني السليم .

ومن كل أولئك ندرك الأثر الواضع لمعرفة أسباب نزول القرآن ، الذي عرفنا أنه إنما نزل مفرقاً لمناسبات من واقعات حياة الإسلام والمسلمين اقتضت نزول ما كان ينزل منه عند كل مناسبة منها . وقد قدر القدماء هذه الأهمية ،

فكان منهم من قال : « بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معنى القرآن »
(السيوطى ، الاتقان ، ج ١ ، ص ٣٥ ، الطبعة الموسوية) .

ولم ينصف منهم من هون من أمر تلك الأسباب ، فزعم أنه لا طائل تحت
هذا الفن لجريانه مجرى التاريخ (المرجع السابق) .

وقد بدأت عناية القدمين المبكرة بالتأليف فى أسباب نزول القرآن ،
وجعلوها نوعاً من أنواع الدراسات القرآنية التى سموا مجموعتها « علوم القرآن » .
واشتملت كتب التفسير على هذه الأسباب عند تفسير آياتها ، كما وضعت
الكتب المفردة فى تلك الأسباب ، مثل كتاب « لباب المنقول ، فى أسباب
النزول » للسيوطى ، وغير ذلك من كتب فى أسباب النزول . وبالذقة المعهودة
لهم قالوا : « لا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسمع ممن
شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحنوا عن غيرها » . (اسيوطى ،
نقلاً عن الواحدى ، الاتقان ، ج ١ ، ص ٣٨) . كما قدروا ما يقع من وهم الراوى
للاسباب ، وأشاروا إلى بعض مسببات الوهم : « كأن تتلى الآية عند الحادثة ،
فيهم الراوى فيقول : فنزل عند ذلك كذا » . (المرجع السابق ، ص ٤٢) .

وبهذه الدقة يجب النظر فى أسباب النزول فهما للقرآن ، وتقريراً للتاريخ
الدينى ، حتى يكون لأسباب النزول ما لفتنا إليه من أهمية ما يسمى الآن
« ماحول النص » .

أبحاث فى النزول

يعرض القوم لأبحاث فى النزول نرى هنا الاكتفاء بالإشارة اليسيرة إليها .
فمن ذلك : أول ما نزل من القرآن ، وآخر ما نزل منه . والروايات فى ذلك
مختلفة ، والاشتغال بالترجيح بينها ، أو الجمع والتوفيق ، ليس من الأهمية بمكان ،

وهو كما قال الأولون : « ليس العلم به من فرائض الدين ، ولا رفع شيء من المروى عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم — فلا خوف من عدم الضبط فيه » . (البرهان ، ج ١ ، ص ٢١٠) . ومن ذلك البحث في « كيفية انزاله » ؛ ومن أى مكان في السماء إلى أى مكان آخر نزل ؟ ومتى كان ذلك ، ووقته أو أوقاته ؟ — وليس شيء من ذلك يجب الوقوف عنده والانتهاه إلى قول فيه ، لأن المهم في ذلك أن القرآن كلام الله المنزل ، ويجرى الاختلاف بعد ذلك في معنى الانزال .

وقد قيل : إن معنى الانزال هو إظهار القرآن (البرهان ، ج ١ ، ص ٢٩٩) . وهذا المعنى العام في الانزال يعنى عما وراءه من تفاصيل وفي تعبير القرآن نفسه بالانزال في مثل قوله : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد » ما يؤيد إرادة المعنى العام من الانزال وهو الاظهار ، دون وجوب شيء مما وراء ذلك من تفصيل المكان الذي منه النزول ، أو المكان الذي إليه النزول ، وتحديد غير ذلك من وقت أو أوقات .

وفي بحث « الكيفية » يعرضون كذلك لشرح طريقة إبلاغ الملك المنزل ، وطريقة تلقي الرسول عليه السلام لما أنزل ، وهل كان ذلك بأن ينخلع الرسول من صورة البشرية إلى صورة الملكية ، فيتلقى عن الملك ، أو ينخلع الملك من الملكية إلى صورة البشرية فيلقى إلى الرسول ، وأى الحالين أصعب ؟ . . .

والاهتمام بهذا مما لا تبدو حاجة إليه ، ولا تطلب فيه عقيدة تفصيلية . وفيما عرف علم البشر — وما أوتوا من العلم إلا قليلا — ما يقرب إمكان التلقى والانفعال بغير الوسائط الحسية المادية المعروفة ، وفيما يتقدمون إليه من علم الكون ما يزيد هذا قربا وفهما . والشهود منه اليوم يغنى عن الوقوف عند

مثل هذه التفاصيل التي لا يسلم القول فيها من مآذق ، ولا ينتهى تركها إلى شيء من نقص في المعرفة أو العقيدة .

وعلى أخذ الانزال بمعناه الحسى — من عال إلى أسفل — فقد يكفى فيه عبارة مجملة كقول من قال . « إن الله أفهم كلامه جبريل وهو فى السماء ، وهو عال من المكان ، وعلمه قراءته . ثم جبريل أداه إلى الأرض ، وهو يهبط فى المكان » . (البرهان ، ج ١ ، ص ٢٢٩) . بل بأيسر من هذا يتسق الفهم ، ولا تبدو فيه غرابة . وأما على أخذ الانزال بمعنى الاظهار فلا يحتاج المعنى إلى شيء من تفصيل مكان ولا كيفية .

ومن تفصيلهم فى ذلك أن الذى نزل هو اللفظ نقله الملك ، أو أن الذى ألقى إليه هو المعنى ، وعبر الملك بتلك الألفاظ العربية ، أو أن الملك قد ألقى إلى الرسول المعانى ، وهو — عليه السلام — عبر عنها بتلك الألفاظ (المرجع السابق) . وعلى كل حال فإن فى الأمر معنى إلهياً روحانيا من اقراء الله للملك والرسول جميعاً ، دون حاجة فى مثل هذا الأفق الروحى إلى عقيدة بعينها ، أو فكرة بذاتها ، أو شرح خاص لكيفيته المعينة .

لغة النزول

القرآن — كقوله تعالى جل شأنه — عربى مبين . ولكن العربية لعنده لم تكن قد تهيأت لها الوحدة اللغوية . لأثر بيئة جزيرتها الطبيعية فى تفرقها ، واختلاف الحياة بعامة فى أرجائها النائية التى تقوم فى وسطها صحراء يقع على حفاقيها من الخصب النسبى فى الجنوب والشرق والشمال والغرب — نوعاً ما — ما لا يتهيأ له التواصل التماسك . وقد حفظت لنا اللغة ، بعد جمعها ، (م ٢٩ — الراشدين)

ما يمثل اختلاف القبائل العربية في لفتها . والذي يحكيه النحويون مثلاً ، من التميمية والحجازية ، في عمل ما ؛ ليس إلا شاهداً للاختلاف اللغوي بين شرق الجزيرة وغربها في مظاهر كثيرة .

وإذا كان العرب قد استشفروا الشيء من التماسك الجامع لأمرهم قبيل الاسلام — كما تشهد بذلك شواهد اجتماعية وسياسية ودينية — فإن الاسلام نفسه كان هو الحركة الدافعة إلى مثل هذا التوحد والتماسك لكن الدعوة الاسلامية تواجه بالفعل هذا الواقع الذي أشرنا إليه من الاختلاف اللغوي .

والقرآن — وهو كتاب هذه الدعوة وملاك أمرها — لا بد أن يلقي إلى هؤلاء المدعوين على اختلاف ما بينهم لغوياً . وكذلك ندرك الحاجة الماسة إلى معالجة هذا الأمر الواقع ، وما يحتاجه من تيسير على من يقبلون هذه الدعوة الجديدة ويسمعون كتابها ، يأخذون أنفسهم بترديده أو حفظه أو التعبد به حسبما كلفوا به من التعبد وألسنتهم لن تطوع بهذا التحول المفاجيء مهما يكن إخلاصهم في تقبل الدين الجديد . وهذا التيسير هو الذي كان في إقراء الرسول عليه السلام القرآن لأصحاب هذه اللهجات بما تستطيعه ألسنتهم ، فاختلف هذا الإقراء فعلاً باختلاف لهجاتهم كما تنقل الروايات الحديثية ذلك ، وكما أوردت تلك الروايات معنى نزول القرآن على سبعة أحرف ، بعبارات مختلفة ، ومن طرق متعددة ، وذكرت هذا التيسير على الناس في هذا الوقت بتعدد الأحرف ، لأن كل ذي لغة كان يشق عليه أن يتحول عن لغته ، فأذن لكل منهم أن يقرأ على حرفه — أي على طريقته في اللغة وما يستطيعه منها لسانه .

وقد كثرت الأقوال في تفسير النزول على سبعة أحرف كثرة ، لحظها القدماء أنفسهم ، وعلقوا عليها مستكثرين حين وصلت بضعة وثلاثين رأياً ، فقال قائلهم : « أكثرها تناخلت . ولا أدري مستندها ، ولا عن نقلت . . . »

(الاتقان ، ج ١ ، ص ٦٣) والذي يعيننا هنا من هذه الأحرف السبعة أنها ليست القراءات السبع المشهورة بهذا العدد ، والتي سيرد حديثها بعد ، وأن هذه الأحرف إنما هي لهجات مختلفة في اللغة العربية ، وأنها وجدت في القرآن جملة ، لأنها كانت سبع لهجات في كل آية وكل موضع من القرآن ، وأنها كانت ضرورة حيوية اقتضاها ما أسلفناه من الواقع اللغوي للعربية ، وأن هذه الضرورة قد ارتفعت الحاجة إلى معالجتها بالقراءة على اللهجات المختلفة حين تغير حال المجتمع العربي الإسلامي ، بمثل ما يقول القدماء أنفسهم : « عندما انضبط الأمر ، وتدرجت الألسن ، وأكثر الناس والكتاب - فارتفعت تلك الضرورة (البرهان ، ج ١ ، ص ٢١٣ و ٢٢٤ و ٢٢٧) . وقد ارتفعت هذه الحاجة إلى الأحرف المختلفة حين جمع عثمان « المصحف الامام » على ماسيذكر بعد . فكان مصحفه جرقاً واحداً من تلك الأحرف المتعددة ، على ما هو المختار من الآراء الكثيرة في معنى نزول القرآن على سبعة أحرف .

جمع القرآن

ما كان من نزول القرآن مفرقا بين وجه الحاجة إلى جمعه ، وبخاصة إذا ما قدرنا أن في السورة المكية منه شيئاً مما نزل في المدينة ، وفي السورة المدنية منه شيئاً مما نزل في مكة . على اننا حين نقدر حال العرب الاجتماعية لعهد نزوله ، واعتمادهم إذ ذاك على حافظتهم والركون إليها في تسجيل انسابهم التي كانوا يعنون بها عناية شديدة ، وفي تداول مفاخرهم وأيامهم ، ومثالب أعدائهم وما إلى ذلك مما تتطلب حفظه الحياة والمنافسة فيها . . . حين نقدر هذه الحالة الاجتماعية للعرب نفهم كيف كان فيهم ذوو القوة النادرة في الحفظ ، ممن يتناقلون أخبارهم في سرعة الحفظ وقوة الاحتفاظ بما تولى حواظهم ، ثم ندرك من ذلك أيضاً أن حالهم هذه كانت دافعة لهم إلى نوع من جمع القرآن الذي ينزل منجماً بحفظه السريع القوي كذلك فيقدر ما ناسبهم

النزول المنجم لما فيهم من بداوة لاتشيع القراءة والكتابة بين أهلها ، تهباً لهم في الوقت نفسه أن يحفظوا ما يلقى اليهم ويتلى عليهم لهذه البداوة نفسها . - وسنسمع فيما يلي من يسمى هذا الحفظ الشفوي جمعاً للقرآن . وهو محق في ذلك إلى حد كبير ، لأن الحفظ - كما رأينا - مما تقويه وتسعفه ظروف حياة العرب العملية ، والحافظة هي أولى الوثائق في حياة الانسان .

على أناحين نتذكر مع ذلك ما يقع في المحفوظ مشافهة من قرب التغيير لبعض كلماته أحيانا - وهو مانتبه له القدماء من أسلافنا أنفسهم وحدثوا عنه - ندرك الحاجة الماسة إلى تدوين الكتاب الكريم ، الذي له من الأهمية الجوهرية والأصالة الأساسية في الدعوة الإسلامية ما لا يكون أكثر منه ولا أقوى . وقد كان تدوين آي القرآن موضع العناية الواضحة من الرسول عليه السلام منذ اللحظة الأولى ، في صور من الاحتياط القوي ، أولها كتابة القرآن نفسه بالقدر الذي تسمح به الظروف الواقعة للحياة العربية الإسلامية . ولعل ذلك قد بدأ منذ العهد المكي نفسه ، إذ نسمع في خبر إسلام عمر - رضي الله عنه - أن أخته وزوجها كانا يقرآن شيئاً من القرآن في صحيفة معها حين دخل عليهما ، وكان بينه وبينها ما كان مما أدى إلى إسلامه وإعلان ذلك للإسلام الذي اعتزت به الدعوة .

ومكة ، بما هي بلد تجارى ، كانت الكتابة فيها تجدد من معنى بها ، ضبطاً للأعمال التجارية التي نعرف امتدادها إلى المناطق التي وصلت إليها رحلات قريش في الشتاء والصيف .

ومن هنا ما يروى من وجود رجال كاتبين في مكة ، بل وجود نسله كاتبات . فإن السيدة حفصة بنت عمر ، زوج الرسول صلى الله عليه وسلم ، مثلاً ، كانت تعرف الكتابة .

وتبدو عناية الرسول بتبشير الكتابة في مجتمعه الجديد مما نعرفه من جعل تعليم الكتابة للمسلمين بدلا يفدي به الأسرى أنفسهم من الأسر في موقعة بدر. ثم ما هو إلا أن كان للرسول كتبة وحي يكتبون بين يديه القرآن ، ويكتبون رسائله ، وقد بلغ عددهم إلى بضعة وعشرين شخصا . ورأى عليه السلام لبعضهم أن يتعلموا من اللغات غير لغتهم العربية . . . كذلك كتب القرآن أولا بأول ، مع حفظ ما ينزل منه كذلك أولا بأول .

ومن تعلم الاحتياط أن للرسول حين يكتب كتابه الوحي ، ويدونون القرآن ، وحين يأمر أصحابه من غير هؤلاء المتخصصين بالكتابة أن يكتبوا القرآن لأنفسهم — حين يكون ذلك ينهى الرسول عن كتابة شيء آخر غير القرآن بما يسمونه منه ، لئلا يختلط شيء من ذلك بالقرآن .

ونظرا لجد أثر الانتباه إلى هذا المعنى من المحافظة على النص القرآني من أن يشوبه شيء غيره . فيروى أن عمر بن الخطاب ، في خلافته . يفكر في كتابة السنة . ويستشير الصحابة فيشيرون عليه بالكتابة . فيمضي عمر شهرا في الاستخارة حتى يصبح يوما — وقد عزم الله له — فلا يريد أن يكتب السن إذ ذكر قوما كانوا قبلهم ، كتبوا كتباً ، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله . وانه والله لا يشوب كتاب الله شيء أبدا (ابن عبد البر ، جامع بيان العلم ، ج ١ ، ص ٦٤) . فالقرآن عند الرسول صلى الله عليه وسلم كان يكتب شيئا فشيئا ، حتى يروى أن بعض كتابه كانوا يلزمون له للكتابة بين يديه في الوحي وغيره : لا عمل لهم غير ذلك . يذكرون من هؤلاء الملازمين معاوية بن أبي سفيان ، وزيد بن ثابت ، ثم الصحابة . كان الكتابون منهم يكتبون القرآن ولا يخلطون به غيره من النصوص الدينية . ومن لا يكتب منهم كان يحفظ شفاهاً . وللقوم حافظتهم القوية ، حتى قيل ان العرب قد خصت بالحفظ وكان أحدهم يحفظ أشعار بعض في سمعة واحدة .

وكان النزول للفرق، في الوقت نفسه، عاملاً ميسراً لحفظ الحافظين مع ما لهم من قوة هذا الحفظ، وعاملاً ميسراً كذلك لكتابة الكاتبين، إذ كانت كتابتهم ليست بالقوية ولا بالسريعة أو الموفورة الآلات، فهم لا يكتبون إلا شيئاً فشيئاً. ثم إن الرسول فيهم يتلو عليهم هذا القرآن، وهم يتلونه في تعبدهم وتدبرهم، وفي ملاقات شئون الحياة وأحداثها بما واجهها به القرآن من تدبير وتصريف... وكل أولئك جدير بأن يحقق ما يروى من أن نفراً بأعيانهم حفظوا القرآن كله جملة، إلى جانب الآخرين الذين كانوا يحفظون منه ما يتهيأ لهم حفظه. وتنقل الرواية أسماء هؤلاء الذين كانوا يحفظون القرآن كله قبل أن يفارق الرسول صلى الله عليه وسلم الدنيا. منهم أربعة في رواية، وستة أو سبعة في أخرى، وأكثر من ذلك في روايات. وأشهر من تتفق الروايات على حفظهم للقرآن كله هم: عثمان بن عفان، وأبي بن كعب، وزيد ابن ثابت، ومعاذ بن جبل (الزركشي، البرهان، ج ١، ص ٢٤١ - ٢٤٣).

والذي يعنيناهنا هو أن القرآن، حينما تم نزوله مفرقاً، كان يحفظه نفر من أصحاب الرسول: منهم من حفظه كله بأجمعه ومنهم من حفظ ما تيسر منه. وكان قد كتب الكتابة التي مكنت منها الظروف على ما سيأتى. وهذه ما يمكن أن نسميه الجمع الأول من القرآن، وإذا اجتمع به في صدور حفاظ أقوياء الحافظة: حفظه بعضهم كله، وحفظ بعضهم أبعاضه. واجتمع في مكتوبات وإن لم تأخذ صورة الصحف أو الكتاب كما نفهمها اليوم، لتفرق المواد التي كانت عليها الكتابة، واختلاف أنواعها اختلافاً يحول بينها وبين تماسك الصحف في الكتب كما سنعرف بعد من أمر تلك الكتابة الأولى، وأنها كانت على مسطحات من مواد متعددة: خشبية أو عظمية أو خزفية، اختلفت مساحاتها كما اختلفت موادها.

وكان هذا الذى نسميه جمعا أول مناسباً لحال المجتمع الإسلامى حتى وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام . إذ كان ، حتى هذا الوقت ، مجتمعا محدود المكان أفراد متعارفون متواصلون ، لم تدسع رقعته بعد إلى خارج وطنه ، بل لم يستوعب الجزيرة العربية نفسها بعد ولم يبعد عهده بسماع القرآن من بلغه الأعظم أثناء الليل وأطراف النهار ، ولا عند الناس ما يشعرون بعدم كفاية ما كان حتى الآن لحفظ القرآن ، بل لا يتجهون إلى شىء من ذلك لأن صاحب البلاغ قائم فيهم ، وعنده كل علم الكتاب ، وإليه وحده يرجع التفسير والتدبير والعمل لحفظ الكتاب وحفظ غيره من شئون خاصة بالدعوة الإسلامية فى أمورها كلها . وإنما جهد الواحد من أفراد هذا المجتمع أن يحفظ هو شيئا من هذا القرآن ، أو يكتبه أو يتلوه ليفقه شيئا من معناه ، ويرتاض بهديه الذى كانوا أقدر الناس على معرفة جلالته وأهميته .

جمع أبى بكر

فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا بعد ما دبر لحفظ القرآن ، فكتب الكتابة الممكنة إذ ذاك ، وحفظ أصحابه منه ما استطاعوا حفظه ، وبعضهم قد حفظه بأسره كما سبق . . . وذلك كله مما يمكن أن نعهده ضربا من جمع القرآن ، وأن نسميه الجمع الأول للقرآن . وبوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم واجه المجتمع الجديد هزة عنيفة بحركة الردة ، وكان ما كان فيها من قتال بين الثابتين والمرتدين . وفى أواخر حركة الردة ، بعد واقعة اليمامة مع المرتدين ، نسمع أن أبابكر أمر بجمع القرآن . وتستطيع أن تدرك التغير الذى طرأ على المجتمع الإسلامى بحرمانه قيادة الرسول ، وارتداد جمهرة كبيرة من أهله . . . وهى حال تدعو بطبيعتها إلى التفكير فى صون دعامة وجود هذا المجتمع الجديد .

وكان يمكن أن يتجه تفكير ذوى النظر البعيد إلى الاحتفاظ بأصل
مصون لهذه الدعامة ، بعد مفارقة الرسول صلى الله عليه وسلم . وسواء أكان
هناك سبب مباشر قد نبه إلى العناية بصيانة القرآن كموت كثير من حفاظه في
واقعة اليمامة سنة ١١ هـ ، أم كانت النظرة البعيدة لمستقبل القرآن ، وأهميته
الجوهرية في حياة الإسلام ، هي التي دعت إلى هذا الجمع . . سواء أكان هذا
أم ذاك فقد اتجهت العناية المبكرة إلى الظفر بأصل مكتوب للقرآن في حالة أكثر
تنظيماً من حالة كتابته الأولى . وتم التفاهم أخيراً بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما -
وهما الزعيان الكبيران في هذه الجماعة - على أن يتحقق هذا الغرض ، ويوجد
أصل مكتوب للقرآن . وعهد بذلك إلى أحد الصحابة الذين تحقق لهم جمع
القرآن في صدورهم حفظاً ، وله سابقة مشكورة في العمل لصونه هو اشتغاله بكتابته
بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم . . فهو حافظ القرآن ، وهو أحد كتبه ،
فهو بذلك أقدر الناس على تحرير نسخة منه مكتوبة في مجموعة من الصحف -
مهما يكن نوعها - بدل كتابته الأولى على مواد مختلفة ، من حيوانية ونباتية
وجمادية .

واعتمد زيد بن ثابت في تحرير هذه المجموعة على المصدرين اللذين حفظا
النص القرآني حتى الآن ، وهما : الحفظ المشافه من الحفظة الأقوياء في ذلك ،
والكتابة المدونة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . . وكذلك جمع ما كتب
من القرآن على صحف من كاغد أو جلد أو من جريد النخل أو الحجارة البيض
الرقاق أو ألواح عظام الإبل والغنم وما إليها

وتتحدث الأخبار عن خطة زيد في جمعه هذا ، وكيف كان يتحرى ويتثبت
مما يكتبه ، ليكتب من عين ما كتب بين يدي الرسول عليه صلوات الله ،
وأنه اشترط لذلك دليلين أو حجتين . . وهما شاهدان انسانان ؟ أو هما شاهد

انسان ، وكتابة ؟ وتذكر أنه قد توافر له ذلك في كل ما قيده من القرآن إلا في آيتي آخر سورة التوبة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ... » وأنه اكتفى هنا بشاهد أو حجة واحدة فقط ، لأنها — فيما يروى — آخر ما نزل من القرآن .

ولا نشعر بحاجة للوقوف عند شيء من هذه الأخبار لغير سبب واحد يقضى بالانصراف عن ذلك ، فهي أخبار آحاد لا يسهل فحص أسانيدھا ، وهي مع ذلك عرضة للتأثر بأهواء ذوى الهوى من أصحاب العصبية الدينية ، والخصومة الاعتقادية في كل حين . روجھا في القديم من روجھا من هؤلاء ، ويشير الغباربھا أشباه لهم في هذا العصر ، من ذوى الأغراض السياسية والاعتقادية المحترفين ذلك . . . وهي مع كل لا تمس القرآن من بعيد أو قريب لو تمثل الواقفون عندها الظروف والملابسات التي جمع فيها القرآن هذا الجمع الثاني زمن أبي بكر . فحال الناس إذ ذاك ، ومدى معرفتهم للقرآن ، وحال من قام بهذا الجمع ، وقدرته عليه ، وقدر الرقابة العامة على ما يتم من عمل في ذلك ، والطاقة الإنسانية الممكنة في مثل هذا الجمع ، وما تهيأمنها للبشرية ، كل حين ، في حفظ مثل تلك النصوص الدينية أو الدنيوية ، وما يتصل بكل ذلك من معان واعتبارات كبرى — تعطى ضمانات لمثل هذا العمل يكون الوقوف بعدها عند مثل الأخبار المتناقلة عن طريق الجمع وأحواله ، مما يبدو عبثا لا طائل تحته . واعتبر ذلك بزمان جمع أبي بكر ، فهو بعد شهور من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لعلھا لا تكمل عاما . فقد توفي عليه السلام في ربيع الأول أو حوالى هذا من السنة الحادية عشرة ، وفي هذه السنة نفسها كان الأمر بالجمع ، وهو وقت قصير لعلھ لم تكد تنسى فيه آذان المسلمين أنغام قراءة الرسول التي كانت تتردد أصدائها في أنحاء الحجاز . فالعهد قريب جد قريب ، ولهذا القرب أهميته الكبيرة إذا ما تذكرنا ما كان من جمع لنصوص دينية أخرى بعد أجيال من حياة أصحابها ثم حال المجتمع الذى

يعرف هذا القرآن ، ويقدره ، ونظرتة إلى القرآن في هذا التقدير . فهو مجتمع متعارف متواصل ، متحد البيئة واحد النظام والروح ، متماسك ماديا ومعنويا ونفسيا ، لم يتعرض لهزات اجتماعية : من خروج لغزو أو هجرة ، أو من هجوم عدو ، أو أسر مفرق ، أو ما يشبه ذلك مما تعرضت له جماعات تاريخية عقودا من السنين ، جمعت بعدها نصوصا دينية ، من تفاريق ناس ، وبقايا أقوام .

وهذا المجتمع الإسلامي المتماسك ، المحدود كما كان ، صاحب الأمر في موطنه ، له من العناية الموفورة بالقرآن ما نعرفه من أنه مرجع دينه ، ومادة تعبدية ، ومدار حياته . فهو يتلوه تدبرا ، وهو يتلوه تعبدًا ، وهو يتلوه تفننا بما هو معجزة لغته البلاغية ، التي تحدث نهضته العربية الأدبية في عصره كما هو معروف . وهو مأمور منذ الدهر الأول بكتابته ، وهو مأمور مع ذلك بعدم كتابة شيء آخر ذي صفة دينية غيره . وهو قد كتبه فعلا ، على قدر ما استطاع وأطاق ، في حياة مبلغه عليه السلام . وهو يتابع عنايته بالقرآن في هذا الجمع المبكر الزمن ، بعد شهور من أول تغير طرأ على وجود هذه الجماعة بانتقال الرسول ، وظهور حدث ضخم كحروب الردة .

وفي هذه الظروف المواتية كلها يعهد بالجمع إلى رجل هو ممن حفظوا الكتاب كله كما هو معروف ، وحوله بضعة نفر يحفظونه كله مثل حفظه له ، وحوله مئات أو آلاف يحفظون متفرقات منه تصلح بمجموعها مرجعا لرقابة كل منهم على ما يحفظه . وهذا الرجل الجامع كاتب يعرف القراءة والكتابة . وقد مارس كتابة هذا القرآن مع الرسول نفسه صلوات الله وسلامه عليه .

وإذا ما تمثلت هذه الظروف كلها ، واستكملت الصورة الوافية لها ، فهل تجد غرابة في أن يكلف زيد بن ثابت وحده ، بظروفه الخاصة وظروف الحياة العامة ، أن يفرغ لكتابة مجموعة من القرآن الذي يحفظه في صحف من الورق

سهولة التضام ، ممكنة الحفظ ، تكون أصلاً محفوظاً مكتوباً لكتاب الدين القدي .
يوجد منه ما يوجد من المكتوب المدون ، والذي تضبطه ذاكرة حافظة قوية .
الحفظ لأتباع هذا الدين ؟ . . ما أحسب أن شيئاً من القرابة في أن يكتب زيد
ابن ثابت ، حتى من حافظته هو وحده ، نسخة من القرآن . فكيف إذا رجع
إلى المكتوب ، ورجع إلى حفظ الحفاظ الآخرين ، على أى وجه كان هذا
الرجوع ؟ .

ما أرى إلا أن تمثل حال المسلمين عند هذا الجمع سنة ١١ هجرية ، وحال
القرآن فيهم ، أولى للمعتقد والباحث جميعاً من الوقوف عند منشورات أخبار
آحاد أكثرها معلقة لاسند لها ، وهى خليقة باضطرابها أن تخفى الصورة الصحيحة .
المشرقة للحياة والناس ، والظروف التى جمع فيها القرآن جمع أبى بكر الثانى ،
بعد جمع الرسول الأول قبله . ومن أجل ذلك عينا هنا باللفت إلى هذه الحالة ،
وآثرنا ذلك على الحديث فى شيء من تفصيل خطة الجمع أو أخباره ، لأن الحال
التي تم فيها وبها هذا الجمع تهيب من الاطمئنان إلى المجموع مالا يكاد يتوافر
مثله على التاريخ لما حفظت البشرية من نصوص وأصول .

* * *

فى هذه الظروف المسعفة كلها كتبت نسخة كاملة من القرآن ، فى صحف .
وسميت « الصحف » .

وهى كلمة حبشية الأصل ، قربتها إلى المسلمين الأخوة اللغوية بين العربية .
والحبشية فى الأسرة السامية ، والصلة الطيبة بين طلائع المسلمين والحبشة حين
وجدوها مهاجراً لهم ومنجاة من الاضطهاد .

كتبت هذ المجموعة — كما قلنا — لتكون أصلاً محفوظاً يصون الكتاب
الذى سمي كتاباً قبل أن يتم ظهوره ، ويكتب فى صورة كتاب ، فوصف نفسه .

بذلك منذ العصر المكي ، بمثل الآية : « تلك آيات القرآن وكتاب مبين »
(آية ١ ، سورة النمل المكية) .

هذا المصحف الأول لم يكن مرجعاً للقراءة والمراجعة ، بل هو أصل محفوظ بقي النص الديني من أن ينقص منه شيء ، أو يزيد فيه شيء ، أو يشتبه في بعض لفظه حافظ يقع عادة في مثل هذا الاشتباه على الرغم من قوة حفظه . إن هذا المصحف الأول أشبه شيء بالأصول التي تحفظها الدول الآن لأقذار يرجع إليها ويؤخذ عنها ولذلك يمكنك أن تفهم ما يقال من أن هذا المصحف الأول يشتمل على النص القرآني في أكثر من حرف واحد على ما عرفت من أمر الحروف السبعة التي يقرأ بها أصحاب اللهجات المختلفة من العرب تيسيراً عليهم . وتسهيلاً ومن المؤلف في هذا أن يحفظ هذا المصحف الأصل بصحفه التي أصبحت في صورة الكتاب على وجهه ما عند أصحاب الأمر في المسلمين فكان عند أبي بكر في حياته . ثم صار إلى عمر بن الخطاب حين خلفه ثم صار إلى حفصة ابنته وزوج الرسول . (ص) وأهل هذه الزوجة من أمهات المؤمنين صفة أو ميزة خاصة إلى جانب بنوتها للخليفة وزوجيتها للرسول هي أنها كانت تقرأ وتكتب فهي أهل لحفظ الكتاب . هذا الجمع الذي تم في عهد أبي بكر كان الجمع الذي يحقق المعنى المادي للجمع والضم إذا ضمت الصحف ما كتب فلا يند منه شيء ولا يدخل فيه شيء خارج عنه مما جمعت المحفوظ قطعاً متفرقة عند حفظه لبعض القرآن واحتفظت بأصل رسمي لما حفظ الحفاظ من جمع القرآن فهذا الجمع قد مثل حاجة الحياة الإسلامية لعهد وسائر التطور الذي طرأ عليها بانتقال الرسول (ص) بما جرى بين المسلمين بعده وتتقدم الحياة فتكون ظروف وحاجات أخرى .

جمع عثمان :

إن المجتمع الجديد الذي بلغ أشده ، وأقر وجوده بعد حركة التطهير الداخلية ،

قد جعل يتفاعل مع ما حوله من الجماعات داخل الجزيرة وخارجها ، بل كان هذا التفاعل الواسع الدائرة قد بدت طلائعه في الفترة الأخيرة من حياة الرسول . بتجهيزه جيش « أسامة » للقتال في الشمال ، حيث يمتد نفوذ الروم ، ويواليهم من يواليهم .

بدأت حركة الفتح الإسلامي في عهد أبي بكر وعهد عمر بعده ، وتهيأ لها من النجاح السريع ما تهيأ وكان رجال هذا الجيش الزاحف إلى كافة الجهات حول الجزيرة العربية ، والمستقر فيما يفتح عليه من جديد البلاد ، هم أفراد ذلك المجتمع الإسلامي الذي راضه الرسول ، ولقنه القرآن في اليسر والسهولة التي يطوع بها لسانهم — على اختلاف لهجاتهم — كما أشرنا إلى شيء من أمره قريبا . ولئن كان يقرأ كل بحرفه في قومه ومنطقته فلا يلقى غير أهلها من أصحاب حرف آخر للسبب الطارئ . فالآن حين تكتب الكتب الكتائب من مختلف المناطق ، ومتفرق القبائل ، ويوحد بينهم الصف في الميدان ، كما يؤلف منهم الصف في المسجد ، ويؤم امام ، ويأتم مؤتم ، وتتلاقى اللهجات في معترك الحياة ، ومعارك الفتح ... ويمضي على هذه الحال المشتركة غير قليل من الزمان ، وأهل هذه الحروف المتغايرة — نوعا ما — يقرأون بها القرآن ، فيما بينهم ، ويقرئون الناس الحديثي العهد بالاسلام ، ممن يدخلونه من مختلف الألسنة والألوان الذين لا بد لهم من معاناة شيء من العربية ، وحفظ أي شيء من القرآن لإقامة عبادتهم .

كانت هذه التجربة الاجتماعية للحركة الإسلامية فيما تجمع وتمزج بين العرب . على اختلاف منازلهم وتفاوت ألسنتهم ، وبين العرب وغيرهم من ذوى الألسنة الأخرى ، في أنحاء الدنيا القديمة ... كانت تجربة ذات أثر بعيد في ألوان النشاط المختلفة لتلك الأمشاج التي يتم الزمن تجربته عليها جمعا ومزجا ، تلاقيا وتنافرا . ولمثل هذه التجربة نتائج كثيرة بطيب لأصحاب الاجتماع أن يشهدوها ويصفوها . أما نحن — والحديث ليس إلا عن القرآن — فانا نقدر

أن هذا التلاقى ، والاختلاط ، والتعاون والتصارع ، لا بد أن يحدث أثره فى الحياة اللغوية ، ويمينا منها بخاصة حياة العربية .

فتقول : إن هذا المختبر الكبير الذى تم فيه هذه التجربة البشرية خالق بأن يقرب بين العرب المختلفى اللهجات ، إذ لا بد لكل منهم أن يتفاهم مع جاره فى الميدان وقسيمه فى التجربة ، وذلك مما يقرب ، ولا بد ، من مسافة الفرق بين تلك اللهجات ، فىكون شىء مما أشرنا إليه فى حديث نزول القرآن على سبعة أحرف ، وهو ما قال القدماء أنفسهم عنه : « إنه تدرب الألسن ، وتمكن الناس من الاختصار على طريقة واحدة ^(١) » . أو قالوا عنه حيناً (أنه كثرة الناس والكتاب وارتفاع الضرورة)

وقد كانت تلك التجربة الكبرى فترة ما لتدرب الألسنة والقرب بينها بما يمكن من الاختصار على طريقة واحدة ، وإمكان أدائها وفهمها . كما كانت تلك التجربة فرصة عظمت لكثرة الناس من فجاج الأرض ، ومتباعد الأقاليم ، تبسط عليهم دولة الإسلام جناحها ، وتمد سلطانها .

هذا جانب من أثر الفترة التى مضت على كتابة المصحف الذى جمع من طرائق نطق القرآن ما يمكن أن يكون قد جمع ، وحفظ — كما قدمنا — أصلاً ينتهى إليه حفظ الحافظ للقرآن كله أو بعضه ، كما تنتهى إليه كتابة من يكونون قد كتبوا من هذا القرآن لأنفسهم كلا أو بعضاً ... ولهذا التغيير اللغوى الذى آتاه العمل الهائل الواسع المدى فى الفتح الإسلامى أثره الذى لا بد أن يقدر .

وتمت جانب آخر للوضع ، هو أن هؤلاء المجتمعين من أقطار الجزيرة ، ومختلف حروفها اللغوية ، لا بعد فى أن يشور بينهم شىء مما كان يشور أول الزمن ، فى حياة الرسول (ص) ، حين كان يقرأ واحد منهم بحرف لم يقرأ به رفيق له ، فيفزع من ذلك ، ويخف إلى الرسول مليباً صاحبه الذى يغير القرآن .

ويقول أهل التاريخ : إن شيئاً من هذا الخلاف قد ثار ، وأصحاب الأحرف

العربية المختلفة في منأى من الأرض بأرمينية، وفيهم أهل الشرق ، وأهل الشمال .
وكان ما يكون من تفاضل ومقابلة بين قراءة وقراءة ، ومثل هذا ينتهى إلى
خلاف يكون شجارا ، ففرقة وفتنة ، حيث ثجب الوحدة والألفة بين أعضاء
جسد واحد ، يؤدون عملا لا ينجح إلا بتساند وتكامل .

ولك أن تحسب هذا الخلاف المفرق ، في الوقت نفسه ، التفاتا إجتماعيا إلى
ما نهيا له المجتمع من اتحاد وقلة فرقة ، وعلى أى حال نظرت إلى الأمر فعلى عهد
عثمان مست الحاجة الإجتماعية إلى معرفة بالقرآن تلائم التطور الجديد للمجتمع
الإسلامي ، الذي كتاب وحيه هو القرآن . مست الحاجة إلى ذلك لدى العناصر
الجديدة التي تتعرب لسانا وتدينا ، ومست الحاجة إلى ذلك لدى العناصر العربية
القديمة التي تمازج وتتخالط في الغزو والهجرة ، والمستقر الخارجى وانتهى الأمر
إلى الخليفة عثمان طلبا للوحدة ، وتلافيا للفرقة ، إذ اختلف العراقيون والشاميون
من جيش الفتح في أرمينية على القراءة وتشاجروا . كما أشرنا في عهد عثمان
وخاف قائدهم أن يصير الأمر بالمسلمين إلى مثل ما صار إليه من انقسام
أصحاب الديانات الأخرى على كتبهم .

هكذا تقول الرواية المنقولة ، وهو ما يمكن أن يقول التفسير الاجتماعى
التاريخى : إنه حاجة إلى الوحدة في صورتها الشاملة ، وأنه رغبة في توحيد المسلمين
الغازين والمتلقين لدعوتهم الجديدة . كما يستطيع التفسير التاريخى أن يقول :
إنها وحدة تهيأت أسبابها وآذنت بها الأحوال .

ويدرك الخليفة عثمان هذه الحاجة ، ويستجيب لتلك الدعوة ، ويدرك ذوو
السن والخبرة حوله من أصحاب الرسول هذه الحاجة ، ويستجيئون لتلك الدعوة
وسواء أكان إدراكهم لهذه الوحدة إدراكا بعيد المدى يقدر حاجة العرب
وغير العرب من المسلمين إلى مرجع قرآنى للاتصال بكتاب وحي الدين الجديد ،

أم كان إدراكا قريبا المدى يخشى أن تكون لهجات العرب في قراءة القرآن سبباً لاختلافهم واقتتالهم بسببه انها جميعا في المآل شعور بالوحدة، وعمل من أجلها . . . في أى صورة صورت .

ومن هذا أدركت ماذا تريد الحياة من المسلمين أن يفعلوا بالنص المحفوظ مرجعاً : إنهم محتاجون إلى أن يقدموا منه أصولاً للقراءة ، يرجع إليها ويأخذ عنها المسلمون على اختلافهم ، من أصحاب لهجات عربية كانت لهم أمس استطاعة القراءة بها تيسيراً عليهم ، وقد غدوا بعد جيل تغيرت فيه الحياة تغيراً جوهرياً كبيراً ، لا ضرورة تقضى عليهم باستعمال حروفهم ، لئلا يختلفوا ، فقد صاروا بحيث يستطيعون الاتفاق . وإلى تلك الأصول من المصاحف يرجع المسلمون من غير العرب وعنها يأخذون ، وما بهؤلاء حاجة إلى شيء من خلاف ، لأنهم يأخذون العربية أخذاً كسبياً جديداً ، فلتكن بحرف دون سواء . . . فكله لديهم سواء .

وكذلك كان عمل عثمان : هو تقديم هذه المصاحف الأصول لتكون مرجعاً لقراءة القرآن ينتهى إليه كل عربى ، مهما تكن لهجته ، وينتهى إليه كل من عدا العربى من المسلمين .

وهذا الذى يصنعه عثمان إذا ماسميناه جمعا ، فإنه لجدير بأن يسمى جمع المسلمين ، لاجمع القرآن . . فإن جمع القرآن — بمعنى ضم أجزائه — قد كان في عهد الرسول بما يلائم نزوله منجما ، ثم كان هذا الجمع — بمعنى الضم — في عهد أبى بكر ، بما حفظ أصلاً رسمياً يكون مرجعاً . وعمل عثمان هو تهيئة هذا الأصل الرسمى للتداول العملى ، على حال تلائم الدعوة الإسلامية التى امتدت وتمتد .

تألفت لجنة لذلك كان فى طبيعتها زيد بن ثابت . وعلينا أن نتصور الوضع

الاجتماعى ، والمهدف العملى الذى أحوجت إليه الحياة ، وكيف عمل لتحقيقه أولئك الذين وجهتهم الأحداث إلى تحقيقه .

أما المهدف فهو مصحف موحد ، قدر المسكنة ، يأخذ عنه الناس فى أنحاء الدولة الجديدة ، كتاب الوحي الإسلامى ، القرآن فالمهمة فى جوهرها إخراج كتابى للنص القرآنى فى حرف واحد موحد من الحروف التى أنزل بها القرآن ، وتركت إباحة القراءة بها إلى حين ثم.. أى حرف تظن أن توجه الحياة إليه من أحرف النزول ؟ سيعطيك أصحاب تاريخ اللغة العربية الجواب عن هذا ، بما يرقبون من سير اللغة العربية فى طريقها التطورى : إهم رأوا القحطانية اليمنية الجنوبية تفاعل مع العدنانية الشمالية ، وينتهى الأمر بهما إلى لغة موحدة ، عدنانية تستبقى من آثار القحطانية ما شاء الزمن أن يبقيه ، ثم رأوا العدنانية الأخيرة يتفاعل بعضها مع بعض ، من شرق الجزيرة وغربها ، بعد التفاعل بين شمالها وجنوبها . والغرب فيه الحجاز ، بمعبده الأكبر ، محج الجموع ، وفيه الدعوة الجديد — فقيه بذلك تفاعل لغوى وشيك أن ينتهى بلغة قوامها القرشية السائدة فى المنطقة قبل الإسلام وبالإسلام .

وهذا التفاعل اللغوى ، كما نعرفه ، إنما هو انتخاب لسانى يستبقى الأصلح الأمثل ، فيما تقدر سنن الحياة العاملة . وإذا ما عرفت فى إجمال اتجاه التطور اللغوى للعربية على هذا الوجه ، فانك قدیر على أن تجد الإجابة عن السؤال السابق وهو : أى أحرف النزول توجه إليه الحياة ؟ إنه القرشية الانتخائية التى تعمل العوامل الاجتماعية اللغوية على إيجادها ، بدفع حوادث كبرى ، وموجهات عظمى ، لا بمحض رغبة فرد أو أفراد ، أو محاولة سيطرة تفرض ذلك .

وإذا ما قال الخليفة عثمان للرهط القرشيين فى لجنة المصحف الموحد : « إذا اختلفتم وزید بن ثابت فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش » — فذلك (م ٣٠ — الراشدين)

لأن زيد بن ثابت أنصاري خزرجي ليس قرشيا ، وقرش هي التي تتجه الأحداث الاجتماعية إلى تغليب لهجتها وحرفها ، فليكتب المصحف العام الجديد بهذا الحرف ، وليكتب بمثل منطوق هذا الحرف .

وإذا ما تمثلنا الوضع الاجتماعي الديني واللغوي والسياسي كذلك تمثلنا بكل وضوح مهمة اللجنة العثمانية التي تعمل لاستخراج صور من الأصل المحفوظ بدار الدولة للمصحف الجامع الذي كتب في صحائف تؤلف كتابا على عهد أبي بكر .

إن على القوم أن يكتبوا مصاحف تحفظ ما في المصحف الأصل من حرف قرش أو تكتب لسواه كما تنطقه قرش . وهذا هو العمل الذي أتمته اللجنة على هذا الدستور ، فأخرجت بضع نسخ . وجهت كل نسخة منها إلى مدينة كبرى من المدن الإسلامية ، وأبقيت واحدة منها بالمدينة عاصمة الدولة إذ ذاك .

وما أدركته من الهدف الأكبر لهذا العمل يستتبع الخطوة المقررة للوحدة ، وهي إلغاء الاعتبار الرسمي لكل ما عدا هذه النسخة المأخوذة عن الأصل المحفوظ . وإذا ما أدركت كذلك أن الأصل المحفوظ ، وإذا ما أدركت كذلك أن الأصل كان بحال من حفظ آثار حروف ولهجات لم تبق إليها حاجة ، فكذلك يؤمر بما سوى المصحف الإمام الموحد من كل صحيفة أو صحف أن يحرق ، وصحف الأصل كذلك تفصل غسلا . وعن المصحف الإمام أخذت المصاحف جميعا وصار هذا المصحف برسمه وخطه هو موضع كل حديث للناس قديما أو جديداً عن بحث أو درس أو تاريخ للقرآن .

كتابة القرآن :

تحدث المصادر العربية عن قلة الكتابة في العرب جداً ، وتحدث عن

أوليات في ذلك لا ترجع في الحجاز إلى أبعد كثيرا من جيل الرسالة الإسلامية نفسها ، كالقول بأن الذي تعلم الخط من الانبار قدم مكة فتزوج بنت حرب ابن أمية أخت أبي سنيان صخر بن حرب بن أمية ، فعلما لأصهاره : لأبي زوجته ولأخيها ودون أن نؤرخ الكتابة العربية في الحجاز ، نستطيع الاطمئنان إلى ما تدل عليه الشواهد الكثيرة من قلة انتشار الكتابة في هذه المنطقة ، ومن بدائية هذه الكتابة في طريقها ، ومن ندرة مواد الكتابة أيضاً ومن هنا ما كان من الكتابة الأولى للقرآن على تلك المواد غير الصحف ، من الرقاق واللخاف والعسب . . . فهي كتابة لم تحكم إذ ذاك جيداً .

وبهذه الكتابة في مستواها كتب ما كتب أولا من متفرقات القرآن ، وكتب الأصل المحفوظ أيام أبي بكر ، ولم يصل إلينا شيء من ذلك وكتبت كذلك المصاحف الموحدة التي أرسلها عثمان إلى الأقطار ، وهي التي وصلت إلينا الأوصاف الواضحة المتصلة عن طريقها وصارت معرفتها علما من « علوم القرآن » التي أشرنا إلى أنها اصطلاح خاص بالدراسات القرآنية في مختلف نواحيها فعلم من هذه الدراسات ما يخص كتابة القرآن الأولى ويسمى « علم مرسوم الخط » . وسنشير إلى شيء مما يتحدثون به فيه فقد صنفوا في علم مرسوم هذا الخط ، وما تختلف فيه كتابة المصاحف في وضع الكلمات من حيث صناعة الكتابة ولا تزال مسألة كتابة المصحف موضع النظر طوال العهود الماضية حتى اليوم ، كما أن الكتابة العربية كلها موضع للنظر اليوم بخاصة ، مما يدفعنا إلى اجمال وصف كتابة المصاحف ، وتطورها على الزمن ، وما يرشد إليه هذا التبع التاريخي من حل لبعض ما يعرض للبحث اليوم من شئون الكتابة القرآنية الخاصة ، أو الكتابة العامة نفسها .

كتب المصاحف الأولى - الأئمة - من القرآن بالخط الكوفي أو الحيري ، المتولد عن الخط المصري القديم ، في حلقات من التطور من الخط القينقي ،

والخط الأرامى . . . وغيرها ولم يكن فى حروف هذا الخط نقط تميز ما يتشابه من أشكال حروفه ، كما لم تعرف الكتابة العربية الشكل الضابط . وظلت المصاحف زمنا غير منقوطة ولا مشكولة .

وقد حفظ الرسم الأول للمصاحف ضربا من كتابة الكلمات ، تطور بعدم الخط والرسم ، فكان لرسم المصحف فروق عما اعتاد أهل العربية كتابته بالرسم الذى أقاموه على اعتبارات صوتية أو اعتبارات تصريفية للكلمات وما الى ذلك . وكانت معرفة ما تفرد المصحف برسمه فى صورته الأولى موضع عناية على الأجيال المختلفة ، منذ كتب القرآن الى اليوم ، وعرف علم خاص بهذه الفروق بين علوم القرآن التى أشرنا اليها سابقا ، وهو علم مرسوم الخط . أى علم رسم المصاحف ألقت فيه الكتب المفردة ونظمت المتون ، حين ظهرت حركة نظم العلوم ، ولا يزال من المشهور الى اليوم ، فى عالم المتون . ما نظمه الشاطبى فى الرسم باسم « عقيلة أتراب القصائد ، فى أسنى المقاصد » نظما لما فى كتابه « المقنع » ، لأبى عمرو الدالى (توفى فى ٤٤٤ هـ) فى رسم المصحف .

ونجد اختلاف رسم المصحف عن رسم العربية العادى واضحا بزيادة حرف . ونقص حرف ، ووضع حرف مكان حرف ، وما الى ذلك من فروق جوهريّة فكلمة « لأذبحنه » تكتب فى المصحف « لأذبحنه » وكلمة « بأيد » تكتب « بأيد » ، وكلمة « الحياة » و « الصلاة » تكتبان « الحياة » و « الصلاة » . وقد أدخلت على الخط الكوفى فى المصاحف تحسينات مختلفة على الزمن ، منذ القرن الأول الهجرى نفسه . فى عهد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى كان الأمر بنقط المصحف وشكله ، فتصدى لذلك الحجاج ، وأمر الحسن البصرى ويحيى بن يعمر ففعلا ذلك ، ويقال ان أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى ، وكان لمحمد بن سيرين مصحف قد نقطه له يحيى بن يعمر (ابن كثير ، فضائل القرآن) . ونعرف أن المصحف قد كتب بعد ذلك بالصور المتجددة

الأحرف العربية غير الكوفية . وأدخل على رسمه من التنسيق غير قليل ، فكانت فيه علامات للوقف ، وإرشادات للنطق ، وإشارات لأقسام من أجزاء وأرباع وأحزاب ، ولمواضع معينة فيه كالسجديات . . . إلى غير ذلك .

ومع ما كان من هذه التحسينات الفعلية للخط الأول الذى رسمت به المصاحف ، فقد ظل الكلام يدور حول رسم المصحف من حيث تقدير عمل الصحابة الأول — رضى الله عنهم — ومدى وجوب التزامه فى كتابة المصحف أو إمكان التغيير فيه ، والحاجة العملية الماسة إلى تيسير تعلم القرآن على النشء الذين يتعلمون الكتابة بنظام الرسم العادى المخالف لرسم المصحف وحل ذلك أو عدم حله ، والفتوى فيه بل التصرف الفعلى فى كتابة القرآن لمن يريد تعلمه من الصغار أو أشباههم من العامة .

وبنظرة جامعة يمثل لك تياران واضحيان من التفكير الإسلامى فى هذه النواحي كلها ، ويتسائر هذان التياران منذ القرن الأول الهجرى إلى القرن الرابع عشر . ومن الخير أن نجعل مسير التيارين لما أشرنا إليه من الأهمية الحيوية ، والمشكلة الفعلية حول كتابة العربية بعامة ، وما يتصل بها من كتابة للمصحف .

ففى النظر إلى عمل كتاب المصحف الأولين وتقديره ترى التيار المحافظ مطمئن إلى سلامة ما كان ، بل المنتهى إلى تقديسه وإجلاله . فتسمع أن الخط توقيفى ، وأنهم يعرفون النحو والأعراب ، وقد كتبوا المصحف على الذى يعمله النحويون وأنهم أكثر علما ، وأصدق قلبا ولسانا ، وأعظم أمانة منا فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدراكا عليهم . وما زيد فى خطهم على اللفظ ، وما نقص منه وما كتب على لفظه فلحكم خفية وأسرار بهية ، تصدى لها المؤلفون ببيان حكمها المعنوية أو الروحانية . كما تصدى المؤلفون لاحتوائها وبيانها

في القرآن [انظر « الصاحبى » لابن فارس ، و « سنن البيهقى » ، و « البرهان »
للزركشى فى مواضع متفرقة] .

ويقابل هذا التيار المحافظ ، السرف أحيانا ، تيار آخر يرد المسألة إلى
الاعتبارات الاجتماعية ، فنسمع فى هذا الشأن أن : « الخط العربى لأول الاسلام غير
بالغ إلى الغاية من الاحكام والاتقان والاجادة ، ولا إلى المتوسط لمكان العرب
من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع . وانظر ما وقع لأجل ذلك فى رسمهم
المصحف ، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير مستحكمة فى الإجادة ،
بخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ، ثم اقتفى
التابعون من السلف رسمهم فيها ، تبركا بما رسمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وخير الخلق من بعده ، المتلقون لوحىه من كتاب الله وكلامه ، كما يقتضى لهذا
العهد خط ولى ، أو عالم ، تبركا ، ويتبع رسمه خطأ أو صوابا . وأين نسبة ذلك من
الصحابة فيما كتبوه ، فاتبع ذلك وأثبت رسما ، ونبه العلماء بالرسم على مواضعه
ولا تلتفتن فى ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة
الخط ، وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل ، بل لكلها
وجه ، ويقولون فى مثل زيادة الألف فى « لأذبحنه » انه تنبيه على أن الذبح
لم يقع ، وفى زيادة الياء فى « بأيد » انه تنبيه على كمال القدرة الربانية . . .
وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض .

« وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن فى ذلك تنزيها للصحابة عن توهم
النقص فى قلة إجادة الخط وحسبوا أن الخط كمال ، فنزهوهم عن نقص أو نسبوا
اليهم الكمال بإجادته وطلبوا تعليل ما خالف الاجادة من رسم ، وذلك
ليس بصحيح .

« واعلم أن الخط ليس بكمال فى حقهم . إذ الخط من جملة الصنائع المدنية

المعاشية والكمال فى الصنائع اضافى . وليس بكمال مطلق اذ لا يعود نقصه على الذات . فى الدين ولا فى الحلال . وانما يعود على اسباب المعاش بحسب العمران والتعاون عليه . لأجل دلالة على ما فى النفوس وقد كان صلى الله عليه وسلم أميا وكان ذلك كمالا فى حقه ، وبالنسبة إلى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التى هى أسباب المعاش والعمران كلها وليست الأمية كمالا فى حقنا نحن اذ هو منقطع إلى ربه ، ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها ، حتى العلوم الاصطلاحية ، فإن الكمال فى حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا . (ابن خلدون — المقدمة) .

وفى مدى التزام هذا الرسم الأول للمصحف يتساقق التياران أيضا إلى حدما ، فكره بعض العلماء ترك اتباع المصحف . وقال الإمام أحمد : « تحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى باء أو واو ، أو ألف أو غير ذلك » وسئل مالك رحمه الله . « هل تكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ » فقال : « لا ، إلا على الكتبة الأولى » وينقل ذلك أبو عمرو الدانى ، وهو عظيم النشاط فى هذا الميدان ، ثم يقول . « ولا يخالف له من علماء الأمة » . وبازاء هذا لاتعدم أن تسمع مثل قول العز ابن عبد السلام الفقيه المصرى الشافعى ، ينقله الزركشى ، مقدما بقوله : « ... وكان هذا فى الصدر الأول ، والعلم حى غض ، وأما الآن فقد يخشى الالباس » . ولهذا قال الشيخ عز الدين ابن عبد السلام : « لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسوم الأولى ، باصطلاح الأئمة . لئلا يقع فى تغيير من الجهال » . وتستغنى بهذا القول فى عدم جواز كتابة المصحف الآن بالرسم الأول عن آراء دون هذا فى جوار الكتابة بالرسم المتبع .

وتنظر فيما تم من ذلك التطور فى الرسم إن لم تقل التعبير ، فترى التيارين

أيضاً يتسايران فنذ القرن الأول يسأل عن النقط ، فيكون الجواب بكرأته .
وخشية أن يكون زيادة في الحروف . وحتى الشيخين الحسن البصرى وابن
سيرين - وقد سمعت خبرها النشط في نقط المصحف وشكله - ينقل عنهما :
أنهما كانا يكرهان نقط المصحف . وتسمع السخط على عملية النقط في مثل قول
الأوزاعى وغيره عن نقطوا المصحف : « وددت أن أيديهم قطعت » !

ومن التيار الثانى تسمع أن الناس في جميع الأمصار من لون التابعين إلى
وقتنا هذا ، على الترخص في الشكل والنقط في أمهات المصاحف وغيرها يقول
هذا أبو عمرو الدانى صاحب « الجد والتأليف في الرسم . ومنذ أول الزمن أحس
الناس بحاجة طالب حفظ القرآن وقراءاته إلى التيسير عليه في ذلك فيستفتى
« مالك » في نقط القرآن فيقول : « أما الإمام من المصاحف فلا أرى أن ينقط
ولا يزداد في المصاحف مالم يكن فيها . وأما مصاحف الصغار التى يتعلم فيها
الصبيان ، وألواحهم فلا أرى بذلك بأساً » . والجزء المتمم للثلاثين من القرآن
مطبوع بالرسم الاصطلاحي الآن في المطبعة الأميرية منذ أكثر من خمسين سنة
لمدارس الجمعية الخيرية الإسلامية وقد وضعت فتوى « مالك » هذه عليه .

ولا يزال الواقع على اختلاف الأزمنة يدفع إلى التفكير في هذا الرسم ولأحد
علماء المسلمين الروس في القرن الرابع عشر الهجرى رأى عرضه في شرحه لقصيدة
الشاطبي في الرسم يطلعنا على أهمية الأمر في عامة الأقطار الإسلامية ، وصاحب
هذا رأى هو الشيخ « موسى جار الله روستو فدوني » أدلى به منذ أكثر من
خمسين سنة (سنة ١٣٢٦ هـ) في شرحه السابق المطبوع في قازان لهذا العهد
وخلاصته أن رسم الصحابة على نوعين :

١ - رسم الاحتمال كالحذف في « ملك يوم الدين » فيحتمل قراءة القصر...
وأمثال ذلك من كل ما يمكن فيه اختلاف القراءة ، فاتباع رسم الصحابة فيه
واجب ، ليبقى الرسم محتملاً لكل ما ثبت من التلاوة .

٢ - رسم الاصطلاح - أى اصطلاح الصحابة - لأنه يعد رسمهم ضرباً من الاصطلاح الخاص بهم ، لا أثراً لبساطة كتابتهم - كرم « شركاء » : « شركؤ » ... من كل ما ليس له وجه يظهر لنا علمي ، فاتباع رسم الصحابة فيه غير واجب .

ويعقب على ذلك بقوله : « والمسألة ذات شأن عظيم . وعسى الله أن يهديني إلى وضع كتاب في هذا الموضوع ^(١) » .

قراءة القرآن :

كان التلقى المباشر المشافه للقرآن عاملاً هاماً في حفظه وتداوله . وعدم شيوع الكتابة في البيئة الإسلامية الأولى قد هياً لأهلها من قوة الحفظ طاقة كبرى ، ومستوى عالياً . ومع الانتفاع بالكتابة - في أوسع نطاق ممكن - لصون القرآن قد عاون التلقى الشخصي الحافظ للقرآن ، فيحفظه كله غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم ويحفظ كل واحد منهم ما لا بد منه لتقويم عبادته . وما يتهيأ له علمه . وقد اتسق نظام كتابة القرآن منذ أول الرسالة إلى أن تم نسخ مصاحف أئمة تكون أصولاً في أنحاء العالم الإسلامي . ولكننا سنرى مع ذلك أن الحال دائماً كان كما تراه حتى اليوم : هو حفظ القرآن تلقياً ومشافه مع وجود المکتوب والمطبوع ، وسهولة التداول وإمكان الرجوع . فكانت القراءة دائماً إنما هي التلقى الناقل بالرواية المشافهة فمألفهم ، وليس المقرئ إلا العالم بكيفيات الأداء ، الذي روى تلك الكيفيات مشافهة عن شوفه بها .. بحيث لو حفظ كتاباً في كيفيات ذلك الأداء ، بعدما وضعت الكتب في ذلك ونظمت شعراً تيسيراً لحفظها ، فليس له مع ذلك الحفظ لكيفيات أداء الكلمات القرآنية ، أن يقرئ أحداً بما في ذلك الذي حفظه معها يكن تلقيه لمحفوظه هذا ، بل لا بد له من أن يقرأ مشافهة على مقرئ تلقى بهذه المشافهة

(١) انظر شرح قصيدة عقيلة أتراب القصائد للشاطبي .

نفسها ، ويتسلسل ذلك التشافه متصلاً ، حتى الرسول عليه السلام . وسبب ذلك التمسك بالمشافه عندهم أن في القراءة أشياء لا يمكن إحكامها إلا بالسمع والشافه ... إن المنهج الاسلامي في جملة لا يقرأ أخذ العلم عن الصحف وبعبء العالم الذي لا يتلقى عن أساتذة مبصرين ويأخذ العلم من الصحيفة ، بأنه صحفى وأنه عرضة للوهم والخطأ ... الى آخر ما يقولون في ذلك ، ولكنهم بعد هذا المبدأ العام يتشدون تشدداً خاصاً في قراءة القرآن بنحو ما سمعت من قولهم في المقرئ ، وعدم القراءة علماً بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الثاقلة . ومن ثم له هذا التلقى المشافه لقراءة أجيز بها من ملقنة المشافه ، أجازة تسلسل بسند تلقيه للقراءة التي أتم تلقيها ، الى الصحابي القارئ لها ولا يزال نظام أجازة القارئ متبعاً الى أيامنا ... ومن مراحل التعلم الديني فيما شهدنا ، بعد حفظ القرآن وهو في حقيقته ليس الا تلقياً مشافهاً - يصح الحافظ فيه لوحة على مقرئ له هذا التلقى ولا ينقله من مكتوب فقط . وبعد هذا الحفظ المشافه - لكل قطعة قطعة على مدى أشهر عدة يؤديها المجود مشافه على مقرئ مشافه يطمئن الى حسن أدائه لكلمات القرآن وكيفية ذلك عند تلاقي مختلف أصواتها ويحفظ هذا الأصل - وهو متن خاص في ذلك أو متنان لمن استزاد ، ولا يزال مقرئه الذي يلقيه هذه المشافه يعاوده بالسؤال بين الحين والحين عند اصطلاحاتهم في تلاقي الأصوات المختلفة للحروف من مد وغن واخفاء وأقلاب وادغام وروم وأشمام ، الخ . بعد أن يروضه رياضة تدريبية عملية على أداء هذه الأصوات ، وبضبط له أصواتها وأوقاتها بضوابط عملية تجدد الوقت تحديداً موسيقياً رياضياً لهم أساليبهم فيه ، كما لهم أساليبهم في رياضة الجهاز الصوتي للانسان ليخرج الأحرف من مخارجها على النحو الموصوف المقرر في متون التجويد .

وإنما قدمنا هذا البيان بين يدي القول في قراءات القرآن لنذكر الاعتبارات العملية التي نشأت عنها قراءات القرآن ونعرف في الوقت نفسه الجو الذي كانت

تفعل فيه تلك القراءات وأسلوب القوم في ضبطها وحفظ صورها ووسائلهم في ذلك وقد فهمت من حديث النزول ، ثم من الإشارة السابقة إلى القراءة أن المسألة في جملتها وتفصيلها مسألة السنة تطوع بنطق ، وحناجر تؤدي أصواتا وأن ناطق العربية الذين تلقوا هذا القرآن ذلك التلقى المشافه منذ اللحظة الأولى ، تختلف سنتهم ويشق عليهم أن يؤخذوا بغير حروفهم ، ولذلك يسر عليهم في ذلك بأن يقرأوا بما يستطيعون وكانت في القرآن صور للنطق المختلفة في اللهجات العربية وقد عرفنا أن شيئاً من ذلك قد تيسر بعد جيل من الناس تقريباً ، حين كتب مصحف عثمان الذي عد أصلاً يرجع إليه ، وتؤخذ عنه مصاحف الكاتبيين ، ويحكم إليه القارئون والمقرئون بالمشافهة المقررة على ما وصفنا وعلى هذه الحال كان يجري العملان معاً تداول القرآن ، وهما : الكتابة المتدرجة : من متفرقات إلى صحف إلى مصحف كتاب .. والحفظ المتصل التسلسل بالتلقى المشافه . والقارئون يلوذ كل منهم إلى طاقته اللسانية ، ويقرأ ما وقف عليه بحرفه المستطاع وباتساع الرقعة الإسلامية في هذا القدر الذي أشرنا إليه — من وفاة الرسول عليه السلام إلى خلافة عثمان — يتسع ميدان حفظ القرآن ويدخل الناس في الإسلام من مشارق الدنيا ومغاربها وينشدون حفظ شيء من القرآن ويتلقون ذلك بالمشافهة الضابطة ، ممن يلقون من عرب لهم السنتهم ، وقراءاتهم . ويساير المحفوظ التوقيفي المكتوب الرسمي ، الذي جعل أصلاً للقرآن . ونتمثل ما كان يتم تدريجياً من قرب مسافة الفرق في النطق ، شيئاً فشيئاً ، مع وجود هذه القراءات الميسرة للقرآن ، فنعرف كيف ولماذا اختلفت قراءات الناس للقرآن ، بما عرفنا من أحرف النزول التي عرفناها قبل ذلك ، ونقدر في الوقت نفسه أن ما خلفته أحرف النزول في السنة القارئين قد ضبط ونظم بنسخة رسمية من القرآن كتبت بتلك الكتابة التي أطلعنا في وصف خبرها قريباً ، وكانت

بغير نقط ولا شكل فكانت تحتل صوراً مما يحفظه الناس بالتلقى ، وكانت تلك الأحرف المتعددة تنضبط في الوقت نفسه بما تقبله كتابة المصحف الذي هو مرجع رسمى فإذا كتبت [ملك يوم الدين] بلا الف ، قرئت « مالك » بالمد و « ملك » بالقصر ، وإذا كتب [فى المهد صبيا] قرئت بما يستطيعه اللسان من إظهار الدال أو طيها فى الصاد ، كما تحتل الكلمة المكتوبة الترقيق والتفخيم التى تطوع بها السنة الناطقين ، ويحدد الباقي المقبول منها رسم المصحف .

ومن هذا البيان تدرج فى وضوح أن القراءات القرآنية المتغايرة الأداء ، إنما نشأت من اختلاف اللهجات العربية الذى أحوج إلى التيسير على أصحابها بماسمى أحرفاً للنزول ، وأن هذه الأحرف قد تركت صوراً مختلفة من القراءة للقرآن ، وأن هذا الاختلاف فى اللهجات قد ضاقت مسافته تدريجياً حتى بقى منه ما يحتمله رسم واحد للقرآن ، هو الذى كتب به المصحف الذى اعتمد حين كتب مجتمعا .

وإذا سمعت عدد السبعة فى الأحرف التى نزل بها القرآن ، وسمعت مع ذلك مايسمى القراءات السبع ، فلا يشتبه عليك أن القراءات هى الأحرف ، أو أن هذه السبعة هى تلك السبعة فإن القراءات ليست هى الأحرف وإنما هى بقايا الاحرف فى الألسنة بقدر ماسمح به رسم المصحف حين قرأ أهل كل قطر إسلامى بما لقنهم إياه مشافهة من جاءهم من حملة القرآن ونقلته فبقى فى سنتهم من صور النطق مابقى ، وحدد ذلك بما تقبله طبيعة خط المصحف الرسمى الامام .

ومن هذا البيان ندرك أن القراءات توقيفية تلقينية بالمشافهة السامعة ، وأنها أثر ما قضت به الحياة من التيسير على أصحاب اللهجات العربية المختلفة وإن أصحاب هذه اللهجات حيث نزلوا من الاقطار الإسلامية خارج جزيرتهم قد أقرأوا باللهجات فأشاعوها ، وأن شيئاً من التقريب بين تلك اللهجات كان يتم بفعل الزمن

وأن خط المصحف كان ضابطاً لبقاء ما يبقى من آثار اختلاف تلك اللهجات وأن ما لا يقبله الخط القرآني من تلك اللهجات كان يهمل ويندثر .

وتتمة هذا الفهم أن تقدر أن السبعة عدد يذكر في العربية ويراد به الكثيرة لا الحصر في سبعة معدودة لا أكثر منها وقد مضت الأحرف السبعة بما كان لها من كثرة ، وبقيت من آثارها القراءات التي ليست سبعة على سبيل الحصر أيضاً ، كما يدل تاريخ هذه القراءات وواقعها وهو ما نشير إلى شيء منه بعد ما تبين لك نشأة القراءات لغوياً والظاهرة الاجتماعية التي قضت بوجود الأحرف وتخلقت عنها تلك القراءات... كانت القراءات المصورة للهجات القارئيين من الصحابة الذين تلقوا القرآن عن الرسول (ص) عدداً كثيراً بطبيعة الحال ولم تكن هناك حاجة إلى عددها وإحصائها وإنما كان الاهتمام كما عرفنا بضبط أدائها ، ونقلها عن عارفها وظل الأمر كذلك أجيالاً عدة من حياة المسلمين حتى أوائل القرن الرابع الهجري إذ قام أحد شيوخ القراء في بغداد بعمل اختيار شخصي منه . هو وحده ، تخير فيه قراءات مختلفة لمقرئين من مختلف الاقطار الإسلامية الكبرى ومدنها التي كانت مستقر صحابة قارئيين ، أخذ عنهم القراءة تابعون مقرئون معروفون وكان أن هذا القارئ الذي قام بعملية ذلك الاختيار الشخصي — وهو أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد ، المتوفى سنة ٣٢٤ هـ — قد اختار للسبعة القراء فبدأت . في القرن الرابع الهجري فقط تظهر عليه (القراءات السبع) وإن كانت عملية الاختيار نفسها لا تنحصر القراء المختارين أنفسهم في سبعة قراء بل تختار لكل قارئ راويين من رواة الكثيرين أيضاً ونظراً لسماع مع استعمال (القراءات السبع) (القراءات العشر) أيضاً ، والقراءات الأربع عشرة كما نقرأ أن القراءات لا تنحصر بسبع ولا بسبعات إذ عدد الرواة الموثوق بهم أكثر من أن يحصى (البرهان ١ ص ٣٢٩) واللهجات العربية يختلف أدائها لكلمات كثيرة في القرآن على .

ضخامته ، فحصر القراءات في سبع ، شيء لا أثر فيه ولا سنة ولا وجه للتمسك بهذا العدد خاصة (المرجع السابق) وقد يفسر اختيار (ابن مجاهد) للقراء السبعة بتفسيرات مختلفة ، يبقى من بينها تفسير عمله في هذا الاختيار بأنه قد تحدد بما عرفه من أوجه القراءات وهو لم يكن متسع للرواية والرحلة كغيره حتى أن عمله هذا لم يخل من لوم الأقدمين ، لما في اختياره لسبع قراءات من إيهام أنها الأحرف السبعة وكان خير أن يزيد عن عدد السبعة أو ينقص . . ولكن الاختيار قد سار واشتهر ، وردده الناس ، وألف المؤلفون الكتب ونظموا المتون في القراءات السبعة .

والسبعة الذين اختارهم (ابن مجاهد) توزعهم المدن الإسلامية فمنهم مدني . هو نافع بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٦٩ هـ ، ومنهم مكّي هو عبد الله بن كثير المتوفى سنة ١٢٠ هـ ، ومنهم شامي دمشقي هو عبد الله بن عامر اليحصبي المتوفى سنة ١١٨ هـ والباقيون من العراق ومدنه ، فمنهم كوفيّان هما : عاصم بن أبي النجود المتوفى سنة ١٢٨ هـ ومنهم بصرى هو أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ هـ حمزة بن حبيب المتوفى سنة ١٥٨ هـ والرابع من العراقيين أبو علي ابن حمزة الكسائي المتوفى سنة ١٨٩ هـ ويمكن أن يعد كوفيا ولكل واحد من هؤلاء السبعة رواة كثيرون لقراءات معتبرة ، إلا أنه [ابن مجاهد] كما اقتصر اختياره على قراء سبعة اقتصر اختياره على راويتين لكل قارئ ، تلقيا منه القراءة مباشرة أو بالواسطة فلنافع راويان ، هما : قالون ، وورش المصري . ولابن كثير روايان هما البزى وقنبل البزى ، وقنبل . . ولابن عامر راويان ، هما : ابن عمار ، وابن ذكوان ولعاصم راويان ، هما : حفص ، وشعبة وحمزة راويان ، هما خلف ، وخلاّد . . ولأبي عمرو راويان هما الدوري والسوسي وللكسائي روايان أحدهما هو الدوري ، أحد رواة أبي عمرو والثاني الليث . ويزداد في الاختيار ثلاثة قراء مع السبعة فتكون القراءة العشرية . وأحد هؤلاء

الثلاثة المتممين للعشرة إنما هو خلف أحد راوى حمزة وتكثر القراءات للتيسير على الناطقين بلهجات العربية كما فهمنا ، وتنقل بهذه الرواية المشافهة ويرجع في ذلك إلى المصحف الأصل المدون فتكون هذه الاعتبارات العملية الاجتماعية والواقعية المحددة هي ضابط القراءة المقبولة وتحدد قبولها ضوابط ثلاثة هي :

١ — موافقة لفظها لخط [المصحف الموحد] فكل قراءة لا بد أن يساندها خط المصحف الأمام لكي تقبل .

٢ — أن تجيء على الفصح من لغة العرب فلا بد في القراءة لكي تقبل أن تستقيم من جهة العربية وهنا نفهم التعاون المتبادل في حياة العربية وتاريخها اللغوي بين القراءات ، والرواية اللغوية فالقراءات القرآنية التي حفظت بالرواية الشفوية مادة للعربية بما هي أصداء للهجاتها . . واللهجات التي ضبطتها الرواية اللغوية ، وفحصها الدرس اللغوي الباحث تضبط قوة القراءة ، وتدل عليها وبعد هذين الضابطين ، الديني واللغوي ، يكون النقل الصحيح المضبوط بنظام منهجهم النقل الذي حرروه وأحكموا أصوله ، فيشترط بعد ما سبق في القراءة المقبولة .

٣ — تصحيح سندها الراوى لها فلا بد في القراء المقبولة بعد شهادة الخط الرسمى واللغة — أن يسلم نقلها وإذا اختلف ضابط من هذه المقومات الثلاثة كانت القراءة ضعيفة أو شاذة في اصطلاحاتهم فالقراءة بلهجة لغوية ضعيفة قراءة شاذة . وإذا ما نقلت في مجال الدرس اللغوي للهجات العربية فما يكون لها اعتبار في المقام القرآني . وإذا وردت كلمات مفسرة لبعض ألفاظ القرآن ، وليست من متنه الذي سجله المصحف الامام ، فقراءتها على أنها قرآن شاذة والقراءه التي لا يصح نقلها بقواعدهم النقلية قراءة شاذة ، وليس شيء من هذه الأشياء التي تخرجها هذه المميزات الثلاث يعد من القرآن والقراءة به ممنوعة

منع تحريم لا منع كراهة (البرهان ١ ص ٣٣٢) وإن كان الدرس اللغوى المستقصى قد أدرك ما بين القراءات واللهجات من الصلة الوثيقة ، فوجد القراءات الشاذة مادة لغوية تكمل معرفته بالعربية والف رجال الدرس اللغوى كتباً تجمع القراءات الشاذة وتبين وجهتها اللغوية ومن أشهر ذلك كتاب (المحتسب) لابن رجب .

وإذا ما كانت القراءات القرآنية المتنوعة قد أوجدتها منذ فجر الإسلام حاجة لسانية ، واعتبارات اجتماعية على ما أدركنا ، وقد جعلت تخف تلك الحاجة وتتغير تلك الاعتبارات . فإن هذه القراءات قد صارت صنفاً من تتبع النص القرآنى فى مختلف كىفيات أدائه ومحافظة على هذا النص إلى حد ما ومن هنا كان الاقبال على علم (القراءات) تأليفاً فى مختلف صور الأصول العلمية فى الثقافة الإسلامية ولا سيما الدينية من وضع الأصول الضابطة التى تسمى المتون وتوليها بالشرح والتوسع فى خدمة ذلك الشرح بالحواشى الخ ، ومن جعل المتون منظومة ليسهل حفظها وجارى تلك العناية بالتأليف عناية بالممارسة العملية لهذه القراءات ، ومعرفة ما تمكن معرفته من مروياتها المختلفة حتى أن القارئ عندهم لا يزال يحسب مبتدئاً بعد أن يعرف ثلاث قراءات ويعد متوسطاً وهو ينفل خمس قراءات وكلما زاد على العدد كان حقيقاً باسم القارئ وإن كان قد يمتد الأمر فى ذلك إلى جمع القراءات المختلفة فى القطعة الواحدة من القرآن وترداد ذلك ولا سيما مع القراءة بالصوت الحسن وليس فى هذا الذى يسمونه الجفغ شىء من الأثر الطيب فى القراءة فلا هو تيسير على لسان لا يطوع ببعض النطق ولا هو متفق مع التدبر المطلوب فى قراءة القرآن وهو ما التفت إليه القدماء أنفسهم فكرهوا ترداد الآية بقراءات مختلفة على هذا الذى يسميه القراء الآن الجمع .

ترتيب القرآن

ما عرفناه من نظام نزول القرآن مفرقا يحوجنا إلى الإشارة إلى ترتيبه وترتيب الآيات بوضعها في السور وتأليف وحدة منها وهو عمل قد تم في حياة الرسول نفسه عليه السلام وبتوقيف منه هو ، وقرئت هذه السور كاملة في حياته أما ترتيب السور في المصحف فلم يكن للرسول فيه توقيف بل ترك دون تقييد فكتب الكاتبون من الصحابة لأنفسهم مصاحف يختلف فيها ترتيب الواحد منهم للسور في مصحفه عن ترتيب الآخر لها ونقل طرف من ترتيبهم للآخر في مصاحفهم ولا بأس في اختلافهم في مثل هذا بوضع سورة قبل أخرى أو بعدها مادام قد ترك لهم ذلك .

هذا من حيث الترتيب الشكلي للقرآن . أما من حيث الترتيب الموضوعي ، فأنا نلاحظ مما سبق أن القرآن الكريم لم ترتب آياته في سورته ولا سورته في مجلته على ترتيب نزولها الزمني بحيث وضعت المكيات قبل المدنيات مثلاً وكل آية أو سورة من المكي أو المدني قبل التي تلتها وهكذا... فليس فيه ترتيب على زمن نزوله وظهوره... ثم ليس فيه ترتيب على حسب موضوعاته ومتاولاته : بحيث يكون فيه ما يخص العقائد مجتمعا وما يخص العبادات متجاورا ، وما يخص الأخلاق متصلا وهكذا... فليس فيه هذا الترتيب الموضوعي أيضاً كما أنه إذا عرض لشيء من أمر الأمم السابقة وأنبيائهم وما إلى ذلك لم يعرض له في ترتيب الأزمان والأحداث فتجد فيه مثل سفر التكوين في التوراة ترتب فيه الأحداث من بدء الخليقة على أزمانها وتحدد تلك الأزمنة وتعين معها الأمكنة... كلا ليس في القرآن شيء كهذا ولا يلمس فيه إذ هو لا يحدد أزمنة ولا يعين سنين وفي أغلب الأمر لا يحدد الأماكن ولا يسمي الأشخاص وما مائل ذلك فهو (م ٣١ — الراشدين)

ترتيب متفرد ينبغي أن يقدر ما فيه من القصد إلى أن يكون — أولاً وقبل كل شيء — ومع كل شيء — كتاب هداية نفسية خلقية اجتماعية . تتناسب مع عموم الدعوة الإسلامية وتوجيهها إلى الإنسانية جمعاء في كل زمان ومكان وتتناسب مع دوام الدعوة الإسلامية واستمرارها إلى آخر الدهر ، وعلى مدى الزمن مادامت على هذه الأرض حياة كما تتناسب كذلك مع ختم هذه الدعوة لرسالات السماء إلى الأرض واستطاعة الدنيا أن تكتفي بها وتلتقي عندها فهو يمس دائماً الأصول الكبرى والأسس العامة والقواعد الكلية في إطار من الشعور الديني المؤمن والفضيلة الخلقية المصلحة لنفوس البشر، المهيتة لهم أن يكونوا في نشاطهم العملي وجهادهم الحيوي أناساً أخيار أطهاراً أبراراً غير متكالبين ولا متناحرين ولا متباغضين .

وإذا مامس شيئاً من التفاصيل تطالبها واقع الحياة فلتكون كذلك مثلاً عامة يرجع إليها الناس فيما أمرهم به من التبصر والاعتبار بمثل قوله « فاعتبروا يا أولى الأبصار » وبذلك يمضون على تغير أحوالهم وتطور شئونهم واختلاف بيئاتهم وتنوع مشكلاتهم وهم دائماً أولئك المراقبون لربهم المحكمون لضماؤهم المقدرين لمسئولياتهم يدبرون من أمورهم المتجددة ما تصلح به حياتهم في ظل تلك الخشية من قلوب وجة ونفوس مطمئنة ، لا تنسى نصيبها من الدنيا وتذكر مع ذلك اليوم الآخر والحساب المرتقب ومن هذا الترتيب الذي توزعت في جميع أجزائه وآياته ، مواضع العبرة الهامة تجدد الهداية المرجوة في كل قطعة منه وكل بيان وكل قصة وكل موعظة . وحسبنا هذا الإجمال لأهداف ترتيب القرآن .

تقسيم القرآن

نعرف الآن من المصحف أن القرآن يتألف من ثلاثين جزءاً وكل جزء يتألف من ثمانية أرباع تتوزع بينها سور القرآن البالغ عددها مائة وأربع عشرة

سورة وقد بينا أن ترتيب هذه السور بآياتها المتقدمة لها قد تم وعرف في عهد الرسول (ص) وعرفت سورة بأسمائها وروى أكثر من اسم للسورة الواحدة. وأما هذه التجزئة إلى ثلاثين فمن عمل العلماء ، مع ما عرف لهم من التبع المستقصى لهذا القرآن يعدون آياته ، بل يعدون كلماته وحروفه كما يلحظون خصائص في ذلك كله.

ومع هذه العناية المناسبة لمكانة القرآن في حياة الإسلام والمسلمين كانت تجزئاتهم للقرآن وأشهرها هذه التجزئة إلى ثلاثين جزءا وقد يقسمون الجزء إلى قسمين ينمون الواحد حزبا ويتتبعون ذلك كله بالبيان المفصل والآية التي بدأ كل جزء وحزب وما إلى ذلك وهم يقصدون إلى توزيع الحفظ وتيسيره على القارئ لا أكثر مع رغبتهم في المعرفة التفصيلية لكل ما حواه هذا الكتاب المبين .

وكتب سيد أمير على تحت عنوان : الخط العربي :

كان فن الخط العربي معروفا عند قريش قبل انتشار الإسلام بقليل ويقال إن الذي اخترعه هو « مورامير بن مراسا » من أهالي الأنبار قرب الحيرة ، ولما انتقل الخط إلى الحيرة تعلمه حرب بن أمية خلال زيارته لعاصمة المناذرة ثم علمه لجماعة من أهل مكة فانتشر بين قريش ، ويظهر أنه كان لسكان اليمن الحميريين أسلوب خاص في الكتابة لعله كان صوتيا^(١).

ويقول ابن خلكان إن آل حمير كانت لهم كتابة خاصة تسمى بالسند حروفها منفصلة غير مرتبطة ، وكانوا يمنعون العامة من تعلمها ، ولم يكن ليجرؤ أحد على استعمالها دون إجازة ، فلما جاء الإسلام لم يكن في اليمن من يعرف القراءة والكتابة .

وفي نهاية العهد الأموي تطور الخط الكوفي إلى عدة أشكال كان أهمها الخط النسخي ، وفي نهاية القرن العاشر ، ومستهل القرن الحادي عشر أدخل

الخطاطان العربيان المشهوران أبو الحسين للعروف وابن البواب وأبو طالب المبرك
تحسينات جمّة على الخط النسخي وفي عهد صلاح الدين الأيوبي ذاع خط عريض
يسمى بالثلثي ، ويظهر أنه مأخوذ عن الخط النسخي والخط الفارسي^(١) .

ذلك وقد أصبح اليوم ، وفي عصر النهضة الشاملة ، قدر كبير لفن الكتابة
العربية والخط العربي ، كما أصبح لدى العالمين العربي والإسلامي علماء متخصصون
في الكتابة العربية ، وتطورها على مر العصور .

ولا يفوتنا في هذه المناسبة ، أن نشير إلى تلك البدعة التي عرض لها مجمع
اللغة العربية بالقاهرة بالبحث والدراسة وهي مسألة اختزال الحروف العربية
وتجريدتها من الشكل والحركة حتى تسير تقدم فن الطباعة — فيما زعموا —
وكان من حسن الحظ أن يرفض أعضاء المجمع هذه الفكرة الجريئة الخطيرة
على القومية ولغة القرآن ، ونرجو أن يفكر السادة الاجلاء من مبتدعيها ، ان
نتيجتها الحتمية — لو نفذت — هي إعدام التراث العربي والإسلامي ، وقطع
الصلة بين الأجيال التالية وبين مقوماتهم الذاتية لغة وتاريخاً وحضارة .

تراجم موجزة لأبطال الجهاد الاسلامى
فى عصر الراشدين

بطل القادسية

سعد بن أبي وقاص

سعد بن أبي وقاص ، بن وهيب ، بن عبد مناف ، بن زهرة ، بن كلاب ،
بن مره أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم .

ولد بعد ميلاد النبي بأربع وعشرين سنة تقريباً (سنة ٥٩٥ م) ومات رضى الله عنه
سنة ٥٥ هـ وعمره ثلاث وثمانون سنة ، وكان من أغنياء قريش في الجاهلية .

أسلم وعمره عشرون سنة ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، قال سعد بن
أبي وقاص : نزلت هذه الآية في (وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به
علم فلا تطعها وصاحبها في الدنيا معروفا) قال : كنت رجلاً براً بأبي ، فلما
أسلمت قالت يا سعد ما هذا الدين الذي أحدثت ، لتدعن دينك أو لا آكل ولا
أشرب حتى أموت فتعير بي ، فقلت لها لا تفعل يا أماء ، فإنى لا أدع ديني .
فكثت يوماً وليلة لا تأكل ولا تشرب فأصبحت وقد جهدت فقلت لها :
والله لو كان ألف نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا شيء . فلما رأيت
ذلك أكلت وشربت فأنزل الله هذه الآية . وشهد مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم المشاهد كلها ، ورعى في وقعة أحد المشركين بألف سهم ، وقاتل في يوم
أحد قتال الأبطال ، وكان معه يوم فتح مكة إحدى رايات المهاجرين الثلاث .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سهر رسول بالمدينة ليلة ، ثم قال :
ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسنى الليلة . فبينما نحن كذلك سمعنا شخصاً سلاح
فقال : من هذا ؟ فقالوا : سعد بن أبي وقاص . فقال له رسول الله : ما جاء بك ؟

فقال وقع في نفسي الخوف على رسول الله فحنت أحرسه ، فدخله رسول الله
ثم نام .

وقد كان من حب رسول الله لسعد أن دعا له أن يسدد رميته ويحجب دعوته ،
حتى لقد كان كبار الصحابة ، كعمر بن الخطاب ، وابن مسعود يتعاشون دعوته .
وقد روى المؤرخون كثيراً من الأخبار في من أصابته دعوة سعد رضي الله عنه :
قد كان سعد بن أبي وقاص من شجعان قريش وكأهم . لهذا لما استشار الناس
عمر في من يوليه حرب الفرس أشاروا عليه بسعد وقالوا عنه : إنه الأسد عادي ،
فأنهى عمر إلى رأيهم ، وسلم لهذا البطل الكبير قيادة الجيوش الإسلامية
في حرب الفرس .

إن فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية قد اعتبره المؤرخون الغربيون
ابتداء عصر تاريخي ، وذلك راجع إلى مهاجرة بعض أهلها من الروم ، فنشروا
علومهم في أوروبا الغربية ، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في نهضة الغرب
العلمية الحاضرة . وإني أرى أن ما أحدثته وقائع (اليرموك) و (القادسية)
و (جالولاء) (و نهاوند) كان أثره أعظم خطراً من فتح القسطنطينية لأن تلك
الوقائع قد أخضعت مملكة الرومان والفرس لسلطان المسلمين ، وكانت السبب
في إستيلاء دولة الإسلام على سوريا ومصر ، بل الأناضول والقوقاز وجميع
بلاد فارس ؛ وكانت هذه الوقائع سبباً في نشر راية الإسلام في مشارق الأرض
ومغاربها . كانت سبباً في إخراج مئات الملايين من بني الإنسان من عبادة
الأوثان والنيران وبعض من الناس كبوذا وبرهم وغيرهما ، وكانت السبب
في هداية مئات الملايين من الناس لعبادة الله الواحد القهار ، وقد أتينا على ذكر
واقعة اليرموك في ترجمة خالد بن الوليد ، أما واقعة القادسية و جالولاء فأريد
مستمعينا بالله عز وجل أن أصفهما للقارئ بإيجاز ، وبصفة جلية واضحة

يعد مراجعتي كتب التاريخ المطولة ، كابن الأثير ، والطبري ، وفتوح البلدان ،
والفتوحات الإسلامية ، وابن خلدون ، وغيرها من الكتب المطولة ، التي
وجدت بعضها يذكر تلك الوقائع بتفصيل طويل ينسى آخره أوله ، وبعضها
مختصراً اختصاراً لا يشفي غلة طالب المعرفة . لذلك خلصت وصفي لهذه الوقائع
من هذه الكتب الموثوق برواياتها ، وقد وضعت هذا الوصف في أسلوب
أرجو أن يكون فيه نفع للقارى .

جيش سعد

كان جيش سعد أعظم جيش أخرجته بلاد العرب للفتح ، وكان هذا الجيش
عندما ودعه عمر بن الخطاب بالمدينة ، أربعة آلاف مقاتل ، ثم أمدّه عمر بأربعة
آلاف آخرين من أهل اليمن ونجد ، وكان جيش بطل الاسلام المشي بن حارثة -
الذي مات من جراحه في إحدى الوقائع عند وصول سعد لزروود - ثمانية آلاف ،
فانضم إلى جيش سعد ، ثم انضم إلى جيش سعد أيضاً ثلاثة آلاف من بني
أسد ، ثم انضم إليه كثير من مسلمي العراق ، وانضم إليه في ثاني يوم وثالث
يوم من واقعة القادسية الجيش الذي سيره أبو عبيدة ممدداً لسعد اتباعاً لأمر أمير
المؤمنين عمر ، وكان ذلك بعد فتح دمشق ، وكان أمير هذا الجيش هاشم بن عتبة بن
أبي وقاص ، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو التميمي فصار جيش سعد ثمانية
وثلثين ألف مقاتل وخمسمائة وكان به تسعة وتسعون من الصحابة ، وأبناء
الصحابة وكان بالجيش كثير من ذوى الرأي والخطباء والشعراء ، وكان القضاء
فيه لعبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ، وكان رائد الجيش سلمان الفارسي ، فلما
وصل سعد إلى القادسية عبأ جيشه تعبئة عظيمة ، فجعل على كل عشرة منهم
رئيساً ، وجعل على مقدمة الجيش زهرة بن عبد الله بن قتادة بن حوية ،

وسواد بن مالك التميمي ، وجعل على المينة ، عبد الله بن المقثم ، وأمر على جند اليسره شرحبيل بن السمط الكندي ، وجعل عاصم بن عمرو التميمي على مؤخرة الجيش ، ثم جعل الرجاله (البياده) تحت قيادة جمال بن مالك الأسدي ، وجعل على الركبان (الفرسان) عبد الله بن ذى السهمين ، وجعل خليفته على الجيش خالد بن عرفطة .

وكان جيش الفرس بساباط بقيادة رسم فسار رسم بجيشه وعدده ١٢٠ ألف مقاتل ، حتى نزل القادسية ، ثم وقف بجنده مقابل جيش المسلمين ، وكانت معدات الفرس الحربية ، من سلاح ودروع وخيل . أعظم جودة من أسلحة العرب ، وكذلك عددهم كان أكثر من جيش العرب ، باثنين وسبعين ألف مقاتل . ولكن جيش الفرس ما كان يحمل قلوباً كقلوب جند المسلمين ، وكان في مقدمة جيش الفرس الجالينوس ، وذو الحاجب ، وكان بجيش رسم ثلاثة وثلاثون فيلاً . هذا وصف كل من الجيشين .

وقد أرسل سعد إطاعة لأمر الخليفة بعضا من المسلمين ليدعوا الفرس للإسلام ، أولدفع الجزية قبل الحرب ، وكان آخر من أرسله إليهم المغيرة بن شعبه ، وكان عارفا باللغة الفارسية ، فأقبل حتى جلس مع رسم على سريره ، فوثب إليه بعض جند الفرس فأنزلوه من السرير ، فقال المغيرة : « قد كانت تباغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم . إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً ، فظننت أنكم تواسون قومكم » أي تساونهم بأنفسكم « كما تتواسى ، فكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض ، فإن هذا الأمر لا يستقيم فيكم ، ولا يصنعه أحد ، وإني لم آتكم ولكن دعوتكموني ؛ اليوم علمت أنكم مغلوبون ، وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول » . فانتفض القوم لكلامه ، وقال عامتهم صدق والله

العربي في قتال ، وأما أمراؤهم فبهتوا وقالوا : والله لقد رمى (يعنون المغيرة)
ببنكلام لا تزال عبيدنا ينزعون إليه .

واقعة القادسية

ابتدأت معركة القادسية في يوم الاثنين من المحرم سنة ١٤ هـ فدامت أربعة
أيام ، أول يوم يسمى أرمات ، والثاني أغواث ، والثالث عمات ، والرابع ليلة
الحرير ، وكان سعد قد أصابته دمايل وعرق النساء فلا يستطيع الجلوس . فوضع
تحت صدره وسادة ، وأشرف على الجند من مكان مرتفع ، فعابه بعض
الشعراء في أحد أيام المعركة قائلا :

تقاتل حتى أنزل الله نصره وسعد بباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ونسوة سعد ليس فيهن أيم

فبلغت آياته سعداً ، فقال : اللهم إن كان هذا كاذباً ، وقال الذي قاله
رياء وسمعة ، فأقطع عني لسانه ، فما هي إلا لحظة حتى رماه أحد جنود الفرس
بسهم أصاب لسانه . فما تكلم بكلمة حتى مات ، عفا الله عنه ، ثم نزل سعد
فأظهر للجيش ما به من القروح ، فعذره الناس ، واستخلف سعد خالد
ابن عرفة .

يوم أرمات

حث سعد القوم على الجهاد ، وأرسل المغيرة وحذيفة وعاصم وصليحة وقيساً
الأسدي وغالبا وعمرو بن معد يكرب وأمثالهم . ومن الشعراء الشماخ والحطيئة
وأوس بن مفرء وعبيدة وغيرهم ، وأمرهم بتحريض الناس على القتال ، وأمر
سعد الناس بقراءة سورة الجهاد وهي الأنفال . فلما قرئت هشت قلوب الناس

وعيونهم ، وعرفوا السكينة مع قراءتها . ثم قال سعد : الزموا مواقفكم حتى تصلوا الظهر ، فإذا صليتم فإني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا ، فإذا سمعتم الثانية فكبروا والبسوا عدتكم . ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا ، ولينشط فرسانكم الناس ، فإذا كبرت الرابعة قازحوا جميعا حتى تخالطوا عدوكم ، وقولوا « لا حول ولا قوة إلا بالله » فما كبر سعد التكبيرة الرابعة حتى دارت رحي الحرب إلى غروب الشمس ، ولكن المسلمين قد جهدوا جهداً كبيراً في هذا اليوم ، لأن خيولهم قد فزعت من الفيلة لولا أن عاصم بن عمرو التميمي وغيره من الأبطال قطعوا وذن الفيلة ففزعت ، وألقت من عليها من الجند وفرت هاربة .

يوم أغواث

ما أصبح القوم حتى ظهر القعقاع بن عمرو التميمي ، وكان على مقدمة جيش هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وكان قد تعجل بالحضور إلى القادسية مع ألف من جند هاشم ، وقبل أن يصل إلى جند المسلمين أمر جنده أن يقفوا على مدى البصر ، ويحضروا إلى الجيش عشرة عشرة ، حتى يوم جيش المسلمين بأن معه جنوداً كثيرة ، وقد حضر هو مع الشعرة الأول ، فبشر الجنود وحرصهم على القتال ثم إن هذا البطل العظيم القعقاع عندما رأى جند الفرس ، لم يلبث هنيئة حتى طلب المبارزة صائحاً ، بالثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر . فخرج إليه ذو الحجاب أحد قواد الفرس ، فما كانت إلا لحظة حتى قتله ، ففرح المسلمون ، ثم بارز الفيرزان وقتله ، وقد كان أبو بكر رضي الله عنه يقول لا يهزم جيش فيه مثل القعقاع ، ثم إن القعقاع نادى يا معشر المسلمين باثروا الفرس بالسيوف ، فإني أحمص الناس بها ، وبعد هذا تراخفت الجنود العربية والجنود الفارسية فاقتلوا حتى المساء ،

وحمل القعقاع يومئذ ثلاثين حملة على الفرس ، وقتل منهم كثيراً ، ولما رأى القعقاع شدة فزع خيل المسلمين من فيلة الفرس ، دعا بعض بنى عمه وأركبهم إبلا ألبسها كلباس الفيلة ، وبرقعها فقرعت منها خيل الفرس ، ومن اشهر بالبسالة في هذا اليوم أبو محجن ، وكان سعد قد حبسه وقيده في القصر ، ولكن هذا البطل ضاق صدره لعدم مباشرته الحرب ، فقال لسلمى زوج سعد (وكانت زوج المثني بن حارثة ، فلما استشهد رضى الله عنه تزوجها سعد) : « هل لك أن تخلى عني وتعيريني باللقاء (فرس سعد) فله على ان سلمنى الله أن أرجع إليك حتى اضع رجلى في قيدي فأبت فقال :

كفى حزنا أن ترتدى الخيل بالقنا واترك مشدوداً على وثاقيا
إذا قت عنائى الحديد وأغلقت مصاريع دونى قد تصم المنايا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة فقد تركونى واحداً لا أخاليا
ولله عهد لا أخيس بعده لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

فأطلقته سلمى وأعطته اللقاء ، فركها حتى كان بحيال جيش المسلمين ، فكبر وحمل على ميسرة الفرس ، ثم رجع خلف المسلمين ، ثم حمل على ميمنة الفرس ثانية وكان يقصف الفرس قصفاً عظيماً ، فتعجب الناس منه وهم لا يعرفونه ، فقال بعضهم إنه هو هاشم ، وكان سعد يقول لولا محبس أبى محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه اللقاء وقال بعض الناس هذا الخضر ، فلما تراجع المسلمون والفرس عن القتال أقبل أبو محجن فدخل القصر وأعاد رجله في القيد وقال :

لقد علمت ثقيف غير فخر بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأكثرهم دروعا سابغات وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
وأنا وفدهم في كل يوم فإن عموا فسل بهم عريفا

وليلة فارس لم يشعروا بي - ولم اشعر بمخرجي الزخرفا
فإن أحبس فذاككم بلائي وإن أترك أذيقهم الخوقا
فقلت له سلمى : في أى شيء حبسك ؟ فقال ! والله ما حبسنى بمحرام أكلته ،
ولا شربته ، ولكننى كنت اشرب الخمر فى الجاهلية ، وأنا أمرؤ شاعر يدب
الشعر على لسانى فقلت :

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمه تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفنى بالفلاة فإننى أخاف إذا ماتت أن لا أذوقها
فلذلك حبسنى .

فلما أصبحت أنت سعدة فصالحته ، وكانت مغاضبته ، وأخبرته بخبر أبى .
محجن فأطلقه ، مخاطباً له : اذهب ، فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله ،
فقال : لا جرم لا أجيب لسانى إلى قبيح .

وانتهى هذا اليوم برجحان كفه المسلمين على الفرس .

يوم عمات

قد تقدم أن ذكرنا ما فعله القعقاع فى يوم أغواث ، من البسالة والحيلة ،
فى حضور جنده إلى القادسية عشرة عشرة ، ليوم جند المسلمين ، بأن جندهم
كثيروالعدد ، ومن إلباسه الإبل لباس الفيلة ، وقد فكر اليوم أيضاً فى حيلة
يدخل بها الرجاء على قلوب المسلمين ، فسرب أصحابه فى الليل إلى المكان
الذى فارقهم فيه أمس ، وقال : إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة ، فإن جاء
هاشم ، فذاك وإلا جدتكم للناس رجاء ، فما طلعت الشمس ، حتى أقبل أصحاب
القعقاع ، فحين رآهم القعقاع كبر المسلمون ، وتقدموا للضرب والطعن ، وشدد

مستابع ، فلما جاء آخر أصحاب القعقاع ، حتى انتهى إليهم هاشم ، فأخبره بعضهم بما صنع القعقاع ، فعبا أصحابه سبعين سبعين ، وكان فيهم البطل العظيم قيس ابن هيرة بن عبد يفيث . المعروف بقيس بن المكشوح المرادي ، فلما صار بجانب جند المسلمين كبر ، فكبر الناس ، وقال : أول القتال المطاردة ثم المراماة . ثم حمل على المشركين يقاتلهم ، حتى خرق صفهم إلى العتيق ، ثم عاد .

ومن اشتهر بالبسالة في هذا اليوم عمرو بن معد يكرب ، فإنه قاتل قتالا شديداً ، ثم التفت إلى بعض الجند قائلاً لهم : « إني حامل على الفيل ومن حول الفيل ، فلا تدعوني أكثر من جزر جزور ، فإن تأخرتم عني فقد تم أباثور ، (يعني نفسه) . وأين لكم مثل أبي ثور ؟ فحمل وضرب فيهم ، حتى ستره الغبار ، وحمل أصحابه ، فأفرج المشركون عنه بعد ما صرعوه ، وإن سيفه لفي يده .

وقد طعن فرسه ، فأخذ برجل فرس أعجمي ، فلم يطق الجري ، فنزل عنه الأعجمي هارباً فركبه عمرو ، واشتد القتال بين المسلمين والفرس . حتى أمسوا .

ليلة التحرير

اشتهر في هذه الليلة بالقتال طليحة وعمرو والقعقاع ، فلما صلى المسلمون العشاء حتى رأى القعقاع أن جيش الفرس زاحف على المسلمين . حتى زحف بقومه عليهم ، من غير إذن سعد . فقال سعد : « اللهم اغفرها وانصره ، فقد اذنت له ، وإن لم يستأذني » . ثم قال سعد : « إذا كبرت التكبيرة الثالثة نخلطوا الفرس وباشروا القتال ، وما كبرت التكبيرة الثالثة حتى تراخفت الجيوش ودامت الحرب من بعد صلاة العشاء إلى ظهر اليوم الثاني ، وترك المسلمون

النوم والكلام : فما كان يسمع إلا صليل الحديد . حتى أتم الله النصر للمسلمين وهزمت جيوش الفرس شر هزيمة ، ثم ان هلال بن علقمة قصد قائد الفرس رستم فقتله ، ثم جز رأسه ونادى : قتلت رستم ورب الكعبة . وغنم المسلمون غنائم كثيرة من جيش الفرس المهزم . وقد استشهد من المسلمين في ثلاثة الأيام الأولى من المعركة ألفان وخمسمائة شهيد ، واستشهد في ليلة الهرير ستة آلاف شهيد ، فرضى الله عنهم أجمعين ، وفتح لهم أبواب جنته . ثم فتح سعد ابن أبي وقاص عاصمة الأكاسرة (المدائن) وصلى سعد بإيوان كسرى - بعد أن فتح البرس ، وبابل ، وכוثر - صلاة الفتح ثمانى ركعات ثم قرأ (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين) وجمع سعد من الغنائم ما يفوق الحصر ومنها ذخائر كسرى وسلاحه وناهيك بذخائر الأكاسرة وقسم الغنائم على الجند فأصاب الفارس اثني عشر ألف درهم ، وبعث بأخماس الغنائم إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وفيها سيف كسرى ومنطقته وزبرجده ، فلما رآها عمر قال إن قوما أدوا هذا لذوو أمانة . فقال له على رضى الله عنه : إنك عفت فعفت الرعية .

معركة جالولاء

اجتمع الفرس ثانية بجيش كبير جداً بجالولاء . وكان قواد جيشهم من أكبر أبطالهم كهران الرازى والفيروزان والزينبي وغيرهم : وأحاط الفرس مواقف جندهم بخندق عظيم . ووضعوا عليه أسلاكاً من الحديد . وصنعوا بعض طرق على الخندق لعبورهم . فأمر سعد هاشماً بن عتبة (ابن أخيه) على جيش بلغ رجاله اثني عشر ألفاً . وفي مقدمته القعقاع بن عمرو : فسار هاشم من المدائن حتى وصل إلى جالولاء . ومبكت أمام جيش الفرس ثمانين يوماً . ثم اختلفت الفرس فيما بينهم فاقتتلوا . وسقط بعض فرسانهم في الخندق فحبر

الخلدق البطل العظيم القعقاع بن عمرو وتبعه هاشم وجنده . وقاتل المسلمون قتالا شديدا قيل أنه كان أشد من قتال ليلة الحرير . فهلكت خيول الفرس من أسلاكهم وبقيت رجالهم (البيادة) فحصدتهم سيوف المسلمين حصداً مريعاً . وقيل إن قتل الفرس في هذه المعركة بلغت مائة ألف رجل . جللت دماؤهم مكان المعركة فسعى جالولاء ثم سار القعقاع فاستولى على حلوان (بفارس) . وهرب منها يزدجرد . ثم استولى القعقاع وجنده أيضاً على خاقين وقتل الزينبي والفيروزان . فهرب يزدجرد إلى الري وبلغت غنائم المسامين في جالولاء وحلوان وخاقين ثلاثين مليون درهم ، أي ثلاثة ملايين دينار ، وبعد أن أرسل هاشم لسعد خمس الغنائم ليبعثها إلى الخليفة أصاب الفارس منهم تسعة آلاف درهم وتسعة من الدواب ، وكان فتح جالولاء في ذي القعدة سنة ٥١٦ هـ ، ثم اختط سعد الكوفة في محرم سنة ٥١٧ هـ ، وأقام والياً عليها ثلاث سنين ونصف وكان حسن الامارة منصفاً بين المسلمين ، غير أنه قد سعى بسعد إلى عمر بن الخطاب أسامة بن قتادة ، قائلاً أنه لا يقسم بالسوية ولا يعدل في القضية ، ولا يغزو في السرية ، فقال سعد : اللهم إن كان قالها رياء وكذباً وسمعة فأعم بصره ، وأكثر عياله ، وعرضه لمضلات الفتن ، فأصابته دعوة سعد ، ثم دعا سعد على نفر قالوا إنه لا يحسن الصلاة فأصيبوا ، وكان ممن عابه الجراح بن سنان ، فدعا عليه فقطعته الناس بعدئذ بالسيوف عندما أراد اغتيال الحسن بن علي رضي الله عنه بساباط ، وقدم سعد المدينة فقال له عمر : كيف تصلى يا سعد ؟ قال : أطيل الأولتين ، وأضعف الأخيرتين ، فقال هكذا الظن بك يا أبا اسحاق ، وأراد عمر أن يرده إلى إمارة الكوفة ثانية فأبى ، وقال كيف أتأمر على قوم يزعمون أني لا أحسن الصلاة ، ولما أراد عمر بن الخطاب أن يشاطر سعد أماله كما كان يفعل ببعض العمال ، نظر إليه سعد مفضباً وقال : لقد هممت . فقال له عمر .

بأن تدعو على ؟ قال نعم . قال : إني لا أجدني بدعاء ربي شقياً : فسكت سعد عن الدعاء على عمر وأفة منه به .

ولما طعن عمر أوصى الخليفة بعده أن يؤمر سعداً .

ولما قتل عثمان بن عفان قال لسعد ابن أخيه هاشم إن مائة ألف سيف تريدك على الخلافة ، فأبى الخلافة وقال : إني أريد سيفاً إذا ضربت به المؤمن لم يقطع شيئاً ، وإذا ضربت به الكافر قطع . ثم أبى المبايعة بالخلافة لأى كان مع حبه ثعلبي كرم الله وجهه ، فأرسل معاوية كتاباً يدعو فيه إلى مبايعته بالخلافة . فأجابه سعد بكتاب قائلاً :

معاوى داؤك الداء العياء وليس لما تنجى به دواء
أيدعوني أبو حسن على فلم أردد عليه ما يشاء
وقلت له أعطني سيفاً بصيراً تميز به العداوة والولاء
أتطمع فى الذى أعبى عيلاً على ما قد طمعت به العفاء
ليوم منه خير منك حيا وميتاً أنت للمرء الفداء

ولما استنبت الخلافة لمعاوية دخل سعد عليه قائلاً : السلام عليك أيها الملك . فضحك معاوية وقال : ما كان عليك يا أبا إسحاق لو قلت يا أمير المؤمنين . فقال سعد : أتقولها جذلان ضاحكا ، والله ما أحب أنى وليتها به (يريد أنه وليها بالكر والخديعة وسفك الدماء لهذا لما صارت مغالبة صارت ملكا ، فقال له أيها الملك استخفافا بشأنه)^(١) .

ومات سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه بالعقيق ، وهى على بضع عشرة أميال من المدينة ، فحمل على أعناق الرجال حتى دفن بالمدينة ، وأوصى وهو

(١) أنظر ابن الاثير والطبرى .

يحتضر أن يكفن في حبة عثقة من الصوف قائلا . كفنوني فيها لأنى لقيت
المشركين فيها يوم بدر هي على اليوم وإنما كنت أخبئها لهذا فرضى الله تعالى عنه .

قائد معركة نهاوند

النعمان بن مقرن

النعمان بن مقرن بن عائد ، وينتهي نسبه إلى عثمان ، عمرو بن أد بن
طابخة المزني ، وولد عثمان بهم مزية نسبة إلى أمهم . قال مصعب : إن النعمان
ابن مقرن وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه سبعة إخوة له وأربعائة
فارس من مزية فأسلموا كلهم ، وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : إن
للإيمان بيوتا وللنفاق بيوتا ، وإن من بيوت الإيمان بيت ابن مقرن . وقد
سكن النعمان بن مقرن البصرة ثم سكن بعدها الكوفة ، وكان النعمان رضى الله
عنه من أكبر أبطال المسلمين وكتائبهم ، فما كان يهنا له عيش إلا تحت ظلال
السيوف فإنه ما انتهى من فتح (جند نيسابور) و (السوس) حتى عينه
عمر بن الخطاب أميراً (لكسكر) ، فكتب إلى عمر يطلب منه أن يعزله عن
بشارة كسكر ويبعثه إلى جيش من المسلمين ، فأمره عمر على جند المسلمين بنهاوند .

أسباب معركة نهاوند

قد علم فيما سبق ما كان من انتصار المسلمين العظيم بمعركة القادسية ومعركة
جالولاء ، وهروب يزدجرد ملك الفرس إلى الري فمرو . فما كان يهنا له بال .
كيف لا وقد فقد أكبر قسم من مملكته ، فاجتهد حتى جمع جيشاً عظيماً من
الفرس بنهاوند ، وقد بلغ عددهم ١٥٠ ألف مقاتل ، وجعل أمير الجيش الفيرزان
الفرس قد ذكر قتل الفيرزان بمعركة القادسية ، وقتل الفيرزان بواقعة جالولاء والآن

يرد ذكر الفيرزان في نهاوند فلا بد أن تكون كلمة الفيرزان وظيفه من وظائف الجيش الفارسي الكبرى ، أو أن تكون لقب عائلة فارسية اشتهرت في أمور الحرب وكانت تلقب الفيرزان) وكان على ميمنة الجيش الفارسي الزردق ، وعلى ميسرته بهن جاذويه ، ولما بلغ عمر بن الخطاب اجتماع جيش الفرس بنهاوند تكلم مع سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه في هذا الأمر ، فقال له سعد : إن جند الكوفة يستأذنك في الانسياح في بلاد فارس وأن يبدءوا الفرس بالشدة ، ليكون أهيب لهم على عدوهم ، فجمع عمر بن الخطاب الناس واستشارهم في أمر الحرب بنهاوند قائلاً لهم : هذا يوم له مابعده ، وقد هممت في أن أسير فيمن قدرت عليه فأنزل منزلاً وسطاً بين هذين المصرين ، ثم استنفرهم ، وأكون لهم رداء حتى يفتح الله على المسلمين ويقضى ما أحب ، فإن فتح الله عليهم صبيبتهم في بلادهم .

طلحة بن عبيد الله

فقام طلحة رضى الله عنه قائلاً : (يا أمير المؤمنين قد أحكمتك الأمور وعجمتك البلايل ، واحتككتك التجارب ، وانت وشأنك ورأيتك لا ينبو في يدك ، ولا يكل عليك . إليك هذا الأمر فرنا نطع ، وادعنا نجب ، واحملنا نركب ، وقدنا نتقد ، فإنك ولى هذا الأمر ، وقد بلوت وجربت واختربت فلم ينكشف شيء من عواقب قضاء الله لك إلا عن خيارهم) ثم جلس .

عثمان بن عفان

فقام عثمان بن عفان رضى الله عنه قائلاً : (أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم ، وإلى أهل اليمن فيسيروا من بينهم ، ثم تسير .

أنت بأهل الحرمين إلى الكوفة والبصرة فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين ، فإنك إذا سرت قل عظمك ما قد تكاثر من عدد القوم ، وإنك يا أمير المؤمنين لا تستبقى بعد نفسك من العرب باقية ، ولا تمتع من الدنيا بعزير ، ولا تلوذ فيها بحريز . إن هذا يوم له ما بعده من الأيام ، فاشهده برأيك وأعوانك ولا تنيب عنه . (وجلس .

على بن أبي طالب

فقام على بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، فأبدى الرأي الصائب فقال : (أما بعد يا أمير المؤمنين : فإنك إن أشخست أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم ، وإن أشخست أهل اليمن من يمنهم ، سارت الحبشة إلى ذراريهم ، وإن أشخست من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرفها وأقطارها ، حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات ، أقرر هؤلاء في أمصارهم ، واكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا ثلاث فرق : فرقة في حرمهم وذراريهم ، وفرقة في أهل عهدهم حتى لا ينتقض ، ولتسر فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مدداً لهم ، إن الأعاحم إن ينظروا إليك غداً قالوا هذا أمير المؤمنين ، أمير العرب وأصلها ، فكان ذلك أشد لكلهم عليك ، وأما ما ذكرت من مسير القوم (الفرس) فإن الله هو أكره لصيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يكره ، وأما عددهم فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكن بالنصر) ثم جلس . فقال عمر : « هذا هو الرأي ، كنت أحب أن أتابع عليه ، فأشيروا على رجل أوليه ، وليكن عراقياً » . فقالوا : أنت أعلم بجندك وقد وفدوا عليك ، فقال : والله لأولين أمرهم رجلاً يكون أول الأسنة إذا لقيها غداً ، فقيل من هو ؟ فقال : هو النعمان بن مقرن المزني ، فقالوا : هو لها . وكان النعمان يومئذ

أميراً للسكر كما تقدم . فكتب إليه عمرو يأمره بالسير إلى ماء لتجتمع الجيوش عليه ، فإذا اجتمعوا إليه سار بهم إلى نهاوند . . .

ثم كتب عمر بن الخطاب إلى المسلمين الذين بالأهواز أن يشغلوا الفرس عن المسلمين ، وكان أمراء جند الأهواز بالقرب وحرمة ، وزير ، فأقام جند الأهواز بتخوم اصفهان وفارس وكان أهم عمل لهم قطع مدد فارس عن أهل نهاوند .

اجتمع الناس على النعمان ، وفيهم حذيفة بن اليمان ، وعبد الله بن عمر ، وجريز بن عبد الله البجلي ، والمغيرة بن شعبة . ولما بلغ جند النعمان رضى الله عنه ثلاثين ألفاً من المجاهدين أمرهم بالرحيل إلى نهاوند ، ثم عبد النعمان جند المسلمين تعبئة عظيمة ، فجعل على مقلعة الجيش أخاه نعيم بن مقرن ، وأمير المينة حذيفة بن اليمان وأمير الميسرة أخاه سويد بن مقرن ، وجعل على المجردة القعقاع بن عمرو ، وعلى الساقة مجاشع بن مسعود .

معركة نهاوند

كانت معركة نهاوند سنة ٢١ هـ . وكانت أكبر معركة قاوم فيها الفرس مقاومة عظيمة وتسمى العرب واقعة نهاوند « بفتح الفتوح » إذ لم يقم للفرس بعدها اجتماع ، ودخلت مملكتهم كلها في حوزة المسلمين . . . ابتداء القتال في نهاوند يوم الأربعاء ويوم الخميس بين العرب والفرس ، فلما رأيت الفرس ما أبداه المسلمون من البسالة تحصنوا بخنادقهم مدة طويلة ، وكانت خنادق الفرس محمية بأسلاك من الحديد : فضاقت صدر النعمان من نكوص الفرس عن الحرب وهو يريد محاربتهم والانتصار عليهم ؛ فجمع النعمان قواد جيشه وقال لهم : قد ترون الفرس واعتصامهم بخنادقهم ومدنهم وأنهم لا يخرجون إلينا إلا إذا شلوا ولا يقدر

المسلمون على إخراجهم؛ وقد ترون الذى فيه المسلمون من الضيق ، فما رأى الذى به نستخرجهم إلى المناجزة وترك التطويل ؟ فتكلم عمرو بن سفي ، وكان أكبر الناس سناً وكان العرب يحترمون شيوخهم ، فقال : التحصن عليهم أشبه من المطاولة علينا ، فدعهم وقاتل من أتاك منهم ، فردوا عليه رأيه (أى لم يستصوبوا رأيه) ، ثم تكلم عمر بن معد يكرب فقال : ناهدكم وكابدكم ولا تخفهم ، فردوا جميعاً عليه رأيه . وقال طليحة أرى أن نبعث خيلاً لينشبوا القتال فإذا اختلطوا بهم رجعوا إلينا استطراداً فإننا لم نستطرد لهم في طول ماقتلناهم . فإذا رأوا ذلك طمعوا وخرجوا فقاتلناهم حتى يقضى الله فيهم وفيما ما أحب ، قاستصوب المسلمون هذا رأى . فلينظر القارىء كيف كان المسلمون يقدسون الشورى بينهم وعدم الاستبداد بالرأى فكان أمرهم شورى بينهم كما أمرهم الله تعالى . فما أعظم موقف عمر وهو يشاور المسلمين في حرب نهاوند كما تقدم وما أكبر شأن النعمان وهو يستشير قواد جيشه فيما يصنع بالفرس ، فاللهم ارزق جميع المسلمين رجالاً من ذوى رأى والحصانة وارزقهم أمراء يجعلون الأمر شورى بينهم فيعيد الله مجد المسلمين لسابق عهده ، كما ندعو الله عز وجل أن يرزقهم رجال مثل هؤلاء الأبطال ، الذين لا يهنأ لهم عيش إلا تحت ظلال السيوف حياً في إعلاء شأن دينهم ودولتهم .

تقدم أن رأى قد استقر على أن تخرج فئة من جند المسلمين فيتظاهروا بالهجوم على جند الفرس ، ثم يخذعهم ويتقهقروا وبذلك الخدعة الحربية يتمكن المسلمون من محاربة عدوهم ، فأمر النعمان رضى الله عنه القعقاع بن عمرو أن يخرج ببعض الجند ، فخرج وهاجم الفرس ، وتظاهر بالتقهقر هو وجنده ، وكان ذلك في يوم الجمعة . ثم إن النعمان رضى الله عنه قد ارتدى ثوباً أبيض ، ووضع على رأسه قلنسوة بيضاء ، ثم امتطى جواده واستعرض جيش المسلمين ، ووقف على كل راية يذكروهم ويحرضهم ويمنيهم الظفر ، وقال لهم : إنى مكبر ثلاثاً فإذا كبرت

الثالثة فأنى حمل على الفرس قاحلوا عليهم ، وإن قتلت فالأمير بعدى حذيفة ، فإن قتل قتلان ، حتى عد سبعة آخرهم المغيرة ، ثم وقف راقعا رأسه ويديه إلى السماء وقال : اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام ، واقبضني شهيداً ، فبكى الناس ، ثم رجع إلى موقفه ، وعندئذ كانت الخدعة الحربية التي باشرها قد أثمرت ، فما رأى جند الفرس القمعاق وجنده يتقهقرون حتى خرجوا من خنادقهم ، وهجموا على جند المسلمين ، وكانوا في خروجهم كأنهم جبال من حديد ، وقد أمر قائد الفرس بعض جنده أن يرموا أسلاكا خلف جند الفرس ليخيفهم من التقهقر .

ولما رأى النعمان هجوم الفرس على جند المسلمين كبر ثلاثا ، والمسلمون سامعون مطيعون مستعدون للقتال ، فحمل النعمان والناس معه على الفرس ، وانقضت راية النعمان انقضاض العقاب ، فاقتل المسلمون والفرس قتالا شديدا لم يسمع السامعون بواقعة كانت أشد هولا منها ، وما كان يسمع إلا وقع الحديد ، وصبر لهم المسلمون صبرا عظيما ، وانهزم الفرس شر هزيمة ، وقتل منهم ما طبق أرض المعركة دما يزلق الناس والدواب . فلما أقر الله عين النعمان بالفتح استجاب له فقتل شهيداً ، زلق به فرسه فصرع ، وقيل بل رمى بسهم في خاصرته فقتله فسجناه أخوه نعيم بثوب وأخذ الراية وناولها حذيفة . فأخذها وتقدم إلى موضع النعمان ، وترك نعيما مكانه . وقال لهم للمغيرة اكنموا مصاب أميركم حتى ننظر ما يصنع الله فينا وفي أعدائنا . لثلايهن الناس . فاقتتلوا فلما أظلم الليل تمت هزيمة الفرس . وتركوا القتال وكان وراء خنادقهم نار فهوى بعض الفرس فيها فمات حريقا . وبعضهم قتل بالأسلاك التي وضعوها بينهم وبين خنادقهم كما تقدم .

وقيل إن من مات من الفرس في هذه الواقعة أكثر من مائة وعشرين ألف

مقاتل، ثم هرب الفيرزان قائدهم مع نفر قليل نحو همدان. فاتبه نعيم بن مقرن والقعقاع فأدركاه بنية همدان. وهى إذ ذاك مشحونة بمؤونة الفرس، فقتلاه. ثم استولوا على بغال وحمير موقرة عسلا. فلما رآها المسلمون قال بعضهم إن لله جنوداً من عسل. ولما تم الظفر للمسلمين جعلوا يسألون عن أميرهم النعمان ابن مقرن. فقال لهم أخو معقل. هذا أميركم. قد أقر الله عينيه بالفتح. وختم له بالشهادة. فاتبوا حذيفة. ودخل المسلمون نهاوند يوم المعركة. وأخذوا ما فيها من الأمتعة وغيرها وما حولها من الأسلاب والأثاث. ثم أمنوا كثيراً من الفرس. كخشر شنوم والهربرز صاحب بيت النار على أن يخرج لحذيفة ذخائر كسرى التى ادخرها عنده لنوائب الزمان. فأمنه حذيفة على ذلك وأخذ منه ذخائر كسرى. وأرسل خمسها مع خمس جميع ما استولى عليه المسلمون فى هذه المعركة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

فتح الفتوح

أما أمير المؤمنين عمر فكان قد أرسل السائب الثقفى. وكان كاتباً حاسباً. إلى جيش نهاوند. وقال له. إن فتح الله عليك فقسم على المسلمين فيثهم. وخذ الخمس منه لبيت المال. وإن هلك هذا الجيش فاذهب فبطن الأرض خير من ظهرها. فلما فتح الله على المسلمين أخذ السائب خمس الغنائم لبيت المال. وفرق أربعة أخماس الغنائم على المجاهدين فى معركة نهاوند. فخص الفارس من المسلمين ستة آلاف درهم والراجل منهم ألفاً درهم.

تقدم أن النعمان بن مقرن كان له سبعة إخوة. وقد بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد رأينا أن النعمان كان أميراً للجيش. وأخاه نعيم بن مقرن كان قائداً لمقدمة الجيش، وكان أخوه سويد بن مقرن قائداً لميسرة الجيش، وأن أخاه معقل بن مقرن هو الذى أعلن الجيش بوفاة أخيه النعمان، فيتبين من هذا

حسن فراسة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، إذ قال إن للإيمان بيوتا والنفاق بيوتا ، وإن من بيوت الإيمان بيت بن مقرن .

فمن لنا برجل يعلم خفايا القلوب ، فيخبرنا بما كان يدور في خلد هذا البطل العظيم النعمان بن مقرن وهو خارج إلى ساحة القتال ، وقلبه مملوء بأمرين عظيمين ، يقينه بنصر المسلمين في هذه المعركة العظيمة ، واعتقاده بأنه سيكون شهيداً بعد تمام النصر . ولم كان يتمنى نيله الشهادة في هذه الساعة التاريخية التي فيها يفاخر المرء بنفسه ، والتي لا يجوز في غيرها الخيلاء ، إذ صح أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في إحدى المعارك أحد أبطال المسلمين بعد أن قتل من المشركين كثيراً يمشى مشية الخيلاء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذه مشية لا يغفرها الله لصاحبها إلا في هذا الموقف » من لى برجل ماهر يأخذ على لوحة الصور المتحركة (السينما) صورة هذا البطل العظيم ، وهو مرتد رداءه الأبيض ، وقلنسوته البيضاء ، معتل صهوة جواده متقلداً سيفه يمينه ، حاملاً الراية يساره ، يتفقد فرق الجيش فرقة فرقة ، ولواء لواء ، ثم وقوفه في وسط الجيش وهو رافع يديه إلى السماء عند دعائه هذا (اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام واقبضني شهيداً) ، بمثل هذا البطل العظيم ، ومثل رجال جنده الطافرين تشيد الممالك . ويرتفع مجد الأمم . بمثل هذا البطل العظيم تنتصر عقيدة التوحيد بالله عز وجل ، عقيدة الإسلام التي يدين بها الآن سبعمائة وخمسون مليوناً من الناس ، أما حبه لنيل الشهادة في ساعة النصر فربما كان ذلك منه حباً في التخلص مما سيلقاه من التعظيم والتكريم من الناس ، فإن ما أتاه في سبيل نصرة الإسلام والمسلمين ما كان إلا حباً في الله ، لا حباً في العظمة والفخر ، بل كان يريد لقاء ربه في هذه الساعة فيظله الملك العلام من سماء عليائه بظلال رحمته ، وتقدم له الملائكة في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . أ كاليل النصر ، وتنثر الحور العين بين يديه الزهور والرياحين فهيناً له .

ولنا في المقام أن ندعو الله القادر على كل شيء . أن يهب للشرق والإسلام
أبطالاً مثل هذا البطل الكبير فيعيدون للإسلام مجده ، وإن يمد في حياة زائده
الرئيس جمال عبد الناصر .

ثم رجع السائب إلى المدينة فقابل أمير المؤمنين عمر ، فقال عمر ما وراءك ؟
فقال خير يا أمير المؤمنين فتح الله عليك أعظم الفتح ، واستشهد النعمان بن مقرن ،
فقال عمر ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم بكى بكاء شديداً وصعد إلى المنبر وأخبر
الناس بفتحها وند وانتصار المسلمين . ثم نعى النعمان بن مقرن ، ووضع يده
على رأسه وبكى ، فرضى الله عنهم أجمعين .

عبد الله بن عامر

عبد الله بن عامر ، بن ربيعة ، بن حبيب ، بن عبد شمس ، بن عبد مناف ،
أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأم أبيه عامر ، هي أم حكيم البيضاء ، بنت
عبد المطلب عمه النبي (صلى الله عليه وسلم) . وهو ابن خال عثمان بن عفان . ولد
في مكة بعد الهجرة بأربع سنين « ٦٢٦ م » ، وتوفي سنة ٥٧ هـ « ٦٧٨ م »
وعمره أربع وخمسون سنة .

ولما فتح الرسول (صلى الله عليه وسلم) مكة جىء له بعبد الله بن عامر
وهو طفل ، فقيل : هذا ابن السلمية قال : نعم هذا ابننا ، وهو أشبهكم بنا ، وهو
مستقى . فكان عبد الله لا يمر في أرض ليس فيها ماء إلا ويأمر بعض جنوده
أن تحفر فيها عين من الماء الغزير ، وكان شريفاً سخياً كريماً ، كثير المال والولد .
كانت مملكة فارس عند فتح المسلمين إياها مملكة كبيرة مقسمة الأرجاء ،
وكان من بلداتها الشرقية الأفغانستان وعاصمته كابل ، وبلوخرستان (أي السند
التابعة لباكستان الآن) .

ومن بلدانها الغربية العراق البجى ، وخوزستان ، ومن أشهر مدنه ،
المدائن ، والنهروان على نهر دجلة ، ونهاوند والسومر وجند نيسابور ، وكان
من قسم فارس الشمالى أذربيجان ، ومن أشهر مدنه تبريز ، وقسمها الجنوبى
كان يعرف بفارس ، وكرمان ، ومن أشهر مدنه اصطخر وقد فتحت أكثر
هذه البلدان فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب بعد واقعة القادسية وواقعتى جالولاء
ونهاوند ، وبقي قسم كبير من فارس لم يفتح بعد . وكانت بتلك البلدان التى
فتحت أو التى لم تفتح بعض من القرى الفارسية الكامنة الساخطة من تقويض
ملك فارس فلما توفى الخليفة عمر ثارت على المسلمين أكثر البلدان الفارسية
التي افتتحت ، وكان والى على البصرة أبو موسى الأشعرى ، وكان والى
على عمان والبحرين وفارس ، عثمان بن أبى العاص الثقفى فعز لها عثمان بن عفان ،
وولى البصرة وفارس عبد الله بن عامر سنة ٢٨ هـ وعمره أربعة عشرون سنة ،
فقال أبو موسى لأهالى البصرة ، يقدم عليكم غلام كريم الجدات والعمات
يجمع له الجندان ، فما تولى عبد الله بن عامر هاتين الولايتين حتى أطفأ الثورة
التي قامت بالبلاد الفارسية بحسن إدارته وحزمه فى قيادة الجيوش ، ثم افتتح
الأفغانستان وخراسان وسجستان وكرمان ، وما زال يطارد كسرى يزدجرد
حتى قتل ، وانقرضت بموته الدولة الساسانية ، وصار للمسلمين ملك الأكاسرة ،
فخفقت أعلامهم على أقاصى بلاد فارس الشرقية ، كما بسط المسلمون جناح
سلطانهم على فارس الغربية الجنوبية قبل ذلك . ألا يندهش الإنسان عندما يعلم
كيف استطاع المسلمون فى ذاك الوقت وهم بعيدون عن عاصمة ملكهم
(المدينة المنورة) أن يقطعوا هذه المسافات الشاسعة ويرتقوا هذه الجبال الوعرة
ويمروا من المضائق المنيعه يستولون على سورية ومصر والأناضول وجباله والقوقاز
وبلاد فارس وبلاد الأفغان ، مع أن بعض جبال الأفغان وما حولها كجبال
هند وكوش تبلغ من الارتفاع أكثر من أربعة آلاف متر ، ولا تقل بعض جبال

الأناضول والقوقاز عن هذا الارتفاع الشاهق . وما كانت أسلحتهم تمتاز عن أسلحة أعدائهم ، بل كانت أسلحة الرومان والفرس أجود بكثير من أسلحة العرب ، وإن بطلا مثل عبد الله بن عامر فاتح خراسان وأفغانستان وغيرها من البلدان ، أو أمثاله من أبطال المسلمين كسعد بن أبي وقاص ، والقعقاع ابن عمرو ، والنعمان بن مقرن الذين أحرزوا النصر في وقائع القادسية وجالولاء ونهاوند ، وخالد بن الوليد الذي هزم الرومان شر هزيمة في واقعة اليرموك يكاد لا يلم بتاريخهم كثير من أفراد الأمة ، مع أن اللورد كتشنر مثلاً يرن ذكره في جميع أنحاء بلاده ، مع أنه ما حارب إلا بجنود مصرية ، وبأسلحة من أجود طراز من مدافع رشاشة ، (متريوز) ، ومدافع كبيرة رجالاً من من إخواننا السودانيون يكادون أن يكونوا عزلاً من السلاح إلا بعض بنادق مهشمة لا قيمة حربية لها .

فهل ترضى هذه المقارنة أحداً ، من النصفين ؟ .

لما قدم عبد الله بن عامر إلى البصرة ، وفقه الله إلى انتقاء قواده من أعظم القواد .

أولاً — ولي عبيد الله بن معمر فارساً ، بعد أن كان والياً على خراسان ، فافتتحت جنود عبيد الله بلاداً كثيرة ، حتى بلغت النهر .

ثانياً — عين عمير بن عثمان بن سعد ، على خراسان ، فافتتحت جنوده بلاداً كثيرة حتى بلغت فرغانة .

ثالثاً — ولي عبد الله بن عمير الليثي على سجستان ، فافتتحت جنوده كابل عاصمة الأفغان .

رابعاً — أرسل مجاشع بن مسعود السلمي لفتح كرمان ، فافتتحها وفتح بلاداً غيرها .

خامساً — أرسل الربيع بن زياد الجارثي وافتتح بلاداً كثيرة .

سادساً — أرسل عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس والياً على سجستان ، فافتتح (زرنج) و (الكشكش) بناحية الهند و (زابلستان) . هذا ما كان من أعمال قواده الستة الذين ذكرنا فتوحاتهم ، أما هو فما بلغه . عصيان أهل فارس وثورتهم على عبيد الله بن معمر . وحربه إياها ، واستشهاده . رضى الله عنه ، حتى سار بجيش كبير من البصرة ، وكان على مقدمة جيشه عثمان بن أبي العاص ، وعلى ميمنة الجيش أبو برزة الأسلمي ، وعلى ميسرة الجيش معقل بن يسار ، وعلى الفرسان عمران بن حصين ، فلقية الثأثرون بأصطخر ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وفتح أصطخر .

وما كاد يفتح بعدها (دارابجرد) و (مدينة جور) حتى ثارت ثورة ثانية بأصطخر ، فحاصرها طويلاً ، وافتتحها عنوة ، ففنى فيها أكثر البيوتات الفارسية ، لأنهم كانوا لجأوا إليها . ولما عاد عبد الله بن عامر إلى البصرة ثارت أهار خراسان ، فأتاه الأحنف بن قيس وقال له : « أيها الأمير إن عدوك منك هارب ، ولك هائب ، والبلاد واسعة ، فسر فإن الله ناصرك ومعز دينه . فسار جنده إلى (نيسابور) ، وعلى مقدمة جيشه الأحنف بن قيس ، فافتتح (الطبسين) ، وهما قلعتان تحميان خراسان ، فافتتحها عنوة ، وافتتح (نيسابور) بعد محاصرتها أشهراً . وأرسل ابن عامر جنده يضربون في أقاصى البلاد ، وسار هو بجيش فافتتح (طوس) و (هراة) ، ثم افتتح الأحنف بن قيس (مرو) . وكثيراً من بلدان التركستان الشرقي ، ثم افتتح (بلخ) وصالح كثير من هذه البلدان عبد الله بن عامر على بعض المال بعد خضوعها له . فقد أخذ من (نيسابور) مليون درهم ، ومن (أيور) أربعائة ألف درهم ، ومن (طوس) ثلاثمائة

ألف درهم ، ومن (زرنج) مليوني درهم ، وأخذ من (قهستان) ستائة ألف درهم .

ولما تم لابن عامر هذا الفتح العظيم ، قيل له : « ما فتح الله لأحد مثل ما فتح عليك » . فقال : « لأجعلن شكرى لله على أن أخرج محرماً من موقفي هذا » ، فأحرم من نيسابور ، وأدى فريضة الحج ، ثم زار الخليفة عثمان بالمدينة ، وأنفق كثيراً من المال على أهلها ، ثم لما قتل أمير المؤمنين عثمان ، كان عبد الله ابن عامر مقاتلاً في واقعة الجمل لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وما استتبت الخلافة لمعاوية حتى عين عبد الله بن عامر سنة ٤١ هـ والياً على البصرة وخراسان وسجستان . فولى عبد الله على خراسان قيس بن المهيم السلمي ، وقد قامت بها ثورة فأطفأها وعادت إلى الطاعة . ثم ولى عبد الرحمن ابن سمرة على سجستان ، وكانت بها ثورة ، فأطفأها وأرجع إلى الطاعة (غزنة) و (كابل) .

وكان عبد الله بن عامر على الهمة ، جليل المآثر ؛ محباً للعمران حتى انه عزم على أن يصل بين العراق والحجاز بالقرى العامرة والمياه ، لتذهب وحشة البادية ، من النفوس ، ويتشهد طريق القوافل ، فاحتفر ثلاثة أنهر : نهر البصرة الذى يخترقها ، والنهر المعروف إلى ذلك العهد بنهر أم عبد الله (وهى أمه) . ونهر الأبله ، ثم غرس بقرب (البناج) كثيراً من الحدائق ، وفجر عيوناً كثيرة على طريق المدينة . وبنى قصرأ بقرب (قباء) ، ثم بنى خياطاً بعرفة وأجرى إليها الماء ، فازداد لذلك حب الأمة له حتى ان معاوية لما سأل قبيصة بن جابر : من ترى للخلافة بعدى ؟ قال له قبيصة : وأمافتاها حباً وحلماً وسخاء فابن عامر . فخشي منه معاوية . فيما زعم الرواة . ثم استدعاه إليه وأكرمه إكراماً عظيماً ، وبعد أيام قال معاوية : يا عبد الله بن عامر ، إني أسألك ثلاثاً ، فقال : هب لك ، وأنا ابن أم حكيم

(يعنى جدته أم حكيم عمة النبي صلى الله عليه وسلم) . فقال معاوية . ترد على عملى (أى ولاية البصرة) ولا تغضب . قال قد فعلت ، قال : وتهب لى مالك بعرفة . قال : قد فعلت . قال : وتهب لى دورك بمكة . قال : قد فعلت . قال معاوية : وصلتكم رحم . فقال ابن عامر : وإنى سائلك يا أمير المؤمنين ثلاثاً ، فقل قد فعلت . قال معاوية : قد فعلت وأنا ابن هند ، قال : ترد إلى مالى بعرفة . قال رددت إليك مالك يعرفه . قال : وتزوجنى ابنتك هند . قال : قد فعلت . قال ولا تحاسب لى عاملاً ، ولا تتبع أثرى . قال : قد فعلت . وفرح معاوية بمصاهرته ابن عامر ، لأنه كان يريد أن يكون تحت نظاره خوفاً من أن يتطلع للخلافة ، وأخباره فى الجود كثيرة . وقد توفى عبد الله بن عامر عن كثير من المال والولد سنة ٥٧ هـ ودفن فى الطائف بعد أن أتى هذه الأعمال العظيمة فى نصرة الإسلام ودولته فرضى الله تعالى عنه .

بطل اليرموك

خالد بن الوليد

خالد بن الوليد بن المغيرة ، بن عبد الله ، بن مخزوم ، بن يقظة ، بن مره ، أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمه لبابة الكبرى ، بنت الحارث بن حزن الهلالية ، وهى أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي ، وأخت لبابة الكبرى زوج العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم .

كان خالد بن الوليد فى الجاهلية أحد أشرف قريش ، وكانت إليه القبة (كانوا يضر بونها ويجمعون فيها ما يجهزون به الجيش) ، وكانت إليه أعنة الخيل (أى كان خالد المقدم على خيول قريش فى الحرب) .

أسلم خالد فى السنة السابعة للهجرة ، فأعز الله الإسلام به ، فهو البطل

المشهور والفسارس المأثور ، صاحب الفتوحات العظيمة ، لقبه النبي صلى الله عليه وسلم بسيف الله ، وقل أن يوجد قائد في العالم وفق إلى النصر في كل الوقائع كما وفق خالد بن الوليد ، فإن التاريخ لم ينبئنا بخذلانه ولا في واقعه واحدة ، وذلك لأنه كان عظيم الحزم ، دائم اليقظة كثير المراقبة لحركات العدو حسن التدبير .

أعماله في حياة النبي صلى الله عليه وسلم

١ — شهد خالد غزوة مؤتة (وهي بالبلقاء بمشارف الشام) وكان أمير الجند زيد بن حارثة ، فقاتل المسلمون الروم بمؤتة قتالا شديداً وقتل زيد بن حارثة ، فتولى القيادة بعده جعفر بن أبي طالب فاستشهد أيضاً ، ثم تولى بعده القيادة عبد الله بن رواحة فقتل أيضاً فتولى إمارة الجند بعد استشهادهم رضوان الله عليهم ، خالد بن الوليد ، فقاتل الروم قتالا شديداً حتى اندق في يده تسعة أسياف ، ثم مازال يدافع القوم حتى انحازوا عنهم ، ثم عاد بجيش المسلمين . وفي هذه الغزوة سماه رسول الله سيفاً من سيوف الله ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المدينة أوحى إليه بمن قتل من الأمراء ، فصعد يومئذ إلى المنبر وأعلم بقتل زيد وجعفر وابن رواحة وقال : (ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله : خالد بن الوليد ، وفتح الله عليه) ، سمي خالد سيف الله . وكان خالد من حين أسلم يوليه رسول الله أعنة الخيل فيكون في مقدمتها .

٢ — وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم فتح مكة من مكان يسمى الليط ، ومعه أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب ، وهو أول يوم (م ٣٣ — الراشدين)

أمر فيه رسول الله خالد بن الوليد ، فقاتل خالد عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان ابن أمية ، وسهل بن عمرو ومن معهم من بني بكر وبني الحارث بن عبد مناف ، وهزمهم بعد أن قتل منهم ثلاثة عشر رجلاً .

٣ — أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة دعيّاً بني جذيمة للإسلام ، لامقاتلاً ، فقاتلهم لأن صفات الجنديّة ، التي يلزمها في الغالب خشونة الطبع ، كانت متمكنة من نفس خالد ولكن غير الإسلام بعد كثيراً من طباعه فلم تبد منه هذه الشدة في حروبه للفرس والروم .

ولما انتهى خبر ما فعله خالد ببني جذيمة إلى النبي صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء فقال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » ثم أرسل عليّاً ومعه مال فودى لهم الدماء والأموال . ثم جاء خالد إلى النبي واعتذر ^(١) .

٤ — بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بطن نخلة ، وكان هناك هيكल الصنم الذي كانت تعظمه قريش وكنانة ومضر وهو العزى وكان كهان هذا الهيكل بنو شيبان ، فهدم خالد العزى والهيكل وقال :

يا عز كفرانك لا سبحانه إني رأيت الله قد أهانك

٥ — وكان خالد قائداً لبني سليم في واقعة حنين ، فجرح خالد فعماده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونفث في جرحه فبرئ .

٦ — وأرسل النبي خالداً إلى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، فأسره وأحضره عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فصالحه على الجزية ورده إلى بلده .

وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم في سنة عشر هجرية خالداً إلى بني

(١) فصلنا ذلك في كتاب « ظهور الإسلام » فليراجع .

الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ، فإن أجابوا يقيم
فيهم ويعلمهم شرائع الإسلام ، وإن أبوا يقاتلهم فخرج خالد حتى قدم عليهم
وبعث الركبان يضربون في كل وجه ويدعون الناس إلى الإسلام فأسلم الناس ،
وأقام بينهم يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ، ثم عاد بوفد منهم إلى النبي (ص)، ولم
ينزل خالد مدة صحبته يجاهد بين يدي النبي ويحرص على رضائه .

أعمال خالد بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم

١ - أرسل أبو بكر رضي الله تعالى عنه خالداً بجيش لمقاتلة طليحة بن خويلد
ومالك بن نويرة ، لادعاء أولهم النبوة ، ولامتناع ثانيهم عن أداء الزكاة ،
فانتصر خالد على طليحة بن خويلد ومن معه من بني فزارة ، ثم هرب طليحة إلى
الشام ، ثم تاب وعاد إلى الإسلام في خلافة عمر ، وشهد موقعة نهاوند ، وكان
طليحة من الشجعان المشهورين ، واستشهد في تلك الموقعة ، ثم بعد ذلك سار خالد
إلى البطاح فانتصر على مالك بن نويرة وقتله وتزوج امرأته أم تميم . وكان
مالك قد أسلم ، فطلب عمر بن الخطاب من أبي بكر أن يعاقب خالداً ، فقال
أبو بكر : يا عمر تأول خالد فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد ، فإنني لأشيم سيفاً
سله الله على الكافرين ، ودخل خالد على أبي بكر فاعتذر ، فقبل الخليفة عذره
وودى مالكا من بيت مال المسلمين .

٢ - أرسل أبو بكر خالد بن الوليد إلى حرب مسيلمة الكذاب باليمامة ،
وكان مع مسيلمة بنو حنيفة ، وكان عددهم ٦٠ ألف مقاتل ، وكانوا قد انتصروا
على عكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة ، فنشبت الحرب بين جند المسلمين

وَجُند مسيلمة الكذاب ، واشتد القتال ولم يلق المسلمون حرباً مثله قط ، فلما رأى خالد كثرة عدوه ، وخاف من هزيمة جنده ، أمر بأن تمتاز قبائل جيشه بعضها عن بعض فتستحي كل قبيلة منهم الفرار ، فلما امتازت قبائل جيش خالد قاتلت قتالاً شديداً ، وتم انتصار خالد وجنده على مسيلمة ومن تبعه من بني حنيفة . وقتل مسيلمة الكذاب .

فتوحات خالد بن الوليد

أمر أبو بكر خالد بن الوليد أن يسير إلى فتح العراق في الحزم من السنة الثانية عشرة للهجرة ، فانتصر خالد في واقعة الحفير على الفرس (الحفير قرب خليج البصرة) ، وبارز هرمز صاحب الحفير واحتضنه ، ثم قتله ، وأخذ سلبه . وقلنسوته ، ثم انتصر على الفرس في عدة وقائع ، وهي واقعة الثني والولجة واليُس . (على الفرات) وبرقلى ثم فتح الحيرة عاصمة العراق ، ثم فتح الأنبار وعين التمر . ودومة الجندل ، ومزق صفوف الفرس ومن معهم ، وخضعت كل هذه البلدان . إلى دولة الإسلام ، وكان من أبطال جند خالد بن الوليد المثني بن حلوة الشيباني . وبشير بن سعد الأنصاري ، وحنظلة بن الربيع التميمي ، وجريز بن عبد الله البجلي ، والنسير بن دسيم بن ثور ، وضرار بن الخطاب ، وهزار بن الأزور ، والقعقاع بن عمرو ، وعتبة بن النحاس ، وغيرهم من أهل البأس ، والأربعة . الأخيرون كانوا من أمراء الثغور .

جهز أبو بكر لفتح الشام أربعة جيوش جعل على أحدها عمرو بن العاص . ووجهته فلسطين ، وعلى الثاني شرحبيل بن حسنة ، ووجهته الأردن ، وعلى

الثالث: يزيد بن أبي سفيان، ووجهته البقاء، وعلى الرابع أمين الأمة أبو عبيدة - علمر بن الجراح -، ووجهته جمع، وساروا جميعاً على بركة الله وقد ودعهم أبو بكر ماشياً وأوصلهم بما فيه صلاحهم، فظلت الجيوش سائرة حتى نزلت حدود الشام، ولكن الروم جمعت جموعاً كثيرة من الجند لملاقاة الجنود الإسلامية - فأشار عمرو بن العاص على أمراء جنود المسلمين أن يجتمعوا بجنودهم باليرموك - وكل واحد يبقئ أميراً على جيشه، وكان موقف الرومان باليرموك هكذا: نهر اليرموك على يمينهم وخلفهم، ووادي الواقصة على شمالهم (وهو وادي عميق) وقد حفروا خندقاً أمامهم يحجز بينهم وبين جند المسلمين، ووقفت الرومان - والعرب هذا الموقف ثلاثة أشهر؛ صفر والربيعين من السنة الثالثة عشرة هجرية - فأرسل أمراء المسلمين إلى أبي بكر يستمدونه.

فكتب إلى خالد بن الوليد أن يسير بنصف جنده لنجدة المسلمين باليرموك - ويستخلف على نصف جنده الآخر المثنى بن حارثة الشيباني، فأطاع خالد أمر الخليفة، وقال للمثنى بن حارثة، (ارجع رحمك الله إلى سلطانك غير مقصر مولا وان) وكان المثنى غير كفء لحرب الفرس بعد خالد بن الوليد.

سار خالد في ربيع الأول سنة ١٣ هجرية من الحيرة بنصف جنده، وعدده تسعة آلاف مقاتل، ينسف الأرض نسفاً حتى وصل إلى اليرموك في ربيع الآخر - وكان وهو عائد من الحيرة إلى اليرموك يفتح البلدان التي يمر عليها حتى افتتح بصرى من بلاد جوران، وعند وصول خالد بن الوليد وجنده الظافر إلى اليرموك، اكتمل عدد جنده مع جنود المسلمين الذين كانوا هناك ٣٦ ألف مقاتل، ولكن خالد رأى كلا من أمراء الجيوش الأربعة التي كانت هناك - يأبى التنازل عن إمارته، وعلم أن حال جنود المسلمين مع هذا الاختلاف - وهم

٣٦ ألف مقاتل أمام ٢٠٠ ألف مقاتل من جنود الرومان لا يبشر بالنصر ، فجمع الأمراء وخطبهم . قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : (إن هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغي فيه البغى ولا الفخر ، أخلصوا جهادكم ، وأرضوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له مابعده ، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة ، وأنتم غير متساندين فإن هذا لا يحل ولا ينبغي) قالوا : فما الرأي ؟ فقال يؤمر على الجيش كله أمير واحد ، ويتعاونون الإمارة حتى يؤمروا كلهم ، وأن يؤمر هو في اليوم الأول . فقبلوا مشورته .

خرج خالد في تعبئة لم تعبئها العرب قبل ذلك ، فجعل جيشه ٣٦ فرقة ، كل فرقة ألف رجل ، عليها قائد من الشجعان ، وجعل على فرق القلب أبا عبيدة ، وجعل على فرق الميمنة عمرو وشرحبيل ، وجعل على فرق الميسرة يزيد ، ثم انتشب القتال وتطارد الفرسان وأظهر خالد من الشجاعة والحمية الإسلامية ما أدهش العقول ، وحال خالد بين خيل المشركين ورجالتهم ، فانهزم الفرسان وتركوا الرجالة (البيادة) فأفسح المسلمون لفرسان الرومان طريق الهرب ، واشتدوا على رجالة الروم فهزموهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً .

وانتهت هذه الواقعة بهزيمة الرومان شر هزيمة ، وكان من يريد الهرب من الرومان يقع في وادي الواقعة قتيلاً أو في النهر غريقاً ، وكانت الرومان بقيادة تيودور أخى هرقل امبراطور الرومان ، وكان هرقل وقتئذ بأورشليم ، فعندما علم بانكسار جنوده في اليرموك فر إلى حمص ، ثم هرب إلى أورفا ، ثم رحل عن سورية سنة ١٦ هـ بعد أن وقعت جميع الأنحاء السورية بيد العرب ، وقال قبل ركوبه البحر وهو واقف على إحدى الصخور : عليك السلام يا سورية . سلاماً لا اجتماع بعده .

كانت واقعة اليرموك هذه سبباً في إبادة الرومان من المشرق بل سبباً في فتح الشام ومصر .

وكنيت آتني أن أكون شاعراً مجيداً حتى يمكنني أن أصف واقعة اليرموك هذه بل وأنشد أناشودة حربية خاصة بها تحفظها الشيبية من الأمة ينشدونها فتملأ قلوبهم جرأة وإقداماً ، وحباً للمجد ومعالي الأمور .

كنت أرجو أن أكون مصوراً ماهراً لأصف موقف الرومان في واقعة اليرموك ، وعددهم مائتا ألف مقاتل ، وعليهم الدروع السابغة ، وعلى رؤوسهم الخوذ اللامعة ، وبأيديهم الأسلحة المتنوعة ، وهم الطوال القامة ، الشديدون العضل أولئك الرومان أولو البأس الذين اكتسحوا أوربا كلها ، وشمال أفريقيا ، وتوغلوا في آسيا ، وكأني أسمع صليل سيوفهم ودروعهم وجلبتهم وضوضاهم بينما المسلمون أمامهم لا يزيدون عن ستة وثلاثين ألفاً من المجاهدين لكن قلوبهم قد ملئت إيماناً وجرأة واعتقاداً بالنصر الذي وعدهم الله عز وجل إياه ، لا يرهبون موتاً ، ولا يخافون عدواً مهما كثر عديده ، يعتقدون أن أجسامهم ليست إلا ثياباً لأرواحهم الطاهرة التي عاهدوا الله تعالى أن تعيش في الدنيا كريمة عزيزة ، أو تنتقل إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، فخير بكل مسلم أن تملك عواطفه الأحزان ، إذا ما أراد أن يوازن بين حال المسلمين يومئذ وحالهم اليوم ، فاللهم ابعث للمسلمين رجالاً يهدونهم إلى العمل على إعادة مجدهم التليد ، وعزم الأتيل ، آمين .

ولما انتهت موقعة اليرموك ، سار خالد بجنود المسلمين حتى حاصر دمشق وفي أثناء حصارها جاء البريد من المدينة بنعي أبي بكر واستخلاف عمر بن الخطاب وتوسيد عمر لأبي عبيدة إمارة الجيش وعزله خالد بن الوليد ، فكنتم ذلك أبو عبيدة .

حتى تم فتح دمشق ، وكان خالد في فتح دمشق الأثر المحمود ، ومن أحسن ما يروى عن خالد أن بعضهم قال له : كيف تجد في فتح بلدان الشام والفتح منسوب لأبي عبيدة لالك وقد صنع عمر بك ذلك ، فقال : إنما أفتح الشام لله لا لعمر ثم قال : لا أبالي أن يقال الفاتح أبو عبيدة أم خالد ، إنما يهمني فتح الشام ، وقد فتحت .

ثم أرسل أبو عبيدة خالداً لفتح قنسرين التابعة لولاية حلب ففتحها ، ولما انتهى الخبر بذلك إلى عمر بن الخطاب قال : « قد أمر خالد نفسه ، رحم الله أبابكر ، هو كان أعلم بالرجال مني ثم استدعاه إلى المدينة فعاتبه خالد ؛ فقال له عمر : « ما عزلتك لريبة فيك ، ولكن افتن بك الناس فخفت أن تفتن بالناس وتوفي خالد في خلافة عمر سنة ٢٣ هـ بحمص وقبره على نحو ميل منها ، وقال خالد في مرضه الذي مات به : « قد دق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف ، وقد شهدت مائة زحف (حرب) أو نحوها ، وما في بدني موضع شبر إلا وبه ضربة أو طعنة ، أو رمية وها أنا أموت على فراشي فلا نامت أعين الجبناء ، ومالي من عمل أرجى من لا إله إلا الله ، وأنا متترس بها » .

وحزن عليه عمر والمسلمون حزناً شديداً وكان قد وقف فرسه وسلاحه في سبيل الله ، ولما مات خالد لم تبق امرأة من بني المغيرة إلا حلفت رأسها ووضع شعرها على قبره ، فرضى الله تعالى عنه .

أمين الأمة وبطل فتوح الشام

أبو عبيدة بن الجراح

أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح ينتهي نسبه إلى النضر بن كنانة وهم آخر بطون قريش ، ولد بمسجد ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم باثنتي

عشرة سنة (سنة ٥٨٣) وتوفي بمواس سنة ثمانى عشرة هجرية وعمره ثمان وخمسون سنة ، وكان فى الجاهلية معروفا بالرأى والدهاء حتى قيل (داهيتاقرش أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح) وهو من السابقين إلى الإسلام ، أسلم قبل دخول ، رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم وكان رضى الله عنه قوياً فى دينه متفانياً فى حب نبيه ، قال أنس :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامعناه « لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » شهد بدرأً وأحدأً ، والمشهد كلها مع رسول الله وهاجر إلى الحبشة وإلى المدينة ، وفى واقعة بدر كان أبوه (وهو من المشركين) يتصدى له ، فجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر أبوه قصده قتله أبو عبيدة ، فأنزل الله تعالى (لا تجدد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم . . الآية) وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وقال عمر بن الخطاب يوماً لجلسائه تمنوا ، فتمنوا ، فقال عمر بن الخطاب : لكنى أتمنى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبى عبيدة بن الجراح . ولماولى عمر بن الخطاب أبا عبيدة إمارة جند الشام بعد عزله خالد بن الوليد ، قال أبو عبيدة : سمعت رسول الله يقول : إن خالداً لسيف من سيوف الله ، فقال خالد بن الوليد : ولى عليكم أمين هذه الأمة .

فتوحات أبى عبيدة

فتح أبو عبيدة دمشق بعد حصار دام سبعين ليلة ، ودخلها من أحد جانبيها صلحاً ، ودخلها خالد بن الوليد من الجانب الثانى عنوة ، فاستخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبى سفيان ، ثم سار إلى فحل من أرض الأردن ، وهزم هناك جيوش الروم ، وآتى ييسان وطبرية وحاصرها فصالحا على صلح دمشق ، وسار إلى حمص عن طريق بعلبك ، وقدم إليها السمط بن الأسود الكندى ، وقدم

خلد الى البقاع ؛ ونزل أهل بعلبك إلى أبي عبيدة فصالحوه ؛ ثم افتتح حمص
ثم سار الى حماة فصالحه أهلها ثم افتتح حلب وحاصر أنطاكية وفتحها صلحاً
ثم سير جيوشه تضرب في الشمال والشرق حتى آتت فتح سوريا، وبلغت القررات
شرقاً ، وآسيا الصغرى شمالاً ، وبسط على أهل سورية جناح الرأفة والعدل ،
وعاملهم بما اشتهر عنه من الرفق حتى بات سلطان المسلمين أحب إليهم من سلطان
الروم ، فكانوا عوناً لهم على الفتح ، ولما قدم عمر بن الخطاب الشام تلقاه أمراء
الأجناد فقال عمر : أين أخى أبو عبيدة ؟؟ قالوا : يأتيك الآن . فجاء أبو عبيدة على
فرس مخطومة بجبل ، فسلم عليه ، ثم قال عمر للناس : انصرفوا عنا . فسار معه
حتى أتى منزله ، فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه وبعض كسرات من الخبز .
فقال عمر : لو اتخذت متاعاً . قال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين إن هذا سيبلغنا
المقيل . فبكى عمر .

وقد وفق الله أبا عبيدة في اختيار عماله من ذوى الهمة ، وبعضهم من يحاكونه
في زهده وورعه ، فإنه لما قدم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حمص أمرهم أن
يكتبوا له فقرائهم ، فرفع الكتاب فإذا فيه سعيد بن عامر ، قال : من سعيد
ابن عامر ؟ قالوا . يا أمير المؤمنين أميرنا ، قالوا : أميركم فقير ؟ ! قالوا نعم ؟ !
فعجب وقال : كيف يكون أميركم فقيراً ؟ ! أين عطاؤه ؟ أين رزقه ، قالوا يا أمير
المؤمنين لا يمسك شيئاً . فبكى عمر ، ثم عمد إلى ألف دينار فصرها وبعث بها
إليه ، وقال : أقرئوه منى السلام ، وقلوا له بعث بها إليك أمير المؤمنين فاستعن
بها ، فلما نظر سعيد الدنانير جعل يقول (إنا لله وإنا إليه راجعون) فقالت له امرأته
ما شأنك ؟ أصيب أمير المؤمنين ؟ قال أعظم ؟ ! ؛ قالت : فظهر آية ؟ قال أعظم
من ذلك ! ، قالت : فما شأنك ؟ ، قال الدنيا أتنى - الفتنة أتنى ، دخلت على .
فقال : فاصنع فيها ما شئت فبات يصلى طول ليلته حتى أصبح ، فاعترض جيشاً

من جيوش المسلمين ففرق هذه الدنانير عليهم ، ورجع فرحاً ، فرضى الله عنه .

ومات أبو عبيدة بن الجراح الفاتح العظيم أمين الأمة في طاعون عمواس سنة ١٨ هجرية ، بعد أن استخلف معاذ بن جبل فرضوان الله عليهم أجمعين .

بطل بابلون وفتح مصر

الزير بن العوام

الزير بن العوام بن خويلد ، بن أسد ، بن عبد العزى ، بن قصي أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله . وابن أخ خديجة أم المؤمنين زوج النبي ، ولد بعد ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم بإثنين وعشرين عاماً (٥٩٣ م) ، وقتل رضى الله عنه في يوم الخميس ١٠ جمادى الأولى سنة ٣٦ هـ وعمره ست وستون سنة . وأسلم وعمره ست عشر سنة ، وكان خامس من أسلم . وكان أسمر ، ربعة ، خفيف اللحية ، وقال على بن أبي طالب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لكل نبي حوارى ، وحوارى الزير . ابن العوام » وهو أول من سل سيفاً في الله عز وجل . وكان سبب ذلك أن المسلمين لما كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ، وقع الخبر أن النبي قد أخذه الكفار ، فأقبل الزير يشق الناس بسيفه ، والنبي صلى الله عليه وسلم بأعلى ، مكة ، فقال له : مالك يا زير ؟ قال : أخبرت أنك أخذت ، فصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعا له ولسيفه ، وعن عبد الله بن الزير بن العوام عن أبيه قال : لما نزلت (ثم لتسألن يومئذ عن النعم) قال الزير : يا رسول الله وأى النعم نسأل عنه ؟ وإنما هما الأسودان التمر والماء . قال رسول الله : « أما أنه سيكون » . فكان للزير بعد ذلك ألف مملوك ، وبلغت ثروته نصف مليون .

من الدنانير ، وبنى الزير بن العوام قصرأ له بالبصرة ، وقصرأ بمصر ، وقصرأ بالإسكندرية ، وقصرأ بالكوفة ، وكانت أغلب ثروته من ربحه في التجارة .
كان رضى الله عنه بطلا عظيما شهد المشاهد كلها مع رسول الله ، ولما استعصى على عمر وبن العاص وجنده فتح حصن بابلين (وهو الحصن الذى بناه الفرس أيام تملكهم لمصر على الضفة الشرقية من النيل قرب الكنيسة المعلقة فى مصر القديمة) استنجد أمير المؤمنين عمر أن يمدّه بجيش ، فأمدّه بجيش عدده ١٢ ألف مقاتل بقيادة البطل العظيم الزير بن العوام ، ولما جاء الزير بن العوام وجنده إلى مصر استقبله عمر وبن العاص ، فطاف الزير بالحنديق الذى حول حصن بابلين ، وكان الزير رضى الله عنه من الذين لا يرهبون الموت ، فقال إني أهب نفسى لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين ، فوضع سلما على جانب الحصن ، ثم صعد فأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعا فما شعروا إلا والزير على رأس الحصن يكبر ، ومعه السيف ، وتحامل الناس على السلم ، وكبر الزير فكبرت الناس معه ، وأجابهم المسلمون من الخارج ، فأوهم عمل الزير بن العوام الروم أن العرب قد اقتحموهم ، فهربوا إلى الجزيرة (جزيرة الروضة) على مراكب أعدوها لذلك ، وعهد الزير إلى باب حصن بابلين مع بعض جنده ففتحوه واستولوا على الحصن ، وكانت شجاعة الزير بن العوام واستيلاؤه على حصن بابلين المنيع سببا فى الاستيلاء على الديار المصرية كلها .

القائد والسياسى الداهية

المغيرة بن شعبة

ترجمته : هو المغيرة بن شعبة بن أبى عامر بن مسعود الثقفى ، أبو عيسى ، وأبو محمد ؛ وأبو عبد الله كان ضخما القامة ، عبل الذراعين ، بعيد ما بين المنكبين

أصهب الشعر جمده ؛ وكان لا يفرق شعره أسلم قبل عمرة الحديبية ، وشهدها ،
وشهد بيعة الرضوان ، وله فيها ذكر ، وحديث عن النبي صلى عليه وسلم ،
وكان صحابياً جليلاً ، ومحدثاً أميناً ، وسياسياً بارعاً . يقول ابن سعد : كان يقال .
له مغيرة الرأي ، وشهد اليمامة وفتوح الشام والعراق ، وقد ذكرنا في القسم الاول من
عصر الراشدين ، ما سافر به إلى يزدجرد ، في خلافة عمر ، وكيف أفرع الامبراطورية
الفارسية قبيل القادسية . يقول الشعبي ، كان المغيرة من دهاة العرب ، وقال
قيصة بن جابر : صحبت المغيرة ، فلو أن المدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب
منها إلا بالكر ، لخرج المغيرة من أبوابها كلها ، وولاه عمر البصرة ففتح ميسان
وهذان وعدة بلاد إلى أن عزله لما شهد عليه أبو بكر ومن معه وقال البغوي ،
كان أول من وضع ديوان البصرة ؛ وقال ابن حبان كان أول من سلم عليه
بالامرة ثم ولاه عمر الكوفة ، وأقره عثمان ، ثم عزله ، فلما قتل عثمان ، اعتزل
الفتنة ، إلى أن حضر مع الحكمين ، ثم بايع معاوية بعد أن اجتمع عليه الناس^(١) .
ويقول ابن الأثير ان دهاة العرب في ذلك العصر كانوا خمسة ، عمرو بن العاص .
وقيس بن سعد ، وعبد الله بن بديل الخزاعي ، ومعاوية والمغيرة ، وقد ظل المغيرة
معتزلاً بالطائف منذ عزله عثمان ، حتى تنازل الحسن بن علي في سنة ٤١ هـ .

أمثلة من دهائه :

في سنة ٤٠ هـ وبعد أن قتل علي بن أبي طالب ، واشتبك الحسن مع معاوية
في نضال عنيف ، وأوشك الأمر أن يوسد إلى معاوية ، قام المغيرة ، وأم الناس
في الحج ، مع أنه لما يزل معتزلاً عن النزاع وليس أميراً على إقليم من الأقاليم ،
ولذلك يروي ابن الأثير انه افتعل كتاباً على لسان معاوية وأنه عرف يوم
التروية ، ونحر يوم عرفة خوفاً من أن يفتن لفعله ، وقيل فعل ذلك لأنه بلغه

أن عتبة بن أبي سفيان قد أوشك أن يصبح والياً على الموسم ، ومعنى هذا أن المغيرة قد رشح نفسه لإمارة المؤمنين إذ انقسم المسلمون إلى فريقين يتقاتلان على الخلافة ، وأضحى أمر الأمة بدون خليفة يلتف الناس من حوله^(١) .

أما القصة الثانية التي تكشف عن دهاء الرجل ، فقد ساقها ابن حجر^(٢) فيما يلي :

استعمل عمر للمغيرة على البحرين ، فكرهوه وشكوا منه ، فعزله ، فخافوا أن يعيده عليهم فجمعوا مائة ألف ، فأحضرها الدهقان إلى عمر ، فقال : إن المغيرة اختان هذه فأودعها عندي ، فسأله عمر ، فقال : كذب . إنما كانت مائتي ألف . فقال : وما حملك على ذلك . قال : كثرة العيال ، فسقط في يد الدهقان ، فحلف هو أكذ الإيمان ، أنه لم يودع عنده قليلاً ولا كثيراً ، فقال عمر للمغيرة ، ما حملك على هذا . قال : انه افتري على ، فأردت أن أخزيه .

ومن القصص المرححة التي تروى عن المغيرة أيضاً أنه قال : كنت آتى فأجلس على باب عمر أنتظر الإذن على عمر ، فقلت ليرقأ حاجب عمر : خذ هذه العمامة فالبسها ، فإن عندي أختها ، فكان يأذن لي أن أقعد من داخل الباب ، فحين رآني قال انه ليدخل على عمر في ساعة لا يدخل غيره .

لقد كان المغيرة بن شعبة ذا شأن في الأمة الإسلامية ، قبل أن يعمل إلى جانب معاوية بن أبي سفيان ، يقول الطبري : انه كان مع أبي سفيان في هدم طاغية ثقيف بالطائف وبعثه أبو بكر إلى أهل الحيرة ، وأصيبت عينه يوم اليرموك ، كما كان رسول سعد بن أبي وقاص إلى رستم ، ورسول النعمان إلى أمير الفرس ،

(١) الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٠٧ .

(٢) نفس المصدر السابق .

ويقول بروكلمان^(١) . لقد اضطر المغيرة في شبابه إلى مغادرة مسقط رأسه الطائف بسبب من حرمة قتل ، ثم وفد على النبي (ص) في المدينة ثم إنه حطم صنم آلهة البلدة بأمر من النبي (ص) وأظهر من التقوى ما جعله في جملة الصحابة ، ولقد أدى أثناء الحروب ضد الامبراطورية الساسانية خدمات دبلوماسية عديدة ، عن طريق معرفته باللسان الفارسي . من أجل ذلك كافأة عمر بالإمارة على البحرين . ليعهد إليه بعد ذلك بعمل أعظم خطراً ، أعنى الإمارة على البصرة ، ولكنه عزل بعد ذلك ، ولكنه لمع نجمه من جديد بفضل الحروب الأهلية التي أظهر فيها حكمة وكياساً ، فلما ولى الكوفة جعل من همه أن يفسد بدهاء بارع ، بين الخوارج والشيعة وبذلك استطاع أن يشغل الكوفيين عن معارضة الأمويين معارضة فعالة على الرغم من أنهم لم يكونوا يكونون كراهيتهم لأهل الشام .

هذا وقد مات المغيرة بن شعبه في سنة ٥٠ في أرجح الروايات ، وقيل في سنة ٤٩ ، وقيل في سنة ٥١ وقد كان المغيرة من فضلاء المسلمين رغم كل ما حيك حوله من أقاصيص .

المغيرة أمير الكوفة

أبنا فيما سبق ، كيف التقى معاوية بالمغيرة ، وكيف توافق الرجلان على نظام الحكم في الكوفة والخطوة التي يتبعها المغيرة مع أهلها من شيعة وأمويين ، وأشرنا إلى معاملة المغيرة لغلاة التشيعة من أمثال حجر بن عدى ، وكيف أنه اتسع صدره لمهاتراتهم التي لا تكاد تنتهى عند حد ، ومع هذا فقد ظل يلتزم موقف النصيحة المجردة .

والآن نضع أمامكم موجزاً مناسباً لطريقة الإدارة التي سلكها المغيرة في

(١) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية ص ١٤٥ - ١٤٦ .

الكوفة وكيف انها كانت من ذلك النوع الرفيع الذى امتاز به هذا الرجل ولم يستطع محاكاته فيه أى وال من بعده . يقول المؤرخون : ان سياسة المغيرة كانت أرفق وألين من أى سياسة أخرى ، فقد أحسن إلى الناس ، ولم يفتش أهل الأهواء والفتن عن أهوائهم ، وكان إذا ذكر له عن أى شخص أنه يرى رأى الشيعة أو الخوارج يقول :

قضى الله أن لا يزالوا مختلفين ، وسيقضى الله بين عباده فيما اختلفوا فيه ، وبهذا أحسن أهل الكوفة جانبه ، واطمأنوا الى إدارته ، لولا أن الخوارج والشيعة كانت تساورهم الهواجس من جهة الأمويين ، فأما الشيعة ؛ فقد استطاع المغيرة أن يداريهم . وأن يتسع صدره لمثل الرجل الجامع منهم وهو حجر بن عدي ، فلم يشرعوا فى فتنة مسلحة تلجىء الوالى إلى الخروج عن طبعه . أما الخوارج فانهم لم يمكنهم أن يتغلوا عن جبلتهم فى إحداث القلاقل والاضطرابات . فاجتمع جماعة منهم إلى ثلاثة من زعمائهم ، وهم المستورد بن علفة التميمي ، وحيان بن ظبيان . ومعاد بن جوين الطائى ، فولوا قيادتهم بعد الشورى ، المستورد بن علفة ، وخرجوا إلى دار حيان بن ظبيان ، واجتمعوا فى عددهم وعدتهم ، ولكن رئيس شرطة الكوفة ، أبلغ المغيرة بما حدث ، فأصدر إليه أمراً بالقبض عليهم وإحضارهم إليه ، فلما حضروا سألمهم المغيرة عما حملهم على الفتنة ، فزعموا أنهم لم يفكروا فى الخروج ، وإنما جاءوا إلى منزل ابن ظبيان لكي يقرأوا القرآن عليه ، بحسبانه أقرأهم للكتاب ، ولكن المغيرة أمر بهم إلى السجن ، فلم يزالوا فيه حوالى سنة ، وقد سمع إخوانهم بما حدث ، فأخذوا يتجهزون للخروج مرة أخرى بيد أن المغيرة علم بحالهم ، فجمع أهل الكوفة وخطبهم ، فقال :

أما بعد فقد علمتم أيها الناس ؛ أنى لم أزل أحب لجماعتكم العافية ، وأكف عنكم الأذى ، والله لقد خشيت أن يكون أدب سوء لسفهاكم ، فأما العلماء

الأتقياء فلا وايم الله ، لقد خشيت أن لأجد بدأ من أن يعصب الحليم الثقي
بذنب السفية الجاهل ، فكفوا أيها الناس سفهاءكم ؛ قبل أن يشمل البلاء
عوامكم ؛ وقد ذكر لي أن رجالا يريدون أن يظهرُوا في مصر بالشقاق والخلاف ،
وايم الله لا يخرجون في حى من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدتهم وجعلتهم
نكالا لمن بعدهم فليُنظر قوم لأنفسهم قبل الندم ؛ فقد قت هذا المقام . إرادة
الحجة والأعذار .

هذا وقد استطاع المغيرة أن يضبط ولايته ؛ بمثل هذه السياسة الرفيعة ؛ كما
أنه لم يتهاون مع الخوارج ؛ بل وضعهم تحت المراقبة ؛ وفرض عليهم قيوداً
شديدة حتى أمكنه القضاء على شوكتهم فضمن رؤساء العشائر والقبائل من
قبلهم من أفرادها ، وذلك بعد أن هددهم المغيرة قائلاً : ليكفى كل امرئ
من الرؤساء قومه ؛ وإلا فوالذى لا إله غيره ؛ لآتولن عما كنتم تعرفون
إلى ما تنكرون ؛ وعما تحبون إلى ما تكرهون ؛ فلا يلومن امرؤ إلا نفسه ،
وقد أعذر من أنذر ؛ وقد خرجت الرؤساء إلى عشائرهم ؛ فناشدوهم الله
والإسلام ؛ إلا دلوهم على من يريد أن يهيج فتنة أو يفارق جماعة . . وبهذا
الأسلوب الرفيع في الحكم استطاع المغيرة أن يقضى على الفتن في العراق ،
ونجتزىء بهذا عن المغيرة لنوجز جملة عن قيس بن سعد ؛ حتى تكمل لكم
الصورة عن رؤوس الشيعة الذين كانوا عصب القوى العلوية ؛ ثم لانت عريكتهم
لمعاوية ؛ واندمجوا في دولته حتى أصبحوا دعائم إيجابية في نهوض الأمة ؛
واستقرارها ؛ وذلك بفضل سياسة معاوية ودهائه ؛ ومرونته ؛ وكياسته .

القائد والسياسى العظيم

قيس بن سعد

هو قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى الخزرجى ؛ ويكنى أبا الفضل

(م ٣٤ — الراشد)

وأبا عبد الله ؛ وأبا عبد الملك وقيل ان كنيته أبو القاسم ؛ وأمه بنت عم أبيه .
واسمها فكيهة بنت عبيد الأنصارية وكان سعد ضخما حسنا طويلا ؛ كما كان
سخيا كريما ، وكان من دهاة العرب الخمسة في عصره — كما أسلفنا — يقول
البغوي : كان قيس حامل راية الأنصار مع رسول الله ﷺ وكان من ذوى
الرأى . وقد شهد فتح مصر واختط بها داراً ؛ وروى أنه كان يقول : اللهم
ارزقنى مالا ؛ فإنه لا يصلح الفعّال إلا المال ؛ ويقال انه كان لا ينبت في وجهه
شعر ؛ حتى قالت الأنصار . وددنا أن نشترى لقيس بن سعد لحية بأموالنا ؛ ومع
هذا ، فقد كان قيس بن سعد من النبي (ص) بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير ؛
وقد خدم رسول الله (ص) حوالى عشر سنين وقد عرف قيس بالشجاعة ،
والنجدة ، والفروسية ، والمكيدة في الحرب ، كما كان شريف قومه .

شارك قيس في معظم غزوات الرسول (ص) وحضر جيش العسرة .
فكان ينحر ويطعم حتى استدان بسبب ذلك . ونهاه أمير الجيش أبو عبيدة
ولكنه ظل على سجية بيته الذى يقال ان النبي (ص) قال فيه : الجود من
شيمة أهل ذلك البيت . ويروى أن رجلا استقرض من قيس بن سعد ثلاثين
ألفا . فلما ردها عليه ، أبى أن يقبلها . وقد أخذ الرسول (ص) الراية من أبيه
يوم الفتح . وسلمها إليه :

شهد قيس صفين مع علي . وكان مع ابنه الحسن بن علي حتى صالح معاوية .
فرجع إلى المدينة وأقام بها — كما سند كر ذلك بعد — ويروى ابن عيينة أن
قيسا قال : لولا الإسلام لمكرت مكر الاتطيقه العرب .

توفى قيس في آخر خلافة معاوية سنة ٦٠ هـ بالمدينة . وقيل انه هرب
من معاوية وظل حتى سنة ٨٥ في خلافة عبد الملك حيث توفى هذا العام .

كان قيس من ولاة مصر قبل صفين . كما كان قائد جيش الحسن بن علي
خند معاوية سنة ٤١ هـ .

موقف قيس بعد تنزل الحسن :

يقول ابن الأثير : في سنة ٤١ هـ جرى الصلح بين معاوية وبين قيس بن سعد ، وكان قيس امتنع من ذلك ، وسبب امتناعه أن عبید الله بن عباس لما علم بما يريد الحسن من تسليم الأمر إلى معاوية ، كتب إلى معاوية ، يسأله الأمان ، لنفسه على ما أصاب من مال وغيره ، فأجابته إلى ذلك ، وأرسل عبد الله بن عمر في جيش كثيف ، فخرج إليهم عبید الله ليلاً ، وترك جنده الذين هو عليهم بغير أمير ؛ وفيهم قيس بن سعد فأمر الجند عليهم قيس بن سعد وتعاهدوا بإيادهم على قتال معاوية حتى يشترط لشيعته على ، ولمن كان معه على دمائهم وأموالهم ، وقيل إن قيساً كان هو الأمير على ذلك الجيش في المقدمة ، وكان شديد الكراهية لإمارة معاوية بن أبي سفيان فلما بلغه أن الحسن بن علي صالح معاوية ؛ اجتمع معه جمع كثير وبايعوه على قتال معاوية حتى يشترط لشيعته على ، على دمائهم وأموالهم ، وما كانوا أصابوا في الفتنة ؛ فراسله معاوية يدعوهم إلى طاعته ؛ وأرسل إليه بسجل وختم على أسفله وقال له أكتب في هذا ماشئت فهو لك ، فقال عمرو لمعاوية : لا تعطه هذا وقاتله فقال معاوية ؛ على رسلك ، فإننا لا نخلص إلى قتالهم حتى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام ؛ فما خير العيش بعد ذلك فاني والله لا أقاتله أبداً حتى لا أجد من قتاله بدا . وقد تسلم قيس كتاب معاوية . واشترط لنفسه ولشيعته على الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال ولم يسأل في سجله ذلك مالا . وقد أعطاه معاوية ما سأل . ودخل قيس ومن معه في طاعته وكانوا يعدون قيساً من أعظم الدهاة .

هذا ولعل فيما سبق ، ما يكشف عن نفسية قيس ، ومركزه في الأمة ، حتى إن معاوية عامله كما عامل الحسن بن علي نفسه ، بينما تقول الرواية إن

أقارب الحسن ، وبنى صومته ، قد تخلوا عنه لأولي باهرة ، وكان طلبهم من معاوية أن يتجاوز لهم عن الأموال التي أخذوها من بيوت أموال المسلمين .

ان هذه الروايات - ان صحت - تعتبر شديدة الحساسية ، ومجال أحاديث وتعليقات لا يمكن ردها . ولكن الذى يعزى المؤرخ عدم الجزم بتصديق مثل هذه الأخبار لأنها صالحة للتخريج والتأويل ، والله أعلم بمدى تمتع هذه الروايات بالصدق أو الافتراء . أما نحن ، فلا نملك إلا أن نذكرها على سبيل الشرح والتوضيح ، على مسئولية الذين أثبتوها .

ومع هذا ، فإن ما قدمناه عن قيس ، وتركية المؤرخين ، والمحدثين للرجل ولعائلته يجعلنا نقدره ، ونجله ، ونقول كما قال الكثيرون - رضى الله عنه وأرضاه .

والى هنا نستطيع أن نقول : ان معاوية . قد نجح فى حل مشكلة الشيعة ، إذ ضم زيادا وقيس بن سعد ، كما تخلص من حجر بن عدى ، وبذلك لم يعد فى العراق والمشرق ، أو الحجاز واليمن ، من يناوئه من هؤلاء .

بطل اجنادين وفتح مصر

عمرو بن العاص

ترجمته :

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص السهمى القرشى . ولد حوالى سنة ٣٣ قبل البعثة المحمدية ، وتوفى سنة ٤٣ هـ على الراجح عن تسعين سنة على الأشهر ، وقيل توفى وله من العمر تسع وتسعون سنة .

وعمر بن الخطاب من الرجال القلائل الذين أوتوا حظاً من سعة الأفق ، والذهاء ، وعذوبة الحديث حتى ان قريشاً كانت تعتمد عليه في السفارات بينها وبين ملوك الروم والحبشة ، والعرب ، وكان عمرو يكفيها هذه المسائل ، ولكن من المخلصين للأمة العربية ، والشيرة القرشية ، كما كان من أعرق بطون قريش ، وذوى الناصب الكبرى في مكة ، وكان ذا رأى وقه ، ولم يكن إمعة في عقيدته أو ثقافته ، ولكن كان يغلب عليه ، الميل إلى موافقة قومه ، وترسم تقاليدهم ، ولعل ذلك من أهم الأسباب المباشرة في تأخر دخوله في الإسلام ، وإن كان يرصد التطورات في وعى ، وتوثب ، وفحص ، وانتباه ، فلما أمكنته الفرصة ، أعلن رأيه ، ولم يخش في الحق لومة لائم .

إسلام عمرو :

يختلف المؤرخون في زمن إسلام عمرو بن العاص ، فروى أنه أسلم في شهر صفر من سنة ٨ ثمان قبيل فتح مكة ، وقيل انه أسلم بين الحديبية وخيبر . قيل لعمرو : ما أبطأك عن الإسلام وأنت في عقلك قال : إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم ، فلما بعث النبي (ص) فأنكروا عليه ، فلذنا بهم ، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا ، فإذا حق بين ، فوقع في قلبى الإسلام ، فعرفت قريش ذلك منى من إبطائى عما كنت أسرع من عونهم عليه ، فبعثوا إلى فتى منهم فناظرنى في ذلك ، فقلت : أنشدك الله ربك ورب من قبلك ومن بعدك أنحن أهدي أم غارس والروم . قال : نحن أقوى قلت : فتحن أوسع عيشاً أم هم . قال هم . قلت : فما ينفعنا فضلنا عليهم إن لم يكن لنا فضل إلا في الدنيا ، وهم أعظم منا فيها أمرا في كل شيء . وقد وقع في نفسى أن الذى يقوله محمد من أن البعث بعد الموت ليجزى المحسن بإحسانه ؛ والسيء بإساءته حق ، ولا خير في التماذى في الباطل .

كذلك يزوي أن عمرا أسلم في الحبشة حينما أوفدته قريش إلى النجاشي «
للوقية بين مهاجرة المسلمين - وبين امبراطور الحبشة؛ وقد علم أصحاب
عمرو بهذا فأذوه ، وسلبوه كل ما يملك ، مما دفعه لأن يشكو إلى جعفر
ابن أبي طالب ، الذي أخذه إلى النجاشي لإنصافه ، فأمر برد كل شيء -
أخذ منه .

لقد كان عمرو من القرشيين القلائل الذين يشار إليهم . ولذلك فقد كان
الرسول يتمنى انضمامهم إليه ، فلما أسلم . فرح النبي به . وقربه . وعرف له
شجاعته ، وولاه غزوة ذات السلاسل . وأمدّه بأبي بكر ؛ وعمر . وأبي عبيدة .
ابن الجراح . ثم استعمله على عمان ، وظل بها حتى قبض الرسول إلى الرفيق
الأعلى . فلما كانت خلافة أبي بكر عقد له على أحد الجيوش التي وجهها إلى
الشام . ثم أصبح من أمراء الاجناد في عصر عمر بن الخطاب .

ونقف هنا قليلا لننظر في تأمير عمرو في ذات السلاسل . على جيش
فيه أبو بكر . وعمر . وأبو عبيدة ثم فيما تم بعد ذلك من انتخاب أبي بكر أميراً
لجميع المؤمنين . ثم في عزل عثمان له عن امارة مصر ومع هذا . فإن موقف
الرجل لم يتغير في جميع الظروف . فلم يفضبه أن يكون جندياً في جيش أبي بكر .
بعد أن كان رئيساً له . ولم تتغير أخلاقه . حينما عزله عثمان . بل ثبت .
في مكانه هنا في الوطن العربي ، وإلى جانب هؤلاء الأمراء جميعاً ، وحتى عثمان ،
بعد مقتله ، ، كان وفياله وغازب علياً من أجل الاعتداء الذي أوقعه بعض
المحيطين به بالخليفة عثمان .

إن هذه الشخصيات ، التي لا تكاد تنفجر عنها الأرحام إلا في فترات قليلة
جداً من الزمن لتلقى علينا دروساً هادفة في الثبات والصبر ، على المبادئ والمثل
التي ندين بها ، مهما أساء بعض الناس فهمها أو تطبيقها ، ولكن الذين يتابعون

أمثال عمرو بن العاص — بدون ريب — قليلون ، ولذلك . فإن تقديرنا ، وحقنا بمثل ذلك الرجل ، لا تكاد تنهى عند حد ، مهما حاول أدعياء العطف على آل محمد (ص) أن يحولوا بين الأمة . وبين هذه الثقة وهذا التقدير لأبطالها .

لقد أومأنا إلى ذلك الموقف الخالد لهذا البطل العبقري ، في معركة صفين وكيف انه أمسك بعصا السلم والقضاء على الفتنة ، من وسطها حينما أشار بالتحكيم ، محاولاً وضع حد لإزهاق أرواح المؤمنين ، وتمزيق وحدتهم ، وللخلافات الحادة التي أنشبت الحروب بينهم ، وأطمعت الأعداء في التربص بدولتهم . فنجح الرجل ، ووفق كل التوفيق ، وبخاصة بعد إصدار ذلك القرار التاريخي الذي رد الأمر في خلافة النبي (ص) ، ورياسة الدولة ، إلى الأمة ، تولى من تشاء ، بعد أن حاول دعاة الفرقة ، والفوضى ، إعادة الحمية الجاهلية ، وإقامة نظام هرقل قيصرى في ربوع الأمة التي تدين بالشورى ، وتؤمن بحرية الفرد ، وإرادته واختياره ، كما تكفر بالطاغوت في أى صورة من صورته ، وأيا كان شكله أولون طغيانه .

إن عمرا بدون شك ليعتبر رائداً مثالياً في تدعيم أرقى النظم السياسية والاجتماعية في الأمة الإسلامية ، ولم يكن أبداً هازلاً في التحكيم ، كما لم يكن التحكيم قط مهزلة ، كما يصفه بعض الذين يحكمون على الأشياء في غير تدبر أو عمق .

عمرو مع أبى بكر وعمر :

وعندما توفى النبي (ص) واستخلف أبو بكر ، اندلعت حركة تمردية عامة في بلاد العرب وأطرافها ، فأرسل الخليفة حملة تأديبية ضد التمردين ، في مختلف المناطق ، وكان عمرو بن العاص قائداً لإحدى الفرق التي

بث بها أبو بكر لقمع حركة الردة العربية فأبلى بلاءاً حسناً ، واستطاع أن
ينتصر في أكثر من ميدان — كما أبتا ذلك في موضعه .
وفي خلافة عمر ، كانت معركة اليرموك في نهايتها الحاسمة ، وكان عمرو
وخالد بطل ذلك الانتصار الذي تم للعرب ضد الروم وحلفائهم في سوريا ،
وفلسطين ، حتى ان بعض المؤرخين ينسب إلى عمرو وحده ، توجيه دفعة
الحرب التي نشبت بين العرب والروم في الشام : يقول الواقدي : دعا
أبو بكر عمرو بن العاص ، فسلم إليه الراية وقال : قد وليتك هذا الجيش ،
فانصرف إلى أهل فلسطين ، وكاتب أبا عبيدة وأنجده إذا أرادك . . .
اتق الله في شرك وعلتك ، واستحيه في خلواتك ، فانه يراك في عملك . وقد
رأيت تقدمتي لك على من هم أقدم منك سابقة . وأقدم حرمة . فكن من عمال
الآخرة ؛ وادب عملك وجه الله واسلك طريق ايلياء حتى تنتهي إلى أرض فلسطين .
وإياك والوهن ، وإياك أن تقول جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ؛ ولا قوة لي
به ؛ واعلم يا عمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر . فأكرمهم واعرف
حقهم . ولا تتناول عليهم بسلطانك : ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول إنما
ولاني أبو بكر لأنني خيرهم ، وإياك وخدائع النفس ، وكن كأخدمهم ؛ وشاورهم
فيما تريد من أمرك . والصلاة . ثم الصلاة . أذن بها إذا دخل وقتها . واحذر
من عدوك وأمر أصحابك بالحذر . ولتكن أنت بعد ذلك مطلعاً عليهم . وأطل
الجلوس بالليل مع أصحابك . وأقم بينهم . واجلس معهم . واتق الله إذا لاقيت
العدو . وقدم قبلك طلائعك وإذا وعظت فاجز . وأصلح نفسك تصلح لك
رعيتك . وإذا رأيت عدوك . فاصبر ولا تتأخر . فيكون ذلك منك فخراً .
والزم أصحابك قراءة القرآن ، وانهم عن ذكر الجاهلية وما كان منها . فإن ذلك
يورت العداوة بينهم . واعرض عن زهرة الدنيا . حتى تلتقي بمن مضى من سلفك
وكن من الأئمة المدوحين في القرآن إذ يقول الله تعالى : وجعلناهم أئمة يهدون

يأمرنا . وأوحينا إليهم فعل الخيرات . وإقام الصلاة . وإيتاء الزكاة . وكانوا لنا عابدين ! . . . بارك الله فيك وفيهم .

ولعل من يتدبر هذه الوصية الجامعة . يراها آية في حسن التوجيه . في السلم والحرب . والدنيا والدين . وقد عمل عمرو بها . وترسمها بدقة وحزم فاقصر في جميع حروبه : سواء في الجزيرة العربية أو بادية الشام . أو في مصر . فهل يدرك الخلف من هذه الأمة . الأسباب الحقيقية التي مكنت لهم في الأرض وأخرجت منهم أعظم دولة ؛ وخير أمة ؟ .

موقف عمرو في الفتنة :

مهما تقول البعض على الصحابي الفاضل ، والمجاهد العظيم عمرو بن العاص فإنهم لم يستطيعوا إخفاء مفاخره في حروب الردة ، ثم في قتال الروم سواء في الشام أو في مصر ، أو غيرها من المعارك التي خاض غمارها ولكن الأعظم من ذلك — في نظرنا — هو موقف الرجل إبان الفتنة التي قتل فيها عثمان ، ثم بويع فيها لعل بن أبي طالب ، ثم انشقاق الأمة العربية ؛ والشجار الدموي بين علي وطلحة والزبير وعائشة ثم الصدام الذي حدث بين علي ومعاوية ؛ وبينه وبين الخوارج .

لقد كان موقف عمرو في كل هذه الأحداث في غاية السلامة والحزم فلقد كان عثمان قد استمع إلى الشكوى ضد عمرو ؛ فعزله عن إمارة مصر ، وولى بدله عبدالله بن سعد بن أبي مروح ؛ قبيل الحركة السبئية بقليل ، ومع هذا فإنه لم ينضم إلى أعداء عثمان ولم يحرض ضده ، بل كان من المتوقع من مثله أن ينضم إلى علي بن أبي طالب . ولكنه لم يفعل . بل إن الرجل قد استجاب لضيمره الشخصي وداس بقدمه القوية الثابتة على أمانى النفس ، وشهواتها .

ومطامعها : وظل مكانه يصدغ بالحق ؛ ويحرص على التوحيد : وجمع الكلمة واستتاب الأمن . وسيادة النظام وكشف عن ذلك باعتزاله الفتنة . ثم باعتراضه على خلافة علي . وانضمامه إلى معاوية عميد الأسرة الأموية التي عزلته من منصبه مما يدل على أن الرجل كان مؤمناً بضرورة الحيلولة دون تمزيق الوحدة العربية والإسلامية . وكان يرى في معاوية أعظم شخصية جذابة للأمة . بحكم مركزه السياسي والاقتصادي والاجتماعي . إلى جانب خصائصه المفضلة في خدمة الدين ورسوله وكتابه . ومواهبه الفريدة في حسن الإدارة . وأدب الحكم . ومن ثم فقد أخذ عمرو يمهّد عن هذا السبيل لإعادة الأمة إلى سيرتها الأولى في عهد النبي (ص) وصاحبيه ؛ حتى إذا كانت معركة صفين انتهزها سائحة ؛ فدعا إلى التحكيم . وقد نجح في الوصول إلى أهدافه كما أبناه في الكتاب الأول من هذا البحث

عمرو في مصر :

كانت مصر من أهم البلاد التي اهتم بها معاوية باعتبارها متاخمة للشام وتعتبر أيضاً مصدراً عظيماً لمختلف المواد في السلم والحرب . وكان على قدولى عليها قيس بن سعد بن عبادة في سنة ٣٦ هـ فساسها سياسة حكيمة واستقامت له الأمور حتى كاد يجمع عليه الناس . بيد أن معاوية أخذ يعمل على تشجيع العناصر الموالية لعثمان وللأمويين حتى استطاع أن يكون له بها أنصار كثيرون ، ولكن الأمر لم يتعد هذا الوضع طوال مدة الفتنة .

في هذه الأثناء عزل على قيس بن سعد عن مصر ، وولى مكانه محمد بن أبي بكر واشتبك هذا مع العثمانية من أهل مصر حتى لم يقو أمير مصر الشاب على السيطرة على الموقف وبلغ ذلك علناً فعقد بولاية مصر لمالك بن الأشتر . ولكن هذا لم يكف يسير إلى مصر لضبط أمورها حتى وافقه المنية قرب

السويس - وبذلك ظلت الأحوال في مصر مضطربة ، وظل محمد بن أبي بكر لا يستطيع تسيير دفة الأمور بها .

ولكن بعد صدور قرار الحكيم وضعف مركز علي قام معاوية بالتجهز لضم مصر إلى دولته فبعث بعمر بن العاص في ستة آلاف جندي دخل بها مصر فانضمت إليه العثمانية بها ، ثم اشتبك في صراع دموي مع أبي بكر نائب علي ، وانتصر عمرو على ابن أبي بكر . وبذلك أصبح عمرو أمير مصر وحاول على أن يستردها ففشل . وقد ظل عمرو يحكم مصر منذ سنة ٣٨ هـ حتى سنة ٤٣ هـ حيث توفي . فأُسند معاوية إمارة مصر إلى ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص الذي حكم مصر نحواً من سنتين . وعلى ذلك يكون عمرو قد تولى إمارة مصر في عهد عمر أربع سنين وفي عهد عثمان أربعاً إلا شهرين ولعاقبة منذ افتتاحها إلى سنة ٤٣ هـ فكان فيها مثال الإداري الحازم الذي تمكن من القضاء على الفتن القبلية والطائفية والمذهبية .

ولذلك فإن وجود هذا الرجل إلى جوار معاوية أكسبه قوة جبارته كانت من أهم العوامل في نجاحه وانتصاره على بن أبي طالب كما أوضحنا ذلك فيما سبق .

تعقيب

حول شخصية المقوقس

بعد أن مضت فترة على صدور هذا الكتاب وأوجزنا جملة عن المقوقس حسبما أسعفتنا به المراجع التي تحت يدينا ، نشرت دراسات مفيدة حول شخصية المقوقس رأينا من الأمانة العلمية ، أن نثبتها هنا ونحن بصدد نشر هذه الطبعة . يقول الباحثون^(١) الجدد .

أنفق المؤرخون جهداً عظيماً في البحث عن حقائق هؤلاء الأعلام دون أن يتجهوا إلى نتيجة تطمئن إليها النفس وذهبوا يلقون ضوءاً فيما كتبه مؤرخو الأقباط مثل ساويرس أسقف الأشمونين المعروف بابن المقفع وسعيد بن بطريق المعروف بأوتيخا وأبي صالح الأرمني وجرجس المسكين فإذا بمعظم أخبارهم منقولة عن الأصول العربية نفسها ثم التمسوا المعونة من مؤرخي البيزنطيين أنفسهم مثل سيبيسوس مؤرخ هرقل وتيوفانس صاحب المدونة المعروفة بالتاريخ فلم يجدوا لديهم إلا إشارات لاتغنى فعادوا إلى الخطوط الرئيسية الأولى التي وضعها أصحاب الروايات الإسلامية الأولى ووقف الأمر عند ذلك ولا بد من تحقيق شخصية المقوقس مثلاً قبل المضي في هذا البحث فهو في رأينا مفتاح موضوع فتح العرب لمصر .. إذا عرفنا من هو وما هو دوره بدت لنا قصة الفتح تحت ضوء جديد وقد حاول الفريد بطار في كتابه المعروف عن الفتح العربي لمصر أن يحل بعض هذه المشكلات ، فلم يخرج إلا بنتيجة وحيدة قبلها الناس زماناً ولكنها الآن موضع شك كبير ونعني بذلك قوله ان المقوقس هو قيرس ولم يستند في ذلك القول إلا إلى عبارات تحتمل أكثر من تفسير وجدها عند ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين .

وكل هذه النصوص — فيما عدا قصة صمويل القلموني تذكر قيرس دون

(١) انظر تاريخ الحضارة المصرية عدد ٥ من المجلد الثاني ص ٣٢٥

أن تشير إلى المقوقس ، أو تذكر اسمه كأن المقوقس هذا خاص بمؤرخى العرب وخدم ولم يعرفه الأقباط ولا البيزنطيون .

وحيث أننا لا نجد ما يقابله من الأسماء عند هؤلاء فإنه يغلب على الظن أنه لقب أطلقه العرب على شخص معين وليس ذلك بغريب فقد أطلقوا على رئيس حامية حصن بابليون لقب (الأجيرج) وسمو القائد البيزنطى فى افريقية . (جرجر) مع أن اسمه الحقيقى (جريجوريوس) ولو أن المقوقس هذا كان قبرس بالذات لذكرت ذلك المراجع العربية أو واحد منها على الأقل . فإذا نحن مضينا فى البحث وجدنا أولا : ان المقوقس يوصف بأنه عظيم القبطولولا أنه كان عامل مصر من قبل البيزنطيين لما وصف بذلك كما نلاحظ أنه كانت له فى مصر أسرة كثيرة الأفراد متفرقين فى نواحيها . تذكر المراجع العربية منهم رجلا يسميه المقرئى « الهامواك » والواقدى « الهاميراك » ويقال انه كان من أخوال المقوقس وكان على دمياط وقاتل المسلمين مع واحد من أولاده قتل واستأمن هو ولحق ابن آخر له اسمه شطا بالمسلمين وأسلم وخرج الى البرلس والدميرة وأشمون طناح فحشد أهل تلك النواحي وقدم بهم مددا للمسلمين وسار بهم للفتح تنيسى وقاتل حتى قتل وقبره باق الى الآن فى دمياط وهو معدود فى أوليائها وصالحيتها وذكر المؤرخون كذلك أخا للمقوقس يسمى أندراوس وبنتا تسمى لولية بل ذكروا له زوجة وقالوا انه كان لها شأن .. هذا بالإضافة الى ابنته أرمانوسا ذات الخبر المشهور .

كشاف الأعلام

كشاف الاعلام

(١)

الأئمة : ٥١ ، ١٩٩ ، ٢٤٤ .
 الأباطرة : ٧٣ ، ٧٤ ، ١١٠ ، ١٧١ ،
 ١٧٢ ، ٢٠٤ ، ٢١٥ .
 أبا الحسن : علي بن أبي طالب .
 أبا زيد الطائي النصراني : ٩٢ .
 إبراهيم بن محمد العباسي : ٥٢ .
 إبراهيم عليه السلام : ١٣ ، ١١٩ ،
 ١٠٦ ، ٣١٠ .
 ابن الأثير : ١٥٦ ، ١٧٧ ، ١٨٩ ،
 ١٦١ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
 ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٥١ ،
 ٢٥٥ ، ٢٦٢ ، ٢٧٧ ، ٣٠٥ ،
 ٣١٣ .
 ابن إسحاق : ١٦٧ .
 ابن أم سلمة : ٨٤ .
 ابن حجر : ٤ ، ٥ ، ٤٧ .
 ابن الخطاب : ٧ .
 ابن حديج : معاوية بن حديج .
 ابن الدعنة : ٦ ، ٥ .
 ابن السوداء : عبد الله بن سبأ .
 ابن عامر : عبد الله بن عامر .
 ابن عباس : عبد الله بن عباس .
 ابن عساكر : ٢٢٧ .
 ابن عمر :
 ابن مسعود : ٤٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،
 ابن ملجم : ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ،
 ابن المحرّش بن عبد عمرو الحنفي : ٢٤١ ،
 ابن النعمان : ٩٧ .
 الأبناء : ٦٣ ، ٦٨ .

أبي بن كعب : ١٠ .
 أبو الأسود الدؤلي : ٣٩٣ .
 أبو الأعور السلمي : ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٤ ،
 أبو أيوب الأنصاري : ٢٦٦ ، ٣١٣ ،
 أبو بكر الصديق : ٤٣ ، ٨٧ ، ١١ ،
 ١٦ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ،
 ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٢ ،
 ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ،
 ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ،
 ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ،
 ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٧٦ ،
 ٧٩ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٠ ،
 ٩٥ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ،
 ١٦٧ ، ١٧٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٢٩ ،
 ٢٠٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٧١ ،
 ٣٠٥ .
 أبو بكر (بن علي بن أبي طالب) : ٣١٢ .
 أبو حفص : ١١٨ ، ١٢٥ ، ١٦٤ ،
 أبو حنيفة : ١١٩ .
 أبو الدرداء : ٧ ، ١٤٣ .
 أبو ذر العقابي : ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ،
 ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،
 أبو سعيد الخدري : ٢٤٨ .
 أبو سفيان صخر بن حرب : ١٠ ، ١٤ ،
 ١٨٢ ، ٤٩ .
 أبو سبرة بن ذؤيب : ٩٧ .
 أبو طالب : ٨٧ .
 أبو طلحة : ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،
 أبو عبيد بن مسعود الثقفي : ٩١ ، ٩٢ ،
 أبو عبيدة عامر بن الجراح : ١٢ ، ٢٨ ،
 ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ،

١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٥
 ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨
 ١٤٣ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١١٠
 ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٢
 ١٧٣ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٩
 ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠١
 ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨
 ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٣
 ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٥ ، ٢٦٢ ، ٢٧٣
 ٢٧٤ ، ٢٨٦ ، ٢٧٩ ، ١٨٧ ، ١٩٥
 ١٩٩ ، ٣٠١ .
 أسماء بنت أبي بكر : ٩٠٥
 أسماء بنت عميس (زوجة أبي بكر في
 الإسلام) : ٩
 أسماء بنت عميس الخثعمية : ٣١٢ .
 إسماعيل عليه السلام : ١٣ ، ١٨
 الأسود المنى : ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ،
 ٦٨ ، ٦٩
 الاشتراكية : ٤٧ ، ٧٤
 الأشر النخعي : ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٥٥ ،
 ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٦ ، ٢٨٣
 ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٥
 الأشج : ٢٣
 الأشعث بن قيس : ١٧٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩
 ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ .
 أصحاب الجبل : ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،
 ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥
 ٢٦٠ ، ٢٩٩ ، ٣٠١
 اصطخر : ١١٣ ، ١١٤
 الأعرج : ١٣٤
 أغوات : ١٠٢
 الأقرع بن حابس : ٣٢
 الأكاسرة : ١٦٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥
 آل البيت : ١٩٠
 آل هاشم : ٢٢
 أليس : ٨٢

٥٨ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ١١٨ ، ١١٩
 ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٧٣
 أبو الفداء : ١٤٦
 أبو الفرج : ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨
 أبو قتادة بن ربيعي : ٨٤ ، ٢٦٧
 أبو قحافة بن عامر : ١٠٣
 أبو لؤلؤة القارسي : ١٦٤ ، ١٧٤ ، ١٨٥
 ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠١
 أبو موسى الأشعري : ١١٤ ، ١٦٥ ،
 ٢١٩ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٧
 ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧
 ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢
 ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣١٢
 أبو هريرة : ٦ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٨٠
 الأجناد : ١٦٦ ، ١٩٦ ، ١٣٥ ، ٢٧٥
 الأحنف بن قيس : ١١٤ ، ١٨٤ ، ٢١١
 ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٥
 آدم : ١٣ ، ١٧٢
 أزدهير بن بابك : ٧٨ ، ٧٩ ، ١٠٦ ،
 ١١٤
 أرطوبون : ١٢١ ، ١٢٢
 أرست رينان : ١٥٣
 أسامة بن زيد بن حارثة : ١٣ ، ١٧ ،
 ٣٢ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ،
 ٧١ ، ٢٤٧
 الأسباط : ٢١٠
 الاستعراق : ٥٥
 أسقف : ١٦٨
 أسلم : ١٨٠
 الإسلام : ٤ ، ٥ ، ٦ ، ١٠ ، ١٤ ، ١٨
 ١٩ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٤
 ٣٥ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٩
 ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٠
 ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨
 ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠
 ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٩ ، ١٠٥

أنوشروان : كسرى الأول .

الأهوار : ١٠٤

أهل القمة : ١١٥ ، ١١٦

أهل السكر : ١٢٢

لياس بن قبيصة : ٨١

(ب)

بتلر : ١٢٣ ، ١٣٣ ، ١٤٧ ، ١٥١ ،

: ١٥٩ ، ١٥٣

بحيرا الراهب : ٨ ، ٥٦ ، ٨٧

البخارى : ٧ ، ٨

بروكلمان : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٤٩ ،

: ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦١ ،

: ١٦٢

بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير :

: ٣٦ ، ٣٧

بشير بن شريح القيسي : ٢٤١ .

بشير بن عمرو الأسارى : ٢٧٦ ،

بكر بن وائل : ٢٦٥ .

البوذية : ١٧١ .

بهرام الأول : ١٧١ .

بلال : ١٣ ، ١٤ .

البيت النبوي : ١٧ ، ١٨ ، ٤٣ ، ٥٤ .

بيت المال : ٤٧ ، ٥٦ ، ١٨١ ، ١٨٩ ،

: ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٤٧ ،

: ٢٧٢ ، ٣٠٤ .

البيعة : ١٢ ، ٣٧ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٤٩ ،

: ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ،

: ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٩ ، ٢٤٤ ،

: ٢٤٧ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٨٦ ،

: ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،

: ٣١٩ .

بنو أسد : ٦١ ، ١٢ ، ٦٦ ، ٧٠ .

بنو الأصفر : ١٥ .

بنو أمية : ١٩٠ ، ١٩٧ ، ٢٠٩ ،

: ٢٩٠ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٧٣ ،

بنو بياضة : ٢٦٩ .

بنو عيم : ٢١ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٦٠ ،

الإمام : ١٨٤

أمامة بنت علي بن أبي العباس : ٣١٢

أمامة (بنت علي بن أبي طالب) : ٣١٢ .

أم جعفر (بنت علي بن أبي طالب) : ٣١٢

أم حبيب بنت سبيعة : ٣١٢ .

أم الحسن (بنت علي بن أبي طالب) : ٣١٢

أم حكيم بنت الحارث الخزومية : ١٧٣

أم الخير : سلمى أم أبي بكر

أم رومان (زوجة أبي بكر الثانية) : ٥

أم سعيد بنت عمرة بن مسعود الثقفي : ٣١٢

أم سلمة : ١٨٣

أم سلمة (بنت علي بن أبي طالب) : ٣١٢

أم الفضل بنت الحارث : ٢٥٢

أم الكرام (بنت علي بن أبي طالب) : ٣١٢

أم كلثوم بنت أبي بكر : ٩ ، ٩٠ ، ١٨٣

أم كلثوم بنت الرسول : ٢٠٩

أم كلثوم (بنت علي بن أبي طالب) :

: ٣١٢ ، ١٨٣

أم كلثوم الكبرى (بنت علي بن أبي طالب)

أم المؤمنين : عائشة .

أم هانئ (بنت علي بن أبي طالب) :

: ١٤ ، ٣١٢

أم البنين بنت حزام : ٣١١

الإمبراطور موريق : ٧٨

أمير خوزستان : النعمان بن مقرن

أمير العالية : الأخنف بن قيس .

أمير المؤمنين : عمر بن الخطاب .

الأنبار : ٨٣

أنس : ٧

أنستاسيوس : ٣٣

الأنصار : ٨ ، ٩ ، ١٢ ، ١٩ ، ٢٠ ،

: ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ،

: ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ،

: ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٤ ،

: ٦٧ ، ٦٩ ، ٩٢ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ،

: ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ ،

: ٢٤٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠

الجاملية : ١٠ ، ١٣ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٩ ،
٧٠ ، ١٢١ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ،
١٨٣ ، ٢٨٣ ، ٢٧٣ ،

الحياة : ،

جبريل : ٦٥ .

الجبة : ١٦٥ .

بن قيس : ١٥ :

حرير بن عبد الله الجبلي : ٩٣ ، ٢٩٥ ،

الجزية : ١٦ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٩٧ ، ١١٠ ،

١١١ ، ١١٥ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،

١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ ،

١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ٢١٠ ،

٢١٦ .

جستنيان : ٧٧ .

جعفر بن علي بن أبي طالب : ٩ ، ٣١١ .

جفينة : ١٧٤ ، ١٩٣ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،

٢٠٠ ، ٢٠١ .

جانة (بنت علي بن أبي طالب) : ٣١٢ .

الجل : ٢٦٦ ، ٢٩٥ ، ٣٠٢ .

جميلة بنت ثابت بن قيس الأنصارية : ١٨٣ .

جندب بن عبد الله : ٣١٨ .

الجنة : ١٧ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١٨٧ ،

١٩٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٧ ،

٣١٤ ، ٣١٥ .

جورج (القائد الأعلى لاروم) : ٣١٤ ،

١٤١ .

الجيش الإسلامي : الجيوش العربية
الإسلامية .

الجيوش العربية الإسلامية : ١٦ ، ٣٨ ،

٤٧ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٨٨ ،

٩٢ ، ١٠١ ، ١١٣ ، ١٢٨ ، ١٣٣ ،

١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٢ ، ١٥٧ ،

٢٠٧ ، ٢١١ .

(ح)

الحارث بن الحكم : ٢٣٤ ، ٢٤٢ .

الحارث بن هشام : ١٤ .

٦١ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٩٦ ، ٧٠ ،

٢٥٦ ، ٢٦٢ ، ٢٧٠ ، ٢٩٤ ،

٢٩٥ .

بنو الحارث : ٢٨٠ .

بنو حنيفة : ٢٤ ، ٢٧ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٧٠ ،

بنو ساعدة : ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٢٨٠ ،

بنو سلم : ٤٧ ، ٤٨ .

بنو عامر : ٥٠ ، ٢٤٠ .

بنو عبد المطلب : ٢٧٠ .

بنو عبد مناف : ١٩٥ ، ٣١٢ ،

بنو عيس : ٢٥٠ .

بنو عدي بن كعب بن أوى : ٨٩ ، ١٨٥ .

بنو غم : ٥٠ .

بنو قلة : ١٦٩ .

بنو كلب : قبيلة بنو كلاب :

بنو مخروم : ٨٩ ، ١٩٧ .

بنو مدليج : ٢٨٠ .

بنو ميط : ٢٣٤ ، ٢٤٢ .

بنو هاشم : ٣٣ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٥ ،

١٩٧ .

(ت)

التحكيم : ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٨ ،

٣٠٢ .

الترك : ١٧١ ، ٢١١ ، ٢٨٧ .

تقلب : ٩٣ .

تمام بن العباس : ٢٥٣ .

تمم : بنو تميم ،

الثورارة : ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،

١٥٠ .

نيودوسيو : ١٣٢ ، ١٣٢ ، ١٤٩ ،

(ث)

تقيف : ٢٠ ،

ثور : ٣٢ ،

(ج)

الجارود الميدي : ٢٣ .

جامعة عربية إسلامية : ٤١ ، ٩٠ .

الحباب بن المنذر الحرجي : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٤٩ .
 حبيب من أبي ثابت : ٤٩ .
 حبيب بن مسلمة القهري : ٢٩٤ ، ٣٠٥ .
 حبيبة بنت خارجة بن زيد (زوجة أبي بكر) : ٩٠ .
 الحج : ٩ ، ١٧ ، ٢٦ ، ٥٦ ، ٧٧ ، ١٦٤ .
 حجر بن عدى الكندي : ٢٩٣ .
 حجة الوداع : ٢٥ ، ٧٢ .
 حذيفة بن محسن : ٦٨ ، ١٠٨ ، ١٧٥ .
 حذيفة بن اليمان : ٢١١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .
 حرب الجمل : ٢٢٩ .
 حرقوس بن زهير السعدي : ٢٤١ .
 حركة الارنداء المربية : ٢٢٤ ، ١٨ .
 الحرم المكي : ١٨ ، ٢٢٤ .
 حسان بن ثابت : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤٢ ، ٢٤٨ .
 الحسن بن علي : ١٧٧ ، ٢١٠ ، ٢٤٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ .
 ٢٦٠ ، ٢٦٧ ، ٣١٣ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ .
 حفصة بنت عمر : ٩٠ ، ١٦٤ ، ١٨٣ ، ٢٢٦ .
 حصين بن نمير : ٩٧ .
 الحكم بن عمير التغلبي : ١١٤ .
 حكيم بن جبلة العميدي : ٢٤١ .
 حمزة بن مالك الهمداني : ١٩٦ ، ٢٩٤ .
 حنا الأجرومي : ١٤٥ ، ١٤٧ .
 حنا الماروسي : ١٣٢ .
 حنا النقيوس : ١٣٢ ، ١٤٨ .
 حنمة بنت هشام (أم عمر بن الخطاب) : ٨٩ ، ١٨٠ .
 (خ)
 خاتم النبوة : الخاتم النبوي
 الخاتم النبوي : ١٦٩ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .
 خادم النار : ١٦٧ .
 خازن بيت المال : ٢٣٤ .

خالد بن سعيد : ٦٨ ، ٨٦ .
 خالد بن ملحيم : ٢٦٣ .
 خالد بن الوليد : ١٢ ، ١٦ ، ٦٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٥ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٧٦ ، ٣١٢ .
 خشم : ٩ .
 خديجة : ٨ ، ٥ .
 خديجة بنت علي بن أبي طالب : ٣١٢ .
 الحراج : ٢١٠ ، ٢٧٣ .
 الحزرج : ٩ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٢٠٦ .
 خزيمة بن ثابت : ٢٩٧ .
 الخطاب بن نفيل : ٨٩ ، ١٨١ .
 خليد بن طريف اليربوعي : ٢٨٤ .
 الخليفة : ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٦٧ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٦ ، ١٥٦ ، ٢٦٢ .
 الخليفة الأول : أبو بكر الصديق
 خليفة الخليفة : ٥٢ .
 خليفة رسول الله : أبو بكر الصديق
 خليفة المسلمين : أبو بكر الصديق
 الخلافة : ١٢ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٧٥ ، ٩٠ ، ١٤٣ ، ١٦٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٦ .
 الخلافة الأموية : ١٦٠ .
 الخلافة العباسية : ١٦٠ .
 الحوارج : ٤٣ ، ٥٨ ، ٢٩٨ ، ٣١٦ ، ٣١٢ .
 خولة ابنة جعفر بن قيس الحنفية : ٣١٢ .
 (د)
 دار الخلافة : ١٢٠ .
 دار الدقيق : ١٧٨ .

خاتم النبوة : الخاتم النبوي
 الخاتم النبوي : ١٦٩ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .
 خادم النار : ١٦٧ .
 خازن بيت المال : ٢٣٤ .

٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ،
 ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠
 الرسول : رسول الله صلى الله عليه وسلم
 رسول الله صلى الله عليه وسلم : ٤ ، ٥ ،
 ٨ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ،
 ١٦ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ،
 ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٧ ،
 ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٤ ،
 ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ،
 ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ،
 ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ،
 ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٦١ ، ٨٢ ،
 ٧٧ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٩ ،
 ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٩ ،
 ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،
 ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،
 ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ،
 ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ،
 ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،
 ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢٢٢ ،
 ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ،
 ٢٤٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٩١ ،
 ٢٩٦ ،
 الرق : ١٦٩ ، ١٧٠ ،
 رقية بنت الرسول : ٢٠٩ ،
 رقية بنت الرسول : ٢٠٩ ،
 رقية بنت عمر : ١٨٣ ، ١٨٩ ،
 رقية بنت علي بن أبي طالب : ٣١٢ ،
 رملة الصغرى (بنت علي بن أبي طالب) ،
 ٢ ، ٢ ،
 رمة الكبرى (بنت علي بن أبي طالب) :
 ٣٦٢ ،
 الرهبان : ١٦٣ ،
 الرواة : ٨ ، ١٩٦ ،
 (ز)
 الزبرقان بن بدر : ٢١ ، ٢٣ ،
 الزبير : ٥ ، ١٢ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ١٣٣ ،

دار الندوة : ٣٢
 الدعوة الإسلامية : ٦ ، ٣٧ ، ١٧٢ ،
 ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،
 الدهانين (مشايخ القرى) : ١٠٤ ، ١٠٩ ،
 ١١٥ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ،
 الدواوين : ١٦٢ ، ١٧٨ ،
 دومنقياس (حاكم القيوم) : ١٣٢ ،
 الدين : ١٨ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٤ ، ٣٦ ،
 ٣٧ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٧٣ ،
 ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٩ ، ٩٢ ،
 ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٦ ،
 ١٥٠ ، ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،
 ٢٠٦ ، ٢٤٥ ،
 (ذ)
 ذبيان : قبيلة ذبيان
 ذريح بن عماد العبدي : ٢٤١ ،
 الذميين : ١١٥ ،
 ذو الكلاع (ملك حمير) : ٩ ،
 ذوالنون : عثمان بن عمان
 ذي القصة : ٦٦ ،
 (ر)
 رئيس الدولة الإسلامية : ٤٢ ، ١٧٥ ،
 ٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ،
 ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،
 رئيس الشرطة : ٢٠٦ ،
 رافع بن خديج : ١١٢ ، ٢٤٨ ،
 الراية : ١٧ ، ٢٠ ، ٥٦ ، ٧٢ ،
 ربي بن عامر : ١٠٦ ، ١٠٧ ،
 الربيع بن زياد الحارثي : ١٨٤ ،
 ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب : ٢٦ ،
 الرجعية : ٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٦١ ،
 الردة : ٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٣٢ ،
 ٦٠ ، ٦١ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،
 ١٧٦ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٢٠٧ ،
 ٢٢٩ ،
 رستم (قائد جيش الفرس) : ٩٢ ، ٩٤ ،

(س)

- سارية بن زعيم الكناني : ١١٤ .
 سالم بن ثعلبة القيسي : ٢٦٢ ، ٢٦٤ .
 سالم بن عبد الله بن عمر : ١٧٩ .
 سالم مولى أبي حذيفة : ٣٤ .
 السبيعي : ٥٣ ، ٥٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ،
 ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ .
 ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٦٥ ،
 ٢٦٦ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ،
 ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،
 سيرة الجهمي : ٢٥٠ .
 سبيح بن يزيد الأنصاري : ٢٩٤ .
 سجاح بنت الحارث : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ،
 ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٠ .
 السرايا : ١٥٧ .
 السري بن يحيى : ٢٢٩ .
 سعد بن أبي وقاص : ٤٦ ، ٩٢ ، ٩٥ ،
 ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،
 ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
 ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١١ ،
 ١١٣ ، ١٦٤ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،
 ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،
 ٢٠١ ، ٢٢٣ ، ٢٤٧ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠٢ ، ٣٠٦ .
 سعد بن زيد بن مالك : ٢٥ ، ١٦٤ ،
 ٢٠١ ، ٢٦٠ .
 سعد بن حذيم : ١٦٥ .
 سعيد بن عبادة : ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٣ ،
 ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٥ ، ٤٨ ،
 سعيد بن عبيد القاري : ١٠٣ :
 سعيد بن مسعود الثقفي : ٢٨٤ .
 سعيد بن زيد : ٤٩ .
 سعيد بن العاص : ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٢٥ ،
 ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٦٧ ،
 سعيد بن قيس الهذلي : ٢٧٦ ،
 ٢٩٣ .

- ١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٦ ،
 ١٦٤ ، ١٧٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،
 ١٩١ ، ٢١١ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ،
 ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ،
 ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ،
 ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ،
 ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٨٥ ،
 ٣٠٠ ، ٣١١ .
 الزرادشتية : ١٦١ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
 ١٧٢ ، ٢١٧ .
 الزكاة : ٤٧ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ١٨٤ ،
 ٢١٩ .
 زهرة : ١٠٥ ، ١٠٦ .
 زهير بن أبي سلمى : ١٨٢ .
 زياد بن أبي سفيان : ٢٧٣ ، ٣١٣ .
 زياد بن حنظلة التميمي : ٢٥١ ،
 ٢٥٢ .
 زيد بن النضر الحارثي : ٢٤٠ ، ٢٤١ ،
 ٢٨٤ .
 زيد بن أرقم : ٢٣٤ ، ٢٢٥ .
 زيد بن ثابت : ١٠ ، ٥٣ ، ٢٢٦ ،
 ٢٤٧ ، ٢٥٧ .
 زيد بن حصين الطائي : ٢٩٠ ،
 ٣٠٣ .
 زيد الخير : ٢٣ .
 زيد الخيل : ٢٣ .
 زيد بن صوحان العبدى : ٢٤٠ ، ٢٥٦ ،
 ٢٦٠ .
 يدر بن عمر : ١٨ : ٣٠ .
 زينب ابنة مظاهر : ١٨٣ .
 زينب رسول الله : ٣١٢ .
 زينب الصغرى (بنت علي بن أبي طالب) :
 ٣١٢ .
 زينب الكبرى (بنت علي بن أبي طالب) :
 ٣١١ .
 زينب بنت عمر : ١٨٣ .

١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٩ ،
٢٤٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ،
شيخ المسلمين : أبو بكر الصديق .
الشعبة : ٤٣ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٨ ،
٢٩٣ ، ٢٩٠ ، ٢٤٤ ، ٥٩ ،
٢٩٥ ، ٣٢٠ .

(ص)

الصحابة : ٤٤ ، ٧١ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ،
٢٠٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣٥ ، ٢٢٦ ،
٢٤٣ ، ٢٦٧ ، ٣٠٤ ،
الصحف : ٢٢٦ ،
صخر بن عمر بن عامر بن كعب بن صخر :
٣ ،
الصديق : أبو بكر .
صريح (ولد إسماعيل) : ١٨ ،
صعدة بن هميرة بن أبي وهب :
٣١٨ ،
صفرونيوس (البطريق) : ١٢٣ ،
١٢٧ ،
الصلب : ٧٧ ، ٧٨ ، ١٢٥ ،
الصلب الأعظم : ١٢٥ ،
الصلاة : ٢٧ ، ٦٥ ، ٨٤ ، ٩١ ، ١٢٣ ،
١٦٢ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٣٠٧ ،
٣١٩ ،
صلاة التراويح : ١٨٠ ،
صلاة الجمعة : ١١١ ،
صلاة الفتح : ٢٤ ، ١٠٤ ،
الصلاة في السفر : ٢٣٨ ،
صلاة المقيم : ٢٢٥ ،
صهيب الرومي : ١٦٤ ،
صهيب بن سنان : ٢٤٧ ،
(ض)
الضحاك بن خليفة : ١٦ ،
ضرار بن خرة : ٣١٤ .

سعيد بن المسيب : ١٨١ ،
السفراء : ٢٨٨ ، ٢٨٩ ،
سفيان الثوري : ٨ ،
السكون : قبيلة السكون .
سلمان بن ربيعة الباهلي : ٢١٠ ،
سلمان الفارسي : ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ،
١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
سلة بن سلامة بن وقش : ٢٤٧ ،
سلمى أم أبي بكر : ٣ ، ٤ ،
السنة النبوة : ٤٣ ، ١٦١ ، ١٨٤ ،
١٩١ ، ٢٤٣ ، ١٧٩ ، ٣٠٣ ،
٣٠٩ ، ٣٢٠ ،
سهل بن حنيف : ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٨٣ ،
٣١٣ ،
سهيل بن عدي : ١١٤ ،
سودان بن حزن السكوني : ٢٤٠ ،
سليمان بن صرحان : ٢٥٧ ،
صيف بن عمر التميمي : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
شاهنشاه : أروشير بن بابل ،
شبت بن ربي : ٢٥٦ ، ٢٧٦ ، ٢٨٨ ،
٢٨٩ ،
شرجيل بن حسنة : ٦٨ ، ٨٦ ،
٨٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ٢٠١ ،
٢٠٤ ، ٢١٤ ،
شرحيل بن السمط : ٣٠٥ ،
شريح بن أوى : ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،
شريح بن هاني : ٣٨٤ ،
الصريعة : ٦٥ ، ٦٩ ، ١١٦ ، ١٧٥ ،
١٨٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ،
الشعر والشعراء : ١٨٢ ،
شعب بن إبراهيم : ٢٢٩ ،
شقيق بن ثور : ٢٦٥ ،
شهر بن بازام : ٦٢ ،
الشوري : ٤٢ ، ٤٤ ، ٥١ ، ٥٢ ،
١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،

(ط)

طاق كسرى : ١٠٤ .

الطبرى : ١٥٦ ، ١٧٧ ، ١٨٣ ، ١٩٢ ،

١٩٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،

٢٣٢ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٩ ،

٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ،

٢٩٣ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ،

الطبقية : ٦٧ ، ٢٢٩ ، ٣٠٤ .

طريف بن حاجز : ٦٨ .

طاعة بن عبيد الله : ١٦ ، ٤٦ ، ٩٦ ،

١٦٤ ، ١٨١ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ،

٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ،

٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ،

٢٦٦ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٥ ، ٣٠٠ ،

٣٠١ ، ٣١١ .

طليحة بن خويلد الأسدي : ٦٦ ، ٦٧ ،

٦٩ ، ٨٣ ، ٢٤٩ .

طه حسين : ٢٣٦ .

طى : ٢٣ .

(ظ)

ظفرأ : ٢٥٣ .

(ع)

عائشة (أم المؤمنين) : ٣ ، ٤ ، ٧٤٥ ،

٩ ، ٣٣ ، ٣١ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧ ،

١٨٣ ، ١٨٩ ، ٢٤١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ،

٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ،

٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٣٠٠ .

العاص بن وائل السهمي : ٨٩ .

عاصم بن عمرو : ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،

١١٤ ، ١٨٣ .

عام الفيل : ٢٠٩ .

العبادة : ٢٦٥ .

عبادة بن الصامت : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،

٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

العباس بن عبد المطلب : ٣٦ ، ٤٥ ، ٤٧ ،

٩٦ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢١١ .

العباس بن السكلاية : ٣١١ ، ٣١٣ .

عبد الرحمن بن أبي بكر : ٩٠٥ ، ١٩٨ ،

٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٤٦ .

عبد الرحمن الأصغر بن : ١٨٣ .

عبد الرحمن الأكبر بن عمر : ١٨٣ .

عبد الرحمن الأوسط بن عمر : ١٨٣ .

عبد الرحمن بن خالد الخرومي : ٢٩٤ .

عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي : ٢١١ .

عبد الرحمن بن عديس البلوي : ٢٤٠ ،

٢٤٣ .

عبد الرحمن بن عون : ١٠ ، ٤٦ ، ٩٦ ،

١٦٤ ، ١٧٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،

١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،

١٩٨ .

عبد الرحمن بن يثوث الزهوي : ٢٩٩ .

عبد القيس : ٢٣ .

عبد عمي : ١٩٠ .

عبد العاطف البغدادي : ١٤٦ .

عبد الله بن أبي : ٢٠٦ .

عبد الله بن أبي بن بكر : ٥ ، ٩ .

عبد الله بن أبي بن سلول : ١٨ ، ١٩ .

عبد الله بن بديل بن ورقا الخزاعي : ٢٦٨ ،

عبد الله بن الأحم : ٢٤٠ ، ٢٤١ ،

عبد الله بن جعفر بن أبي طالب : ٢٦٧ ،

عبد الله بن الحارث بن هشام : ٢٢٦ ،

عبد الله بن ربيعة : ١٩٦ .

عبد الله بن سبأ اليهودي : ٥٨ ، ٢١٩ ،

٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٦٣ ،

٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠٧ ،

٣٠٨ .

عبد الله بن سعد بن أبي سرح : ٢٥٧ ،

٢٥٩ ، ٢٩٦ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٢٢٠ ،

٢٢٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٧٨ ، ٣٠٩ .

عبد الله بن سلام : ٢٤٧ ، ٢٥٤ .

عبد الله بن الطاقيل العامري .

عبد الله بن عامر : ٢١٢ ، ٢١٩ ، ٢٢٤ ،

٢٤١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٦
٢٤٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢
٢٥٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥٠ ، ٢٤٩ ، ٢٤٨
٢٦٣ ، ٢٦١ ، ٢٦٠ ، ٢٥٥ ، ٢٥٤
٢٧٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧١ ، ٢٦٩
٢٨١ ، ٢٨٠ ، ٢٧٨ ، ٢٧٧ ، ٢٧٦
٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠١
٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩

٣١١

عثمان (بن علي بن أبي طالب) : ٣٢٢
عدي بن حاتم : ٨٠ ، ١٦٥ ، ٣٦٠ ،
٣٦٢ ، ٢٦٤
عرفجة بن هرثة : ٦٨
عروة بن الزبير : ٨
المروة الوثني : ١٧
عصمة بن عبد الله الضبي : ٩٣
عطارد بن حاجب التميمي : ٢١
عقبة بن أبي معيط : ٨
عقبة بن زباد الحضرمي : ٢٩٥
عكرمة بن أبي جهل : ٦٨
علياء بن المهيم : ٢٦٢ ، ٢٦٤
علقمة بن يزيد الانصاري : ٢٩٤
علوج : ٢٨٦

الملاء بن الحضرمي : ٢٣ ، ٦٨ ، ٧٩ ،
١١٣

علي بن أبي طالب : ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٥ ،
١٧ ، ٢٨ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ،
٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦١ ،
٩٦ ، ١٦٤ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ،
١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٨ ،
٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ،
٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ،
٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ،
٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٦ ، ٢٧٢ ،
٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٧٢ ، ٢٨٣ ،
٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ،

٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،
عبد الله بن عباس : ١٧٤ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ،
١٨٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ ،
٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ،
٣٠٢ ، ٣١٣

عبد الله بن عثمان : أبو بكر الصديق .
عبد الله بن علي بن أبي طالب : ٣١٤ .
عبد الله بن عمر : ١٦٦ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ،
١٨٨ ، ١٩٦ ، ٢٩٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ،
عبد الله بن عمرو : ٨

عبد الله بن قيس : ٢٥٦ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ،
عبد الله بن مجلي المجلي : ٢٩٣
عبد الله بن مسعود : ٢٢٤
عبد الملك : ٢٦١ ، ٢٧٢
عبد الله بن وهب : ٣٠٣

عبس : قبيلة عيسى
عبد الله بن سعيد الزهري
عبد الله (ابن علي بن أبي طالب) : ٣١٢
عبيد الله عمر : ١٨٣ ، ١٩٧ ، ١٩٧ ،
١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢

عبيد الله بن معمر : ٢١١
عتاب بن أسيد : ١٤
عتبة بن غروان (أمير الأبله) : ١١٣
عتقي : أبو بكر الصديق
عثمان بن أبي العاص : ١١٤ ، ٢٢٤

عثمان بن حنيف : ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٧٢ ،
عثمان بن طلحة : ١٣ ، ١٤

عثمان بن عفان : ١٠ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٨ ،
٩٦ ، ١١٥ ، ١٢٩ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ،
١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،
١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ،
٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ،
٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،
٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،

عمر بن الأصم : ٢٤١ -

عمرو بن العاص : ٢٤ ، ٢٥ ، ٦٨ ، ٨٦ -

٨٣ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ -

١٣٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ -

١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ -

١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ -

١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ -

١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٨٣ ، ١٨٩ -

٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٣١ -

٢٧٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ -

٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ -

٣٠٢ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٦ -

عمرو بن عبد المسيح : ٨١ -

عمرو بن معد : ٩٧ ، ١٧٥ -

عباس بن غنم : ٨٠ ، ٨٥ -

عبد الفصح : ١٤١ -

عيسى بن مريم : ٢١٩ ، ٣١٠ -

عميلة الأسود : ٦٢ -

(ع)

الغافقي بن حرب المكي : ٢٤٠ -

(ف)

فاطمة بنت الرسول : ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٤ -

٥٤ ، ٥٧ ، ٢٨٣ ، ٣٥٤ ، ٣١١ -

فاطمة بنت علي : ٣١٢ -

فاطمة بنت عمر : ١٨٣ -

العتنة : ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ -

٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ -

٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ -

٢٤٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ -

٢٧٣ ، ٢٧٢ ، ٢٨٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ -

٣٩٨ ، ٣٩٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ -

٣١١ ، ٣٢٠ -

الفرد بئر : بئر

فضالة بن عبيد : ٢٤٧ -

فكيمة (زوجة عمر) : ١٨٢ -

قيروز أبو لؤلؤة : أبو لؤلؤة -

٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ -

٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣١٥ -

٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ -

الغاديان بن الهرمزي : ١٩٨ -

عمار بن ياسر : ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٣٨ -

٢٤٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ -

٢٦٧ ، ٢٦٨ -

عمارة بن شهاب : ٢٤٨ ، ٢٤٩ -

عمر بن بكر التميمي : ٣١٦ -

عمر بن جرموز : ٢٧٠ -

عمر بن حريث : ٤٩ -

عمر بن الخطاب : ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١٢ -

٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٣ ، ٣٦ -

٣٧ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ -

٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٨ -

٦٤ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٤ -

٨٥ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ -

٩٣ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ -

١٢١ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٨ -

١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ -

١٣١ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٥ ، ١٤٦ -

١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٨ ، ١٦٠ -

١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ -

١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ -

١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ -

١٩٧ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ -

١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ -

١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٧ ، ١٩٤ ، ١٩٧ -

١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ -

٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ -

٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ -

٢٣٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ -

عمرو بن سفيان : ٢٩٤ -

عمر (بن علي بن أبي طالب) : ٣١٢ -

٣١٣ -

(ق)

- قبيلة : ٢٥٠ .
 قبيلة ذبيان : ٦٦ .
 قبيلة السكون : ٦٦ .
 قبيلة كلب : ١٦٩ ، ١٨١ ، ٣١٢ .
 فتيرة بن فلان السكوتى : ٢٤٠ .
 قبيلة بنت عبد العزيز (زوجة أبي بكر بن
 الجاهلية) : ٥ .
 قثم بن العباس : ٢٥٢ ، ٢٦٨ .
 القرآن الكريم : ٢٤ ، ٢٦ ، ٤٤ ، ٦٨ ،
 ٦٩ ، ٩١ ، ٩٨ ، ٢٠٢ ، ١٢٥ ، ١٦١ ،
 ١٦٢ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ٢٠٧ ،
 ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ،
 ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٨ ، ٢٦١ ، ٢٤٤ ،
 ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ،
 ٢٧٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ،
 ٢٩٣ ، ٢٩٣ ، ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ،
 ٣٠٩ ، ٣١٩ .
 قريية بنت أمية المخزومي : ١٨٣ .
 فدانة بن مظلوم : ٢٤٧ .
 القساوسة : ١٢١ .
 قسطنطين بن هرقل : ٢٢٠ .
 قضاة : ٦٨ .
 القضاة بن عمرو : ٢٢٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٧ ،
 ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ .
 القومية : ٢٢ ، ٢٢ ، ٤٠ ، ٧٥ .
 قيس : ١٢١ ، ١٣٣ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ،
 ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ،
 ١٥٤ .
 قيس بن سعد : ٥٤٨ ، ٤٤٩ ، ٢٦٨ ،
 ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ،
 ٢٨٤ .
 قيصر : ٦ ، ٧٤ ، ٨٦ .

(ك)

- كتاب الله : القرآن الكريم .
 الكتب المقدسة : ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٣ ،
 ٢٠٩ .

- كسرى (أنوشروان) : ٦ ، ٧٢ ، ٧٤ ،
 ٧٨ ، ٧٢ ، ٩٤ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٧٠ ،
 ١٧١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ .
 كتب الأخبار : ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ،
 ٢٢١ ، ٢٢٢ .
 كتب بن عجرة : ٢٤٧ .
 كتب بن مالك : ٢٤٧ .
 كتابة بنت يسر الليثي : ٢٤٠ .
 الكهان : ٢٤ ، ٦١ ، ٦٩ ، ١١٢ ،
 ١١٦ ، ١٦٣ ، ١٨١ ، ١٧٢ ،
 الكهانة : ٢٥ ، ٦٠ ، ٦٩ ، ١٠٩ ،
 الكهنة : الكهان .
 كورش : ١٤٩ .

(ل)

- الله :
 ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٥٣ ،
 ٧٥ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ ،
 ٧٦ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ،
 ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٠ ،
 ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ،
 ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٩ ،
 ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ،
 ١٤١ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،
 ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،
 ١٥٩ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،
 ١٩٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
 ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،
 ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ،
 ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،
 ٢٠١ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٤٤ ،
 الليث بن سعد : ٤ ، ١٦٣ .
 الهية اليمنية (زوجة عمر) : ١٨٣ .
 لوانة : ١٥٨ .
 ليل ابنة مسعود الخنظلية (زوجة علي بن أبي
 طالب) : ٣١٢ .
 لامانس : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ .

(م)

حارية (أم إبراهيم بن رسول الله) : ٣١٠ .

حاشيه (هنري) : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ .

مالك بن كعب الهمداني : ٢٩٤ .

مالك بن نويرة : ٦٧ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٥ .

الماثوية : ١٧١ ، ٢١٧ .

ماني : ١٧١ : ١٧٥ .

المنشي بن حارثة : ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ .

٨٥ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ .

١٠١ .

مهاشم بن مسعود : ١١٤ .

المجتمع الإسلامي : ٦٠ ، ٦١ ، ٧٠ .

٧٢ ، ٣٠٤ ، ٢٨٢ ، ١٧٠ .

مجلس الشورى : ١١٤ ، ١٢٨ ، ٢٩٩ .

المجوسية : ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧١ .

محمد الأصغر (بن علي بن أبي طالب) :

٣١٣ .

محمد الأكبر (بن أبي طالب) المسمى

محمد بن الحنفية : ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٦٧ .

٣١٨ .

محمد الأوسط (بن علي بن أبي طالب)

٣١٢ .

محمد بن أبي بكر : ٩ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ .

٢٤٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٨٣ .

محمد بن حذيفة : ٢٨٧ .

محمد بن الحنفية (محمد الأكبر بن أبي

طالب)

محمد بن طائفة : ٢٨١ .

محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم :

٦ ، ٩ ، ١٢ ، ١٤ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ .

٣٧ ، ٤٠ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٩ ، ٧٠ .

٧٢ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١١٨ .

١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧٤ .

٢٩٠ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢٧٩ .

٣٠٢ ، ٢٠٥ .

محمد بن مسلمة الأنصاري : ١٥ ، ٢٧٧ .

حياة ابة امرئي القيس : ٣١٢ .

الحارث بن الحارث الزبيدي : ٢٩٤ .

الحنار بن عبيد : ٩١ ، ٢٨٤ ، ٣١٢ .

المرتدين : ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ٧٧ .

٧٩ .

مروان بن الحكم : ٢٢٠ ، ٢٤٢ ، ٢٧١ .

٢٧٣ ، ٢٠٨ ، ٣١١ .

مردك : ٧٣ ، ١٧١ .

المزدكية : ١٧٠ ، ١٧٢ ، ٢١٧ .

المستشوقون : ٥٨ ، ٧٣ ، ١٥١ ، ١٥٢ .

١٦١ .

المسروق بن الأجدع : ٢٥٥ .

مسعر بن مذكى : ٢٩٥ .

المسعودي : ٩ ، ٢٤٣ ، ٢٦٨ ، ٢٦٦ .

٢٨٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

٢٨٣ ، ٣١٥ .

المسلمون : ٩ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ .

٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ .

٤٨ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ .

٥٨ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧١ .

٧٢ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ .

٨٢ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ .

٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٤ .

١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤ .

١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ .

١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٥ .

١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٥ .

١٤٨ ، ١٥٧ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٤٨ .

١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٨٢ ، ١٨٥ .

مقل بن قيس الرياحي : ٢٩٥
 ممن بن يزيد بن الأحنس : ٣٠٥
 المغيرة بن زرارمة : ٩٨ ، ١١٠ .
 المغيرة بن شعبة : ٧٤ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،
 ١٧٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ٢٠٢ ،
 ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،
 ٢٩٩ .
 المقداد بن الأسود : ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،
 ١٩٦ ، ٢٢٥ .
 المقرئ : ١٤٦ ، ١٥٦
 المقوقس : ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ،
 ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ،
 ١٤٩ ، ١٥٢
 الملائكة : ٤٣
 الملل : ١٦٣ ، ٢١٧
 ملكة بنت جرواح الخراسي : ١٨٣
 المنذر بن ماء السماء : ٩٩
 المهاجر بن أبي أمية — ٦٨
 المهاجرين ٨ ، ٩ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ،
 ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ،
 ٤٣ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ،
 ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ،
 ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ،
 ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٦٧ .
 مهران : ٧٣ ، ٩٤
 مرقع ابن السوداء : ٢٦٤
 مؤخر المسجد : المسجد .
 الموالى : ٥٣ ، ١١٦ .
 موسى بن عمران : ٣٠ .
 موسى بن عقبة .
 موسى عليه السلام : ١٥٠ ، ٢١٩ ، ٣١٠ ،
 المولى : ١٦٧ .
 ميمونة (بنت علي بن أبي طالب) : ٣١٢ .
 النبوة : ٢٤ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
 النبلاء : ١٧١ .

١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،
 ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ،
 ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٣ ،
 ١٢٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٥٦ ،
 ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٧ ،
 ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٣٠٤ .
 السور بن مخرمة : ١٨٩ .
 المسيح : ٧٧ ، ١٣٨ ، ١٤٩ ، ١٧٢ ،
 ٢١٧
 المسيحية : ٧٧ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٤ ،
 ١٤٠ ، ١٤٣ ، ٢١٧ .
 المسيحيين : ١٣١ ، ١٤٨ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ،
 ٢١٧ ، ٢١٥
 مسيلمة بن حبيب : ٢٤ ، ٦١ ، ٦٢ ،
 ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠
 المصاحف : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٤٤ ،
 ٢٨٩ ، ٢٨٧
 مصعب بن عمير : ٣٩
 مغازي بن حبل : ١٠ ، ٦٢
 معاوية بن أبي سفيان : ٥٠ ، ٨٦ ، ١١٨ ،
 ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٢ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ،
 ٢٠٠ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢٨١ ، ٢١٩ ،
 ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ،
 ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٤٢ ،
 ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٣ ، ٢٧١ ،
 ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،
 ١٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٣ ،
 ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ،
 ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ،
 ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ،
 ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ،
 معاوية بن حديج : ٩٧ ، ٢٨٣
 معبد الأسلمي : ٢٥٠
 المعتزلة : ٤٣
 المعراج : ١٦٢

(و)

الواقدي : ٢٧١ ، ٣١٢ ، ٣٢٠
وثيقة الحكم : ٢٩٢
الوحدة : ١١ ، ٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٣٢٠ ، ٣٠٠
الوحى : ١٧ ، ١٧٨ ، ١٩٧
الوزراء : ١٦ ،
الوليد بن عقبة : ٢١٠ ، ٢٤٤ ،

(ى)

يحيى (بن طلى بن أبى طالب) : ٣١٢ ، ٣٢٥
يحيى بن معين : ٢٩٧
يرقا : ١٥٨
يزيد بن شهر يار : ٧٩ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ٢٠٥ ، ٢١١
يزيد بن أبى سفيان : ١١٠ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ٢٩٤
يزيد بن الحارث : ٢٨٠
يزيد بن حجة النخعي : ٢٩٤
يزيد بن الحر المبيى : ٢٩٤
يزيد بن عمرو العذرى : ٢٩٤
يز بن قيس الأرحى : ٢٣٧ ، ٢٦٠
يسقوب عليه السلام : ٣٢٧ ، ٣١٠
اليعقوبيون : ١٤٣
يعلى بن أمية : ٢٥٣
اليجانيون : ١١٢
اليهود : ٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٩ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٨٥ ، ٦٠ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٨٧ ، ١٢٣ ، ١٥٥ ، ١٦٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧
اليهودية المالكية : ٧٠ ، ٧٢ ، ١٦١ ، ٢٣
يوسف عليه السلام : ١٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٠
يوليوس قيصر : ١٤٩
اليوم الآخر يوم القيامة
يوم القيامة : ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١
يوم النحر : ١٧

٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ١٥١ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٨٩ ، ٢١٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٤١ ، ٢٦١ ، ٢٧٤ ، ٣٠٩

النصارى : ١٦٧ ، ١٨٦
نصر بن مزاحم : ٢٩٧
العمان بن بشير : ٢٤٧
العمان بن مقرن : ٩٧ ، ٩٨ ، ١١٥ ، ١٧٥

نفيسة بنت على بن أبى طالب : ١٦٢
نقيوس : ١٤٢

(هـ)

هاجر (أم اسماعيل عليه السلام) :
٣١٠

هارون : ١٥

هاشم بن عتبة : ١٢٠

الهجرة : ٦ ، ٩ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ٦٠ ، ٤٦ ، ٥٦ ، ٩٠ ، ١٩١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٥

الهدنة : ١٣٨ ، ١٥٤ ، ١٥٧

هرقل : ٧٧ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٣

هرمز : ٨٠

الهرهزان : ١٠٤ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١

هلال بن عفة : ١٠٢

هند بن عتبة : ١٨١ ، ١٨٢

هند بن عمرو : ٢٦٠

هزرى ماسه = ماسيه

الهيثم بن شهاب : ٢٦٠

الهيثم بن عدى الطائي : ٢٩٨

كشاف البلدان والأماكن

(١)

تجنادين : ١٢١ ، ١٢٢ ، ٢٠٤ ، ٢٨٩ .
 أذربيجان : ١٧٥ ، ٢١٠ .
 أذرح : ١٦ .
 الأردن : ٨٧ ، ١١٨ .
 الأرض المقدسة : ١٢٤ .
 أرمات : ١٠٢ .
 أرمينية : ٢٣ ، ٢١٠ ، ٢١٢ .
 أسبانيا : ١١٨ ، ٢١٦ .
 الأسكندرية : ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ،
 ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،
 ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ .
 ٢١٢ .
 آسيا : ٧٠ ، ٨٧ ، ١٤٠ ، ٢٠٤ ، ٢١٥ ،
 ٢٢١ .
 آسيا الوسطى : ١٧١ .
 أصبهان : ١٦٧ ، ١٧٥ .
 أفريقية : ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ١١٨ ،
 ١٥٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١٢ ، ٢١٥ .
 ٢٣٥ .
 أم ذفين : ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ .
 الامارة المصرية الاسلامية : ١٤٣ .
 الامراطورية الاسلامية : ٤٧ .
 الاناضول : ١٢٣ .
 انطاكية : ٨٦ ، ١٢٤ .
 الأهرام : ١٣٢ ، ١٣٣ .
 أوروبا : ٧٠ ، ٢٠٤ .
 أباصوفيا : ٢١٧ .
 إيطاليا : ١١٥ .
 أيق : ١٦ ، ٨٠ ، ١١١ ، ١١٣ ، ٢٤٩ .
 بيليا (القدس) : ١٢١ ، ١٢٢ .

(ب)

باب الأبواب : ٢١٢ ، ٢٢٥ .
 بابل : ١٠٣ ، ١٧١ .
 بابليون : ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٤١ ،
 ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ .
 باردسيا : ٨١ ، ٨٢ .
 بارق : ٦٧ .
 بايتقيا : ٨١ ، ٨٢ .
 البحر الأحمر : ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٥٧ .
 بحر الحزر (بحر قزوين) : ٢١١ .
 بحر الروم (البحر الأبيض) :
 ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ،
 ١٥٧ ، ٢٠٤ ، ٢١٢ .
 بحر الظلمات المحيط الأطلسي
 البحرين : ٦١ ، ٦٨ ، ٧٩ ، ١١٣ ،
 ٢٢٤ ، ٣١٣ .
 بحيرة طبرية : ٨٧ .
 بدر (موقعة) : ٢٠٩ ، ١٦٧ .
 برمة (بنطا بوليس) : ١٤٩ ، ١٩١ ، ٢١٠ .
 برطانيا : ١٧٩ .
 براخة (ماء بالقرب من نجد) : ٦٦ ،
 ١٦٣ .
 بزارة : ١٥٨ .
 البصرة : ١١١ ، ١١٤ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،
 ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٢٠ ، ٢٦٦ ، ٢٣٧ ،
 ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،
 ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،
 ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ،
 ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٣٠٢ ،
 ٣٠٤ ، ٣٠٨ ، ٣٢٣ .

٦٥ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٨١ ،
٨٦ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١١ ،
٢١٥ ، ٢١٤
الجنبدل : ٨٣
جولاء : ١١١
جولان : ٨٧
جيلات : ٢١١

(ح)

الحبشة : ٩ ، ٨٩ ، ١٤٨ ، ٢٠٩ ،
حديقة الأربكية : ١٣٠
حراء : ٣٢
الحجاز : ١٩ ، ٢٢ ، ٦٢ ، ٨٣ ، ١٨٣ ،
١٤٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٥٧ ، ٢٨١ ،
٣١٠
الحصن : حصن بابليون
حصن بابليون : ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،
١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،
١٥٤

حضر موت : ٦٢
الحفير : ٨٠
حلب : ٨٦
حلوان : ١١١
حمامات الاسكندرية : ١٤٦
حصص : ٨٦ ، ٨٧ ، ١٢٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،
١٧٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٥
حنين : ٣٩
الحيرة : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٩٢ ، ٩٣ ،
٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٣ ، ١١٤

(خ)

خراسات : ٢١١ ، ٢٤٤ ، ٢٨٤ ،
خربت : ٢٨٠ ، ٢٨٣
الخرز : ٢١٢
خلفيدونية : ١٢٥
خليج الزقاق : بوغاز جبل طارق
الخنوق : ١٧٠ ، ٢٠٧
خوارزم : ٢١١
خوزستان : ١١٥

بهرى : ٨٧ ، ٢١٧ ،
البطاح : ٦٧ ،
بطن الوادي : ١٢
بضاد : ١٠٤ ،
بلدس : ١٣٠ ، ١٣٣ ،
بلغ : ٢١١ ،
البلقاء : ٦٤ ،
بلنجر (إقليم) : ٢١١ ،
البهنسا : ١٣٢ ، ١٣٣ ،
بوغاز جبل طارق : ١٥٨ ،
الدوب : ٩٢ ،
بويط (أبويط) : ١٣٢ ، ١٣٣ ،
بئر أريس : ٢٢٧ ،
بيت جبرين : ١٢١ ،
بيت المقدس : ٧٧ ، ٧٨ ، ١٢٧ ،
بيروت : ١٢٠ ،
بيزنطة : ١٢٦ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ،
١٥٥ ، ٢١٧ ،
بيسان : ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١

(ت)

تبوك : ١٢ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ،
٢٧ ، ٥٦ ، ٧٠ ، ١٠٩ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ،
تركستان : ١١٥
تفليس : ٢١٢
تكريت : ٩٤ ،
الثل الكبير : ١٠٣

(ج)

الجاية : ١٢٧ ،
جبال حوران : ٨٧ ،
الجايزة : ١٨٠ ،
جيبيل : ١٢٠ ،
جرجان : ٢١١ ،
الجردان : ١٦٠ ،
جزر البحر الأبيض : ١١٨ ،
جزيرة الروضة : ١٣٤ ، ١٤١ ،
الجزيرة العربية : ٢٥ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ،

العرب : ٤ ، ٦ ، ٩ ، ٢٨ ، ٢٠ ، ٢٤٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٩ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨٥ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٨٣ ، ٢٩٥

عركة : ١٢٠

المربض : ١١٨ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٥١

عسقلان ٨٦ ، ١٢٢

عكا . ٨٦ ، ١٢٢

عماس ١٠٢

عين ٦٨ ، ٢٢٤ ، ٢٥٦

عمورية ١٦٩ ، ٢١٢

عين البحر ٣١٢

عين النمر ٨٣

(غ)

الغار ٥ ، ٢٧ ، ٣٧ ، ٤٤

غزة ٨٦ ، ٨٧ ، ١٢١ ، ١٢٢

غزوة بدر ٣٩ ، ٤٧

غزوة تبوك = تبوك

غزوة الخندق ٧١

غزوة المسرة ٥٦

القياسنة ٢٧ ، ٢٩ ، ٧٠ ، ٧١

(ف)

فارس ٦٣ ، ١٦ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١٦٧

١٦٧ ، ١٧١ ، ٧١٥ ، ١٨٤ ، ١٨٦

٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢٨٧

١٧٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩

شبه الجزيرة : الجزيرة العربية

الشرق الأدنى : ١٢١

شط العرب : ١١١ ، ١١٢

شيرة ٧٨

(ص)

صرار : ١٥٤

الصعيد : ١٥٤

صفين : ١٨٣ ، ١٩٩ ، ٢٧٣ ، ٢٨٠

٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩

٣٠٠ ، ٣٠٢

صنعاء : ١٣ ، ٢١٧

صور : ٨٦

صيدا : ١٢٠

الصين : ١١٤ ، ١١٧

(ط)

الطائف ٦٠ ، ٦٢ ، ١١٥ ، ٢٢٩

طبرستان ٢١٠ ، ٢١١

طبرية ٨٧ ، ١٢١

طخارستان ٢١١

طرابلس ١٥٨ ، ٢١٠ ، ٢١٢

(ع)

العجم : ١٩٨ ، ٢٠٠

العراق : ٦١ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٨٢ ، ٨٣

٩٦ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٠

١٤٨ ، ٢٠٦ ، ٢١٤ ، ٢٨٠ ، ٢٨١

٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧

٢٩٩ ، ٢٩٨

قریش : ٤٠٤ ، ١٣٠ ، ١٢٠ ، ٩٠ ، ٤٠
 ١٨ ، ٣٥ ، ٣٢ ، ٢٤ ، ٢٢ ، ٢٠ ، ١٨
 ٣٧ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٦٩ ،
 ٧٠ ، ٧٢ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ١٦٠ ، ١٨٥ ،
 ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢١٣ ، ٢٢٦ ، ٢٨٢ ،
 ٢٩٦ ، ٢٩٩ ،

القسططنطينية : ١٢٥ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ،
 ١٥٣

القطرم : ٧٦

القناة : ١٤٣ ، ١٤٨ .

القطر : ١٣٠ .

قهستان : ٢١١ .

القوقاز : ١٤٩ .

قيصرية : ١٢٧ ، ١٢٨ ،

(ك)

كربلاء : ٣١١ .

كرمان : ١١٤ .

الكعبة : ٩٠ ، ١٠٢ ، ٣١٠ .

كلدة : ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ١٠٤ .

الكنايس : ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،

كنيسة أياصوفيا : ١٢٦ .

كنيسة القيامة : ١٢٣ .

الكوفة : ١١٢ ، ١٧٥ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ،

٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧ ،

٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،

٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ،

٢٨٥ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ،

٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ،

٣١٣ ، ٣٠٨ .

الكوفتين : ٢٣٨ ، ٢٥٤ .

(ل)

ليبيا : ١٢٣ ، ١٤٨ ، ١٥٧ ،

(م)

ماء الجواب : ٢٦٠ .

مجدول (مدينة) : ١٣٠ .

فاسيس ١٤٩

فتح الفتوح = موقعة نهاوند

فحل ١٢٠

الفرات : ٨٠ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١١٢ ،

٢٨٥ ، ٢٥٦

فرات بادقلى ٨٢

الفرس : ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٢ ،

٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ،

٨٠ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ،

٩٥ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٤ ،

١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ،

١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ،

١٤٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٧ ،

١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ،

٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،

٢١٧ ، ٢٣٦ ، ٣٠٨

الفرما : ١١٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ ،

١٥١ ، ١٥٠

الفرنج : ١١٧

فرنسا ١١٥

القساط : ١٤٣ ، ٢١٢ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،

٦٤ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١١٨ ،

١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،

١٥٠ ، ١٥١ ، ٢١٠ ، ٢٣٥ ، ٢٨٧ ،

فوكاس ٧٧

الفيزان : ٩٤ ، ١٠٤

الفيوم : ١٣١ ، ١٣٣

(ق)

القادسية : ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،

١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١١٣ ،

قبا ١٦٩

قبرص (جزيرة) : ٢١٢

القبط : ١٣٠ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ،

١٥٥ ، ١٥٦

القبط ١٤٩

قديد ٢٥

٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١
 ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٦ ، ٣١١
 مصر القديمة : ١٣٩
 مصر الوسطى : ١٥٤
 المصريون : ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٤٩
 ١٥٢ ، ١٥٩ ، ٢١٥
 المغرب الإسلامي : ١١٥ ، ٢١٢
 المغرب الأقصى : ١١٨
 مكتبة الإسكندرية : ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧
 ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٣
 مكتبة السراييوم : ١٤٧
 مكتبة المتحف : ١٤٧
 مكران : ١١٤
 مكة : ١٢ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٦
 ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ١٦١
 ١٦٢ ، ١٦٩ ، ٢٢٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٧
 ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٩٧
 ٣٠٢
 ممفيس = منفيس
 المناذرة : ٧٠
 مناة : ٢٥
 منفيس : ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٢
 ١٥٠
 منى : ٢٢٥
 الموصل : ١٦٨ ، ٢٠٤ ، ٢٨٥
 موقعة البويب : ٢٩
 موقعة الجسر : ٩٢
 موقعة الجمل : ٢٥٢ ، ٢٨٠
 موقعة عين شمس : ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٥٢
 موقعة نهاوند : ١١٥
 ميسان : ١٠١

(ن)

نابلس : ١٢٢

المحيط الأطلسي : ١١٨ ، ١٥٧
 المحيط الهندي : ٩١٤
 الدائن : ٧٨ ، ٦٤ ، ٩٨ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٣
 ٢٨٤
 المدينة : ١٥ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٩١
 ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢٢ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٨٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣١٢
 مذبح : ٦١ ، ٦٢ ، ٧٠ ، ٩٧
 المرازية : ٨٢
 مرو الروذ : ١١١
 المروحة : ٩٢
 المستعمرات : ١٨ ، ١٩ ، ١٧٦
 المسجد الجامع : ٦ ، ١٤ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤٥ ، ٥٦ ، ٨٤ ، ١٧٥ ، ١٨٦
 ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٤٦ ، ٢٥٥ ، ٢٧١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٧
 المسجد الحرام : ٢٥٢
 مسجد الفتح : ١٣
 مسجد الكوفة : ٢٥٨
 مسجد النبي : ٢٥٥
 مصر : ٧٣ ، ٧٨ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١١

وادی القرى : ١٦٩
 وادی النيل : ١١٨ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ،
 ١٤١ ، ١٣٣
 الداتوصة : ٨٧
 وقعة الجبل (أنظر أيضاً « الجبل » ،
 « أصحاب الجبل ») : ٢٥٩ ، ٢٧١ ،
 ٢٧٢ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤
 وقعة صفين : ٢٩٧
 الوجلة : ٨٢٠
 الولايات المتحدة : ١٧٩
 الوئال : ١٦٠

(ى)

ياقا : ٨٦ ، ١٢٢
 يترب : ١٨ ، ١٩ ، ٤١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
 اليرموك : ٨٨ ، ٩٥ ، ١١٩ ، ١٢١ ،
 ٢٠٤
 يكرب : ٩٧
 اليمامة : ٢٤ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ،
 ٧١ ، ٢٢٦
 اليمين : ٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٦ ،
 ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٦ ، ٢٠٦ ، ٢١٤ ،
 ٢٢٥ ، ٢٤٨ ، ٣١٣
 اليونان : ١٦٢

نجد : ٢٢ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٩
 النجف : ٢٨٥
 النخيلة : ٢٧٧ ، ٢٨٤
 نسا : ١١٤
 نصيبين : ١٦٩
 النوبة : ١٥٦
 نهاوند (أنظر أيضاً موقعة نهاوند) :
 ١٠٤ ، ١١٥ ، ١٧٤ ، ٢٨٩
 النهر = نهر النيل
 نهر الأردن : ٨٧
 نهر الفرات (أنظر أيضاً الفرات) : ٧٩ ،
 ٩٢

نهر التني : ٨٢
 نهر النيل : ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ،
 ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٥٤
 ١٥٨ ، ١٥٩
 نهر اليرموك : ٨٧
 نيسابور : ٢١١
 النيل = نهر النيل

(ه)

هوزان : ٦٨ ، ٩٦ ، ١١٤
 هليوبوليس : ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤
 الهند : ١١٨ ، ١٦٢ ، ١٧١

(و)

وادی السباع : ٢٧٠ ، ٢٧١

مصادر الكتاب

١ - المصادر العربية

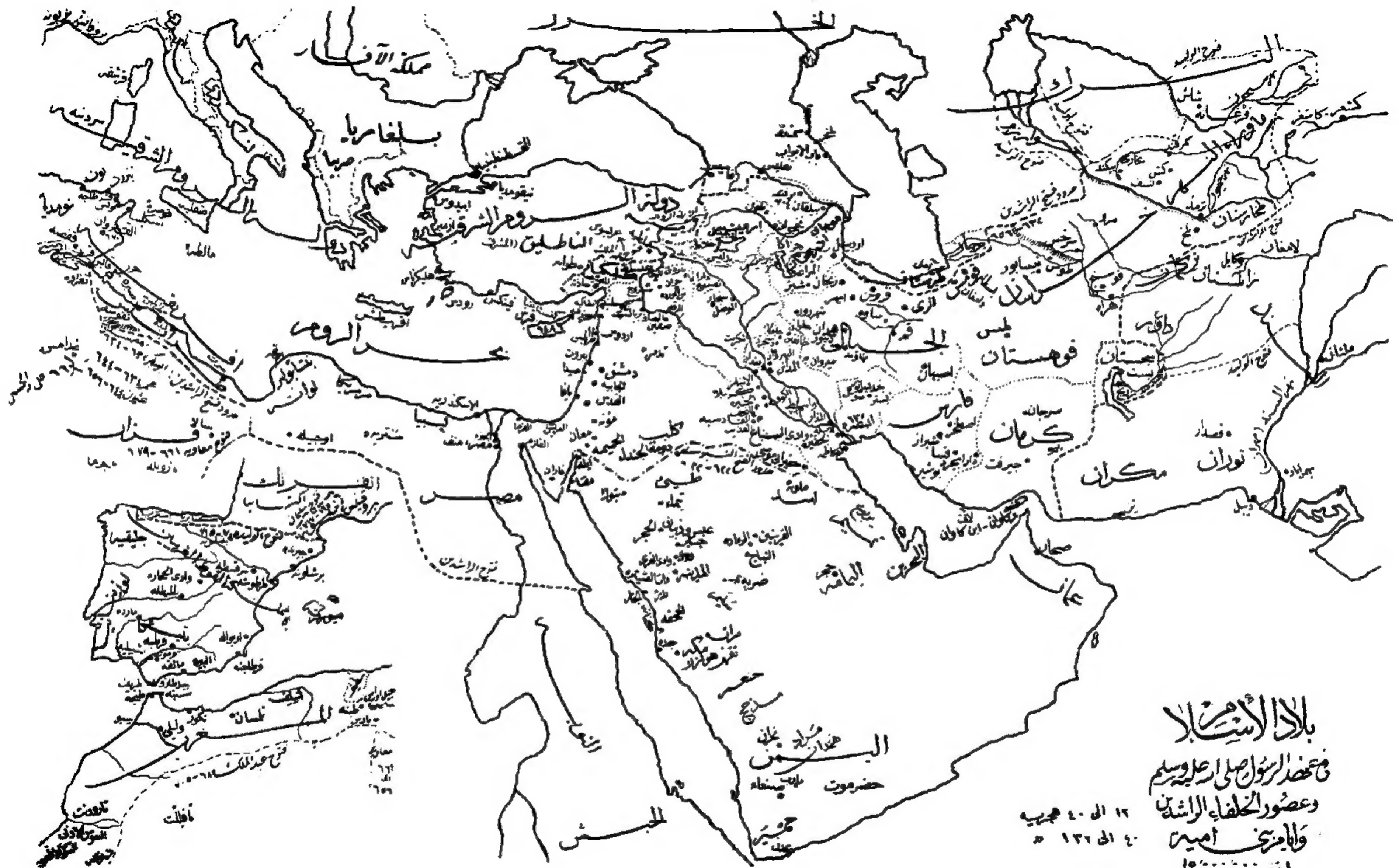
(١) القرآن الكريم

- | | |
|--|-----------------------------|
| تيسير الوصول إلى « جامع الأصول » | لابن الديبع الزبيدي اليماني |
| كتاب الإصابة في تمييز الصحابة | لابن حجر العسقلاني |
| « تاريخ الرسل والملوك » | لابن جرير الطبري |
| « الكامل في التاريخ - أسد الغاية » | لابن الأثير |
| « مروج الذهب » | لأبي الحسن المسعودي |
| « الطبقات الكبرى » | لابن سعد |
| « العبر وديوان المبتدأ والخبر » | لعبد الرحمن بن خلدون |
| « البداية والنهاية » | لابن كثير الدمشقي |
| « تلذذة الحفاظ بميزان الاعتدال دون الإسلام لشمس الدين الذهبي » | لابن كثير الدمشقي |
| « تهذيب الكمال » | لأبي الحجاج المزي |
| « وقعة صفين » | لابن مزاحم المنقري |
| « فتوح البلدان » | لأبي الحسن البلاذري |
| « الإدارة الإسلامية » | للأستاذ محمد كرد علي |
| « محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية » | للشيخ محمد الحضري |
| « الخلفاء الراشدون » | للشيخ عبد الوهاب النجار |
| « كتاب السيرة النبوية » بني البر » | لمحمد بن إسحاق |
| « معجم البلدان » | لياقوت الحموي الرومي |
| « مناقب عمر بن الخطاب » | لجمال الدين بن الجوزي |

| | |
|------------------------------------|-----------------------|
| كتاب صور وبحوث من التاريخ الإسلامى | عبد الحميد العبادى |
| « الفهرست | لابن النديم |
| « فتوح مصر | لابن عبد الحكم |
| « الأخبار الطوال | لأبى حنيفة الدينورى |
| « الفصل فى الملل والأهواء والنحل | لابن حزم |
| « وفيات الأعيان | لابن خلكان |
| « النجوم الزاهرة | لأبى المحاسن الأتابكى |

٢ - المصادر المعربة

| | |
|---|------------------------|
| كتاب مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى لسيد أمير على | |
| « تاريخ الشعوب الإسلامية | للمستشرق كارل بروكلمان |
| « العالم الإسلامى الحديث | للمستشرق لو ثروب |
| « حياة محمد | للمستشرق درمنغام |
| « فتح العرب لمصر | للدكتور بتلر |
| « تاريخ العالم | لوليم لانجر |
| « العالم والغرب | لأرنولد توينبى |
| « شروط النهضة | لمالك بن نبي |
| « تأملات فى المجتمع العربى | » |
| « السلطات فى الدولة | هارولد لاسكى |
| « حضارة العرب | جستان لوبون |
| « تاريخ العرب | للدكتور فيايب حطى |



بلاد الشام

في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم
وعصور الخلفاء الراشدين
والامويين

١٢ الى ٤٠ هـ
١٣٢ الى ٤٠٠ م



Bibliotheca Alexandrina



0396346

11/11/11